

# القِصَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الجزء الأول

الإمام الأكبر

الدكتور / محمد سيد طنطاوي

شيخ الأزهر



اسم الكتاب: القصة فى القرآن الكريم ( الجزء الأول)

اسم المؤلف: دكتور : محمد سيد طنطاوى

تاريخ النشر: طبعة أولى - نوفمبر ١٩٩٦

رقم الإيداع: ٩٦/١١٧١٠

الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0508 - X

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة

مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ١١

فاكس: ١١/٣٣٠٢٩٦

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة .

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥

فاكس: ٢/٥٩٠٣٣٩٥

ص.ب: ٩٦ الفجالة

ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عربى - المهندسين - القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٢/٣٤٧٢٨٦٤

فاكس: ٢/٣٤٦٢٥٧٦

ص.ب: ٢٠ امبابية

## فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
مميزات القصة فى القرآن الكرم	٤
أهداف القصة فى القرآن الكرم	٤
قصة آدم - عليه السلام -	١٤
استخلاف الله - تعالى - لآدم فى الأرض	١٦
سجود الملائكة لآدم وموقف إبليس منه	٢١
حديث القرآن عن إغواء إبليس لآدم - عليه السلام -	٢٩
بعض العبر والعظات من قصة آدم - عليه السلام -	٣٥
قصة ابنى آدم : هايبيل وقابيل	٤١
بعض العبر والعظات من قصة هايبيل وقابيل	٤٤
قصة إدريس - عليه السلام -	٤٧
قصة نوح - عليه السلام -	٥٩
جانب من العبر والعظات فى قصة نوح - عليه السلام -	٦٩
قصة هود - عليه السلام -	٧٥
جانب من العبر والعظات فى قصة هود - عليه السلام -	٨٧
قصة صالح - عليه السلام -	٨٩
جانب من العبر والعظات فى قصة صالح - عليه السلام -	١١٤
قصة إبراهيم - عليه السلام -	١١٧
هجرته إلى ربه وبشارته بابنه إسماعيل - عليه السلام -	١٥٢
بشارته بابنه إسحاق - عليه لسالم -	١٥٦

١٦٣	..... قصة بنائه للبيت الحرام .
١٦٨	..... ما يؤخذ من قصة إبراهيم من فضائل وأحكام .
١٩٤	..... قصة إسماعيل وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - .
٢٠١	..... قصة يوسف - عليه السلام - .
٢٠٧	..... كيد أخوة يوسف له وحقدهم عليه .
٢١٥	..... انتشال يوسف من الجب وبيعه بثمن بخس .
٢١٨	..... تعرضه للفتن بعد أن بلغ أشده .
٢٢٨	..... رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه .
٢٣٣	..... يوسف لم يشغله السجن عن الدعوة إلى الإخلاص .
٢٤٠	..... رؤيا الملك وتفسير يوسف لها .
٢٤٥	..... يوسف - عليه السلام - في مجلس الملك .
٢٥١	..... اللقاء الأول بين يوسف وإخوته .
٢٥٤	..... إخوة يوسف يحاورون أباهم في شأن سفر أخيهم إلى مصر .
٢٦٠	..... اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته ومعهم شقيقه .
٢٦٨	..... يعقوب يحرض أولاده على البحث عن يوسف وأخيه بنيامين .
٢٧١	..... اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته .
٢٧٥	..... لقاء يوسف بأهله أجمعين .
٢٧٧	..... ما يؤخذ من قصة يوسف من عظات وأحكام .
٢٨٢	..... قصة لوط - عليه السلام - مع قومه .
٣١٣	..... ما يؤخذ من هذه القصة من عظات .
٣١٦	..... قصة موسى وهارون - عليهما السلام - .

٣٤٧	إعداد موسى - عليه السلام - حمل الرسالة
٣٥٤	ذهاب موسى وهارون إلى فرعون
٣٥٨	محاوراتهما لفرعون
٣٧٥	محاورات فرعون مع السحرة
٣٨٥	محاورات موسى للسحرة
٣٨٨	إيمان السحرة وتهديد فرعون لهم
٤٠٢	اشتداد ظلم فرعون لبني إسرائيل
٤٠٩	نزول الكوارث بفرعون وقومه
٤٢٢	خروج بني إسرائيل من مصر
٤٣٧	موقف بني إسرائيل من موسى بعد غرق فرعون
٤٤٢	عصيان بني إسرائيل لنبيهم موسى
٤٤٨	عكوفهم على عبادة العجل في غيبته
٤٦٤	تعنتهم في الأسئلة ، وسوء أدبهم مع نبيهم
٤٧١	لقاء موسى مع العبد الصالح
٤٨٩	شوق موسى لرؤية ربه
٤٩٥	دروس وعظات من قصة موسى

## فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
قصة شعيب - عليه السلام -	٥
دروس وعظات من قصة شعيب	٢٦
قصة داود وسليمان - عليهما السلام -	٢٩
دروس من قصة داود - عليه السلام -	٤٨
جانب من قصة سليمان - عليه السلام -	٥٣
قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام -	٨٢
دروس من قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام -	١٠١
قصة أيوب ويونس والياس واليسع وذى الكفل - عليهم السلام -	١٠٣
قصة عيسى ابن مريم - عليه السلام -	١١٧
حديث القرآن عن ولادة مريم لعيسى - عليه السلام - وعن فضائله ومعجزاته	١٢٤
القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام -	١٦٢
موقف الحواريين من دعوة عيسى - عليه السلام -	١٧٤
كفر الذين نسبوا الألوهية أو النبوة إلى عيسى - عليه السلام -	١٩١
حديث القرآن عن أتباع عيسى - عليه السلام -	٢٠٦
موقف مشركى قريش من عيسى - عليه السلام -	٢١٤
بشارة عيسى بمحمد - ﷺ -	٢٢١
رفع الله - تعالى - لرسوله عيسى بن مريم	٢٢٤
دروس وعظات من قصة عيسى بن مريم	٢٣٥
قصة أصحاب الكهف	٢٣٨
العبر والعظات من هذه القصة	٢٦٤

الموضوع

الصفحة

٢٦٦	..... قصة صاحب الجنتين
٢٧٧	..... قصة ذى القرنين
٢٨٥	..... قصة سيل العرم
٢٩٢	..... قصة أصحاب القرية
٣٠٧	..... قصة أصحاب الجنة
٣١٠	..... قصة أصحاب الأخدود
٣١٧	..... قصة الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه
٣٢١	..... قصة العادين فى السبت
٣٢٨	..... قصة أصحاب الفيل
٣٣١	..... مسك الختام : حديث القرآن عن خير الأنام سيدنا محمد - ﷺ -
٣٣٢	..... البشارات به - ﷺ -
٣٤٠	..... إنعام الله - تعالى - على المؤمنين بالرسول - ﷺ -
٣٤٧	..... تفضيله على غيره - ﷺ -
٣٥١	..... وجوب طاعته ووجوب توقيره - ﷺ -
٣٦٠	..... عموم دعوته وختم رسالته - ﷺ -
٣٦٤	..... براهين صدقه - ﷺ -
٣٧١	..... وضوح شريعته - ﷺ -
٣٨٧	..... درء الشبهات عن رسالته - ﷺ -
٤١٣	..... تسليته وتشبيته - ﷺ -
٤٢٠	..... توجيهه وإرشاده - ﷺ -
٤٣٥	..... أزواجه - ﷺ - أمهات المؤمنين

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .. وبعد .

١ - فإن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى جانبا كبيرا من آياته وسوره ، قد اشتمل على قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وعلى قصص غيرهم من الأخيار أو الأشرار ..

يرى ذلك بصورة أكثر تفصيلا فى السور المكية ، التى كان نزولها قبل الهجرة ؛ لأنها - فى الأعم الأغلب - اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وعلى أن البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، حق وصدق .

وهذه الأدلة ساقتها السور المكية ، تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وتارة عن غير ذلك من الطرق الأخرى ، كالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى خلق الإنسان وغيره من سائر المخلوقات .

أما السور المدنية - وهى التى كان نزولها بعد الهجرة - فهى فى الأعم الأغلب اهتمت - بعد أن رسخت العقيدة السليمة فى قلوب المؤمنين - بتفصيل أحكام الشريعة العملية ، كالعبادات ، والمعاملات ، والحدود ، والعلاقات الاجتماعية ، وتنظيم شئون الدولة الإسلامية ، داخليا وخارجيا .

فمثلا من السور المكية التى اشتمل جانب كبير منها ، على قصص الأنبياء ، سور : الأعراف ويونس وهود ويوسف والشعراء والقصص والصفات .. الخ

٢ - والقصة فى كل زمان ومكان لها أثرها العميق فى النفوس ؛ لما فيها من عنصر التشويق ، وجوانب الاعتبار والاعتاظ ..

ولاتزال على رأس الوسائل التى دخل منها الهداة والمصلحون والقادة ، إلى قلوب الناس وعقولهم ، لكى يسلكوا الطريق القويم ، ويعتقوا الفضائل ، ويجتنبوا الرذائل ، ويسلموا وجوههم لله الواحد القهار .

ومن هنا ساق القرآن مساق من قصص يمتاز بسمو الغاية ، وشريف المقصد ، وصدق الكلمة والموضوع ، وتحرى الحقيقة بحيث لا تشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع ..

كما أن من مميزات قصص القرآن : اشتماله على طرق شتى فى التربية والتهذيب ، تارة عن طريق الحوار ، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار ، وطورا عن طريق التخويف والإنذار .

نرى ذلك - على سبيل المثال - فى قوله - تعالى - :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٌ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴿ هود ﴾

٣ - وللقصة فى القرآن الكريم أهداف سامية ، ومقاصد عالية ، وحكم متعددة ، من أهمها :

( أ ) بيان أن الرسل جميعا قد أرسلهم الله - تعالى : برسالة واحدة فى أصولها ، ألا وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وأداء التكليف التى كلف - سبحانه - خلقه بها . وقد وردت آيات كثيرة تدل على أن أول كلمة قالها كل رسول لقومه ، هى : أمرهم بعبادة الله - تعالى - ونهيهم عن عبادة أحد سواه .

فهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه - كما حكى القرآن عنه - :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ﴿ الأعراف : ٥٩ ﴾

وهذا هود - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ﴿ الأعراف : ٦٥ ﴾

وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ﴿ الأعراف : ٧٣ ﴾

وهذا شعب - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ﴿ الأعراف : ٨٥ ﴾

فهذه الجملة الكريمة حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لقومهم من إرشادات وهدايات .

أى : قالوا لهم بكل لطف وأدب : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فإنه هو المستحق للعبادة ، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

ويحكى القرآن الكريم هذا المعنى على لسان كل نبي فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) ﴿[الأنبياء: ٢٥]

أى: وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول آخر، إلا وأفهمناه عن طريق وحيننا، أنه لا إله يستحق العبادة والطاعة إلا أنا، فعليه أن يأمر قومه بذلك، وأن ينهاهم عن عبادة غيرى .

(ب) بيان أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأن ما اشتمل عليه هذا القرآن من قصص للسابقين، لا علم للرسول ﷺ به وإنما علمه بعد أن أوحاه الله - تعالى - إليه، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

استمع إلى القرآن وهو يقرر ذلك فى مواطن متعددة، فيقول فى أعقاب حديث طويل عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه: ﴿تَلَكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩) ﴿[هود: ٤٩]

أى: تلك القصة التى قصصناها عليك عن نوح وقومه من أخبار الغيب الماضية، التى لا يعلم دقائقها وتفصيلها أحد سوانا، ونحن نوحى إليك ونعرفك بها عن طريق وحيننا الصادق الأمين .

وهذه القصة وأمثالها ﴿ما كنت تعلمها﴾ أنت يا محمد، وما كان يعلمها قومك - أيضا - بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ﴿من قبل﴾ هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

ومادام الأمر كذلك ﴿فاصبر﴾ صبرا جميلا على تبليغ ما أمرك الله بتبليغه، كما صبر أخوك نوح من قبلك، واعلم أن العاقبة الحسنة للمتقين، الذين صابروا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى .

فالآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصد به الامتنان على النبى ﷺ كما قصد به الموعدة والتوجيه .

أما الامتنان فنراه فى قوله - سبحانه - : ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ وأما الموعدة فنراها فى قوله - تعالى - ﴿فَاصْبِرْ﴾

وأما التوجيه فنراه فى قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

وشبيهه بذلك ماقاله - سبحانه - فى أعقاب الحديث الطويل عن قصة يوسف - عليه السلام - مع أخوته ومع غيرهم قال - تعالى - : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف]

أى : ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد من قصة أخيك يوسف ، من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علما تاما شاملا إلا الله - تعالى - وحده ، ونحن ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونخبرك به ؛ لما فيه من العظات والعبر .

وأنت يا محمد ماكنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، وللاعتداء عليه ، وقد أخبرناك بذلك للاعتبار والاتعاظ . .

ونرى مثل هذا المعنى - أيضا - وهو الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وحده فيما قصه - سبحانه - علينا بعد حديث طويل عن جانب من قصة موسى - عليه السلام ، وعن جانب من قصة مريم . .

أما بالنسبة لقصة موسى - عليه السلام - فقد قال - سبحانه - :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤)  
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا  
وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا  
مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴿ [ القصة ]

أى : لم تكن يا محمد حاضرا وقت أن كلفنا أخاك موسى بحمل رسالتنا ، وكان ذلك عند الجانِبِ الغربى لجبل الطور - أيضا - من الشاهدين لما أوحيناه إليه ، ولكننا أخبرناك بذلك بعد أن خلت بينك وبين موسى أزمان طويلة ، ولم تكن - أيضا - مقيما فى أهل مدين وقت أن حدث ما حدث بين موسى - عليه السلام - وبين الشيخ الكبير وابنتيه من محاورات .

ولم تكن - كذلك - بجانب جبل الطور وقت أن نادينا أخاك موسى ، وأنزلنا إليه التوراة ؛ لتكون هداية ونورا لقومه . .

فالْمَقْصُودُ بهذه الآيات الكريمة : بيان أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وأن الرسول ﷺ لم يكن عالما بتلك الأحداث السابقة ، وإنما أخبره الله بها عن طريق قرآنه الكريم ، ووحيه الصادق الأمين .

وأما بالنسبة لقصة مريم ، فقد قال - سبحانه - خلالها :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ  
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٤) ﴿ [ آل عمران ]

أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك- يامحمد- فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران ، ومقاله زكريا ، ومقالته الملائكة لمريم .. ذلك كله من أخبار الغيب ، التى ماكنت تعلمها أنت ولاقومك ، وإنما الذى يعلمها هو الله وحده . وأنت ماكنت حاضرا مع زكريا- عليه السلام- ولا مع الذين ناقشوه فى كفالة مريم ، واقتنعوا على ذلك فكانت كفالتها من نصيب زكريا- عليه السلام - ومن الواضح أن المقصود بهذه الآية الكريمة ، ومايشبهها من آيات كثيرة : إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى- وأن مااشتمل عليه من قصص السابقين لم يكن للرسول ﷺ علم به ، ولم يكن- أيضا - لغيره علم صحيح به .

فجاء القرآن الكريم بهذا القصص ، وحكاها بالحق والصدق ؛ ليكون عبرة وعظة للناس .  
قال - تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦٢]  
وقال - سبحانه - :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى ﴾ .

[الكهف : ١٣]

وقال- عز وجل- : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٧]

(ج) كذلك من أهداف القصة فى القرآن الكريم : تثبيت فؤاد النبى ﷺ وتخفيف مآصبايه من قومه ، وحثه على الاقتداء بإخوانه ، وتبشيره بأن العاقبة الطيبة ستكون له ..

أما تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، فنراه فى آيات كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٠) ﴿ [هود]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة فى أواخر سورة «هود» التى تحدثت عن جانب من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب- عليهم السلام- ، مع أقوامهم ، وفيها بين الله -تعالى- أهم الفوائد التى تعود على الرسول ﷺ ، من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع من أرسلوا إليهم .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك أيها الرسول الكريم

ونخبرك عنه ، المقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسليية نفسك ونفوس أصحابك ، عما لحقكم من أذى ، فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس . .

ولقد جاءك يا محمد فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما التسليية له عن طريق قصص الأنبياء السابقين ، والتسرية عن قلبه ﷺ ودعوته إلى الاقتداء بهم فى صبرهم . . فكل ذلك نراه فى آيات كثيرة . .

منها قوله - سبحانه - : ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (٥٢) أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴿ [ الذاريات ]

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد حديث مركز عن جانب من قصة إبراهيم وموسى وهود وصالح ونوح - عليهم السلام - .

والمعنى : نحن نخبرك - يا محمد - بأنه ماأتى الأقوام الذين قبل قومك من نبي أو رسول ، يدعوهم الى عبادتنا وطاعتنا ، إلا وقالوا له ، كما قال قومك فى شأنك : هذا الذى يدعى الرسالة أو النبوة ساحر أو مجنون .

والمقصود بالآية الكريمة :التخفيف عن النبي ﷺ عما أصابه من مشركى قريش ، إذ يبين له - سبحانه - أن ماأصابه قد اصاب الرسل من قبله ، والمصيبة إذا عمت خفت .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا بيانا آخر فقال : ﴿ أَتَوَاصُوا ؟ !! ﴾

أى : أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم : أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟

وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ﴿ حكم عليهم بطغيانهم ؛ لأنهم لم يجمعهم تشابه القلوب ، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : أوصى بعضهم بعضا بهذا القول القبيح؟ كلا لم يوص بعضهم بعضا ، لأنهم لم يتلاقوا ، وإنما تشابهت قلوبهم ، فاتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر .

ثم توجيه ثالث نراه فى قوله - تعالى - : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾

أى : فأعرض عنهم - أيها الرسول الكريم - وسر فى طريقك دون مبالاة بمكرهم وسفاهتهم ، فما أنت بلوم على الإعراض عنهم ، وماأنت بمعاقب منا على ترك

مجادلتهم . ودوام على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقوّل المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وأداب حكيمة . . ينفع المؤمنين .

وشبيه بهذه الآيات فى التخفيف عن الرسول ﷺ عما أصابه من أذى ، قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلْنَا لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج ]

وأما دعوته ﷺ إلى الاقتداء بإخوانه الأنبياء السابقين فى صبرهم ، فنراه فى آيات متعددة . .

منها قوله - سبحانه - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ﴾ [ الأنعام : ٩٠ ]

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله - تعالى - لنبيه ﷺ فى الآيات السابقة عليها أسماء ثمانية عشر نبيا ، ثم أمره بالاقتداء بهم فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ﴾

أى : أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك - يامحمد- ، هم الذين هديناهم إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم فبطريقتهم فى الإيمان بالله ، وفى ثباتهم على الحق ، كن مقتديا ومتأسيا .  
وأما تبشيره ﷺ عن طريق قصص الأنبياء السابقين بأن النصر سيكون له ولأتباعه ، فنراه فى آيات كثيرة .

منها قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ [ الأنعام ]

أى : ولقد كذب الأقوام السابقون رسلا كثيرين جاءوا لهدايتهم ، فكان موقف هؤلاء الرسل من هذا التكذيب والأذى الصبر والثبات ، واستمروا على صبرهم وثباتهم حتى أتاهم نصرنا الذى اقتضته سنتنا وأحكامنا التى لا تتخلف . .

ولقد جاءك- أيها الرسول الكريم- من أخبار اخوانك الأنبياء السابقين ، مافيه العظات والعبر ، فعليك أن تستبشر بأن النصر سيكون لك ولأتباعك .

ومن الآيات التى بشرت النبى ﷺ بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما كانت للأنبياء السابقين وأتباعهم قوله - تعالى - : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة ]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصفات]

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر]

( د ) كذلك من أهداف القصة فى القرآن الكريم : الاعتبار والاتعاظ . . .

قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

[ يوسف ]

وهذه الآية الكريمة هى الآية الأخيرة التى ختم الله - تعالى - بها سورة يوسف - عليه السلام - ، التى اشتملت على أحسن القصص وأحكمه وأصدقه وأشدّه أثرا فى النفوس . .

أى : لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام ، وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وأداب وإرشادات . .

وما كان هذا الذى قصصناه حديثا مختلفا أو كاذبا ، وإنما هو حديث عن واقع حقيقى لحمته وسداه الصدق الذى لا يحوم حوله الكذب ، والتأييد لما صح من الكتب السابقة التى امتدت إليها أيدى الفاسقين بالتحريف والتبديل ، والتفصيل والتوضيح للشرائع السابقة ، والهداية والرحمة لقوم يؤمنون به ، يعملون بما فيه من أمر أو نهى . .

والعبر والعظات التى نأخذها من قصص القرآن الكريم ، لها صور شتى منها : بيان حسن عاقبة المؤمنين ، الذين ثبتوا على الحق ، وابتعدوا عن الباطل ، وتابوا إلى الله - تعالى - توبة صادقة ، وشكروا الله ، تعالى - على نعمه ، بأن استعملوها فيما يرضيه لانيما يسخطه . .

ونرى نماذج لذلك فى قصة سليمان - عليه السلام - الذى آتاه الله - تعالى - ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فلم يبطره هذا الملك ، ولم تشغله عن ذكر الله - تعالى - ، بل قال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : ٤٠]

ونرى نماذج لذلك فى قصة ذى القرنين ، الذى مكن الله- تعالى- له فى الأرض ، فاستعمل ما آتاه الله من قوة فى الخير لا فى الشر ، وفى الإصلاح لا فى الإفساد . .

ونرى نماذج لذلك من أصحاب الكهف ، الذى آمنوا بربهم ، وزادهم الله- تعالى- إيمانا على إيمانهم ، بسبب ثباتهم على الحق . .

ونرى نماذج لذلك فى قصة قوم يونس- عليه السلام- الذين استجابوا لدعوة الحق ، وصدقوا نبيهم فيما أخبرهم به ، وأخلصوا دينهم لله - تعالى- .

قال- تعالى- : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٩٨) ﴿ [ يونس ]

والمعنى : فهلاً عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فأمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلمهم ، فنجوا بذلك من العذاب ، كما نجا منه قوم يونس- عليه السلام- بسبب ندمهم على فرط منهم ، وإيمانهم إيمانا صادقا ، وتوبتهم توبة نصوحا ، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا . .

ومنها : بيان سوء عاقبة المكذبين ، الذين أصروا على كفرهم ، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم ، واستحبوا العمى على الهدى ، وجحدوا نعم الله- تعالى- واستعملوها فى المعاصى لا فى الطاعات . .

ونرى نماذج لذلك فى قصة قارون الذى آتاه الله - تعالى- من النعم ما آتاه ، فلم يشكر الله - تعالى- على نعمه ، بل قالوا بكل غرور و صلف : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ كما نرى نماذج لذلك فى قصة أهل سبأ<sup>(١)</sup> الذين قال الله- تعالى- فى شأنهم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَا لَهُم بَجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَارِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ ﴿ [ سبأ ]

والمعنى : لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم ، علامة واضحة على فضل الله- تعالى-

(١) ولفظ «سبأ» فى الأصل : اسم لرجل ينتهى نسبه إلى أول ملك من ملوك اليمن ، والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة باسمه ، وكانوا يسكنون بمأرب على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء .

عليهم - حيث جعل لهم - سبحانه - بستانين أحدهما عن يمين مساكنهم ، والثانى عن شمالها .

وقال الله - تعالى - لهم على السنة الصالحين منهم :

﴿ كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ نعمه ، فأنتم تسكنون فى بلدة طيبة ، فيها كل ماتحتاجونه ، وقد منحها لكم الله الرحيم بكم ، الغفور لذنوبكم ، فاشكروه على ذلك .

﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : فأعرضوا عن نصيح الناصحين ، وجحدوا نعم الله ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسل الله - تعالى - عليهم السيل المدمر ، وتحولت البساتين اليانعة ، إلى أماكن ليس فيها سوى الثمار والأشجار التى لاتسمن ولا تغنى من جوع . .

وهذا الذى فعلناه بهم ، سببه : جحودهم وبطرتهم ، ومن سنتنا أننا لانعاقب بهذا العقاب الرادع إلا من جحد نعمنا ، وفسق عن أمرنا .

والتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرا من قصص الجاحدين ، ثم يبين لنا سوء مصيرهم . .

ومن ذلك أنه - سبحانه - بعد أن ذكر لنا جانبنا من قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى . . مع أقوامهم ، عقب على ذلك بقوله - تعالى :-

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[ العنكبوت : ٤٠ ]

أى : فكلًا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط . . أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه ، التى أصر عليها ولم يرجع عنها .

فمنهم من أرسلنا عليه ﴿ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا شديدة رمته بالحصى كقوم لوط - عليه السلام - ومنهم من أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب - عليهما السلام - .

ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون .

ومنهم من أغرقناه كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه .

وما كان الله - تعالى - مريدا لظلمهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وأوردوها موارد المهالك ، بسبب إصرارهم على كفرهم وجحودهم .

هذه بعض الأهداف والمقاصد التي من أجلها ساق القرآن مساق من قصص ، امتاز بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه ..

وهناك أهداف أخرى ، يستنبطها كل ذى عقل سليم ، وماذكرناه هو قليل من كثير ، وحسبك من القلادة ماأحاط بالعنق .

١٢ من صفر سنة ١٤١٦هـ

١٠ يوليو سنة ١٩٩٥م

أ.د: محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

## (١) قصة آدم - عليه السلام -

١ - وردت قصة آدم - عليه السلام - في سور متعددة من القرآن الكريم ، منها سور : **الحجر** و **ص** ، **الأعراف** ، **الإسراء** و **الكهف** و **البقرة** .  
وهناك آيات تحدثت عن خلقه - عليه السلام - ، وأخرى تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له ، وثالثة حكمت موقف إبليس من هذا الأمر ، ورابعة ذكرت استخلاف آدم في الأرض ، وخامسة تحدثت عن إسكانه في الجنة ، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له وماترتب على ذلك من عقوبات ، وسابعة تحدثت عن تحذير بنى آدم من الشيطان .  
وبعض السور وضحت معظم هذه العناصر في قصة واحدة ، وبعضها تحدثت عن عنصر أو عنصرين أو أكثر منها ، ولكن بأسلوب له مزاياه وتأثيره وتوجيهاته ، وتتحقق فيه البلاغة - التي هي رعاية الكلام لمقتضى الحال - فى أبهى صورها وأسمائها وأحكامها .  
وسنحاول - بإذن الله - أن نتناول كل عنصر من واقع حديث القرآن عنه ، ثم نعقب على ذلك ببيان ما يؤخذ من هذه القصة من دروس نافعة ، وعظات بليغة ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

### ٢ - قصة خلق آدم - عليه السلام - :

ومن مزايا القرآن الكريم ، أنه يخاطب الناس بما يعينهم من أمور دينهم ودنياهم وأخرتهم ، ولا يكلفهم أن يبحثوا عن أمور غيبية ، لالعلاقة لها بمصالحهم ومنافعهم ، ولا فائدة من وراء البحث فيها . .

إنه لم يحدثهم عما سبق آدم - عليه السلام - من مخلوقات لاعلم لهم بها ، وإنما علمها عند الله - تعالى - ، وإنما حدثهم عن قصة خلق أبيهم آدم - عليه السلام - ، وعما تعرض له من أحداث ، لكى يأخذوا منها العظات والعبر . .

وقد جاء الحديث عن خلق آدم - عليه السلام - فى سور متعددة ، منها قوله - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ (١) مِّنْ حَمَإٍ (٢) مَّسْنُونٍ (٣) وَالْجَانَّ (٤) خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [ الحجر ]

والمراد بالإنسان هنا : آدم - عليه السلام - ، لأنه أصل النوع الإنسانى ، وأول فرد من

(١) والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل . أى : يُحدِث صوتاً إذا حُرِّك أو نُقِر عليه ، كما هو الشأن فى الفخار إذا حُرِّك أو نُقِر عليه .

(٢) والحما : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته . (٣) والمسنون : المصور من سن الشيء إذا صوره .

(٤) والمراد بالجان هنا : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقيل : هو إبليس . وقيل : هو اسم لجنس الجن .

أفراده ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [النساء]

والمقصود بالنفس الواحدة في هذه الآية الكريمة : آدم- عليه السلام-  
 أى : خلق- سبحانه- آدم- عليه السلام- من طين يابس شديد السواد ، مصور على هيئة معينة ، لا يعلم تفاصيلها ودقائقها إلا هو- سبحانه- ، وخلق الجن من قَبْلِ خلق آدم ﴿ من نار السموم ﴾ أى : من النار الحارة التى تقتل ، وسميت سموما ؛ لأنها لشدة حرارتها وقوة تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .

أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن عائشة- رضى الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال : « خُلِقَتِ الملائكة من نور ، وَخُلِقَتِ الجن من نار ، وَخُلِقَ آدم بما وُصِفَ لَكُمْ » .  
 وشببه بهاتين الآيتين قوله- تعالى - فى سورة الرحمن : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ ﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝١٥ ﴾ أى : من اللهب الخالص ، أو من خليط من لهب النار .

والذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن الله- تعالى- قد وضح فى آيات متعددة أطوار خلق آدم- عليه السلام- .

فقد بين فى بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ [ آل عمران ]  
 وبين فى آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين ، كما فى قوله - تعالى - :

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ﴾ [ السجدة ]

وبين فى آية سورة الحجر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون ..  
 وبين فى آية سورة الرحمن أنه خلقه من صلصال كالفخار .

ولا تعارض بين هذه الآيات التى تحكى أن آدم - عليه السلام - قد خلق من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، أو من صلصال كالفخار ؛ لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلقه - عليه السلام - ، لأن هذا التراب صار طينا ، ثم حُمِّرَ هذا الطين فصار حمأ مسنونا ، ثم يبس فصار صلصالا كالفخار .

فالآيات التى تحدثت عن خلق آدم - عليه السلام - لا يصادم بعضها ، وإنما يؤيد بعضها بعضا .

(١) والفخار : الخزف المجوف الذى صار كذلك بعد أن أدخل فى النار

وقد أكد ذلك بعض المفسرين فقال : عند تفسيره لآية سورة الحجر : «وهذا الطور - وهو خلق آدم - عليه السلام - من صلصال من حمأ مسنون - هو آخر أطوار خلق آدم ، وأول ابتدائه أنه كان ترابا متفرقا الأجزاء ، ثم بُلِّ - أى : التراب - فصار طينا ، ثم ترك حتى اسود و صار حمأ مسنونا ، ثم يبس فصار صلصالا ..

وعلى هذه الأحوال والأطوار ، تتخرج الآيات الواردة فى أطواره الطينية ، كآية خلقه من تراب ، وآية خلقه من طين ، وهذه الآية التى نحن فيها .. (١)

والمقصود من هذه الآيات الكريمة : التنبيه على عجب صنع الله - تعالى - ، وعظيم قدرته ، حيث أخرج - سبحانه - من هذه المواد بشرا سويا فى أحسن تقويم ، وتذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم ، حيث خلق أباهم آدم - عليه السلام - من تلك العناصر ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وفى ذلك ما فيه من تكريم وتشريف له ولهم ..

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء]

٣ - استخلاف الله - تعالى - لآدم فى الأرض .

شاء الله - تعالى - واقتضت حكمته ، أن يخلق آدم من طين ، وأن يستخلفه هو وذريته فى الأرض ليعمروها ، وأخبر - سبحانه - الملائكة المقربين بما أراده وقضاه .. وحكى القرآن الكريم ذلك فى آيات منها قوله - تعالى - فى سورة البقرة :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٤٣ .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم وقت أن قال ربك للملائكة (١) ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ .

وخطاب الله - تعالى - للملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة ، ليس المقصود منه مشورتهم ؛ لأنه - سبحانه - هو صاحب الخلق والأمر . . .  
وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة ، وما أجبوا به بعد .

أو من أجل تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم ، وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة . .  
ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

والتسبيح : مشتق من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء ، فالمسبح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من كل ما لا يليق .

والتقديس : التطهير والتعظيم ، ووصفه - سبحانه - بما يليق به من صفات الكمال .  
فيكون التسبيح نفى ما لا يليق ، والتقديس إثبات ما يليق .

والمعنى : أتجعل في الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ، ويريق الدماء ، والحال أننا نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتك ، تنزيها ملتبسا بحمدك والثناء عليك ، ونظهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيما لك وتمجيذا ؟ .

وقولهم هذا : ليس إنكارا لفعله - تعالى - ، ولا شكاً في حكمته ، ولا تنقصاً لخليفته ، لأنهم أولياؤه المقربون ، وعباده المكرمون . .

(١) والملائكة : جمع ملك ، وهم جند من خلق الله - تعالى - ، ركز الله فيهم العقل والفهم ، وفطرهم على الطاعة ، وأقدرهم على التشكل بالأشكال الجميلة المختلفة ، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة ، ووصفهم - سبحانه - في كتابه بأوصاف كثيرة ،

منها : أنهم ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

ومنهم أنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾

والخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة الله - تعالى - في الأرض ، وكذلك سائر الأنبياء ، استخلفهم الله في عمارة الأرض ، وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وإجراء أحكامه عليهم ، وتنفيذ أوامره فيهم .

(٢) والفساد : الخروج عن الاستقامة والاعتدال ، ويضاده الصلاح .

والسفك : الصب والإهراق ، يقال : سفكت الدمع والدم سفكا ، إذا صببته ، والمراد به : حصول التقاتل بين الأفراد ظلما وعدوانا .

وإنما قولهم هذا ، من باب الخوف من أن يكون قد وقع تقصير منهم في عبادته - سبحانه - فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم من ذلك .

أو هو من باب استطلاع الحكمة ، في خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد في الأرض ، وسفك الدماء ..

والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض ، وسفك الدماء ، بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه المصطفين الأخيار من خلقه .

قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى : قوله - تعالى - ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... ﴾ أرادوا : أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من الخلق ، من صلصال من حمأ مسنون .

أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من مظالم ، ويردعهم عن المحارم والمآثم .

وقول الملائكة هذا ، ليس على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، لما قد يتوهمه البعض ، وإنما : هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد في الأرض ، وسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك ، فنحن نسبح بحمديك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شيء يخالف أمرك ، فهلا وقع الاقتصار علينا لعمارة هذه الأرض ؟ .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

أي : إنني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف من البشر ، واستخلافه في الأرض ، ما لا تعلمون أنتم .

فإنني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ، وسيكون منهم الصديقون والشهداء والصالحون ..

فالجملة الكريمة : إرشاد للملائكة إلى الأمر الذي من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق ، وتنبيه إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه ، فله - سبحانه - أن يفعل ما يشاء .

قال بعض العلماء : «وفي الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب بعض الناس له ، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ، ويطلبون البيان والبرهان

والحكمة فيما لا يعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله - تعالى - الملائكة المقربين .

أى : فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين» (١) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من حكمة خلق آدم ، وجعله خليفة فى الأرض فقال - تعالى - ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

أى : وألهم الله - تعالى - آدم معرفة الأشياء التى خلقها فى الجنة ، كما ألهمه معرفة أسمائها ومنافعها وخواصها ..

ثم عرض - سبحانه - هذه المسميات على الملائكة ، وقال لهم على سبيل التعجيز : أخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما اختلج فى خواطركم ، من أنى لا أخلق خلقاً إلا وأنتم أعلم منه وأفضل .

ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الملائكة فقال : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ (٢) لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : قال الملائكة على سبيل الاعتراف والعجز التام عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة عليهم بأبلغ وجه ؛ جل شأنك - يا ربنا - ، لا علم لنا بشىء إلا ما علمتنا إياه ، إنك أنت - يا ربنا - العليم بكل شىء ، الحكيم فى خلقك وأمرك ، وفى تعليمك من تشاء ، ومنعك من تشاء .

وهنا أمر الله - تعالى - آدم - عليه السلام - أن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها ، بعد أن عجزوا عن معرفتها فقال : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

ففى هذه الآية الكريمة : أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم - عليه السلام - فى أن يخبر الملائكة بالأسماء التى خفيت عليهم معرفتها ، ليظهر لهم فضل آدم ، ويزدادوا اطمئناناً على إسناد الخلافة إليه ، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩

(٢) ولفظ : «سبحان» اسم مصدر بمعنى التسبيح ، أى : التنزيه ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه .

وفى قوله - سبحانه - للملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ... ﴾ : تعريض بمعابرتهم على ترك الأولى والأليق ،  
حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة ، وكان الأولى والأليق أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام  
الألوهية ، فيتركوا السؤال عنها ، إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم .

٤ - ومن الدروس النافعة ، والفوائد الجليلة التى تؤخذ من هذه الآيات : أن الله  
- تعالى - قد اختار آدم وذريته ليكونوا خلفاء الله - تعالى - فى أرضه ، لكى يصلحوها ،  
ويقدموا العمل الصالح الذى يجعلهم يحيون حياة طيبة ..

وأن العلم على رأس الأسباب التى هيات آدم - عليه السلام - ليكون خليفة الله  
- تعالى - على هذه الأرض .

وأن علم آدم - عليه السلام - كان مستمدا من تعليم الله - تعالى - إياه ، وأن العلم  
الذى يحصل عن طريق النظر والفكر ، قد يعتريه الخلل ، ويحوم حوله الخطأ ، بخلاف  
العلم الذى يتلقاه الإنسان من تعليم الله - تعالى - له ، فإنه يكون علما مطابقا للواقع ،  
ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن طريق الإصلاح ، وصاحب هذا العلم هو الذى  
يصلح للخلافة فى الأرض . ومن هنا كانت السياسة الشرعية ، أرشد من كل سياسة ،  
والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة فى الأرض .

## (٢) سجود الملائكة لآدم وموقف إبليس من ذلك

٥ - تكرر الحديث فى القرآن الكريم عن أمر الله - تعالى - للملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - وعن امتناع إبليس عن الامتثال لأمر الله - تعالى - فى سور متعددة ، منها سور : البقرة ، والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و ص . . فى سورة البقرة ، نرى قول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٤)

والسجود لغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وللعلماء فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم أقوال : أرجحها أن السجود المأمور به فى الآية ، يحمل على المعنى المعروف فى اللغة .

أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيما ، وإقرارا له بالفضل ، دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة ، إذ عبادة غير الله - تعالى - شرك يتنزه عنه الملائكة .

وأمر الله - تعالى - الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - هو لون من الابتلاء والاختبار ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به العلم ، واقتضته الحكمة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ <sup>(١)</sup> أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ :

بيان لما حدث من الملائكة ، ومن إبليس .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قال ربك - عز وجل - للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تعظيم وتكريم لا سجود عبادة ، فامتثلوا أمره - تعالى - وسجدوا

(١) وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس . وفعله أبلس . .

وقوله : ﴿ أبى ﴾ من الإباء بمعنى الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه .

وقوله : ﴿ واستكبر ﴾ أى : تعاطف وتكبر واغتر على غيره .

جميعا ، إلا إبليس فإنه امتنع عن ذلك أنفة وتكبيرا وغرورا ، وكان بسبب فعله هذا من الجاحدين لنعم الله - تعالى - ، العاصين لأمره ، البعيدين عن رحمته . هذا ، وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أولا قولان :

أحدهما : أنه كان منهم ، لأن الله - تعالى - أمره بالسجود لآدم ، ولو لم يكن منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه ، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .

والثانى : أنه ليس منهم لقوله - تعالى - : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ، فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الكهف : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠) .

والمعنى واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فامتثلوا أمرنا ، وسجدوا جميعا ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ، لأنه كان من الجن الذى خلقه الله - تعالى - من النار ، فخرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبنا وما دام الأمر كذلك ، فابتعدوا عنه يا بنى آدم ، واحذروا وسوسته ، واجتنبوه هو وذريته لأنهم لكم أعداء ، وأن الذى يتخذه هو وذريته أولياء ، يكون من الواضعين للشىء فى غير موضعه ، ومن المستبدلين للذى هو أدنى بالذى هو خير ، إذ تركوا طاعة الله - تعالى - وأطاعوا إبليس وذريته .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت بنى آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم ، وبين إبليس وذريته ..

والمقصود بهذا التذكير : تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخالفته ..

ومن الآيات القرآنية التى ساقَت هذه القصة بشىء من التفصيل ، فحكّت امثال الملائكة لأمر الله - تعالى - وامتناع إبليس عن السجود لآدم ، كما حكّت الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود ، وعقاب الله - تعالى - له ، وعلان إبليس عداوته لآدم وذريته .. من هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة الأعراف (١) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ...﴾ .

أى : ولقد خلقنا آباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك ..  
أو المعنى : ولقد خلقناكم فى ظهر أبيكم آدم ، ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق بأن تعبدونى ولا تشركوا بى شيئاً .

﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .  
ثم حكى - سبحانه - الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال :  
﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والتقدير : ما الذى حملك على عدم السجود لآدم مع أنى قد أمرتك به كما أمرت الملائكة ؟  
وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

أى : قال إبليس بصلف وغرور وإصرار على معصية أمر الله - تعالى - : أنا خير من آدم ، لأنى مخلوق من عنصر النار ، وآدم مخلوق من عنصر الطين .  
ثم حكى - سبحانه - ما رد به على إبليس فقال : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى : من الجنة بسبب عصيانك لأمرى ، وخروجك عن طاعتى ..

﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ أى : فما يصح وما يستقيم أن تتكبر فيها ؛ لأنها ليست مكاناً للمتكبرين ، وإنما هى مكان للمطيعين الخاشعين المتواضعين .

﴿ فَأَخْرَجْكَ مِنْهَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ أى : فأخرج يا إبليس من الجنة ، فأنت من أهل الصغار والهوان على الله - تعالى - ، وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك .

ثم حكى القرآن الكريم ما طلبه إبليس من الله - تعالى - وما قاله - سبحانه - له :  
﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

أى : قال إبليس يا رب أخرنى ولا تمننى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة .

وقد أراد بذلك النجاة من الموت ، إذ لا موت بعد البعث ، كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت لإغواء بنى آدم .

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أى : قال الله - تعالى - لإبليس إنك من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم .

ثم حكى - سبحانه - ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ .

أى : فسبب إغوائك لى ، وطردي إياى من رحمتك :-

﴿ لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى : لأترصدن لآدم وذريته على طريق الحق ، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها ، فأصدنهم عنها ، وأحاول بكل وسيلة صرفهم عن الصراط المستقيم .

﴿ ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ .. ﴾ أى : ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها ، وهى الأمام والخلف واليمين والشمال ، والمراد لى أترك وسيلة لإغوائهم وإضلالهم إلا وفعلتها .

﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أى : ولا تجد أكثرهم مطيعين أمرك مستخدمين نعمك فيما خلقت له .

﴿ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا .. ﴾ .

وقوله : ﴿ مَذْءُومًا ﴾ أى : محقرا . يقال : ذأمه يذأمه ذأما ، إذا عاقبه وحقره .

وقوله ﴿ مَدْحُورًا ﴾ أى : مطرودا . يقال : دحره دحرا ودحورا ، إذا طرده وأبعده .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس : اخرج من الجنة وأنت معاقب بالتحقير والطردي من رحمتى .

﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى : اخرج من الجنة محقرا مطرودا ، واعلم أن من تبعك من الجن والإنس ، سيكون مصيرهم ومصيرك معهم النار وبئس القرار .

كما قال - سبحانه - : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ .

٦ - وفى سورة الحجر <sup>(١)</sup> آيات كريمة فصلت الحديث عن هذه القصة ، وأضافت إلى ذلك اعتراف إبليس بأنه لا سلطان له على المؤمنين الصادقين .

قال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

أى : فإذا سويت خلق هذا البشر وهو آدم ، وكملت أجزائه ، وجعلته فى أحسن تقويم ، فاسقطوا وخروا له ساجدين ..

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا - أى : من الجنة - فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ .

أى : مرجوم ومطرود من رحمتى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وهو يوم الجزاء والحساب ، وبعده ستكون اللعنة مستمرة عليك .

« قال رب فأنظرنى - أى : فأمهلىنى ولا تمتنى - إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى - أى : بسبب إغوائك لى - لأزين لهم فى الأرض - أى : لأزين لهم المعاصى والسيئات - ولأغوينهم - أى : ولأضلنهم - أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » فإنه لا طاقة لى على إغوائهم بسبب قوة إيمانهم ، وثبات يقينهم .

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى : قال الله - تعالى - لإبليس : إن عدم قدرتك على إغواء عبادى المخلصين ، وهو سنتى التى لا تتخلف ، وطريقى الذى اقتضته حكمتى وعدالتى ورحمتى .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ أى : ليس لك قدرة على إضلال عبادى المخلصين .

﴿ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى : ولكن لك قدرة على إغواء أتباعك وضعاف

الإيمان من الناس .

(١) الآيات من ٢٦ - ٤٤ .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ أى : لموعد الغاوين الضالين أجمعين .

٧ - وفى سورة الإسراء آيات كريمة<sup>(١)</sup> ، ساقطت هذه القصة بأسلوب آخر ، ركزت فيه على بيان إصرار إبليس على عداوة آدم وذريته ، وعلى العقوبات الشديدة التى توعده الله - تعالى - بها إبليس .

قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٦١) ﴿

أى : قال إبليس لخالقه - تعالى - على سبيل التكبر والغرور ، أسجد وأنا المخلوق من نار ، لمن خلقته من طين وهو آدم - عليه السلام - ، مع أننى أفضل منه؟ .

ثم لم يكتف إبليس بهذا الغرور والعصيان ، بل أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٢) ﴿ .

أى : قال إبليس بصلف وسوء أدب فى الرد على خالقه - عز وجل - : أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، لماذا فضلته على ، وأمرتنى بالسجود له؟ .. أقسم لك - يا إلهى - لئن أخرت أجلى إلى يوم القيامة : ﴿ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

أى : لأستولين على جميع أفراد ذريته ، ولأجعلنهم ينقادون لى إلا عددا قليلا منهم وهنا رد الله - تعالى - عليه بقوله : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾

أى : قال الله - تعالى - له على سبيل التحقير والإهانة : اذهب مطرودا ملعونا ، وقد أخرنا أجلك إلى يوم القيامة ، فافعل ما بدا لك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم هى جزاؤك وهى جزاؤهم ، جزاء كاملا غير منقوص .

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانتته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى فقال :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٦٤) ﴿ .

(١) الآيات من ٦١ - ٦٥ ..

والمقصود بهذه الأوامر : التهديد والاستدراج والتحقير لإبليس ولوساوسه .

أى : أن الله - تعالى - قال له : اذهب أيها اللعين مطرودا ، وافعل ما شئت مع بنى آدم ، من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث ، وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكاييد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصى ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصددهم عن الطريق المستقيم ، وشاركهم فى الأموال بأن تحضهم على جمعها وإنفاقها فى الطرق الحرام ، وشاركهم فى الأولاد بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة سيئة . . وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (٦٥) .

أى : إن عبادى الصادقين المخلصين لا قدرة لك يا إبليس على إضلالهم ، وكفى بربك وكيلا يتوكلون عليه ، ويفوضون أمورهم إليه ، ويعتصمون به ، فهو الحافظ والنصير لهم .

٨ - وفى سورة « ص » آيات كريمة<sup>(١)</sup> حكمت هذه القصة بأسلوب يغلب عليه الحوار والتحدى ، قال - تعالى - : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيب والتقرير : يا إبليس ما الذى منعك من السجود لآدم الذى خلقته بيدي ، وصورته بقدرتى التى لا يعجزها شىء؟ أمنعك من السجود له تكبرك وصلفك ، أم كنت ممن تناول على غيره بدون حق؟ فكان جواب إبليس : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (٧٦) .

وقد رد الله - تعالى - على إبليس بقوله : ﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مَنهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴿

فكان جواب إبليس : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُعْتَبُونَ ﴾ (٧٩) .

فأجابه - سبحانه - بقوله : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾

فأصر إبليس على عداوته لآدم وذريته وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

وهنا جاء العقاب العادل من الله - تعالى - لإبليس ، حيث قال - سبحانه - :

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) ﴾

أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى ويمينى ، ولا أقول إلا الحق .. لأملأن جهنم بك وبجنسك وبكل من تبعك يا إبليس ، لأن هذا جزاء من عصانى .

والمأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن عنصر المحاوره فيها واضح كل الوضوح ، فقد تكرر لفظ قال تارة من الله - تعالى - وتارة من إبليس ثمانى مرات .

### (٣) حديث القرآن عن

#### إغواء إبليس لآدم - عليه السلام -

٩ - تحدث القرآن الكريم في سور متعددة عن أن الله - تعالى - قد أمر آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ، وأباح لهما أن يأكلا من جميع ثمارها ، سوى شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها ، ولكن إبليس أغراهما بالأكل منها ، واستطاع بوسوسته وخداعه لهما أن ينسيهما ما نهاهما عنه ربهما فأكلا منها ، فترتب على ذلك أن أخرجنا من الجنة ..

ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك ، قوله - تعالى - في سورة البقرة<sup>(١)</sup> :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ .

أى : وبعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - وامتثلوا أمرنا جميعا ماعدا إبليس ، قلنا لآدم على سبيل التشريف والتكريم : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة .. وجمهور العلماء يرون أن المراد بالجنة هنا : دار الثواب ، التي أعدها الله - تعالى - للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عن الإطلاق ..

ويرى بعض العلماء أن المراد بالجنة هنا : بستان بمكان مرتفع من الأرض ، خلقه الله - تعالى - لإسكان آدم وزوجه فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ بيان لجانب آخر من فضل الله - تعالى - عليهما .

أى : اسكن يا آدم أنت وزوجك الجنة ، وقد أبحنا لكما أن تأكلا من ثمارها ومطاعمها أكلا هنيئا واسعا ، فى أى مكان منها أردتما .

ثم بين - سبحانه - أنه نهاهما عن الأكل من شجرة معينة فقال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : كلا من الجنة أكلا واسعا هنيئا ، واحذروا أن تأكلا من هذه الشجرة التي حددتها لكما ، فإنكما إن خالفتما أمرى وأكلتما منها كنتما من الظالمين .

(١) الآيات من ٣٥ - ٣٨ .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ القصد منه المبالغة في النهي عن الأكل منها ، إذ في النهي عن الاقتراب من الشيء ، نهى عن التلبس به من باب أولى .

وقد تكلم المفسرون عن اسم هذه الشجرة ونوعها ، ف قيل : هي التين ، وقيل هي الكرم . . إلا أن القرآن الكريم لم يذكر نوعها ، على عادته في عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه .

وقد أحسن الإمام ابن جرير الطبرى التعبير عن هذا المعنى فقال : «والصواب في ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة ، دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله - تعالى - لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب . وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به» (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ (٢) .  
أى : فأوقعهما الشيطان فى الزلل ، حيث أطاعاه فى وسوسته ، ونسيا أمر ربهما ، فترتب على ذلك أن أخرجهما الله - تعالى - من الجنة ، التى كانا يتنعمان بخيراتها وثمارها . .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ : الخطاب فيه لآدم وحواء وإبليس .

أى : وقلنا لآدم وحواء وإبليس : انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين يبغي بعضكم على بعض ، ولكم فيها منزل وموضع استقرار وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت .

ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

والمراد بهذه الكلمات - على أرجح الأقوال - ما أشار إليه القرآن فى سورة الأعراف ، فى قوله - تعالى - :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) .

(١) تفسير ابن جرير الطبرى ج ١ ص ٥٦١ .

(٢) والفعل : «أزل» من الإزال وهو الإزلاق والتنجية بعيدا عن الشيء .

أى : فأخذ آدم من ربه - عز وجل - كلمات حكيمة ، وتقبلها بصدق وإنابة ، وسأل ربه أن يقبل توبته ، فقبل - سبحانه - ذلك منه ، إنه - سبحانه - هو الواسع الرحمة بعباده ، الكثير القبول لتوبة التائبين .

وبعد أن أخبر القرآن فى الآيات السابقة ، أن الله - تعالى - قد أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة ، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر بالهبوط فقال : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨) .

وليست هذه الإعادة للأمر بالهبوط من قبيل التكرار الذى يقصد به مجرد التوكيد ، لأن المقصود بالأمر بالهبوط أولا ، بيان ما يترتب على ذلك من كون بعضهم لبعض عدو . . والمقصود به فى هذه الآية ، بيان ما يترتب عليه من تفصيل لحال المخاطبين ، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين .

أى : قلنا اهبطوا من الجنة جميعا ، وسيأتىكم منى على لسان رسلى ما يدلکم على طريق الحق والصواب فمن اتبع رسلى فيما أتوا به من عندى ، فلا يصيبهم ما يخيفهم من المستقبل ، ولا ما يجعلهم يحزنون على الماضى .

١٠ - وشبيهه بهذه الآيات فى بيان سكنى آدم الجنة ، وإغواء الشيطان له ، مما ترتب عليه خروجه من الجنة ، قوله - تعالى - فى سورة الأعراف<sup>(١)</sup> : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ، أى : فألقى إبليس إليهما الوسوسة ، أى : الحديث الذى يصرف الإنسان من الخير إلى الشر .

﴿ لِيُبَدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾ أى : فعل هذه الوسوسة ، وحرصهما على الأكل من الشجرة المحرمة ، لتكون عاقبة ذلك ، أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوارتهما . . ولم يكتف إبليس بهذه الوسوسة السيئة ، بل قال لهما : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

أى : قال لهما كذبا وخداعا : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ، إلا كراهية أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين الذين يسكنون الجنة ولا يموتون .

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة ، أو بالقول المجرد ، بل أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

(١) الآيات من ١٩ - ٢٥ .

أى : وأقسم لهما أنه من الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما .

ثم بين - سبحانه - أن إبليس نجح فى خداع آدم وحواء فقال : ﴿ فَدَلَاهُمَا <sup>(١)</sup> بِغُرُورٍ . . ﴾ .

أى : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، وأطمعهما فى غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم .

ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التى ترتبت على هذه الخديعة من إبليس لآدم فقال : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجْرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ .

أى : فلما أكلا من الشجرة المحرمة ظهر لهما ما يجب ستره من جسدهما ، وهما عوراتهما ، وأخذوا يلزقان من ورق الجنة على عوراتهما لسترهما . .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ معاتباً وموبخاً وقائلاً لهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾  
أى : ألم أنهيكما عن الأكل منها ﴿ وَأَقْلَلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

فرد الله - تعالى - عليهما بقوله : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ أى : من الجنة إلى ما عداها من الأرض ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أى : أنت يا آدم وذريتك ستستمر العداوة بينكم وبين إبليس وذريته إلى يوم الدين ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ موضع استقرار ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾  
أى : تمتع ومعيشة ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ انقضاء آجالكم . ﴿ قَالَ فِيهَا ﴾ أى : فى الأرض ﴿ تَحْيَوْنَ ﴾ أى : تعيشون ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب .

١١ - وفى سورة «طه» تصوير بليغ حكيم ، لما وقع فيه آدم من خطأ بسبب نسيانه لأمر ربه ، وبسبب وقوعه تحت تأثير إبليس عليه . .

(١) وقوله : «دلاهما» مأخوذ من التدلوية ، وأصله : أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائه ، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء . .  
والغرور : إظهار النصيح مع إبطان الغش ، وأصله من غررت فلانا إذا خدعته .

وَقَدَّعَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ  
 قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ  
 إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾  
 إِنَّ لَكَ الْأَتْجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾  
 فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ آخُذُكَ وَمِنْهَا  
 لَا يَبْعَثُ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَنَّ لَهُمَا سَوْءَ لَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا  
 مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ  
 عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ  
 فَأَمَّا يَا نِدِّيَكُمْ مَنِّي هَدَىٰ فَمَن تَتَّبِعْ هَدَىٰ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

وقوله - تعالى - ﴿ وَقَدَّعَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ .

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم وأوصيناه ألا يأكل من شجرة معينة ، من قبل أن نخبرك بذلك ، فنسى العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها ، ولم نجد له عزيمة صادقة فى التذكر لما أمرناه به أو نهيناه عنه .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك بشيء من التفصيل الأسباب التى أدت إلى نسيان آدم وضعف عزمته فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ . فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ بسبب حسده لكما ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ أى : احذرا طاعته ، فإن طاعته ستؤدى بكما إلى الخروج من الجنة فيترتب على هذا الخروج شقاؤكما وغمكما وتعبكما .

ثم بين - سبحانه - مظاهر الخير فى هذه الجنة فقال : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ .

أى : إن لك يا آدم فى الجنة كل ما تريده وتشتهيه ، فانت فيها لا يصيبك شيء من الجوع ، أو العرى أو من الظما أو من حر الشمس فى الضحا .

ثم بين - سبحانه - أن آدم مع تلك النصائح المؤكدة ، نسى ما نهاه الله - تعالى - عنه ،

وتغلب عليه الشيطان فقال: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ  
الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ .

أى : قال الشيطان لآدم على سبيل الإغراء والخداع : هل أدلك يا آدم على الشجرة  
التي من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت ، وصار صاحب ملك لا ينتهى ولا  
يفنى ..

وأطاع آدم الشيطان ، ووقع تحت وسوسته وخداعه ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ أى : فأكل آدم  
وزوجه من الشجرة المحرمة ، ﴿فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَاءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ  
الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ .

أى : وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب الأكل من الشجرة ، فغوى ، أى : فأخطأ آدم  
طريق الصواب ، بسبب عدم طاعته لربه .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته فقال : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ  
وَهَدَى﴾ .

أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة وندم على ما فعل هو وزوجه ، اصطفاه ربه وقربه  
واختاره وقبل توبته ، وهداه إلى الثبات عليها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا  
جَمِيعًا﴾ أى : انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين .

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم  
والتنازع ، والتدافع على حطام الدنيا ، وجميعكم أعداء لإبليس وذريته .

﴿فَأَمَّا يَأْتِينَكُمْ مِّنِّي هُدًى﴾ عن طريق رسلى فعليكم أن تتبعوهم ..

﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ بأن آمن برسلى ، واقتدى بهم فى كل ما يأتون وما يذرون .

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

## (٤) بعض العبر والعظات

### فى قصة آدم - عليه السلام -

اشتملت قصة آدم - عليه السلام - على كثير من الدروس النافعة ، والعظات الحكيمة ، التى تهدى القلوب ، وتحببى النفوس ، وتحمل العقول على حسن التدبر والتفكر ، ومن أهم هذه الدروس ما يأتى :

١ - الدلالة على كمال قدرة الله - تعالى - ، وبديع خلقه ، وبلغ حكيمته ، حيث خلق - سبحانه - الإنسان من مادة تختلف عن المادة التى خلق منها الجن ، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ وهذه الخاصية هى التى جعلت من الإنسان ، كائنا ينفرد بخصائص عن كل الأحياء الأخرى التى تشاركه فى هذه الحياة .

كما يؤخذ من هذه القصة أن خلق الجن سابق على خلق الإنسان ، بدليل قوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ . (سورة الحجر : الآيتان : ٢٦ ، ٢٧)

٢ - أن إرادة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل فى الأرض خليفة هو آدم - عليه السلام - ، وأنه - سبحانه - قد أخبر الملائكة بذلك ، لا من أجل مشورتهم ، فهو - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ، وإنما من أجل أن يعلم الناس أن يتشاوروا فيما بينهم فى الأمور التى تحتاج إلى المشورة .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - ﷺ - أن يستشير أصحابه فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

كما وصف - سبحانه - الأخيار من عباده ، بأنهم يتشاورون ويتناصحون فيما بينهم ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٨]

٣ - ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة : أن الحرص على معرفة الحكمة من الأمر أو النهى لا بأس به ، وأن الأمر بالشىء أو النهى عنه ، يجب عليه ألا يضيق صدره إذا ما طلب منه معرفة الحكمة فيما أمر به أو نهى عنه ..

بدليل أن الملائكة عندما أخبرهم الله بأنه سيجعل في الأرض خليفة ، قالوا له على سبيل استطلاع الحكمة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

وقد رد عليهم - سبحانه - بما يزيل تعجبهم ، وما يرشدهم إلى الحدود التي يجب عليهم أن يقفوا عندها فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهكذا يعلمنا الله - تعالى - عن طريق قصصه الحكيم ، أن الرئيس العاقل ، هو الذى يفسح المجال لمرعوسيه المخلصين ، ويترك لهم مجال المجادلة والمناقشة ومعرفة الحكمة ، ولا يمتنع عن أن يبين لهم وجهة نظره فى رفق وأناة .

فإذا ما تجاوزوا الحدود المناسبة ، راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب ، وتلقى أوامره بحسن الطاعة .

٤ - أن سياسة الأمم على الطريقة المثلى ، إنما تقوم على أساس راسخ من العلم ، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة .

بدليل أن الملائكة الكرام ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، قد أمرهم الله - تعالى - بالسجود لآدم - عليه السلام - وكان على رأس المزايا التى ميز الله - تعالى - بها آدم على الملائكة ، أن منحه علما لم يمنحه لهم ، فثبت بذلك أن فضيلة العلم النافع على رأس الفضائل التى تؤهل صاحبها للقيادة والرياسة .

ولقد مدح الله - تعالى - العلم والعلماء فى كثير من آياته القرآنية ، ومن ذلك :

أنه - سبحانه - قرنهم بملائكته فى الشهادة له بالوحدانية فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨]

وأنه - سبحانه - رفع درجاتهم إلى منزلة لا يعلمها أحد سواه فقال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١]

وأنه - تعالى - نفى المساواة بين العلماء وغيرهم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩]

وأنه - عز وجل - قصر خشيته والخوف منه على أهل العلم والمعرفة فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] وأنه - سبحانه - أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم النافع فقال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤]

٥ - كما يؤخذ من هذه القصة كذلك : أن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس ، جعلتها لاترى البراهين الساطعة ، ولا يوجهها إلى الخير وعد ، ولا يردعها عن الشر وعيد .

فإبليس فسق عن أمر ربه عن تعمد وإصرار ، وحمله الحقد الأعمى ، والحسد الدفين ، على الامتناع عن السجود لآدم - عليه السلام - ، وحكى القرآن موقفه الذميمة فى كثير من الايات ، ومن ذلك زعمه أنه خير من آدم ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦]

وتارة يحكى القرآن صلفه وغروره : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣]

وتارة يستنكر السجود لآدم فيقول - كما حكى القرآن عنه : ﴿ قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

وهكذا نرى أن إبليس لم يكتف بمعصية الله - تعالى - عن تعمد وإصرار ، بل تجاوز ذلك إلى التبجح والغرور ، والزعم بأنه أفضل من آدم - عليه السلام - ، وأنه لا يصح أن يسجد الفاضل للمفضول . . ولذا استحق من الله - تعالى - اللعن والطرده من رحمته - عز وجل - . .

٦ - ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة - أيضا - أن العداوة بين إبليس وذريته ، وبين آدم وذريته ، عداوة قديمة ، وأنها مستمرة إلى يوم القيامة . .

وقد صرح إبليس بذلك فى كثير من الآيات القرآنية التى حكى جانبها من أقواله ، ومن ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَأَنْبِتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧]

وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٤٠ ، ٣٩]

وقوله : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِئْنِ أَخْرَتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢]

وقوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٢ ، ٨٣]

وهكذا نرى في كثير من الآيات ، أن إبليس قد جاهر بعداوته لآدم وذريته ، وأنه لن يترك طريقا يوصل إلى شقاتهم وغوايتهم وإضلالهم إلا سلكه ..

وقد حذر الله - تعالى - آدم وذريته من الانقياد لوسوسة إبليس في كثير من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧]

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦]

٧ - كما يؤخذ - أيضا - من هذه القصة ، أن المتقلب في نعمة ، يجب أن يحافظ عليها بشكر الله - تعالى - ولا يعمل عملا فيه مخالفة لأوامر الله ، لأن مخالفة أوامره - سبحانه - كثيرا ما تؤدي إلى زوال تلك النعمة .

فآدم - عليه السلام - ، قد أسكنه الله - تعالى - في جنته ، وأباح له أن يأكل من خيراتها أكلا هنيئا مريئا ، ونهاه عن الأكل من شجرة معينة ..

فلما نسى آدم أمر ربه ، وأكل من الشجرة التي نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها ، واستجاب لوسوسة إبليس وخداعه ..

كانت نتيجة مخالفته لأمر ربه ، أن أخرج من الجنة ، كما قال - تعالى - ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦]

وهكذا يرشدنا - سبحانه - عن طريق قصصه ؛ أن المحافظة على طاعة الله - تعالى - تؤدي إلى دوام النعمة ، أما نسيان هذه الطاعة فكثيرا ما يؤدي إلى زوالها .

إذا كنت فى نعمة فارعها      فإن المعاصى تُزِيل النعم  
وحافظ عليها بشكر الإله      فإن الإله سريع النقم

٨ - أن قوة الإيمان ، تتغلب على كيد الشيطان ، وأن عباد الرحمن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لا يستطيع إبليس إغواءهم أو التأثير فيهم . .

ولقد اعترف إبليس بذلك ، وحكى عنه القرآن هذا الاعتراف فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . ﴾ [الحجر : ٣٩ - ٤٢]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥]

ولقد بين لنا النبى ﷺ أن مخالفة الشيطان تؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، فقد أخرج الإمام أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وأباء أبيك؟ قال : فعصاه فأسلم .

ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتدع أرضك . . قال : فعصاه وهاجر .

ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال ، فتقاتل وتقتل فتنتكح المرأة ويقسم المال . قال : فعصاه فجاهد .

فقال رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة .

٩ - ومن الدروس التى تؤخذ من هذه القصة : أن آدم - عليه السلام - قد أخطأ فى أكله من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، ولكن هذا الخطأ لم يكن مقصورا ولا متعمدا ، بل كان عن ضعف ونسيان . .

ولقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥]

أى : والله لقد عهدنا إلى آدم وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة ، وكانت هذه الوصية من قبل أن يخالف أمرنا ، ولكن آدم نسى عهدنا ووصايانا ، ولم نجد له عزيمة ثابتة فى الصبر والمداومة على التمسك بما كلفه به ربه - عز وجل - .

وكان من الواجب عليه أن يكون دائما ممثلا لما أمره به خالقه ، ومبتعدا عن كل ما نهاه عنه - سبحانه - ، فإن من شأن الأختيار أن تقع أوامر الله - تعالى - ونواهيه ، موقع الاهتمام التام من نفوسهم ، بحيث يفعلون ما أمرهم به ، ويجتنبون ما نهاهم عنه بكل دقة وحذر ..

والذى حدث من آدم - عليه السلام - هو الغفلة عن الأخذ بالحزم فى استحضار النهى وجعله نصب عينيه ، حتى أدركه النسيان والضعف أمام وسوسة الشيطان ، ففعل ما نهاه ربه عنه وهو الأكل من الشجرة ، دون أن يكون متعمدا لمخالفة هذا النهى ، فكانت عقوبته إخراجه من الجنة .

١٠ - كذلك من الدروس الحكيمة التى نأخذها من هذه القصة : سعة رحمة الله - تعالى - ، وعظيم فضله ، وسابغ كرمه ، وقبوله لتوبة التائبين .

فآدم - عليه السلام - بعد أن تاب إلى ربه بما وقع فيه وهو الأكل من الشجرة ، قبل الله - تعالى - توبته ، وغسل حوبته ، ووقفه للمداومة على هذه التوبة ..  
قال - تعالى - ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۖ ﴾ .

أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على فعله هو وزوجه ، اصطفاه ربه وقربه واختاره ، وقبل توبته ، وهداه إلى الثبات عليها ، فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، وقال - كما حكى القرآن عنهما - : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

فكانت نتيجة هذا الندم الصادق ، أن شملهما الله - تعالى - برحمته ، وغفر لهما ما فرط منهما ، فضلا منه - سبحانه - وكرما .

وبعد : فهذا من قصة آدم - عليه السلام - كما حكاها القرآن الكريم ، ومن العبر والعظات والدروس الحكيمة التى تؤخذ منها ..

وهى دروس نافعة لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .  
وبالله التوفيق .

## ٢. قصة ابني آدم

### (قابيل وهابيل)

١ - وردت قصة ابني آدم في آيات كريمة من سورة المائدة ، وفيها يقول الله - تعالى - :

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا  
فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَنْتَقِبُ  
اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِنَفْسِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ  
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوَ بَيْنَهُ  
وَلِئِمَّاكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ  
نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَبَعَتِ اللَّهُ عُذْرًا  
بِئْسَ فِي الْأَرْضِ لِرِيبِهِ كَيْفُ يُورِي سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يَوْمَئِذٍ أُعْجِرْتُ  
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورِي سُوءَ أَخِي فَأَصْحَمَ مِنَ التَّوَمِينَ ﴿٢١﴾  
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ  
فِي الْأَرْضِ فَكَأْتُمُقْتِلَ النَّاسِ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأْتُمْ أَحْيَاءَ النَّاسِ  
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعُدَ ذَلِكَ  
فِي الْأَرْضِ لِسُرْفُونَ ﴿٢٢﴾

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة ، في أعقاب حديث طويل عن رذائل قوم موسى ،  
الذين خالفوا نبيهم موسى - عليه السلام - ، وامتنعوا عن طاعته ، وقالوا له بكل صلف

وسوء أدب : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَاقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ . والمقصود من كل ذلك :  
التخفيف عن الرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، وبيان أن الذين عصوا أنبياءهم واعتدوا  
عليهم ، قد اقتفوا الطريق الذي سلكه قابيل فى عدوانه على أخيه هايبيل . .

والمعنى : واقرأ يا محمد على الناس ، بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، لكى يعتبروا  
ويتعظوا ، قصة ابني آدم وهما قابيل وهايبيل ، حيث قدم كل واحد منهما قربانا ، أى  
صدقة يتقرب بها إلى الله - تعالى - ؛ فتقبل الله - عز وجل - صدقة هايبيل ؛ لصدقه  
وإخلاصه ، ولم يتقبل صدقة قابيل ؛ لسوء نيته وعدم تقواه فقال قابيل على سبيل  
الحسد والظلم لأخيه هايبيل : لأقتلنك بسبب قبول صدقتك دون صدقتى . .

فكان رد هايبيل المخلص التقى ، على أخيه قابيل الظالم الحسود : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ  
الْمُتَّقِينَ ﴾ .

أى : إنما يتقبل الله - تعالى - الطاعات والصدقات ، من عباده المتقين الذين يخشونه في  
السر والعلن ، وليس من سواهم من الظالمين والحاسدين لغيرهم على ما آتاهم الله من  
فضله ، فعليك أن تكون من المتقين لكى يتقبل الله - تعالى - منك .

فردُّ هايبيل على أخيه قابيل ، قد اشتمل على أسمى ألوان النصيحة ، وأحكم أنواع  
الإرشاد ، حيث بين له الوسيلة التى تجعل صدقته مقبولة عند الله - تعالى - ألا وهى  
التقوى وصيانة النفس عن كل ما لا يرضاه - سبحانه - .

٢ - ثم انتقل هايبيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه ، إلى تذكيره بما تقتضيه الأخوة من بر  
وتسامح ، فقال : ﴿ لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني  
أخاف الله رب العالمين ﴾ .

أى : قال هايبيل لقابيل مذكرا إياه بحقوق الأخوة : لئن مددت إلى يدك بالاعتداء  
والقتل ظلما وحسدا ، فأنا لن أقابل فعلك بمثله حتى ولو كنت قادرا على ذلك ، لأنى  
أخاف الله - تعالى - رب العالمين ، وأكره أن يرانى - سبحانه - باسطا يدي إليك بالقتل ،  
إذ القتل جريمة منكرة ، ولا سيما إذا حدثت بين أخوين . . والمتدبر فى كلام الأخوين  
يرى أن قابيل قد أكد تصميمه على القتل بجملته قسمية ، وهى «لأقتلنك» ، ويرى أن  
هايبيل قد أكد نفوره من القتل بجملته قسمية - أيضا - وهى قوله - تعالى - : ﴿ لئن  
بسطت .. ﴾

وبذلك يظهر الفرق الشاسع بين الأخوين فى الأخلاق والسلوك والطباع .

٣ - ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر فى وعظه لأخيه ، إذ أخذ يحذره من سوء المصير للقاتل ، فقال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى قال هابيل لقابيل محذرا وزاجرا : لقد بينت لك أن الله - تعالى - إنما يتقبل من عباده المتقين ، فعليك أن تكون منهم ، وأرشدتك إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من تسامح ومحبة ، وأعلنت لك أن خوفى من الله هو الذى يمنعنى من أن أمد يدى إليك بالقتل دفاعا عن نفسى ..

وأخيرا أبين لك : أنى أريد بامتناعى عن قتلك ، وبتصميمك على قتلى ، أن تبوء بإثمى وإثمك ، أى : أنى أريد أن ترجع إلى الله - تعالى - وأنت متحمل ذنب قتلك إياى ظلما وحسدا ، وذنب إصرارك على هذا القتل وعدم قبولك لنصائحى ..

فتكون بسبب هذين الذنبيين من أصحاب النار فى الآخرة ، وذلك العقاب العادل ، جزاء الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم ، وظلموا غيرهم .

وإلى هنا نرى أن هابيل قد وجه إلى أخيه عددا من النصائح الحكيمة ، بأساليب متنوعة فيها الترغيب وفيها التهيب ..

٤ - ولكن قابيل لم يستمع إلى النصائح ، بل أقدم على جريمته النكراء ، التى حكاها القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ .. ﴾ أى : فسولت له نفسه الأمر ، وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طَوْعٌ سهل . يقال : طاع الشيء يطوع ، أى : «سهل وانقاد ..» (١) .

والمعنى : أن قابيل سهلت له نفسه وزينت له - بعد هذه المواعظ - قتل أخيه هابيل ، فقتله فأصبح من الخاسرين فى دنياه وفى أخراه .

أصبح من الخاسرين فى دنياه ، لأنه قتل أخاه ، والأخ سند لأخيه ، وعون له ..

وأصبح من الخاسرين فى الآخرة ، لأنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها ألا وهى جريمة القتل ..

(١) تفسير القرطبى ج٦ ص ١٣٨ .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فَطَوَّعَتْ ﴾ : تعبير دقيق بليغ ، فإن هذه الصيغة - صيغة التفعيل - تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفس قابيل ، قبل الإقدام على قتل أخيه ، ولكن نوازع الشر فى نفسه ، تغلبت على دوافع الخير . .

٥ - ثم حكى القرآن ما حدث بعد أن قتل الأخ أخاه فقال : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

والمعنى : أن قابيل بعد أن ارتكب جريمته الشنعاء ، ورأى جثة أخيه هابيل أمامه ملقاة بالعراء ، تحير ماذا يفعل فيها . .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : فأرسل الله - تعالى - غرابا يحفر وينبش بمنقاره ورجليه فى الأرض ﴿ لِيُرِيَهُ ﴾ أى : ليعلم ذلك القاتل ويعرفه ﴿ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ ﴾ .

أى : كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقتة الحياة ، وأصبح عرضة للتغير والتعفن ، وفريسة للحيوانات والطيور . .

وهنا شعر قابيل بالتحسر والندم فقال : ﴿ يَا وَيْلَتَى ﴾ أى : يا فضيحتى ومصيبتى ، ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ﴾ أى : أضعفت حيلتى عن أن أكون مثل هذا الغراب فأستر جسد أخى فى التراب ، كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه ما يريد دفنه؟ والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ، مع أنه إنسان فيه عقل ، والغراب طائر من أخس الطيور .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ : تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانا وحسدا ، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب .

أى : فأصبح قابيل من النادمين المتحسرين المتأسفين لقتله أخاه ظلما وحسدا .

٦ - هذه هى قصة ابنى آدم : قابيل وهابيل ، كما وردت فى القرآن ، والمتدبر فيها يرى ألوانا من العظات الحكيمة ، والعبر البليغة ، والدروس المفيدة التى من أهمها :

( أ ) أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، لأن هذه القصة وأمثالها لم يكن للرسول ﷺ علم بها ، وإنما أخبره الله - تعالى - بها وبغيرها ، وبهذا الأسلوب البليغ المؤثر ، وبهذا

البيان الصادق الأمين ؛ لينتفع العقلاء بما فى هذا القصص من هدايات وعظات وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦٢]

(ب) أن تقوى الله - تعالى - وإخلاص النية له - سبحانه - فى الأقوال والأعمال ، أساس القبول عنده - عز وجل - . ومن الأدلة على ذلك .

قوله - سبحانه - : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قيل يا رسول الله ، من أكرم الناس ؟ قال : «أتقاهم» .

ومن كل ذلك يتبين لنا صدق ما حكاه القرآن الكريم عن هابيل وهو ينصح أخاه قابيل بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(ج) أن الناس فى كل زمان ومكان ، فيهم الأخيار الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وفيهم الأشرار الذين إن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .. أما الأخيار فنراهم بوضوح فى شخص «هابيل» ، الذى حكى عنه القرآن الكريم ، أنه نصح أخاه بتلك النصائح الحكيمة .

نصحه - أولا - بتقوى الله لكى يقبل عمله ، ونصحه - ثانيا - بمراعاة حقوق الأخوة وما تستلزمه من بر وحب ، ونصحه - ثالثا - بعدم الإقدام على تلك الجريمة النكراء وهى القتل ..

وأما الأشرار فنراهم بوضوح - أيضا - فى شخص «قابيل» الظالم الحقود ، الذى لم يستمع إلى نصائح أخيه له ، بل تغلبت عليه شقوته فأقدم على قتل أخيه ، بدافع الغل والحسد .

(د) أن رذيلة الحسد إذا تمكنت من النفس أوردتها المهالك ، وزين لها البغى والطغيان ، والإثم والعدوان ..

وفى قصة ابنى آدم نرى هذا المعنى واضحا ، فإن حسد قابيل لهابيل على رأس الأسباب التى حملته على قتله ، وكان هذا القتل من الأخ لأخيه هو أول جريمة قتل على ظهر الأرض .

قال الألوسى : «أخرج الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها - أى : نصيب من دمها - ، لأنه أول من سنّ القتل» .

وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : «إننا لنجد ابن آدم القاتل ، يقاسم أهل النار العذاب ، عليه شطر عذابهم»<sup>(١)</sup> .

والآية الكريمة التى جاءت فى أعقاب هذه القصة ، أشارت إلى شناعة جريمة القتل ، قال - تعالى - : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ - أى : من أجل قتل قابيل لأخيه هابيل حسداً وظلماً ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفساد - ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ - أى : من قتل نفساً واحدة من النفوس البشرية بغير موجب للقتل - أو فساد فى الأرض ، ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ ومن أحياها - أى : تسبب فى إحيائها - ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

(هـ) أن ندم الإنسان على ما وقع منه من أخطاء ، لا يرفع عنه العقوبة ، لأن هذا الندم أمر طبيعى يحدث لكثير من الناس فى أعقاب ارتكابهم للشُرور والقبائح ..

أما الندم الذى يرفع العقوبة عن الإنسان عند الله - تعالى - ، فهو الذى تعقبه التوبة الصادقة ، التى تجعل الإنسان يعزم عزمًا أكيدا على عدم العودة إلى ما نهى الله - تعالى - عنه فى الحال أو الاستقبال والتأسف على ما كان منه فى الماضى ، ورد المظالم إلى أهلها ..

## قصة إدريس - عليه السلام -

ذكر المؤرخون في نسب إدريس - عليه السلام - ، أنه ابن يارد ، بن مهلائيل ، بن قينان ابن أنوش ، بن شيث بن آدم - عليه السلام - .

قالوا : واسمه في التوراة بالعبرية «خنوخ» وفي الترجمة العربية «أخنوخ» وقد جاء الحديث عنه في القرآن الكريم بصورة مجملة ، قال - تعالى - : ﴿ وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦ ، ٥٧]

أى : واذكر في الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، خبر أخيك إدريس - عليه السلام - فإنه كان ملازما للصدق ، وكان من شرفناهم بالنبوة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ زيادة فى تكريمه وتشريفه - عليه السلام - .

أى : أنه فوق ملازمته للصدق وتكريمه بالنبوة ، رزقناه الرضا منا ، والمنزلة العالية التى لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

وقيل المراد برفعه إلى المكان العلى : إسكانه الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك .

وروى أن النابغة الجعدى لما أنشد قوله :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا  
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له الرسول ﷺ : «إلى أين يا أبا ليلى؟ قال : إلى الجنة . فقال ﷺ : أجل إن شاء الله» .

قال الألوسى - رحمه الله - : «وإدريس هو نبي قبل نوح - عليهما السلام - ، وبينهما ألف سنة .

وهو أول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم - عليه السلام - .

وكان إدريس - عليه السلام - من بين الأنبياء الذين التقى بهم النبي ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج ، ففى الصحيحين عن مالك بن صعصعة - رضى الله عنه - قال : «قال ﷺ : فأتيت إدريس فسلمت عليه فقال : مرحبا بك من أخ ونبى» .

هذا ، ولم يرد نص صحيح من كتاب الله - تعالى - أو من السنة النبوية الشريفة ، عن القوم الذين أرسل الله - تعالى - إليهم نبيه إدريس - عليه السلام - إلا أن المؤرخين ذكروا

أنه ولد ببابل بالعراق ، وأن الله - تعالى - أرسله إلى أهل بابل ، ثم هاجر إلى مصر فأخذ يدعو أهلها إلى عبادة الله - تعالى - فأطاعه من أطاعه منهم ، وأعرض عنه من أعرض ، واستمر في دعوته إلى إخلاص العبادة لخالقه إلى أن لقي ربه - تعالى - (١) .

---

(١) تفسير الألوسي ج٦ ص ١٠٥ .

## قصة نوح - عليه السلام - مع قومه

١ - وردت قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، فى سور متعددة منها : سورة الأعراف ويونس وهود والمؤمنون والشعراء ونوح ..

وينتهى نسب نوح إلى آدم - عليهما السلام - وقد ذكروا أن المدة بينهما تقارب ألفى عام ، وتكرر ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .

وكان قوح نوح - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحا ، ليرشدهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وينهاهم عن عبادة أحد سواه .

قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس : كان أول ما عبدت الأصنام ، أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، صوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان ، جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما تمدى الزمان ، عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين . وُدًا ، وسُواعا ، ويَعُوثَ ، وَيَعُوقَ ، وَنَسْرًا ..

فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا ، فأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده . « (١) .

٢ - ومن الآيات التى تحدثت عن قصة نوح مع قومه ، قوله - تعالى - فى سورة الأعراف :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا  
 اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾  
 قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ  
 وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ  
 مِمَّن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى  
 رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنِبْتُهُ  
 وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا  
 قَوْمًا عَمِينَ ﴿٥٦﴾

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣٢ .

أى : لقد أرسلنا عبدنا نوحًا إلى قومه بعد أن عكفوا على عبادة الأصنام - ، فقال لهم بتلطف وأدب : يا أهلى وعشيرتى ، اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، فإنى أخاف عليكم إذا ما سرتم فى طريق الشرك والضلال ، عذاب يوم القيامة ، الذى لا توصف أهواله فى الشدة والعظم .

بهذا الأسلوب المقنع المهدب دعا نوح - عليه السلام - قومه . فماذا كان ردهم عليه؟  
لقد ردوا عليه رداً قبيحاً ، حكاه القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ولفظ ﴿ الْمَلَأُ ﴾ يطلق على أشرف القوم وزعمائهم ، وسموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء .

أى : قال الأغنياء والزعماء من قوم نوح - عليه السلام - فى الرد عليه : يا نوح إنا لنراك بسبب أمرك لنا بعبادة غير ألهتنا ، فى انحراف واضح عن الطريق الذى نعتقد استقامته .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «وهكذا حال الفجار . إنهم - لانطماس بصائرهم - يرون الأبرار فى ضلالة . كما قال - تعالى - فى شأن الكافرين : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾ .

أى : وإذا ما أرى الكافرون المؤمنين قالوا عنهم : إن هؤلاء المؤمنين لضالون ؛ لأنهم تركوا ما كان عليه أبائهم وأجدادهم .

٣ - ثم حكى القرآن الكريم أن نوحا - عليه السلام - قد دفع عن نفسه هذا الاتهام الباطل بأسلوب عف حكيم فقال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد نفى عن نفسه أدنى شىء مما يسمى بالضلال الذى اتهموه به ، فضلاً عن الضلال فى ذاته ، ثم وصف نفسه بعد ذلك بأربع صفات كريمة :

أولها قوله : ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : قال لهم أنا لا يوجد بى شىء من الضلال ، ولكنى رسول إليكم من رب العالمين ، لأمركم بعبادته وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره .

وثانيها قوله : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ أى : أبلغكم ما أوحاه الله - تعالى - إلى من الأوامر والنواهي ، والمواعظ والزواجر . .

وثالثها قوله : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ أى : وأتحرى فى إبلاغكم النصيحة التى فيها صلاحكم وسعادتكم .

ورابعا قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : وقد أعلمنى الله - بفضله وإحسانه - من الأمور ما لا تعلمونه أنتم ، فأنا أحذركم عن علم ، وأنذركم عن بينة .

٤ - وبعد أن نفى نوح عن نفسه ما وصفوه به من ضلال ، وأثبت لنفسه تلك الصفات الأربع ، أخذ ينكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله - تعالى - بالنبوة فقال : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

والمعنى : أكذبتمونى واتهمتمونى بالضلال ، وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم ، على لسان رجل منكم ، تعرفون مولده ونشأته وصدقه ، ليخوفكم من سوء عاقبة الكفر وليأمركم بتقوى الله - تعالى - وخشيته ، وليبشركم بالرحمة والمغفرة إذا ما أخلصتم عبادتكم لخالقكم؟

والاستفهام هنا للإنكار والتعجب من حالهم .

أى : إن كان عجبكم من أنى قد جئتكم بما يصلحكم ، فأنتم فى هذه الحالة الذين تستحقون أن يتعجب منكم!!

٥ - هذا جانب من أسلوب نوح - عليه السلام - فى دعوته لقومه ، وقد كانت نتيجة مواقفهم القبيحة منه أن أغرقهم الله - تعالى - حيث قال - سبحانه - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .

أى : فكذب هؤلاء القوم نبيهم نوحا ، فكانت نتيجة ذلك ، أن نجى الله نوحا ومن معه من الغرق ، وأغرق - سبحانه - الكافرين من قومه ؛ لأنهم كانوا عُمى البصائر عن الحق والإيمان ، وهذه سنة الله - تعالى - فى خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين ، وسوء المصير للكافرين .

٦ - وفى سورة «يونس» آيات كريمة ، حدثتنا عن جانب من قصة نوح - عليه السلام - حديثا يبرز لنا تصميمه على تبليغ رسالة الله - تعالى - وهذه الآيات هى قوله تعالى - :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ

أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ  
 أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ  
 فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ  
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٨﴾

أى : واتل - يا محمد ﷺ على مسامع المشركين من قومك ، قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، حيث قال لهم بكل ثبات وثقة : يا قوم ، إن كان قد شق وعظم عليكم مقامى فيكم ، ووجودى بين أظهركم زمنا طويلا ، وتذكيرى إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته . . إن كان قد شق عليكم ذلك ، فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بى ، ثم ادعوا شركاءكم وأصنامكم ليشاركوكم فى ذلك ، ثم لا يكن أمركم الذى أجمعتم على تنفيذه ، فيه شىء من الستر أو الخفاء أو التردد ، ثم أبلغونى بما تريدون إنزاله بى من أذى أو قتل ، بدون إنظار أو أمهال ، فأنا لست خائفا من وعيدكم أو تهديدكم .

فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد تحدى قومه بأنه ماض فى طريقه ، دون أن يصرفه عن ذلك تهديدهم له ، أو سفاهتهم معه . ثم يواصل حديثه مع قومه ، بعد هذا التحدى السافر لهم فيقول : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى : فإن أعرضتم عنى وعن دعوتى ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : أنا لا أطلبكم بأجر على دعوتى لكم إلى الحق ، بل أطلب الأجر منه - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون ممن أسلموا وجوههم لذاته .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ، وسوء عاقبة الذين كذبوه فقال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ .

أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض لأولئك المغرقين ﴿ فَاَنْظُرْ ﴾ أيها العاقل ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ ؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله بالطوفان ، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

٧ - وفى سورة هود وردت قصة نوح - عليه السلام - بصورة أكثر تفصيلا ، فقد تحدثت عن دعوة نوح لقومه ، وعن المحاورات التى دارت بينه وبينهم ، وعن أمر الله - تعالى - له بصنع السفينة ، وعن سخرية قومه منه ، وعن غرق ابنه مع الغارقين . .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكُ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَادُوا الرَّأْيِي وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي فَهَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُرِيكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٧٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ لَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُ قَوْمِ رَبِّيهِمْ وَالْكَافِرِينَ أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَيْنَ نَحْنُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْشَرْتِ جَدَلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّأَمِنْ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا

تَخِطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ  
عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ صِخْرًا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ  
كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ  
عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ  
وَمَنْ أَمِنَ وَمَاءٌ مِمَّنْ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ  
مَجْرِبَهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي  
مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ  
مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَاعِدْ إِلَى الْجَبَلِ يَعْصِمُنِي  
مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا  
الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَّامَاءُ  
أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا  
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَنَادَى نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي  
وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ  
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكَ  
أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي  
بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ  
بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَسِتْنَهُمْ  
ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾

أى : لقد أرسلنا رسولنا نوحا إلى قومه ؛ ليأمرهم بإخلاص العباداة لنا ، ولينهاهم عن الكفر والضلال ، فحذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ..

ولكن الأغنياء والزعماء من قومه قالوا له على سبيل السخرية : ما نراك إلا بشرا مثلنا ، فليست فيك ميزة تجعلك مختصا بالنبوة دوننا ..

فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لا تكون فى البشر ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون النبى واحدا منهم حتى يفهموا عنه ..

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نراك اتبعك إلا الذين هم فقراؤنا ، وأقلنا شأننا ، وأحقرنا حالا ، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، أو أنهم اتبعوك ظاهرا لا باطنا .

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة ، مزاعم أخرى فقالوا : وما نرى لكم علينا زيادة لا فى العقل ولا فى غيره ، بل الذى نعتقده أنكم كاذبون ..

٨ - وهنا نجد نوحا - عليه السلام - يرد عليهم ردا حكيما يزهق باطلهم فيقول :

أى : قال نوح لقومه : أخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربه ، بها يتبين الحق من الباطل ، ومنحنى الله - تعالى - النبوة التى هى رحمة منه ، فخفضت عليكم ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ..

أستطيع أنا بعد أن تبلدت عقولكم ، وركبكم العناد ، أن ألزمكم برأى ، وأن أجبركم على اتباع الحق وأنتم له كارهون؟

بما لا شك فيه أنى لا أستطيع ذلك ، لأنى لست عليكم بجبار ..

ثم وجه نوح - عليه السلام - إلى قومه نداء ثانيا فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ أى : لا أسألكم أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق ﴿ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ - تعالى - وحده .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ .

أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ، لأن الله - تعالى - سيحاسب الجميع على أعمالهم ، ولكن مع هذا البيان الواضح أراكم قوما تجهلون ما هو واضح ، لغباؤكم وسفاهتكم وقلة إدراككم ..

ثم وجه إليهم نداء ثالثا فقال: ﴿وَيَا قَوْمٍ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

أى : ويا قوم من يستطيع أن يجيرنى من عذاب الله - تعالى - إن طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء عن مجلسى ، أفلا تتذكرون هذا الإرشاد الحكيم!!!

ثم أخذ نوح - عليه السلام - بعد هذه النداءات لقومه ، يفند شبهاتهم شبهة بعد أخرى فيقول: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

أى : وأنا فضلا عن كل ذلك ، لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الأرزاق ، ولا أقول لكم إنى أعلم الغيوب التى لا يعلمها إلا الله - عز وجل - ، ولا أقول لكم كذلك بأنى ملك من الملائكة ، وإنما أنا بشر مثلكم إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بالنبوة ..

ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تحتقرونهم لفقركم ، أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا كثيرا من فضله وكرمه ، فهو - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر .. ولو قلت لكم شيئا من ذلك ، لكنت من الظالمين لأنفسهم ..

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يجادل قومه بهذا الأسلوب المقنع الحكيم ، فيرد شبههم ، ويزيل أباطيلهم ، ويأتى على بنيانهم من القواعد ..

٩ - وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نوح - عليه السلام - بأسلوب ردّ الحجة بالحجة ، لجأوا إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم ، فقالوا - كما يحكى القرآن عنهم - : ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْشَرْتَ جِدَانَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

أى : قال الكافرون من قوم نوح له بعد أن غلبتهم الحجة : يا نوح قد خاصمتنا حتى لم تترك لنا مجالاً للرد عليك ، فأتنا بما تعدنا به من العذاب ، إن كنت من الصادقين فى كلامك . وهكذا شأن الجاهلين المعاندين ، إنهم يشهرون السيف فى وجوه الناس ، إذا أعجزتهم الحجة ، ويعلمون التحدى والعناد إذا يئسوا من مواجهة الحق ..

ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، وإنما رد عليهم بكل أدب بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

أى : قال نوح لقومه بكل تواضع وأدب : يا قوم إن الذى يأتىكم بالعذاب الذى تستعجلونه هو الله - تعالى - وحده ، وإذا أنزله بكم فلن تستطيعوا الهروب منه ..

وإنى قد دعوتكم إلى الحق بكل أسلوب ، ولم أقصر معكم فى النصيحة ، ومع ذلك فإن نصحى لن يفيدكم شيئا مادمتم مصرين على كفركم ..

وإذا كان الله - عز وجل - قد أراد إضلالكم فلن أملك لكم من الأمر شيئا ، فهو - سبحانه - الذى بيده أموركم وأحوالكم ، وهو - سبحانه - ربكم وإليه مرجعكم وسيحاسبكم على أعمالكم .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبورا جميلا .

١٠ - ثم حكى السورة - الكريمة بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أوحى إلى نبيه نوح - عليه السلام - أن قومه لا أمل فى إيمانهم ، ولا خير يرجى منهم ، فقال - سبحانه - :

﴿ وَأَوْحِي إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

أى : وبعد أن لج قوم نوح فى طغيانهم ، أوحى الله - تعالى - إلى نبيه نوح ، بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع منه الإيمان ، وعليه ألا يحزن بسبب إصرارهم على الكفر .

ثم أمره - سبحانه - بأن يصنع سفينة ضخمة ، لتكون وسيلته هو ومن آمن معه فى النجاة من العذاب الذى سيصيب أعداءه فقال - تعالى - : ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

أى : برعايتنا وقدرتنا ﴿ وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ .

أى : ولا ترجونى يا نوح فى رحمة هؤلاء الظالمين ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .

ثم حكى القرآن ما كان من شأن نوح بعد ذلك فقال : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

أى : وامثل نوح لأمر ربه ، فأخذ يصنع السفينة ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها سخروا منه ، واستهزءوا به .

فكان جوابه عليهم : إن تسخروا منا اليوم ، فإننا سنسخر منكم فى الغد القريب ، وسوف تعلمون عما قريب ، من منا سينزل عليه العذاب الذى يخزيه ولا يتحول عنه .

١١ - ثم حكى الآيات بعد ذلك أن نوحا - عليه السلام - قد حمل فى السفينة من كل صنف ذكرا وأنثى ، وسارت السفينة به وبمن معه من المؤمنين فى موج كالجبال . .

قال - تعالى - : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

والمعنى : لقد امثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لعبده نوح - عليه السلام - : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى ، واحمل فيها من آمن بك من أهل بيتك ، وكذلك جميع المؤمنين .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ .

أى : ونادى نوح ابنه الكافر وكان فى مكان منعزل عن جماعة المؤمنين فقال له بعاطفة الأبوة الحانية ﴿ يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ .

قال نوح - عليه السلام - : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

أى قال نوح لابنه : لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله -تعالى- بلطفه وإحسانه ، وفصل الموج بهديره بين نوح وبين ابنه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين المغرقين .

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة ، ما دار بين نوح وابنه من محاورات ، فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التي يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود ، لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم . .

١٢ - وبعد أن أغرق الله -تعالى- الكافرين ، ونجى المؤمنين ، وجه -سبحانه- أمره إلى الأرض والسماء فقال : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي ﴾ أى : كُفِّى عن إنزال المطر ﴿ وَغِيضِ الْمَاءِ ﴾ أى : نضب ونقص . . ﴿ وَقَضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى : بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أى : واستقرت السفينة على الجبل المسمى بهذا الاسم بشمال العراق . . ﴿ وَقِيلَ بُعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : هلاكاً وبعداً للقوم الظالمين .

ثم ختم -سبحانه- قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الضراعة التي تضرع بها نوح إلى ربه بشأن ولده فقال : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

أى : وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق ، وأنت يارب قد وعدتني بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ، لكنى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن ابنى وفى رحمتك له ، فأنت يا إلهى لا راد لحكمك ، ولا معقب لأمرك . .  
وهنا أجابه الله -سبحانه- بقوله : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . ﴾ .

أى : قال الله -تعالى- لنوح : يا نوح إن ابنك ليس من أهلك المؤمنين الذين وعدتكم بنجاتهم ، فإنه قد عمل فى دنياه الأعمال السيئة التي أشنعها الإصرار على الكفر . .

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أى : فلا تسألن ما لا علم لك به على وجه اليقين أصواب هو أم خطأ؟ بل عليك أن تتثبت من صحة ما تطلبه قبل أن تقدم على طلبه ، وإنى أنهاك أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

وهنا بادر نوح إلى طلب العفو والمغفرة من ربه فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أى : قال نوح ملتئسا العفو من ربه : يارب إنى أعود بك ، وأحتمى بجنابك ، من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولا تقي ، ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط منى من قول ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ برحمتك الواسعة ﴿ أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأنفسهم .

وختم الله - تعالى - هذه القصة ببشارة نوح - عليه السلام - بما يسره ويرضيه فقال : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمْتِعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لنبيه نوح - عليه السلام - : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك وعلى أتباعك وأتباع أتباعك المؤمنين ، وهناك أم أخرى ستمتعهم بنعمنا فى الدنيا ، ثم يمسه منا عذاب أليم فى الآخرة ، بسبب جحودهم لنعمنا ، وعدم شكرنا عليها .

وهكذا نجد أن سورة هود - عليه السلام - قد ساقنا لنا جانبا من قصة نوح مع قومه ، بصورة أكثر تفصيلا لها من غيرها .

١٣ - وفى سورة «المؤمنون» آيات كريمة ، تحدثت عن جانب من المحاورات التى دارت بين نوح - عليه السلام - وبين قومه ، وعن ألهتهم الباطلة التى وجهها الكافرون إلى نبيهم نوح - عليه السلام - ، وعن الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إلى ربه - عز وجل - .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

إِنْ هُوَ إِلَّا

رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَمَا تَبْصُرُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون ﴿١٦﴾  
فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ  
التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِشٍ وَاهْلِكِ إِلَّا مَنْ سَبَقَ  
عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٧﴾

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَجَّأَنَا  
 مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْ لِي مِزْلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ  
 الْمُنزِلِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٧٠﴾

أى : قال نوح لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده : أفلا تتقون الله - تعالى - ، وتخافون عقوبته ، بسبب عبادتكم لغيره ..

ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ .

أى : فقال الكبراء الكافرون من قوم نوح - عليه السلام - لضعفائهم ، وعلى سبيل التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم : ما نوح إلا بشر مثلكم ، ولكنه ابتدع هذا الدين الجديد ليكون له الفضل عليكم ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل رسولا لأرسله من الملائكة ..

وإن ما جاءنا به نوح ما سمعنا به من آبائنا الأولين الذين ندين بدينهم .. وإن نوحا ما هو إلا رجل به حالة من الجنون والخلل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه أو موته ، وعندئذ تستريحون منه ومن دعوته التي ما سمعنا بها في آبائنا الأولين .

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا - عليه السلام - بأقبح مواجهة ، حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه ليس نبيا ، لأن الأنبياء - فى زعمهم - لا يكونون من البشر ، وأنه قد خالف ما ألفوه من آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون ، وأنه عما قريب سيأخذه الموت ، أو يشفى مما هو فيه .

وهكذا الجهل والغرور والجنود ، عندما يستولى على النفوس ، يحول فى نظرها الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص لله إلى حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول ، إلى شىء غير معقول وغير مقبول ، وكمال العقل ورجحانه إلى جنونه ونقصانه .

١٤ - ثم يحكى القرآن الكريم أن نوحا - عليه السلام - بعد أن استمع إلى ما قاله قومه فى شأنه من ضلالات وسفاهات ، لجأ إلى ربه - عز وجل - يشكو إليه ما أصابه منهم ،

ويلتمس منه النصر عليهم فيقول - كما حكى القرآن عنه - ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴾ .

أى : يا رب انصرنى عليهم ، بسبب تكذيبهم لى ، وتطاولهم علىّ ، وسخريتهم منى ، وإصرارهم على كفرهم .

وقد أجاب - سبحانه - دعاء رسوله نوح - عليه السلام - فقال : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ أى : برعايتنا وحفظنا ..

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ ﴾ أى : فإذا ما اقترب وقت عقابنا لهم ، وحانت ساعته ، وظهرت علاماته ، وهي غليان الماء الذى ينبع من فوق التنور ، وهو الفرن الذى يخبز فيه الخبز .. ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أى : فى السفينة ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِثْقَالِ اثْنَيْنِ ﴾ أى : فأدخل فى السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ ﴾ .

أى : واصحب فى السفينة معك - أيضا - أهلك المؤمنين ، إلا من بقى على الكفر منهم فاتركه ولا تصحبه معك ولا تكلمنى فى شأن أحد من هؤلاء الكافرين ، فإن العذاب سيهلكهم جميعا .

ثم أرشد - سبحانه - نوحا إلى ما يقوله بعد أن يستقر على السفينة فقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ .

أى : فإذا ما استويت - يا نوح - أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ، فاحمدوا الله - تعالى - حمدا كثيرا ، حيث نجاكم من القوم الظالمين ، وقولوا يا ربنا أنزلنا مكانا مباركا مليئا بالخيرات ، وأنت يا إلهنا خير المنزلين لنا بفضلك وكرمك فى المكان الطيب .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ساقنا لها بأسلوبها البليغ الحكيم ، جانبا من قصة نوح مع قومه ، نرى فيه أدب نوح فى دعوته إلى الحق ، كما نرى فيه سفاهات قومه ، ولجوته إلى الله - تعالى - لكى ينصره عليهم .

١٥ - وفى سورة الشعراء ، نجد جانبا من هذه القصة ، ولكن بأسلوب آخر ، تبدو فيه حكمة سيدنا نوح - عليه السلام - وردة الحاسم ، وثقته فى نصر ربه له .. وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ  
 أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا  
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ  
 وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٩﴾ \* قَالُوا أَأَتُونُكَ مِنْ لَدُنْكَ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرْدَ زَلُونٌ ﴿١١٠﴾  
 قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ  
 ﴿١١٢﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾ قَالُوا لَيْنَ  
 لَمْ نُنْتَه يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٦﴾  
 فَافْعَلْ بِنَبِيِّهِمْ مَا تَنْهَى عَنِ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٧﴾ ثُمَّ آغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١١٨﴾ إِنْ فِي  
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ  
 الرَّحِيمُ ﴿١٢٠﴾

أى : أن قوم نوح - عليه السلام - بسبب تكذيبهم له ، كأنهم قد كذبوا كل رسول بعثه  
 الله - تعالى - لأن رسالة الرسل جميعا واحدة فى أصولها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح لهم فقال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي  
 لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ  
 الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ .

أى : قال نوح - عليه السلام - لقومه بلسان صادق ، وبمحبة خالصة : يا قوم اتبعوا  
 أمرى ، وأخلصوا العبادة لخالقكم ، واتركوا عبادة غيره ، فأنا لكم رسول أمين ، ولا أطلب  
 منكم أجرا على دعوتى ، وإنما أطلبه من الله وحده ، وما دام الأمر كذلك فاسمعوا قولى  
 واتبعوا نصيحتى .

وهكذا نرى أن نوحا -عليه السلام- قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى دعوتهم إلى الله -تعالى- ، فقد حضهم على تقوى الله ثلاث مرات ، بعد أن بين لهم أخوته لهم ، وأمانته عندهم ، وتعففه عن أخذ أجر منهم ..

فماذا كان ردهم عليه؟ لقد كان ردهم سيئا وقييحا حيث قالوا له : ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ .

أى : قالوا له بسفه وغرور : «أنؤمن لك والحال أن الذين اتبعوك من فقراء الناس وضعفائهم؟ وهنا يرد عليهم نوح -عليه السلام- ردا حكيما فيقول : ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

أى : قال لهم على سبيل الاستنكار لما واجهوه به : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله -تعالى- ، أما أنا فوظيفتى قبول أعمال الناس على حسب ظواهرها ، وحسابهم بعد ذلك على الله -تعالى- وما أنا بحال من الأحوال بطارد المؤمنين الذين اتبعونى وصدقونى سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء ، فأنت ترى أن نوحا -عليه السلام- قد جمع فى رده عليهم ، بين المنطق الرصين الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم ..

لذا نراهم وقد أخرجهم المنطق القويم يلجأون إلى التهديد والوعيد فيقولون له : ﴿لَنْ لَّمَّ تَنْتَه يَا نُوحُ لِتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أى : لئن لم تكف عن دعوتك لرجمنك بالحجارة حتى تموت .

وهنا لجأ نوح إلى ربه يسأله النصر على قومه بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا فقال : ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنْجِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُون . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ . إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

قال نوح ملتصقا النصر من ربه : يا رب إن قومى قد كذبوا دعوتى ، فاحكم بينى وبينهم بحكمك العادل ، ونجنى ومن معى من المؤمنين من عذابك وعقابك ، فأجاب الله -تعالى- دعاء نبيه نوح -عليه السلام- فأنجاه ومن معه من المؤمنين فى السفينة التى امتلأت بهم وبما هم فى حاجة إليه ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين على كفرهم من قومه .

إن فى ذلك الذى ذكرناه لك -أيها الرسول الكرم- من قصة نوح مع قومه لعبرة وعظة ، وما كان أكثر قومه من المؤمنين ، ولكن كان أكثرهم من الضالين ، وإن ربك -أيها الرسول الكرم- لهو العزيز الرحيم .

وهكذا ساقنا لنا سورة الشعراء جانبا من قصة نوح مع قومه ، وهذا الجانب فيه ما فيه من العبر لقوم يتفكرون .

١٦ - وفى القرآن الكرم سورة كاملة تسمى بسورة نوح -عليه السلام- ، والمتدبر لهذه السورة الكريمة يراها تحكى لنا ما قاله نوح لقومه ، وما ردوا به عليه . .

كما تحكى لنا تضرعه إلى ربه ، وما سلكه مع قومه فى دعوتهم إلى الحق ، تارة عن طريق الترغيب ، وتارة عن طريق التهيب ، وتارة عن طريق دعوتهم إلى التأمل والتفكير فى نعمة الله -تعالى- ، عليهم ، وتارة عن طريق تذكيرهم بخلقهم . .

كما تحكى لنا أنه بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولم يؤمن معه منهم إلا القليل ، دعا الله -تعالى- أن يستأصل شأفتهم ، فأجاب الله -تعالى- دعوته ، وأغرق أعداءه جميعا .

وتبدأ هذه السورة بقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . أَى : إلى وقت معين لم تتجاوزوه - إن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

١٧ - ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما تضرع به نوح إلى ربه ، وما وجهه إلى قومه من نصائح فيها ما فيها من الترغيب والتهيب ، ومن الإرشاد الحكيم ، والتوجيه السديد ، فقال : -تعالى- :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾

[ نوح ]

أى :قال نوح متضرعا لله ربه : يا رب إنك تعلم أننى لم أقصر فى دعوة قومى إلى عبادتك ، تارة بالليل وتارة بالنهار ، من غير فتور ولا توان ، فلم يزدهم دعائى إلى عبادتك إلا فرارا وتباعدا عنى . .

بل إنى كلما دعوتهم إلى طاعتك لكى ينالوا مغفرتك ، ما كان منهم إلا أن جعلوا

أطراف أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعون قولى ، وإلا أن وضعوا ثيابهم على رؤوسهم وأبصارهم حتى لا يرونى ، وإلا أن أصروا إصرارا تاما على كفرهم وغرورهم ..

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد صورت نفورهم وعنادهم أكمل تصوير .. ومع كل ذلك فإن نوحا -عليه السلام- واصل دعوته لهم بشتى الأساليب ، فقال -كما حكى القرآن عنه- : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : علانية ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : خاطبت بعضهم أمام بعض تارة ، وخاطبت بعضهم سرا تارة أخرى ، مراعىا ما يقتضيه حال كل واحد منهم .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أى : يرسل عليكم الأمطار التى أنتم فى حاجة إليها بكثرة وغزارة .

وفضلا عن ذلك : ﴿ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ بَيْنِي وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين يانعة ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ جارية تحت أشجار هذه البساتين .

وبعد هذا الترغيب فى الحصول على الخير متى أخلصوا عبادتهم لله -تعالى- ، انتقل نوح -عليه السلام- إلى ترهيب قومه من الإصرار على الكفر والعناد فقال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

أى : ما الذى حدث لكم -أيها القوم- حتى صرتم لا تخشون عظمة الله وجلاله ، مع أنه -سبحانه- هو الذى خلقكم فى أطوار متعددة ، نطفة فعلقه فمضغة ثم خلقاً آخر ..

وبعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ ، أخذ فى لفت أنظارهم إلى مظاهر بديع صنع الله فى خلقه فقال لهم : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا .. ﴾ .

أى : لقد علمتم وشاهدتم بأعينكم : أن الله -تعالى- وحده هو الذى خلق هذه السماوات السبع المتطابقة ، وهو الذى جعل بقدرته القمر فى السماء الدنيا نورا للأرض وما فيها ، وجعل الشمس كالسراج المضىء فى تحويل الليل إلى نهار ..

ثم انتقل نوح بعد كل هذه النصائح والإرشادات ، إلى لفت أنظارهم إلى التأمل فى خلق أنفسهم فقال لهم : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ .

أى : والله -تعالى- بقدرته ، هو الذى أوجدكم وأنشأ أبابكم آدم من الأرض إنشاء ، وجعلكم فروعاً عنه ، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبوراً لكم ، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء .

ثم ختم نوح -عليه السلام- نصائحه وإرشاداته لقومه ، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التى يعيشون عليها فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ .

أى : والله -تعالى- وحده هو الذى جعل لكم بقدرته وفضله الأرض مبسطة ، لكى تتخذوا منها لأنفسكم طرقاً متسعة .

وهكذا نرى أن نوحاً -عليه السلام- قد سلك مع قومه مسالك متعددة ، لكى يقنعهم بصحة وصدق ما يدعوهم إليه ..

لقد دعاهم بالليل والنهار ، وفى السر وفى العلانية ، وبين لهم أن طاعتهم لله -تعالى- تؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد ، والجنات والأنهار ، ووبخهم على عدم خشيتهم من الله -تعالى- ، وذكرهم بأطوار خلقهم ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه فى خلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها ، وأرشدهم إلى نعم الله -تعالى- فى جعل الأرض مبسطة لهم .

وهكذا حاول نوح -عليه السلام- أن يصل إلى أذان قومه ، وإلى عقولهم ، وقلوبهم ، بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القوية ، فى صبر طويل ، وإرشاد دائم .

١٨ - ولكن قومه كانوا قد بلغوا الغاية فى الغباء والعناد والجهالة والطغيان ، لذا نرى السورة الكريمة تحكى عنه ضراوته إلى ربه ، والتماسه منه القضاء عليهم .. ولنستمع فى تدبر إلى قوله -تعالى- : ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا . وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ .

أى : قال نوح متضرعاً إلى ربه : يا رب إن قومى قد عصونى ، وكرهوا صحبتى ، واتبعوا رؤساءهم وأغنياءهم أصحاب الأموال والأولاد ، الذين أبطرتهم النعمة ، ولم يشكروك عليها . وإنهم لم يكتفوا بذلك بل مكروا بى والمؤمنين معى مكراً كبيراً ، قد بلغ النهاية القصوى فى القبح والسوء ..

وكان من مظاهر مكْرهم أنهم قالوا لسفلتهم : احذروا أن تتركوا عبادة آلِهتكم التى

وجدتم عليها آباءكم ، واحذروا أن تتركوا بصفة خاصة عبادة هذه الأصنام الخمسة وهي :  
 وُدَّ وَسُوعَ ، وَيَعُوقَ ، وَنَسْرَ . . ولم يكتبوا -أيضا- بكل هذا المكر ، بل أضافوا إليه  
 أنهم حبيبوا غيرهم في الكفر ، ونفروا من عبادتك وطاعتك ، فأسألك -يا رب- ألا تزيد  
 هؤلاء الكفار الفجرة إلا ضلالا على ضلالهم ، وكفرا على كفرهم ، وأن تأخذهم بقدرتك  
 التي لا يعجزها شيء أخذ عزيز مقتدر .

وأجاب الله -تعالى- دعاء رسوله نوح -عليه السلام- حيث قال : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ  
 أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ .

أى : بسبب خطيئاتهم الشنيعة ، أغرق الله -تعالى- الكافرين من قوم نوح ، فأدخلهم  
 في أعقاب غرقهم نارا يصلونها في قبورهم إلى يوم الدين ، ولم يجدوا أحدا ينصرهم من  
 عذاب الله -تعالى- .

ثم واصلت السورة الكريم حكاية ما ناجى نوح به ربه فقال -تعالى- : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ  
 رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا  
 فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ .

أى : وقال نوح -عليه السلام- متابعا حديثه مع ربه ، ومناجاته له ؛ يا رب لا تترك  
 على الأرض من هؤلاء الكافرين واحدا منهم يسكن دارا ، أو يدور في الأرض ، ويتحرك  
 عليها ، لأنك -يا إلهي- إن تركتهم أضلوا عبادك المؤمنين ، وفي الوقت نفسه لن يلد  
 هؤلاء الفجار إلا فجارا مثلهم . .

ونوح -عليه السلام- لم يدع على قومه بتلك الدعوات ، إلا بعد أن لبث فيهم ألف  
 سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى الحق بشتى الأساليب ، ولكنهم استحَبوا العمى  
 على الهدى .

ثم اختتم نوح دعاءه ، واختتمت السورة عرضها لقصته ، بهذا الدعاء الحار : ﴿ رَبِّ  
 اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا  
 تَبَارًا ﴾ .

أى : قال نوح -عليه السلام- فى ختام دعائه : يا رب اغفر لى ، واغفر لوالدى -أيضا-  
 ذنوبهما ، واغفر كذلك لمن دخل بيتى وهو متصف بالإيمان ، واغفر -أيضا- يا رب ذنوب  
 المؤمنين والمؤمنات بك إلى يوم القيامة . .

ولا تزد الظالمين إلا هلاكا وخسرانا ودمارا . .

وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذى فيه طلب الرحمة والمغفرة للمؤمنين ،  
وطلب الدمار والهلاك للكافرين .

جانب من العبر والعظات من قصة نوح - عليه السلام -

١٩ - ذكرنا فيما سبق ، أن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، قد تكررت فى القرآن  
الكريم فى سور متعددة ، وبأساليب متنوعة ، كلها فى أسمى درجات البلاغة والتأثير  
والإحكام ..

ونريد هنا أن نذكر أهم الدروس والعبر التى نأخذها من هذه القصة فنقول :

( أ ) على رأس الدروس النافعة والعظات البليغة التى نتعلمها من هذه القصة : درس  
الصبر . الصبر فى أداء التكاليف التى كلفنا الله - تعالى - بها ، والصبر على أذى السفهاء  
والجهلاء ، والصبر فى مواجهة الأعداء ، والصبر فى كل أمر يحمد معه الصبر ..

إننا نقرأ قصة سيدنا نوح - عليه السلام - مع قومه ، فتراه قد مكث فيهم ما يقرب من  
ألف سنة ، يدعوهم إلى توحيد الله وإلى إخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، وينهاهم  
عن عبادة غيره .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا  
فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَجْنَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ . (١)

قال بعض العلماء : بعث الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - وهو فى سن الأربعين من  
عمره ، ومكث يدعو قومه إلى وحدانية الله - تعالى - ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش  
بعد الطوفان ستين سنة . والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح - عليه  
السلام - مع قومه ، تسلية الرسول ﷺ ، وتثبيته .

فكان الله - تعالى - يقول لنبيه محمد ﷺ : لقد لبث أخوك نوح تلك الفترة الطويلة ،  
ومع ذلك لم يؤمن معه سوى عدد قليل من قومه .

قيل : كان عدد الذين آمنوا به فى تلك المدة الطويلة ثمانين ، ما بين رجل وامرأة ..  
فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تقتدى بأخيك نوح فى صبره وفى مطاولته لقومه . إن  
الصبر إذا كان لازما فى كل موطن يطلب فيه الصبر ، فهو فى موطن الدعوة إلى الله  
- تعالى - الأزم وأوجب ..

وخير الدعاة إلى الله - تعالى - هو ذلك الإنسان ، الذى يصبر على إرشاد المدعوين  
صبرا جميلا ، ولا يضيق بأخطائهم أو إعراضهم ، فإن الصبر ضياء - كما جاء فى  
الحديث الشريف .

(١) سورة العنكبوت الآيتان ١٤ ، ١٥ .

(ب) كذلك من الدروس الحكيمة التي نتعلمها من قصة نوح -عليه السلام- مع قومه : أن الإنسان العاقل الحكيم هو الذى يتلقى شبهات خصمه وأكاذيبه .. بصدر رحب ، وعقل سليم ثم يرد عليها بما يدحضها ويهدمها من قواعدها ..

تدبر معى -أخى القارئ- قصة نوح -عليه السلام- مع قومه فى مواضعها من سور القرآن الكريم ، تجد أن قومه قد رموه بأفحش التهم ، وأقبح الصفات .. ومع ذلك فقد تلقى تهمهم وأكاذيبهم بثبات وصبر ، ثم رد عليها بما يدحضها .. فى سورة الأعراف يقولون له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

فينفى عن نفسه هذه التهمة نفيا قاطعا ، ثم يصف نفسه بأربع صفات كريمة .. استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك عنه فيقول : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ .

أى : ليس بى أى شىء من الضلال فضلا عن الضلال نفسه ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي . وأنصح لكم . وأعلم من الله ما لا تعلمون ..

وفى سورة (هود) نرى الملأ الذين كفروا من قومه يقولون له : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مَثَلًا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

فهم قد عللوا كفرهم بما جاء به نبيهم نوح -عليه السلام- بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم والبشر -فى زعمهم- لا يكون نبيا ، وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم ، وثالثها : أنه لا مزية له ولا لأتباعه عليهم بل إن نوحا وأتباعه فى نظرم كاذبون .

وهنا نجد نوحا -عليه السلام- قد رد عليهم بما يخرص ألسنتهم ، ويبطل دعاواهم ، فهو يقول لهم -كما حكى القرآن عنه- :

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ

إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِي مِن رَّبِّي وَعَازِلَنِ الرَّحْمَةَ مِن عِنْدِي فَعِمِّيَتْ عَلَيْكُمْ  
أَنْزَلْنَاكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٧٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُونَ عَلَيْهِ  
مَالًا إِنِ اجْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُ الْقَوْمِ

رَبِّهِمْ وَلِكُنِّيَ أَرْكَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَيَقَوْمٌ مِّنْ بَيْنِصُرِّنِي مِّن  
 اللَّهُ إِن طَرَدْتَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي  
 خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ  
 تَزَيَّجُونَنِّي أَعْيُنُكُمْ إِن يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي  
 إِذًا لِّلنَّظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ،  
 ويرد على شبهاتهم بما يزهقها ، وبما يجعلهم يقفون مبهورين أمام حججه الناصعة ، وبيانه  
 الدامغ لباطلهم ..

والداعية العاقل الحصيف ، هو الذى يفتح صدره لنقد خصمه له ، ثم يرد عليه بالحجة  
 الواضحة ، ويجعله فى موقف العاجز عن قرع الحجة بالحجة ..

(ج) ومن أبلغ الدروس التى نتعلمها من قصة نوح مع قومه : الشجاعة فى إبداء  
 الرأى ، والغيرة على الحق ، وإفهام المعارضين على دعوته إلى الله - تعالى - ، أنه سيمضى  
 فى طريقه دون أن يثنى عن ذلك وعد أو وعيد ..

استمع إليه وهو يتحدى قومه بأنه لن يتردد فى تبليغ رسالة الله - تعالى - مهما كانت  
 العقبات فيقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ  
 تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا  
 تَنْظُرُونَ ﴾ . (١)

أى : أن نوحا - عليه السلام - قد خاطب قومه بكل شجاعة ووضوح فقال لهم : يا قوم  
 إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى إياكم بآيات الله فأجمعوا ما تريدون  
 جمعه من مكر وكيد بى ، ثم ادعوا شركاءكم وأصنامكم ليساعدوكم على محاربتى ،  
 فإنى لن ألتفت إلى كل ذلك ، ولكنى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله - تعالى - به ،  
 بدون مبالاة بمكركم ، وبدون اهتمام بكيدكم .

والمأمل فى هذا القول من نوح لقومه ، يراه قد بلغ النهاية فى الشجاعة والشباب على  
 مبدئه ، إنه - أولا - يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره الله - تعالى - بالمضى فيه .

وهو - ثانيا - يتحداهم ويتحدى أصنامهم معهم ..

(١) سورة يونس الآية ٧١ .

وهو -ثالثا- يطالبهم بأن يتخذوا قرارهم بشأنه بدون تستر أو خفاء ..

وهو -رابعا- يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات ، وأن ينفذوها بدون إبطاء حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم .

وهكذا نرى نوحا -عليه السلام- يتحدى قومه هذا التحدى السافر المثير ، حتى إنه ليغيريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه -إن استطاعوا- ، ويستخف بكل ما لديهم من قوة ..

وما لجأ -عليه السلام- إلى هذا التحدى الواضح المثير ، إلا لأنه كان واثقا من نصر الله -تعالى- له ، ومعتمدا على حفظه ورعايته ، التى تتضاءل أمامها كل قوة ، وتتهاوى إزاءها كل سطوة .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة إلى الله -تعالى- فى كل زمان ومكان ، تلك المواقف المشرقة لرسول الله -تعالى- ، لكى يقتدوا بهم فى شجاعتهم ، وفى اعتمادهم على الله -عز وجل- وحده ، وفى ثباتهم أمام الباطل ، مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته ..

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم ، وكان النصر حليفهم ، لأن الله -تعالى- قد تعهد أن ينصر من ينصره .

( د ) كذلك من الدروس النافعة التى نتعلمها من قصة نوح -عليه السلام- أن الإنسان العاقل ، والمرشد الحكيم ، هو الذى يسوق لغيره النصائح والإرشادات ، بأساليب متنوعة ، تارة عن طريق الترغيب والترهيب ، وأخرى عن طريق الدعوة إلى التأمل والتدبر فى عجائب هذا الكون ، وأحيانا عن طريق بيان مظاهر نعم الله على خلقه .. انظر إلى نوح -عليه السلام- إنه دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله -تعالى- ليلا ونهارا ، وسرا وجهرا .

ولم يسق لهم دعوته بأسلوب واحد ، بل نراه فى سورة «نوح» -مثلا- يرشدهم إلى أن استغفارهم لربهم ، وطاعتهم له ، وخوفهم منه ، ونبذهم لعبادة تلك الأصنام ، كل ذلك سيؤدى إلى نزول المطر على أرضهم فتتحول من جدداء إلى خضراء ، كما يؤدى إلى أن يمدهم -سبحانه- بزيتى الحياة الدنيا ، وهما الأموال والأولاد ، وبالباستين والزروع اليانعة ..

وعندما يجدهم لم ينتفعوا بالترغيب ، يلجأ إلى الترهيب والزجر والتوبيخ ، منكرا عليهم استهتارهم واستخفافهم بما يدعوهم إليه .

ثم بعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ ، يأخذ فى تذكيرهم بعجائب هذا الكون الذى أحسن الخالق -عز وجل- خلقه وصنعه ..

فيلفت أنظارهم إلى بديع صنعه - عز وجل - في خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض ، وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها للحساب والجزاء ..

ونرى كل هذه الأساليب المتنوعة في الدعوة إلى الله ، مجموعة في آيات معدودة ألا وهي قوله - سبحانه - : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا . مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا ﴾ .

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - حاول أن يصل إلى أذان قومه ، وإلى عقولهم وقلوبهم ، بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، في صبر طويل ، وإرشاد دائم . وما أحوج الدعاة والمرشدين إلى الانتفاع بهذه الأساليب في دعوتهم إلى الحق .

( هـ ) ومن أبلغ وأجل الدروس التي نأخذها من قصة نوح - عليه السلام - : عفاؤه عما في أيدي قومه ، وعدم التطلع إلى ما في أيديهم من أموال ، واستخفافه بكل ما يملكون من حطام الدنيا ، وإيثاره ما عند الله - تعالى - على ما عندهم ، ومصارحته لهم بأنه لا يريد أجرا منهم على ما يدعوهم إليه ، مع أن ما يدعوهم إليه فيه سعادتهم وعزتهم وقوتهم وغناهم ..

وهو لا يتوانى أبدا في تذكيرهم بهذه الحقيقة ، حتى لا يتوهم متوهم منهم أن نوحا - عليه السلام - إنما يريد من وراء دعوته لهم ، المال أو الجاه أو غيرهما . انظر إليه تراه في سورة «يونس» ، بعد أن يتحداهم ويتحدى شركاءهم ، يقول لهم : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٢]

أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولي وعن تذكيري إياكم بآيات الله - تعالى - بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى ، فأنتم وشأنكم ، فإنى لم أسألكم أجرا على دعوتكم إلى الحق والخير ، وإنما ألتمس الأجر من الله - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - الذى يثينى على قولى وعملى ، وهو الذى يعطينى من الخير ما يغنينى عن أجركم ، وهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون من المنقادين لأمره ، المتبعين لهديته ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم انظر إليه في سورة «هود» يكرر لهم هذا المعنى ، وهو استغناؤه عنهم ، والتماس الأجر من الله -تعالى- وحده ، فيقول : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [ هود : ٢٩ ]

أى : لا أطلب منكم مالا فى مقابل تبليغ ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وإنما أطلب الأجر والرزق من الله -تعالى- وحده ..

وفى سورة «الشعراء» يؤكد لهم هذا المعنى للمرة الثالثة فيقول : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الشعراء : ١٠٩ ]

أى : أنى لا أسألكم على هذا النصح والإرشاد من أجر دنيوى ، إن أجرى فيما أدعوكم إليه إلا على رب العالمين ، الذى خلقنى وخلقكم ، ورزقنى ورزقكم .

والحق ، أن هذا التعفف عما فى أيدي الناس ، والترفع عن عطاياهم ، والتماس الأجر والعطاء من الله -تعالى- وحده ، هو خير سلاح للداعية القوى الأمين لكى يبلغ رسالة الله دون أن يخشى أحدا سواه ، وذلك لأن الحرص على أخذ أجر من الناس على الدعوة إلى الحق ، يذل الرقاب ، ويخرس الألسنة عن النطق بما هو خير وصواب .

## قصة هود - عليه السلام - مع قومه

١ - وردت قصة هود - عليه السلام - في سور متعددة من سور القرآن الكريم ، تارة بصورة فيها شىء من التفصيل كما في سور : الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والأحقاف وتارة بشىء من التركيز والإيجاز كما في سور : فصلت والذاريات والقمر والحاقة والفجر ..

وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - فهو - كما يقول بعض المؤرخين - هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود ، بن عاد ، بن عوص ، بن إرم ، بن سام بن نوح . وقومه هم قبيلة عاد ، نسبة إلى جدهم الذى كان يسمى بهذا الاسم ..

وكانت مساكنهم بالأحقاف - جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالى جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسله الله - تعالى - إليهم ، ليأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وينهاهم عن عبادة أحد سواه .

ويقال إن هودا - عليه السلام - أرسله الله - تعالى - إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح - عليه السلام - وبينهما زهاء مائة سنة .

٢ - وفى سورة الأعراف آيات كريمة ، تحدثت عن دعوة هود لقومه ، وعن المحاورات التى دارت بينه وبين قومه ، وعن النهاية السيئة التى صاروا إليها .. وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

وإلى عادٍ آخاُمِ هودًا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم  
 من إله غيرهِ أفلا نتقون ﴿١٥١﴾ قال اللأ الذين كفروا من قوميه إنا  
 لنراك فى سفاهةٍ ونا لتظنك من الكاذبين ﴿١٥٢﴾ قال يا قوم ليس بى  
 سفاهةٌ ولا كفى رسولٌ من ربِّ العالمين ﴿١٥٣﴾ أبلغكم رسالتِ  
 ربى وأنا لكم ناصحٌ أمينٌ ﴿١٥٤﴾ أو عجبتُم أن جاءكم ذكرٌ من ربِّكم على  
 رجلٍ منكم لينذركم وادُّركم وادُّركم وادُّركم وادُّركم وادُّركم  
 وزادكم فى الخلق بصطةً فأذركم واء الآء الله لعلكم تفلحون ﴿١٥٥﴾ قالوا  
 أجبتنا العبد الله وحده ونذرنا ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا

**إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ  
 وَغَضَبٌ أَتَمُّدُونُنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا  
 مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ  
 بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾**

أى : وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم فى النسب «هودا» ، فقال لهم ما قاله كل نبى  
 لقومه : يا قوم أخلصوا عبادتكم لله - تعالى - ، واتركوا عبادة الأصنام ، فإن عبادتكم لها  
 سيؤدى بكم إلى الهلاك والدمار ..

وكأنما عظم على هؤلاء الطغاة ، أن يستنكر عليهم هود - عليه السلام - عبادتهم لغير  
 الله ، فردوا عليه ردا قبيحا حكاه القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ  
 قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ .. ﴾ .

أى : قال الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان من قوم هود له على سبيل التناول وسوء  
 الأدب : إنا لنراك يا هود قد تمكنت صفة خفة العقل منك ، لأنك تركت ما عليه الآباء ،  
 وجئتنا بدين جديد ننكره ولا نقبله ..

ولم يكتفوا بوصفه بالسفه وخفة العقل ، بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ  
 الْكَاذِبِينَ ﴾ .

٣ - وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود - عليه السلام - يدافع عن نفسه بأسلوب  
 حكيم ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ  
 رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

فأنت ترى أن هودا - عليه السلام - فى هذا الرد الحكيم على قومه ، قد نفى عن نفسه  
 تهمة السفاهة ، ثم بين لهم وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه بمقتضى  
 أخوته لهم ، ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما  
 يصلحهم ويبعد عنهم السوء .

ثم أخذ فى إزالة العجب من نفوسهم ، لأنه رسول منهم فقال : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ  
 ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ .

أى : أكذبتهم وعجبتهم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم ، على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه؟ إن عجبتكم هذا في غير محله ، لأن إرسال رسول إليكم تعرفونه هو عين الحكمة والصواب .

ثم أخذ في تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه لكى يحملهم على شكر الله -تعالى- فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ .

أى : واذكروا بتأمل واعتبار فضل الله عليكم ، حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح ، الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وجحودهم . . ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال : ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً ﴾ .  
أى : وزادكم فى المخلوقات بسطة وغنى وسعة فى الملك وفى القوة . . .

ثم كرر هود -عليه السلام- تذكيرهم بنعم الله فقال : ﴿ فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ .

أى : فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم ، ومن زيادتها لهم .

وإلى هنا نرى أن هودا -عليه السلام- قد رد على قومه ردا مقنعا حكيما ، كان المتوقع أن يستجيبوا له ، وأن يقبلوا على دعوته ، ولكن ماذا كان جوابهم؟

٤ - لقد كان جوابهم فى نهاية الغرور والعناد والغباء ، فقد قالوا له : ﴿ أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال قوم هود له على سبيل الإنكار والاستهزاء ، أجيئنا لكى نعبد الله وحده ونترك ما كان عليه آبائنا؟ إن هذا لن يكون منا أبدا ، ونحن نتحداك أن تأتينا بالعذاب الذى تهددنا به إن كنت من الصادقين فى دعواك!!

وتنظر فى هذا الرد فنراه طافحا بالغرور والتهور والتحدى والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، حتى لكأن هودا -عليه السلام- يدعوهم إلى منكر لا يطيقون سماعه ، ولا يصبرون على الجدل فيه .

وإزاء هذا التحدى السافر من قوم هود له ولدعوته ، ما كان منه إلا أن أجابهم بالرد الحاسم الذى تتجلى فيه الشجاعة التامة ، والثقة الكاملة بأن الله -تعالى- سينصره عليهم فقال : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ .

أى : قد حق عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ .

أى : أتجادلوننى وتخاصموننى فى شأن أصنام ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الألوهية محال وجوده فيها ، ولا يوجد دليل أو شبه دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها ، وإنما هى أصنام باطلة ، ومادام شأنكم كذلك فانظروا عذاب الله فإنى معكم من المنتظرين لما سيحقيق بكم من نكال .

ولم يطل انتظار هود - عليه السلام - فقد حل بهم العذاب الذى توعدهم به ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿فَأَجْبِئْهُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

أى : استأصلناهم عن آخرهم ، لأنهم استمروا على كفرهم ولم يؤمنوا .. وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق فى قوم نوح قبل ذلك .

٥ - وفى سورة «هود» آيات كريمة ، تحدثت عن قصة هذا النبى الكرم مع قومه ، بأسلوب نرى فيه حسن الإرشاد بأسمى صورته ، كما نرى فيه القوة فى تبليغ رسالات الله - تعالى - بأكمل معانيها ، استمع إلى القرآن وهو يسوق لنا هذه القصة فيقول :

وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥١﴾ يٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَنجِرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ وَيٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ إِن نَّحْسَبُكَ إِلَّا إِتْرَافًا بَعْضُ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ وَأَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدٌ لِّى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٦﴾

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ  
 رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ  
 إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَمَا جَاءَ أَمْرُنَا بِمِثْلِنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
 بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آدَاءُ بَنِي إِدْرِيسَ  
 رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي  
 هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَ الْكُفْرَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْبُرْهَانَ  
 قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾

فأنت ترى أن هودا -عليه السلام- قد سلك في دعوة قومه إلى الحق أحكم السبل ، ، .

حيث ذكرهم -أولا- بأن المستحق للعبادة هو الله -تعالى- وحده ، وأنهم إذا لم يطيعوه في ذلك كانوا متعمدين الافتراء والكذب .

ثم ذكرهم -ثانيا- بأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته ، وإنما يلتبس أجره من الله -تعالى- وحده ، الذي خلقه ورزقه ، وأن هذا الأمر من الأشياء الواضحة عند العقلاء .

ثم أرشدهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ، وقوة على قوتهم ، وهو كثرة الاستغفار ، والعزم الصادق على الإقلاع عن الذنب .

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله -تعالى- بالجحود والطغيان فقال : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ .

وبذلك يكون قد وضع لقومه دعوته أحسن توضيح ، ورجبهم في الاستجابة لها ، حيث ناداهم بلفظ -يا قوم- ثلاث مرات ، توددا إليهم ، وتذكيرا لهم بأصرة القرابة التي تجمعهم معه ، لعله بذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

٦ - ولكن قوم هود -عليه السلام- قد قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه ،

فقد قالوا له : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ .

أى : لم تأتنا بحجة مقنعة ترضى نفوسنا .. ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ .

أى : وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل ..  
ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم فقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .  
أى : بمستجيبين لك ومصدين ..

ثم أضافوا إلى عنادهم هذا ، استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ .

أى : ما نحن بمستجيبين لك ، ولا متبعين لدعوتك ، وعليك أن تياسأ ياسا تاما من استجابتنا لك ، وإن حالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك : إن سبك لآلهتنا ، جعل بعضها - لا كلها - ، يتسلط عليك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض .

ولم يقولوا : أصابتك آلهتنا بسوء ، بل قالوا : « بعض آلهتنا » ، تهديدا له ، وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا ..

وهكذا نراهم قدردوا على نبههم ومرشدهم بأربعة ردود ، تساقطوا فيها من السيئ إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقيح ، مما يدل على توغلهم فى الكفر والطغيان وبلوغهم النهاية فى الفسوق والعصيان .

٧ - والآن وبعد أن استمع هود - عليه السلام - إلى ردودهم القبيحة ماذا كان موقفه منهم؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرئ من شركهم ، والمتحدى لطغيانهم ، والمعتمد على الله - تعالى - وحده فى الانتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

أى : قال هود - عليه السلام - فى رده على الطغاة من قومه : إنى أشهد الله الذى لا رب سواه ، وأشهدكم - أيضا - على براءتى من كل عبادة لأحد سواه .

ثم ينتقل من براءته من شركهم إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول لهم : وهأنذا أمامكم ، فانضموا إلى ألهتكم المزعومة ، فحاربوني جميعا فإنى لا أعبأ بكم ولا بأصنامكم .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان أن السبب فى استخفافه بهم وبألهتهم ، أنه فوض أمره إلى الله -تعالى- ، الذى ما من دابة تدب على وجه الأرض ، إلا وهو مالکها ومتصرف فيها . .

ثم يختتم هود -عليه السلام- رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم ، فيبين لهم أن هذا الإصرار سيؤدى إلى هلاكهم ، وإلى مجيء قوم آخرين سيخلفونهم ، ولن يتغير هذا الكون بسبب هلاكهم ، فهم أحقر من أن يغيروا سنة من سنن الله فى خلقه .

٨ - وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقنا بأسلوب حكيم بليغ ، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه ، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن نجى الله -تعالى- هودا ومن معه من المؤمنين ، وأهلك أعداءه الكافرين ، فقال -تعالى- : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ .

أى : حل وقت عذابنا للكافرين ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

أى : من عذاب ضخم شديد . ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أى : وتلك هى قصة قبيلته مع نبيهم ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

أى : واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر ، بدون تفكير أو تدبير . ثم ختم -سبحانه- قصتهم بقوله : ﴿ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ .

أى : أنهم هلكوا مشيعين باللعن والطرده من رحمة الله فى الدنيا والآخرة- ألا إن قوم عاد كفروا بنعمة ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الغى على الرشد . .

٩ - وفى سورة الشعراء نجد آيات كريمة ، تحدثت عن قصة هود -عليه السلام- مع قومه ، ونجد السمة الغالبة فى هذه الآيات ، أن هودا -عليه السلام- بذل أقصى جهده فى تذكير قومه بنعم الله عليهم ، وفى تحذيره إياهم من كفرانها . .

استمع إلى هذه الآيات وهي تحكى ذلك فتقول :

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا  
تَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٦﴾  
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾ أَنْتَبُونَ  
بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٧٩﴾  
وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٨٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨١﴾ وَاتَّقُوا  
الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ ﴿١٨٣﴾ وَجَنَّاتٍ  
وَعُيُونٍ ﴿١٨٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا  
أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٨٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا حُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٧﴾  
وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً  
وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٠﴾

أى : كذبت قبيلة عاد نبيها ورسولها هودا - عليه السلام - ، وتكذيبها له هو تكذيب  
لجميع المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا  
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والى هنا نرى بوضوح أن هودا - عليه السلام - قد بين لقومه وظيفته ، ونصحهم بإخلاص  
العبادة لله الواحد القهار ، وبيّن لهم أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا على ذلك .

ثم استنكر عليهم ما هو فيه من ترف وطفيان فقال : ﴿ أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ .  
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ .

والرِّيْعُ - بكسر الراء - كل مكان مرتفع من الأرض .

أى : أتبنون بكل مكان مرتفع من الأرض على سبيل اللهو والعبث ، بناء يعتبر آية  
وعلامه على عبثكم وترفكم وغروركم ..

وتعملون قصورا ضخمة حتى لكانكم تريدون من وراء إنشائها الخلود والبقاء بدون  
موت؟

وإذا أردتم السطو والعدوان على غيركم ، أخذتموه بعنف وقسوة ، دون أن تعرف الرحمة أو  
الرفقة إلى قلوبكم سبيلا ...

وإذا كان هذا شأنكم فى الحياة ، فإنى أنهاكم عن ذلك ، وأحذركم من سوء عاقبة هذا  
الترف والغرور والظلم ، وأمركم بتقوى الله وخشيته .

١٠ - وبعد نهيه إياهم عن تلك الرذائل ، وأمرهم بتقوى الله ، أخذ فى تذكيرهم بنعم  
الله فقال : ﴿ وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ . إِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أى : واخشوا الله - تعالى - الذى أمدكم بما أمدكم به من نعم لا تعد ولا تحصى ، ومن  
أهمها : أنه - سبحانه - أمدكم بالأنعام الكثيرة من الإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالأولاد  
ليكونوا قوة لكم ، وأمدكم بالبساتين العامرة بالثمار ، وأمدكم بالعيون المليئة بالماء العذب النافع .

ثم ختم إرشاده لهم ، ببيان أنه حريص على مصلحتهم ، وأنه يخشى عليهم إذا لم  
يستجيبوا لدعوته ، أن ينزل بهم عذاب عظيم ، فى يوم تشتد أهواله ، ولا تنفعهم فيه  
أموالهم ولا أولادهم ..

ولكن هذه النصائح الحكيمة لم يستقبلها قومه استقبالا حسنا ، ولم تجد منهم قبولا ،  
بل قالوا له - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ .

أى : قالوا له بكل استهتار وسوء أدب : يا هود يستوى عندنا وعظك وعدمه ، ولا  
يعنينا أن تكون ممن يجيدون الوعظ أو من غيرهم ..

ثم أضافوا إلى قولهم هذا قولاً آخر ، لا يقل عن سابقه فى الغرور وانطماس البصيرة  
فقالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ .

أى : ما هذا الذى تنهانا عنه إلا خلق آبائنا الأولين ، ونحن على آثارهم نسير ، ولسنا  
بمعذبين على هذه الأعمال ...

وبمقتضى إصرارهم على كفرهم ، وتكذيبهم لنبيهم ، جاءهم العذاب الذى أهلكتهم ،

حيث قال - سبحانه - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

١١ - وفى سورة الأحقاف آيات كريمة ، حدثتنا عن النصائح التى وجهها هود - عليه السلام - لقومه ، وعن ردهم عليه ، وعن العذاب الذى دمرهم تدميرا . . قال - تعالى - :

وَأَذْكُرُ أَخَاعَادٍ إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ  
 النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا يُعْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ  
 عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكَ نَاعِنَ آلهَتِنَا فَآئِنَّا بِمَا  
 تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ  
 مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا  
 مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطَّرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ  
 رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ نُذِرْكُمْ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى  
 إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْجَارِمِينَ ﴿٢٥﴾

أى : واذكر -أيها الرسول الكريم- لقومك ليتعظوا ، قصة هود - عليه السلام - وقت أن أنذر قومه وهم يعيشون بتلك الأماكن المرتفعة المسماة بالأحقاف ، والحال أنه قد أخبرهم أن جميع الرسل الذين سبقوه والذين سيأتون من بعده ، كلهم قد بعثهم الله - تعالى - لهداية أقوامهم ، ولأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده . كما أخبرهم بأنه ما حملة على تكرار النصيحة لهم ، إلا خوفه عليهم من عذاب يوم هائل عظيم .

ولكن قومه لم يقابلوا دعوة نبيهم لهم بالطاعة والإذعان ، بل قابلوها بالفسوق والعصيان وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - سبحانه - ﴿ أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكَ نَاعِنَ آلهَتِنَا فَآئِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال قوم هود له - على سبيل الإنكار والسفاهة - : أجئتنا بهذه الدعوة لتصرفنا وتبعدنا عن آلهتنا التى ألفنا عبادتها .

ثم أضافوا إلى هذا الإنكار إنكارا آخر مصحوبا بالتحدى والاستهزاء فقالوا : فأتنا بما تعدنا به من العذاب ، إن كنت صادقا فيما تقول .

ولكن هودا -عليه السلام- قابل كل هذه الجهالات بالحلم والأناة ، فرد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، أى : قال لهم إنما علم وقت وقوع العذاب بكم عند الله -تعالى- وحده ، ولا دخل لى فى ذلك .

ثم عقب على هذا الرد بما يدل على حمقهم وغباثهم فقال : ﴿ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ .

أى : ولكنى أراكم قوما تجهلون ما هو واضح ، وتنكرون ما هو حق ، وتصرون على ما هو باطل ، وتطالبوننى بما لا أملكه .

ثم يجمل السياق بعد ذلك ما كان بين هود وقومه من جدال طويل ، ليصل إلى العذاب الذى استعجلوه فيقول : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مِّمَطْرُنَا .. ﴾ .

أى : وأتى العذاب الذى استعجله قوم هود إليهم ، فلما رأوه بأعينهم ، متمثلا فى سحب يظهر فى أفق السماء ، استبشروا وفرحوا وقالوا : هذا عارض ممطرننا ، وسيغمر أرضنا بالأمطار النافعة .

وهنا جاءهم الرد الحاسم على لسان هود -عليه السلام- بأمر ربه ، فقال لهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ .

أى : قال لهم هود ليس الأمر كما توهمتم من أن هذا العارض سحب تنزل منه الأمطار عليكم ، بل الحق أن هذا العارض هو العذاب الذى استعجلتم نزوله ، وهو يتمثل فى ريح عظيمة تحمل العذاب المهلك الأليم إليكم .

وهذه الريح من صفاتها أنها تهلك وتدمر كل شىء مرت به يتعلق بهؤلاء الظالمين ، ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

أى : هذه الريح أرسلناها عليهم فدمرتهم ، فصار الناظر إليهم لا يرى شيئا من آثارهم سوى مساكنهم ، لتكون هذه المساكن عبرة لغيرهم ، ومثل هذا الجزاء المهلك المدمر ، نجازى القوم الذين من دأبهم الإجرام والطغيان .

١٢ - وهذه العقوبة المدمرة لأولئك المجرمين ، قد أكدتها آيات أخرى منها قوله - تعالى - فى سورة الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الآيتان : ٤١ ، ٤٢ ]

أى : وتركنا فى قصة قوم هود - عليه السلام - العبر والعظات ، حيث أرسلنا عليهم الريح الشديدة التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو تلقيح شجر ، وهى ريح الهلاك التى ما مرت بشيء إلا جعلته كالميت الذى رم وتحول إلى فتات . .

وفى سورة فصلت جاء قوله - سبحانه - : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ - أى : ريحا باردة ذات صوت شديد مزعج ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ - أى : مشثومات عليهم ﴿ لِنَذِيْقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الآيتان ١٥ ، ١٦] .

وفى سورة القمر نقرأ قوله - تعالى - : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الآيات ١٨ - ٢١] .

أى : كذبت قبيلة عاد نبيها هودا ، فهل علمتم ما حل بها من دمار وهلاك ؟ إن كنتم لم تعلموا فهاكم خبره .

لقد أرسلنا عليهم ريحا شديدة البرودة والقوة ، وذات صوت هائل ، فى يوم مشثوم عليهم ، وشؤمه دائم ومستمر ، فكانت هذه الريح لشدتها وقوتها تنزع هؤلاء الطغاة المجرمين من أماكنهم ، وتلقى بهم بعيدا وهم صرعى ، فكانهم وهم ممددون على الأرض هلكى ، أعجاز نخل قد انخلت عن أصولها .

وشببيه بهذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ - أى : تتابعة متوالية حتى قطعت دابرهم - ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴾ - أى : هلكى ﴿ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ - أى : ساقطة . وبهذا العذاب الأليم طويت صفحة قوم هود - عليه السلام - كما طويت من قبلهم صفحة قوم نوح ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

١٣ - هذه قصة هود - عليه السلام - كما وردت في القرآن الكريم . .

ومن العبر والعظات والدروس النافعة التي نأخذها من هذه القصة :

( أ ) أن الغرور والبطر ، والتباهى بالقوة وشدة البطش . . يؤدي إلى أسوأ العواقب ، وأوخم النتائج . . والذي يتدبر هذه القصة يجد أن قوم هود كانوا يَدُلُّون بقوتهم ، ويتفاخرون بشدة بأسهم ، ويقولون : ﴿ مِنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ، ويقولون لنبيهم باستكبار وصلف : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ .

فكانت نتيجة هذا التكبر والغرور ، أن أرسل الله - تعالى - عليهم ريحا اقتلعتهم من أماكنهم ، وألقت بهم بعيدا وهم صرعى ، وكان الواحد منهم جذع نخلة قد هوى وسقط وانخلع عن أصله .

( ب ) كذلك من الدروس النافعة التي نأخذها من هذه القصة : مداومة التذكير بنعم الله - تعالى - على عباده ، وبيان أن هذه النعم تزداد بشكر الله ، وتنمو بطاعته . .

استمع إلى هود - عليه السلام - وهو يقرر هذا المعنى ، فيقول لقومه - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ .

ويقول لهم : ﴿ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَاتٍ وَعَيْونَ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهكذا نرى هودا - عليه السلام - يلون لقومه الموعظة ، تارة عن طريق الترغيب ، وأخرى عن طريق الترهيب ، ليبين لهم أن اتباع الحق سيؤدي إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم ، وأن الانحراف عنه سيؤدي إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم .

( ج ) كذلك من أعظم العبر في قصة هود - عليه السلام - أن الداعى إلى الله - تعالى - عندما يخلص فى دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - فى تبليغ رسالته ، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد . . فإنه فى هذه الحالة سيقف فى وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم ، لأنه قد أوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر فى قصة هود - عليه السلام - . ألا تراه وهو رجل واحد ، يواجه بمفرده قوما غلاظا شدادا اطغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين . . بل هو لا يكتبى

بهذه المواجهة ، وإنما يوبخهم ويزجرهم ويستخف بهم عندما يراهم يتطاولون على عقيدته ،  
ويصرون على معصيته ، فيقول لهم بكل قوة وحزم : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي  
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي  
وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . . . ﴾ .

وهكذا الدعاة الأقوياء ، يبلغون رسالة الله ، ويغارون عليها ، ويدافعون عنها بكل  
شجاعة وثبات ، ويقفون في وجه كل من يتطاول عليها ، دون أن يخشوا أحدا إلا الله -  
عز وجل - .

## قصة صالح - عليه السلام - مع قومه

١ - وردت قصة صالح - عليه السلام - مع قومه في سور متعددة من القرآن الكريم ، منها سور : الأعراف ، هود ، الحجر ، الإسراء ، الشعراء ، النمل ، فصلت ، القمر ...

وصالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - ، فهو - كما يقول الإمام ابن كثير - صالح بن عبد ، بن ماسح ، بن عبيد ، بن حاجر ، بن ثمود ، بن عابر ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح (١) .

وكانت رسالة صالح - عليه السلام - إلى قبيلة ثمود ، التى هو واحد منها ، وسميت هذه القبيلة بهذا الاسم ، نسبة إلى جدها ثمود بن عابر ...

وقيل : سميت بذلك ، لقلة وجود الماء فى أرضها ، يقال : ثمد الماء ثمداً ، أى : قلٌ ويقال ثمد فلان ، إذا قل نشاطه فهو ثمد .

وكانت مساكن قبيلة ثمود بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - . وهو مكان يقع بين بلاد الحجاز والشام .

وموقعه الآن - تقريباً - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما يزال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح .

٢ - وقبيلة ثمود من قبائل العرب ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام - ، ولذا جاء الحديث عنهم بعد الحديث عن هود - عليه السلام - فى كثير من آيات القرآن الكريم .

ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عن صالح عليه السلام - وهو يخاطب قومه بقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الأعراف : الآية ٧٤] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾

[سورة الفجر]

وقوله - وعز وجل - : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [سورة إبراهيم]

(١) البداية والنهاية (١/١٣٠) .

٣ - ومن أجمع الآيات القرآنية ، التي فصلت الحديث عن قصة صالح مع قومه : قوله - تعالى - فى سورة الأعراف .

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
 قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ  
 فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَادْكُرُوا  
 إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَتَوَكَّرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَخَذُونُ مِنْ  
 سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَخْتُونُ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ الْآءِ اللَّهُ وَلَا تَعْتَوْا فِي  
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ آسَنَّا كُفْرًا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ  
 اسْتَضَعُوا مِنَ الْمَنَاءِ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا  
 أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ  
 كَاغِبُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِحُ آئِنَّا  
 بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا  
 فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٨٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا  
 مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٨١﴾

٤ - هذا جانب من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كما جاءت فى سورة الأعراف .

وقد افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، الذى كان يشاركهم فى النسب والموطن واللسان ، فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .

أى : يا أهلى ويا عشيرتى أخلصوا عبادتكم لله - تعالى - وحده ، وانبدوا كل معبود سواه ، سواء أكان هذا المعبود صنما أم وثنا أم غير ذلك .

ثم بين لهم معجزته التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُل فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ .

والمراد بالبينة هنا : المعجزة الدالة على صدقه ، وعلى أنه رسول من عند الله - تعالى - .  
أى : قد جاءكم - أيها الناس - معجزة ظاهرة الدلائل ، شاهدة بنبوتى وصدقى فيما أبلغه عن ربهى . .

وقوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف صفة لبينة ، والفائدة منه : التصريح بأن هذه المعجزة ليست من صنع صالح - عليه السلام - ، أو من صنع غيره ، وإنما هى من صنع الله - تعالى - وحده .

أى : هذه المعجزة ليست من صنعى ، وإنما هى كائنة من ربهى وربكم ، وما دام الأمر كذلك فاستجيبوا لنصحى ، وأخلصوا العبادة لله - عز وجل - .

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ . أى : هذه الدابة التى ترونها وأشير إليها هى ناقة الله ، التى جعلها معجزة لى ، وعلامة على صدقى . وأضاف الناقة إلى الله ، للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها ، وقيل : أضافها إلى الله - تعالى - لأنه خلقها على خلاف سننه فى خلق الإبل وصفاتها . وقيل : لأنها لم يكن لها مالك خاص يملكها ويتصرف فيها .

وقد ذكر المفسرون قصصا عن هذه الناقة ، فيها الكثير من المبالغات التى لا يؤيدها نقل أو عقل ، لذا عرضنا عن ذكرها ، واكتفينا بما ورد بشأنها فى القرآن الكريم .

٥ - ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحو هذه الناقة فقال : ﴿ فَمَذَرُوهَا تَأْكُل فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ .

أى : قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم اتركوا هذه الناقة حرة طليقة ، تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه ، ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء ، لأنكم لو فعلتم ذلك ، أصابكم عذاب أليم يؤدى إلى هلاككم واستئصال شأنتكم .

وأضيفت الأرض إلى الله - أيضا - ، قطعاً لعذرهم فى التعرض لها ، فكأنه يقول لهم : الأرض أرض الله ، والناقة ناقته ، فاتركوها تأكل فى أرضه ، لأنها ليست لكم ، وليس ما فيها من عشب ونبات من صنعكم ، فأى عذر لكم فى التعرض لها ؟ .

وفى نهيهم عن أن يمسوها بسوء : تنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء ، إكراماً لها ، فنهىهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلا والماء من باب أولى ، فالجملة الكريمة وعيد شديد بسوء .

٦ - وبعد أن بين لهم صالح - عليه السلام - وظيفته ، وكشف لهم عن معجزته ، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره ، أخذ في تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وبمصائر الماضين من قبلهم ، فقال : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ .

أى : قال صالح - عليه السلام - لقومه بلطف وأدب وحسن توجيه : ويا قوم اذكروا لكى تعتبروا وتتعضوا ، نعم الله - تعالى - عليكم ، حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران ، والقوة والبأس ، بعد أن أهلكتهم - سبحانه - بسبب طغيانهم وغرورهم وجحودهم ...

وقوله - سبحانه : ﴿ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : وأنزلكم فيها ، وجعلها مباءة ومساكن لكم . يقال : بوأه منزلا ، أى : أنزله وهياه له ، ويمكن له فيه .

والمراد بالأرض : أرض الحجر التى كانوا يسكنونها ، وهى بين الحجاز والشام ، ثم بين لهم جانباً من المنافع التى تعود عليهم بسبب تمكينهم من هذه الأرض ، فقال : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ .

والسهول : جمع سهل . والمراد بها : الأرض المنبسطة السهلة التى تقل فيها الارتفاعات والانخفاضات .

والجبال : الأماكن المتحجرة المرتفعة التى هى بمثابة الأوتاد للأرض .

أى : أنزلكم الله - تعالى - فى تلك الأرض ، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة ، ودورا عالية ، وأن تتخذوا من جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها . يقال : نحت الشيء ينحته - كضربه يضربه - أى : براه وسواه .

قيل : إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء ، لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء ...

أما فى غير الشتاء ، فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل ...

ومن التعبير القرآنى ، نلمح أثر النعمة والتمكين فى الأرض لقوم صالح ، وندرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون القصور فى الأماكن المنبسطة ، وينحتون من الجبال البيوت المناسبة لهم ، فهم فى حضارة عمرانية واضحة المعالم ...

ولذا نجد صالحا - عليه السلام - يحرضهم على شكر الله - تعالى - على هذه النعم ، فيقول لهم : ﴿ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

والآلاء بمعنى النعم . أى : ما دام الأمر كما ذكرت لكم ، من أنكم قد مكنكم الله - تعالى - من أرضه ، وسخرها لكم لكى تنتفعوا بها . . . فاذكروا بتدبر وشكر واتعاظ نعم الله - تعالى - عليكم ، واشكروه شكرا جزيلا عليها ، بأن تخصصوه وحده بالعبادة ، واحذروا أن تتمادوا فى الفساد فى أرض الله - تعالى - .

يقال : عَثِيَ فلان فى الأرض فسادا - كرضى - عثوا ، إذا أفسد فيها أشد الفساد .  
والى هنا تكون السورة الكريمة ، قد ساقنا لنا جانبا من النصائح التى وجهها صالح - عليه السلام - لقومه ، فماذا كان موقفهم من تلك النصائح الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، والإرشادات السليمة ؟

٧ - والجواب : لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعناد ، عن موقف قوم نوح وقوم هود ، وهما ما حكاه القرآن عنهم :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

والملاؤ : الأشراف والسادة من القوم . سموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء .. والملاؤ : اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهنط .  
أى قال المترفون المتكبرون من قوم صالح - عليه السلام - للمؤمنين الذين اتبعوا صالحا فى دعوته إلى الحق ، والذين لم يكونوا كهؤلاء المترفين فى غناهم وجاههم . . .  
قالوا لهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم لعبادته وحده لا شريك له ؟ وهو سؤال قصد المترفون من ورائه ، تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ، لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحا مرسل من ربه . .

ولذا وجدنا المؤمنين ، لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال ، بأن يقولوا لهم : نعم إنه مرسل من ربه ، وإنما ردوا عليهم بقولهم : إنا بما أرسل به مؤمنون ، مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإظهارا للإيمان الذى استقر فى قلوبهم ، وتنبهها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام - ، من الظهور والوضوح بحيث لا ينبغى لعاقل أن يسأل عنه ، وإنما الشئ الجدير بالسؤال عنه ، هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم ، والامتنال لما يقتضيه العقل السليم . .

وهو رد من المؤمنين المستضعفين ، يدل على شجاعتهم فى الجهر بالحق ، وعلى قوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم .

٨ - وهنا أعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناد وصلف وجحود ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

أى : قال المستكبرون ردًا على المؤمنين الفقراء : إنا بما آمنتم به كافرون .  
ولم يقولوا : إنا بما أُرْسِلَ بِهِ صَالِحٌ كَافِرُونَ ، إظهارًا لمخالفتهم إياهم ، وردًا على مقالتهم : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح هذا بفعل أفتح ، ويتجلى هذا الفعل فى قوله - تعالى - عنهم : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ أى : نحروها . وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر ، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره .

أى : فنحروا الناقة التى جعلها الله - تعالى - حجةً لنبيه صالح - عليه السلام - ،  
والتى قال لهم صالح فى شأنها ﴿ لَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة الكبيرة ، أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم ، لكونه بين أظهرهم ، وقوله - سبحانه - : ﴿ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : استكبروا عن امتثال أوامره ، واجتناب نواهيهِ . من العتو ، وهو النبو ، أى : الارتفاع عن الطاعة ، والتكبر عن الحق ، والغلو فى الباطل . يقال : عتا يعتوتيا ، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار ...

وقد اختار القرآن الكريم كلمة ﴿ عَتَوْا ﴾ ، لإبراز ما كانوا عليه من غرور وتجبر وتطاول ، خلال اقترافهم للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقر الناقة ، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن عمد وإصرار على ارتكاب المنكر .

ثم لم يكتفوا بكل هذا ، بل قالوا لنبئهم فى سفاهة وتطاول : ﴿ يَا صَالِحُ اثْنَا بِنَا تَعْدَنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أى : قالوا له بعد أن نادوه باسمه تهوينا لشأنه : يا صالح اثنتا بالعذاب الذى توعدنا به إذا ما خالفنا أمرك ، إن كنت من الصادقين فى تهديدك وفى وعيدك لنا ، وفى تبليغك عن ربك .

٩ - ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم سريعاً ، وبدل على ذلك قوله - تعالى - :  
﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ .

والرجفة : هى الزلزلة الشديدة . يقال رجفت الأرض ترجف رجفاً ، إذا اضطربت وزلزلت ، ومنه الرجفان للاضطراب الشديد .

وجاثمين : من الجثوم ، وهو للناس والطير ، بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثوماً وجثماً فهو جاثم ، إذا وقع على صدره ، أو لزم مكانه فلم يبرحه .

والمعنى : فأخذت الرجفة أولئك المستكبرين فأهلكتهم ، وأصبحوا فى مساكنهم باركين على الركب ، ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

١٠ - ويتركهم القرآن على هيئتهم جاثمين ، ليتحدث عن نبيهم صالح الذى كذبه فىقول : ﴿ فَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

أى : فأعرض عنهم نبيهم صالح - عليه السلام - ونفض يديه منهم ، وتركهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم ، وأخذ يقول متحسرا على ما فاتهم من الإيمان :  
يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي كاملة غير منقوصة ، ونصحت لكم بالترغيب تارة ، وبالترهيب أخرى ، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم . وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وحلت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها ويستهنئون بها .  
١١ - وفى سورة «الحجر» آيات كريمة ، ذكرت جانبا من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، قال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ .

[ الحجر ]

وأصحاب الحجر : هم قوم صالح - عليه السلام - والحجر : واد بين بلاد الشام وبين المدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه .  
والحجر فى الأصل : كل مكان أحاطت به الحجارة . أو كل مكان محجور . أى : ممنوع من الناس بسبب اختصاص بعضهم به .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولهم صالحا - عليه السلام - لأن تكذيب رسول واحد ، هو تكذيب لجميع الرسل ، حيث إن رسالتهم واحدة ، وهى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والنهى عن الرذائل والمفاسد .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال :  
﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ .

أى : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه رسول من عندنا ، والتي من بينها الناقة التي أخرجها الله - تعالى - لهم ، بركة دعاء نبيهم ، فكانوا عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا معرضين لا يلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولهذا عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال ، فقال - تعالى - : ﴿ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ .

أى : وكانوا لقوتهم وغناهم ، يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال ، وهم آمنون مطمئنون ولكن ماذا كانت نتيجة هذه القوة الغاشمة ، والشراء الذى ليس معه شكر لله - تعالى - ، والإصرار على الكفر ، والتكذيب لرسول الله - تعالى ، والإعراض عن الحق؟ لقد بين القرآن عاقبه ذلك فقال : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

أى : فكانت نتيجة تكذيب أصحاب الحجر لرسولهم صالح - عليه السلام - ، أن أهلكتهم الله - تعالى - وهم داخلون فى وقت الصباح ، عن طريق الصيحة الهائلة ، التى جعلتهم فى ديارهم جاثمين ، دون أن يغنى عنهم شيئا ما كانوا يكسبون من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال .

وهكذا نرى أن كل وقاية ضائعة ، وكل أمان ذاهب ، وكل تحصن زائل ، أمام عذاب الله المسلط على أعدائه المجرمين .

١٢ - وفى سورة «هود» وردت قصة صالح - عليه السلام - مع قومه بشىء من التفصيل ، وبأسلوب فيه ما فيه من العظات والعبر لأولى الألباب .

وهذه الآيات هى قوله :

وَالِى شَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَهُوَ أَنشَأَ لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ لَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٧﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَٰهَ إِلَٰهٍ مَّرِيبٍ ﴿٦٨﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن

رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا  
 تَزِيدُ وَنَبِيٍّ غَيْرِ تَخْسِيرٍ ﴿١٦٦﴾ وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَنْ ذَرَاهَا  
 تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦٧﴾  
 ﴿١٦٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن  
 خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦٩﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
 الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿١٧٠﴾ كَانُوا لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا  
 إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ الشُّمُودِ ﴿١٧١﴾

١٣ - تلك هي قصة صالح مع قومه كما ذكرتها سورة هود - عليه السلام - ، والمتأمل فيها يراها قد افتتحت بالدعوة التي وجهها كل نبي لقومه ، ألا وهي الأمر بإخلاص العبادة لله الواحد القهار .

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود ، أخاهم في النسب والموطن صالحا - عليه السلام - فقال لهم تلك الكلمة التي قالها كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذي خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدره الله - تعالى - وبنعمه عليهم فقال : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ .

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشيء على غير مثال سابق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ من الإعمار الذي هو ضد الخراب فالسین والتاء للمبالغة . يقال : أعمر فلان فلانا في المكان واستعمره ، أى : جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع .

أى : أخلصوا لله - تعالى - العبادة ، فهو الذي خلق أبائكم آدم من هذه الأرض وأنتم من نسله ، وهو - سبحانه - الذي مكنكم من تعمير هذه الأرض بشتى أنواع الزرع والشمار ومادام الأمر كذلك : ﴿ فَاسْتَفْغِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ .

أى : فأخلصوا له العبادة ، واشكروه على نعمه ، واطلبوا مغفرته عما سلف منكم من ذنوب ، ثم توبوا إليه توبة صادقة ، تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر . ثم فتح أمامهم الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝ ﴾ .

أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب لدعاء الداعين المخلصين ، فأقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمته .

١٤ - ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۝ ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح قد كنت فىنا رجلا فاضلا ، نرجوك لمهمات الأمور لعلمك وعقلك وصدقك .. قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد ، فقد خاب رجائنا فىك ، وصرت فى رأينا إنسانا مختل التفكير فالإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ قَبْلَ هَذَا ۝ ﴾ : تعود إلى الكلام الذى خاطبهم به ، بعد أن بعثه الله إليهم ..

والاستفهام فى قولهم : ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۝ ﴾ للإنكار والتعجيب .

أى : أجيئنا بدعوتك الجديدة ، لتنهانا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آبائنا من قبلنا؟ لا ، إننا لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين ، وإننا على آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بكلام يدل على تصميمهم على مخالفته فقالوا : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ ﴾ .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة ، أى : القلق والاضطراب .

أى : قالوا له بكل سفاهة وتصميم على باطلهم : نحن لن نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آبائنا ، وإننا لفي شك كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعوننا إليه . فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل !!

١٥ - ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس ، بل رد عليهم بأسلوب حكيم فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتَهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝ ﴾ .

أى : قال صالح - عليه السلام - لقومه : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربى ، وأعطانى من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة ، حيث اختارنى لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، فمن ذا الذى يجيرنى ويعصمنى من غضبه إذا أنا خالفت أمره ، أو قصرت فى تبليغ دعوته . مسأيرة لكم فى باطلكم!

لا ، إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى من ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله : ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ : تصريح منه - عليه السلام - بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .  
والتخسير : مصدر خسر . يقال خسر فلانا إذا نسبه إلى الخسران .

أى : فما تزيدوننى بطاعتى لكم ومعصية ربى ومالك أمرى ، سوى الوقوع فى الخسارة ، والتعرض لعذاب الله وسخطه ، وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - عز وجل - ومن ثبات على دعوته ، ومن حرص على طاعته .

ولم يكتف صالح - عليه السلام - بكل تلك النصائح الحكيمة ، بل أرشدهم إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾  
أى : معجزة دالة على صدقه ..

وفى إضافتها إلى الله - تعالى - تعظيم لها ، وتشريف لحالها ، وتنبه على أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التى تستعمل فى الركوب والنحر وغيرهما ، لأن الله - تعالى - قد جعلها لنبيه صالح ولم يجعلها كغيرها ..

وقوله : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء ، وتحذير لهم من مخالفة أمره .

أى : اتركوا ناقة الله حرة طليقة تأكل فى أرض الله الواسعة ، واحذروا أن تمسوها بشيء من السوء أو الأذى ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب .

١٦ - فهل استجاب قومه لتلك التحذيرات والتوجيهات ؟ كلا إنهم لم يستجيبوا بل عقروا الناقة وذبحوها ، واستخفوا بكل ما توعدهم به نبيهم إذا تمسوها بسوء ، فكانت نتيجة ذلك أن قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ .

أى : قال لهم صالح - عليه السلام - بعد نحرهم للناقة : عيشوا ثلاثة أيام فقط فى دياركم هذه ، متمتعين بما فيها من نعم ، وبعدها سينزل بكم العذاب الذى لا يبقى منكم أحدا ، وهذا وعد من الله - تعالى - لى ، والله - تعالى - لا يخلف وعده . وعبر - سبحانه - عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد - لا بالوعيد - ، على سبيل التهكم بهم . . . ولقد تحقق ما توعدهم به نبههم ، فقد حل بهم العذاب فى الوقت الذى حدده لهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى : جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم فى الوقت المحدد .

﴿ وَنَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ أى : برحمة عظيمة كائنة منا «ونجيناهم» أيضا - «من خزى يومئذ» أى : من خزى وذل ذلك اليوم الهائل الشديد ، الذى نزل فيه العذاب بهؤلاء الظالمين من قوم صالح ، فاستأصل شأفتهم ، وأهلكهم عن آخرهم .

فالتنوين فى قوله : «يومئذ» عوضٌ عن المضاف إليه المحذوف .

وقوله : - سبحانه - ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ : تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم من أذى المشركين .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو القوى الذى لا يعجزه شىء ، العزيز الذى لا يهان من يتولاه ويرعاه . .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين ، تصويرا يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال : ﴿ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودِ ﴾ .

والصيحة : الصوت الشديد المرتفع . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : إنصاح الخشب والثوب ، إذا انشق فسمع له صوت . ويغنون فيها : أى يقيموا فيها . يقال غنى فلان بالمكان يغنى ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام - العذاب عن طريق الصيحة الشديدة التى صيحت بهم بأمر الله - تعالى - ، فأصبحوا بسببها هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة ، حتى لكأنهم ، لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلا فى رخاء من عيشهم . . ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحدوها ، ألا بعدا وسحقا لهؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود .

وتكرر حرف التنبيه «ألا» وتكرر لفظ «ثمود» ، تأكيد لطردهم من رحمة الله ، وتسجيل لما ارتكبه من منكرات .

وهكذا قصت علينا هذه الآيات ما جرى بين صالح - عليه السلام - وبين قومه ، من محاولات ، انتهت بنصر الله - تعالى - للمؤمنين ، وبتدميره للقوم المجرمين ، الذين استحبوا الكفر على الإيمان .

١٧- وفى سورة النمل آيات أخرى حكى لنا جانباً من طغيان الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - ، وكيف أن فريقاً منهم تأمروا على قتله ، ولكن الله - تعالى - نجاه من مكربهم ، ودمرهم تدميراً ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَجِلُّونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيرٌ نَابِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْسِدُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقِاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ وَاَهْلَهُ وَهُمْ لَنَتَّقُونَ لَوْلِيَّهِ مَا شَهِدْنَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُ اللَّهِ وَتَأْتَى لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤُهُمْ لَمَكْرٌ أَوَّامٌ وَمَكْرٌ أَوَّامٌ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ أَتَادَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

١٨- واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ جواب لقسم محذوف ، أى : وبالله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً - عليه السلام - لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن الكفر والفسوق والعصيان .  
وإذا فى قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ : هى الفجائية «يختصمون» من المخاصمة بمعنى المجادلة والمنازعة .

أى : أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ليبشرهم وينذرهم ، فكانت المفاجأة أن  
انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به وهم الأقلون . وقسم كفر به وهم الأكثرون .

وهذه الخصومة بين الفريقين ، قد أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ  
صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي  
آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ . [سورة الأعراف : الآيتان ٧٥ ، ٧٦] .

ثم بين - سبحانه - ما وجهه صالح - عليه السلام - لقومه من نصائح حكيمة ، فقال :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

أى : قال صالح للمكذبين لرسالته بأسلوب رقيق مؤثر : يا قوم لماذا كلما دعوتكم إلى  
الحق أعرضتم عن دعوتى ، وأثرتم الكفر على الإيمان ، واستعجلتم عقوبة الله التى  
حذرتكم منها .. وهلا بدلا من كل ذلك ، استغفرتم الله وأخلصتم له العبادة ، لكى  
يرحمكم ويعفو عنكم .

فالمراد بالسئئة : العذاب الذى تعجلوه ، وقالوا له على سبيل التحدى : يا صالح اثتنا  
بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به هؤلاء المتكبرون على نبيهم فقال : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ  
وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى : قال المكذبون من قوم صالح له : يا صالح لقد أصابنا الشؤم والنحس  
بسبب وجودك ووجود المؤمنين بدعوتك فينا ، حيث أصابنا القحط بعد الرخاء ، والعسر  
بعد اليسر ، والفقير بعد الغنى .

فكان رد صالح - عليه السلام - عليهم أن قال لهم : ﴿ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ  
تُفْتَنُونَ ﴾ . أى : قال لهم مويخا وزاجرا : ليس الأمر كما زعمتم من أن وجودنا بينكم  
هو السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما أصابكم من شر ، هو من عند الله -  
تعالى - بسبب كفركم وبغيكم ، وقد فعل بكم - سبحانه - ذلك ليمتحنكم  
ويختبركم ، حتى تتوبوا إليه من ذنوبكم ، قبل أن ينزل بكم العذاب الماحق ، إذا ما  
بقيتم على شرككم .

١٩ - ولكن هذا النصيح الحكيم الذى وجهه صالح إلى المكذبين من قومه ، لم يجد  
أذنا صاغية منهم ، بل قابله زعماؤهم بالتكبر والإصرار على التخلص من صالح -

عليه السلام - ومن أهله ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿ .

والمراد بالمدينة : مدينة صالح - عليه السلام - وهى الحِجْر التى تسمى بمدائن صالح .  
وقوله : تسعة رهط ، أى : تسعة أشخاص ، وهم الذين تولوا عقر الناقة ..  
ووصفهم - سبحانه - بأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، للإشارة إلى أن نفوسهم تمخضت للفساد والإفساد ، ولا مكان فيها للصلاح والإصلاح .  
وقوله : «تقاسموا» فعل أمر محكى بالقول ، أى : قال بعضهم لبعض :. احلفوا بالله لتقضين على صالح - عليه السلام - وعلى أهله ..

وقوله : «لنبيئته» من البيات ، وهو مباغطة العدو ليلا لقتله . يقال : بيئت القوم العدو ، إذا أوقعوا به ليلا .

والمراد بوليّه : أهله وأقاربه المطالبون بدمه ، وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المجرمين ، لم يكونوا ليستطيعوا قتل صالح - عليه السلام - علانية ، خوفا من مناصرة أقاربه له .

والمعنى : وكان فى المدينة التى يسكنها صالح - عليه السلام - وقومه ، تسعة أشخاص دأبهم ودينتهم الإفساد فى الأرض ، وعدم الإصلاح فيها ..

وقد تعاهد هؤلاء التسعة ، وأكدوا ما تعاهدوا بالأيمان المغلظة ، وهو أن يباغثوا نبيهم صالحا ومن معه ، فيقتلوه جميعا ليلا ، ثم يقولوا بعد جريمتهم الشنعاء لأقارب صالح - عليه السلام - : لا علم لنا ولا خبر عندنا بهلاك صالح ومن معه ، وإنا لصادقون فى كل ما نقوله ..

وهكذا الجبناء المفسدون فى الأرض ، يرتكبون أقيح الجرائم وأشنعها ، ثم يبررونها بالحيل الساذجة الذميمة ، ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم بريئون من تلك الجرائم ..

ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين الغادرين يقولون فيما بينهم : تقاسموا بالله ، أى : احلفوا بالله على أن تنتقدوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا ، فهم يؤكدون إصرارهم على الإجرام بالحلف بالله ، مع أن الله - تعالى - برىء منهم ومن غدرهم ..

٢٠ - ولكن هذا المكر السيئ ، والتحايل القبيح ، قد أبطله الله - تعالى - ، وجعله يحق بهم وبأشياعهم ، فقد قال - تعالى - : ﴿ مَكْرُوهًا مَكْرًا ﴾ .

أى : بهذا الحلف على قتل صالح وأهله غدرا وغيلة مكروا مكرا شديدا .. «ومكرونا مكرا» أى : ودبرنا لصالح ولن أمن به تدبيرا محمودا محكما ، بحيث ننجيهم من القوم الغادرين .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : جملة حالية ، والحال أن هؤلاء الغادرين ، لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم ، ولا يعلمون أن رعايتنا لعبادنا الصالحين ، تنجيهم من مكر الماكرين ، وغدر الغادرين .

ثم بين - سبحانه - الآثار التي ترتبت على مكروهم السيئ ، وعلى تدبيره المحكم ، فقال تعالى - : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى فانظر - أيها العاقل - وتأمل واعتبر فيما آل إليه أمر هؤلاء المفسدين ، لقد دمرناهم وأهلكناهم ، ودمرنا معهم جميع الذين كفروا بنبينا صالح - عليه السلام - ولم نبق منهم أحدا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ : مقرر ومؤكد لما قبله من تدمير المفسدين وإهلاكهم .

أى : إن كنت - أيها العاقل - تريد برهانا على تدميرهم جميعا ، فتلك هي بيوتهم خاوية وساقطة ومتهدمة على عروشها ، بسبب ظلمهم وكفرهم ومكروهم ، يراها من ينظر إليها ، ويشاهدها من يمر قريبا منها ..

«إن فى ذلك» الذى فعلناه بهم من تدمير وإهلاك «لآية» أى : لعبرة واضحة وعظة بليغة .

«لقوم يعلمون» أى : لقوم يتصفون بالعلم النافع ، الذى يوصل إلى العمل الصالح .  
ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بتأكيد سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

أى : وأنجينا بفضلنا وإحساننا الذين آمنوا بنبينا صالح - عليه السلام - ، والذين كانوا من شأنهم أنهم يخافون الله - تعالى - ويصونون أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .

٢١ - وقد أكد - سبحانه - هذه السنة التى لا تتخلف وهى : نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين ، فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

(١) سورة فصلت : الآيتان ١٧ - ١٨ .

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا - عليه السلام - ، فقد بينا لهم عن طريقه سبيل الرشاد وسبيل الغى ..

فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَجِبُوا أَعْمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ أى : فاختراروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الغى على الرشاد ، والضلال على الهدى ..

فالمراد بالعمى هنا : الكفر والضلال ، والمراد بالهدى : الطاعة والإيمان .

وقوله - سبحانه - ﴿ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ : بيان لسنته - سبحانه - التى لا تتخلف ، وهى : إهلاك الظالمين ، وإنجاء المؤمنين .

أى : فحين استمر قوم صالح على كفرهم وضلالهم ، وأصروا على مخالفة نبيهم ، كانت نتيجة ذلك ، أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم ، والعذاب المهين الذى أبادهم ، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب وقبائح .

وأما الذين آمنوا بدعوة نبينا صالح - عليه السلام - ، واتبعوه فيما أمرهم به أو نهاهم عنه ، فقد نجيناهم من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة ، ببركة تقواهم وخوفهم من عذاب خالقهم ، واتباعهم للحق الذى جاءهم به نبيهم - عليه السلام .

٢٢ - وفى سورة الشعراء آيات تحدثت عن المحاورات التى دارت بين صالح - عليه السلام - وبين قومه ، وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ..  
وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

كَذَّبَتْ

ثَمُودَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ ااتَّقُوا إِنِّي كُنتُ  
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ  
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ  
﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمًا هُضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَجْتَوْنَ  
مِنَ الْجِبَالِ مِيثَاقَ رَهِينٍ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا

أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالُوا  
 إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٧﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ  
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ  
 مَعْلُومٍ ﴿١٥٩﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومِ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾  
 فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

٢٣ - والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى أنها قد افتتحت ببيان موقف قوم ثمود من صالح - عليه السلام - ، ثم ثنت ببيان النصائح التي وجهها صالح إلى قومه ، ثم ببيان ردهم القبيح عليه ، ثم ختمت ببيان ما أصابهم من عذاب أليم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وعصيانهم لنبيهم .

وقال - سبحانه - ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا وهو نبيهم صالح - عليه السلام - ، للإشعار بأن تكذيبهم لنبي واحد ، هو تكذيب لجميع الأنبياء ، لأنهم جميعا قد أتوا برسالة واحدة ، ألا وهي الدعوة إلى إخلاص العبادة لله تعالى - وإلى اعتناق مكارم الأخلاق .. ولقد دعاهم صالح - أولا - إلى تقوى الله والخشية منه ، ثم بين لهم أنه رسول أمين على تبليغ رسالة الله إليهم ، ثم أكد لهم الأمر بالتقوى ، ثم أعلن لهم أنه لا يبغى منهم أجرا ولا مالا على دعوته إلى سعادتهم ، وإنما أجره يرجوه من الله - تعالى - وحده ..

ثم وعظهم بعد ذلك بما يبرق في القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شكر الله - تعالى - على نعمه فقال لهم : ﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ (١٤٦) فِي جَنَاتٍ وَعَيْونِ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ ﴿

والاستفهام في قوله «أتتركون» للإنكار والنفي . والطلع : اسم من الطلوع بمعنى الظهور ، وأصله ثمر النخل في أول ما يطلع ، وهو بعد التلقيح يسمى خللا - بفتح الخاء - ثم يصير بسرا ، فرطبا ، فتمرا ..

والهضيم : اللين اللذيذ الذي تداخل بعضه في بعض ، وهو وصف للطلع الذي قصد به هنا : الثمار الناضجة الطيبة لصيرورته إليها .

والمعنى : أتتوهمون وتظنون أنكم متروكون في هذه الدنيا بدون حساب أو سؤال من

خالقكم - عز وجل - وأنتم تتقبلون في نعمه ، التي منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة .

إن كنتم تتوهمون ذلك فانبذوا هذا الوهم ، واعتقدوا أنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم إلى زوال ، وستحاسبون يوم القيامة على ما قدمتم وما أخرتم ، وما دام الأمر كذلك فقدموا الإيمان والعمل الصالح ، كي تنالوا الثواب من خالقكم .

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ ، كي يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو طاعة الله - تعالى - وشكره ، وقد استعمل في وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقبلون فيه من نعم تشمل البساتين والعيون ، والزروع المتعددة ، والنخيل الجيدة الطلع ، اللذيذة الطعم حتى لكان ثمرها لجودته ولينه ، لا يحتاج إلى هضم في البطون .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى ، وكرر عليهم الأمر بتقوى الله - تعالى - فقال : ﴿ وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ .

أى : وكما نهيتكم عن الغفلة عن يوم الحساب وعن الاغترار بالدنيا ، أنهاكم انهماككم في نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة ، لكي تبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد البطر والأشر والغرور ، لا بقصد الإصلاح والشكر .

فمحل النهي إنما هو قصد الأشر والبطر في البناء وفي النحت ، وإلا فالتعمير من أجل الإصلاح أمر مرغوب فيه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ : أى : ماهرين حاذقين في نحتها . من فره - ككرم - فراهة ، إذا برع في فعل الشيء ، وعرف غوامضه ودقائقه .

ثم نهاهم عن طاعة المفسدين في الأرض بعد أن أمرهم بتقوى الله فقال : ﴿ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

أى : اجعلوا طاعتكم لله - تعالى - وحده ، واتركوا طاعة زعمائكم ورؤسائكم المسرفين في إصرارهم على الكفر والمعاصي ، والذين دأبهم الإفساد في الأرض ..

٢٤ - ولكن هذا النصح الحكيم من صالح لقومه ، لم يقابل منهم بأذن صاغية ، بل قابله بالتطاول والاستهتار وإنكار رسالته فقالوا له : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : قال قوم صالح له بسفاهة وسوء أدب : أنت لست إلا من الذين غلب عليهم

السحر ، وأثر عقولهم ، فصاروا يتكلمون بكلام المجانين ، وما أنت - أيضا - إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل ، وتشرب الشراب كما نشرب ، فإن كنت رسولا حقا فأتنا بعلامة ومعجزة تدل على صدقك فى دعواك الرسالة ، وكأنهم - لغبايهم وانطماس بصائرهم - ظنوا أن البشرية تتنافى مع النبوة ..

وتضرع صالح - عليه السلام - إلى ربه ، أن يرزقه معجزة لعلها تكون سببا فى هدايتهم ، فأجاب - سبحانه - تضرعه ، وأعطاه الناقة لتكون معجزة له ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره ج ٦ ص ١٦٦ : «ثم إنهم اقترحوا عليه آية - أى : معجزة - يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، فطلبوا منه أن يخرج لهم فى الحال من صخرة عندهم ناقة عشراء ، من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم صالح - عليه السلام - العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ، فأنعموا بذلك - أى : قالوا : نعم - ، فقام نبي الله صالح فصلى ، ثم دعا ربه أن يجيبهم على سؤالهم ، فانفطرت - أى : فانشقت - تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشراء ، على الصفة التى وصفوها ، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم» والمعنى : قال لهم صالح بعد أن طلبوا منه معجزة تدل على صدقه : هذه ناقة لها نصيب معين من الماء ، ولكم أتم نصيب آخر منه ، وليس لكم أن تشربوا منه فى يوم شربها ، وليس لها أن تشرب منه فى يوم شربكم ، واحذروا أن تمسوها ف يأخذكم عذاب يوم عظيم .

ووصف اليوم بالعظم ، لشدة ما يحل فيه من عذاب ينزل بهم إذا مسوها بسوء . ولكن قومه لم يفوا بعهودهم ، فذبحوا الناقة التى هى معجزة نبيهم ..

وأسند الذبح إليهم جميعا فى قوله - سبحانه - ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ مع أن الذى ذبحها واحد منهم ، لأن الذبح كان برضاهم جميعا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى عقر ﴾ .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ بيان لما ترتب على عقرهم لها . وندمهم إنما كان بسبب خوفهم من وقوع العذاب ، ولم يكن بسبب إيمانهم وتقواهم ، أو أن ندمهم جاء فى غير أوانه ، كما يشعر بذلك قوله - تعالى - : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : فأخذتهم الرجفة ، وتبعتهما الصيحة التى صاحها بهم جبريل - عليه السلام - فأهلكتهم ..

ثم تحتتم القصة بالتعقيب الذى فيه من العبر ، وهو قوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ - أى : العبرة والعظة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿

٢٥ - وقصة صالح مع قومه ، قد جاءت فى سور أخرى بصورة مختصرة ، وكان التركيز فيها على معجزته وهى الناقة .

ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة الإسراء : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الآية : ٥٩] .

أى : وأجينا قوم صالح - عليه السلام - وهم قبيلة ثمود إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة فى الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وجعلوها محل الإهلاك والتدمير بسبب عصيانهم لنبيهم ، وعقرهم للناقة ، وما نرسل رسلنا ومعهم الآيات الدالة على صدقهم ، إلا تخويفا لأقوامهم من سوء عاقبة تكذيبهم لهذه الآيات والمعجزات .

٢٦ - ومن ذلك - أيضاً - قوله - تعالى - فى سورة «الشمس» :

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ .

أى : كذبت قبيلة «ثمود» نبيها صالحا - عليه السلام - بسبب طغيانها . فالباء فى قوله : «بطغواها» للسببية . والطغوى : اسم مصدر من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد المعتاد .

والظرف فى قوله : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ متعلق بقوله ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ لأن وقت انبعث أشقاهم لقتل الناقة هو أشد أوقات طغيانهم وفجورهم .

أى : كذبت ثمود بنبيها بسبب طغيانها ، وكان أشد تكذيبهم له ، وقت أن أسرع أشقى تلك القبيلة وهو - قادر بن سالف - لعقر الناقة التى هى معجزة نبيهم .. ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وهو صالح - عليه السلام - على سبيل التحذير والإنذار - ، احذروا عقر هذه الناقة ، التى أوجدها الله بقدرته لتكون معجزة لى ، واحذروا أن تزاحموا فى اليوم المحدد لشربها .

ولكنهم لم يستمعوا لتحذيره وإنذاره ، بل كذبوه ، فعقروها ، فكانت نتيجة ذلك أن ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ أى : أطبق عليهم الأرض ، وسواها من فوقهم ، والضمير فى قوله ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ يعود على الله - تعالى - أى : ولا يخاف الله - تعالى - عاقبة ما فعله بهم ؛ لأن ما فعله هو العدل والنقمة من الظالمين ، ولأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ، ومنهم من جعل الضمير يعود على أشقاها ، أى : ولا يخاف هذا الشقى لغبائه وجهله ، سوء عاقبة ما فعله من قتل الناقة ، بل أقدم على ما أقدم عليه بإصرار وطغيان .

٢٧ - وفى سورة «القمر» آيات كريمة تحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يصور ما كان عليه أولئك القوم من فجور وطغيان ، ..

قال - تعالى - :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٧﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا  
وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ۗ إِنَّا إِذًا لَنفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٨﴾ أَمْ لِنُقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا  
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ ﴿٢٩﴾ سَيَعْلُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا  
مُرْسِلُوا السَّاعَةَ فَنفَتَهُمْ فَأَسْتَخِفُّوهُمُ وَأَصْبِرُ ﴿٣١﴾ وَنَبِّئُهُم أَنَّ الْمَاءَ  
قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرِبٍ مُحْتَضِرٌ ﴿٣٢﴾ فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَطَعَا عَلَى  
فَعَقَرَهُ ﴿٣٣﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً  
فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٣٦﴾

٢٨ - وقوله - سبحانه - : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ : أى : كذبت قبيلة ثمود ، بالنذر التى جاءتهم عن طريق رسولهم صالح - عليه السلام - . قالنذر بمعنى الإنذارات التى أنذروهم بها نبيهم ، وخوفهم من سوء عاقبة مخالفته وعصيانه ..

ثم حكى - سبحانه - مظاهر تكذيبهم فقال : ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ أى : فقال قوم صالح له عندما أمرهم بعبادة الله - تعالى - ، ونهاهم عن عبادة غيره : قالوا على سبيل الإنكار والغرور : أنتبع واحدا من أبناء البشر ، جاءنا بهذا الكلام الذى يخالف ما كان عليه أبائنا وأجدادنا ؟

﴿ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسَعْرٍ ﴾ أى : إنا لو اتبعناه لصرنا فى ضلال عظيم ، وفى جنون واضح ..

فالسُّعْرُ بمعنى الجنون ، ومنه قولهم : ناقة مسعورة ، إذا كانت لا تستقر على حال ، وتضطرب فى سيرها كالجنونة . ويصح أن يكون السُّعْرُ بمعنى النار المسعرة . ثم أخذوا فى تنفيذ دعوته فقالوا : ﴿ أَوَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ أى : ألقى وأنزل عليه الوحي من الله - تعالى - فاخصه به من دوننا ؟ لا لم ينزل عليه شىء من ذلك ..

﴿ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ أى : بل صالح - عليه السلام - فيما يدعوننا إليه كذاب فى دعواه ، وبطر متكبر معجب بنفسه .

يقال : أشرف فلان ، إذا أبطرت النعمة ، وصار مغرورا متكبرا على غيره . وهكذا الجاهلون الجاحدون ، يقلبون الحقائق ، وتصير الحسنات فى عقولهم سيئات ، فصالح - عليه السلام - الذى جاءهم بما يسعدهم ، صار فى نظرهم كذابا مغرورا ، لا يليق بهم أن يتبعوه .

٢٩ - وقد رد - سبحانه - عليهم ردا فيه من التأنيب والتهديد فقال : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ ﴾ .

أى : سيعلم هؤلاء الكافرون الجاحدون ، فى الغد القريب ، يوم ينزل بهم العذاب من هو الكذاب فى أقواله ، ومن هو المغرور المتكبر على غيره ، أهو صالح - عليه السلام - أم هم ؟ والتعبير فى قوله - سبحانه - : ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ : لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .

والمراد بقوله : ﴿ غَدًا ﴾ : الزمن المستقبل القريب الذى سينزل فيه العذاب عليهم . ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، ما أمر به نبيه صالحا - عليه السلام - فقال : ﴿ إِنَّا مُرْسَلُوا نَأْتِي النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ (٢٧) وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ .

وقوله : ﴿ مُرْسَلُوا نَأْتِي النَّاقَةَ ﴾ أى : مخرجوها وبعثوها ، لأنهم اقترحوا على نبيهم أن يأتيتهم بمعجزة تدل على صدقه ، فأخرج الله لهم تلك الناقة من مكان قريب منهم .

أى : وقلنا لنبينا صالح على سبيل الإرشاد والتعليم ؛ بعد أن طلب منه قومه معجزة تدل على صدقه : قلنا له : أخبرهم أننا سنرسل الناقة ، وسنخرجها لهم أمام أعينهم ، لتكون دليلا على صدقك ، ولتكون فتنة أى : امتحانا واختبارا لهم ، حتى يظهر لك وللناس ، أيؤمنون أم يصرون على كفرهم ؟

وما دام الأمر كذلك ، فراقب أحوالهم ، وانتظر ماذا يفعلون بعد ذلك ، واصبر على أذاهم صبرا جميلا ، حتى يحكم الله بينك وبينهم .

وأخبرهم خبرا هاما ، هذا الخبر هو أن الماء الذى يستقون منه ، قسمة بينهم وبين الناقة .

﴿ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أى : كل نصيب من الماء يحضره من هوله . فالناقة تحضر إلى الماء فى يومها ، وهم يحضرون إليه فى يوم آخر .

ففى هاتين الآيتين تعليم حكيم من الله - تعالى - لنبية صالح ، وإرشاد له إلى ما يجب عليه أن يسلكه معهم بيقظه واعية ، يدل عليها قوله - سبحانه - : ﴿ فَارْتَبِعْهُمْ ﴾ ، وبصبر جميل لا يأس معه ولا ضجر ، كما يشير إليه قوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْطَبِرْ ﴾ وسياق القصة ينبئ عن كلام محذوف يعلم من سياقها . والتقدير : أرسلنا الناقة امتحانا واختبارا لهم ، وقلنا له أخبرهم أن الماء مقسوم بينهم وبينها ، واستمروا على ذلك مدة من الزمان ، ولكنهم أبوا هذه القسمة ولم يقبلوها ، وأجمعوا على قتل الناقة ...

﴿ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو - قدار بن سالف - الذى كان معروفا لهم وزعيما من زعمائهم كما يشير إليه قوله ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ .

والمقصود بندائهم : إغراؤهم بقتلها ، مخالفين بذلك وصية نبيهم . وقوله : ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ متفرع على ما قبله . وقوله : ﴿ تَعَاطَى ﴾ مطاوع للفعل عاطاء ، وهو مشتق من عطا يعطو ، إذا تناول الشيء .

وهذه الصيغة ﴿ تَعَاطَى ﴾ تشير إلى تعدد الفاعل ، فكأن هذا النداء بقتل الناقة ، تدافعوه فيما بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى غيره ، حتى استقر عند ذلك الشقى الذى ارتضى القيام به ، وتولى كبره ، حيث عقر الناقة وبقيتة المجرمين أيده فى ذلك .

والتعبير بقوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ : يشير إلى هول العقوبة التى نزلت بهم بسبب ما فعلوه من عقر الناقة ، ومن تكذيبهم لنبيهم . أى :

انظر وتدبر - أيها العاقل - كيف كان عذابي وإنذارى لهؤلاء القوم؟ لقد كان شيئا هائلا لا تحيط به العبارة .

ثم فصل - سبحانه هذا العقاب المبين فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ .

والهشيم : ما تهشم وتفتت وتكسر من الشجر اليابس .

والمحتظر : هو الذى يعمل الحظيرة لتكون مسكنا للحيوانات .

أى : إنا أرسلنا على هؤلاء الطغاة المجرمين ، صيحة واحدة صاحبها بهم جبريل - عليه السلام - ، فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسة المكسرة ، التى يجمعها الجامع ليجعل منها حظيرة لسكن حيواناته .

والمقصود بهذا التشبيه : بيان عظم ما أصابهم من عقاب شديد ، جعلهم كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر ...

وهذا العذاب عبر عنه - سبحانه - بالصيحة ، كما فى هذه الآية ، وكما فى سورة «هود» ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [الآية ٦٧] .

وعبر عنه بالرجفة كما فى سورة الأعراف فى قوله :

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ ﴾ [الآية ٧٨] .

وعبر عنه بالصاعقة كما فى سورة فصلت فى قوله :

﴿ فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ .. ﴾ [فصلت : ١٧]

وعبر عنه بالطاغية كما فى سورة الحاقة فى قوله :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٥]

ولاتعارض بين هذه التعبيرات ، لأنها متقاربة فى معناها ، ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب .

فكانه - سبحانه - يقول : لقد نزلت بهؤلاء المكذبين الصيحة التى زلزلت كياناتهم لقوتها ، ثم رجفت بهم الأرض فصعقوا ، وابتلعتهم فى جوفها ، بعد أن صاروا فوقها كالأعواد الجافة المتحطمة .

ثم ختم - سبحانه - الآيات بقوله :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ٣٢]

أي : وبالله لقد سهلنا القرآن للتذكر والحفظ ، فهل من معتبر ومتمتع ، بقصصه ووعدته ، ووعيده ، وأمره ونهييه ..

والمقصود بهذه الآية الكريمة : الحض على حفظ القرآن ، وعلى الاعتبار بمواعظه ، وعلى العمل بما فيه من تشريعات حكيمة ، وأداب قويمية ، وهدايا سامية .

٣٠ - وبعد فهذه قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، كما جاءت في سور : الأعراف ، هود ، الحجر ، الإسراء ، الشعراء ، النمل ، فصلت ، القمر ، والشمس وضحاها ..

والتأمل في هذه القصة يراها زاخرة بالعبر والعظات التي من أهمها :

( أ ) أن صالحا - عليه السلام - قد بذل مع قومه أقصى ألوان الترغيب والترهيب ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ونبذ عبادة كل شيء سواه ، وقد داوم على هذه الدعوة بدون يأس أو ملل إلى أن بلغ رسالة الله - تعالى - على أكمل وجه .. أما الترغيب فنراه في دعوة قومه إلى شكر الله لكي يزيدهم من نعمه التي منها : جعلهم خلفاء من بعد قبيلة عاد ، وتمكينهم في الأرض لكي يعمروها بالزروع والثمار ، ولكي يتخذوا منها القصور والمسكن واعطاهم القوة التي بواسطتها اتخذوا من الجبال بيوتا ..

فهو يقول لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤]

ويقول لهم في موطن آخر : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١]

ويقول لهم في موضع ثالث : ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦]

وأما الترهيب فنراه في تحذيرهم من التمدادى فى كفرهم وفسوقهم وعصيانهم ، لأن ذلك سيؤدى إلى هلاكهم ..

فهو يقول لهم : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢]

ويقول لهم فى موضع آخر : ﴿ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءِ فِئَاخُذِكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٦] (أى الناقة)

ويقول لهم فى موضع ثالث :

وهكذا الدعاة العقلاء المخلصون ، لا يتركون وسيلة لنفع دعوتهم إلا سلكوها ، ولا يرون طريقة لهداية المدعويين إلا اتبعوها .

(ب) أن العقلاء من الناس يعتبرون بأثار الظالمين ، ويربأون بأنفسهم عن أن يسلكوا سلوكهم ، أو أن يسكنوا مساكنهم ، خوفا من أن يصيبهم ما أصاب أولئك الظالمين ، ففى الصحيحين عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر - وهو فى طريقه إلى تبوك - قال لأصحابه : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم قع رأسه - أى : غطاءه ، وأسرع السير حتى جاوزوا الوادى » .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عمر - أيضا - قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلقوا العجين للإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم عن أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم .

(ج) أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، واستقر فى النفوس ، ولد فيها الشجاعة والقوة ، والإقدام والصراحة ..

نرى ذلك واضحا فى القلة المؤمنة التى أمنت بصالح - عليه السلام - وصدقته فى دعوته ، فهذه القلة عندما قالت لها الكثرة الباغية الجاحدة من قوم صالح : ﴿ أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ﴾ [الأعراف: ٧٥] ؟ ما كان من هذه القلة المؤمنة إلا أن قالت للكثرة الباغية بكل ثبات وشجاعة ووضوح : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولم يخشوا بغي هذه الكثرة أو قوتها أو غرورها ، بل سارعوا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل دون أن يخشوا أحدا إلا الله ..

(د) كذلك من الدروس التي تتعلمها من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، أن العقلاء المخلصين دائما يستعملون في دعوتهم الأساليب المنطقية الحكيمة مع غيرهم ، وهذا نراه بوضوح في كثير من جدال صالح مع قومه ، ومن ذلك قوله لهم : ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ ﴿ (٤٧) ﴾ [النمل] ، وهكذا نرى أن صالحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته لقومه أحكم الأساليب وأقواها .

## قصة إبراهيم عليه السلام -

١ - قصة إبراهيم - عليه السلام بجوانبها ، من القصص التي تكرر الحديث عنها في القرآن الكريم ، في سور متعددة .

فقد جاء الحديث عنها في سور : البقرة ، آل عمران ، الأنعام ، التوبة ، هود ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، مريم ، الأنبياء ، الحج ، الشعراء ، العنكبوت ، الصافات ، الزخرف ، الذاريات .. وغيرها .

وورد اسم إبراهيم - عليه السلام - فيما يقرب من سبعين موضعا من القرآن الكريم .

٢ - وينتهي نسب إبراهيم إلى نوح - عليهما السلام - فقد قال الإمام ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» ج١ ص١٥٢ في بيان نسبه : هو إبراهيم ، بن تسارخ ، بن ناحور ، بن ساروخ ، بن راعو ، بن فالغ ، بن عابر . . . بن سام ، بن نوح - عليه السلام - وكانت المدة بين إبراهيم ونوح - عليهما السلام - تزيد على ثلاثة آلاف سنة .

وولد إبراهيم - عليه السلام - بأرض بابل بالعراق . .

قال ابن كثير - رحمه الله - : وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم - عليه السلام - يكنى «أبا الضيفان» .

قالوا : ولما كان عمر والده تسارخ خمسا وسبعين سنة ، ولد له إبراهيم - عليه السلام - وناحور وهاران ، وولد لهاران «لوط» - عليه السلام - وعندهم أن إبراهيم هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها ، وهي أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل ، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار . . خلافا لمن قال إن إبراهيم ولد بغوطة دمشق<sup>(١)</sup>

ثم هاجر إبراهيم مع أبيه من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، والجزيرة والشام ، فنزلوا حران ، وهناك تزوج بسارة ، ابنة ملك حران ، وكان أهلها يعبدون الكواكب .

ويبدو أنه عاد مرة أخرى إلى أرض بابل التي كان أهلها يعبدون الأصنام ، وهناك جرى ما جرى بينه وبين ملكها وأهلها من محاورات ، ومجادلات ، خلال دعوته لهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

(١) البداية والنهاية ج١ ص١٥٢ .

ثم رجع مرة أخرى إلى بلاد الشام ، ومعه ابن أخيه لوط - عليه السلام - ثم رحل بعد ذلك إلى مصر ، بعد أن اشتد القحط والغلاء في بلاد الشام .

وبعد أن أقام هو وزوجته في مصر ما شاء الله له أن يقيم ، عاد إلى فلسطين .

قال ابن كثير - رحمه الله - : «ثم إن الخليل - عليه السلام - رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن - وهي الأرض المقدسة التي كان فيها - ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم «هاجر» القبطية المصرية - التي أهداها ملك مصر لسارة زوجة إبراهيم - وقد تزوجها إبراهيم - عليه السلام - بعد ذلك ، وأنجب منها إسماعيل - عليه السلام - ثم انتقل - عليه السلام - ومعه هاجر وابنه إسماعيل ، إلى مكة المكرمة ، وبعد فترة من الزمان أمره الله - تعالى - ببناء المسجد ، وشاركه في ذلك ابنه إسماعيل وكانت وفاة إبراهيم - عليه السلام - ببلدة «حبرون» بفلسطين» .

قال ابن كثير - رحمه الله - : «وقبره وقبر ولده إسحاق ، وولد ولده يعقوب ، في المربعة التي بناها سليمان بن داود - عليهما السلام - ببلدة حبرون - وهي المعروفة اليوم باسم الخليل - ، وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا ، فقبره بالمربعة تحقيقا ، أما تعيينه منها ، فليس فيه خبر صحيح عن معصوم . .» (١)

٣ - هذه لمحة عن حياة إبراهيم - عليه السلام - كما ذكرها المحققون من المؤرخين ، أما حديث القرآن الكريم عنه ، فهو حديث بليغ حكيم مفصل ، سنجتهد - بإذن الله - في تفسيره ، وبيان ما اشتمل عليه من توجيهات سديدة ، وأداب قوية ، وعظات بليغة ، ولنبدأ بما جاء عنه في سورة الأنعام :

قال تعالى :

وَلَوْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ  
لَأَبِيءَ إِزْرًا أَخَذْتُ أَبْنَاءَ الْمَاءِ إِلَهًا إِنِّي أُرْكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٣١﴾  
وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ  
الْمُوقِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوفَةَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ  
لَأَجِبُ الْإِفْلِينَ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ

(١) راجع البداية والنهاية ج١ من ص ١٥٢ إلى ١٩٠

لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً  
قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ لِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي  
وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا  
تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ  
﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ  
يُنزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾  
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْاَمْنُ وَهُمْ مُسْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام -  
لأبيه أزر ، منكرا عليه عبادة الأصنام : أتتخذ أصناما آلهة تعبدوها من دون الله الذي  
خلقك وخلق كل شيء؟

إني أراك وقومك الذين ساروا على نهجك في عبادتها ، في ضلال مبين ، وانحراف  
ظاهر عن الطريق المستقيم .

قال الألوسي - رحمه الله - : «وَأَزْر - بزنة آدم - علم أعجمي لوالد إبراهيم - عليه  
السلام» .

وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو بدل من إبراهيم أو عطف بيان ، وقيل إن لفظ  
«أزر» لقب لوالد إبراهيم واسمه الحقيقي «تارح» وقيل هو اسم جده ، وقيل هو اسم عمه ،  
والجد والعم يسميان أبا مجازا» . (١)

والتعبير بقوله : «أتتخذ» الذي هو افتعال من الأخذ ، وفيه إشارة إلى أن عبادته هو

(١) تفسير الألوسي ج٧ ص ١٤٩ .

وقومه لها شيء مصطنع ، وأن الأصنام ليست أهلا للألوهية ، وفي ذلك مافيه من التعريض بسخافة عقولهم ، وسوء تفكيرهم .

ووصف - سبحانه - الضلال بأنه مبين : للإشعار بأن فساد عقولهم قد وصل إلي منتهاه ، حيث إنهم لم يتفطنوا إلى أن عبادة الأصنام شيء مهين ، مع وضوح الأدلة على ذلك .

٤ - ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٧٥) والملكوت : مصدر كالجيرون ، وزيدت فيه التاء والواو للمبالغة في الصفة ، والمراد به الملك العظيم ، وهو مختص بملكه - تعالى .

أي : وكما أرينا إبراهيم أن الحق في مخالفته لأبيه وقومه ، نريه - أيضا - مظاهر قدرتنا ، ونطلعه على حقائقها المتجلية في السموات والأرض ، ليزداد إيماننا على إيمانه وليكون من العالمين علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق ، وأن مخالفته على الباطل .

ثم بين - سبحانه - الثمرات التي ترتبت على ذلك فقال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أي : ستره بظلامه ، وأصل الجن : الستر عن الحاسة ، يقال : جنة الليل وجن عليه يجن جنا وجنونا ، أي : غطاه ، فالمادة تدل على الستر والتغطية .

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم ، رأي في الأفق كوكبا ، فقال - على سبيل الفرض وإرخاء العنان للمشركين الذين يعبدون الكواكب والأصنام - هذا الكوكب هو ربي ، فلما غاب وغرب وأفل ، قال : لا أحب عبادة الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال ، لأن الأقول غياب وابتعاد ، وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .

٥ - ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التي برهن بها إبراهيم - عليه السلام - على وحدانية الله - تعالى - فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ .

أي : فلما رأى إبراهيم عليه السلام القمر مبتدئا في الطلوع وقد انتشر ضوءه من وراء الأفق قال هذا ربي ، فلما غاب القمر وأفل كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعا من

حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربي إلى جناب الحق ، وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه ، لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذى يعتوره الأفل - أيضا - لا يصلح أن يكون إلها .

وفى مخاطبة إبراهيم - عليه السلام - لقومه بهذا القول ، تنبيه لهم إلى معرفة الرب الحق ، وأنه واحد لا شريك له ، وأن الكواكب والقمر لا يصلحان للألوهية ، وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب والقمر .

ثم عرض بقومه بأنهم ضالون ، لأن قوله : ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك فى معتقدتهم أنه لون من الضلال .

٦ - ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة ، التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مبتدئة فى الظهور ، وقد عم ضياؤها الأفاق ، قال ، مشيرا إليها : ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ أى : أكبر الكواكب جرما ، وأعظمها قوة ، وأشدّها إضاءة ، فلما أفلت وغابت خلف الأفق ، جاهر قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها ، ألا وهى براءته من كل معبود سوى الله - عز وجل .

فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريدّها ، بأسلوب يقنع العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

فهو - أولا - قال : ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ، ثم عرض بضلالهم - ثانيا - فقال : ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ ثم تبرأ منهم ومن شركهم بعد ذلك فقال : ﴿يا قوم إنني بريء مما تشركون﴾ ثم ختم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله تعالى بقوله - كما حكى القرآن عنه : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

أى : إنى صرفت وجهى وقلبى فى العبادة والمحبة لله - تعالى - الذى أوجد السموات والأرض على غير مثال سابق ، حالة كونى ماثلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، وما أنا من الذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم .

وبذلك يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أقام الأدلة الحكيمة على أن المستحق للعبادة إنما هو الله الواحد القهار .

٧ - ثم بين - سبحانه - جانباً بما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومخاصمات فقال : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .. ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ من المحاجة بمعنى المجادلة والمغالبة في إقامة الحججة .

والحججة : تطلق على كل ما يدلى به أحد الخصمين في إثبات دعواه ، أو رد دعوى خصمه .

فمعنى : وحاجه قومه : أى : وجادلوه وخاصموه ، أو شرعوا فى مغالبته فى أمر التوجيه ، تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتهديد والتخويف ، وقد رد عليهم إبراهيم رداً قويا جريئاً فقال لهم : ﴿ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .. ﴾ .

أى : أمجادلوننى فى شأنه تعالى ، وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه - سبحانه - قد هدانى إلى الدين الحق ، وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم .

ثم صارحهم بأنه لا يخشى أصنامهم ، ولا يقيم لها وزناً فقال : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .. ﴾ .

أى ولا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع .

ويبدو أن قومه كانوا قد خوفوه من بطش أصنامهم وقالوا له كما قالت قبيلة عاد لنيبيها هود : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ .

وقد رد عليهم إبراهيم هذا الرد القوى الصريح ، الذى يدل على استخفافه بهم وبآلهتهم .

وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء مما قبله .

أى : لا أخاف معبوداتكم فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربي شيئا من المكروه يصينى من جهتها ، بأن يسقط على صنما يشجنى ، فإن ذلك يقع بقدره ربي ومشيئته ، لا بقدره أصنامكم أو مشيئتها .

وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم - عليه السلام - مع ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان ، وكافر بتلك الآلهة كل الكفران ، إلا أنه فوض الأمر كله لمشيئة الله - تعالى - وعلق مستقبله على مايريد - سبحانه - له .

وقوله : ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى : أن علم ربي وسع كل شىء وأحاط به ، فلايبعد أن يكون فى علمه إنزال ما يخفى من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب ، وهذه الجملة الكريمة مستأنفة استثنافا بيانيا ، فكأن قومه قد قالوا : كيف يشاء ربك شيئا تخافه؟ فكان جوابه عليهم : ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فأنا وإن كنت عبده وناصره إلا أنه أعلم بإلحاق الضرر أو النفع بمن يشاء من عباده .

وقوله : ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ...﴾ ، حض لهم على التذكر والتفكر ، وتوبيخ لهم على غفلتهم وجهالتهم ، أى : أتعرضون - أيها المغفلون - عن التأمل والتذكر ، بعد أن وضحت لكم بما لايقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وأن هذه المعبودات الباطلة لاتملك لنفسها نفعا ولاضررا .

٨ - ثم حكى القرآن الكريم عن إبراهيم - عليه السلام - أنه بعد أن صرح قومه بأنه لا يخشى إلهتهم ، أخذ فى التهكم بهم ، والتعجيب من شأنهم ، لأنهم يخوفونه بما لا يخيف ، فقال : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أى : وكيف ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة ، وهي مأمونة الخوف لأنها لاتضر ولاتنفع ، وأنتم لاتخافون إشراككم بالله خالقكم ، دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل .

فالاستفهام للإنكار التعجيبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع سيؤدى بهم إلى الهلاك المحقق ، وهو إصرارهم

على الإشراك بالله ، ثم رتب على هذا الإنكار التعجبي ما هو نتيجة له فقال : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : فأى الفريقين ، فريق الموحدين أم فريق المشركين ، أحق وأولى بالشعور بالأمان والاطمئنان ، إن كنتم من ذوى العلم السليم ، والعقل القويم؟ إن كنتم تعلمون ذلك ، فأخبرونى به وأظهروه بالدلائل والحجج!

وهذا لون من إجائهم إلى الاعتراف بالحق ، إن كانوا ممن يعقل أو يسمع ، وحث لهم على الإجابة .

٩ - ثم بين - سبحانه - من هو الفريق الأحق بالأمن فقال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

أى الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك ، كما يفعله فريق من المشركين ، حيث عبدوا الأصنام ، وزعموا أنهم ماعبدوها إلا لى تكون واسطة بينهم وبين خالقهم ، فعن طريقها يتقربون إلى الله تعالى .

أولئك المؤمنون الصادقون الذين لم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك ، هم المستحقون للأمان من خالقهم ، وهم المهتدون إلى الحق دون غيرهم .

هذا ، وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان - البخارى ومسلم - عن عبدالله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود - أيضا - قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ

آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ .. ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله ، وأينا

لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، إنما هو الشرك .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد وضحت ما فطر عليه إبراهيم - عليه السلام - من إيمان عميق ، وعقل سليم ، وقوة فى إيراد البراهين والحجج على أن المستحق للعبادة إنما هو الله الواحد القهار .

١٠ - وفى سورة مريم آيات كريمة ، وضحت لنا بأسلوب بليغ مؤثر ، كيف وجه إبراهيم - عليه السلام - الدعوة إلى أبيه ، بطريقة لحمتها وسداها الأدب فى الخطاب ، والحكمة فى الإرشاد ، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ  
 إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ  
 مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي  
 مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ  
 الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ  
 أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ  
 أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْرُنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ  
 سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُّكُمْ  
 وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ  
 رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْزُبُ عَنْكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ  
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا  
 لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

أي : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس قصة أبيهم إبراهيم - عليه السلام - لكي  
 يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا به في قوة إيمانه ، وصفاء يقينه ، وجميل أخلاقه . .

وقوله - سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ تعليل لموجب الأمر في قوله : ﴿ وَأَذْكُرُ ﴾ ،  
 ومدح لإبراهيم على ما كان يتحلى به من صفات كريمة ، إذ الصديق : صيغة مبالغة من  
 الصدق .

أي : إنه كان ملازماً للصدق في كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبياً من أولى  
 العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

ثم بين - سبحانه - مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ .

والتاء فى قوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ عوض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر اسمه ، زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق .

أى : واذكر خبر إبراهيم وقت أن قال لأبيه مستعظفا إياه : يا أبت لماذا تعبد شيئا لا يسمع من يناديه ، ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئا من الإغناء ، لأنه لا يملك لنفسه - فضلا عن غيره - نفعا ولا ضررا .

ثم دعاه إلى الحق بألطف أسلوب فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ .

أى : قال له يا أبت إنى قد جاءنى من العلم النافع الذى علمنى الله إياه ، ما لم يأتك أنت ، وهذا فضل الله يؤتیه من يشاء ، فاتبعنى فيما أدعوك إليه ، أهدك إلى الطريق القويم .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان لأنه جهل وانحطاط فى التفكير فقال: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ فإن عبادتك لهذه الأصنام هى عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو للإنسان ، ثم علل هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان كثير العصيان لله - تعالى - ، ومن شأنه ذلك لا يدعو الناس إلى الخير وإنما يدعوهم إلى الشر .

ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه له ، وشفقته عليه فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ .

أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، فتصير بسبب ذلك قرينا للشيطان فى العذاب بالنار .

بهذا الأسلوب الحكيم الهادى الرقيق ، خاطب إبراهيم - عليه السلام - أباه ، وهو يدعو إلى وحدانية الله - تعالى - .

١١ - ولكن هذه النصائح الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه ، لم تصادف أذنا واعية ،

ولم تحظ من أبيه بالقبول ، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد ، فقال الأب الكافر لابنه المؤمن : ﴿ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

أى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والزجر : أتارك أنت يا إبراهيم آلهتى ، وكراره لها ، ومنفر للناس من عبادتها .

﴿ لَنْ لَمْ تَنْتَه ﴾ عن هذا المسلك ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة ، ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ ، أى : واغرب عن وجهى زمنا طويلا ، فإنى لا أحب أن أراك .

وهكذا قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد ، والعناد والجهالة ، شأن القلب الذى أفسده الكفر .

ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظة أبيه وتهديده بالغضب ، بل قابل ذلك بسعة الصدر ، وجميل المنطق ، حيث قال له : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

أى : قال إبراهيم لأبيه بكل أدب وتوقير : لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال وأذى ، ولك منى الوداع الذى أقابل معه إساءتك إلىّ بالإحسان ، وفضلا عن كل ذلك : سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا .

أى : إنه كان بارا بى ، كثير الإحسان إلىّ ، يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه ، واهتم بشأنه .

وقد وفى إبراهيم بوعدده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه ، إلى أن تبين له أنه عدو لله تعالى ، فتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤]

١٢ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن إبراهيم عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد عنهم ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ .

أى : وقال إبراهيم - أيضا - لأبيه : إنى بجانب استغفارى لك ، ودعوتى لك بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها من دون الله ،

وارتحل عنكم جميعا إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربي وخالقى بالعبادة والطاعة  
والدعاء ، فقد عودنى - سبحانه - أنه لا يخيب دعائى وتضرعى إليه .

ثم ختم - سبحانه - تلك المحاوره ببيان ماترتب على اعتزال أهل الشرك من خيرات  
وبركات فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسيقين ، يؤدى إلى السعادة  
الدينية والدينوية ، لأنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أنه لا يضيع أجر من أحسن  
عملا .

١٣ - والمتدبر آيات القرآن الكريم ، يرى كثيرا منها خلال حديثها عن قصة إبراهيم  
- عليه السلام - قد ساق آلوانا من المجادلات والمحاورات التى دارت بينه وبين قومه وهو  
يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وينهاهم عن عبادة غيره .  
ومن الآيات التى وضحت هذا المعنى قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء :

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِعِلْمِينَا ﴿٥١﴾  
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِمُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا  
وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَاهُوا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾  
وَأَللَّهُ لَأكِيدٌ أَصْنَعُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَعَلَّهُمْ  
جَدًّا الْأكْبَرَ اللَّهُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا  
بِأَهْلِنَا إِنَّهُمْ لَنَالُوا الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ  
إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا  
أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا

فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا  
إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا  
هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا  
وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٧﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾  
قَالُوا احْرَقُوهُ وَأَنْصُرُوا آءِ الْهِنَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٩﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي  
بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٠﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ  
الْأَخْسَرِينَ ﴿٧١﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا  
لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا  
صَالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ  
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا الْبَائِعِينَ ﴿٧٤﴾

والمراد بالرشد فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ... ﴾ أى : الهداية إلى الحق ، والبعد عن ارتكاب ما نهى الله عنه .

والمراد بقوله : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : من قبل أن يكون نبيا ، أو من قبل موسى وهارون اللذين سبق الحديث عنهما قبل هذه الآية .

والمعنى : ولقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - إبراهيم - عليه السلام - الرشيد إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، من قبل النبوة ، بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال ، أو من قبل أن نرسل موسى وهارون إلى فرعون ، فقد كانت رسالة إبراهيم ، سابقة على رسالة هذين النبيين الكريمين ، اللذين جاء الحديث عنهما قبل الحديث عن قصة إبراهيم ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا

للمتقين . . ﴿﴾ ، ولا مانع من أن تشمل الآية الكريمة هذين المعنيين ، أى : أن الله - تعالى - قد منح إبراهيم رشده من قبل النبوة ، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما فى الزمان .

وقوله تعالى : ﴿﴾ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿﴾ بيان لكمال علم الله - تعالى - ، أى : وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالين ، بحيث لا يخفى علينا شىء من شئونه أو من شئون غيره .

١٤ - ثم أخذت السورة الكريمة فى تفصيل ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومحاورات ، فقال تعالى : ﴿﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿﴾ .

أى : وكنا بإبراهيم وبأحواله عالين ، وقت أن قال لأبيه وقومه - على سبيل الإنكار - ما هذه التماثيل الباطلة التى أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .

وسؤاله لهم - عليه السلام - بهذا الأسلوب ، إنما هو من باب تجاهل العارف زيادة فى الاستخفاف بهم وبأصنامهم ، لأنه كان يعلم علم اليقين ، أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار ، أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم ، حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم .

وعبر عن الأصنام بالتماثيل : زيادة فى التحقير من أمرها ، والتهوين من شأنها فإن التمثال هو الشىء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك .

وفى التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها : تفضيح لفعلهم ، وتنفير لهم منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم .

١٥ - ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم إبراهيم عليه فقال : ﴿﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿﴾ ، وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم ، حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر .

أى : قالوا فى جوابهم على نبيهم : وجدنا آبائنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم ، وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : ﴿﴾ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿﴾ .

أى : لقد كنتم أنتم وأبائكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، فى ضلال عجيب لا يقادر قدره ، وفى فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو العكوف عليها ، والباطل لا يصير حقا بسبب فعل الآباء له .

وعندما واجههم إبراهيم بهذا الحكم المبين الصريح قالوا له : ﴿ أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ .

أى : قالوا له على سبيل التعجب من حاله : يا إبراهيم أجيئنا بالحق الذى يجب علينا اتباعه ، أم أنت من اللاعبين اللاهين ، الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والمداعبة ..

وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم ، وعلى شكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التقليد لأبائهم ، جعلهم يعطلون عقولهم ، ويستحبون العمى على الهدى .

وقد رد عليهم إبراهيم ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال : ﴿ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ .. ﴾ ، أى : خلقهن بدون مثال سابق ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، أى : وأنا على أن الله - تعالى - هو ربكم ورب كل شىء وخالقكم وخالق كل شىء من الشاهدين على ذلك ، ومن الواثقين فى صدق مايقول ثقة الشاهد على شىء لا يشك فى صحته .

ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى ، تأكيدا آخر فعليا فقال لهم : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

أى : وأقسم بالله قسما مؤكدا ، لأجتهدن فى تحطيم أصنامكم بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها ، وبعد أن تولوها أدباركم .

وأصل الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافة ، وقد عبر به إبراهيم - عليه السلام - عن تكسير الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير .

وقد وفى إبراهيم بوعدته ، وبر فى قسمه ، كما يدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَاذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ .

أى : وبعد أن فارق القوم أصنامهم ، توجه إبراهيم إليها ، فحطمها بفأسه ، وحولها إلى قطع صغيرة من الحجارة ، سوى الصنم الأكبر فإنه لم يحطمه ، بل تركه على حالته ، لعل قومه يرجعون إليه فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، دون أن يدافع عن إخوته الصغار .

ولعل إبراهيم - عليه السلام - قد فعل ذلك ، ليقيم لهم أعظم الأدلة على أن هذه الأصنام لا تملك الدفاع عن نفسها ، وما دام أمرها كذلك فكيف تستحق العبادة؟ وبذلك يحملهم على التفكير فى أن الذى يجب أن يعبد إنما هو الله رب العالمين .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم - عليه السلام - وقد رأوا أن أصنامهم قد حطمت ، وأكهتهم قد هشمت ، فقال تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : وحين رجع القوم من عيدهم ، ورأوا ما حل بأصنامهم ، قالوا على سبيل التفجع والإنكار ، من الذى فعل هذا الفعل الشنيع بألهتنا التي نعظمها ، إنه لمن الظالمين لها ، المعتدين عليها ، لإقدامه على إهانتها وهى الجديرة بالتعظيم - فى زعمهم - ولن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة منا .

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ : أى قال بعضهم لبعض : سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم ، ويتوعدهم بالسوء والعدوان ، وهذا الفتى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم ما فعل .

﴿ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ، أى : قالوا - بعد أن تشاوروا فى أمرهم - : إذا كان كذلك فأحضروه أمام الناس ، ليشهدوا محاكمتنا له ، ومواجهتنا إياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا . .

قال الإمام ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأعظم لإبراهيم ، لكى يتبين فى هذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم ، وشدة غفلتهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نفعا .

وجاءوا بإبراهيم وقالوا له على سبيل الاستنكار والتهديد : ﴿ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

أى : أنت الذى فعلت هذا التكسير والتحطيم لآلهتنا التى نعبدها يا إبراهيم؟! وهنا يرد عليهم إبراهيم بتهكم ظاهر فيقول : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ .

أى : قال لهم باستهزاء واضح بهم وبأصنامهم : الذى حطم هذه الأصنام ، هو كبيرهم ،

فإن كنتم لم تصدقوا قولى ، فاسألوهم من الذى فعل بهم هذا الفعل الشنيع ، فلعلهم ينطقون ويقولون الذى فعل بنا ذلك هو فلان .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، كما أنه لم يقصد بقوله : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ، أن يسألوا الأصنام لكى تقول لهم من الذى حطمها ..

وإنما الذى قصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم ، فكأنه يقول لهم : إن هذه التماثيل التى تعبدونها من دون الله ، لا تدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد قلت لكم : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ ، وتعرفون أنى أنا وحدى الذى بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك ، فانظروا من الذى حطمها ، إن كانت لكم عقول تعقل؟

قال صاحب الكشاف : هذا - أى : قول إبراهيم لهم - «بل فعله كبيرهم هذا» من معارضض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضية من علماء المعانى .  
والقول فيه أن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن يريد أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم .

وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق - وأنت شهير بحسن الخط أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة - أى كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبتة أنت ، كان قصدك بهذا الجواب : «تقرير أن هذه الكتابة لك ، مع الاستهزاء به ..» . (١)

وهذا التفسير للآية الكريمة ، من أن إبراهيم - عليه السلام - قد قال لقومه ما قال على سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا .

وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظرا لضعفها بالنسبة لهذا القول ، ثم بين - سبحانه - موقفهم بعد أن أخرجهم إبراهيم - عليه السلام - بحجته فقال : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ .

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ١٢٤ .

أى : أنهم بعد أن ويخهم إبراهيم على غيائهم ، أخذوا فى التفكير ، فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون ، حيث عبدتم ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة ، ولكن هذا اللوم لأنفسهم لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إن أمرك هذا لنا ، لهو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه .

وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم باللوم ، شبه ذلك بالانتكاس ، وهو قلب الشىء بحيث يصير أعلاه أسفله ، لأنهم بمجرد أن خطرت لهم الفكرة السليمة ، أطفأوها بالتصميم على الكفر والضلال ، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ماشيا على قدميه ، فياله من تصوير بديع ، لحالة من يعود إلى الظلام بعد أن يتبين له النور .

١٦ - ولم يملك إبراهيم - عليه السلام - إزاء انتكاسهم على رؤوسهم ، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق ، وهو الخليم الأواه المنيب ، وقد قابلوا تأنيبه لهم بالتهديد ، والوعيد ، ولكن الله تعالى نجاه من مكرهم ، قال - تعالى - : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٦٦) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٩﴾ .

أى : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتتركون عبادة الله الذى خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشىء من النفع ، سحقا وقبحا لكم ولما تعبذونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله - تعالى - عن جهل وسخف وطغيان .

وهنا أخذتهم العزة بالإثم شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته ، فقالوا فيما بينهم : حرقوه بالنار ، وانصروا آلهتكم عليه التى حطمها فى غيبتكم ، إن كنتم بحق تريدون نصرتها .

وأحضر قوم إبراهيم الحطب الكثير ، وأوقدوا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فلما فعلوا ذلك قلنا يا نار كونى بقدرتنا وأمرنا ، ذات برد ، وذات سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله - تعالى - .

وتحولت النار إلى برد وسلام عليه ، وأراد الكافرون به كيدا فجعلناهم بإرادتنا وقدرتنا الأخرسين ، حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، بل رد الله - تعالى - كيدهم في نحورهم .  
 هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها : أن إبراهيم - عليه السلام - حين جرى به إلى النار ، قالت الملائكة : يا ربنا ما في الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وإنه الآن يحرق فأذن لنا في نصرته!

فقال - سبحانه - : « إن استعان بأحد منكم فلينصره ، وإن لم يسأل غيري فأنا أعلم به ، وأنا وليه وناصره ، فخلوا بيني وبينه . .

فأتى جبريل - عليه السلام - إلى إبراهيم ، فقال له : ألك حاجة؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم .

فقال له جبريل : فلماذا لم تسأله؟ فقال : علمه بحالى يغنيه عن سؤالى .

١٧ - وفى سورة الشعراء ، نجد آيات كريمة ، تحكى لنا ما دار بين إبراهيم وقومه من محاورات ، وما توجه إلى خالقه من دعوات ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾  
 إِذْ قَالَ لِلْأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلَهَا  
 عَالِكِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ  
 ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مِمَّا  
 كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنزَلْنَاهُ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّكُمْ عِدُوِّي  
 إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي  
 وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ  
 يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾  
 رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ  
 فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ الْجَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفُرْ لِي إِنِّي  
 كَانُ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تَخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ  
 وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

والمعنى : واقرأ - أيها الرسول الكريم - على قومك نبأ رسولنا إبراهيم - عليه السلام - الذى يزعم قومك أنهم من نسله ، وأنهم يتبعون ديانتته ، مع أنه براء منهم ومن شركهم .

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بيان لما دعاهم إليه من نبذ لعبادة غير الله ، أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - على قومك خبر إبراهيم ، وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل التبكيث والزامهم الحجة : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - عز وجل - .

فأجابوه بقولهم : ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ ، أى فستمر على عبادتهم بدون انقطاع وكان يكفيهم أن يقولوا : نعبد أصناماً ، ولكنهم لغباثتهم وعنادهم ، أرادوا أن يتباهوا ويتفاخروا بهذه العبادة الباطلة .

وهكذا ، عندما تحط الأفهام ، تتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل . وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بما يوظفهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، فقال لهم : هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا دعوتوها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها ، وهل تملك أن تنفعكم بشىء من النفع أو تضركم بشىء من الضر؟

١٨ - ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب بعد أن ألقمهم حجراً بنصاعة حجته فلجأوا إلى التمسح بأبائهم فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أى : قالوا له : نعم هذه الأصنام هى كما قلت يا إبراهيم لاتسمع دعاءنا ، ولاتنفعنا ، ولاتضرنا ، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها فسرنا على طريقتهم فى عبادتها ، وأمام هذا التقليد الأعمى نرى إبراهيم - عليه السلام - يعلن عداوته لهم ولعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هى لله - تعالى - وحده فيقول لهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرايتم وشاهدتم هذه الأصنام التى عبدتموها أنتم وأباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى - ، إنها عدو لى ، لأن عبادتها باطلة ، لكن الله - تعالى - رب العالمين هو وحده الذى أحبه وأخصه بالعبادة ، وأدين له بالطاعة ، لأنه هو الذى أوجدنى بقدرته ، وربانى بنعمته .

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - : وإنما قال إبراهيم - عليه السلام - : «فإنهم عدو لى» ولم يقل فإنهم عدو لكم ، تصويراً للمسألة فى نفسه ، على معنى : أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها ، وأثرت عبادة الذى الخير كله منه ،

وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحننا إبراهيم بهذه النصيحة إلا بعد أن نصح بها نفسه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول .

ولو قال لهم : فإنهم عدولكم ، لم يكن بتلك المشابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض بالمنصوح ، مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فرمما قاده التأمل إلى التقبل .

ومنه ما يحكى عن الشافعى - رحمه الله - أن رجلا واجهه بشيء لا يليق ، فقال له : «لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى الأدب» .

وسمع أحد الحكماء ناسا يتحدثون فى الحجر - بكلام فيه لغو - فقال لهم : «هذا المكان ليس بيتى ولا بيتكم» . (١)

ثم حكى القرآن ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات كريمة فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ، أى : أنا أعبد خالقى الذى أوجدنى بقدرته . وهدانى إلى طريق الحق بفضله . . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : وهو - سبحانه - الذى يمنحنى ما به قوام حياتى وأصاف المرض إلى نفسه فى قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وإن كان الكل من الله ، تأدبا مع خالقه ، وشكرا له على نعمه . .

والمراد بالإحياء فى قوله : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أى : أن من صفات ربه الذى أحصه بالعبادة : أنه - تعالى - بقدرته أن يميتنى عند حضور أجلى ، وبقدرته أن يعيدنى إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .

ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة لخالقه بقوله : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى : وهو - سبحانه - وحده الذى أطمع فى كرمه أن يغفر لى ما فرط منى من ذنوب يوم يقوم الناس للحساب والجزاء .

وفى هذه الاية الكريمة أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه ، لأنه وجه طمعه فى المغفرة إليه وحده ، واستعظم ما صدر عنه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، واعتبرها خطايا هضما لنفسه ، وتعللها للأمة أن تجتنب المعاصى ، وأن تكون منها على حذر ، وأن تفوض رجاءها على الله - تعالى - وحده .

وبعد أن أثنى على خالقه بهذا الشناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣١٨ .

فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ أى : علما واسعا مصحوبا بعمل نافع .

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ أى : ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة وأثرا كريما « فى الآخرين » ،

أى : فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

ولقد أجاب الله - تعالى - له هذه الدعوة الكريمة ، فجعل أثره خالدا ، وجعل من ذريته

الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ .

﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : واجعلنى فى الآخرة من عبادك الذين يخلدون

فى جنتك ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ عن طريق الحق ، وإنى قد وعدته بأن

أستغفر له ، وقد بين القرآن فى موضع آخر أن إبراهيم قد رجع عن استغفاره لأبيه ، بعد

أن تبين له أنه عدو لله - تعالى - .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ

أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (١١٤) [ التوبة ]

ثم ختم هذه الدعوات الخاشعات بقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ أى : ولا تفضحنى ﴿ يَوْمَ

يُعْتَبُونَ ﴾ أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب والجزاء .

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ .. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

أى استرنى - يا إلهى - يوم القيامة ، يوم لا ينتفع الناس بشيء من أموالهم أو أولادهم ،

ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم لعبادتك ، وبسلامتها من كل شرك أو نفاق ،

وبصيانتها من الشهوات المردولة ، والأفعال القبيحة .

وهكذا نرى فى هذه الآيات التى ساققتها سورة الشعراء عن قصة إبراهيم : الشجاعة

فى النطق بكلمة الحق ، والحجة الدامغة التى تزق الباطل ، والثناء الجميل على

الخالق - عز وجل - والدعاء الخاشع الخالص لوجه الله - تعالى - .

١٩ - وفى سورة «الصفات» آيات كريمة ، حكمت لنا - أيضا - جانبا من الحجاج والحوار

الذى دار بين إبراهيم وقومه وهو يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، كما حكمت لنا كذلك

تحطيم الأصنام ، وإنجاء الله - تعالى - له من مكر أعدائه ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ

لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٦﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ  
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٨﴾ أَهَيْكَاءَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تَتَّبِعُونَ ﴿٨٩﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ  
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ فَظَنَنْظُرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٩١﴾ فَقَالَ لِلَّذِينَ وَسِعْتُمْ ﴿٩٢﴾ أَفَقُولُوا  
عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٣﴾ فَسَاءَ إِلَاءَ الْهَدِيمِ فَقَالَ الْآثَاكُونَ ﴿٩٤﴾ مَا لَكُمْ  
لَا تَنْظِقُونَ ﴿٩٥﴾ فَوَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٦﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٧﴾  
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَخْتُونَ ﴿٩٨﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ قَالُوا  
أَبْنَاؤُا لَوْ بُنِينَا فَالْقُوَّةُ فِي الْبُحْمِ ﴿١٠٠﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ  
الْأَسْفَلِينَ ﴿١٠١﴾

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ مِنْ شِيعَتِهِ . . ﴾ يعود على نوح - عليه السلام - .  
وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى  
واحد فهم شيعة ، والجمع شيع مثل سِدْرَة وَسِدْر .  
قال القرطبي : والشيعه الأعوان ، وهذا اللفظ مأخوذ من الشياح ، وهو الحطب الصغار  
الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد .

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى  
الدين الحق ، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، ونصرة دينه .  
وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره  
فى دعوته التى جاء بها من عنده ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ،  
فهى متحدة فى الأصول والأركان .

وكان بين نوح وإبراهيم نبیان كريمان هما : هود وصالح - عليهما السلام - والظرف فى  
قوله - سبحانه : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره اذكر .

أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعض - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالغل والحسد والخديعة والرياء .

والتعبير بقوله : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴾ يشعر باستسلام إبراهيم المطلق لأمر ربه ، وإخلاص قلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شيء يملكه فى سبيل رضا خالقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ شروع فى حكايته مادار بينه وبين أبيه وقومه .

أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلًا لهم : أى شيء هذا الذى تعبدونه من دون الله تعالى ، ثم أضاف إلى هذا التوبيخ توبيخًا آخر فقال لهم : « أفكأ كهة دون الله تريدون؟ » والإفك : أسوأ الكذب .. وجعلت الآلهة التى يعبدونها من دون الله هي فى ذاتها إفكًا ، لزيادة التنفير منها ، والتقبيح من شأنها .

أى : أتريدون إفكأ كهة دون الله؟ إن إرادتكم هذه يجها ويحترها كل عقل سليم ، ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره - تعالى - : أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره؟ إنه لاشك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذابا أليما .

وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة ، وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

٢٠ - ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته ، وتنتقل السورة للحديث عما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فتقول : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي

سَقِيمٌ ﴾ ، قالوا : كان قوم إبراهيم بجانب عبادتهم للأصنام ، يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها فى العالم ، وتصادف أن حل أو أن عيد لهم ، فدعوه إلى الخروج معهم كما هى عادتهم فى العيد ، فتطلع إبراهيم إلى السماء ، وقلب نظره فى نجومها ، ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم ليخلو بالأصنام فيحطهما : « إنى مريض مرضا يمنعنى من مصاحبتكم ، فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم » .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : « وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه أرف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بالهتهم ليكسرهما ،

فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين» . (١)

ويبدو لنا أن نظر إبراهيم في النجوم ، إنما هو نظر المؤمن المتأمل في ملكوت الله تعالى المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وإنما فعل ذلك أمامهم - وهم يعبدون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج ، ويتم له ما يريده من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : «إنى سقيم» المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام .

وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام ، فكلام إبراهيم حق في نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه حسب ما يعتقدون .

ثم بين - سبحانه - ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ .

وأصل الروغ : الميل إلى الشيء بسرعة على سبيل الاحتيال ، يقال : راغ فلان نحو فلان ، إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال .

أى : فذهب إبراهيم مسرعا إلى الأصنام بعد أن تركها القوم ، وانصرفوا إلى عيدهم فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء ، أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التي قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك؟

وقوله : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ زيادة في السخرية بتلك الأصنام ، وفي إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها .

هذا الغضب الذى كان من آثاره ما بينه القرآن في قوله - تعالى - : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أى : فمال عليهم ضاربا يياهم بيده اليمنى حتى حطمهم ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ للدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - لشدة حقنه وغضبه على الأصنام ، قد استعمل في تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهى يده

(١) تفسير ابن كثير ج٧ ص ٢٠ .

اليمنى .وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التى حلفها حين قال : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها .

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن هنا ما قالوه لإبراهيم عندما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ، مكتفيا بإبراز حالهم فيقول : ﴿ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴾ .

أى : فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة ، أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ، ولهم جلبة وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم ، يقال : زف النعام يزف زفا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى وكأنه يطير .

ولم يأبه إبراهيم - عليه السلام - لهياج قومه ، وأقبالهم نحوه بسرعة وغضب ، بل رد عليهم ردا منطقيًا سليما ، فقال لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؟

أى : قال لهم مويخا ومؤنبا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، مع أن الله - تعالى - هو الذى خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام وغيرها؟

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم - عليه السلام - لم يجد أذنا واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه القرآن فى قوله : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ .. ﴾ .

أى : قالوا فيما بينهم : ابنوا لإبراهيم بنيانا ثم املاؤوه بالنار المشتعلة ، ثم اذفوه فيها لتحرقه ، فالمراد بالجحيم هنا : النار الشديدة الاشتعال ، وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم .

ونفذوا ما تعاهدوا عليه ، ولكن الله - تعالى - نجى نبيه إبراهيم من كيدهم وبغيهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أى : فأرادوا بإبراهيم شرا فأبطلناه بقدرتنا ، وجعلناهم الأذلين .

وهكذا رعاية الله - تعالى - ، تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العاقبة لهم على القوم الظالمين .

٢١ - وفى سورة «العنكبوت» آيات كريمة ، تحدثت بشيء من التفصيل عن الحجج والبراهين التى ساقها إبراهيم لقومه ، وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونبذ كل معبود سواه ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرُوا ذِكْرَكُمْ  
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا  
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا  
فَاَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾  
وَإِنْ تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ  
﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ  
يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ  
النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ  
مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ  
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا  
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ  
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصْرِينَ ﴿٢٥﴾

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لقومه اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه . .

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الشرك ، ومن كل شىء فى هذه الحياة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه بأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع الذى يتنافى مع الجهل . . ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا . . ﴾

والأوثان : جمع وثن ، وتطلق على التماثيل والأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله - تعالى - . .

وقوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا . . ﴾ ، أى : وتكذبون كذبا واضحا ، حيث سميت هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغني عنكم ولا عن نفسها شيئا .

أو يكون قوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾ بمعنى وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعا ، من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل .

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من أوثان وأصنام ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أى : لا يملكون لكم شيئا من الرزق حتى ولو كان غاية فى القلة .

ومادام الأمر كذلك : فاطلبوا الرزق من الله - تعالى - ، وحده ، فهو الذى بفضله وكرمه يغنيكم ، مادتمم تخلصون له العبادة والطاعة .

وهكذا نرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك فى دعوة قومه إلى الحق ، أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله تعالى ، وحده ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرصهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحرصهم على طلب الرزق بمن يملكه وهو الله الذى إليه المرجع والمآب .

٢٢ - ثم أخذ إبراهيم - عليه السلام - بعد ذلك ، يحذر قومه من الاستمرار في تكذيبه ، ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن سبقهم من الأمم التي كذبت الرسل ، فأصابهم من العذاب ما أصابهم ، فقال - تعالى - :

﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .  
أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات من كلام إبراهيم - عليه السلام - يحتاج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .. ﴾ . (١)

وقوله - سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا .. ﴾ معطوف على كلام محذوف والتقدير : إن تطيعوني - أيها الناس - فزتم ونجوتم ، وإن تكذبوا ما جئتكم به ، فليستم أنتم أول المكذبين لرسولهم ، فقد سبقكم إلى ذلك أمم من قبلكم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت عاقبة المكذبين لرسولهم الخسران والدمار .

ثم بين لهم إبراهيم وظيفته فقال : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

أى : لقد بلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربي ، أما الحساب والجزاء فمردهما إلى الله - تعالى - وحده .

ثم ساق لهم ما يدل على أن البعث حق ، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شئ ، فقال - تعالى - : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... ﴾

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، ليستدلوا بذلك على قدرته - سبحانه - على الإعادة وهى أهون عليه .

إنهم ليرون بأعينهم كيف يبدئ الله - تعالى - الخلق فى النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة ، وفى كل مالم يكن ثم بعد ذلك يكون ...

ومادام الأمر كذلك ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٨٠ .

فالأية الكريمة تقرعهم على إنكارهم للبعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على صحته وعلى إمكان حدوثه .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يعوّد إلى ما ذكر من الأمرين ، وهما بدء الخلق ، وإعادته إلى الحياة مرة أخرى .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله - تعالى - لأنه لا يعجزه شىء .

ثم أمر - سبحانه - رسوله ﷺ أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التفكير يهديهم إلى الحق فقال - تعالى - : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك ، كما قال إبراهيم من قبلك لقومه : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله - تعالى - ، ابتداء على أطوال مختلفة ، وطباع متميزة ، ثم قل لهم بعد كل ذلك : الله الذى خلق الخلق ابتداء ، وعلى غير مثال سابق ، وعلى تلك الصور المتنوعة والمتعددة ، هو وحده الذى يعيد التجميع إلى الحياة مرة أخرى بعد أن أوجدهم فى المرة الأولى ، لأن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

ثم بين - سبحانه - أن الثواب والعقاب متوقف على مشيئته وسنته فى خلقه فقال : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

أى : أنه - تعالى - يعذب من يشاء تعذيبه ، ويرحم من يشاء رحمته ، وإليه وحده لا إلى غيره ﴿ تُقْلَبُونَ ﴾ أى : ترجعون وتعودون ، فيحاسبكم على أعمالكم .

وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله ، ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض أم فى السماء ، ولستم بقادرين على الهرب من لقاء الله ومن حسابه ، ولا يوجد لكم ناصر ينصركم ، أو قريب يدفع عنكم حكمه ، وقضاه .

ثم ختمت هذه الآيات ببيان مصير الكافرين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أى : والذين كفروا بآيات الله الدالة على لقائه ، بأن أنكروا البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، أولئك الذين كفروا بكل ذلك انقطع أملهم فى رحمتى إياهم انقطاعا تاما ، وأولئك لهم عذاب أليم لا يعلم مقدار شدته إلا الله - تعالى - .

٢٣ - وبعد إيراد هذه الأدلة الواضحة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الثواب والعقاب حق .

بعد كل ذلك حكى - سبحانه - ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به عليهم ، فقال - تعالى - : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. ﴾ .

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل ، وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، مع أنه فى سور أخرى اكتفى بالإحراق : للإشعار بأن قومه منهم من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا بعد ذلك على الإحراق كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو أحرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، ومن تحطيمه لها .

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة ، ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والفاء فى قوله - سبحانه : ﴿ فَأَنْجَاهُ .. ﴾ فصيحة ، أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وجمعوا الحطب وأشعلوا النار بصورة شديدة ، ثم ألقوه فيها بعد اشتعالها ، فكانت نتيجة ذلك أن أنجاه الله - تعالى - منها ، بأن جعلها بردا وسلاما عليه .

إن فى كل ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم ، حيث أخرجناه سليما من النار ، لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم يؤمنون ، بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر .

وجمع - سبحانه - الآيات فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولم يقل إن فى ذلك لآية للمؤمنين ، لأن فى نجاة إبراهيم دلالات متعددة على قدرة الله تعالى لا دلالة واحدة ، إذ

نجاته من النار وتحويلها إلى برد وسلام آيه ، وعجز المشركين جميعا عن أن يلحقوا به ضررا آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة ، تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله - تعالى - .

وخص - سبحانه - المؤمنين بهذه الآيات ، لأنهم وحدهم المنتفعون بها .

ثم حكى الله - تعالى - ما قاله إبراهيم لقومه بعد نجاته من مكربهم فقال : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُم النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

أى : وقال إبراهيم - عليه السلام - لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادتها ، وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا فى عبادتها ، على حساب الحق ، وهذا شأنكم فى الدنيا ، أما يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة ، والعابدون من المعبودين ، والمعبودون من العابدين ، وسيكون مكانكم - أيها الجاحدون - النار ومعكم ألهتكم الباطلة ، وليس لكم من ناصر ينصركم ، أو يحول بينكم وبين عذاب الله - تعالى - .

والمقصود من هذه الآية الكريمة : بيان أن هؤلاء المشركين ، لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوا فى الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم ، أما فى الآخرة فستتحول تلك المودات والمسائرات والتقاليد ، إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات ، لأن هذه المودات وما يشبهها قد قامت على الباطل لا على الحق ، وعلى الشر لا على الخير .

وبذلك نرى أن مجادلة إبراهيم - عليه السلام - لقومه ، وهو يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - قد وردت فى سور متعددة منها : سورة الأنعام ، وسورة الأنبياء ، وسورة الشعراء ، وسورة الصافات ، وسورة العنكبوت .

وقد اشتملت هذه المجادلات والمحاورات على أسمى ألوان الدعوة إلى الحق ، والتنفير من الباطل ، بأسلوب لحمته وسداه المنطق السليم ، والحجة الواضحة .

٢٤ - وفى سورة البقرة آية كريمة ، تحكى لنا لونا آخر من الجدل الذى دار بين إبراهيم عليه السلام - وبين ملك معاصر له ، حمله ملكه وسلطانه على الغرور والبطر ، والجحود والكفر ، وهذه الآية الكريمة هى قوله - سبحانه - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨) .

وقوله تعالى : ﴿ حَاجَّ ﴾ أى : جادل وخاصم والمحااجة : المخاصمة والمغالبة بالقول ، يقال : حاججته فحاججته ، أى : خاصمته بالقول فتغلبت عليه ، وتستعمل المحااجة كثيرا فى المخاصمة بالباطل ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ .. ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .. ﴾ .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - قصة ذلك الكافر المغرور ، الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه - عز وجل - ومن لم يعلم قصته ، فهانحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز ، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والاستفهام للتعجيب من شأن هذا الكافر ، وما صار إليه أمر غروره وبطره والمراد به - كما قال الإمام ابن كثير - نمrod بن كنعان .. ملك بابل فى ذلك الوقت ، وكان معاصرا لسيدنا إبراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور ، وبين سيدنا إبراهيم ، أنها محااجة ، مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك .

أطلق على هذه المجادلة بالباطل محااجة ، من باب المماثلة اللفظية ، أى : هى محااجة فى نظره السقيم ، ورأيه الباطل .

والضمير فى قوله : ﴿ رَبِّهِ ﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وبالإضافة للتشريف ، ولإليذان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم .  
وقيل الضمير يعود إلى نمrod ، لأنه هو المتحدث عنه .

وقوله : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان .

أى : سبب هذه المحااجة ، لأن الله - تعالى - أعطاه الملك ، فلم يشكر خالقه على هذه النعمة ، بل قابل ذلك بالطغيان والغرور ، واستعمال نعم الله فى غير ما خلقت له .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ حكاية لما قاله إبراهيم

- عليه السلام - لذلك الملك المغرور ، فى مقام التدليل على وحدانية الله - تعالى - ، وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة .

أى : قال له : ربى وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجد لها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها ، ولا يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك سوى الخالق - عز وجل - وأنت وغيرك تشاهد ذلك فى كل يوم ، فمن الواجب عليك أن تخصصه بالعبادة والخضوع ، وأن تغفل عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال .

وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله - تعالى - ، واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الإله الحق ، هو الذى يملك الإحياء والإماتة ، ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم ، وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر .

ويبدو أن هذا القول من إبراهيم كان نتيجة لدعوة ذلك الملك المغرور إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولكن ذلك الملك طغى وقال لإبراهيم : ومن ربك هذا الذى تدعوني لعبادته ، فقال له إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

٢٥ - ثم حكى القرآن جواب نمrod على إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ أى : قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت ، فأنا أعارضك فى ذلك ، لأنى أنا - أيضا - أحيى وأميت . .

وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية ، قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عن المجرم المحكوم عليه بالقتل ، ويقتل غيره مع براءته من أية جريمة أو ذنب يدعو لعقابه .

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يزعمه من أنه يحيى ويميت ، ليس من الإحياء أو الإماتة المقصودين بالاحتجاج ، لأن ماقصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت ، وليس ماقصده ذلك الملك الجبار من قتله لمن يشاء ، وعفوه عمن يشاء ، على سبيل الظلم والقهر ، كان فى إمكان إبراهيم - عليه السلام - أن يفعل ذلك ، ولكنه أثر ترك فتح باب الجدل ، والمحاورة ، وقذفه بحجة تفحمه ، وتخرس لسانه ، وتظهر كذبه ، وغروره وفجوره ، فقال له - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ .

أى : قال إبراهيم لخصمه المغرور : لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله

- تعالى - ، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركا الله - تعالى - فى قدرته ، فإن كان زعمك صحيحا ، فأنت ترى وغيرك يرى ، أن الله - تعالى - يخرج الشمس فى أول النهار من جهة المشرق ، فأنت بها أنت من جهة المغرب .

فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدافعة التى قذف إبراهيم بها فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى - القرآن - ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أى : غُلب وقُهر وتُخير وانقطع عن حجاجه ، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه .

وقوله : ﴿ بُهِتَ ﴾ - بالبناء للمفعول - من البهت بمعنى الانقطاع والحيرة ..

وعبر - سبحانه - عن هذا المبهوت بقوله : ﴿ الَّذِي كَفَرَ ﴾ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : والله تعالى قد اقتضت حكمته أنه لا يهدى الذين ظلموا أنفسهم إلى طريق الحق ، ولا يلهمهم حجة ولا برهانا ، بسبب طغيانهم وبغيهم .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكمت للناس لونا من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ، لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون .

## هجرته إلى ربه وبشارته بابنه إسماعيل

٢٦ - تكرر الحديث في القرآن الكريم عن هجرة إبراهيم - عليه السلام - من مكان إلى آخر من أجل دعوة الناس إلى وحدانية الله - تعالى - ، كما تكرر الحديث عن بشارته بالذرية الصالحة ، ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك قوله - تعالى - في سورة الصافات :

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٢٦﴾ رَبِّ هَبْ لِي  
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْمَاعِيلَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ  
قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ  
أَفْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ  
لِلْحَيْنِ ﴿٣٠﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَسِّرْ لِي إِبراهيمُ ﴿٣١﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ  
بِخَيْرٍ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٣٣﴾ وَقَدَيْتُهُ بِذِيحِ  
عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٣٥﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبراهيمَ ﴿٣٦﴾  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ حكاية لما قاله إبراهيم - عليه السلام - بعد أن نجاه الله - تعالى - من كيد أعدائه ، وبعد أن جعل النار بردا وسلاما عليه . .  
أى : قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه بعد أن نجاه الله تعالى من مكرمهم وبغيهم :  
إني ذاهب إلى المكان الذي أمرني ربي بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد  
تكفل - سبحانه - بهدايتي إلى مافيه صلاح ديني ودنياي .

قال القرطبي : « هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة - عن أهل الشر والسوء - وأول من  
فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار ، فقال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ  
إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : مهاجر من بلد قومي ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ،  
فإنه سيهديني فيما نويت إليه من الصواب . . وكانت هجرته على الأرض المقدسة وهي  
أرض الشام . . » (١)

(١) تفسير القرطبي ج٥ ، ص ٩٦ .

والسين فى قوله : ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ لتأكيد وقوع الهداية فى المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله ، فى تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه بالعراق إلى أرض الشام ، إلا من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لخالقهم - عز وجل - .  
 ٢٧ - ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له إلى الخير والحق ، أملاً آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أى : وأسألك - يا ربى - بجانب هذه الهداية ، أن تهب لى الذرية الصالحة التى تكون من عبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك ، لكى أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك ، وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، كما حكى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه ، فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق ، ألا وهو إسماعيل - عليه السلام - .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ .. ﴾ فصيحة ، أى : بشرناه بغلام حلیم هو إسماعيل ، ثم عاش هذا الغلام فى كنف أبيه ، فلما بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه ولم يرد نص صحيح لتحديددها .

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرئى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرئى .. ﴾ أى : قال الأب إبراهيم لابنه إسماعيل : يا بنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى فى شأن نفسك؟

قال الألوسى : «ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة ، ولعل السرفى كونه مناماً لايقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص» .<sup>(١)</sup>

وإنما شاوره بقوله : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرئى .. ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه ، سواء أرضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن فى هذه المشاورة إعلام له بما رآه ، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .

وقوله : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، بيان لما رد به إسماعيل على أبيه ، وهو رد يدل على علو كعبه فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره .

(١) تفسير الألوسى ج٢٢ ، ص ١٢٩ .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت افعل ما أمرك الله - تعالى - به ، ولا تتردد فى ذلك ، وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه وإرادته .

وفى هذا الرد مافيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ونسب الفضل إليه ، واستعان به فى أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليهم السلام - يلهمهم الله - تعالى - فى جميع مراحل حياتهم ، ما يجعلهم فى أعلى درجات سمو النفسى ، واليقين القلبى ، والكمال الخلقى ..

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان بين الابن وأبيه فقال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ .

ولفظ «أسلما» : هنا بمعنى : استسلما وانقادا لأمر الله - تعالى - فالفعل لازم ، أو سلم الذبيح نفسه ، وسلم الأب ابنه فيكون الفعل متعديا والمفعول محذوف .

وقوله : ﴿ وَتَلَّهُ ﴾ أى : صرعه وأسقطه على الأرض يقال : تل فلان فلانا ، إذا صرعه وألقاه على الأرض .

والجبين أحد جانبي الجبهة ، وللوجه جبينان والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والابن لأمر الله - تعالى - وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه ، كان ما كان منا من رحمة بهما ، ومن كرم لهما ، ومن إعلاء لقدرهما ..

وقد ذكروا هنا آثارا منها : «أن إسماعيل - عليه السلام - حين هم أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شيء من دمي فتراه أُمى فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أُمى فاقرأ عليها السلام منى . .» .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله ورحمته بعد هذا الاستسلام التام لقضائه فقال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : وبعد أن صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا .. نادينا إبراهيم بقوله : يا إبراهيم لقد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيت فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك .

وقد فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لأن من

شأننا وسنتنا أن نجازى المحسنين بالجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم ، واسم الإشارة فى قوله - سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ يعود إلى ما ابتلى الله - تعالى - به نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل .

أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، لهو البلاء الواضح ، والاختبار الظاهر ، الذى يتميز به قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة والنفوس المخلصة لله رب العالمين .

ثم بين - سبحانه - جانباً آخر من مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ، والذبح بمعنى المذبوح ، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول ، كالطحن بمعنى المحطون ، أى : وفدينا إسماعيل - عليه السلام - بمذبوح عظيم فى هيئته وفى قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا .

قيل : افتداه الله - تعالى - بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر . . .  
﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم ، أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى من بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا الجزاء تجزى المحسنين ، إنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين فى إيمانهم .

٢٨ - هذا وجمهور العلماء على أن الذبيح الذى ورد ذكره فى هذه القصة هو إسماعيل - عليه السلام - ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتى :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فبشره الله تعالى بغلام حلیم ، وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى أعماله ، رأى أبوه فى المنام أنه سيدبحه . . . .

ثم قال - سبحانه - بعد كل ما سبق من أحداث : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . وهذا يدل دلالة واضحة على أن المبرر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبرر به الثانى وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - قد جاء الحديث عنها مفصلاً فى سورة

«هود». وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابس التي وردت هنا في سورة «الصفافات» ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطي فقال :

«وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة في قوله - تعالى - : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى . . ﴾ فهذه الآية قاطعة في أن المبشر به هو الذبيح .

ومرة أخرى في قوله - تعالى - في سورة هود : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ . . ﴾ فقد صرح هنا بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ كبير ، وكان ذلك في بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط ، وكان في آخر عمره . .

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأل الله - تعالى - الذرية الصالحة ، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان ، في وقتين بغلامين ، إحداهما بغير سؤال وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل ، وهو الذبيح<sup>(١)</sup> هذا ، وهناك أدلة أخرى على أن الذبيح هو إسماعيل - عليه السلام - وهو الأمر الذي تطمئن إليه النفس ، وترى أنه هو الصحيح ، ومن أراد المزيد من الأدلة فليرجع - مثلاً - إلى تفسير ابن كثير ، وتفسير الألوسي ، وغيرهما .

٢٩ - وبشارته بابنه إسحاق - عليه السلام :

وبشارة إبراهيم - عليه السلام - بابنه إسحاق ، وردت في ثلاث سور هي : هود ، والحجر ، والذاريات ، وكلها وضحت أن هذه البشارة حملها الملائكة لإبراهيم ، وهم في طريقهم إهلاك قوم لوط - عليه السلام .

أما الآيات التي وردت في ذلك في سورة «هود» فتبدأ بقوله - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ

(٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ

قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)

(١) راجع تفسير القاسمي : ج٤ ص ٥٠٥٧

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴿

والمراد بالرسول في قوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِٔ .. ﴾ جماعة من الملائكة أرسلهم الله - تعالى - إلى نبيه إبراهيم ، لتبشيره بابنه إسحاق ، - عليهما السلام - وقد اختلفت الروايات فى عددهم ، فعن ابن عباس كانوا ثلاثة ، وهم : جبريل ، وميكائيل وإسرافيل .

وعن الضحاك : أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى : أنهم كانوا أحد عشر ملكا .

والحق أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله - تعالى - . .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة ، وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه ، أى : جلده .

وجاءت الجملة الكريمة بصيغة التأكيد ، للاهتمام بضمونها ، وللدرد على مشركى قريش وغيرهم ، ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله : ﴿ بِالْبَشْرِىِٔ ﴾ للمصاحبة والملابسة : أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ حكاية لتحيتهم له ولردهم عليه .

و«سلاما» منصوب بفعل محذوف ، أى : قالوا : نسلم عليك سلاما ، ولفظ «سلام» مرفوع على أنه خير لمبتدأ محذوف ، أى : قال لهم أمرى سلام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴾ بيان لما فعله إبراهيم - عليه السلام - مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم .

والعجل : الصغير من البقر ، والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض .

يقال : حنذ الشاة يحنذها حنذا ، أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : أن إبراهيم - عليه السلام - لعظم سخائه وكرمه ، بمجرد أن جاءه هؤلاء الرسل ، وتبادل معهم التحية ، ما كان منه إلا أن أسرع إلى أهله ، فجاءهم بعجل سمين مشوى .

وهذا شأن الكرام أصحاب المروءة والشهامة ، يقدمون التحية للضيف فى أسرع وقت

ممكن ، ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ ۞ ﴾ .

ومعنى : «نكرهم» : نفر منهم ، وكره تصرفهم ، تقول : فلان نكر حال فلان ، إذا وجده على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .

وأوجس : من الوجس ، وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف ، والفرع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .

أى : فحين رأى إبراهيم ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفا ورعبا ، لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع - يشير بأن هذا الضيف يريد به سوءا .

ولذا بادر الملائكة بادخال الطمأنينة على قلب إبراهيم ، حيث قالوا له : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ ﴾ .

أى : قالوا له : لا تخش شيئا يا إبراهيم ، فإننا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى - ، أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك مع امرأته فقال : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ۖ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۗ ۞ ﴾ .

والمراد بامرأته - كما يقول القرطبي - سارة بنت هاران بن ناحور ، وهى ابنة عمه ، وقيامها : كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف ، أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاجها المرأة فى بيتها .

والمراد بالضحك هنا : حقيقته ، أى فضحكت سرورا وابتهاجا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله - تعالى - لإهلاك قوم لوط ، أو للسببين معا .

أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ، كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك ضحكت سرورا وفرحا لزوال خوفه ، فبشرناها عقب ذلك بمولودها إسحاق ، كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله يعقوب ، فهى بشارة مضاعفة ، إذ أنها تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها .

ولاشك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس ، ولم يكن لها ولد ، ثم تأتىها مثل هذه البشارة ، يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ﴿ وَيَلْتَمِىٰ أُلُلْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۗ ۞ ﴾ .

وكلمة «يا ويلتا»: تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه ، والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك .

أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز قد بلغت سن اليأس من الحمل من زمن طويل ، وهذا زوجى إبراهيم شيخا كبيرا متقدما فى السن ، إن هذا الذي بشرتمونى به ، لشيء عجيب فى مجرى العادة عند النساء .

وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ﴿ أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، أى : أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة؟ لا إنه لا يصح لك أن تستبعدى ذلك ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء .

﴿ رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، أى : قالت الملائكة لها زيادة فى سرورها ، رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية ، عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - «إنه» - سبحانه - «حميد» أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه ، «مجيد» أى : كريم واسع الإحسان .

قال الشيخ القاسمى - رحمه الله - : وقد أخذ العلماء من هذه الآيات جملة من الفوائد منها : أن الم بشر بشيء ينبغى أن يقابل ذلك بشكر الله تعالى على فضله ونعمه ، ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم فى الرد على الملائكة «سلام» بالرفع ، وهو أدل على الثبات والدوام ، ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها ، واستحباب خدمة المضيف للضيف ، فإنها من مكارم الأخلاق . (١)

٣٠ - أما الآيات التى فى سورة «الحجر» فقد حكت لنا البشارة بمولد إسحاق ، بأسلوب مؤثر حكيم ، فقال - تعالى - :

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴿

(١) راجع تفسير القاسمى ج٩ ص ٣٤٦٧ .

أى : أخبر - أيها الرسول الكريم - عبادى المؤمنين أنى أنا الله - تعالى - ، الكثير المغفرة لذنوبهم ، وخبرهم - أيضا - أن عذابى هو العذاب الأليم لمن هو مستحق له .

فأنت - ترى أن الله - عز وجل - قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته - سبحانه - فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه - سبحانه - به ، وقدم - سبحانه - نبأ مغفرته ورحمته ، على نبأ عذابه وانتقامه ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

والمراد بقوله - سبحانه - : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهم الملائكة الذين نزلوا عليه ضيوفا فى صورة بشرية ، وبشروه بغلام عليم .

ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا .. ﴾ .

أى : وأخبر قومك - أيها الرسول الكريم - عن الضيوف الذين نزلوا على إبراهيم ، فقالوا له على سبيل التحية سلاما ، أى : سلمت سلاما ..

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ بيان لما رد به إبراهيم عليهم ، أى : قال لهم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية : إنا منكم خائفون .

وكان من أسباب خوفه منهم : أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير وقت الزيارة ، وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه لهم .

هذا ، وقد ذكر - سبحانه - فى سورة هود ، وفى سورة الذاريات أنه رد عليهم السلام ؛ إلا أنه توجس منهم الخوف فى أول الأمر ، ففى سورة «هود» قال - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ﴾ .

وفى سورة الذاريات قال - سبحانه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ .

ولا تعارض بين هذه الآيات ، لأن كلامها يحكى حالة معينة لإبراهيم - عليه السلام .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ .

أى : قالوا له : لا تخف منا ، فإننا قد جئناك لتبشيرك بغلام ذى علم كثير وهو إسحاق - عليه السلام - وقد حكى - سبحانه - فى سورة «هود» أن البشارة كانت لامرأته ، بينما حكى هنا أن البشارة كانت له ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين ، بأن بشره هو أولا ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها - أيضا - ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَأَمْرُهُ فَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشره بهذا الغلام العليم ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ .

أى : قال لهم إبراهيم : أبشرتونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيوخوخة قد اعترتنى ، فبأى شىء عجيب قد بشرتوني .

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله ، ونفاذ أمره ، حيث وهبه - سبحانه - هذا الغلام العليم فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتي جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ بيان لما قالته الملائكة لإبراهيم ، أى : قالوا له : يا إبراهيم قد بشرناك بالأمر المحقق الوقوع ، فلا تكن من الآيسين من رحمة الله ، فإن قدرته - سبحانه - لا يعجزها شىء .

وهنا دفع إبراهيم عن نفسه نقيصة اليأس من رحمة الله ، فقال على سبيل الإنكار والنفى : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله - تعالى - ، لأنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب .

٣١ - وأما الآيات التى فى سورة «الذاريات» فقد حكى - أيضا - تلك القصة بأسلوب مشوق ، فقال - تعالى - :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاحَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ .

وقد افتتحت تلك القصة هنا بأسلوب الاستفهام ، للإشعار بأهميتها ، وتفخيم شأنها ،  
وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحي .

والضيف فى الأصل مصدر بمعنى الميل ، يقال : ضاف فلان فلانا ، إذا مال كل واحد  
منهما نحو الآخر ، ويطلق لفظ الضيف على الواحد والجماعة ، والمراد به هنا جماعة  
الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم .

والمعنى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حديث ضيوف إبراهيم المكرمين؟  
إننا فيما أنزلناه إليك من قرآن نقص عليك قصتهم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ،  
على سبيل التسلية والتثبيت .

ووصفهم - سبحانه - بأنهم كانوا مكرمين ، لإكرام الله لهم بطاعته ، ولإكرام إبراهيم  
لهم بحسن الضيافة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا .. ﴾ ، بيان لحالهم ومقالهم عند دخولهم  
عليه .

أى : هل بلغك خبرهم وقت دخولهم عليه؟ لقد قالوا له نسلم عليك سلاما .  
فكان جوابه عليهم : ﴿ سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ ﴾ ، أى : قال لهم سلام منى لقوم لا أعرفهم  
قبل ذلك ، ثم بين - سبحانه - ما فعله إبراهيم مع هؤلاء الذين ينكرهم أى لا معرفة له بهم  
قبل دخولهم عليه فقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ .

أى : فذهب إبراهيم إلى أهله خفية ، فجاء إليهم مسرعا بعجل يمتلئ لحما وشحما  
يقال : راغ فلان إلى مكان كذا ، إذا مال إليه فى استخفاء وسرعة .  
﴿ فَكَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وقال لهم على سبيل التلطف وحسن العرض ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ من  
طعامى .

ولكن إبراهيم مع هذا العرض الحسن لطعامه ، ومع الكرم الواضح منه معهم ، لم يجد  
من ضيوفه استجابة لدعوته ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ ، أى : فأضمر فى نفسه خوفا منهم  
حين رأى إعراضا عن طعامه مع جودته .

وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم فقالوا : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ أى : لا تخف منا فإننا رسل  
الله .

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : وبشروه بغلام سيولد له ، وسيكون كثير العلم عندما  
يبلغ سن الرشد ، وهذا الغلام هو إسحاق - عليه السلام .

ثم حكى القرآن ما كان من امرأته بعد أن سمعت بهذه البشارة فقال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ  
امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَاَصْكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ .

والصرة : من الصرير وهو الصوت ، ومنه صرير الباب ، أى : صوته ، والصك : الضرب  
الشديد على الوجه ، وعادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شيء .

أى : فأقبلت امرأة إبراهيم - عليه السلام - وهى تصيح فى تعجب واستغراب من هذه  
البشرى ، فضربت بيدها على وجهها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟  
وهنا رد عليها الملائكة بما يزيل عجبها فقالوا : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ  
الْعَلِيمُ ﴾ .

أى : قال الملائكة لامرأة إبراهيم : لا تتعجبنى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ،  
فإن هذا الحكم هو حكم ربك ، وهذا القول الذى بشرناك به هو قوله - سبحانه - وقوله  
لامرء له ، إنه - تعالى - هو الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، العليم بأحوال خلقه .

وبذلك نرى أن بشارة إبراهيم بابنه إسحاق - عليهما السلام - قد وردت فى سور  
متعددة ، وبأساليب متنوعة ، كلها تدل على أن هذا القرآن من عند الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ  
عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ .

٣٢ - قصة بنائه للبيت الحرام :

تحدث القرآن فى آيات متعددة عن قصة بناء المسجد الحرام ، وعن أمر الله - تعالى -  
لإبراهيم بذلك ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى ، قوله - تعالى - فى سورة الحج :

وَلِذَٰبِئِنَّا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ  
أَنْ لَا تَشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ  
﴿٦٦﴾ وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ  
مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٦٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى  
أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَرِيَّةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا  
أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّبِّ إِنَّ لَقِيضَ أُنْفُسِهِمْ وَرَوْحَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا  
بِالْبَيْتِ الْعَمِيقِ ﴿٦٨﴾

وقوله تعالى : ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ من التبوأ ، بمعنى النزول فى المكان ، يقال : بوأته منزلا ، أى :  
أنزلته فيه ، وهياته له ، ومكنته منه .

قال بعض العلماء : «المفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج ، كنست مافوق الأساس ، حتى ظهر الأساس الأول الذى كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه ، وأن محل البيت كان مريض غنم لرجل من جرهم .  
وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهياً له ، وعرفه إياه ليبنيه فى محله .

وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ، ولم يكن له وجود من قبله ، وظاهر قوله - تعالى - على لسان إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ يدل على أنه كان مبنيا واندرس ، كما يدل عليه - أيضا - قوله هنا : «مكان البيت» ، لأنه يدل على أنه مكانا سابقا كان معروفا عند بعض الناس . (١)

والمعنى : واذكر - أيها المخاطب - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن هيأنا لإبراهيم - عليه السلام - مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناك بعدم الإشراف بنا ، وأمرناه بإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناك - أيضا - بأن يطهر هذا البيت الحرام من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهياً ومعداً للطائفتين به ، وللقائمين فيه لأداء الصلاة وغيرها من العبادات .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ، أنه لا يجوز أن يترك عند البيت الحرام ، قدر من الأقدار ، ولا نجس من الأنجاس المعنوية ، أو الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضى الله ، ولا أحد يلوئه بقدر من النجاسات .

ثم ذكر - سبحانه - ما أمر به نبيه إبراهيم بعد أن بوأه مكان البيت فقال : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

والأذان : الإعلام ، و﴿ رِجَالًا ﴾ أى : مشاة على أرجلهم ، جمع راجل ، يقال : رجل فلان يرجل - كفرح يفرح - فهو راجل ، إذا لم يكن معه ما يركبه .

والضامر : البعير المهزول من طول السفر ، وهو اسم فاعل من ضمّر - بزنة قعد - يضمّر ضمورا فهو ضامر - إذا أصابه الهزال والتعب .

والفج فى الأصل : الفجوة بين جبلين ، ويستعمل فى الطريق المتسع ، والمراد به هنا : مطلق الطريق وجمعه فجاج .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٥ ص ٦٢ للشيخ الشنقيطى .

والعميق : البعيد ، مأخوذ من العمق بمعنى البعد ، ومنه قولهم : بئر عميق ، أى : بعيدة الغور ، والمعنى : وأعلم يا إبراهيم الناس بفريضة الحج ، يأتوك مسرعين مشاة على أقدامهم ، ويأتوك راكبين على دوابهم المهزولة ، من كل مكان بعيد .

قال الإمام ابن كثير : أى : وناد يا إبراهيم فى الناس داعيا إياهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يا رب ، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم ؟ فقيل له : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر ، وقيل على الصفا . . وقال أباها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه ، فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض . . وأجابه كل شىء سمعه : «لبيك اللهم لبيك» . (١)

ثم بين - سبحانه - جانباً من المنافع التى تعود عليهم من أدائهم لفريضة الحج فقال : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ . . ﴾ .

أى : يأتوك - يا إبراهيم - الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ، ليحصلوا منافع عظيمة لهم فى دينهم وفى دنياهم .

ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا الله عنهم .  
ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم فى هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء ، وغير ذلك من أنواع المعاملات التى أحلها الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . . ﴾ ، معطوف على ما قبله .

والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذى الحجة ، أو هى أيام التشريق ، والمراد ببهيمة الأنعام الإبل والبقرة والغنم .

أى : ليشهدوا منافع لهم وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته فى تلك الأيام المباركة ، وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التى يتقربون إليه - سبحانه - عن طريق ذبحها ، وإراقة دمائها ، استجابة لأمره - تعالى - .

وقوله : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ إرشاد منه - سبحانه - إلى كيفية التصرف فيها أى : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أى : الذى أصابه بؤس ومكروه إلى جانب فقره واحتياجه .

(١) تفسير ابن كثير ص ٤١٠ ج ٥ .

ثم بين - سبحانه - ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

أى : ثم بعد حلهم ، وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك ، فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم ، وليوفوا نذورهم التى نذروها لله فى حجهم ، وليطوفوا طواف الإفاضة ، بهذا البيت القديم ، الذى كلف الله - تعالى - عبده ورسوله إبراهيم بنائه .

٣٣ - وفى سورة البقرة آيات كريمة تحدثت عن مكانة البيت الحرام ، وعن قصة بنائه ، وعن الدعوات الخاشعات التى كان يتضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه عند بنائه البيت فقال تعالى :

وَلَدَجَعْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا  
وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ  
أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكِيمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَلَدَقَالَ  
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَاةِ  
مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا  
ثُمَّ أَصْحَبْهُهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسْأَلُ الْمُصِيبِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلَإِذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ  
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ  
﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَارِنَا  
مَنَاسِكَنَا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

وقوله تعالى : ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى مرجعا للناس يرجعون إليه من كل جانب ، يقال :  
تاب القوم إلى المكان إذا رجعوا إليه ..

أى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن جعلنا وصورنا بيتنا الحرام ، وكعبتنا المشرفة ، مرجعا  
للناس ، وملجأ لهم ، وموضع أمانهم واطمئنانهم من كل خوف وفزع .

كما قال - سبحانه - : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

وقوله - تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ تشير إلى المكان الذى كان

إبراهيم يقوم عليه عند بنائه للمسجد الحرام ..

فالمراد بمقام إبراهيم : الحجر الذى كان إبراهيم - عليه السلام - يقوم عليه خلال بنائه للكعبة وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين .

قال الإمام ابن كثير : وقد كان هذا المقام - أى - الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملصقا بجدار الكعبة قديما ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر على يمين الداخل فى البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضع هذا الحجر إلى جدار الكعبة .

وإنما أخره عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة» (١).

ثم قال تعالى : ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

أى : وأمرنا وأوحينا إلى إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أن يطهرا البيت الحرام ، من كل ما يليق ببيوت الله من الأقدار والأرجاس والأوثان ، وأن يجعلاه مهياً لاستقبال الطائفين به ، والعاكفين فيه ، والمؤدين للصلاة بداخله .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى كان إبراهيم يتضرع بها إلى خالقه خلال بنائه للبيت الحرام فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ ، أى : أضرع إليك - يا إلهى - أن تجعل مكة التى فيها بيتك ، بلدا آمنا ، يجد فيه الناس اطمئنانهم وراحتهم .

كما أسألك - يا إلهى - أن ترزق أهله من الثمرات التى تغنيهم ، واجعل هذا الرزق واسعا لمن آمن من أهل هذا البلد بالله واليوم الآخر .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - ومن كفر بى وبالיום الآخر وبكل ما يجب الإيمان به ، فأمتعته متاعا قليلا بنعم الدنيا ، ثم أضطره وأسوقه وأجثه يوم القيامة إلى عذاب النار وبئس المصير ، ثم حكى القرآن دعوة ثلاثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ص ١ ص ١٧٠ .

أى : واذكر - أيها العاقل - ما صدر من هذين النبيين الكريمين ، فقد كانا يقولان وهما يرفعان وبينيان أساس البيت وأعمدته : يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا إنك أنت السميع لأقوالنا ، العليم بأحوالنا .

ويا ربنا اجعلنا مسلمين لك أى : خاضعين وطائعين لأمرك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة ومخلصة لك ، وأرنا مناسكنا ، أى : وعلمنا شرائع ديننا ، وأعمال حجنا ، وتب علينا ، أى : ووقفنا للتوبة وتقبلها منا ، إنك أنت يا مولانا الواسع القبول لتوبة التائبين الصادقين .

٣٤ - ما يؤخذ من قصة إبراهيم - عليه السلام - من فضائل وأحكام .

إن الذي يتدبر قصة إبراهيم - عليه السلام - كما وردت فى القرآن الكريم ، يجد فيها كثيرا من الفضائل التى منحها الله - تعالى - لنبيه إبراهيم ، كما يجد فيها كثيرا من العبر والعظات ، ومن الأحكام والآداب ، ومن ذلك ما يأتى :

(أ) إمامته للناس :

وهذه الإمامة التى منحها الله - تعالى - لإبراهيم - عليه السلام - نراها واضحة جلية فى قوله - سبحانه : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ . [سورة البقرة الآية : ١٢٤] .

والابتلاء : الاختبار ، أى : اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهي .  
والله - تعالى - يختبر عباده بالضراء ليصبروا ، ويختبرهم بالسراء ليشكروا ، وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها ، قال تعالى : ﴿ وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. ﴾ .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله - تعالى - بها نبيه إبراهيم على أقوال ، لعل أفضلها أن المراد بها التكاليف الشرعية التى كلف - سبحانه - بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - .

قال الإمام ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية : « ولم يصح فى ذلك - أى : فى المراد بهذه الكلمات - خبر يجب التسليم له .. ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات ، أنها الأوامر التى كلفه الله بها ، فأتى بها على أتم وجه » .

وقوله - سبحانه : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ، أى : فأتى بهن على الوجه الأكمل وأداهن أداء تاما يليق به ، ولذا مدحه الله - تعالى - بقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ .

وقوله - سبحانه ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ بيان للثمرة التي ترتبت على امتثال إبراهيم لأمر ربه ، وعلى وفائه بعهده بدون تراخ أو إبطاء .

أى : قال الله - تعالى - : لإبراهيم على سبيل المكافأة له بعد أن أدى ما كلفه به أداء تاما - إنى جاعلك للناس إماما يأتون بك ، ويقتدون بأقوالك وأفعالك .

والمراد بالإمامة هنا : الرسالة والنبوة ، فإنهما أكمل أنواع الإمامة .

وقال - سبحانه - ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ولم يقل إنى جاعلك للناس رسولا ،

ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم - عليه السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة ، فتنقل من بلاد الكلدان ، إلى العراق ، وإلى الشام ، وإلى مصر ، وإلى الحجاز ، وكان فى جميع الأماكن التى حل بها أسوة حسنة وقدوة طيبة .

وقوله - سبحانه - ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ ، حكاية لما رد به إبراهيم على ربه بعد أن صيره

للناس إماما .

أى : قال إبراهيم : كما جعلتنى يا إلهى بفضلك وكرمك للناس إماما ، اجعل من ذريتى - أيضا - من هو كذلك ، فإنى أحب أن يكون من ذريتى الأئمة للناس .

وهذا يدل على أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن يحب الخير لنفسه فقط بل كان يحبه - أيضا - لذريته .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، حكاية لما رد به - سبحانه - على

إبراهيم .

أى : قال الله تعالى - لعبده إبراهيم - قد أجبته إلى طلبك ، إلا أن هذه الإجابة خاصة بالصلحين من نسلك ، فهم سيكونون أئمة لغيرهم ، أما الظالمون منهم فليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة للناس .

ومن الآيات التى تدل على أن الله تعالى قد جعل فى بعض ذرية إبراهيم الإمامة التى هى بمعنى النبوة والرسالة قوله - تعالى - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ

النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧]

ومن الآيات التى تدل على أن من ذريته المحسن والظالم قوله سبحانه :

﴿وَبَشِّرْنَا هُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصفات : ١١٢ ، ١١٣]

هذا ، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة وهى قوله - تعالى - : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ۖ﴾ إن إبراهيم - عليه السلام - قد أدى ما كلفه الله تعالى به أداء كاملا ، وأنه - سبحانه - قد كافأه على ذلك بأن صيره للناس إماما ، وأنه - عليه السلام - كان يحب الخير لذريته كما يحبه لنفسه ، وهذا شأن الأخيار الأصفياء الأتقياء ، وأنه قد التزم آداب السؤال ، فهو لم يطلب الإمامة لجميع ذريته ، بل طلبها للصالحين منهم فقال : ﴿ومن ذريتي﴾ ولفظ «من» هنا للتعويض ، أى : وألتمس الإمامة لبعض ذريتي .

كما يؤخذ منها أن الظالمين ليسوا أهلا للإمامة ، حتى ولو كانوا من نسل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وفى ذلك تنفير من الظلم والظالمين ، وتحريض على سلوك طريق الاستقامة والصلاح ، وبيان لسنة من سنن الله التى لا تتغير ولا تتبدل وهى أن الإمامة للصالحين لا للظالمين لأنهم ليسوا أهلا للاقتداء بهم .

كما يؤخذ من هذه الآية - أيضا - أن منزلة الإنسان عند ربه ، تكون بمقدار قيامه بما أوجبه - سبحانه - عليه من تكاليف ، وبمقدار إخلاصه وسرعته فى أداء هذه التكاليف التى هى لون من الاختبار والابتلاء ، لىتميز قوى الإيمان من ضعيفه .  
(ب) اصطفاء الله - تعالى له فى الدنيا :

اختيار الله - تعالى - عبده إبراهيم - عليه السلام - لدعوة الناس إلى اتباع الحق ، جاء فى آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - :

﴿وَمَنْ يَرِغْبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾

[البقرة]

أى : لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم ، وينصرف عنها إلى الشرك بالله ، إلا من امتهن نفسه واستخف بها ، وظلمها بسوء رأيه ، حيث ترك طريق الحق إلى طريق

الضلالة ، يقال : رغب فلان في كذا إذا أراده ، ورغب عن كذا إذا كرهه ، والملة في الأصل : الطريقة ، وغلب استعمالها في أصول الدين ، وسفه نفسه ، أى : امتهنها ، وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، ثناء عظيم من الله - تعالى - على نبيه إبراهيم - عليه السلام - .

أى : والله لقد اخترنا إبراهيم لحمل رسالتنا فى الدنيا إلى الناس ، وهدايتهم إلى طريق الحق ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى ، المبشرين برضا الله تعالى ومثوبته وجنته .

ثم بين - سبحانه - السبب فى هذا الاصطفاء والصلاح فقال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : أن هذه المكانة العالية لإبراهيم سببها أن ربه حين أمره بإسلام وجهه إليه ، وإخلاص العبادة له ، امتثل أمر ربه بكل سرعة وإخلاص ، وقال أخلصت عبادتى وطاعتى لك يا رب .

وشبيه بهذه الآية قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : ٧٩ ]

وقوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ آل عمران ]

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [ النساء ]

ثم بين - سبحانه - أن إبراهيم - عليه السلام - مع كماله فى نفسه ، كان يعمل على تكميل غيره ، ودعوته إلى إخلاص العبادة لله ، فقال : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ .

أى : أن إبراهيم لم يكتف بإسلام وجهه لله - تعالى - ، بل وصى أبناءه باتباع ملته ، التى هى دين الإسلام ، ويعقوب كذلك وصى بنيه باتباعها ، فقال كل منهما لأبنائه : يا بنى إن الله اصطفى لكم دين الإسلام ، الذى لا يقبل الله ديناً سواه ، ومادام الأمر كذلك ، فاثبتوا على هذا الدين ، حتى يدرركم الموت ، وأنتم مقيمون عليه .

والتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد أثنت على إبراهيم - عليه السلام - ثناء عاطراً ، حيث وصفته بأنه من المصطفين الأخيار فى الدنيا ، وأنه فى الآخرة من الفائزين برضا الله

- تعالى - ، وأن من يخالفه في عقيدته وطريقته يكون من السفهاء الجاهلين ، وأن هذا الاصطفاة لإبراهيم كان بسبب مبادرته ومسارعة لامتهال أمر ربه ، وأنه لم يكتف بذلك بل وصي ذريته من بعده بأن تتبع ملته وسنته ، وأن تستمر على ذلك إلى نهاية الحياة .  
(ج) وفاؤه بعهوده :

وهذه الصفة على رأس المناقب التي منحها الله تعالى لسيدنا إبراهيم - عليه السلام -  
ويكفيه فخرا أن الله - عز وجل - شهد له بذلك فقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ .

وحذف - سبحانه - متعلق «وفى» ، ليشمل كل ما يجب الوفاء به ، كمحافظته على أداء حقوق الله ، واجتهاده في تبليغ الرسالة ، ووقوفه عند ما أمره الله به أو نهاه عنه .  
والحق أن الذي يقرأ قصة إبراهيم - عليه السلام - يراه قد ضرب أروع الأمثال في الوفاء بالوعود والعهود ، ومن أمثلة ذلك :

أنه عندما قال له ربه أسلم ، بادر بالامتهال وقال : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولم يكتف بذلك بل وصى بنيه أن يكونوا مثله في إخلاص العبادة لله - تعالى - ، واستمر على طاعته التامة لخالقه إلى أن أدركه الموت .

قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وأنه عاهد الله وأقسم به ، ليحطمن تلك الأصنام التي اتخذها الجاهلون آلهة من دون الله ، فوفى بعهده ، وبر في قسمه .

ومن الآيات التي حكى ذلك قوله - تعالى - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام :  
﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُدَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾ [الأنبياء]

وأنه وفى بعهده مع أبيه ، حيث قال له : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾  
واستمر على هذا الاستغفار إلى أن تبين له إصرار أبيه على الكفر ، فتبرأ منه ، وترك الاستغفار له ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة]

أى : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا بسبب وعد صدر منه له بذلك ، فلما أصر «أزر» أبو إبراهيم على كفره ، ومات على ذلك ، تبرأ إبراهيم منه ومن عمله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ .

أى : لكثير التأوه والتوجع من خشية الله «حليم» أى : وكثير الحلم والصفح عنم آذاه ، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبدالله بن شداد أن رجلا قال : يا رسول الله ما الأواه؟ قال : الخاشع المتضرع الكثير الدعاء .

وأنه - عليه السلام - كان وفيا بعهده عندما رأى فى منامه أنه يذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام - الذى رزقه الله - تعالى - إياه على الكبر ، إذ بادر إبراهيم بإخبار ابنه بذلك بدون تردد ، ونفذ ما رآه فى منامه ، إلا أن الله - تعالى - كافأه على هذا

الوفاء بافتداء إسماعيل بذبح عظيم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَبَشِّرْناهُ بِغَلامٍ حَليمٍ (١٠١) فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فى المَنامِ أَنى أذْبَحُكَ فَانظُرْ ماذا تَرى قالَ يا أبتِ افْعَلْ ما تُؤمَرُ سَتَجِدُنى إن شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمّا أَسْلَمَا وتَلَّهَ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنادىناهُ أنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيا إِنّا كَذَلِكِ نَجْزى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إنْ هَذا لَهوَ البَلاءِ المُبِينِ (١٠٦) وَفَدىناهُ بِذَبِیحِ عَظیمٍ (١٠٧) ﴾ [ الصافات ]

أى : وفدينا إسماعيل بمذبح عظيم فى هيئته ، وقد قدره ، لأنه من عندنا لا من عند غيرنا ، وهكذا نجد أن إبراهيم - عليه السلام - كان وفيا بعهده فى كل مايجب الوفاء به .

(د) جمعه لأطراف الخير :

وهذه الصفة نراها واضحة جلية فى قوله - تعالى - :

﴿ إنْ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِئاً لَهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ (١٢٠) شاكِراً لَأنْعَمَهُ اجْتَباهُ وَهَداهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَأَتىناهُ فى الدُّنيا حَسَنَةً وإنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أوحىنا إِلَيْكَ أنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ .

والتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله - تعالى - قد وصف خليله إبراهيم ، بجملة من الصفات الفاضلة والمناقب الحميدة .

وصفه - أولاً بأنه «كان أمة» ، ولفظ «أمة» يطلق باطلاقات متعددة : منها «الجماعة» ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون .. ﴾ أى : وجد موسى - عليه السلام - عند ماء مدين جماعة من الناس يسقون دوابهم .

ومنها الدين والملة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنّا وَجَدنا آباءنا على أُمَّةٍ ﴾ أى : دين وملة ، ومنها : الحين والزمان ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولئن أَخْرنا عَنْهُمُ العَذابَ إلى أُمَّةٍ مَّعدودةٍ .. ﴾ أى : إلى فترة محدودة من الزمان .

والمقصود بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أى : كان عنده من الخير ما كان عند أمة من الناس ، فقد كان إماما يقتدى به فى وجوه الطاعات ، وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى إرشاد الناس إلى أنواع البر .  
ووصفه - ثانيا - بأنه ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أى : مطيعا لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، من القنوت ، وهو الطاعة مع الخضوع .

ووصفه - ثالثا - أنه كان حنيفا أى : مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، من الحنف ، وهو الميل إلى الحق ، بخلاف الجنف فهو الميل إلى الباطل .  
ووصفه - رابعا - بأنه منزه عن الشرك فقال : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

ووصفه - خامسا - بالشكر لنعم الله ، بمعنى استعمالها فيما خلقت له فقال : ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ أى : معترفا بفضل الله ، ومستعملا نعمه فيما يرضيه .  
ووصفه - سادسا - بأنه ممن اختارهم - سبحانه - لحمل رسالته فقال : ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أى : اختاره واصطفاه للرسالة .

واجتباء الله لعبده معناه : اختصاصه بخصائص يمنحه إياها بدون كسب منه .

ووصفه - سابعا - بأنه من الذين هدوا إلى الصراط المستقيم فقال : ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

ووصفه - ثامنا - بأنه من السعداء فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - هذه المناقب الحميدة لإبراهيم - عليه السلام - بأن أمر نبيه محمدا ﷺ باتباعه فقال : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

والمراد بالاتباع هنا : اتباع الرسول ﷺ لأبيه إبراهيم فى التوحيد وفى أصول الدين الثابتة فى كل الشرائع ، لا فى الفروع التى تختلف من شريعة إلى أخرى كما قال - سبحانه - : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ .

أى : ثم أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك ما كان عليه أبوك إبراهيم - عليه السلام - الذى نبذ كل لون من ألوان الإشراك بالله - تعالى - .

قال - تعالى - : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [الحج : ٧٨]

قال الإمام القرطبي : وفى قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .. ﴾ دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدي إلى الصواب ، فإن النبي ﷺ هو أفضل الأنبياء ، ومع ذلك فقد أمره الله - تعالى - بالافتداء بهم فقال :

﴿ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ .. ﴾ [ الأنعام : ٩٠ ]

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وصفت سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بأفضل الصفات ، وأكمل المناقب ، وأكرم الأخلاق .

(هـ) إجابة دعائه :

من أبرز ما يلفت النظر ، ويحمل على الاعتبار والاعتاظ فى قصة إبراهيم - عليه السلام - أنها زاخرة بتلك الدعوات الخاشعات التى حكاها القرآن الكريم على لسانه ، وهو يتضرع بها إلى الله - تعالى - .

فى سورة البقرة - الآيات من ١٢٦ : ١٢٩ - نجد نماذج من الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، وتبدأ هذه الدعوات بقوله - تعالى - حكاية عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ .

أى : قال إبراهيم مناجيا ربه : يا رب اجعل مكة بلدا آمنا من كل فزع ، لأن بها بيتك الحرام ، الذى جعلته مثابة للناس ، أى : يرجعون إليه بين الحين والحين ، والذى جعلته مكان أمنهم واطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

أما الدعوة الثانية التى توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة ، فقد حكاها القرآن فى قوله : ﴿ وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. ﴾ .

أى : كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا البلد آمنا ، أسألك كذلك أن ترزق أهله من الثمرات النافعة ما يسد حاجتهم ، ويغنيهم عن الاحتياج إلى غيرك .

وأما الدعوة الثالثة فقد تضرع بها خلال بنائه للبيت الحرام ، فقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : واذكر - أيها العاقل - ما صدر من هذين الرسولين الكريمين من

دعوات خاشعات ، فقد كانا يقولان وهما يقومان برفع قواعد الكعبة : يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا إنك أنت السميع لما تنطق به ألسنتنا ، العليم بسرنا وعلنانا .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جملة من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله فقال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ﴾ أى : خاضعين ومدعنين لك ، واجعل ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ ، أى : وعلمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا ﴿ وَتَبَّ عَلَيْنَا ﴾ ، أى : ووقفنا للتوبة الصادقة واقبلها منا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما ، بتلك الدعوة التى فيها خيرهما فى الدنيا والآخرة فقالا - كما حكى القرآن عنهما - : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، أى : ونسألك يا ربنا أن تبعث فى ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك ، ويرشدهم إلى مافيه من أحكام وأداب ، ويهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك وفى الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح ، ويطهرهم من الفسوق والعصيان ، إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم ، ولقد حقق الله - تعالى - لهذين النبيين الكريمين دعواتهما ، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم ، هو محمد ﷺ الذى كانت رسالته رحمة للعالمين .

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم فقال : أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين .

وفى سورة إبراهيم (١) نجد نماذج أخرى من تلك الدعوات الخاشعات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ، أى : وأبعدنى - يا إلهى - أنا وذريتى عن عبادة الأصنام .

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ أى : يارب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وأبنائى من عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ..

(١) الآيات من ٢٥ - ٤١ .

﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ فى دينى وعقيدتى ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى : فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ ولم يقبل طاعتى فأفوض أمره إليك ، وأنت الغفور الرحيم ، ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات التى تضرع بها إبراهيم إلى خالقه ، فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ، أى : يا ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى - وهو ابنى إسماعيل ومن سيولده - بواد غير ذى زرع قريبا من بيتك ، المحرم ، لكى يتفرغوا لإقامة الصلاة فى هذا المكان الطيب ، فأسألك يا إلهى أن تجعل نفوس الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم وديعة فى جوار بيتك من الثمرات المختلفة ما يغنيهم ويشبعهم ، لعلمهم بسبب هذا العطاء الجزيل ، يزدادون شكرا لك ، ومسارة فى طاعتك وعبادتك .

وقد حكى القرآن من مواطن أخرى أن الله - تعالى - قد أجاب دعاء إبراهيم فرزق أهل بيته الحرام ما يغنيهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم حكى القرآن دعاء آخر من تلك الدعوات التى توجه بها إبراهيم إلى خالقه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إبراهيم على سبيل الشكر لربه فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه بما حكاه الله عنه فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى : مؤديها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى : واجعل من ذريتى من يقتدى بى فى ذلك .

﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى : واسألك يا إلهى أن تتقبل دعائى ، وألا تخيب رجائى ، كما أسألك - يا إلهى - أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر لوالداى ذنوبهم - أيضا - يوم يقوم الناس للحساب والجزاء ، كما أسألك أن تغفر لجميع المؤمنين ذنوبهم وخطاياهم فى هذا اليوم العظيم ، وقد سبق أن بينا أن استغفار إبراهيم لأبيه ، إنما كان وفاء للوعد الذى وعده به ، فلما مات أبوه على الكفر ، امتنع عن الاستغفار له ، أما أم إبراهيم فقد قال بعضهم إنها كانت مؤمنة .

وفى سورة الشعراء ألوان أخرى من الدعوات الصالحات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، ومنها قوله - تعالى - حكاية عنه - : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء]

أى قال إبراهيم متضرعا إلى ربه : يا رب هب لى علما واسعا مصحوبا بعلم نافع ، وألحقنى بعبادك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك ، واجعل لى ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى .

وقد أجاب الله - تعالى - له هذه الدعوة ، فجعل أثره خالدا ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

كما أسألك يا إلهى أن تجعلنى فى الآخرة من الوارثين لجنتك ، وأن تغفر لأبى ذنوبه ، إنه كان من الضالين عن طريق الحق ، وإننى قد وعدته بالاستغفار له ، وقد رجع عن ذلك إبراهيم بعد أن نهاه الله - تعالى - عن الاستغفار للكافرين .

وأسألك - أيضا - يا إلهى ألا تفضحنى يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون من أحد لديك ، وإنما الذى ينفع الناس يوم لقائك هو إيمانهم وعملهم الصالح .

والتأمل فى هذه الدعوات يراها تمثل أسمى ألوان الأدب مع الله - تعالى - ، والطمع فى ثوابه ، والخوف من عقابه .

وفى سورة الصافات نراه بعد أن نجاه الله - تعالى - من مكر أعدائه ، وحول النار التى ألقوه فيها إلى برد وسلام ، يجأر إليه وحده - سبحانه - بالدعاء أن يرزقه الذرية الصالحة ، فيجيب الله - تعالى - دعاءه .

ويحكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . ﴾

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به على الكبر هو إسماعيل - عليه السلام - وهكذا نرى نماذج من الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه ، وفيها ما فيها من العظات والعبر لقوم يعقلون .

والعاقل من الناس هو الذى يقتدى بإبراهيم - عليه السلام - فيكثر من الدعاء بلسان صادق ، وبقلب سليم فالدعاء هو العبادة - كما جاء فى الحديث الشريف .

(و) الدعوة إلى التأسى به :

وردت آيات كثيرة في القرآن ، تدعو المؤمنين إلى التأسى والافتداء بإبراهيم - عليه السلام - ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة الممتحنة :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ  
مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ كُفْرًا بَكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى  
تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدِيثِهِ إِنَّا قَوْلٌ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ  
وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبِّ تَوَكَّلْ عَلَيْنَا وَآلِئِكَ أَنْبَأْنَا  
وَالَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٥﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رَنَا رَبَّنَا  
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٦﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ  
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٢٧﴾

والتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها قد جاءت بعد نهى المؤمنين في مطلع السورة عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء ، فقد قال - تعالى - في مطلع سورة الممتحنة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ . . . ﴾ .

ثم جاءت هذه الآيات لتؤكد هذا المعنى ، عن طريق دعوة المؤمنين في كل زمان ومكان أن يقتدوا بأبيهم إبراهيم وبمن آمن معه في مقاطعة أعداء الله ، الذين أظهروا لهم العداوة واستعملوا كل وسيلة لإلحاق الضرر بهم وبدينهم .

أى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة في إبراهيم وفي الذين آمنوا معه ، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين بشجاعة وقوة : إنا براء منكم ومن أصنامكم التي تعبدونها من دون الله - تعالى - ، وقد كفرنا بكم وبالهتكم ، وسنستمر على ذلك ، وسنبقى على عداوتكم وكرهيتكم حتى تتركوا الكفر وتؤمنوا بالله - تعالى - وحده .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنون معه ، قد أعلنوا بكل صراحة وشجاعة ، براءتهم من المشركين ، واحتقارهم لألهتهم ، بل إن إبراهيم - عليه السلام - لم يكتف بهذه العداوة ، وإنما حطم تلك الآلهة إلا كبيرا لهم . .

وقوله - تعالى - : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ كلام معترض بين الأقوال التي حكاها عن إبراهيم والذين آمنوا معه ، والاستثناء يترجح أنه منقطع ، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ليس من جنس الكلام السابق ، الذي تبرأ فيه هو ومن معه بما عليه أقوامهم الكافرون .

أى : اقتدوا - أيها المؤمنون - بأبيكم إبراهيم وبالذين آمنوا معه فى براءتهم من الشرك ومن المشركين ، ولكن لا تقتدوا به فى استغفاره لأبيه الكافر ، لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وامتنع عن الاستغفار له ، وفوض أمره إلى الله تعالى وحده .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من الدعوات الخاشعات التى توجه بها إبراهيم إلى ربه فقال : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

أى : يا ربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا ، وإليك وحدك قبول توبتنا ، وإليك - لا إلى أحد سواك - مرجعنا ومصيرنا .

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ، والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون ، أى المعذب من فتن فلان الفتنة إذا أذابها .

أى : يا ربنا لا تجعلنا مفتونين ومعذبين على أيدي هؤلاء الكافرين ، بأن تسلطهم علينا فينزلوا بنا الضرر والأذى ، بل انصرونا عليهم ، واجعل كلمتنا هى العليا وكلمتهم هى السفلى .

ويصح أن يكون المراد بالفتنة هنا : اضطراب أحوال المسلمين ، وعدم صلاحيتهم لأن يكونوا قدوة لغيرهم فى الخير والبر والإصلاح ، فيكون المعنى :

يا ربنا لا تجعل أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا سيئة ، فيترتب على ذلك أن ينفر غيرنا منا ومن ديننا ، بحجة أننا لو كنا على الحق ، لما كان حالنا بهذا السوء والاضطراب والتمزق والضعف ، بل اجعلنا يا ربنا من أهل الإحسان والصلاح فى كل شئوننا ، حتى يقتدى بنا غيرنا من الكافرين فى تلك الصفات الحميدة ، التى من مظاهرها الإخلاص ، والصدق ، والعزة ، والقوة ، والاتحاد ، والتقدم فى كل جوانب الخير والرقى .

كما نسألك يا ربنا أن تغفر لنا ذنوبنا ، وأن تكفر عنا سيئاتنا ، إنك أنت العزيز الذى لا يغلب ، الحكيم فى كل تصرفاتك وقضائك .

ثم أكد - سبحانه - للمؤمنين وجوب الاقتداء بإبراهيم والذين آمنوا معه في صدق يقينهم وثباتهم وشجاعتهم فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

أى : والله لقد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وقدوة طيبة ، فى أبيكم إبراهيم وفيمن آمن معه ، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله ورضاه ، ومن كان يرجو ثوابه وجزاءه الطيب ، ومن يعرض عن هذا الاقتداء والتأسى ، فوبال إعراضه عليه وحده ، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن جميع خلقه ، الحميد لمن يمتثل أمره .

وهكذا نجد أن هذه الآيات الكريمة قد شهدت لإبراهيم - عليه السلام - ولمن آمن معه ، بأنهم جديرون بالاقتداء بهم فى قوة إيمانهم ، وفى غيرتهم على دينهم ، وفى حبهم لعقيدتهم ، وفى كراهيتهم للشرك والمشركين .

(ز) ذكأؤه وفطنته :

وهب الله - تعالى - نبيه إبراهيم - عليه السلام - كما وهب غيره من الأنبياء ، العقل الراجح ، والذهن الثاقب ، والبصيرة المستنيرة ، والحجة الدامغة التى يكر بها على باطل المبطلين فإذا هو زاهق .

ويتجلى ذكاء إبراهيم - عليه السلام - وفطنته ، فى كل مواقفه مع قومه وهو يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، وينهاهم عن عبادة الأصنام ، إلا أن أعظم هذه المواقف فى الدلالة على حضور بديهته ، وفرط ذكائه ، وقوة حجته ، ذلك الموقف الذى حكاه القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حكّت لنا لونا من الخصامة والمجادلة التى دارت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين ذلك الجبار المغرور بملكه وسلطانه .

إن إبراهيم - عليه السلام - يدعو إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ويبرهن له على صحة ذلك بأن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يملك الإحياء والإماتة ، فيقول له : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، أى : ربى هو الذى ينشئ الحياة ويوجد لها ، ويميت الأرواح

وفقدتها حياتها ، وأنت وغيرك تشاهدون ذلك مشاهدة لا ينكرها عاقل ، ولكن ذلك الملك الجاحد ، لم يقتنع بهذا القول مع وضوحه وصدقته ، بل رد على إبراهيم بتطاول وغرور فقال : ﴿ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ .

أى : قال الطاغية لإبراهيم فى صلف واستعلاء : أنا - أيضا - أحيى وأميت ، بأن أترك المحكوم عليه بالقتل ، وأقتل البرىء .

وهنا نجد إبراهيم - عليه السلام - لا يريد أن يدخل مع هذا الطاغية فى حوار عقيم ، بل قال له بسرعة خاطفة ، وبكلمة حاسمة تدل على ذكائه وثباته وفطنته : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ .

فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الناصعة ، والضربة القاصمة التى وجهها إبراهيم إلى ذلك الملك الجبار؟ كانت النتيجة كما نطق القرآن الكريم فى قوله - تعالى - : ﴿ فَبِئْسَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ، أى فغلب وقهر وتحير وانقطع عن حجاجه ذلك الملك الكافر .

وهكذا نرى ذكاء إبراهيم وفطنته فى هذه المحاوراة التى حكاها القرآن الكريم ، وذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(ح) كرمه وسخاؤه :

صفة الكرم والسخاء ، من الصفات التى حكاها القرآن الكريم عن إبراهيم - عليه السلام - فى مواطن كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىْ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ [هود : ٦٩]

أى : ولقد جاءت ملائكتنا بالبشارة السارة لنبينا إبراهيم ، وهى إخباره بمولد غلام له هو إسحاق - عليه السلام - فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عن إكرامهم ، مع عدم معرفته بهم وبالشىء الذى جاءوا من أجله ، بل سارع إلى أهله فجاءهم بعجل صغير من البقر ، مشوى على الحجارة المحماة فى باطن الأرض .

ولاشك أن فعله هذا يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة تعجيل قرى الضيف .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الذاريات - الآيات : ٢٤ : ٢٩ :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)  
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ  
فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿ (٢٩) [الذاريات]

أى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - نبأ الضيوف الذين جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام - فأكرمهم غاية الإكرام؟ إننا فيما أنزلنا عليك من قرآن نقص عليك نبأهم بالحق ، لقد دخلوا عليه فقالوا له على سبيل التحية : نسلم عليك سلاما ، فرد عليهم بتحية خير من تحيتهم ، حيث قال لهم بما يدل على الدوام والثبات : عليكم منى السلام ، مع أنى لا أعرفكم .

وفى سرعة وبدون إبطاء ، ذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه ، فجاء إليهم بعجل ممتلئ لحما وشحما ، فقربه بين أيديهم ، وحضهم على الأكل منه ، فلما رآهم لا يأكلون شعر بالخوف منهم ، فطمأنوه وقالوا له : لا تخف وبشروه بغلام كثير العلم ، وهو إسحاق - عليه السلام .-

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإن إبراهيم جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام ، بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما عنده وهو عجل سمين مشوى ، وقربه بين أيديهم ، وقال لهم بكل أدب وتلطف وحسن عرض : ألا تأكلون من طعامى .

والحق إن إبراهيم - عليه السلام - كان مثالا رائعا للسخاء الجم ، وللكرم العظيم وما أوحج المسلمين إلى التخلق بهذا الخلق السامى .

(ط) ولكن ليطمئن قلبى :

من الفضائل التى منحها الله - تعالى - لرسوله إبراهيم - عليه السلام - : إلهامه الرشد ، والحرص على ما يزيد إيمانا على إيمانه ، و يقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته .-

ونرى ذلك واضحا فيما حكاه القرآن عنه فى قوله - تعالى - فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

وقد ذكر المفسرون فى سبب سؤال إبراهيم أقوالا منها : أنه قال للنمرود : ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ورد عليه النمرود بقوله : ﴿ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ، أراد إبراهيم - عليه السلام - أن يترقى فىرى كيف يحيى الله الموتى .

وفى قوله: ﴿ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ تصريح بكمال أدبه مع خالقه ، فهو قبل أن يتضرع إليه بالدعاء يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحققة ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، مع عدم شكه إطلاقاً فى قدرة الله - تعالى - ، أو فى صحة البعث ، وكيف يشك وهو رسول من أولى العزم من الرسل؟ وإنما هو يريد الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين ، ومن درجة البرهان إلى درجة العيان ، فإن المعاينة والمشاهدة تغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن قال إبراهيم لربه : يا رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى بعد موتهم؟ فأجابه ربه بقوله : أتقول ذلك يا إبراهيم على سبيل الشك فى قدرتى؟ فبادر إبراهيم بنفى الشك فى قدرة الله - تعالى - عن قلبه وأجاب بقوله : حاشاى يا إلهى أن أفعل ذلك ، فأنا مؤمن أرسخ الإيمان بقدرتك على كل شىء ، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد فؤادى سكونا ، ونفسى اطمئنانا ، وقلوبى إيماناً ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكونا أعمق ، واطمئناناً أشد .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شاكاً فى إحياء الله الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا جاء فى الحديث : «ليس الخبر كالمعاينة» .

وأما قول الرسول ﷺ : «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه : أنه لو كان شاكاً لكننا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لانشك ، فإبراهيم أحرى بالأشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم - عليه السلام - . (١)

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما رد به - سبحانه - على عبده إبراهيم فقال : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا . . ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لنبيه إبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه ، فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن ، ثم اذبحهن وقسمهن أجزاء ، ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءاً من كل طائر من تلك الطيور ، ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك .

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره جـ ٧ ص ٤٤ : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن ، وأن إبراهيم قطع أعضاء هذه الطيور ولحومها وريشها وخلط بعضها

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٩٧ .

ببعض ، وفعل كما أمره الله ثم قال لهن تعالين بإذن الله ، فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله ..

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقَت أبلغ الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى حرص إبراهيم - عليه السلام - على أن يزداد إيمانا على إيمانه ، ويقينا على يقينه .

(ى) تكليفه ببناء المسجد الحرام :

لقد أخبرنا الله - تعالى - أن المسجد الحرام هو أول بيت وضعه - سبحانه - فى الأرض ليكون مكانا لعبادته ، قال - تعالى - فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

أى : إن أول بيت وضعه الله - تعالى - فى الأرض ليكون متعبدا لهم ، هو البيت الحرام الذى بمكة ، والذى من صفاته : أنه كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره ، أو اعتكف فيه ، أو طاف به .

وأنه بذاته مصدر هداية للعالمين ، لأنه قبلتهم ومتعبدهم .. وأنه مشتمل على علامات واضحات تدل على شرفه وعلو مكانته ، ومن هذه العلامات : وجود مقام إبراهيم بداخله ، أى : وجود المكان الذى كان يقوم فيه إبراهيم تجاه الكعبة لعبادة الله - تعالى - ولإتمام بنائها . وأيضا من هذه العلامات الدالة على شرف هذا البيت : أن من دخله كان آمنا ، أى : أن من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل .

كذلك مما يدل على شرف هذا البيت ، وسمو منزلته : أن الله - تعالى - جعل الحج إليه فرضا على كل مستطيع لذلك مرة واحدة فى العمر ، ومن قصر فى أداء هذه الفريضة مع قدرته على أدائها ، فإن الله غنى عنه وعن الناس أجمعين .

هذا جانب من حديث القرآن عن مكانة البيت الحرام ، وعن شرفه ، وعن سمو منزلته ، ولاشك أن بيتا هذه مكانته لا يعهد الله فى بنائه إلا من رضى عنهم ورضوا عنه .

وقد أخبرنا - سبحانه - أنه عهد فى بنائه إلى نبيين كريمين هما : إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ . [ البقرة ]

وقال - سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ . [ البقرة ]

كما أخبرنا - سبحانه - فى آيات أخرى ، بأن الله - تعالى - قد أرشد نبيه إبراهيم - عليه السلام - إلى مكان البيت الحرام ، كما أمره بتطهيره من كل رجس ، وبدعوة الناس إلى حج هذا البيت .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ... ﴾ . [ الحج ]

ومن هذه الآيات وغيرها نرى أن الله - تعالى - قد أرشد إبراهيم إلى مكان بيته الحرام ، وأمره ببنائه وتطهيره وتهيته لمن يطوفون به ، وللمعتكفين فيه ، والمتقربين إلى الله - تعالى - بدخله .

كما أمره بدعوة الناس إلى حج هذا البيت ، فإنهم عن طريق حجه سينالون الخير الجزيل ، والأجر الوفير ، والمنافع التى لا يعرف مقدارها أحد سوى الله - عز وجل - . ولا شك أن تكليف سيدنا إبراهيم بكل ذلك ، شرف لا يعادله شرف ، وفضل لا يضارعه فضل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .  
(ك) منهاجه فى دعوته :

استعمل إبراهيم - عليه السلام - فى دعوته الناس إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، أنجح الأساليب ، وأحكم الطرق ، وخير الوسائل التى تهدى إلى الرشد .

كما استعمل مع كل مخاطب الخطاب الذى يقتضيه حاله ، والمنطق الحكيم الذى يوصل إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .

فأنت تراه وهو يدعو أباه إلى وحدانية الله - تعالى - ، يخاطبه بأرق عبارة ، وبألطف إشارة ، وبأبلغ بيان فيقول له كما جاء فى سورة «مرم» :

﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ  
 إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ  
 فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : انظر كيف  
 رتب إبراهيم الكلام مع أبيه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعمال  
 المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن .  
 وذلك أنه طلب منه - أولا - العلة في خطئه ، طلب منبه على تمارديه ، موقظ لإفراطه  
 وتناهيه ، حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور .

ثم ثنى بدعوته إلى الحق ، مترفقا به متلطفا ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه  
 بالعلم الفائق ، ولكنه قال له : إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك .  
 ثم ثلث بتبسيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل .  
 ثم ربح بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من الوبال .

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب  
 لاصق به ، ولكنه قال له : إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن . .

وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : «يا أبت ، توسلا واستعطافا» . (١)

وهكذا نرى أن إبراهيم - عليه السلام - لم تمنعه الأبوة من أن ينكر على أبيه ما هو فيه من  
 باطل ، ليعلمنا أنه ليس من الأدب مع الآباء تركهم وماهم فيه من ضلال ، ولئن كان هذا  
 الإنكار يغضب الآباء ، إلا أنه محل رضا الخالق - عز وجل - ، وحقه - سبحانه - فوق حقوق  
 الآباء ، وإرشاد الآباء والأقارب إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ، مقدم على إرشاد غيرهم .

فإذا ما انتقلنا إلى جدال إبراهيم - عليه السلام - للطاغية الذى آتاه الله الملك فبطر  
 واغتر وتكبر وجحد الحق ، نراه يجادله بأسلوب آخر ، بأسلوب يحمل الحججة القاصمة ،  
 التى تجعل ذلك الطاغية يقف حائرا مهوتا ، فقد قذفه إبراهيم - عليه السلام - بالحجة  
 التى لا تقبل الجدل ، ولا تتحمل التأويل ، حيث قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ  
 الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . . ﴾ .

وبذلك أثبت إبراهيم المقدرة العظيمة فى إفحام خصمه ، وفى بيان أن المستحق للعبادة  
 والطاعة ، إنما هو الله رب العالمين .

(١) تفسير الكشاف : ج ٣ ص ١٩ .

أما منهجه في دعوة قومه إلى عبادة الله - تعالى - ، وإلى نبذ عبادة الأصنام ، فقد سلك فيه طرقا شتى :

منها : استدراجهم إلى الإقرار بوحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له ، عن طريق المشاهدة والمعاناة ، فقد قال لقومه بأسلوب التهكم عندما جن عليه الليل ورأى نجما ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ ، فلما غاب ذلك النجم قال : ﴿ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ﴾ ، أى : لا أحب أن أعبد إلها يظهر حيناً ويغيب حيناً ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ أى : قال مسمعا قومه : لئن لم يهدنى ربي إلى الحق ، لأكونن من القوم الضالين الذين يعبدون ما يغير بعض الوقت ، ويغيب البعض الآخر .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . [ الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ ] .

وهكذا نرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه طريق الترقى والمشاهدة ، فى الدلالة على وحدانية الله ، وعلى المستحق للعبادة ، لأنه أثبت لهم أن تلك الكواكب التى كان قومه يعظمونها ، إلى جانب عبادتهم للأصنام ، لا تصلح أن تكون إلها ، لأن هذه الكواكب تغيب وتظهر ، ولأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها ما يؤذيها ، ولذا قال لهم : إنى توجهت فى عبادتى إلى الله - تعالى - وحده ، وما أنا من الذين يشركون معه آلهة أخرى فى العبادة ، ومنها : استخفافه بتلك الأصنام ، واحتقاره لها ولن يقيم وزنا لصورتها أو هيئتها أو ذاتها ، ونرى ذلك فى آيات كثيرة .

ففى سورة الأنبياء نراه يقول لأبيه وقومه على سبيل الاستهزاء : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ثم يقول لهم : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ثم يدعوهم إلى نبذها ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده فيقول لهم : ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، وفى سورة الشعراء يقول لهم على سبيل التهكم بتلك الأصنام : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ؟ ﴾ ثم يعلن عداوته لتلك الأصنام فيقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٧) الذى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ .. ﴾ .

وفى سورة الصافات نراه يصف آلهتهم بأنها إفك وكذب ، وأن عبادتها اعتقاد باطل ، وتصرف أحمق يدل على الجهل ، والغباء فيقول لهم : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَتُنْفَكُوا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ومنها : إعلان براءته وعداوته السافرة لقومه ولعبوداتهم الفاسدة ، وأنه مصمم على هذه البراءة والعداوة ومستمر عليها إلى أن يقلعوا عن عبادتهم لتلك الأصنام ، ويعودوا إلى عبادة خالقهم ورازقهم فيقول لهم :

﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ، ٢٧]

ويقول لهم فى موطن آخر : ﴿ إِنَّا بَرَاءٌ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ .. ﴾ [المتحنة : ٤]

ثم نراه أخيرا لا يكتفى بالاستدراج والمشاهدة ، ولا بالتهكم من الأصنام وعابديها ، ولا بالعداوة والبراءة من الجميع ، بل يقسم - ويبر فى قسمه - بأنه سيحطم هذه الأصنام فيقول لقومه :

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٧ ، ٥٨]

وهكذا نجد إبراهيم - عليه السلام - لم يترك وسيلة يتوقع عن طريقها هداية أبيه وقومه إلا سلكها ، وبذل فى سبيل هذه الهداية كل ما يملكه من عقل راجح ، ومن منطق رصين ، ومن حجة بليغة ، ومن فطنة نادرة ، ومن شجاعة خارقة ، ومن صبر جميل .

والدعاة الراشدون هم الذين يقتدون بإبراهيم - عليه السلام - فى غيرته على دينه ، وفى حرصه على تبليغ رسالات الله دون أن يخشوا أحدا سواه ، هم الذين لا يتركون وسيلة من الوسائل الخيرة ، التى تهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم إلا اتبعوها ، لكى ينتشر الصلاح والأمان والاطمئنان بين الناس ، ولكى تسود الفضائل وتمحق الرذائل .

هم الذى يتأسون بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - فى فضائله ومناقبه ، وفى جهاده ، وصبره ، وفى حبه لدينه وعقيدته ، وفى تنقله من مكان إلى آخر من أجل إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، فقد أمرنا الله - تعالى - بذلك فى آيات كثيرة منها قوله - سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ .. ﴾ [الأنعام : ٩٠]

(ل) اعتزاله للشرك والمشركين وما ترتب على ذلك من نعم :  
 اقتضت سنة الله - تعالى - أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، قال - سبحانه - ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

ولقد وفى إبراهيم - عليه السلام - بكل ما أمره الله - تعالى - به ، أو نهاه عنه ، وجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله جهادا كبيرا ، وبلغ جميع ما كلفه - سبحانه - بتبليغه ، ولم يترك وسيلة لهداية قومه إلى الحق إلا سلكها ، فماذا كانت نتيجة كل ذلك؟  
 كانت نتيجة كل ذلك ، أن رفع الله - تعالى - درجة إبراهيم - عليه السلام - وأن رزقه الذرية الصالحة التى كان منها الأنبياء والصالحون ، وأن خلد الله - تعالى - ذكره الحسن ، وأبقى أثره الطيب ، استجابة لقوله - عليه السلام - :

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٨٤) [ الشعراء ]

أى : واجعل لى يا إلهى ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم التى ستأتى من بعدى ، وقد أجاب الله - تعالى - دعوته ، وجعل من نسله أشرف خلق الله على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم جانبا من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على عبده إبراهيم ، بسبب وفائه وإيمانه وجهاده واعتزاله للشرك والمشركين .  
 فى سورة الأنعام ، وبعد أن ساق لنا القرآن الكريم طرفا من جداله مع قومه لكى يخلصوا العبادة لخالقهم ، أتبع ذلك بجانب من نعم الله - تعالى - على إبراهيم فقال :

وَالَّذِي جَعَلْنَا لِنِهَايَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٥﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُرِّيذٍ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ ﴿٨٦﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٩﴾

قال الإمام الرازي عند تفسيره لهذه الآيات الكريمة : اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه أظهر حجة الله - تعالى - في التوحيد ونصرها ، وذب عنها ، عدّد وجوه نعمه وإحسانه عليه :

فأولها : قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ والمراد أنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيها : أنه - تعالى - خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية ، وهي قوله - سبحانه - : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ .

وثالثها : أنه جعله عزيزا في الدنيا ، وذلك لأنه - تعالى - جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته ، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور : «علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والصالحون . .» (١) .

وجمهور المفسرين على أن الضمير في قوله - تعالى - : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ . . ﴾ يعود على إبراهيم - عليه السلام - لأن الكلام في شأنه ، وفي شأن النعم التي منحها الله إياه .

أى : وجعل الله من ذرية إبراهيم - عليه السلام - هؤلاء الأنبياء الكرام ، داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا - عليهم الصلاة والسلام - .

وفي سورة «مريم» ، بعد أن حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم لأبيه ، وما رد به أبوه عليه ، نجد قوله - تعالى - حكاية عن إبراهيم :

﴿ وَأَعْتَرَلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨ - ٥٠]

أى : وقال إبراهيم لأبيه بعد أن رأى تصميمه على الكفر : إننى بجانب استغفارى لك ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادتكم للأصنام ، وارتحل إلى أرض الله الواسعة بعيدا عنكم ، فلما فعل إبراهيم ذلك : وهبنا له إسحاق ويعقوب بعد أن فارق أباه وقومه ، ليأنس بهما ، وكل واحد منهما جعلناه نبيا .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية .

(١) تفسير الفخر الرازي ج٤ ص ٨٢ .

وفى سورة الأنبياء ما يؤكد هذا المعنى ، فبعد أن قص علينا القرآن الكريم المحاورات الطويلة التى دارت بين إبراهيم وقومه ، وما أتبع ذلك من إلقاءهم به فى النار .  
بعد كل ذلك قال - سبحانه - :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [ الأنبياء : ٧١ - ٧٣ ]

أى : ونجينا إبراهيم - عليه السلام - بما أضمره له قومه من سوء ، وأخرجناه ومعه ابن أخيه لوط - عليه السلام - من أرض العراق إلى أرض الشام التى جعلناها مهبطا للوحى ، ومكانا للرسل الكرام لمدة طويلة ، ووهبنا لإبراهيم يعقوب زيادة على إسحاق ، وجميعهم من عبادنا الصالحين ، وجعلناهم أئمة فى الخير ، وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا غيرهم بفعلها ، كما أمرناهم بالمحافظة على الصلاة والزكاة ، فامتثلوا أمرنا ، وكانوا من عبادنا الذين أخلصوا لنا الطاعة والعبادة .

فالآيات الكريمة قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة والذرية الصالحة .  
وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [ العنكبوت : ٢٦ ، ٢٧ ]

أى : فأمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به من عند ربه ، وقال إبراهيم بعد أن أذاه قومه : إني مهاجر إلى الجهة التى أمرنى بالهجرة إليها ربي ، إنه هو الغالب على أمره ، الحكيم فى كل أفعاله .

وهبنا لإبراهيم بعد أن هاجر ابنه إسحاق ، كما وهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا فى ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا فى ذريته - أيضا - الكتب التى أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والإنجيل أو القرآن ، وأتيناه أجره على أعماله الصالحة فى الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة والذكر الحسن بعد وفاته ، وإنه فى الآخرة سيكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد فهذه نفحات من قصة إبراهيم - عليه السلام - كما وردت فى القرآن الكريم ، فإذا ما رجعنا إلى كتب السنة النبوية الشريفة ، وجدنا ثناء مستطابا من النبى ﷺ على أبيه

إبراهيم ، وعلى سائر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا خير البرية ، فقال ﷺ : «ذاك إبراهيم - عليه السلام -» .

وما قاله ﷺ هو لون من تواضعه ومن مديحه لأبيه إبراهيم ، وإلا فهو ﷺ أفضل الرسل ، وأفضل الخلق على الإطلاق .

وجاء في حديث الإسراء والمعراج الذى أخرجه الشيخان وغيرهما ، أن الرسول ﷺ قال فيه : «ورأيت إبراهيم ، فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم - يعنى نفسه ﷺ» .

نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

# قصة إسماعيل وإسحاق ويعقوب

(عليهم الصلاة والسلام)

١ - إن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن حديثه عن هؤلاء الأنبياء الثلاثة - إسماعيل وإسحاق ويعقوب - قد ارتبط فى معظم الأحيان بحديثه عن أبيهم إبراهيم - عليه السلام - وقد وضعنا ذلك خلال حديثنا عن قصته - عليه السلام - .

إلا أننا بجانب هذا التوضيح ، نحب أن نسوق ترجمة مختصرة ، لكل واحد من هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - وهدفنا من ذلك : الاتعاظ والتأسى بهؤلاء الأخيار ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

٢ - أما إسماعيل - عليه السلام - فقد جاء الحديث عنه فى اثنى عشر موضعاً من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]

وقوله - عز وجل - :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]

هذا . . وفى سورة «مريم» آيتان كريمتان ، ذكرتا جانباً من النعم والفضائل التى منحها الله - تعالى - لإسماعيل - عليه السلام - وهاتان الآيتان هما قوله سبحانه :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم]

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك خبر جدك إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - لكى يقتدوا به فى صفاته الجليلة ، إنه كان صادق الوعد ، ويكفى للدلالة على وفائه بعهده ، أنه وعد أباه بالصبر على ذبحه فلم يخلف وعده ، بل قال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ووصفه - سبحانه - بصدق الوعد ، وإن كان غيره من النبيين كذلك ، تشريفا وتكريما له ، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التي اكتملت شهرتها فيه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ أى : وكان من رسلنا الذين أرسلناهم لتبليغ شريعتنا ، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعلينا قدرهم .

ثم وصفه - سبحانه - بصفة كريمة ثالثة فقال : ﴿ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين ، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما ، لكى يكون هو وأهله قدوة لغيرهم فى العمل الصالح ، وكان نبينا ﷺ يفعل ذلك امتثالا لقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

وفى الحديث الشريف : «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء» .

وفى حديث آخر : «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات» .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفحات الجليلة بقوله : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أى : وكان إسماعيل - عليه السلام - عند ربه مرضى الخصال ، لاستقامته فى أقواله وأفعاله ، ولصدق وعده ، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة ولاشك أن من اجتمعت فيه هذه المناقب ، كان بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

٣ - وقد ذكر المحدثون فى كتبهم قصة زواج إبراهيم - عليه السلام - بهاجر أم إسماعيل ، ومن ذكر ذلك الإمام البخارى فى صحيحه ، فقد قال : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : «أول ما اتخذت النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطلقا لتعفى أثرها على سارة - زوجة إبراهيم - عليه السلام» .

أى : أن أول من اتخذت الحزام الذى تشد به المرأة وسطها هاجر أم إسماعيل ، وقد اتخذته لثلا تتعثر فى ثيابها ، وقد فعلت ذلك هربا من السيدة سارة التى أشارت على سيدنا إبراهيم بطردها لشدة غيرتها منها بعد أن ولدت إسماعيل ، وكانت سارة عاقرا .

قال ابن عباس : فخرج إبراهيم - عليه السلام - بهاجر وابنها إسماعيل وهى ترضعه ، وسار بهما حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء ، فيه ماء ، ثم قفى - أى : رجع إبراهيم - عليه السلام - ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب

وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا .

ثم رجعت فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية - أى : أعلى مكة - حيث لا تراه ، استقبل البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه وهو يلتوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا ، أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف ذراعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، وأتت المروة فقامت عليها ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : «فلذلك سعى الناس بينهما» .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فظهر الماء ، فجعلت تحوضه - أى : تجعله كالحوض - فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

قال ابن عباس : وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من قبيلة جرهم ، فنزلوا أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا - أى : يتردد على الماء ويحوم حوله - فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، فأرسلوا بعضهم فإذا هم بالماء ، فجاءوا إليه فوجدوا أم إسماعيل عنده ، فقالوا لها : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ولكن لاحق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، وشب إسماعيل وتعلم العربية منهم ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل - قيل : كان عمرها تسعين سنة ودفنت بالحجر - ثم جاء إبراهيم إلى مكة فالتقى بابنه إسماعيل - بعد فراق بينهما لا يعلمه إلا الله - فقال له : يا إسماعيل : إن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى» (١) .

قال الإمام ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» ج ١ ص ٢٠٩ : وكان إسماعيل - عليه

(١) راجع صحيح البخارى : ج ٣ ص ٤٣٩ . كتاب الحج .

السلام - رسولا إلى أهل تلك الناحية وما والاها ، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، ومات إسماعيل - عليه السلام - بعد أن بلغ من العمر مائة وسبعا وثلاثين سنة ، ودفن بالحجر مع أمه هاجر .

وقد ذكر علماء النسب وأيام الناس : أن إسماعيل - عليه السلام - أول من ركب الخيل ، وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن .

٤ - وأما حديث القرآن عن إسحاق - عليه السلام - فقد جاء في سبعة عشر موضعا وكان الحديث عنه مرتبًا - في الأعم الأغلب - بالحديث عن أبيه إبراهيم - عليه السلام - .

قال تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ  
وَالْأَسْبَاطِ... ﴾ [البقرة: ١٣٦]

وقال - سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا... ﴾ [الأنعام: ٨٤]

وقال - عز وجل - :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ... ﴾ [إبراهيم: ٣٩]

وقد جاءت بشارة إبراهيم - عليه السلام - بابنه إسحاق في آيات متعددة منها ، قوله - تعالى - : ﴿ وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصفافات: ١١٢ ، ١١٣]

أى : ومن مظاهر فضلنا على نبينا إبراهيم - عليه السلام - أننا بشرناه بولد آخر بعد إسماعيل ، ألا وهو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا ، وأفضنا على إبراهيم ، وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء من نسلهما ، ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن فى قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى ، ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال الإمام ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» ج١ ص ١٧٥ ما ملخصه : وقد كانت البشارة لإبراهيم وزوجه سارة بإسحاق كانت من الملائكة ، لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى قرى قوم لوط ، ليدمروا عليهم قراهم بسبب كفرهم وفجورهم .

وقد حكى القرآن ذلك فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

[هود]

ثم قال الإمام ابن كثير: «وقد ولد إسحاق ولأبيه إبراهيم مائة سنة ، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة ، وكان عمر أمه «سارة» حين بشرت بابنها إسحاق تسعين سنة» .

وكانت وفاة إسحاق بقرية «حبرون» التى فى أرض كنعان ، حيث كان يسكن إبراهيم - عليه السلام - ودفن إسحاق مع أبيه إبراهيم ببلدة الخليل بفلسطين وكان عمره عند وفاته مائة وثمانين سنة .

٥ - وأما حديث القرآن عن يعقوب - عليه السلام - فقد تكرر بهذا الاسم ست عشرة مرة ، منها قوله - سبحانه - :

﴿ وَوَصَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥]

ويعقوب - عليه السلام - أطلق عليه القرآن - أيضا - لفظ إسرائيل ، وقد جاء ذلك مرتين ، إحداهما فى قوله - تعالى - :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣]

والثانية فى قوله - سبحانه - : ﴿ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ [مريم : ٥٨]

ولفظ إسرائيل معناه : صفة الله ، أو عبد الله .

أما خطاب الله تعالى لذريته ، مع نسبتهم إليه ، فقد جاء فى أكثر من أربعين موضعا ، منها قوله - تعالى - : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠]

وقوله - سبحانه - :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢]

وقوله - عز وجل - :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَرَرْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَ وَالسَّلْوَى (٨٠) ﴾ [طه : ٨٠]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . ﴾ [الصف : ٦]

٦ - قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وذكر أهل الكتاب أن إسحاق - عليه السلام - تزوج وسنه أربعون سنة ، وكان ذلك فى حياة أبيه إبراهيم - عليه السلام - فأنجب إسحاق من زوجته توأمين هما : العيص ويعقوب ، وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل ، ولما بلغ يعقوب سن الرشد تزوج وأنجب من الذكور اثنى عشر ولدا ، وذلك أنه أنجب من زوجته «ليا» ستة أولاد هم : رءوبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، وإسماخر ، وزابلون .

وأنجب من زوجته «راحيل» اثنتين هما : يوسف وبنيامين .

وأنجب من زوجته «زلفا» اثنين هما جاد وأشير

وأنجب من زوجته «بلها» اثنين هما : دان ونفتالى .

٧ - وقد قص علينا القرآن الكريم أن يعقوب وأولاده ، استدعاهم يوسف - عليه السلام - للحضور إلى مصر فتركوا فلسطين ولبوا دعوته وحضروا إلى مصر .

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا - أَى : يعقوب وأولاده - عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ . [ يوسف ]

٨ - وقد ذكروا أن يعقوب عندما دخل مصر كان عمره مائة وثلاثين سنة ، وأقام بمصر سبع عشرة سنة .

ثم لحق بربه وسنه مائة وسبعة وأربعون عاما ، فاستأذن يوسف - عليه السلام - ملك مصر فى الخروج مع أبيه يعقوب ليدفنه عند أهله - بفلسطين - فأذن له ، وتم دفن يعقوب - عليه السلام - ببلدة «حبرون» - المسماة بالخليل الآن - بجوار جده إبراهيم وأبيه إسحاق - عليهما السلام - (راجع البداية والنهاية ج١ ص ٢٣٨) .

هذه لمحة عن حياة ثلاثة من أنبياء الله الصالحين ، وهم إسماعيل وإسحاق ، ويعقوب - عليهم السلام - قصدنا منها العبرة والعظة ، وضررنا صفحا عن كثير من الأقوال التى لا نرى فائدة من وراء ذكرها .

# قصة يوسف

- عليه السلام -

١ - قصة يوسف - عليه السلام - وردت في القرآن الكريم في سورة كاملة تسمى سورة «يوسف»، وكان نزول هذه السورة على النبي ﷺ قبل هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، أي: أنها من السور المكية الخالصة.

وقد ورد في سبب نزولها روايات متعددة منها: ما روى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن على النبي ﷺ فتلاه على أصحابه زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فنزلت سورة «يوسف»، وعدد آياتها: إحدى عشرة ومائة آية.

ويغلب على الظن أن نزولها على النبي ﷺ كان في الفترة التي أعقبت حادث الإسراء والمعراج، والتي اشتد فيها الأذى الذي أنزله المشركون بالنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته السيدة خديجة - رضی الله عنها - .

فكان نزول هذه السورة فيه مافيه من التسلية للنبي ﷺ عما أصابه من قومه، حيث قصت عليه مافعله إخوة يوسف به، وما تعرض له هذا النبي الكريم من كيد وحقد، ومن أذى واضطهاد ومن دسائس ومؤامرات.

٢ - والذي يتدبر سورة «يوسف» يراها قد قصت علينا قصته مع إخوته ومع غيرهم بأسلوب مشوق حكيم، يهدى النفوس، ويشرح الصدور، ويكشف عن الخفايا التي لا يعلمها إلا الله - تعالى - ، ويصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا.

كما يراها قد ساقته ما ساقته من حكم وعظمت، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم، وجمال العرض، والدقة المتناهية في إبراز تسلسل الأحداث.

لقد تحدثت السورة الكريمة في مطلعها عن رؤيا يوسف، وعن نصيحة أبيه له بعد أن قصها عليه.

ثم قصت علينا ما دار بين إخوة يوسف بشأنه من مكر وحسد، وإجماعهم على أن يلقوا به في الجب، وتنفيذهم لذلك بعد خديعتهم لأبيهم.

ثم حدثتنا عن انتشارال السيارة ليوسف من الجب، وعن بيعهم له بثمن بخس، وعن وصية من اشتراه لامرأته بأن تكرم مشواه، وعن محنته مع تلك المرأة التي راودته عن نفسه.

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعمما فعلته مع من أشاع هذا الخبر ، وعن لجوء يوسف إلى ربه يسأله النجاة ، من كيد هؤلاء النسوة .

ثم حدثتنا بعد ذلك عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أن السجن لم يمنعه من دعوة رفاقه في السجن إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

ثم حكى لنا تلك الرؤيا المفزعة التي رآها الملك ، وكيف أن يوسف - عليه السلام - قد فسرها له تفسيراً حكيماً صحيحاً أدى تنفيذه إلى مافيه الخير والصلاح .

ثم فصلت السورة حديثها عن اللقاءات التي تمت بين يوسف وإخوته بعد فراق طويل ، وحكى ما دار في هذه اللقاءات من محاورات ، ومجادلات ، انتهت بلقاء يوسف مع أبيه وإخوته ، وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

٣ - هذا عرض مجمل للأحداث الكلية التي اشتملت عليها سورة «يوسف» - عليه السلام - ولنبدأ السير مع السورة الكريمة من أولها ، لنرى ما اشتملت عليه من حكم حكيمة ، ومن تشريعات قوية ، ومن قصص يشهد بأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

لقد افتتحت السورة الكريمة بقوله - سبحانه - :

الرَّتِّلَاءِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي كُنتُ نَارًا عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نَهْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿الر﴾ من الحروف المقطعة التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم ، وأقرب الأقوال إلى الصواب فيها : أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا سورة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خائبين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله تعالى .

وقوله : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى : تلك الآيات التي نتلوها عليك - يا محمد - في هذه السورة وغيرها ، هي آيات الكتاب الواضح إعجازه ، الظاهر أمره .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى ميين فقال : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

أى : إنا أنزلنا هذا القرآن الكريم بلسان عربى واضح ، على قلب نبينا محمد ﷺ لعلكم - أيها المكلفون بالإيمان به - تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهدآياته .

٥ - ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها ، فقال : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ .

والقصص : جمع قصة ، وهى الأخبار التي يرد بعضها فى أعقاب بعض ، ويتبع بعضها بعضا ، أى : نحن - أيها الرسول الكريم - نقص عليك أحسن أنواع البيان ، وأوفاه بالعرض الذى سيق من أجله ، بسبب ما أوحيناه إليك من هذا القرآن ، والحال أنك كنت قبل أن نزل عليك هذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .

قال - تعالى - : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩]

وإنما كان القرآن أحسن القصص ، لاشتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب وأجمعها للحكم والعبر والعظات .

٦ - ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثال لأحسن القصص ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

ويوسف : واحد من أنبياء الله الصالحين ، وأبوه يعقوب ، وهو كذلك من الأنبياء ، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « إن الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فهو نبي وأبوه نبي ، وجدته نبي ، وجد أبيه نبي - عليهم الصلاة والسلام » .

والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قال يوسف لأبيه يعقوب : يا أبت إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا تسجد لى ، ورأيت كذلك الشمس والقمر ساجدين لى .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .

روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك وقتادة ، وسفيان الثورى ، وعبدالرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسير هذا المنام بعد أربعين سنة ، وقيل : بعد ثمانين ، وذلك حين رفع أبويه على العرش - وهو سريره - وإخوته بين يديه ، وخرّوا له سجدا ، وقال : « يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » .

٧ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

والكيد هو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار بالغير ، يقال : كاد فلان فلانا فهو يكيد كيدا ، إذا احتال لإهلاكه .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بشفقة ورحمة بعد أن سمع منه ما رآه فى منامه : يا بنى لا تخبر إخوتك بما رأيت فى منامك ، فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه .

وإنما قال له ذلك لأن هذه الرؤيا ، تدل على أن الله - تعالى - سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما ، ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من كثير

من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ، كما خاف من عدوانهم عليه .

وجملة : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته .

٨ - أى : لاتخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس ، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :

أنه يجوز للإنسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .

وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذى زكت نفوسهم ، فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضل الرؤيا الصالحة ما أخرجه الإمام البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

وفى حديث آخر : «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» .

وفى حديث ثالث : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، يراها أو ترى له» .

كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء .

قال الألوسى : والظاهر أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، وهذا ما عليه الأكثر من سلفا وخلفا . .

أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم ، وأما الخلف : فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأس من قال بذلك الإمام ابن تيمية ، فى مؤلف خاص له بهذه المسألة قال فيه : الذى يدل عليه القران واللغة والاعتبار : «أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس فى القران ولا فى السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء» . (١)

(١) تفسير الألوسى : ج٢ ص ١٦٤ .

ثم حكى - سبحانه - ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ  
يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا  
عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يَجْتَبِيكَ ﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من  
جبيت الشيء إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .

وتأويل الأحاديث : تفسيرها تفسيراً صحيحاً .

أى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه - سبحانه - سيجتبيك  
ويختارك لأمر عظام فى مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحس ، ونفاذ البصيرة ،  
ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكاً سليماً ، وتعتبر الرؤى تعبيراً سليماً صادقاً .

ويتم نعمته عليك بالنبوة والرسالة ، والملك والرياسة ، وعلى آل يعقوب بالنعمة الوفيرة ،  
كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل هذا الوقت الذى رأيت فيه هذه الرؤيا  
المباركة ، إن ربك عليم بكل شىء ، حكيم فى كل تصرفاته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وسأقت بأسلوب  
حكيم ، ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بعد أن قص عليه ما رآه فى  
المنام .

## ٢. كيد إخوة يوسف له.. وحقدهم عليه

٩ - بعد أن بين - سبحانه - في الآيات السابقة ما قاله يعقوب لابنه يوسف ، أتبع ذلك ببيان حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم في شأنه ، وحالتهم وهم ينفذون مؤامراتهم ، وحالتهم بعد أن نفذوها وعادوا إلى أبيهم ليلا ، يتباكون ، فقال - تعالى - :

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ  
لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ  
عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَطْرَحُوهُ  
أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾  
قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ  
بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا  
عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنُصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ  
وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَخَشِيبٌ أَنَّ نَذِهُبُوا بِهِ وَلَخَافُ أَنْ  
يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْسَ أَكْلَهُ الذِّئْبُ  
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا  
أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا  
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

١٠ - وقوله - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته ، والآيات : جمع آية والمراد به العبر والعظات والدلائل على قدرة الله - تعالى - .

أى : لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها ، من تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها .

١١ - وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم قبل أن ينفذوا جريمتهم ، والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه وهو « بنيامين » ، وكان أصغر من يوسف ، أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

والعصبة : كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده ، أو لأن الأمور تعصب بهم ، أى : تشتد وتقوى .

والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء فى موضعها الصحيح ، وليس المراد به : الضلال فى العقيدة أو الدين .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكر به : ليوسف وأخوه بنيامين ، أحب إلى أبينا منا ، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء ، الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وشقيقه بنيامين ، إن أبانا بفعله هذا لفى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء الأقوياء ، النافعين له ، القادرين على خدمته ، وهم يقصدون بقولهم هذا درء الخطأ عن أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف ، واللقاء هذا الخطأ على أبيهم الذى فرق بينهم - فى زعمهم - فى المعاملة .

وهذا الحكم منهم على أبيهم ليس فى محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف عليهم ما ليس عندهم .

قال الألوسى ما ملخصه : « يروى أن يعقوب - عليه السلام - كان يوسف أحب إليه من بقية إخوته ، لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلما رأى الرؤيا تضاعفت له المحبة ، ولا لوم

على الوالد فى تفضيله بعض أولاده على بعض فى المحبة ، لأن المحبة ليست بما يدخل تحت وسع البشر .» (١)

١٢ - ثم أخبر - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ .

ولفظ ﴿ اطْرَحُوهُ ﴾ مأخوذ من الطرح ، ومعناه : رمى الشئ والقائه بعيدا .

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولى بذلك منهما ، وما دام هو مصرا على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة ، مجهولة حتى يموت فيها غريبا ، فإن فعلتم ذلك ، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارك فيها أحد ، فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه إليكم وحدكم ، بعد أن كان توجهه إلى يوسف وأخيه .

وستكونون بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه فى أرض بعيدة ، قوما صالحين فى دينكم ، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك ، فيقبل الله توبتكم ، وصالحين فى دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التى كان يثيرها وجود يوسف بينكم .

وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمر ، وتحاول التخلص من يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر فى صورة الكبائر ، والكبائر فى صورة الصغائر ، فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم يستحق إزهاق روح الأخ ، وفى الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شئ هين ، فى الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم ، وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم .

١٣ - ثم بين - سبحانه - ما اقترحه أحدهم ، وما استقر عليه رأيهم ، فقال :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

والجب : الحفرة العميقة فى الأرض ، وغيابة الجب : أى : ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يراه أحد .

والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون فى السير لى يصلوا إلى مقصودهم .

(١) تفسير الألوسى ج١٢ ص ١٧١ .

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف ، أفزعه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيهم الصغير : لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلاً من ذلك ، ألقوه فى قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخلو لكم وجه أبيكم .

ولم يعين القرآن اسم هذا القائل أو صفته ، لأنه لا يتعلق بذكر ذلك غرض ، وقد رجح بعض المفسرين ، أن المراد بهذا القائل : «يهودا» .

والفائدة فى وصفه بأنه منهم : الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو إلقائه فى أرض بعيدة حتى يدركه الموت .

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ، محذوف لدلالة قوله : ﴿ وَأَلْقُوهُ ﴾ عليه .

أى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه فى غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تطرحوه أرضاً .

وفى هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التغريب بأسلوب حكيم ، حيث فوض الأمر إليهم تعظيماً لهم ، وحذراً من سوء ظنهم به .

قالوا : وفى هذا رأى عبرة وحكمة وسلامة تفكير ، حيث إن صاحبه نهى إخوته عن الإفراط فى الانتقام ، والاكتفاء بما يحصل به الغرض ، وهو إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه فى غيابة الجب .

١٤ - ثم حكى - سبحانه - محاولات هؤلاء الإخوة مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

أى : قال أخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم : يا أبانا أى شىء جعلك لا تأمننا على أخيها يوسف فى خروجه معنا؟ والحال أننا نخلص له النصيحة ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصالح .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ﴿ أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب ﴾ والرتع والرتوع : هو الاتساع فى الملاذ والتنعم فى العيش ، يقال : رتع الانسان فى النعمة إذا أكل ما يطيب له ، ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت .

والمراد باللعب هنا : الاستجمام ورفع السامة ، كالجري والتسابق وما يشبههما ، أى : أرسل يا أبانا معنا أخانا ليتسع فى أكل الفواكه ونحوها ، وليدفع السامة عن نفسه ، عن طريق القفز والجري والتسابق معنا ، وأنا لحافظون له كل الحفظ من أن يصيبه أذى أو مكروه .

وهو أسلوب يبدو فيه الإلحاح الشديد على أبيهم ، لإقناعه بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مأرب سيئة .

١٥ - ثم أخبر - سبحانه - عما رد به عليهم أبيهم فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب ، والحزن : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .

أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب يوسف للذهاب معهم : يا أبنائى إننى ليحزننى حزنا شديدا فراق يوسف لى ، فضلا عن ذلك فإننى أخشى إذا أخذتموه معكم فى رحلتكم أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ رد مؤكد من أخوة يوسف على تخوف أبيهم وتردده فى إرساله معهم .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الخوف والحزن عن نفسه ، يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا فى هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شىء نافع .

١٦ - وأخيرا استسلم الأب ، لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف ، ولتسير قصة حياته فى الطريق الذى شاء الله - تعالى - لها أن تسير فيه .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أى : فلما أقتنعوا بأهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى الغد إلى حيث يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به فى الجب ، ففعلوا به ما فعلوه من الأذى ، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة ، وأوحينا إلى يوسف عند إلقائه فى الجب ، عن طريق

الإلهام القلبي ، أو عن طريق جبريل - عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا الصالحة ، لتخبرنهم فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فى مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك فى صغرك ، من إلقاءك فى الجب ، ومن إنجاء الله - تعالى - لك .

فالمراد بأمرهم هذا : إيدأؤهم له ، وإلقاؤهم إياه فى قعر الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به لشدة شناعته .

وجملة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ حالية ، أى : والحال أنهم لا يحسون بذلك ، ولا يشعرون فى ذلك الوقت الذى تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف ، لا اعتقادهم أنك قد هلكت ، ولطول المدة التى حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك وحالهم فى ذلك الوقت ، فأنت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون عليك فقراء ، يطلبون عونك ورفدك .

وقد تحقق كل ذلك - كما سيأتى - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ .. ﴾ .

وكان هذا الإيحاء - على الراجح - قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا ، فكان المقصود منه إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيره بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .

١٧ - ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم وعادوا إليه ليلا يكون فقال : ﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

والعشاء : وقت غيبوبة الشفق الباقى من شعاع الشمس ، وبدء حلول الظلام . والمراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه - فى زعمهم - أنهم لم يقصروا فى حق أخيهم .

أى : وجاءوا آباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتباكون ، متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : «دموع الفاجر بيديه» .

قالوا : يا أبانا ذهبنا نتسابق ، عن طريق الرمى بالسهام ، وتركنا أخانا يوسف عند الأشياء التى تتمتع بها فى رحلتنا كالثياب ، والأطعمة ، وما يشبه ذلك ، فأكله الذئب دون أن يبقى منه شيئا ، وما أنت - يا أبانا - بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .

وهذه الجملة توحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المرعب أن يقول :  
خذوني - كما يقولون - .

ولم يكتف أخوة يوسف بهذا التباكى بل أضافوا إلى ذلك تمويهها آخر ، حكاها القرآن فى  
قوله : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

أى : وبعد أن ألقوا بيوسف فى الحب ، واحتفظوا بقميصه معهم ، وضعوا على هذا  
القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم شىء آخر ، قد يكون ظبيا  
وقد يكون خلافه .

وأدرك يعقوب - عليه السلام - من قسّمات وجوههم ، ومن دلائل حالهم ، ومن نداء  
قلبه المفجوع ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبّروا له مكيدة  
ما ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له ، ولذا جابههم بقوله :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوه : قال لهم :  
ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة  
عليه ، هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ، ستكشف الأيام عنه بإذن  
ربى ومشيئته ، وسأصبر على فعلكم هذا صبورا جميلا ، لا شكوى معه لأحد سوى الله  
- عز وجل - ولا رجاء إلا منه - سبحانه - ، فهو الذى أستعين به على احتمال ما تصفون  
من أن ابنى يوسف قد أكله الذئب ، وهو وحده الكفيل بإظهار الحقائق ، وكشف المستور ،  
ولقائى بيوسف فى الوقت الذى يشاؤه - سبحانه - .

قال الإمام القرطبى : «وقد استدلل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات والعلامات ،  
فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب قد استدلل على كذب  
أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات  
والعلامات . . .» (١) .

وقال الألوسى : «أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف بعد أن  
ألقوا به فى الحب ، أخذوا ظبيا فذبّحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم  
جعل يقلبه ويقول : تا الله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا الذئب!! أكل ابنى ولم يمزق  
عليه قميصه» (٢) .

(١) تفسير القرطبى ج٩ ص ١٥٠

(٢) تفسير الألوسى : ج ١٢ ص ١٧٩ .

والى هنا نجد الآيات الكريمة ، قد حكّت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تأمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ، ورأيا ، وما تحايلوا به على أبيهم لكي يصلوا إلى مآربهم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم فى أخيهم ، بأن ألقوا به فى الحب ، وما رد به أبوهم عليهم .

## ٣- انتشار يوسف من الجب

### وبيعه بثمن بخس - دراهم معدودة -

١٨ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتشاره من الجب ، وعن بيعه بثمن قليل ، دراهم معدودة ، وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له ، فقال - سبحانه - :

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ بَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَوَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانَ الْيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ آيَاتِهِ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجَزِي الْحُسَيْنِ ﴿٢٢﴾

١٩ - فقوله - سبحانه - : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ .. ﴾ ، شروع فى الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته فى الجب ، والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر .  
والوارد : هو الذى يرد الماء ليأخذ منه ما يحتاج إليه هو وغيره .

أى : وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب ، وتركوه ، وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليشربوا

منه ، فوجد جبا فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورأه فرح به ، وقال :  
يا بشرى هذا غلام .

وأوقع النداء على البشرى : للتعبير عن ابتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل  
يستحق النداء ، أى : يا بشارتى أقبلى فهذا أوان إقبالك .

والضمير المنصوب فى قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً ﴾ يعود إلى يوسف ، أما الضمير  
المرفوع فيعود - على الراجح - إلى السيارة وهم جماعة المسافرين ، وأسر من الأسرار الذى  
هو الإخفاء .

والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب ، مخافة أن يطلبه  
أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبروه بضاعة خفية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه  
من العبيد الأرقاء ، ولعل يوسف قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب ، ولكنهم لم  
يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا فى بيعه وفى الانتفاع بثمنه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : والله - تعالى - لا يخفى عليه  
شئ من إسرارهم وإخفائهم ومن عملهم السيئ فى حق يوسف ، حيث أنهم استرقوه  
وباعوه بثمن بخس ، وهو الكرم ابن الكرم ابن الكرم - كما جاء فى الحديث  
الصحيح - فهو نبى ، وأبوه يعقوب نبى ، وجده إسحاق نبى ، وجد أبيه وهو إبراهيم -  
عليه السلام - نبى .

٢٠ - وقوله - سبحانه - : ﴿ وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ  
الزَّاهِدِينَ ﴾ ، بيان لما فعله جماعة المسافرين بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضا من عروض تجارتهم ،  
باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة ، وكان هؤلاء المسافرون  
الذى باعوا يوسف بثمن قليل ، من الزاهدين فى بقائه معهم ، والراغبين فى التخلص  
منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم به .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا  
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ ، بيان لبعض مظاهر رعاية الله ليوسف - عليه السلام - .

والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت ، ولقبه القرآن  
بالعزيز - كما سيأتى فى قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ .. ﴾ .

أى : وقال الرجل المصرى الذى اشترى يوسف لزوجته «زليخا» : اجعلى محل إقامة  
يوسف كريما ، وأنزليه منزلا حسنا مرضيا ، وتفقديه بالإحسان إليه .

فقوله تعالى : ﴿ مَثْوَاهُ ﴾ من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار ، يقال ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. ﴾ أى : وما كنت مقيما فيهم .

وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ ، بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه أى : عسى هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وإمارات الأدب وحسن الخلق . قالوا : وهذه الجملة الكريمة ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ ، توحى بأنهما لم يكن عندهما أولاد .

ثم بين - سبحانه - نعماً أخرى أنعم بها على يوسف - عليه السلام - فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حتى صار أهلاً للأمر والنهى فيها ، وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهبه من صدق اليقين ، واستنارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكاً سليماً ، ويفسر الرؤى تفسيراً صحيحاً صادقاً ، والله - تعالى - متمم ما قدره وأراده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا ينازعه منازع ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ احتراساً لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله من فضله ، ما يجعلهم لا يندرجون فى الكثرة التى لا تعلم ، بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم .

٢١ - ثم بين - سبحانه - مظهراً آخر من مظاهر إنعامه على يوسف فقال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية فى ذلك ، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع .

أى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، أعطيناه بفضلنا وإحساننا حكمة تجعله موفقاً فى قوله وعمله ، وعلماً نافعا ، وفهما سليماً لشئون الدين والدنيا ، بمثل ذلك الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، نعطى ونجازى المحسنين الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن فى أقواله وأعماله أحسن الله - سبحانه - جزاءه .

## ٤- تعرض يوسف عليه السلام . للفتن .

### بعد أن بلغ أشده

٢٢ - بعد أن حدثتنا السورة الكريمة عن شراء عزيز مصر ليوسف ، وعن وصيته لامرأته بإكرام مثواه . . انتقلت السورة لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرهما في حياة يوسف - عليه السلام - وهي مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن بلغ أشده وآتاه الله حكما وعلما ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها .

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى بأسلوبها ما فعلته امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد . . فتقول :

وَرَوَدْنَاهُ أَلْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنِ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ  
الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَثْوَايَ  
إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ شَيْئًا وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ  
رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا  
الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا  
سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ  
أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ قَالَ هِيَ رَوَدْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِنَا  
إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فِصْدَقٍ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ كَانَ  
قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ  
قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنَّ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَوْسُفُ اعْرِضْ  
عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٨﴾

٢٣ - وقوله - سبحانه - : ﴿ وَرَأَوْدَتُهُ لَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف في منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام مشواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين تخالف العين التي نظر بها إليه زوجها .

والمرادة - كما يقول صاحب الكشف - مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى : فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرج من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه .

والتعبير عن حالها معه بالمرادة المقتضية لتكرار المحاولة : للإشعار بأنه كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما تشتهييه منه بشتى الوسائل والحيل ، وكان منه - عليه السلام - الإباء والامتناع عما تريده خوفا من الله - تعالى - .

وقال - سبحانه - دون ذكر لاسمها : ﴿ أَلْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ ، ستر لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن الكريم فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ أى : أنها أحكمت إغلاق جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه عن نفسه ، زيادة فى حمله على الاستجابة لها . ثم أضافت إلى كل تلك المغريات أنها قالت له : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، أى : هأنذا مهية لك فأسرع فى الإقبال نحوى .

وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت عن المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة .

و ﴿ هَيْتَ ﴾ ، اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهى كلمة حض وحث وتحريض على الفعل .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، بيان لما رد به يوسف عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

والضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ يعود على الله - عز وجل - فىكون لفظ ربى بمعنى خالقى ، أى : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله وأعتصم به من أن أفعل الفحشاء والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله - تعالى - بما أكرمنى به من النجاة من الجب ، ومن تهية الأسباب التى جعلتنى أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد حبانى كل هذه النعم فكيف أرتكب ما يغضبه؟ لا ثم لا ، لن أفعل ما يغضبه - سبحانه - لأن من يفعل ما يغضب الله - تعالى - يكن من الخاسرين .

وجوز بعضهم عودة الضمير فى ﴿ إِنَّهُ ﴾ إلى زوجها ، فىكون المعنى : قال يوسف فى رده عليها : معاذ الله أن أخون زوجك الذى اشترانى بماله فى شرفه ، وأن أعتدى على عرضه بعد أن أمرك بإكرامى .

وفى هذه الجملة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى - وبحقوق زوجها ، وتنبية لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه .

وجملة : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، تعليل آخر لصدها عما تريده منه .

أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله عنه ، تكون عاقبته الخيبة والخسران ، وعدم الفلاح والظفر وإدراك المأمول فى الدنيا والآخرة .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة : يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعى الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله - تعالى - حكاية عنه : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف - عليه السلام - فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة .

٢٤ - ولكن نداء العقل والعفاف ، ونداء الشهوة الجامحة ، لم ينته عند هذا الحد ، بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا صداما آخر بينهما فيقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة خلط المفسرون لها بين الأقوال الصحيحة والأقوال السقيمة خلطا كبيرا ، وسنكتفى هنا بذكر الرأى الذى تطمئن إليه نفوسنا ، ونطرح ما عداه من الآراء التى لانرتاح إليها فنقول وبالله التوفيق .

الهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه ، تقول : هممت بفعل هذا الشئ إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .

وقال بعض العلماء : الهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ به صاحبه ، وهم بمعنى خاطر وحديث نفسى من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به صاحبه ، لأن المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها مالم توجد فى الأعيان .

أخرج الشيخان - البخارى ومسلم - عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : «إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تتكلم به أو تعمل به» .

وقد أجمع العلماء على أن هم امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها له : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

كما أجمعوا على أن يوسف - عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية ، من غير جزم أو عزم ، وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ، ولا يخل بمقام النبوة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرارة ، فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه فلا يؤاخذ بهذا الميل .

والمراد ببرهان ربه : ما غرسه الله - تعالى - فى قلبه من العلم المصحوب بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به .

أو هو - كما قال الإمام ابن جرير - : «رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان هم به» .

والمعنى : ولقد قصدت امرأة العزيز من يوسف قصدا جازما ، أن يطاوعها فى فعل ما نهى الله - تعالى - عنه ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل ، وهم يوسف - عليه السلام - بأن يطاوعها بمقتضى طبيعته البشرية ، وما ركب فيها من شهوات ، ولكنه استطاع بسبب خشيته من ربه أن يقاوم هذه الشهوات ، وأن يكبحها ، وأن يتغلب عليها ، وأن يقف بنفسه عند حدود الله - تعالى - فلا يتجاوزها .

فالمراد ببرهان ربه : مراقبته لخالفه ، وخوفه منه ، ووقوفه عند حدوده ، هذا هو الرأى الذى نختاره فى معنى هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .

فمن المفسرين القدامى الذين ذكروا هذا الرأى : صاحب الكشاف - رحمه الله - فقد قال ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ومعناه : ولقد همت بمخالطته ، ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، أى : وهم بمخالطتها ، وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .. جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالفها ، فحذف لأن قوله ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى خفت الله ، إذ معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .

فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية؟ .

قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله - تعالى - بأنه من عباده المخلصين . (١)

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١١ .

ومن المفسرين المحدثين الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الألوسى فقد قال - رحمه الله -  
وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى قصدت المخالطة وعزمت عليها عزمًا جازمًا ،  
لا يلويها عنها صارف بعدما باشرت مبادئها .

﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ومثل ذلك لا يكاد  
يدخل تحت التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريًا ، لأن ذلك أمر مذموم  
تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم مجرد وقوعه فى صحبة همها ، فى  
الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به .

وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. ﴾ ، أى : محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا  
وسوء سبيله ، والمراد برؤيته له ، كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة  
عين اليقين . (١)

هذا ، وهناك آراء أخرى - فى معنى الآية - رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لأنه لا  
دليل عليها لا من النقل ولا من العقل ولا من اللغة ، وإنما هى من الأوهام  
الإسرائيلية التى تتنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف  
- عليه السلام - .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، بيان  
لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .

والكاف : نعت لمصدر محذوف ، والإشارة بذلك تعود إلى الإراءة المدلول عليها بقوله  
تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ .. ﴾ ، أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .  
والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان ، والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى  
الله - تعالى - عنه .

أى : أريناه مثل هذه الإراءة ، أو ثبتناه تثبيتًا مثل هذا التثبيت ، لنعصمه ونحفظه  
ونصونه عن الوقوع فى السوء والفحشاء ، لأن يوسف - عليه السلام - من عبادنا الذين  
أخلصوا دينهم لنا .

٢٥ - ثم حكى - سبحانه - ما كان من يوسف وامرأة العزيز بعد ذلك فقال : ﴿ وَاسْتَبَقَا  
الْبَابَ ﴾ ، أى : وتسابقا هو وهى نحو الباب الخارجى للبيت .

(١) تفسير الألوسى : ج ١٢ ص ١٩١ .

وسبب تسابقهما : أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا منها بعد أن طلبت منه ارتكاب الفاحشة ، وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .

وجملة : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ حالية ، والقدر : القطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولا ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبتة من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ ، أى : ووجدا وصادفا زوجها عند الباب الذى تسابقا وتدافعا للوصول إليه .

قالوا : والتعبير عن الزوج بالسيد ، يبدو أنه كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، حكاية لما قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف .

أى : قالت تلك المرأة لزوجها ، عندما فوجئت به لدى الباب : إن الجزاء العادل ، والعقاب المناسب لمن أراد بأهلك - تعنى نفسها - سوءا - أى : فاحشة تسوءك - هذا العقاب أو الجزاء يكون بالإلقاء به فى السجن ، أو بإنزال العذاب الأليم به ، عن طريق الضرب الشديد ، أو الجلد الموجه ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على أهلك ، وهذا القول الذى حكاه القرآن عنها ، يدل على أن تلك المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء ، والتحكم فى إرادة زوجها .

ورحم الله الإمام الألوسى ، فقد علق على قولها هذا الذى حكاه القرآن عنها بقوله : «ولقد أتت تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى حيث شاهدها زوجها وهى على تلك الحالة المريبة - أتت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما : تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه .

ولم تصرح بالاسم بأن تقول - مثلا - : ما جزاء يوسف الذى أراد بأهلك سوءا ، بل أتت بلفظ عام ، تهويلا للأمر ، ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءا .

ثم إن حبها ليوسف حملها على أن تبدأ العقوبة بذكر السجن ، وتؤخر العذاب الأليم ، لأن الحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، لاسيما أن قولها : ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ .. ﴾ ،

قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين . «(١)

(١) تفسير الألوسى : ج ١٢ ص ١٩٥ .

والحق أن هذه الجملة الكريمة ، التي حكاها القرآن عن تلك المرأة ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر ، والدهاء ، ومن مظاهر ذلك : محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف - عليه السلام - قد اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوءه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع معشوقه - حتى لا يسعى زوجها في التخلص منه بالطريقة التي يراها . . وفي الوقت نفسه إيهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هي الأمرة الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو مصيره المحتوم .

٢٦ - وهنا نجد يوسف لا يجد مفرا من الرد على هذا الاتهام الباطل فيقول : ﴿ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ ، أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إني ما أردت بها سوءا كما تزعم ، وإنما هي التي بالغت في ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما لا يليق معها .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل : ابن عم لها ، وقيل : إنه كان صبيا فى المهد ، كما وردت بذلك بعض الآثار ، فقد أخرج ابن جرير والبيهقى والإمام أحمد فى مسنده ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ أنه قال : تكلم فى المهد أربعة وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى بشهادته ، لتثبت براءة يوسف أمام العزيز ، وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه .

وقد قال هذا الشاهد فى شهادته : إن كان قميص يوسف قد قطع من الأمام كانت تلك المرأة صادقة فى أن يوسف قد أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دفعته عنها من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها ، وكان هو من الكاذبين فى قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ .

وإن كان قميصه قُدًّا من الخلف ، كانت هى كاذبة فى دعواها أن يوسف أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها ، فتعقبتة حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ، وكان هو من الصادقين فى قوله : إنها راودته عن نفسه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ ، بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .

أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد شق من الخلف ، وجه كلامه إلى زوجته معاتباً إياها بقوله : إن محاولتك اتهام يوسف بما هو برىء منه ، هو نوع من كيدك ومكركن ، إن مكركن عظيم فى بابه ، لأن كثيراً من الرجال لا يفتنون إلى مراميه .

وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجته له بهذا الأسلوب الهادئ الناعم ، بأن نسب كيدها ومكرها لا إليها وحدها ، بل إلى الجنس كله فقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ .. ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له : ﴿ يَوْسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ﴾ ، أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه ، ولا تتحدث به خوفاً من الفضيحة ، وحفاظاً على كرامتى وكرامتها .

وقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ، خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتاً تاماً .

أى : واستغفري الله من ذنبك الذى وقع منك ، بسبب قصدك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برىء منه .

وجملة : ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ، تعليل لطلب الاستغفار ، أى : توبى إلى الله عما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف ، جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المواقفة .

وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها الدماء فى العروق ، وتستلزم حسماً وحزماً ، فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين تهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها ، وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوماً خفيفاً يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة ، ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى بيتها ، بعد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما .

٢٧ - هذا ، ومن العبر والعظات والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ما يأتى :  
(١) أن اختلاط الرجال بالنساء بطريقة تأباها الشرائع السماوية ، وتأباها - أيضاً - مكارم الأخلاق ، كثيراً ما يؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة ، وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة أمر طبيعى ، وما بالذات لا يتغير .

ووجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد فى سن كانت هى فيها مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شاباً جميلاً ، أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، أى : إنى قد هيات نفسى لك .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التي جعلتها تقول هذا القول العجيب ، وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .

لذا حرمت شريعة الإسلام تحريماً قاطعاً الخلوة بالأجنبية ، سداً لباب الوقوع فى الفتن ، ومنعاً من تهيئة الوسائل للوقوع فى الفاحشة .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك : ما أخرجه الشيخان عن عقبه بن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحموى يا رسول الله؟ فقال ﷺ : الحموى الموت » والحموى هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه - أى : أن دخول قريب الزوج بدون ضرورة شرعية على غير محارمه قد يؤدى إلى ارتكاب فاحشة تؤدى إلى قتله ، وقد قيل لامرأة كانت سيدة قومها ومع ذلك وقعت فى الفاحشة ، ما الذى حملك على ذلك وأنت كذا وكذا؟ فقال : حملنى على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد ! أى : حملنى على ذلك قربى من أحبه ، وكثرة محادثتى له ، إذ السواد - بكسر السين - مصدر ساوده إذا أسر إليه بالحديث .

(ب) أن هم الإنسان بالفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول فى مرحلة التصميم والتنفيذ لا مؤاخذه فيه .

قال القرطبى - رحمه الله - : الهم الذى هم به يوسف ، من نوع ما يخطر فى النفس ، ولا يثبت فى الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذه عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت الملائكة يا ربنا ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة ، وهو - سبحانه - أبصر بعبده فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة . . »

وفى الحديث الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، مالم تعمل أو تتكلم به » .

(ج) أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يذكر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المتركب لها ، كما قال يوسف - عليه السلام - : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

(د) أن يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المحنة مشهوداً له بالبراءة ونقاء العرض ، من الله - تعالى - ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف - عليه السلام - ، وتلك المرأة ، وزوجها ، ورب العالمين ، والكل شهد ببراءة يوسف عن المعصية .

أما يوسف فقد قال : ﴿ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي . . ﴾ ، وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾

مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ، وأما امرأة العزيز فقد قالت : ﴿ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وأما زوجها فقد قال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

وأما شهادة رب العالمين ببراءته ، ففي قوله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ . (١)

(هـ) أن موقف العزيز من امرأته كان موقفا ضعيفا متراخيا ، وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة المتحكمة فى زمام زوجها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشف واستهتار : ﴿ وَلَقَدْ رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

(و) أن القرآن الكريم قد صور تلك المحنة فى حياة يوسف وامرأة العزيز تصويرا واقعيا صادقا ، ولكن بأسلوب حكيم ، وبطريقة عفة مهذبة ، بعيدة بما يחדش الحياء ، أو يجرح الشعور ، ولم تأخذ تلك الواقعة من قصة يوسف الطويلة ، سوى حجمها المناسب ، فهى لم تأخذ سوى بضع آيات ، من بين عشرات الآيات التى حكاها القرآن عن قصة يوسف - عليه السلام - وفى هذا العرض ما فيه من عبرة وعظة ، لمن يسرفون وهم يتحدثون عن هذه الجوانب العاطفية ، التى يجب أن يكون الكلام عنها بقدر وحكمة .

(١) تفسير الفخر الرازى : ج ١٨ ص ١١٦ .

## ٥- يوسف يقول:

«رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»

٢٨ - ثم حكى السورة الكريمة بعد ذلك ما قالت به بعض النساء ، بعد أن شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد أن سمع ماسمع من تهديدهن وإغرائهن .. قال - تعالى - :

وَقَالَ

نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا  
 إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ  
 وَأَعْتَدَتْ لهنَّ مَتَكًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ  
 عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا  
 هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي  
 فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمُرٍ  
 لَّيَسْجَنَ وَايَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا  
 يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ  
 مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٨﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ  
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٩﴾

٢٩ - وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ ، حكاية لما تناقلته الألسنة عن امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور في مجالسهن ، ولا يكتمنها ، خصوصا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة ، كامرأة العزيز .

أى : وقال نسوة من نساء مدينة مصر ، على سبيل النقد والتشهير والتعجب : إن امرأة العزيز ، صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال فى انقيادها لهواها ، وفى خروجها عن طريق العفة ، أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى : أنها تطلب منه موافقتها على ما تريده منه ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .

ولم يبين لنا القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهن ، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع ، ولأ الذى يهدف إليه القرآن ، هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء فى مدينة كبيرة كمصر .

وفى وصفها بأنها امرأة العزيز : زيادة فى التشهير بها ، فقد جرت العادة بين الناس ، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارا بينهم ، وأشد فى النقد والتجريح .

وجملة : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ، بيان لحالها معه ، والمقصود بها تأكيد لومها وانقيادها لشهواتها ، ولفظ ﴿ شَغَفَ ﴾ مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين - وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه ، أو حجابها ، يقال : شغف الهوى قلب فلان شغفا ، إذا بلغ نهايته .  
والمراد أن حبها إياه قد تمكن من قبلها تمكنا لا مزيد عليه .

وجملة : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : مقررة لمضمون ما قبلها من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها .

أى : إنا لنراها فى خطأ عظيم واضح ، بحيث لا يخفى على العقلاء ، لأنها - وهى المرأة المرموقة وزوجة الرجل الكبير - تراود فتاها عن نفسه .

والتعبير بقولهن : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا .. ﴾ بصيغة التأكيد ، للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية ، مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا السلوك الذى صدر عنها .

قال صاحب المنار : «وهن ما قلن ذلك إنكارا للمنكر ، وكرها للرديلة ، ولا حبا فى المعروف ونصرا للفضيلة ، وإنما قلنه مكررا وحيلة ، ليصل إليها قولهن فيحملها على دعوتهن لرؤيته .. فهو مكر لا رأى» . (١)

٣٠ - وهنا تحكى لنا السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا .. ﴾ .

(١) تفسير المنار ج٢ ص ٢٩١ .

أى : فلما سمعت امرأة العزيز بسوء مقالة هؤلاء النسوة فيها ، أرسلت إليهن ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام ، وهيات لهن فى مجلس طعامها ما يتكثن عليه من الوسائد والتمارق وما يشبه ذلك ، مما يساعد على طول البقاء ، كما هى عادة المترفين عند تناول الطعام .

وبعد أن حضرن هذا المجلس ﴿ وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا ۖ ۞ ﴾ ليقطعن به ما يأكلنه من لحم وفاكهة ، مما يدل على أن الحضارة المادية كانت قد بلغت فى مصر شأوا بعيدا . . . بعد كل ذلك قالت ليوسف - عليه السلام - ﴿ أَخْرِجْ عَلَيْنَ ۙ ۞ ﴾ ، أى : ادخل عليهن وهن على تلك الحالة من الأكل والالتكاء . . فامتثل لأمرها ودخل عليهن ، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ۞ ﴾ .

أى : فلما دخل عليهن ورأين جماله الباهر ، أصابهن الدهش ، وجرحن أيديهن وخذشنها بالسكاكين التى بأيديهن دون أن يشعرن بذلك ، وقلن عندما شاهدن طلعة يوسف على سبيل التعجب : «ما هذا الذى نراه أمامنا بشرا كسائر البشر ، لتفوقه فى الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين ، تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب» .

ووصفنه بذلك بناء على ما ركز فى الطباع من تشبيه ماهو مفرط فى الجمال والحسن بالملك ، وتشبيه ماهو شديد القبح والسوء بالشیطان .

٣١ - وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على هؤلاء النسوة ، فقالت لهن على سبيل التفakhir والتشفى ، وبدون استحياء أو تلميح : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ ۖ ۞ ﴾ .

أى قالت لهن : إن كان الأمر كما قلتن : فذلك هو الملك الكريم الذى لمتننى فى حبى له ، وقلتن ما قلتن فى شأنى لافتتانى به ، والآن قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه . . .

ثم جاهرت أمامهن بأنها قد أغرته وراودته عن نفسه فقال : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ ۖ ۞ ﴾ .

أى : والله لقد راودته بشتى المغريات عن أن يستجيب لرغبتى ، فأبى وامتنع امتناعا شديدا عن الاستجابة لى .

ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ۖ ۞ ﴾ .

أى : والله لئن لم يفعل يوسف ما أمرته به من الاستجابة لرغباتى ، ليكون مصيره إلى السجن ، أو ليكون من الأذلاء المهانين المقهورين .

وفى هذا التهديد مافيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر .

٣٢ - ووصل إلى مسامح يوسف - عليه السلام - هذا التهديد السافر ، والإصرار على تنفيذ الشهوات الجامحة ، فلجأ إلى ربه مستجيرا به ، ومحميا بحماه ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أى : قال يوسف متضرعا إلى ربه : يا رب إن السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى مما يدعوننى إليه من ارتكاب الفواحش معهن .

وقال : أحب إلى مما يدعوننى إليه ، ولم يقل : مما تدعوننى إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وجماله ، وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار .

ثم اعترف يوسف - عليه السلام - بضعفه البشرى فقال : ويارب إن لم تصرف عنى كيدهن ومكرهن ، أصب إليهن ، أى : أمل إليهن ، وأستجب لإلحاحهن ، وأكن بسبب هذه المطاوعة لهن من الجاهلين السفهاء ، الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم فيقعون فى القبائح والمنكرات .

وقد أجاب الله - تعالى - دعاء عبده يوسف ، فأنقذه من مكرهن فقال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعه ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى قلوبهن من الطمع فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته ، فلم يتخدد بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن ، إنه - سبحانه - هو السميع لدعاء الداعين ، والمجيب لضراعة المخلصين ، العليم بأحوال القلوب ، وبما تنطوى عليه من خير أو شر .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ . ذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، لأنه مع شبابه ،

وجماله وكماله ، تدعوه سيدته ، وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا فى غاية الجمال  
والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ، ويختار السجن خوفاً من الله ورجاء فى ثوابه .

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلمهم الله فى ظله يوم لا  
ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ،  
ورجلان تحاببا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى  
لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعتة امرأة  
ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» . (١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣١٣ .

## ٦. يوسف - عليه السلام - لم يشغله السجن عن

### الدعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى

٣٣ - ثم ساقَت السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف السجن مع ثبوت براءته مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو في السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما يدعوه إليه ، وفسر لصاحبيه في السجن رؤياهما تفسيراً صادقاً صحيحاً .

استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَ جِنَّةً وَرَبًّا  
حِينَ {٣٣} وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَيُنَايَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا  
وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا نَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبِينَا  
بِنَا وَيُلَيِّقُ إِنَّا نُرَكِّبُكَ مِنَ الْخَمْسِينَ {٣٤} قَالَ لَا يَا تَيْمُاطَامُ تَرُزِقَانِيهِ إِلَّا  
نَبَأُ نَكْمَا بِنَا وَيُلَيِّقُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي  
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كُفْرُونَ {٣٥} وَأَتَّبَعْتُ  
مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ  
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ {٣٦} يَصْحَبِي السِّجْنِ رَبَّابٌ مُنْفَرِقُونَ خَيْرٌ  
أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {٣٧} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ

سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ  
 إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْآيَاتُ ذَلِكَ لِلَّذِينَ الْقِيَمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ يَصْحَبِي السَّبْحُ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَاسْتَوْرَبَهُ وَخَمَرًا وَأَمَّا  
 الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ  
 تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أذْكَرُنِي فِي عِندِ رَبِّكَ  
 فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٦﴾

٣٤ - وقوله - سبحانه - : ﴿ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ،

بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن ثبتت براءته .

ولفظ «بدا» من البَداء - بفتح الباء - وهو - كما يقول الإمام الرازي - عبارة عن تغيير  
الرأى عما كان عليه فى السابق .

والضمير فى «لهم» يعود إلى العزيز وأهل مشورته .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته ، كانشقاق قميصه  
من دبر ، وقول امرأة العزيز : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ، وشهادة الشاهد بأن  
يوسف هو الصادق وهى الكاذبة .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما رأوا الأدلة الواضحة على براءة يوسف ،  
وعلى طهارة عرضه ، وصدقه فى قوله ، بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم فى شأنه ،  
وأن يسجنوه فى المكان المعد لذلك إلى مدة غير معلومة من الزمان ، ولاشك أن الأمر  
بسجن يوسف - عليه السلام - كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذا لتهديداتها بعد أن  
صمم يوسف على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها :  
﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ، ولاشك - أيضا - أن هذا  
القرار بسجن يوسف يدل على أن امرأة العزيز كانت مالكة لقيادة زوجها صاحب المنصب  
الكبير ، فهى تقوده حيث تريد كما يقود الرجل دابته .

ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف - رحمه الله - فقال - ما ملخصه - : قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ .. ﴾ ، وهى الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وكان مطواعا لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت فى أن يذللها السجن ويسخره لها . (١)

٣٥ - ثم بين - سبحانه - جانباً من أحواله بعد أن دخل السجن فقال : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ .. ﴾ .

ولفظ «فتيان» : تثنية فتى ، وهو الإنسان الذي جاوز الحلم ودخل فى سن الشباب ، قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما : خبازاً للملك وصاحب طعامه ، وكان الثانى ساقياً للملك وصاحب شرابه ، وقد أدخلهما الملك السجن لاتهامهما بالخيانة .

أى : بعد أن بدا للعزير وحاشيته سجن يوسف ، نفذوا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه فى السجن فتيان من خدم الملك ، قال أحدهما وهو ساقى الملك ليوسف - عليه السلام - : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ ، أى : إني رأيت فى منامى أنى أعصر عنبا ليصير خمرا .

وقال الآخر - وهو خباز الملك - : إني رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأسى سلالا بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .

أخبرنا يا يوسف بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، لأننا نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك من السجناء الذين أنت واحد منهم .

٣٦ - وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام - فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمهّد لذلك بأن يعرفهما بنفسه وبعقيدته ، ويدعوهما إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ويطمئن لهما الأدلة على ذلك ، وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم ، الغيورين على نشرها بين الناس ، إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم .

وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ فى رده عليهما بقوله : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا .. ﴾ .

(١) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٣١٩ .

أى : قال يوسف لرفيقه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما : لا يأتكما - أيها الرفيقان - طعام ترزقانه فى سجنكما فى حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بماهيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما .

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول فيستجيبا لدعوته لهما إلى الحق .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ ، نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين .

أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والإخبار عن المغيبات كإخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما ، ذلك كله إنما هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق الكهانة والتنجيم كما يفعل غيرى .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ أى : دين قوم ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى : لا يدينون بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ ﴾ ، وما فيها من ثواب وعقاب ، ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى : جاحدون لما يجب الإيمان به .

وفى هذه الجملة الكريمة تعريض بما كان عليه العزيز وقومه من إشراك وكفر ، ولم يواجه الفتيين بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه .

وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير .

٣٧ - ولما كان تركه لملة قوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين ، نراه يصرح بالملة التى اتبعها فيقول : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ﴾ ، الكرام المؤمنين بوحداية الله - تعالى - : ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ - عليهم السلام - ، وسماهم آباء جميعا لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون إبراهيم - عليه السلام - هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب - عليه السلام - .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان منه - عليه السلام - لرفيقه فى السجن ، بأنه من سلسلة كريمة كلها أنبياء ، فحصل له بذلك الشرف الذى ليس بعده شرف .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، تنزه عن الشرك بأبلغ وجه أى : ماصح وما استقام لنا أن نشرك بالله - تعالى - أى شىء من الإشراك ، قليلا ذلك الشىء أو كثيرا ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم الله عن ذلك .

وقوله : ﴿ ذَلِكْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ ، اعتراف منه برعاية الله - تعالى - له ولآبائه . أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله - سبحانه - علينا معشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس الذين هداهم الله إلى الحق ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله - تعالى - على نعمه الجزيلة ، وآلائه التى لا تحصى .

٣٨ - وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبعلمته وآبائه ، شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته فقال : ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

أى : يا صاحِبِي ورفيقيَّ فى السجن : أخبرانى بربكما ، أعبادة عدد من الأرباب المتفرقة فى ذواتها وصفاتها خير لكم ، أم عبادة الله - تعالى - الواحد فى ذاته وصفاته ، القهار لكل من غالبه أو نازعه؟ لاشك أن عبادتكما لخالقكما ورازقكما هى العبادة الصحيحة التى ما خلقكما الله - تعالى - إلا من أجلها .

ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ - سبحانه - ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ أى : ألفاظا فارغة لاقيمة لها سميتموها آلهة يزعمكم ﴿ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ ﴾ ، أما هى فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ، ومرزوقة وليست رازقة .

﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ، أى : ما أنزل الله بتسميتها أربابا من برهان أو دليل وقوله : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ . . ﴾ ، انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته - سبحانه - إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .

أى : أمر - سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الحق المستقيم الثابت ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .

٣٩ - وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه وبعقيدته وأقام لهما الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، أتبع ذلك بتفسير رؤيتهما فقال : ﴿ يَا صَاحِبِي

السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا . . ﴿١﴾ ، وهو ساقى الملك فيخرج من السجن بريثا ويسقى «ربه» أى : سيده «خمرا» .

وأما الآخر وهو خباز الملك وصاحب طعامه فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه بعد موته .

ثم أكد لهما الأمر واثقا من صدق العلم الذى علمه الله إياه فقال : ﴿ قَضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ، أى : تم تفسير الأمر الذى سألتمانى عنه تفسيراً صحيحاً .

ثم ختم يوسف حديثه مع صاحبيه فى السجن بأن أوصى الذى سينجو منهما بوصية حكاهها القرآن فى قوله : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بضعَ سنين ﴾ .

أى : وقال يوسف للفتى الذى ظن أنه سينجو منهما - وهو ساقى الملك - قال له : أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك : اذكر حقيقة أمرى عنده ، وبلغه بأنى برىء وبأنى مظلوم ولا أستحق دخول السجن بسبب طهارتى .

ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله يوسف له ، فكانت النتيجة أن لبث يوسف فى السجن مظلوماً بضع سنين - والبضع من ثلاث إلى تسع - .

وقد قالوا : إن يوسف قد لبث فى السجن بعد خروج الساقى منه سبع سنين .

قال الإمام ابن كثير : قوله - سبحانه - : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ . . ﴾ .

أى : قال يوسف للساقى : اذكر قصتى عند سيدك ، فنسى ذلك الموصى ، أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكايده الشيطان ، هذا هو الصواب وهو أن الضمير فى قوله : ﴿ فَأَنسَاهُ ﴾ عائد على الناجى منهما ، كما قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد من المفسرين . (١)

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فَأَنسَاهُ ﴾ يعود إلى يوسف وأن المراد بالرب هنا : الخالق - عز وجل - وعليه يكون المعنى : وقال يوسف للفتى الذى اعتقد نجاته

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣١٦ .

وهو ساقى الملك ، اذكر مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه ، فأنسى الشيطان يوسف أن يذكر حاجته لله - تعالى - وحده ، فلبث فى السجن بضع سنين .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول وهو عودة الضمير ﴿أَنسَاهُ﴾ ، إلى ساقى الملك أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ . .﴾ ، يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿فَأَنسَاهُ﴾ ، يعود إلى ساقى الملك ، وأن المراد بربه سيده ومخدومه ، ولأن مباشرة الأسباب لا تتنافى مع الاعتماد على الله . (١)

والى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا بأسلوبها المشوق الحكيم ، جانباً من حياة يوسف فى السجن ، فماذا كان بعد ذلك؟ .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ١٤٤ .

## ٧- رؤيا الملك وتفسير يوسف

### عليه السلام لها.

٤٠ - تحكى لنا الآيات الآتية أن الله - تعالى - فتح باب الفرج ليوسف - عليه السلام - وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلا صحيحا سوى يوسف - عليه السلام - .

استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :

وَقَالَ

الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ  
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْؤُنِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ  
كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٥﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ  
الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ  
أَنَا أَنْتُمْ كُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٧﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا  
فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ  
خُضْرٍ وَأُخْرَى يَا بَنِيَّ لَعَلِّي آرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾  
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا  
قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ  
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ  
عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْصِرُونَ

٤١ - قال الإمام ابن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر ، بما قدر الله - تعالى - أنها كانت سببا لخروج يوسف من السجن معززا مكرما ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك» . (١)

وقوله : ﴿عَجَافٌ﴾ ، جمع عَجَفَاء ، والعجف - بفتح العين والجيم - الضعف ، وذهاب العافية ، يقال : هذا رجل أعجف ، وامرأة عجفاء ، إذا ظهر ضعفهما وهزالهما .

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته : إنى رأيت فيما يرى النائم ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ ، قد امتلأن لحما وشحما ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ ، بقرات ﴿عَجَافٌ﴾ ، أى : ضعاف .

ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم ﴿سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ ، قد امتلأت حبا ، وإلى جانبها سبع سنبلات ﴿أُخْرَى يَابِسَاتٍ﴾ قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع ذلك فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها .

يأبها الأشراف والعلماء من قومی فسروا لى رؤياى ، وبينوا لى ما تدل عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبِرُونَ﴾ ، تعرفون تفسير هذه الرؤيا ، وتعلمون تعبيرها ، وتأويلها علما صحيحا .

فقوله - سبحانه - : ﴿تَعْبِرُونَ﴾ من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى ، وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .

والتعريف فى لفظ ﴿الْمَلِكُ﴾ للعهد ، أى : ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها «الهكسوس» وهم العمالقة ، الذين ملكوا مصر من سنة ١٩٠٠ ق .م إلى سنة ١٥٢٥ ق .م تقريبا .

فالتعبير بالملك هنا دون التعبير عنه بفرعون ، مع أن القرآن قد عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعد من دقائق إعجاز القرآن العلمى .

ويبدو أن القوم فى ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى ، وكان لهذا

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢١٧ .

التفسير مكانته عندهم ، فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه فى السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك فى زمن كثر فيه البارعون فى تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف ، حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ ، حكاية لما رد به الكهان والأشرف على ما طلبه الملك منهم .

والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع فى حزمة واحدة من مختلف النباتات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس .

والأحلام : جمع حلم - بإسكان اللام وضمها - وهو ما يراه النائم فى منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففى الحديث الصحيح : «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» .

أى : قال الملائكة للملك : ما رأيته - أيها الملك فى نومك - ماهو إلا تخاليط أحلام ، فلاتهتم بها ، وإننا نحن لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .

وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم بمعرفة تفسير رؤيا الملك .

ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ، فقد أتى بإن المفيدة للشك .

٤٢ - ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملائكة عن تأويل رؤياه فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ .

وأصل ﴿ ادَّكَرَ ﴾ إذتكر بوزن افتعل مأخوذ من الذكر - بتشديد الدال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيها ، ثم قلبت الدال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال لأنها أخف من الدال .

والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان ، وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله له : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ .

أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ، ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك ، قال هذا الساقى للملك وحاشيته بعد أن تذكر ما كان من أمره مع يوسف :

«أنا أخبركم بتفسير رؤيا الملك ، فابعثوني إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها» .

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع في قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف .  
وقوله : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ..﴾ ، من بديع الإيجاز بالحذف في القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض .

والتقدير : قال لهم : أنا أخبركم بتفسير هذه الرؤيا فأرسلوني إلى من عنده العلم بتفسيرها ، فأرسلوه فجاء إلى يوسف وقال له : يا يوسف أيها الصديق ، أى : يا من أصبح الصديق خلقك وشأنك وطبعك ، كما عرفت ذلك منك وقت أن كنت معك فى السجن ﴿أَفْتِنَا﴾ أى : فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز الناس عن تفسيرها ، وهى أن الملك رأى فى منامه ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٌ وَأَخْرُ يَابِسَاتٌ لِعَلِيَّ أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، تفسيرها فينتفعون به ، وترتفع منزلتك عندهم .

٤٣ - وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلا مجردا ، بل يتولها تأويلا صادقا صحيحا ، مصحوبا بالنصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا..﴾ .

أى : قال يوسف للساقى : ارجع إلى قومك فقل لهم : إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من زرعكم فى كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ، ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه .

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ، أى : اتركوا الحب فى سنبله إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى مأكلكم .

وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى الاقتصاد فى مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .

وقوله : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ، أى : بعد تلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ ، أى : سبع سنين صعب على الناس لما فيهن من الجذب والقحط  
﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى

السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنا بلها .

وقوله : ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ، أى : أن تلك السنين المجدة ستأكلون فيها كل ما

ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئاً قليلاً منه يبقى محرزاً ومدخراً ، لتنتفعوا به فى  
زراعتكم ، وحاصل تفسير يوسف لتلك الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات  
الخضر ، بالسنين السبع المخصبة ، وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات ، بالسنين  
السبع المجدة التى ستأتى فى أعقاب السنين المخصبة ، وفسر ابتلاع البقرات العجاف  
للبقرات السمان ، بأكلهم ما جمع فى السنين المخصبة فى السنين المجدة .

وقوله : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ، تبشير لهم بأن  
الخير سيأتىهم بعد تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يعقب العسر  
باليسر .

ولفظ ﴿يُغَاثُ﴾ ، من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التى يسوقها  
الله - تعالى - لهم بعد تلك السنوات الشداد التى قل فيها المطر .

ولفظ ﴿يَعْصِرُونَ﴾ من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج ما فيه  
من مائع سواء أكان هذا المائع زيتاً أم ماء أم غيرهما .

أى : ثم يأتى من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ،  
بسبب إرسال الله - تعالى - المطر عليهم ، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج ،  
وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه ، وهذا كناية  
عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد .

وما قاله يوسف - عليه السلام - عن هذا العام الذى يأتى فى أعقاب السنوات السبع  
الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها ، وذلك لزيادة التبشير للملك  
وللناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما بوحي من الله - تعالى - الذى يجب أن يخلص له  
الجميع العبادة والطاعة .

وإلى هنا نرى أن يوسف - عليه السلام - قد فسر رؤيا الملك تفسيراً سليماً حكيماً ، كان  
من نتائجه الخير للملك وقومه ، فماذا فعل الملك بعد ذلك مع يوسف ؟

## ٨- يوسف - عليه السلام -

### في مجلس ملك مصر

٤٤ - ثم قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته ، وما رد به يوسف - عليه السلام - على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة العزيز في شأن يوسف وما طلبه - عليه السلام - من الملك ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْوِينِي بِهِ  
فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي  
قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ  
إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ  
سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنَّكَ لَكِنَّ حَصْحَصَ الْمُخْرَبِ لَنَرَوُذُكَ عَنْ  
نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْبُءْهُ بِالْغَيْبِ  
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِي إِنْ أَنفَسَ  
لَأَمْسَاةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ  
الْمَلِكُ أَتَنْوِينِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا  
مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٨﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٩﴾  
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ  
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ  
خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾

٤٥ - وقوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. ﴾ ، حكاية لما طلبه الملك في ذلك الوقت من معاونيه في شأن يوسف - عليه السلام - وفي الكلام حذف يفهم من المقام .  
والتقدير : وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف في تفسير الرؤيا : أحضروا لى يوسف هذا لأراه وأسمع منه ، وأستفيد من علمه ..

وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازى في تفسيره - على فضيلة العلم ، « فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية » . (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ .. ﴾ ، بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك .

أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف ليخبره بأن الملك يريد لقاءه ، قال له يوسف بأناة وإباء : ارجع إلى «ربك» أى : إلى سيدك الملك «فأسأله» قبل خروجى من السجن وذهابى إليه «ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن» أى : ما حال وما شأن النسوة اللاتى حدث بينى وبينهن ما حدث ، وما حقيقة أمرهن معنى .

ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه ، لزيادة تهيجه على البحث والتقصى ، حتى تسفر الحقيقة عن وجهها ، ويعرف البرىء من غير البرىء .

واكتفى بالسؤال عن تقطيعهن لأيديهن ، دون التعرض لمكرهن به ، وكيدهن له ، سترا لهن وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسوءهن ، ولذا فقد اكتفى بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى ، وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - الذى يتولى حسابهن على ذلك .

ولاشك فى أن امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته ، يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث التى تدل على فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه : «وقد وردت السنة بمدحه على ذلك ، أى : على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته عن براءة ساحته

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ١٥١ .

ونزاهة عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : رب أرنى كيف تحبى الموتى؟ قال : أو لم تؤمن؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى - : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، أن رسول الله ﷺ قال : «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر» .

وروى عبدالرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشرط أن يخرجونى ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر» . (١)

وهذه الأحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، إنما تدل على تواضع الرسول ﷺ وإلا فإنه أقوى الرسل عزما ، وأرفعهم مقاما ، وأشدهم صبيرا .

٤٦ - ثم بين - سبحانه - ما قاله الملك بعد أن بلغه الرسول ما قاله يوسف له فقال : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف : استجاب الملك لما طلبه يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ﴿ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ .

أى : قال الملك لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن نفسه؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكن؟

وأمام هذه المواجهة التى واجهن بها الملك ، لم يملكن الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ ، أى : معاذ الله ما علمنا عليه من سوء قط ، وإنما الذى رأيناه منه هو البعد عن كل سوء وهنا قالت امرأة العزيز - ويبدو أنها كانت حاضرة معهن عند الملك - : «الآن حصحص الحق» ، أى : الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تاما بعد أن كان خافيا .

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣١ .

والفعل : «حصحص» أصله حصص ، وهو مأخوذ من الحصص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حصص شعره ، إذا استأصله وأزاله فظهر ما كان خافيا من تحته .

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ، أى : أنا التى طلبت منه ما طلبت ﴿وَأِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، فى كل قوله ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ .

وهكذا يشاء الله - تعالى - أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى يراها الملك ، وتتطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللاتى قطعن أيديهن .

ثم واصلت امرأة العزيز حديثها فقالت : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسي من أنى راودته عن نفسه ، إنما قلته ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئا يسوءه بعد أن فارقنى ، وإنما قلت ذلك لأن الله - تعالى - يعلم السر وأخفى ، وأنه - سبحانه - لا ينفذ كيد الخائنين ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد حين من الزمان . .

وإنى لا أبرئ نفسي ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برىء منه ، والنفس البشرية أماراة بالسوء وبالميل مع الهوى والشهوات ، إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، إن ربي كثير الغفران والرحمة لمن يشاء من عباده .

والذى يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز يراه زاخرا بالصراحة التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف - عليه السلام - الذى خاف مقام ربه ونهى نفسه عن الهوى .

ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا نقيًا عفيفًا يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه عن غيره .

٤٧ - وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - ، القسم الذى تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها من السجن ومرارته .

ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب الثانى من حياته - عليه السلام - ، وهو

جانِب الرِخاء والعز والتمكين فى حياته فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ  
أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي .. ﴾ .

أى : وقال الملك لحاشيته بعد أن سمع ما سمع من طهارة يوسف وعفاهة : ائتوني به  
ليكون خالصا لنفسي ، وخاصة بى فى تصريف أمورى ، وكتمان أسرارى ، وتسيير دفة  
الحكم فى مملكتى ، ونفذ الجند ما أمرهم ملكهم به ، وأحضروا يوسف إلى مجلسه فلما  
راه وكلمه ازداد تقديره له ، وإعجابه به وقال له : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

أى : إنك يا يوسف منذ هذا اليوم صرت عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة  
الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمنك على كل شىء فى هذه المملكة .

٤٨ - وهنا طلب يوسف من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام  
بأعبائها فقال : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : قال يوسف - عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى  
خزائن أرض مصر ، لأنى شديد الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصرفها فيما يفيد وينفع ،  
فأنت ترى أن يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما  
طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة ، وتدبير  
شئونها ، لأنها مقبلة على سنوات عجاف تحتاج إلى خبرة يوسف وأمانته ، وكفاءته ،  
وعلمه ..

قال القرطبى ما ملخصه : ودلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملا يكون له أهلا .  
فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله ﷺ فى الأحاديث الصحيحة من  
نهيهِ عن طلب الإمارة .

فالجواب : أولا : إن يوسف إنما طلب الولاية لعلمه أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل ،  
والإصلاح ، وتوصيل الحقوق لأهلها ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه .

الثانى : أنه لم يقل : اجعلنى على خزائن الأرض ، لأنى حسيب كريم ، وإن كان  
كذلك ، ولم يقل إنى جميل مليح ، وإنما قال : إنى حفيظ عليم ، فسألها بالحفظ والعلم لا  
بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من  
قوله : ﴿ فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١)

(١) تفسير القرطبى ج٩ ص ٢١٦ .

والخلاصة . . أن يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قاله للملك ، وطلب منه ما طلب ، لأنه علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه في ذلك الوقت ، وفي تلك الظروف ، فهو يريد من ورائه خدمة الأمة لاجر منفعة شخصية لنفسه .

وما قاله إنما هو من باب التحدث بنعمة الله ، الذي أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب العالية ، وليس من باب التزكية المحظورة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التي لا تختلف فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ تَبَوُّاً مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦) وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

أى : ومثل هذا التمكين العظيم مكنا ليوسف في أرض مصر بعد أن مكث في سجنها بضع سنين ، بأن هيئنا له بعد هذا الظلم الذى نزل به ، أن يتنقل في أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنع مانع من الحلول في أى مكان فيها ، ونحن بقدرتنا ورحمتنا وإرادتنا نعطي من نشاء عطاءه من عبادنا ، ولا نضيع أجر المحسنين الذين يتقنون أداء ما كلفناهم به ، ولعطاء الآخرة أعظم وأبقى من عطاء الدنيا للمؤمنين الصادقين ، وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير وسعادة في الدنيا والآخرة .

ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثا تترك معرفتها إلى فهم القارئ وفطنته .

فهى لم تحدثنا - مثلا - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدارته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ ، للدالة على كفاءته وأمانته .

كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السبع العجاف ، وفى السنوات الخضر ؛ لأن هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .

كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أمينا على خزائن الأرض ، بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالا للناس منازلهم ، إذ هو صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد ، وصاحب الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

## ٩. اللقاء الأول بين يوسف وإخوته

٤٩ - وبعد أن تحدثت السورة الكريمة هذا الحديث الطويل عن رؤيا يوسف ، وعن إلقاء إخوته له فى الحب ، وعن خروجه منه وبيعه بثمن زهيد ، وعن المؤامرات التى تعرض لها فى بيت امرأة العزيز ، وعن إلقاءه فى السجن لبضع سنين ، وعن خروجه من السجن ، وتمكينه فى أرض مصر .

بعد كل ذلك انتقلت السورة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ، وعماد دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم ، فقال - تعالى - :

وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ  
فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَسَفَّهَهُمْ وَهَمُّ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا جَحَّزَهُمْ  
بِحَازِمِهِمْ قَالَ أَتُوْنِي بِأَخْكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوْفِي الْكَيْلَ  
وَأْتَاخِرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنَّ لِّى تَأْوِينُ بِهِ فَلَآ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى  
وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُوْدُعْنَهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾  
وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا  
إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قال الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآيات : اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل - أيضا - إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب - عليه السلام - ، وصعب الزمان عليهم - فى فلسطين بالشام - فقال لبنيه : إن بمصر رجلا صالحا يبيع الناس - أى : يعطيهم الطعام وماهم فى حاجة إليه فى معاشهم - فاذهبوا إليه بدراهمكم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة ، ولم يبق منهم سوى «بنيامين» مع أبيه يعقوب ، ودخلوا على يوسف ، وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوا به فى الحب : ﴿لَتَنبِتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

والمعنى : وجاء إخوة يوسف من بلادهم الشام متجهين إلى مصر ، ليلتمسوا فيها وسائل العيش بعد أن أصاب فلسطين القحط ، ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أى : على يوسف بعد

أن وصلوا مصر «فعرّفهم» يوسف بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فلم يعرفوه لطول عهد فراقهم له ، ولقلة اهتمامهم بشأنه بعد أن ألقوا به فى الجب ، وللمنصب العظيم الذى صار يشغله ، وهم ما توقعوا أن يصل يوسف إلى هذا المنصب .

ويبدو أن هذه المجاعة التى حدثت لمصر فى السنين السبع العجاف ، قد عمت البلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد الشام ، وأن مصر كانت محط أنظار المعسرّين من مختلف البلاد ، بفضل حسن سياسة يوسف ، وأخذة الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس .

٥٠ - ثم بين - سبحانه - ما قاله يوسف لإخوته بعد أن أعطاهم ما هم فى حاجة إليه فقال : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ .

أى : وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد ومتاع ، قال لهم : أنا أريد منكم فى الزيارة القادمة لمصر ، أن تحضروا معكم أحاكم من أبيكم لكى أراه ، وقوله : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ، تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم فى ذلك حتى ينشطوا فى إحضاره معهم .

أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ماتريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى مصر منزلا كريما ؟ .

ومادام أمرى معكم كذلك ، فلا بد من أن تأتونى معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .

ثم أتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ ، أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقاءكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أحاكم من أبيكم فى لقاءكم القادم معى ، فإن لم تأتونى به معكم عند عودتكم إلىّ ، فإنى لن أبيع لكم شيئا مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، فضلا عن ذلك فإنى أحذرکم من أن تقربوا بلادى فضلا عن دخولها .

وهذا التحذير منه لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له أنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن مامعهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

٥١ - وقد رد إخوة يوسف عليه بقولهم : ﴿ سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ، أى : قال

إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار شقيقه «بنيامين» معهم عند عودتهم إليه : سنطلب من أبينا حضور بنيامين معنا ، وسيكون هذا الطلب بكل رفق ولين ومحايلة ، وأنا لفاعلون هذه المراودة باجتهد لا كلل معه ولا ملل ، وفاء لحقك علينا .

وقولهم هذا يدل على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم - وهو بنيامين الشقيق الأصغر ليوسف - ليس أمرا سهلا أو ميسورا ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير من أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال : ﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

والفتيان : جمع فتى ، والمراد بهم هنا : الذين يقومون بخدمته ومساعدته في عمله . والبضاعة في الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التي تقتنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع ، والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذي أعطاه يوسف لهم ، والرحال جمع رحل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .

والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيديا إلى رحال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتعتهم ، فيجدون فيها الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه منا من طعام وغيره ، لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا في مقابل ما أخذوه .

وكان يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم «بنيامين» ، لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان ، وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .

والى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه فعرّفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم «بنيامين» الشقيق الأصغر ليوسف ، فماذا كان بعد ذلك ؟ .

# ١٠. إخوة يوسف - عليه السلام - يحاورون أباهم في شأن سفر أخيه « بنيامين » معهم إلى مصر

٥٢ - ثم قصت علينا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم يعقوب ، من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم في اصطحاب « بنيامين » معهم في رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما قصت علينا ما رد به أبوهم عليهم ، فقال - تعالى - :

فَلَا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ  
قَالُوا يَا أَبَانَا مَنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ  
لَحَافِظُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ  
مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ رَحِيمٌ الرَّحِيمِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا فَخَرُوا مِنعَهُمْ  
وَجَدُوا بِضَعْفِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَعْفِنَا  
رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَزَادَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ  
كَيْلُ سَيْرٍ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِن  
اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِيهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَبَ بِكُمْ فَلَمَّ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ  
مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ يَبْنَىٰ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا  
مِن أَبْوَابٍ مُّنفَرِقَةٍ وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَمْتُ إِلَّا  
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا دَخَلُوا  
مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا  
حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُّ وَعِلْمٌ لِأَعْلَمُنَّهُ وَلَٰكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

٥٣ - وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ۗ ۞ ﴾ ، حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم فور التقائهم به .  
والمراد بالكيل : الطعام المكيل الذى هم فى حاجة إليه .

والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه فى المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك ، والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدرك من السياق ، والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم فلسطين ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ماطلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل : ﴿ يَا أَبَانَا ۗ ۞ ﴾ لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة ، إذا لم نأخذ معنا أخانا «بنيامين» ، ليراه عند عودتنا إليه ، فقد قال لنا مهددا عند مغادرتنا له ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۗ ۞ ﴾ ، وأنت تعلم أننا لا بد من عودتنا إليه ، لجلب احتياجنا من الطعام وغيره ، فمرجوك أن توافقنا على اصطحاب «بنيامين» معنا ، وإنا له لحافظون حفاظا تاما من أى مكروه ، والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله .

وكانهم فعلوا ذلك ليشعروه ، بأن إرسال «بنيامين» معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سياترب عليه منع الطعام عنهم ، ولكن يبدو أن قولهم هذا ، قد حرك كوامن الأحران والآلام فى نفس يعقوب ، فهم الذين سبق لهم أن قالوا له فى شأن يوسف - أيضا - : ﴿ أَرْسَلْهُ مَعْنَا غَدَا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۗ ۞ ﴾ .

لذا نجده يرد عليهم فى استنكار بقوله : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَ تَكُمُ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۗ ۞ ﴾ ، أى : قال لهم : أتريدون أن أؤمنكم على ابني «بنيامين» كما ائتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التى تعرفونها جميعا وهى فراق يوسف لى فراقا لا يعلم مداه إلا الله - تعالى - ؟ لا إننى لا أثق بعودكم بعد الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته فهو - سبحانه - خير حافظ لمن يريد حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه لم يسلم ، وهو - سبحانه - أرحم الراحمين لخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى «بنيامين» كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .

٥٤ - ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد عدم إمكان

إرساله معهم ، لذا لم يراجعوه مرة أخرى ، لذا اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا منها ما أحضروه من زاد وطعام من مصر ، فكانت المفاجأة التي حكاها القرآن في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. ﴾ .

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التي بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر ، فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد ردت عليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين : ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .. ﴾ ، أى : قالوا بدهشة يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله عزيز مصر؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ، ثم رد علينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .

وقوله - سبحانه - حكاية عنهم : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فننتفع بها فى معاشنا ، ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى : ونجلب لأهلنا الميرة وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ وَنَحْفَظُ أَحَانَا ﴾ ، عند سفره معنا من أى مكروه ﴿ وَنَزِدَادُ ﴾ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر ﴿ كَيْلٌ بَعِيرٌ ﴾ أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظرا لوجود أخيها معنا .

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد الرؤوس ، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد ، واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر : أى : ذلك الطعام الذى أعطانا عزيز مصر إياه ، طعام يسير ، لا يكفيننا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتى بطعام آخر .

وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاها القرآن عنهم : تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب «بنيامين» معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، ومن مظاهر هذا التحريض : مدحهم لعزيز مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهم ، وازدياد الأطعمة بسبب وجوده معهم .

٥٥ - ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح ، لم يستجب لهم

إلا على كره منه ، واشتراط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن في قوله : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْتًا مِّنَ اللَّهِ لِتَأْتِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴾ .

أى : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم «بنيامين» إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله بأن تقولوا : والله لتأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك ، إلا أن نهلك جميعا أو أن نغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .

يقال : أحيط بفلان ، إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالبا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ، أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين ، بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر ، قال لهم على سبيل التأكد والحث على وجوب الوفاء : الله - تعالى - على ما نقول أنا وأنتم مطلع وراقب ، وسيجازى الأوفياء خيرا ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ .. ﴾ .

أى : وقال يعقوب لأبنائه وهو يودعهم : يا أبنائي إذا وصلتكم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلا ، بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب معين ، وكانت أبواب مصر - كما قيل - أربعة أبواب .

وقد ذكر المفسرون أسبابا متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ، ما ذكره الألوسى فى قوله : «نهامهم عن الدخول من باب واحد ، حذرا من إصابة العين - أى : من الحسد - ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ، فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى : يحسدوا - ، إذا ما دخلوا كوكبة واحدة» .

ثم قال : والعين حق كما صح عن رسول الله ﷺ وصح - أيضا - بزيادة «ولو كان شىء يسبق القدر سبقته العين» ، وقد ورد - أيضا - : «إن العين لتدخل القبر والجمل القدر» . (١)

وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد ، فيتراعى فى أذهانهم

(١) تفسير الألوسى ج-١٣ ص ١٥ .

أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فربما سجنوهم أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . . ﴾ ، اعتراف منه - عليه السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره الله - تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة ، أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم ولو كان هذا الشيء قليلا ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع ، ولا يدافعه مدافع ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، أى : عليه - سبحانه - وحده فوضت أمرى .

﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها ، إذ أن كلا من التوكل ومن الأخذ بالأسباب ، مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ماهي إلا أمور عادية ، يوجد الله - تعالى - بها ما يريد إيجادها ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد .

ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة ، تأدبا مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشروعها .

٥٦ - ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا . . ﴾ .

والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفا عليهم من الحسد .

ومعنى ﴿ قَضَاهَا ﴾ أظهرها ، ولم يستطع كتمانها ، يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .

أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوهم بالدخول منها ما كان هذا الدخول يغنى عنهم ، أى : يدفع عنهم من قدر الله من شىء قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة ، أى : رغبة خطرت فى نفسه «قضاها» أى : أظهرها ووصاهم بها ، ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم ، مع اعتقاده بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

وقوله - تعالى - ﴿ وَإِنَّهُ لَدُوُّ عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ثناء منه - سبحانه - على نبيه يعقوب - عليه السلام - بالعلم وحسن التدبير .

أى : وإن يعقوب - عليه السلام - لدو علم عظيم للشىء الذى علمناه إياه عن طريق وحيننا ، فهو لا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه وأصفياه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمر .

والى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيهم «بنيامين» - شقيق يوسف - معهم إلى مصر ، بناء على طلب يوسف منهم ذلك ، فماذا كان منهم بعد هذه الأحداث؟ .

## ١١. اللقاء الثانى بين يوسف. عليه السلام.

### وبين إخوته ومعهم شقيقه « بنيامين »

٥٧ - حكى لنا سورة يوسف بعد ذلك أن إخوته سافروا إلى مصر ، ومعهم شقيقه « بنيامين » ، والتقوا جميعا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات والمفاجآت والمحاورات ، التى حكاها القرآن فى قوله - تعالى - :

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ  
قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم  
بِحَمَلِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا  
الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسُرْقُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٦٨﴾  
قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٦٩﴾  
قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَابِئْسَ الْفُسَيْدِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سُرِقِينَ ﴿٧٠﴾  
قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧١﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي  
رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيْنِهِمْ  
قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ  
مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ  
مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ وَمِثًّا إِذَا لَطَمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلٍ مَا قَرَضْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

٥٨ - وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ .. ﴾ ، شروع فى بيان ما دار بين يوسف - عليه السلام - وبين شقيقه بنيامين بعد أن حضر إلى مصر مع إخوته .  
 وقوله : ﴿ آوَى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم ، يقال : آوى فلان فلانا إذا ضمه إلى نفسه .  
 وقوله : ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ افتعال من البؤس ، وهو الشدة والضر ، والحزن .  
 أى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه بنيامين ، وقال له مطمئنا ومواسيا : إني أنا أخوك الشقيق ، فلا تحزن ولا تبتئس بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله - تعالى - قد عوض صبرنا خيرا ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .

قال الإمام ابن كثير : « يخبر الله - تعالى - عن إخوة يوسف حين دخلوا على يوسف ومعهم أخوه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة

والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له ، وقال له لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان هذا عنهم ، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما» . (١)

٥٩ - ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته ، لكى يبقى أخاه معه ، فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ .. ﴾ .

والجهاز - كما سبق أن بينا - : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، والسقاية : إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة يكون من معدن نفيس ، وقد كان يوسف - عليه السلام - يكتال به فى ذلك الوقت ، نظرا لقلّة الطعام وندرته ، وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع .

أى : وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا السقاية فى متاع أخيه « بنيامين » دون أن يشعر بهم أحد .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ، بيان لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل ، والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به .

والمراد بالعيير هنا : أصحابها ، والأصل فيها أنها اسم للإبل التى تحمل الطعام أى : ثم نادى مناد على إخوة يوسف وهم يتجهزون للسفر بقوله : يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل فى أمركم فأنتم متهمون بالسرقة .

ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى تتهموننا بأننا سارقون؟ .

وهنا رد عليهم هذا المنادى ومن معه من حراس : نفقد صواع الملك ، أى : الوعاء الذى يشرب فيه ، ويكتال به عند الحاجة .

﴿ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ ﴾ ، أى : بهذا الوعاء أو دل على سارقه ﴿ حِمْلٌ بَعِيرٌ ﴾ ، أى : من

(١) تفسير ابن كثير ج-٢ ص ٤٨٥ .

الطعام زيادة على حقه كمكافأة له ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أى : وأنا بهذا العطاء كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .

٦٠ - وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم ردا يدل على استنكارهم لهذه التهمة ، وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف لمن اتهمهم بالسرقة ، والله يا قوم لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم لكي نفسد فيها أو نرتكب مالا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم لنترتكب هذه الجريمة . لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام ، ولو ارتكبنا جريمة السرقة لمنعتمونا من دخول بلادكم التى لاغنى لنا عنها .

وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه الذين يبدو أنهم يتحدثون بما كلفهم به يوسف : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ، أى : قالوا لهم : إذا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم ، وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين؟ .

فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم : ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

والمراد بالجزاء هنا : العقاب الذى يعاقب به السارق فى شريعتهم ، والضمير فى قوله : ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ يعود إلى السارق .

أى : قال إخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحلته ومتاعه أن يصبح عبدا رقيقا بعد أن كان حرا لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا عقوبة له على السرقة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : وبعد هذه المحاوراة التى دارت بين إخوة يوسف ، وبين الذين اتهموهم بالسرقة ، والتى انتهت بموافقة إخوة يوسف على تفتيش أمتعتهم للبحث عن صواع

الملك ، قام الحراس بالتفتيش ، فبدأ المكلف بذلك بتفتيش أمتعتهم ، قبل أن يفتش متاع بنيامين فلم يجد شيئاً ، فلما انتهى إلى متاع بنيامين وجد الصواع بداخله فأخرجه منه على مشهد منهم جميعاً ، ويبدو أن الحوار من أوله كان بمشهد من يوسف - عليه السلام - ويتوجيه منه للمؤذن ومن معه .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزى ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل بنيامين ، وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة .

يطوى القرآن ذلك كله ، ليترك للعقول أن تتصوره ، ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ذلك فيقول : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ، و ﴿ كِدْنَا ﴾ من الكيد ، وأصله الاحتيال والمكر ، وهو : صرف غيرك عما يريده بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبیح ، ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والمراد به هنا : النوع الحمود .

والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل أن نحقق ليوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده ، وهو احتجاج أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ ، أى : مثل هذا التدبير الحكيم ألهمناه ليوسف ، وما كان ليستطيع أن يحتجز أخاه معه لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لاتجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال فى شريعة يعقوب - عليه السلام - التى عليها أبناؤه ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .  
فالمقصود بدين الملك : شريعته التى يسير عليها أهل مملكته .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - على يوسف - عليه السلام - أى : دبرنا ليوسف هذا التدبير الحكيم ، ولولاه لما استطاع أن يحتجز أخاه ، وما كان ليوسف أن يفعل كل ذلك التدبير الحكيم فى حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئة الله - تعالى - ومعونته وإذنه بذلك ، فهو الذى ألهمه أن يدس السقاية فى رحل أخيه ، وأن يسأل إخوته عن عقوبة السارق فى شريعتهم ، حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك فى رحلة منهم .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ ، رفعه وتكريمه ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴾ ، من أولئك المرفوعين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يزيد عنهم فى علمهم وفى مكانتهم عند الله - تعالى - .

٦١ - ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على «بنيامين» - شقيق يوسف - فقال : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف بعد هذا الموقف المخرج لهم : إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك ، فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك ، وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مراد إخوة يوسف بقولهم هذا ، ومنها : أن يوسف وهو صغير سرق صنما من ذهب وفضة ، ثم كسره وألقاه فى عرض الطريق ، فعيّره إخوته بذلك .

وقوله : ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله إخوته فى شأنه وفى شأن شقيقه ، فساء ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره بما قالوه ، وإنما رد عليهم بقوله : بل أنتم أيها الإخوة أشد فى الشر والأذى منى أنا وأخى ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخذعتموه ، وقتلتم له بعد أن ألقيتم بى فى الجب : لقد أكله الذئب .. ﴿ وَاللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ أَعْلَمُ ﴾ منى ومنكم ﴿ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ به غيركم من الأوصاف التى خالفها الحق ولا يؤيدها الواقع .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف له بعد ذلك على سبيل الرجاء والاستعطاف فقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ .. ﴾ .

أى : قالوا له يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ الذى أكرمنا وأحسن إلينا ، إن أخانا بنيامين الذى احتجزته عندك لمدة سنة على سبيل الاسترقاق ، له أب شيخ كبير قد تقدمت به السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حبا جما ، فخذ أحدنا مكانه حتى لانفجع أبانا فيه ، وإننا ما طلبنا منك هذا الطلب ، إلا لاعتقادنا أنك من المحسنين إلينا ، المكرمين لنا ، فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا بنيامين ليسافر معنا .

ولكن يوسف - عليه السلام - رد عليهم ردا حازما حاسما قال فيه : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، أى : حاش لله ونعوذ بالله من ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى ﴿ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ ، أى : وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة ، فنحن نسير فى هذا الحكم تبعا لشريعتكم .

و ﴿إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ﴾ إذا أخذنا شخصا آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده ، والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدل فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدل لأننا لانريد أن نكون ظالمين .

وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال إخوته فى العفو عن «بنيامين» ، أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه .

٦٢ - وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ اسْتِيسَأُوا ﴾ أى : يسئوا يأسا تاما .

وقوله : ﴿ خَلَصُوا ﴾ من الخلوص بمعنى الانفراد ، و ﴿ نَجِيًّا ﴾ بمعنى المناجاة فى السر والفاء فى قوله : ﴿ فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا ﴾ للتعطف على محذوف يفهم من السياق .

والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق لهم سراح أخيهم «بنيامين» ، أو ليأخذ أحدهم بدله ، فلما يسئوا يأسا تاما من الوصول إلى مطلوبهم انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون إليه ولا يجد معهم بنيامين .

وهنا قال لهم كبيرهم فى السن وهو «روبيل» أو كبيرهم فى العقل وهو «يهودا» - ولم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض - قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا ﴾ ، وأنتم تريدون الرجوع إلى أبيكم ﴿ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ عندما أرسل معكم بنيامين بأن تحافظوا عليه ، وألا تعودوا إليه بدونه .

وألّم تعلموا كذلك أنكم فى الماضى قد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم ألقيتم به فى الحب .

لاشك أنكم قد علمتم كل ذلك ، ولهذا فوالله لن أبرح أرض مصر ولن أفارقها حتى يأذن لى أبى بمفارتها ، أو حتى يحكم الله لى بالخروج منها وبمفارتها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق مع أبى ، وهو - سبحانه - أحكم الحاكمين ، لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : ﴿ ارجعوا ﴾ يا إخوتى ﴿ إلى أبيكم ﴾ ، يعقوب ﴿ فقولوا ﴾ له برفق وتلطف : ﴿ يا أبانا إن ابنك ﴾ بنيامين ﴿ سرق ﴾ صواع الملك ، ووجد الصواع فى رحله ، وقولوا له - أيضا - إننا ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ ، أى : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا وبقيننا بأنه سرق ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ ، أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا ، وقولوا له - أيضا - على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من قولنا هذا فاسأل أهل القرية التى كنا فيها ، بأن ترسل من تريد إرساله إلى أهل مصر لتسألهم عن هذه الحادثة وهى سرقة « بنيامين » لصواع الملك فإنهم يعرفونها جيدا واسأل كذلك ﴿ العير التى أقبلنا فيها ﴾ أى : قوافل التجارة التى صاحبتنا عند ذهابنا إلى مصر وعند رجوعنا منها ، فسيخبرونك بهذه الحادثة بالتفصيل وإنا لصادقون صدقا تاما فى كل ما أخبرناك به .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب ، ما دار بين يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ، ومعهم شقيقه « بنيامين » فماذا كان بعد ذلك ؟ .

## ١٢- يعقوب - عليه السلام - يحرض أولاده

### على البحث عن يوسف وأخيه بنيامين

٦٣ - لقد حكمت الآيات الكريمة بعد تلك المحاورة التي دارت بين إخوة يوسف وهم بأرض مصر ، أن عادوا إلى أبيهم ، وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن - على عادته في هذه السورة الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق رده عليهم ، الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة أماله فى رحمة الله - تعالى - فيقول :

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ  
جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٦﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ  
يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٧﴾ قَالُوا تالله  
تَقْتُلُونَ ذَكَرْتُمْ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٨﴾  
قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِيِّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾  
يَبْنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ  
إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴿٩٠﴾

٦٤ - أى : قال يعقوب - عليه السلام - لبنيه الذين حضروا إليه من رحلتهم ، فأخبروه بما هيح أحزانه ، قال لهم : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن أنفسكم هى التى زينت لكم أمراً أنتم أردتوه ، فصبرى على ما قلتكم صبر جميل ، أى : لا جزع معه ولا شكوى إلا لله - تعالى - .

ولعل الذى حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول ، المفيد لتشككه فى صدق ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ماضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه فى يوسف ، بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة

الله ، وفى رجائه الذى لا يخيب فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعا فقال - عليه السلام - :  
﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : عسى الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعا - يوسف وبنيامين وروبيل -  
الذى تخلف عنهم فى مصر ، إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل مايفعله  
ويقضى به ، وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ،  
وحسن صلته بالله - تعالى - ، وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه ، - سبحانه - وكأنه  
بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، ما لا يراه غيره بحواسه وجوارحه .

ثم يصور - سبحانه - ما اعترى يعقوب من أحزان على يوسف ، جدها فراق بنيامين له  
فقال - تعالى - : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ  
كَظِيمٌ ﴾ .

ولفظ ﴿ كَظِيمٌ ﴾ هنا بمعنى مكظوم ، وهو الممتلئ بالحزن ولكنه يخفيه عن الناس  
ولا يظهره لهم .

والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله أبنائه له ، ورد عليهم بمايدل على شكه  
فى صدقهم ، انتابته الأحزان والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون ، وتركهم واعتزل  
مجلسهم وهو يقول : ﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ ﴾ أى : يا حزنى على ابنى يوسف أقبل  
فهذا أوان إقبالك .

﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ حتى ضعف بصره ، وانقلب سواد عينيه بياضا من  
كثرة البكاء ، ومن كثرة امتلائه بالحزن المكتوم فى قلبه على فراق يوسف .

قالوا : وإنما تأسف على فراق يوسف دون أخويه - بنيامين وروبيل - مع أن الرزء الأحدث  
أشد على النفس ، لأن المصيبة فى فراق يوسف كانت الأصل فى حزنه ، وكانت القاعدة  
التي ترتبت عليها الرزايا والخطوب بعد ذلك ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر  
بالمصيبة السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى «متمم بن نوية فى  
رثائه لأخيه مالك بن نوية» حيث قال :

لقد لامنى عند القبور على البكا      رفيقى لتذراف الدموع السوافك  
فقال أتبكى كل قبر لقيته      لقبر ثوى بين اللوى والدكادك  
فقلت له إن الشجى يبعث الشجى      فدعنى ، فهذا كله قبر مالك

٦٥ - ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على هذه الصورة من

الهم والحزن فيقول: ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ ولفظ ﴿ حَرَضًا ﴾ مصدر حرَض - كتعب - والحرَض: الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض، أى: قال أبناء يعقوب له: يا أبانا، تا الله مايزال تذكر ليوسف بهذا الحزن الشديد، حتى تشرف على الموت، أو تكون من المفارقين لهذه الدنيا. وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير مايشعرون به من ألم وأمل بقوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾، أى: همى الذى انطوى عليه قلبى ﴿ وَحَزْنِي ﴾ الشديد على فراق يوسف ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ تعالى وحده، لا إلى غيره فهو العليم بحالى، وهو القادر على تفريج كربى فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى فإنى ﴿ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى: من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أنتم، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يطفىء بى، وأن يجمع شملى بمن فارقتى من أولادى، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم.

ثم يضى يعقوب - عليه السلام - فى رده على أولاده، فيأمرهم أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه، وألا يقنطوا من رحمة الله فيقول: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

أى: قال يعقوب لأولاده: يا بنى اذهبوا إلى أرض مصر، أو إلى أى مكان تتوقعون فيه وجود يوسف وأخيه ﴿ فَتَحَسَّسُوا ﴾ أمرهما، وتعرفوا حالهما بدون كلل أو ملل وفى التعبير بقوله: ﴿ فَتَحَسَّسُوا ﴾، إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى، إذ التحسس هو طلب الشئ بطريق الخواس بدقة وحكمة وصبر على البحث.

وقوله: ﴿ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ﴾ أى: ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته.

وأصل معنى: ﴿ الرُّوح ﴾ التنفس، يقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعير لحلول الفرج، وكلمة ﴿ رُوح ﴾ - بفتح الراء - أدل على هذا المعنى، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخائق، بسبب ما تننسه الأرواح من رحمة الله.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾، تعليل لحضهم على التحسس.

أى: إنه لا يقنط من رحمة الله - تعالى - إلا القوم الكافرون، لعدم علمهم بعظيم قدرته، وسعة رحمته، أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبدا، حتى ولو أحاطت بهم الكروب، واشتدت عليهم المصائب.

## ١٣. اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته

٦٦ - استجاب أبناء يعقوب لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا في طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزير مصر - وهو يوسف - عليه السلام - الذى احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة ما دار بينه وبينهم من مفاجآت مثيرة فتقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا

عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ  
 مُّزْجَجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ  
 ﴿٤٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ  
 ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَءِتَكَ أَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ  
 عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا  
 تَاللَّهِ لَقَدْ ءِتْرَكْنَا اللَّهَ وَعَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَلْخَاطِئِينَ ﴿٥١﴾ قَالَ لَا تَأْتِبِ  
 عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٥٢﴾  
 أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنْتُونِي  
 بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ  
 يُوسُفَ أَوْ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٥٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ  
 ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ  
 إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا  
 إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ  
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٨﴾

٦٧ - وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ .. ﴾ حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد لقائهم معه للمرة الثالثة .

والبضاعة : هي القطعة من المال ، يقصد بها شراء شيء معين .

والمزجاة : هي القليلة الرديئة التي ينصرف عنها التجار إهمالا لها ، وأصل الإزجاء : السوق ، والدفع قليلا قليلا .

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطف بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة : يا أيها العزيز أصابنا وأصاب أهلنا الفقر والجذب ، وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة ، يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار إهمالا لها ، واحتقارا لشأنها .

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ ، أى : هذا هو حالنا وشأننا قد شرحناه لك ، ومادام أمرنا كذلك ، فأتمم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ، إن الله - تعالى - يجزى المتصدقين على غيرهم جزاء كريما حسنا .

وهنا رد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ، أى : قال لهم على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم ، هل علمتم ما فعلتموه بيوسف وبأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى والعدوان؟ وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه ، حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ، لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقلهم وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه .

٦٨ - وهنا يعود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيهم يوسف ، فيقولون له فى دهشة وعجب : أأنك لأنت أخونا يوسف الذى أكرمنا ، والذى فارقناه وهو صغير ، فأصبح الآن عزيز مصر ، والمتصرف فى شئوننا؟ .

فرد عليهم بقوله : ﴿ أَنَا يُوسُفُ ﴾ ، الذى تتحدثون عنه ، والذى فعلتم معه ما فعلتم ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ بنيامين الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم .

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ عَلَيْنَا ﴾ حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبذل أحوالنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج .

ثم علل ذلك بما حكاه عنه القرآن فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن كل ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه يرحمه الله برحمته ، ويكرمه بكرمه ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وتلك سنته التى لا تتخلف ولا تتبدل .

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فينتابهم الحزى والخجل ، حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان إليهم ، فقالوا له فى استعطاف وتذلل : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

أى : نقسم بالله - تعالى - لقد اختارك - سبحانه - لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر ، وبكل الصفات الكريمة ، أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك من جرائم ، ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

فرد عليهم يوسف بقوله : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، أى قال لهم : يا إخوتى لا لوم ولا تأنيب ولا تعبير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وأثام ، وأرجو الله أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب ، وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

٦٩ - ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن عليه فقال : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى : اذهبوا - يا إخوتى - بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى الذى طال حزنه بسبب فراقى له يأت بصيرا ، أى : يرتد إليه كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن ، وأتوني معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعا من رجال ونساء وأطفال .

وقول يوسف هذا إنما هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه - الذى ألهمه أن إلقاء قميصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملا ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكرميين .

واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ، ويصور القرآن ما حدث فيقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْتَدُونَا ﴾ .

ومعنى : ﴿ فَصَلَّتِ الْعِيرُ ﴾ خرجت من مكان إلى آخر ، يقال : فصل فلان من بلدة كذا ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .

وقوله : ﴿ تَفْنَدُونَ ﴾ من الفند ، وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن .  
أى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب لمن كان جالسا معه : استمعوا إلىّ ، إنى لأجد رائحة يوسف التى تدل عليه ، وتشير إلى قرب لقائى به ، ولولا أن تنسبونى إلى ضعف العقل لصدقتمنى فيما قلت . .

وقد أشم الله - تعالى - يعقوب رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة ، قال الإمام مالك - رحمه الله - : أوصل الله - تعالى - ريح قميص يوسف إلى يعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه .

٧٠ - ولكن المحيطين بـيعقوب ، الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا ما شمه ولم يحسوا ما أحسه ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

أى : نقسم بالله إنك يا يعقوب مازلت غارقا فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك ، وهو حبك ليوسف ، وأملك فى لقاءه وفى الإكثار من ذكره ، وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف ، وحل أو ان المفاجأة التى حكاهها القرآن فى قوله : ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : وحين اقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .

وهذه معجزة أخرى أكرم الله بها نبيه يعقوب ، حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .

وهنا قال يعقوب لمن أنكر عليه قوله : ﴿ إِنِّي لِأَجْدُ رِيحَ يَوْسُفَ ﴾ ألم أقل لكم قبل ذلك إنى أعلم من الله - تعالى - ومن رحمته ومن فضله وإحسانه ما لا تعلمون أنتم؟ .

ولم يجد الأبناء إزاء هذه الأحداث والمفاجآت إلا أن يقولوا لأبيهم يعقوب : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ، أى : تضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حَقِّك وفى حق أخويننا يوسف وبنيامين ، إنا كنا خاطئين فى حَقِّك وفى حقهما ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عن اعتراف له بالخطأ فى حقه .

فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم : سوف أتضرع إلى ربي لكى يغفر لكم ذنوبكم إنه - سبحانه - هو الكثير المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

## ١٤. لقاء يوسف عليه السلام بأهله أجمعين

٧١ - صورت لنا السورة الكريمة قبل ذلك ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه من مناقشات ومن لقاءات مثيرة ، وحافلة بالبشارات والمفاجآت .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها ، فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم ، استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ ، فى آخر القصة فيقول :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ  
 ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ  
 وَخَرَّ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتَاهُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا  
 رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّبْحِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ  
 مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا  
 يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي  
 تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا  
 وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾

٧٢ - وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : استجاب إخوة يوسف لقوله لهم : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُهِ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فاتوه بهم جميعا ، حيث رحلوا من بلاد الشام التى كانوا يعيشون فيها إلى مصر ومعهم أبوهم يعقوب - عليه السلام - فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقا حارا ، وقال للجميع : ﴿ ادْخُلُوا ﴾ بلاد ﴿ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ من الجوع والخوف .

وقد ذكر المفسرون هنا كلاما يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعا لاستقبالهم ، والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن فى ربوعها .

قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليعقيموا فى مصر ما بين الثمانين والتسعين .

والمراد بالعرش فى قوله - سبحانه - : السرير الذى كان يجلس عليه .  
أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى كان يجلس عليه ، تكريرا لهما ، وإعلاء من شأنهما .

﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لا يكون إلا لله - تعالى - وإنما المقصود به أنهم فعلوا معه ما يدل على احترامه وتوقيره .  
وقال يوسف متحدثا بنعمة الله : يا أبت هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى رأيتها فى صغرى ، فقد جعل ربى هذه الرؤيا حقا ، وأرانى تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها هذا الزمن الطويل .

قالوا : وكان بين هذه الرؤيا وبين ظهور تأويلها : أربعون سنة .  
والمراد بها ما أشار إليه القران فى مطلع هذه السورة حيث قال - سبحانه - حكاية عن يوسف : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .  
ثم قال يوسف - أيضا - : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ ربى - سبحانه - ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ، بعد أن مكثت فيه بضع سنين ، وأحسن بى - أيضا - حيث جمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم مقيمين فى البادية ، من أرض كنعان بفلسطين ، وبعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الجب .  
وأسند النزغ الذى بمعنى الإفساد إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك سترا على إخوته وتادبا معهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .

أى : إن ربى وخالقى لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون ، وأنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

ثم ختم يوسف ثناءه على الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير فقال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ، أى : يا رب قد أعطيتنى شيئا عظيما من الملك والسلطان بفضلك

وكرمك ﴿ وَعَلَّمْتَنِي ﴾ ، - أيضا - شيئا كثيرا ﴿ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى : من تفسيرها وتعبيرها تعبيرا صادقا بتوفيقك وإحسانك ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، أى : خالقهما على غير مثال سابق ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ وناصرى ومعينى ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوْفَنِي ﴾ ، عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقنى ﴿ مُسْلِمًا ﴾ مدة حياتى ﴿ وَالْحَقْنِي ﴾ فى قبرى ويوم الحساب ﴿ بِالصَّالِحِينَ ﴾ من عبادك ، وبهذا الدعاء الجامع لألوان الخير الذى توجه به يوسف إلى خالقه ، يختتم القرآن قصة هذا النبى الكريم مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم من عاشرهم والتقى بهم ، وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ، عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

٧٣ - وبعد . . فهذه قصة يوسف - عليه السلام - كما وضحتها آيات القرآن الكريم ، تلك القصة الزاخرة بالحكم والأحكام ، وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وغضبها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها ، وعطائها ومنعها ، وسرها وعلانياتها ، ورضائها وغضبها ، وحزنها وسرورها . ومن الدروس النافعة ، والعظات البليغة ، التى يجب أن نتعلمها من هذه القصة مايلى :

( أ ) أن الحسد رذيلة إذا سيطرت على النفوس ، أفقدتها رشدها وصوابها ، وتقديرها الصحيح للأمر ، وأن الإنسان الحقود هو الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره .

وبسبب الحسد ، ارتكبت أول جريمة قتل على ظهر الأرض ، فقد قتل قابيل أخاه هابيل ، لأن الله - تعالى - تقبل صدقة هابيل لإخلاصه ، ولم يقبل صدقة قابيل لظلمه ، فما كان من قابيل إلا أن حسد أخاه على ما آتاه الله من فضله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وبسبب الحسد فعل إخوة يوسف معه ما فعلوا ، من كراهية ، ومن إلقاء به فى غيابة الجب دون رحمة أو شفقة منهم له .

والحسد حقيقة واقعة ، وأثره لاشك فيه ، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يستعيذ به من شرور الحاسدين ، قال - تعالى - :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [ الفلق : ١ - ٥ ]

وفى الحديث الشريف : « العين حق ، العين تدخل الجمل القدر ، والرجل القبر ، ولو كان شىء يسبق القدر لسبقته العين » .

وقد نهى النبى ﷺ نهيا شديدا عن هذه الرذيلة ، فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ ، فَإِنَّهُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » .

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمِّ قَبْلَكُمْ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ ، وَهِيَ الْحَالِقَةُ ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ : تَحْلُقُ الشَّعْرَ لَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُوا ، أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى مَا تَتَحَابُونَ بِهِ ؟ أَفْشَلُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » .

(ب) أن إخوة يوسف وإن كانوا جميعا مخطئين في حقه ، إلا أن هذا الخطأ كانت درجاته متفاوتة فيما بينهم ، إذ منهم من قال : ﴿ اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ .. ﴾ ، ومنهم من قال : ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

وهذا الرأي الأخير هو الذي استقر عليه أمرهم ، والذي اقترح هذا الرأي منهم كان على شيء من العقل والحكمة ، لأنه اكتفى بالعقوبة التي يحصل بها غرضهم وقصدهم ، وهي إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه في الجب ، فيكفى عن القتل أو الطرح في الأرض حتى يموت ، وهكذا قبض الله - تعالى - ليوسف من بين إخوته من يقترح الاقتصاد في الانتقام .

(ج) أن الخلوة التي تكون بين الرجال والنساء غير المحارم ، حرمتها شريعة الإسلام تحريما قاطعا ، وذلك لأنها تؤدي إلى الوقوع فيما نهى الله - تعالى - عنه ، إذ ميل الرجل إلى المرأة ، وميل المرأة إلى الرجل ، أمر طبيعي ، وما بالذات لا يتغير .

ووجود يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز تحت سقف واحد ، أدى إلى فتنها به ، وإلى أن تقول له في نهاية الأمر بعد إغراءات شتى : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، أي : أنا متهيئة لما تريده مني .

ولاشك أن من الأسباب الأساسية التي جعلتها تقول هذا القول - الذي فيه خروج على طبيعة الأنثى التي جرت العادة أن تكون مطلوبة لا طالبة - وجودهما في بيت واحد ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي حذرت من اختلاط الرجال بالنساء ، ما جاء في الصحيحين عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحموي يا رسول الله؟ قال ﷺ « الحموي الموت » ، والحموي : هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .

وسئلت امرأة كانت من علية القوم ، وقد انحرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك وأنت من أنت في قومك؟ فقالت : قرب الوساد ، وطول السواد ، أي : وطول الحديث مع من أحب ، ولاشك - أيضا - في أن موقف زوج تلك المرأة التي كانت تعيش مع يوسف في بيت واحد ، كان موقفا فيه مافيه من الرخاوة وقلة الغيرة وبرود الطبع ،

شأن المترفين في كل زمان ومكان ، ولا أدل على ذلك من أنه حتى بعد أن قامت القرائن على انحراف امرأته ، لم يفرق بينها وبين يوسف - عليه السلام - بل استمر الحال على ما هو عليه من بقائها مع يوسف - عليه السلام - تحت سقف واحد ، وكل ما قاله : ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

(د) أن المصطفين الأخيار من عباد الله - تعالى - لا يستطيع الشيطان أن يتغلب عليهم مهما قدم لهم من شهوات ومغريات ، بل إنهم ليفضلون السجن وما يشبهه من أذى ، على اقتراف ما يتنافى مع مكارم الأخلاق .

ولقد ضرب يوسف - عليه السلام - في هذا الشأن أروع الأمثال ، ألا تراه أمام تهديد تلك المرأة التي راودته عن نفسه فاستعصم ، يلتمس العون من ربه فيقول : ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال ، إنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من ذلك ويختار السجن خوفا من الله - تعالى - ورجاء في ثوابه . . (١)

(هـ) أن الإنسان صاحب الرسالة يحرص على تبليغ الرسالة التي أمره الله - تعالى - بتبليغها كل الحرص ، ولا يشغله عن أداء وظيفته سجن أو تهديد .

انظر إلى يوسف - عليه السلام - يتعرض للمؤامرات والفتن ، ويلقى به في السجن ظلما وعدوانا ، ومع ذلك نراه وهو بالسجن يدعو من معه إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، فيقول كما حكى القرآن عنه :

﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٣١٣ .

( و ) أن سنة الله - عز وجل - قد اقتضت أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا وأنه - سبحانه - يأتي بالفرج بعد الشدة ، وباليسر بعد العسر .

وهذا ما نراه واضحا فى قصة يوسف - عليه السلام - فبعد تعرضه للفتن والظلم ، وبعد إلقاءه فى السجن لبضع سنين ، بعد كل ذلك نراه يخرج من السجن معززا مكرما ، لأنه قد فسر رؤيا الملك تفسيرا حكيما صادقا ، أنقذ مصر من مجاعة سبع سنين ، ونراه لا يقبل الذهاب إلى الملك إلا بعد أن يشهد الجميع ببراءته وعلى رأسهم امرأة العزيز ، ولقد شهد الجميع بذلك ، فقد قال الملك لامرأة العزيز وحاشيتها : ﴿ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِّي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهكذا نرى أن الحق مهما طال خفاؤه لا بد من ظهوره ، وأن الليل البهيم لا بد من أن يعقبه صبح منير ، وأن العاقبة للمتقين .

( ز ) أن الإنسان صاحب المواهب العالية ، والتفكير السليم ، والفهم الصحيح للأمر ، عندما يلمس فى نفسه الكفاءة لأداء عمل معين يخدم عن طريقه أمته ، لا بأس من أن يطلب هذا العمل بعزة وإباء وإخلاص .

ألا ترى أن يوسف - عليه السلام - يقول له ملك مصر بعد أن شاهد فيه الصدق والعلم والعقل الراجح ، والعفاف النادر : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة ، التى تجعلنا نأتمك على كل شىء فى مملكتنا ، فيجيبه يوسف - عليه السلام - بصيغة الأمر ، وبعزة وشمم : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : اجعلنى أمينا على خزائن مملكتك ، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من طعام وأموال ، لأنى شديد الحفظ لما فيها واسع الخبرة فى هذا المجال .

فأنت ترى أن يوسف لم يطلب هذا المنصب الرفيع لهوى فى نفسه ، وإنما طلبه لرعاية مصالح الناس ، وتدبير أمورهم فى تلك السنوات العجاف .

( ح ) أن الآباء العقلاء لا يمنعهم خطأ أبنائهم من محبتهم ورعايتهم والحرص على سلامتهم ، انظر إلى يعقوب - عليه السلام - ، إخوة يوسف يلقون به فى الجب ، ثم يأتون بعد ذلك يتباكون ويقولون : قد أكله الذئب ، ثم بعد ذلك يلحون عليه فى أخذ شقيق يوسف معهم فى سفرهم إلى مصر ، فيوافقهم على كره منه ، بعد أخذ المواثيق عليهم بالمحافظة عليه ، وعودته معهم ، ومع كل هذا نراه يقول لهم وهو يودعهم خوفا عليهم

من الحسد : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

أى : يا أولادى أنتم أحد عشر رجلا ، فإذا ما وصلتكم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب ، فإني أخاف عليكم من الحسد وهكذا الآباء ، قلوبهم لا تكف عن رعاية الأبناء حتى ولو أخطأ الأبناء فى حق آبائهم .

(ط) أن النفوس النقية الكريمة ، التى أضاء الله - تعالى - بصيرتها ، وزرقها الإيمان العميق ، والعزم المتين ، والخلق القويم ، لا تفقد الأمل فى رحمة الله - تعالى - مهما اشتدت المصائب والكوارث ، انظر - أيضا - إلى يعقوب - عليه السلام - يرجع إليه أولاده من مصر وليس معهم «بنيامين» شقيق يوسف - عليه السلام ثم يقولون له : ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ، فتجدد أحزانه على ولديه - يوسف وبنيامين - ولكنه لا يفقد الأمل فى الالتقاء بهما ، بل يقول لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثم يقول لهم : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وقد حقق الله - تعالى - لعبده يعقوب آماله ، حيث آتاه بهم جميعا بفضله وإحسانه .  
(ى) أن الذى يتدبر قصة يوسف - عليه السلام - فى شتى مراحل حياته ، كما حكاها القرآن الكريم ، يزداد إيمانا واعتقادا بأن هذا القران من عند الله - تعالى - لأن الرسول ﷺ الذى نزل عليه هذا القرآن ، لم يكن معاصرا ليوسف - عليه السلام - ولا لغيره من الأنبياء الكرام ، ومع ذلك فقد قص علينا القرآن قصة يوسف - عليه السلام - بهذا الأسلوب البليغ ، وبذلك البيان الصادق ، مما يدل على أن هذا القران من عند عالم الغيب والشهادة ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وقد ختمت قصة يوسف - عليه السلام - بقوله - سبحانه - : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

هذه بعض الدروس والعظات ، التى نتعلمها من هذه القصة التى فيها ما فيها من أحكام حكيمة ، ومن تشريعات قوية ، ومن آداب حميدة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## قصة لوط . عليه السلام . مع قومه

- ١ - وردت قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، فى سور متعددة ، منها : الأعراف ، وهود ، والحجر ، والأنبياء ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصفات ، والقمر .  
وقد تكرر اسم «لوط» - عليه السلام - مع قومه فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة .  
قال - تعالى - فى سورة الأعراف :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ  
أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ إِن كُمْ لَكَاتُونَ  
الرِّجَالِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كَانَ  
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۚ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٤٧﴾  
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ۖ إِلَّا أُمَّرَأَهُ ۚ إِنَّهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٤٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ  
مَطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْجُورِينَ ﴿٤٩﴾

قال ابن كثير : «لوط ، هو ابن هاران بن أزر وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المأثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله» (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلُوطًا ﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق أى : وأرسلنا لوطا إلى قومه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : أنفعلون تلك الفعل التى بلغت نهاية القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان ، فأنتم أول من ابتدعها فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة .  
والاستفهام للإلنكار والتوبيخ ، قال عمر بن دينار : «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط» ، وقال الوليد بن عبد الملك : «لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا» .

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣٠

ثم أضاف لوط إلى إنكاره على قومه إنكاراً آخر وتوبيخاً أشنع فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ  
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

أى : إنكم أيها القوم لمسوخون فى طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله  
ليأتوا النساء ، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة .

والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع ، من أتى المرأة إذا غشيها .

وفى إيراد لفظ ﴿ الرِّجَالَ ﴾ دون الغلمان والمردان ونحوهما ، مبالغة فى التوبيخ والتقريع .

قال صاحب الكشاف : «و ﴿ شَهْوَةً ﴾ مفعول له أى : للاشتهاء ولا حامل لكم عليه  
إلا مجرد الشهوة من غير داعٍ آخر ، ولاذم أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا  
داعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه»<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أى : تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللائى هن  
موضع الاشتهااء عند ذوي الطبائع السليمة ، والأخلاق المستقيمة .

قال الجمل : «وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ، لأن الله - تعالى - خلق  
الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا ، وجعل النساء محلاً للشهوة  
وموضعا للنسل ، فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف  
وجاوز واعتدى ، لأنه وضع الشيء فى غير محله وموضعه الذى خلق له ، لأن أدبار  
الرجال ليست محلاً للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة للإنسان»<sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ، إضراب عن الإنكار إلى الأخبار عن الأسباب التى  
جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء .

أى : أنتم أيها القوم لستم من يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله بل أنتم قوم  
مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ، ولا تقفون عند حد الاعتدال فى عمل من الأعمال .

وقد حكى القرآن أن لوطاً - عليه السلام - قال لهم فى سورة العنكبوت : ﴿ أَنْتُمْ  
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ .

وقال لهم فى سورة الشعراء : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ ، أى : متجاوزون لحدود الفطرة  
وحدود الشريعة .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ١٢٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص ١٦٢ .

وقال لهم فى سورة النمل : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، وهو يشمل الجهل الذى هو ضد العلم ، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش .

ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحطاط الخلق ، وإيثار الغى والعدوان على الرشاد والتدبير .

ولقد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ .

أى : وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط - عليه السلام - إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا ومن معه من المؤمنين من قريتكم سدوم التى استوطنتموها وعشتم بها .

ولكن لماذا هذا الإخراج؟ بين القرآن أسبابه كما تفوهت به ألسنتهم الخبيثة ، واتفقت عليه قلوبهم المنكوسة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ .

أى : إن لوطا وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال ، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونها مناسبا لهم ، يقال : تطهر الرجل ، أى : تنزه عن الآثام والقبايح .

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والأخلاق عندما ترتكس ، إنها تستنكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش ، وتعمل على إخراجها ، ليبقى لها الملوثون المسوخون ، وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين ، الذين انحطت طباعهم ، وانقلبت موازينهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأروه حسنا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقولهم : ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القدارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : «أبعدوا عنا هذا المتكشف ، وأريحونا من هذا المتزهّد» .<sup>(١)</sup>

ثم حكى السورة عاقبة الفريقين فقالت : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ ، أى : وأنجينا لوطا ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين به .

قالوا : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال - تعالى - ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ ، استثناء من أهله ، أى : فأنجينا وأهله إلا امرأته فإننا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٧ .

قال ابن كثير: إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا أُمَّرَأْتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي: «الباقين في العذاب». (١)

والغابر: الباقي، يقال: غبر الشيء يغبر غبورا، أي «بقي»، وقد يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من الأضداد، ومنه قول الأعشى: في الزمن الغابر، أي: الماضي.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا﴾، أي: وأرسلنا على قوم لوط نوعا من المطر عجيبا أمره، وقد بينه الله في آية أخرى بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سَجِيلٍ﴾. (٢)

أي: جازيناهم بالعقوبة التي تناسب شناعة جرمهم فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء، أهلكناهم بالعقوبة التي قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أي من طين متجمد.

ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال - تعالى - ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: فانظر أيها العاقل نظرة تدبير واتعاض في مال أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يصيبك ما أصابهم وسر في الطريق المستقيم لتنال السعادة في الدنيا والآخرة.

هذا وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقي من شاهر ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم، سواء أكان محصنا أم غير محصن. (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣١

(٢) سورة الحجر الآية ٧٤.

(٣) راجع تفسير القاسمي ص ٢٨٠٧ وما بعدها، وتفسير الألوسي ج٧ ص ١٧٢ وما بعدها.

٢ - وفي سورة «هود» آيات كريمة ، تحدثت عن جانب مما دار بين لوط - عليه السلام - وبين قومه من محاورات ، انتهت بهلاكهم وتدميرهم ، حيث قال - تعالى - :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ  
هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا  
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتُومَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا  
اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ  
عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ  
قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ  
لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ  
أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُنَّ إِنَّهُ مَصِيبٌ مِمَّا صَابَهُمْ إِنْ مَوْعَدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ  
الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهَا جَمْرًا مِّنْ سِجِّيلٍ مَّضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ  
مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعترى لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم  
عندما جاءت الرسل فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ .. ﴾ .

أى : وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه  
وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه  
عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ، تصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه  
وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .

قال القرطبي: «والذرع مصدر ذرع، وأصله: أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع.

وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلمه من فسوق قومه» (١).

﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أى: وقال لوط - عليه السلام - فى ضجر وألم: هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف، يوم «عصيب» أى: شديد هولاه وكربه.

وأصل العصب: الشد والضغط، فكان هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر والبلاء، أى: شد به.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: «ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها فى الوجود، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه، فإذا علم أنه لا مخلص له منه ضاق به ذرعا، ثم يصدر تعبيراً عن المعانى يريح به نفسه» (٢).

ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام - عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمَهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. ﴾.

ويهرعون - بضم الياء وفتح الراء فى صيغة المبنى للمفعول - أى: يدفع بعضهم بعضاً بشدة، كأن سائقاً يسوقهم إلى المكان الذى فيه لوط وضيوفه.

يقال: هرع الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فيهما - إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك.

قال الألوسى: والعامية على قراءته مبنياً للمفعول، وقرأ جماعة يهرعون - بفتح الياء مع البناء للفاعل - من هرع - بفتح الهاء والراء - وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيالان، كأن بعضه يدفع بعضاً (٣).

أى: وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضاً إلى بيته من شدة الفرح، ومن قبل هذا المجيء كان هؤلاء القوم الفجرة، يرتكبون السيئات الكثيرة، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء.

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الغرض الذى جاءوا من أجله، وأشار إليه بقوله: ﴿ وَمِنْ

(١) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ج١٢ ص١٣٥.

(٣) تفسير الألوسى ج١٢ ص٩٥.

قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿١﴾ ، للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة في نفوسهم الشاذة ، فلا يسعون إلا من أجل قضائها .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادروهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. ﴾ .

والمراد بيناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللاتي يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه ، لأن كل نبي أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. ﴾ ، يرشدهم إلى نساؤهم ، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم في آية أخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته .

وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم ، هن بناته ، وهو أب لهم (١) .

ومنهم من يرى أن المراد بيناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن .

ويضعف هذا الرأي أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء في بعض الروايات - وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج ؟ .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازي بأن قال ما ملخصه : « وهذا القول عندي هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ، وبناته اللاتي من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية لكل .

ومنها إن صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنيتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة » (٢) .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التي

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج١٨ ص ٣٢ .

ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم برجاء ورقق : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ نِسَاؤُكُمْ اللّائِي بَمَنْزِلَةٍ بَنَاتِي أَرْجِعُوا إِلَيْهِنَّ فَاقْضُوا مِنْهُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ نَفْسِيَا وَحَسِيَا مِنْ التَّلَوْتِ بَرَجِسِ اللّوَاطِ ، وَأَفْعَلِ التَّفْضِيلِ هِنَا وَهُوَ ﴿ أَطْهَرُ ﴾ لَيْسَ عَلَيَّ بَابُهُ ، بَلْ هُوَ لِلْمَبَالِغَةِ فِي الطَّهْرِ .

قال القرطبي : «وليس ألف أظهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن في نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أي : كبير - ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه» . (١)

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادا آخر فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. ﴾ ، أي : في ضيوفي الذين هم في جوارى وأمانى .

قال الجمل : «ولفظ الضيف في الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلا ، ولذلك يقع على المفرد والمذكر وضديهما بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ويجمع فيقال : أضياف وضيوف» . (٢)

وتخزون : من الخزي وهو الإهانة والمذلة ، يقال : خزي الرجل يخزي خزيا ، إذا وقع في بلية فذل بذلك .

أي : بعد أن أرشدهم إلى نسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله ، ولا تجعلوني مخزيا مفضوحا أمام ضيوفي بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقي فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ ، يهدى إلى الرشد والفضيلة ، وينهى عن الباطل والرذيلة فيقف إلى جانبي ، ويصرفكم عن ضيوفي ؟ .

ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الأسنة ، ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة ، بل ردوا عليه بقولهم : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

(١) تفسير القرطبي ج٩ ص٨٦

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص٤١٢ .

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يالوط علما لاشك معه ، أننا لا نرغبه لنا فى النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة فى زعمهم .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ، إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علما يقينا الشئ الذى نريده فلماذا تراجعنا ؟! .

وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور .

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد اليائس من ارعوائهم عن غيهم ، المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ . والقوة : ما يتقوى به الإنسان على غيره ، وآوى : أى ألبأ وانضوى تقول : أويت إلى فلان فأنا آوى إليه أويا أى : انضمت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص القوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به .

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - : بعد أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع والتحسر - : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله : ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصا قويا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى .

قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك ، لأنه كان غريبا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ . أى : إنا نرسل ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك بسوء فى نفسك أو فينا .

روى أن الملائكة لما رأوا ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والكرب بسببهم قالوا له : يا لوط إن ركنك لشديد ، ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم ، يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ . ، أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبا بالمؤمنين من أهلك فى جزء من الليل يكفى لابتعادك عن هؤلاء المجرمين .

وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ . ، معطوف على ما قبله وهو قوله : ﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ .

أى : فأسر بأهلك فى جزء من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، ﴿ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ﴾ يا لوط فاتركها ولا تأخذها معك لأنها كافرة خائنة ولأنها سيصيبها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين ، فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « قوله : ﴿ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك .

وأما الذين رفعوا فالتقدير ، ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم .  
روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت : واقوماه فأصابها حجر فأهلكها» (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ بشارة أخرى للوط - عليه السلام - الذى تمنى النصر على قومه .

أى : إن موعد هلاك هؤلاء المجرمين يبتدئ من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه؟ .

قال - تعالى - فى سورة الحجر ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ ، أى : وهم داخلون فى وقت الشروق ، فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاءه وقت الشروق .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣٦ .

والجملة الكريمة ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۖ ﴾ كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدرة من استعجاله العذاب لهؤلاء المجرمين .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ، للتقرير أى : بلى إنه لقريب .

قال الألوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له : موعدهم الصبح ، فقال : أريد أسرع من ذلك ، فقالوا له : أليس الصبح بقريب ، ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين . (١)

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مُنْضُودٍ . مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبِيعِدٍ ﴾ .

أى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم .  
وقوله : ﴿ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ مُنْضُودٍ ﴾ زيادة فى عقوبتهم ولعنهم .

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليها حجارة ﴿ مِّن سَجِيلٍ ﴾ أى : من حجر وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب ﴿ مُنْضُودٍ ﴾ أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من النضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض .

﴿ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى : معلمة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو ، ومعدة إعدادا خاصا لإهلاك هؤلاء القوم .

﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أى تلك القرى المهلكة ﴿ مِّن الظَّالِمِينَ ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ بَبِيعِدٍ ﴾ ،  
أى : ببعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .

(١) تفسير الألوسى جـ ١٢ ص ١٠١

قال - تعالى - :

﴿وَأِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات : ١٣٧ ، ١٣٨]

أى : وإنكم يا أهل مكة لتمررون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعضوا ؟ .  
ويجوز أن يكون الضمير فى قوله : ﴿وَمَا هِيَ﴾ ، يعود إلى الحجارة التى أهلك بها هؤلاء القوم .

أى : وماهى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهياًة بقدرة الله - تعالى - لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين مايشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، ولم يتبع ما جاء به الرسول ﷺ .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام - .

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء فى الحديث الشريف بشأن لوط - عليه السلام - فقال ما ملخصه :

«وظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ : رحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، إنما هو من باب الإنكار على لوط - عليه السلام - فى قوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ .

والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً - عليه السلام - إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه - تعالى - إلى أمنع قوة وأشد .

ولاجتراح على لوط - عليه السلام - فى طلب قوة من الناس ، فقد قال الله - تعالى - :  
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ . [البقرة : ٢٥١] .

وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرا هو فعله !؟ .

تالله ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط علم بأنهم ملائكة» . (١)

٣ - وفى سورة الحجر آيات كريمة قصت علينا ما دار بين الملائكة وبين لوط - عليه السلام - بعد أن جاءوا إليه ، وما دار بين لوط - عليه السلام - وبين قومه المجرمين من مجادلات ومحاورات ، وما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب جعل أعلى مدينتهم أسفلها ، فقال - تعالى - :

### فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ

الرُّسُلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ  
بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنَّكَ بِالْحَقِّ وَأَنَّ الصَّادِقِينَ ﴿٦٤﴾ فَاسْرِبْ  
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ  
وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ  
هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾  
قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرَجُونَ ﴿٦٩﴾  
قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ  
فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ  
الصَّيْحَةُ مُّشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ

### سَبِيلٍ ﴿٧٤﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الرُّسُلُونَ ﴾ شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط .

(١) تفسير القاسمى ج٩ ص ٣٤٧٢ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير : وخرج الملائكة من عند إبراهيم - بعد أن بشروه بغلامه ، وبعد أن أخبروه بوجهتهم - فاتجهوا إلى المدينة التى يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه ، فلما دخلوا عليه قال لهم : «إنكم قوم منكرون» .

أى : إنكم قوم غير معروفين لى ، لأننى لم يسبق لى أن رأيتكم ، ولا أدرى من أى الأقسام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذى من أجله أتيتم ، وإن نفسى ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندى .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس ، لأنه يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يعلموا بوجود هؤلاء الضيوف أصحاب الوجوه الجميلة عنده ، فيعتدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسى ، الذى اعترى لوطا بسبب وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ مع أن المجيء كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه ، تشريفا وتكريما للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

حكاية لما رد به الملائكة على لوط ، لكى يزيلوا ضيقه بهم ، وكرهيته لوجودهم عنده .

وقوله : ﴿ يَمْتَرُونَ ﴾ من الامتراء ، وهو الشك الذى يدفع الانسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

أى : قال الملائكة للوط لإدخال الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك ، وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون فى وقوعه ، وهو العذاب الذى كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا فى كفرهم وفجورهم .

وإنا ما أتيناك إلا بالأمر الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ولا تردد ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومك ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه لك ، وأخبرناك به فكن آمنًا مطمئنًا .

(١) سورة هود الآية ٧٧ .

فالإضراب فى قوله : ﴿ قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ ﴾ إنما هو لإزالة ما وقر فى قلب لوط - عليه السلام - تجاه الملائكة من وساوس وهو اجس .

وعبر عن العذاب بقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ زيادة فى إدخال الأفس على نفسه ، وتحقيقا لوقوع العذاب بهم .

وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد على تأكيد .

وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تشعر بأن لوطا - عليه السلام - كان فى غاية الهم والكرب لمجيء الملائكة إليه بهذه الصورة التى تغرى المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له فى أسمى درجات البلاغة ، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله - تعالى - بإخباره به ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ فَأَسْرَبَ أَهْلُكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبَعَ أَذْيَابَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى : بجزء من الليل ، والمراد به الجزء الأخير منه .

أى : قال الملائكة للوط - عليه السلام - بعد أن أزالوا خوفه منه : يا لوط إنا نأمرك بإذن الله - تعالى - أن تخرج من هذه المدينة التى تسكنها مع قومك وأن يخرج معك أتباعك المؤمنون وليكن خروجكم فى الجزء الأخير من الليل .

وقوله : ﴿ وَاتَّبَعَ أَذْيَابَهُمْ ﴾ أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم .

قال الإمام ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط - عليه السلام - يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزاة يزجى الضعيف ويحمل المنقطع<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى : ولا يلتفت منكم أحد أيها المؤمنون خلفه ، حتى لا يرى العذاب المروع النازل بالمجرمين .

وإنما أمرهم - سبحانه - بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة التارك لوطنه أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه .

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٥٩ .

وقوله : ﴿ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ ارشاد من الملائكة للوط - عليه السلام - إلى الجهة التي أمره الله - تعالى - بالتوجه إليها .

أى : وامضوا فى سيركم إلى الجهة التى أمركم الله - تعالى - بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمانيته .

قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل : إلى الأردن وقيل : إلى مصر .

ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التى أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذى نعتقده أنهم ذهبوا بأمر الله - تعالى - إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمله العادون من قوم لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط - عليه السلام - .

والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط - عليه السلام - .

وجملة ﴿ أَنَّ دَابِرَ هُوَلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ مفسرة ومبينة لذلك الأمر .

وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولا ، ثم بالتفسير والتوضيح ثانيا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد .

ودابرهم : أى آخرهم الذى يدبرهم ، يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبوراً إذا كان آخرهم فى المعىء ، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب استئصالاً .

وقوله : ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أى : داخلين فى الصباح .

والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم ، وأوحينا إلى نبينا لوط - عليه السلام - أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل ومهلك مع دخول وقت الصباح .

وفى هذا التعبير مافيه من الدلالة على أن العذاب سيمحقهم جميعاً ، بحيث لا يبقى منهم أحداً ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث من القوم المجرمين ، بعد أن تسامعوا بأن فى بيت لوط - عليه السلام - شبانا فيهم جمال ووضاءة فقال - تعالى - : ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

والمراد بأهل المدينة : أهل مدينة سدوم التى كان يسكنها لوط وقومه .

ويستبشرون : أى يبشر بعضهم بعضا بأن هناك شبانا فى بيت لوط - عليه السلام - من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .

وهذا التعبير الذى صورته الآية الكريمة يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء .

إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعا - أهل المدينة - وفى فرح و سرور ، وفى الجهر والعلانية ، لا فى السر والخفاء .

ولأى غرض يأتون؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل فى مجاهرتها بإتيان الفواحش ، إلى مالم تصل إليه بعض الحيوانات .

ويقف لوط - عليه السلام - أمام شذوذ قومه مغیظا مكروبا ، يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الأدمية فيقول لهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُون ﴾ .

أى : قال لوط - عليه السلام - لمن جاءوا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : يا قوم إن هؤلاء الموجودين عندى ضيوفى الذين يلزمنى حمايتهم فابتعدوا عن دارى وعودوا إلى دياركم ، ولا تفضحونى عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فأهون فى نظرهم ، لعجزى عن حمايتهم ، وأنتم تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامة مضيفه .  
وعبر لوط - عليه السلام - عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاءوا إليه فى هيئة الأدميين .

ثم أضاف لوط - عليه السلام - إلى رجاء قومه رجاء آخر ، حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون ﴾ .

أى : واتقوا الله ووصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولا تخزون مع ضيفى ، وتذلونى وتهينونى أمامهم .

ولكن هذه النصائح الحكيمة من لوط - عليه السلام - لقومه ، لم تجد أذنا صاغية بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، شأن الطغاة الفجرة ﴿ قَالُوا أَوْلَمَ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .

أى : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب ، أو لم يسبق لنا يا لوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهى أن تمنعنا عما نريده ، من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم ؟ ولكن لوطا - عليه السلام - مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة فقال : ﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمراد بناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللاتي يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أب لأمته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية - كما سبق أن أشرنا . والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه ، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشيع الفطرة السليمة : يا قوم هؤلاء نساؤكم اللاتي هن بمنزلة بناتي ، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وأداب .

وعبر بيان فى قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ لشكه فى استجابتهم لما يدعوهم إليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم ، وما أظنكم تفعلونه لانتكاس فطرتكم ، وانقلاب أمزجتكم .

وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم فاعلين ما أرشدكم إليه فهو خير لكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين ، ولتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من سفهاء قومه .

فاخطاب فيه للنبي ﷺ واللام فى ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لام القسم ، والمقسم به حياته ﷺ والعمر - بفتح العين - لغة فى العمر - بضمها ، ومعناها : مدة حياة الإنسان وبقائه فى هذه الدنيا ، إلا أنهم ألزموا مفتوح العين فى القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك قسمى أو يمينى .

والسكرة : ذهاب العقل ، مأخوذة من السكر - بفتح السين وإسكان الكاف - وهو السد والإغلاق ، وأطلقت هنا على الغواية والضلالة لإزالتها الرشدهم والهداية عن عقل

الإنسان و﴿يَعْمَهُونَ﴾ من العمه بمعنى التحير والتردد فى الأمر ، وهو للبصيرة بمنزلة العمى للبصر .

يقال : عمه فلان - كفرح - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه وهم عمهون وعمه كركع .  
والمعنى : بحق حياتك - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المكذبين لك ، لفى غفلتهم وغيوايتهم يترددون ويتحيرون ، شأنهم فى ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح ، وغيرهم من المتكبرين فى الأرض بغير الحق .

ثم ختم - سبحانه - القصة ببيان النهاية الأليمة لهؤلاء المفسدين من قوم لوط فقال - تعالى - : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ .

والصيحة : من الصياح وهو الصوت الشديد ، يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بشدة ، وأصل ذلك تشقيق الصوت من قولهم : انصاح الخشب أو الثوب ، إذا انشق فسمع منه صوت ، قالوا : وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة .

﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ : اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ، أى : أن الله - تعالى - بعد أن أخبر لوطا - عليه السلام - بإهلاك قومه ، وأمره عن طريق الملائكة بالخروج ومعه المؤمنون من هذه المدينة ، جاءت الصيحة الهائلة من السماء فأهلكتهم جميعا وهم داخلون فى وقت شروق الشمس .

وقال - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ وقال هنا : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ للإشارة إلى أن ابتداء عذابهم كان عند الصباح وانتهاءه باستئصال شأفتهم كان مع وقت الشروق .

والضمير فى قوله : ﴿ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ ، يعود إلى المدينة التى كان يسكنها المجرمون من قوم لوط .

أى : فجعلنا بقدرتنا على هذه المدينة سافلها ، بأن قلبناها قلبا كاملا ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ ، أى على هؤلاء من قوم لوط ﴿ حِجَارَةً ﴾ كائنة ﴿ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ أى من طين متحجر ، فهلكوا جميعا .

وهكذا أخذ الله - تعالى - هؤلاء المجرمين أخذ عزيز مقتدر ، حيث أهلكهم بهذه العقوبة التى تناسب مع جرميتهم ، فهم قلبوا الأوضاع ، فأتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها فانقم الله - تعالى - منهم بهذه العقوبة التى جعلت أعلى مساكنهم أسفلها .

ثم ساقَت السورة الكريمة بعض العبر والعظات التي يهتدى بها العقلاء من قصتي إبراهيم ولوط - عليهما السلام - فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فاسم الإشارة في قوله - سبحانه - ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ، يعود إلى ما تضمنته القصة السابقة من عبر وعظات .

والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على ما يوصل إلى الحق والهداية ، والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو التأمل في الأسباب وعواقبها ، وفي المقدمات ونتائجها .

والمعنى : إن في ذلك الذي سقناه في قصتي إبراهيم ولوط - عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الغاوين ، لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل في حقائق الأشياء ، وتتعرف على ما يوصلها إلى الهداية والطريق القويم .

قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية أصل في الفراسة ، أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ ﴿ هَذِهِ آيَةٌ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات ، والأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته فلا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطماس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم ، كما قال - تعالى - :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

والضمير في قوله - سبحانه - : ﴿ وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ، يعود إلى المدينة أو القرى التي كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .

أى : وأن هذه المساكن التي كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لطريق ثابت واضح يسلكه الناس ، ويراها كل مجتاز له وهو في سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّكُمْ تَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين في دين الإسلام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، تذييل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ما تقدم من قصتي إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقسام المهلكين .

أى : إن فيما ذكرناه فيما سبق من أدلة واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين .

وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبية على أن التفرس فى الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها ، من صفاتهم وحدهم .

وجمع الآيات قبل ذلك فى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وأفردها هنا فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ للإشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفى لهدايتهم ، ولزيادة إيمانهم ، آية واحدة من الآيات الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وفى ذلك مافيه من الثناء عليهم ، والمدح لهم ، بصدق الإيمان ، وسلامة اليقين .

٤ - وفى سورة «الشعراء» آيات كريمة حدثتنا عن قصة لوط - عليه السلام - مع قومه بأسلوب فيه مافيه من الإعجاز وقوة التأثير ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾  
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ  
 عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكْرَانَ  
 مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ  
 قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ نَمُنَّ بِكَ لَوْ أَنَّكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٧﴾  
 قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ  
 وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا جُورًا فِي الْعَرَبِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٧٢﴾  
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لقد بدأ لوط - عليه السلام - دعوته لقومه فى هذه الآيات بتقوى الله ، وبإخبارهم بأنه رسول أمين من الله - تعالى - إليهم ، وبأنه لا يسألهم أجرا على دعوته لهم إلى الحق والفضيلة .

ثم نهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت متفشية فيهم فقال : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتقريع ، والذكران : جمع ذكر وهو ضد الأنثى

والعادون : جمع عاد ، يقال : عدا فلان فى الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد فى الظلم .

أى : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأتون الذكور الفاحشة ، وتتركون نساءكم اللاتى أحلهن الله - تعالى - لكم ، وجعلهن الطريق الطبيعى للنسل وعمارة الكون؟ .

إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله - تعالى - وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

وقد ردوا عليه بما يدل على شذوذهم وعلى انتكاس فطرتهم ، فقد قالوا له على سبيل التهديد والوعيد : ﴿ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ .

أى : قالوا له متوعدين : لئن لم تسكت يا لوط عن نهيك إيانا عما نحن فيه ، لتكونن من المخرجين من قريتنا إخراجا تاما ، ولنطردنك خارج ديارنا .

وهكذا النفوس عندما تنحدر فى الرذيلة وتنغمس فى المنكر ، تعادى من يدعوها إلى الفضيلة وإلى الطهر والعفاف .

وقد رد لوط - عليه السلام - على سفاهتهم وسوء أدبهم : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ .

والقالين : جمع قال ، يقال : قليت فلانا أقلية - كرميته أرميه - إذا كرهته كرها شديدا .

أى : قال لهم لوط موبخا ومؤنبا : إنى لعملكم القبيح الذى ترتكبونه مع الذكور من المبغضين له أشد البغض ، المنكرين له أشد الإنكار .

ثم توجه إلى ربه - تعالى - بقوله : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ، أى : نجنى يا

رب ، ونج أهلى المؤمنين معى ، مما يعمل هؤلاء الأشرار من منكر لم يسبقهم إليه أحد ،

فأجاب الله - تعالى - دعاءه فقال : ﴿ فَنجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ .

والمراد بهذه العجوز ، امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها .

والغابرين : جمع غابر وهو الباقي بعد غيره ، يقال : غبر الشيء يغبر غبورا ، إذا بقي .  
وقوله : ﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ استثناء من أهله .

أى : فاستجبنا للوط دعاءه ، فأنجيناه وأهله المؤمنين جميعا ، إلا امرأته العجوز فإننا لم  
ننجاه بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها .

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴾ ، أى : ثم أهلكنا قوم لوط المصرين على كفرهم وعلى إتيانهم  
المنكر ، تدميرا شديدا ، فإننا جعلنا أعلى قريتهم سافلها ، وأبدناهم عن آخرهم .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ بعد ذلك الإهلاك ﴿ مَطْرًا ﴾ عجيبا أمره فقد كان نوعا من  
الحجارة ، كما جاء فى آية أخرى فى قوله - تعالى - : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ  
سِجِّيلٍ ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ بيان لسوء مصيرهم

أى : دمرنا هؤلاء القوم ، وأمطرنا عليهم مطرا من الحجارة زيادة فى إهانتهم فسأت  
عاقبتهم ، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار .

ثم ختم - سبحانه - قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، بمثل ما ختم به القصص  
السابقة فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ  
الرَّحِيمُ ﴾ .

٥ - وفى سورة «النمل» تحدثت بعض الآيات عن جانب من هذه القصة فقال  
- تعالى - :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ  
أَتَاتُونَنَا الْفَحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْ كَمْ لَنَا تَوَنُّ الرِّجَالِ شَهْوَةً  
مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ \* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ  
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطِ مِّنْ قَرِينِكُمْ إِنَّمَا نَسِينَاكَ وَنِسْطَهُمْ ﴿٥٦﴾  
فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْعَاثِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وَلَوْطًا...﴾ منصوب بفعل مضمر محذوف ، والتقدير : واذكر - أيها العاقل - وقت أن أرسلنا لوطا إلى قومه ، فقال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ :

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى : أتأتون الفاحشة التى لم يسبقكم إليها أحد ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وأنتم تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفكرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم ، فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتى الذكر ، وإنما يأتى الأنثى حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون .

فقوله - سبحانه - : ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية المقصود بها زيادة تبيكيتهم وتوبيخهم لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها ، كما يعلمون سوء عاقبتها ، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبياءهم من قبلهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ، تأكيد للإنكار السابق ، وتوضيح للفاحشة التى كانوا يأتونها .

أى : أئنكم - أيها المسوخون فى فطرتكم وطبائعكم - لتصبون شهوتكم التى ركبها الله - تعالى - فيكم فى الرجال دون النساء اللاتى جعلهن الله - تعالى - محل شهوتكم ومتعتكم .

وقوله - تعالى - : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة .

وقد حكى القرآن أن لوطا قد قال لهم فى سورة الأعراف : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

وقال لهم فى سورة الشعراء : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ وقال لهم هنا : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحراف الفطرة ، وتجاوز كل الحدود التى ترضيها النفوس الكريمة .

ثم حكى القرآن بعد ذلك جوابهم السيئ على نبيهم فقال : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ...﴾ .

أى : هكذا نصح لوط قومه وزجرهم ، فما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا والمؤمنين معه من قريتكم التى يساكنونكم فيها .

وفى التعبير بقولهم: ﴿مِنْ قَرِيَّتِكُمْ﴾ إشارة إلى غرورهم وتكبرهم فكأنهم يعتبرون لوطاً وأهله المؤمنين دخلاء عليهم، ولا مكان لهم بين هؤلاء المجرمين لأن القرية - وهى سدوم - هى قريتهم وحدهم دون لوط وأهله .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل للإخراج وبيان لسببه ، أى أخرجوهم من قريتهم لأنهم أناس يتنزهون عن الفعل الذى نفعله ، وينفرون من الشهوة التى نشتهىها وهى إتيان الرجال .

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والنفوس عندما ترتكس ، إنها تأبى أن يبقى معها الأظهار ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأروه حسناً .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : «وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخارا بما كانوا فيه من القدارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتكشف وأريحونا من هذا المتزهّد» (١) .

ثم بين - سبحانه - ما آل إليه أمر الفريقين فقال : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِمِّنَ الْغَآبِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ .

أى : فكانت عاقبة تلك المحاورة التى دارت بين لوط وقومه ، أن أنجينا لوطاً وأهله الذين آمنوا معه ، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ فإننا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها ، فبقيت مع القوم الكافرين ، حيث قدرنا عليها ذلك بسبب كفرها وبمالاتها لقومها .

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ على هؤلاء المجرمين ﴿مَطْرًا﴾ عظيماً هائلاً عجيباً وهو حجارة من سجيل دمرتهم تدميراً ، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ أى : فبئس العذاب عذابهم .

وهكذا تكون عاقبة كل من أثر الكفر على الإيمان ، والرذيلة على الفضيلة .

٦ - وفى سورة «العنكبوت» آيات كريمة ، ذكرت جانباً مما دار بين لوط وقومه من محاورات ومجادلات فقال - تعالى - :

وَلُوطًا

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ  
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَنَقَطْعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ، ص ١٢٧ .

فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ  
 اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِدِينَ ﴿٦٧﴾  
 وَمَا جَاءَتْ رُسُلَنَا إِلَّا بَرَهِيمًا بِالْبَشَرَى قَالُوا إِنَّا مُمْهِكُونَ أَهْلَ هَذِهِ  
 الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ  
 بِمَنْ فِيهَا النَّجِيَّةُ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرٌ أَنَّهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَمَا أَنْجَاهُنَّ  
 رُسُلَنَا لُوطًا سِوَىٰ يَوْمِ وَمَضَىٰ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَنْ نَخْفَىٰ وَلَا نَخْزَىٰ  
 إِنَّا نَنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرٌ أَنْكَ كَأَنْتُمْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّا مُمْزِقُونَ  
 عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا  
 مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. ﴾ منصوب بالعطف على إبراهيم في قوله  
 - تعالى - : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أو بفعل مضمرة .

أى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - نبينا لوطا - عليه السلام - وقت أن قال لقومه  
 على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إنكم لتفعلون  
 الفعلة البالغة أقصى درجات القبح والفحش ، والتي ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول  
 من ابتدعها ، وهى إتيان الذكور دون الإناث .

قال عمر بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط .

وقال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله - تعالى - قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت  
 أن ذكرا يعلو ذكرا .

وجاء قوله - عليه السلام - مؤكداً بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم  
 بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَتُنْكُم لِّتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ... ﴾ ، بيان لتلك الفاحشة التي كانوا يقترفونها والاستفهام للتأنيب والتقريع .

والسبيل : الطريق ، والنادى : اسم جنس للمكان الذي يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتقطعون الطريق على المارة بأن تنهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات فى مجالسكم الخاصة ، وفى نواديكم التي تتلاقون فيها .

فأنت ترى أن نبيهم - عليه السلام - قد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ شهواتهم .

فماذا كان جوابهم على نبيهم - عليه السلام ؟ لقد كان جوابهم فى غاية التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن فى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يا لوط بعذاب الله الذى تتوعدنا به ، إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التى ألفناها وأحببناها .

وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ .

ولذا لجأ لوط - عليه السلام - إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، أى : انصرنى بأن تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

وأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه لوط - عليه السلام - وأرسل - سبحانه - ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق ، قبل أن ينفذوا عذاب الله فى قوم لوط ، قال - تعالى - :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ... ﴾ أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق ، قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من

ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ حيث أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، واقترفوا فى مجالسهم المنكرات .

وهنا قال لهم إبراهيم - عليه السلام - بخشيته وشفقته : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. ﴾ أى : إن فى هذه القرية التى جئتم لإهلاكها لوطا ، وهو نبي من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها؟ وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشيته فقالوا : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا .. ﴾ من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين .

﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله - تعالى - قد أمرنا أن ننجى لوطا وأن ننجى معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط - عليه السلام - حيث كانت تقرر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات .

ثم بين - سبحانه - حال لوط - عليه السلام - بعد أن وصل إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله - تعالى - فى قومه فقال - عز وجل - : ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ﴾ .

أى : اعترته المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه اعتداء قومه عليهم .

ولاحظ الملائكة على لوط - عليه السلام - قلقه وخوفه ، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه ، يا لوط : ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أى : لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة .

ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : ﴿ إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذى ننزله بقومك ، إلا امرأتك فسيدرکها العذاب مع قومك ، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة .

ثم أخبروه بالكيفية التى ينزل بها العذاب على قومه فقالوا : ﴿ إِنَّا نُنزِلُونَهُ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

والرجز: العذاب الذي يزعج به ويجعله فى حالة اضطراب وهلع ، يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .

أى : إنا منزلون بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى كان يسكنها قوم لوط - ﴿ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : عذابا شديدا كائنا من السماء ، بحيث لا يملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت ، أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة ، تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم فى التدبر والتفكير .

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كما قال : ﴿ وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

٧ - وفى سورة «القمر» جانب من الحديث عن قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، حيث قال - سبحانه - :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ﴿٦٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ  
 جَعَلْنَاهُمْ نَجِيًّا ﴿٦٧﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ  
 أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ رَوْدُوهُ عَن ضَيْغِهِ  
 فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ  
 مُّسْتَقَرٌّ ﴿٧١﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ  
 فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ ﴿٧٣﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أى كذبوا بالإشارات والتهديدات التى هددهم بها نبيهم لوط ، إذا لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره ونهيه .

فكانت نتيجة هذا التكذيب والفجور الذى انغمسوا فيه الهلاك والدمار كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ .

والحاصب : الريح التى تحصب ، أى : ترمى بالحصباء ، وهى الحجارة الصغيرة التى تهلك من تصيبه بأمر الله - تعالى - .

والسحر : هو الوقت الذى يختلط فيه سواد آخر الليل ، ببياض أول النهار وهو قبيل مطلع الفجر بقليل .

أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة ترميهم بالحصباء فتهلكهم ، إلا آل لوط ، وهم من آمن به من قومه ، فقد نجيناهم من هذا العذاب المهلك فى وقت السحر .

وقوله - تعالى - : ﴿ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا .. ﴾ ، أى : أنجينا آل لوط من العذاب الذى نزل بقومه على سبيل الإنعام الصادر من عندنا عليهم لا من عند غيرنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ ، بيان لسبب هذا الإنعام والإنجاء ..  
أى : بمثل هذا الجزاء العظيم ، المتمثل فى إنجائنا للمؤمنين من آل لوط وفى إنعامنا عليهم ، نجازى كل شاكر لنا ، ومستجيب لأمرنا ونهينا .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين الشاكرين حتى يزدادوا من الطاعة لربهم ، وتعريض بسوء مصير الكافرين ، الذين لم يشكروا الله - تعالى - على نعمه .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ تنويه عظيم بهذا الإنعام ، لأنه صادر من عنده - تعالى - الذى لا تعد ولا تحصى نعمه .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بقوم لوط إلى الدمار والهلاك فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ .

والبطشة : المرة من البطش ، بمعنى الأخذ بعنف وقوة ، والمراد بها هنا : الإهلاك الشديد .

والتمارى : تفاعل من المراء بمعنى الجدال ، والمراد به هنا : التكذيب والاستهزاء ، ولذا عدى بالباء دون فى ، أى : والله لقد أنذرهم لوط - عليه السلام - وخوفهم من عذابنا الشديد الذى لا يبقى ولا يذر ، ولكنهم كذبوه واستهزءوا به ، وبتهديده وتخويفه إياهم .

ثم يحكى - سبحانه - صورة أخرى من فجورهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۚ ﴾ .

أى : والله لقد حاول هؤلاء الكفرة الفجرة المرة بعد المرة ، مع لوط - عليه السلام - أن يمكنهم من فعل الفاحشة مع ضيوفه .

فكانت نتيجة محاولاتهم القبيحة أن ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أى حجبناها عن النظر ، فصاروا لا يرون شيئا أمامهم .

قال القرطبي : « يروى أن جبريل - عليه السلام - ضربهم بجناحه فعموا ، وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب ، وقيل : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل » (١) .

وأسند المرادة إليهم جميعا : لرضاهم عنها ، بقطع النظر عن من قال بها .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ۚ ﴾ مقول لقول محذوف ، أى طمسنا أعينهم وقلنا لهم : ذوقوا عذابي الشديد الذى ينزل بكم ، بسبب تكذيبكم لرسولى ، واستخفافكم بما وجه إليكم من تخويف وإنذار .

والمراد من هذا الأمر : الخبر ، أى : فأذقتهم عذابي الذى أنذرهم به لوط - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ ، والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وجيء بلفظ بكرة للإشعار بتعجيل العذاب لهم ، أى : والله لقد نزل بهم عذابنا فى الوقت المبكر من الصباح نزولا دائما ثابتا مستقرا لا ينفك عنهم ، ولا ينفكون عنه ، وقلنا لهم : ذوقوا عذابي ، وسوء عاقبة تكذيبكم لرسولى لوط - عليه السلام - .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۚ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ .

قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إدراكا واتعاظا ،

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٤٤

وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لثلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عند كل نعمة عداها في سورة الرحمن .

وكقوله : ﴿ وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، عند كل آية أوردها في سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنبياء والقصاص في أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان .<sup>(١)</sup>

وبعد : فهذه قصة لوط - عليه السلام - مع قومه الذين انتكست نفوسهم ، ومسخت فطرتهم ، وارتكبوا فاحشة لم يرتكبها أحد من البشر قبلهم ومن العبر والعظات التي نأخذها من هذه القصة :

( أ ) أن رسل الله - تعالى - قد أرسلهم - سبحانه - إلى الناس ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الانغماس في الرذائل إلى التحلى بالفضائل ، وهذا ما نراه واضحا في قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، فإنه بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، نهاهم بشتى الأساليب الحكيمة عن هذه الفاحشة القبيحة السافلة التي تنزه عنها جميع الناس من قبلهم ، والتي لانراها في عالم الحيوان الأعجم .

( ب ) أن النفوس إذا انتكست ، والعقول إذا ارتكست ، والفطرة إذا مسخت ، تحولت الرذائل بالنسبة لها إلى فضائل ، والنجاسات والخبائث إلى فعل عادي يلام من ينبذه .

ألا ترى إلى الأنجاس من قوم لوط - عليه السلام - يقول بعضهم لبعض ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ .

أى : أخرجوا هؤلاء الذين آمنوا بلوط - عليه السلام - وبدعوته من قريبتكم ، لأنهم قوم يحبون الطهارة التي تتنافى مع طبيعتنا وفطرتنا التي نشأنا عليها .

وهكذا النفوس عندما تنتكس تصبح الفضائل في نظرها رذائل .

( ج ) أن أصحاب الإيمان العميق ، والخلق القويم ، والغيرة على نشر الطهارة في النفوس ، والدفاع عن الفضائل ، والحرص الشديد على كرامة من يكونون في صحبتهم ، يستمتتون في الذب عن دينهم وعن الفضائل ، وعن كل ما أمر الله - تعالى - بالدفاع عنه .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ٤١ .

وهذا ما نراه فى أكمل صورة ، فى قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، إنك تراه تارة يأمرهم بتقوى الله ، وأنه لا يسألهم أجرا عما يأمرهم به أو ينهاهم عنه ، فيقول لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتارة يذكرهم بأن هذه الفاحشة التى انغمسوا فيها ، لم يسبقهم إليها أحد ، وأنها رذيلة تحتقرها الفطرة السليمة فيقول لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتارة يقول لهم : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وتارة يرشدهم إلى ما تقتضيه الطبيعة البشرية السوية ، فيقول لهم : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ .

وتارة يلجأ إلى خالقه - عز وجل - يلتمس منه النجاة والنصرة على هؤلاء المجرمين فيقول : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ويقول : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وهكذا ، نرى أن لوطا - عليه السلام - لم يترك وسيلة من وسائل الترغيب أو التهيب إلا وسلكتها مع قومه ، ولكنهم عموا وضموا عن دعوته .

( د ) أن المجرمين من قوم لوط - عليه السلام - لم يرتكبوا ما ارتكبوا من قبائح مخزية على استحياء ، وإنما هم يجاهرون بذلك ، ويقابلون نصائح نبيهم بالاستهزاء والاستخفاف ، فهو عندما يقول لهم : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . ﴾ ، يقولون له بكل سماحة وانحطاط : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

وعندما يقول لهم : ﴿ قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ . قَالُوا ﴾ يردون عليه بوقاحة وسوء أدب ﴿ أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : أولم يسبق لنا يا لوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، فكيف تجرأت على محاولة منعنا عما نريده من ضيوفك ، وأنت تعلم ما نريده منهم ؟ .

وإنه لكلام يدل على أن هؤلاء المجرمين قد بلغوا الدرك الأسفل فى انتكاس الفطرة ، وانطماس البصيرة .

(هـ) أن لوطا - عليه السلام - لقوة إيمانه ، وعلو همته ، وعظم غيرته على كرامته ، وكرامة ضيوفه ، وحرصه على زوال تلك الرذيلة من طبائع هؤلاء المجرمين ، تمنى أن تكون من حوله قوة باطشة تردعهم ، عن هذا المنكر ، ولذا قال : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

أى : ليت لى قوة تعاوننى على دفع شروركم وقبائحكم ، وليتنى أستطيع أن أجد شخصا قويا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ، ولوط - عليه السلام - عندما قال ذلك إنما كان ينبغى - والله أعلم - القوة المادية العاجلة التى تردع هؤلاء المجرمين ، وقوله هذا من باب مباشرة الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لنصرة الحق ، مع اعتماده المطلق على قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء .

وفى الحديث الصحيح قال ﷺ : «ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد» ، أى : كان لوط - عليه السلام - يأوى إلى ركن شديد متمثل فى رعاية الله - تعالى - إلا أنه طلب القوة المادية العاجلة التى تعينه وتنصره على هؤلاء المجرمين ، قالوا : وقد كان لوط - عليه السلام - غريبا عن القوم الذين أرسل إليهم ، ولم يجتمع فى النسب معهم ، لأنه نشأ بالعراق ، ثم هاجر مع عمه إبراهيم ﷺ إلى بلاد الشام ، ثم أرسله الله - تعالى - إلى قرية «سدوم» التى كان يعيش بها أولئك الأشرار .

وفى الحديث الشريف الذى أخرجه الطبرى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «مابعث الله من نبي بعد لوط إلا فى ثروة من قومه ، حتى بعث الله نبيكم فى ثروة من قومه» ، أى : فى كثرة ومنعة من عشيرته .

( و ) أن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن تكون عقوبته العادلة للمجرمين ، متناسبة مع جرائمهم وقبائحهم ، ولعل مما يؤيد ذلك أن قوم لوط - عليه السلام - حين قلبوا الأوضاع ، وتركوا ما أحله الله - تعالى - لهم ، وانغمسوا فيما حرمه - سبحانه - عليهم ، كانت العقوبة متنسقة مع قبائحهم ، حيث عاقبهم الله - تعالى - بأن جعل ما هو الأعلى من قريتهم هو الأسفل ، فهلكوا جميعا هلاكا مصحوبا باللعنة والطرده من رحمته - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مُّنْزُودٍ مُّسَوِّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ ﴾ .

( ز ) أن قصة لوط مع قومه قد تكررت في القرآن الكريم في سور متعددة ، تارة بصورة مفصلة ، وتارة بصورة فيها شيء من الاختصار ، وأتت في كل سورة بأسلوب له إحياءاته ومقاصده ، وتأثيره .

ولعل من أسرار هذا التكرار للقصة الواحدة في سور متعددة ، أن ترسخ المعانى فى الأذهان ، وأن تكون العقول على تذكّر لما اشتملت عليه القصة من عبر وعظات ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

## قصة موسى وهارون - عليهما السلام -

١ - تعد قصة موسى وهارون - عليهما السلام - وما حدث بينهما وبين فرعون ، وبين قومهما من بنى إسرائيل ، تعد على رأس القصص التي تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم فى أكثر من عشرين سورة ، تارة بصورة مفصلة ، وتارة بصورة مختصرة ، ومن السور القرآنية التي تحدثت عن هذه القصة بصورة مفصلة ، سورة : البقرة ، الأعراف وطه ، والشعراء ، والقصص .

وموسى - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فهو موسى بن عمران ابن يصر ، بن ماهيث ، بنى لاوى ، بن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم .

وكانت ولادته فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - وفى ظروف كان فيها فرعون مصر فى ذلك الزمان ، يقتل الذكور من بنى إسرائيل عند ولادتهم ، ويترك الإناث ، قالوا : لأن من قومه من أخبره أنه سيظهر رجل من بنى إسرائيل ، سيكون هلاكك على يديه .

ويرجح بعض المؤرخين أن ولادة موسى - عليه السلام - كانت فى عهد «منفتاح» ابن رمسيس الثانى ، وكلاهما أنزل أشد الضربات ببنى إسرائيل ، لأنهم كانوا عوناً للهكسوس الذين انحدروا إلى مصر من آسيا الصغرى ، فحكموها لمدة تصل إلى خمسمائة سنة ، حكما ظالماً للمصريين ، فلما تمكن «أحمس» ملك مصر من طردهم والتغلب عليهم ، بدأ هو ومن جاء بعده من ملوك مصر فى إذلال بنى إسرائيل الذين كانوا منذ عهد يوسف - عليه السلام - يسكنون مصر ، ويتحالفون مع كل الغزاة الغرباء عن مصر .

وقد تكرر اسم موسى - عليه السلام - فى القرآن الكريم ، أكثر من مائة مرة ، وكان النبى ﷺ عندما يشتد به الأذى يقول : «رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» .

وكانت وفاته - على الأرجح - خلال الفترة التي ابتلى الله - تعالى - قومه من بنى إسرائيل بالتيه فى أرض سيناء وقد دعا الله - تعالى - أن يدنيه من الأرض المقدسة ، التي بها بيت المقدس ، وأن يموت بها ، فأجاب الله - تعالى - دعاءه .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن موسى - عليه السلام - عندما أحس بدنو أجله سأل الله - تعالى - أن يدنيه من الأرض المقدسة ، فأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ثم قال ﷺ : فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» .

وأما هارون - عليه السلام - فهو أخو موسى لأمه ، وقيل لأبيه وأمه ، وكان نعم العون لأخيه موسى - عليهما السلام - وكانت وفاته - كما قيل - قبيل وفاة موسى بزمن يسير .

٢ - هذا ، وفى سورة «القصص» أكثر من أربعين آية ، تحدثت عن الظروف التى ولد خلالها موسى - عليه السلام - وعمما فعلته أمه بعد مولده ، وعن حاله بعد أن بلغ أشده واستوى ، وعن هجرته إلى أرض مدين ، وعن تشريفه بالنبوة وهو فى طريقه من أرض مدين إلى مصر ، وعن دعوته فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

تَلَوْا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى  
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ  
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِيفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يَتَّبِعُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَفِخِرُ  
بِأَسْنَاءِهِمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْرِئِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ  
اسْتَضَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾  
وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

وفرعون : اسم كان يطلق فى القديم على كل ملك لمصر ، كما يقال للملك الروم «قيصر» ، وملك اليمن «تبع» وملك الفرس «كسرى» ، وقد تكرر اسم فرعون فى القرآن أربعاً وسبعين مرة .

والمعنى : نتلو عليك - أيها الرسول الكريم - تلاوة كلها حق وصدق ، شيئاً عجيباً وخبراً هاماً ، يتعلق بقصة موسى - عليه السلام - وبقصة فرعون .

وقوله - سبحانه - ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : نتلوا عليك هذه الآيات ، لقوم يؤمنون بها ، وينتفعون بما اشتملت عليه من هدايات وعبر وعظات .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ﴾ كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبأ .

وقوله : ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى تكبر فيها وطفى ، من العلو بمعنى الارتفاع .  
والمقصود أنه جاوز كل حد فى غروره وظلمه وعدوانه ، والمراد بالأرض : أرض مصر وما  
يتبعها من بلاد ، و﴿شَيْعاً﴾ جمع شيعة ، وهم الأتباع والجماعات وكل قوم اجتمعوا  
على أمر فهم شيعته .

أى : إن فرعون طفى وبغى وتجبر فى الأرض ، وجعل أهلها شيعة وأتباعا له ، وصار  
يستعمل كل طائفة منهم ، فيما يريد من أمور دولته ، فهذه الطائفة للبناء وتلك للسحر ،  
وثالثة لخدمته ومناصرتة على ما يريد .

وجملة ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ ، لبيان حال الذين جعلهم شيعة وأحزابا ، والمراد  
بهذه الطائفة : بنو إسرائيل .

أى : أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعة وأحزابا اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر  
والظلم ، فصار يذبح الذكور من بنى إسرائيل بمجرد ولادتهم ، ويترك الإناث أحياء .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه أحدهما  
أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل .

ثانيها : أن هلاك الذكور يقتضى فساد مصالح النساء فى المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى  
الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال .

ثالثها : أن قتل الذكور عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع  
به ، من أعظم العذاب .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكور من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات  
للأعداء ، وذلك نهاية الذل والهوان (١) .

قالوا : وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بنى إسرائيل دون الإناث ، لأن الكهنة أخبروه ،  
بأن مولودا سيولد من بنى إسرائيل ، يكون ذهاب ملك فرعون على يده .

وقوله - سبحانه - ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ، تعليل وتأکید لما كان عليه فرعون من  
تجبر وطفیان .

أى : إن فرعون كان من الراسخين فى الفساد ، ولذلك فعل ما فعل من ظلم لغيره ، ومن  
تداول جعله يقول للناس : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٣٥٨

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده في القوم الظالمين ،  
 مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم  
 فقال : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ  
 الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ نُورِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا  
 يَحْذَرُونَ ﴾ .

والمعنى : لقد طغى فرعون وبغى ، ونحن بإرادتنا وقدرتنا ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ﴾ ونتفضل على  
 بنى إسرائيل ، الذين استضعفوا في الأرض بأن ننجيهم من ظلمه ، وننقذهم من قهره وبغيه .

﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ للأرض المباركة ، التي نعطيهم إياها متى آمنوا وأصلحوا ، كما  
 قال - تعالى - : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي  
 بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ  
 فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧]

وقوله - تعالى - : ﴿ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : ونجعلهم أقوياء راسخى الأقدام فى  
 الأرض التى نورثهم إياها ، بعد القوم الظالمين .

﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أى : ونطلع فرعون وهامان - وهو وزير فرعون -  
 وجنودهما التابعين لهما ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى : من بنى إسرائيل المستضعفين فى الأرض ﴿ مَا  
 كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ أى : ما كانوا يحاولون دفعه واتقاءه ، فقد كان فرعون وجنده يقتلون  
 الذكور من بنى إسرائيل ، خوفا من ظهور غلام منهم يكون هلاك فرعون على يده .

قال ابن كثير : أراد فرعون بحوله وقوته ، أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك بل نفذ  
 الله - تعالى - حكمه ، بأن يكون إهلاك فرعون على يد موسى ، بل يكون هذا الغلام  
 الذى احترزت من وجوده - يا فرعون - وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما منشؤه ومرباه  
 على فراشك وفى دارك ، وهلاكك وهلاك جنديك على يديه ، لتعلم أن رب السموات  
 العلا ، هو القاهر الغالب العظيم ، الذى ما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن .<sup>(١)</sup>

وهكذا تعلن السورة الكريمة فى مطلعها ، أن ما أَرَادَهُ اللهُ - تعالى - لا بد أن يتم ، أمام  
 أعين فرعون وجنده ، مهما احتاطوا ومهما احترسوا ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٣١ .

٣ - ثم فصل - سبحانه - الحديث عن موسى - عليه السلام - فذكر ما ألهمه لأمه عند ولادته ، وما قالته امرأة فرعون له عند التقاط آل فرعون لموسى ، وما كانت عليه أم موسى من حيرة وقلق ، وما قالته لأخته وكيف رد الله - تعالى - بفضله وكرمه موسى إلى أمه ، لنستمع إلى السورة الكريمة ، وهي تفصل هذه الأحداث ، بأسلوبها البديع المؤثر فتقول :

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفَتْ  
عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ  
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطَطَةُ ۖ أَلْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا  
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ  
فِرْعَوْنَ قُرُونِ عَيْنٍ لِي وَلَكَّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا  
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فِرْعَانًا كَادَتْ لَسُبِّي بِهِ  
لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ فُلْبَاهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأَخِيهِ قِصْبِهِ  
فَبَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ  
مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ  
لَهُمْ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ  
وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما قال : ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ ، ابتداء بذكر أوائل نعمه في هذا الباب فقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ . (١)

(١) تفسير الفخر الرازي ج٦ ص ٤٢٦

والوحى إلى أم موسى يجوز أن يكون عن طريق الإلهام ، كما فى قوله - تعالى - :  
﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ أو عن طريق المنام ، أو عن طريق إرسال ملك أخبرها بذلك .

قال الألوسى : والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ، ولا ينافى ذلك الإجماع  
على عدم نبوتها ، لما هو معلوم أن الملائكة قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم .

والظاهر - أيضا - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة . . وقيل : كان قبلها .<sup>(١)</sup>

والخوف : حالة نفسية تعترى الإنسان ، فتجعله مضطرب المشاعر ، لتوقعه حصول أمر  
يكرهه .

والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه ، كموت عزيز لديه ،  
أو فقده لشيء يحبه .

وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : وحملت أم موسى به فى الوقت  
الذى كان فرعون يذبح الأبناء ، ويستحى النساء ، وأخفت حملها عن غيرها ، فلما  
وضعت أصابها ما أصابها من خوف وفزع على مصير ابنها ، وهنا ألهمناها بقدرتنا ،  
وارادتنا ، وقذفنا فى قلبها أن أرضع فى خفاء وكتمان ، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من فرعون  
وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بنى إسرائيل .

﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أى : فى البحر والمراد به نهر النيل ، وسمى بحرا لاتساعه .

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ أى : ولا تخافى عليه من حصول مكروه له ، ولا تحزنى  
لمفارقتك لك ، فهو فى رعايتنا وحمایتنا ، ومن رعاه الله - تعالى - وحماه ، فلا خوف عليه  
ولا حزن .

وجملة ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ تعليل للنهى عن الخوف والحزن  
وتبشير لها بأن ابنها سيعود إليها ، وسيكون من رسل الله - عز وجل - .

وهكذا نجد الآية الكريمة قد اشتملت على أبلغ الأساليب وأبدعها ، فى بيان قدرة  
الله - تعالى - ورعايته لمن يريد رعايته .

قالوا : مدح الأصمعى امرأة لإنشادها شعرا حسنا ، فقرأت هذه الآية الكريمة ثم قالت  
له : أبعد هذه الآية فصاحة ، لقد اشتملت على أمرين وهما ﴿ أَرْضِعِيهِ ﴾ ، ﴿ فَأَلْقِيهِ ﴾

(١) تفسير الألوسى ج ٢٠ ص ٤٥ .

ونهيين وهما ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ ، وخبرين ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وبشارتين في ضمن الخبرين وهما : الرد والجعل المذكوران .  
والفاء في قوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴾ هي الفصيحة .  
والالتقاط : وجود الشيء والحصول عليه من غير طلب ولا قصد .  
والمراد بآل فرعون : جنوده وأتباعه الذين عشروا على التابوت الذي به موسى ، وحملوه إلى فرعون .

والمعنى : ونفذت أم موسى ما أوحيناه إليها ، فأرضعت ابنها موسى ، وألقته في اليم حين خافت عليه القتل ، فالتقطه آل فرعون من اليم ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، وليعلموا أن ما أردناه لا بد أن يتم مهما احترسوا واحتاطوا وحذروا ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .  
وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ، تعليل لما قبله

أى : فعلنا ما فعلنا من جعل موسى عدوا وحزنا لفرعون وآله ، لأن فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما الذين يناصرونهما ، كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة في كل ما يأتون ويدرون ، ومن مظاهر ذلك قتلهم لذكور بني إسرائيل ، وإبقاؤهم لإناثهم .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ ، بيان لما أنطق الله به امرأة فرعون للدفاع عن موسى - عليه السلام - .

قال الجمل : وامرأة فرعون هي : آسيا بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، ومن بنات الأنبياء ، وكانت أما للمساكين وترحمهم وتتصدق عليهم .<sup>(١)</sup>  
ويكفي في مدحها قوله - تعالى - : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .<sup>(٢)</sup>

أى : وقالت امرأة فرعون بعد أن أخرج موسى من التابوت ، ورأته بين أيدي فرعون وآله : ﴿ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ أى : هذا الطفل هو قرة عين لى ولك ، أى : هو محل السرور والفرح لعيني يا فرعون .

فالجملة الكريمة كناية عن السرور به ، إذ لفظ ﴿ قُرْتُ ﴾ مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار ، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه ، استقر نظرها عليه ، وانشغلت به عن غيره .

(١) حاشية الجمل في الجلالين ج ٣ ص ٣٣٧

(٢) سورة التحريم آية ١١ .

ثم أضافت إلى ذلك قولها ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ والخطاب لفرعون وجنده .  
ثم عللت النهي عن قتله بقولها : ﴿ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا ﴾ في مستقبل حياتنا ، فنجنى من ورائه خيرا .

﴿ أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا ﴾ لنا ، فإن هيئته وصورته تدل على النجابة والجمال واليمن .  
وهكذا شاءت إرادة الله - تعالى - أن تجعل امرأة فرعون - سببا في إنقاذ موسى من القتل ، وفي أن يعيش في بيت فرعون ، ليكون له في المستقبل عدوا وحزنا .  
وقوله - تعالى - ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، جملة حالية ، أى : فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - وليست حكاية لما قالت امرأة فرعون .  
ثم صورت السورة الكريمة تصويرا بديعا مؤثرا ، ما كانت عليه أم موسى من لهفة وقلق ، بعد أن فارقها ابنها ، فقال - تعالى - : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ .. ﴾ ، أى : وبعد أن ألفت أم موسى به فى اليم ، والتقطه آل فرعون ، وعلمت بذلك أصبح قلبها وفؤادها خاليا من التفكير فى أى شىء فى هذه الحياة ، إلا فى شىء واحد وهو مصير ابنها موسى - عليه السلام - وأنها كادت أن تصرح للناس بأن الذى التقطه فرعون هو ابنها ، وذلك لشدة دهشتها وخوفها عليه من فرعون وجنده .

وفى هذا التعبير مافيه من الدقة فى تصوير الحالة النفسية ، حتى لكأنها صارت فاقدة لكل شىء فى قلبها سوى أمر ابنها وقلده كبدها .  
وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ ، محذوف دل عليه ما قبله .

أى : لولا أن ربطنا على قلبها بقدرتنا وإرادتنا ، بأن ثبتناه وقويناه ، لأظهرت للناس أن الذى التقطه آل فرعون هو ابنها .

قوله - تعالى - : ﴿ لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ علة لتثبيت قلبها وتقويته ، فهو متعلق بقوله : ﴿ رَّبَطْنَا ﴾ .

أى : ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله - تعالى - وأنه سيرد إليها ابنها ، كى تفر عينها ولا تحزن .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته أم موسى بعد ذلك فقال : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ .. ﴾

أى : لم تسكت أم موسى بعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، بل قالت لأخت موسى ﴿ قَصِيهِ .. ﴾ أى تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره .

والفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبٍ ﴾ ، هى الفصيحة ، والجانب : الجانب .

أى : فقصت أخت موسى أثره ، فأبصرته عن جانب منها ، وكأنها لا تريد أن تطلع أحدا على أنها تبحث عن أخيها ، وتتبع أثره .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبٍ ﴾ يشعر بأن أخت موسى أبصرت أباها إبصارا فيه مخادعة لآل فرعون ، حتى لا تجعلهم يشعرون بأنها تبحث عنه .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : وهم - أى آل فرعون - لا يشعرون أنها أخته تبحث عنه وتتبع أخباره .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حكمته وقدرته وتدييره لأمر موسى كى يعود إلى أمه ، فقال - تعالى : ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ .

والمراد بالتحريم هنا : المنع ، والمراضع : جمع مرضع - بضم الميم وكسر الصاد - وهى المرأة التى ترضع .  
أى : ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من المرضعات وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ أى : تحريما قدريا ،

وذلك لكرامة الله له ، صانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه ، لأنه - سبحانه - جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى أمنة بعد أن كانت خائفة . (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ ، حكاية لما قالته أخت موسى لفرعون وحاشيته ، والاستفهام للتحضيض .

أى : وبعد أن بصرت أخت موسى به عن جنب ، ورأت رفضه للمراضع ، وبحشهم عمن يرضعه ، قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ .. ﴾ أى : يقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته ، ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ أى : وهم لا يمنعون ما ينفعه فى تربيته وغذائه ، ولا يقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية .

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٣٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ ۝ ﴾ معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : فسمعوا منها ما قالت ، ودلتهم على أمه ، فرددناه إليها ، كي يطمئن قلبها وتقر عينها برجوع ولدها إليها ، ولا تحزن لفراقه .

ولتعلم أن وعد الله - تعالى - حق ، أى : أن وعده - سبحانه - لا خلف فيه ، بل هو كائن لا محالة ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة حق العلم ، ولذا يستعجلون الأمور ، دون أن يفتنوا إلى حكمته - سبحانه - فى تدبير أمر خلقه .

وبذلك نرى هذه الآيات قد صاغت لنا بأبلغ أسلوب ، جانباً من حياة موسى - عليه السلام - ومن رعاية الله - تعالى - له وهو مازال فى سن الرضاعة .

\*\*\*

٤ - ثم قص علينا - سبحانه - جانباً من حياة موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده ، واستوى فقال - تعالى - :

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ  
 ءَايَيْنَاهُ مَخْرَجًا وَعَلَّمَاهُ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ  
 حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ  
 وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَايَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ  
 مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ  
 مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ  
 الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾  
 فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ  
 يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ

يَبْطِشُ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبُنِيَّ بِكَمَا  
قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ  
أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ  
يَمْوَسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَىٰ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمَكٌّ مِّنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٢﴾  
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾

أى : وحين بلغ موسى - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، واكتمال عقله ، قالوا :  
وهى السن التى كان فيها بين الثلاثين والأربعين .  
﴿ آتَيْنَاهُ ﴾ ، بفضلنا وقدرتنا ﴿ حُكْمًا ﴾ أى : حكمة وهى الإصابة فى القول والفعل ،  
وقيل : النبوة .

﴿ وَعَلِمْنَا ﴾ ، أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمر ، وإدراكا قويا لشئون الحياة .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ بيان لسنة من سننه - تعالى - التى  
لا تتخلف .

أى : ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، الذى أكرمنا به موسى وأمه نعطى  
ونجازى المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن فى  
أقواله وأعماله ، أحسن الله - تعالى - جزاءه ، وأعطاه الكثير من الآثه .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأحداث التى تعرض لها موسى - عليه السلام - فى تلك  
الحقبة من عمره فقال : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

والمراد بالمدينة : مصر ، وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف .  
وجملة ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ حال من الفاعل ، أى : دخلها مستخفيا .

قيل : والسبب فى دخوله على هذه الحالة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما  
يكرهون ، فخافهم وخافوه ، فاخفى وغاب ، فدخلها متنكرا . (١)

(١) راجع تفسير الألوسى ج ٢٠ ص ٥٢ .

أى : وفى يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل المدينة التى يسكنها فرعون وقومه : ﴿ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أى : دخلها مستخفيا فى وقت كان أهلها غافلين عما يجرى فى مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم فى بيوتهم فى وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك .

﴿ فَوَجَدَ ﴾ موسى ﴿ فِيهَا ﴾ أى فى المدينة ﴿ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى : يتخاصمان ويتنازعان فى أمر من الأمور .

﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته ، أى : من بنى إسرائيل : ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ، أى : والرجل الثانى كان من أعدائه وهم القبط الذين كانوا يسيمون بنى إسرائيل سوء العذاب .

﴿ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ، أى : فطلب الرجل الإسرائيلى من موسى ، أن ينصره على الرجل القبطى .

﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ أى : فاستجاب موسى لمن استنصر به ، فوكز القبطى ، أى : فضربه بيده مضمومة أصابعها فى صدره ، ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أى : فقتله ، وهو لا يريد قتله ، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلى .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ يشير إلى أن موسى - عليه السلام - كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير - أيضا - إلى ما كان عليه من مروءة عالية ، حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس أو تردد .

ولكن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى القبطى جثة هامدة ، استرجع وندم ، وقال : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، أى : قال موسى : هذا الذى فعلته وهو قتل القبطى ، من عمل الشيطان ومن وسوسته ، ومن تزيينه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : الشيطان ﴿ عَدُوٌّ ﴾ للإنسان ﴿ مُضِلٌّ ﴾ له عن طريق الحق ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى : ظاهر العداوة والإضلال ، ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع ندما واستغفارا آخر فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ .

أى : قال موسى - عليه السلام - بعد قتله القبطى بدون قصد - مكررا الندم

والاستغفار: يا رب إنى ظلمت نفسى ، بتلك الضربة التى ترتب عليها الموت ، فاغفر لى ذنبى ، ﴿فَغَفَرَ﴾ الله - تعالى ﴿لَهُ﴾ ذنبه ، ﴿إِنَّهُ﴾ - سبحانه - ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، ثم أكد موسى عليه السلام - للمرة الثالثة ، توبته إلى ربه ، وشكره إياه على نعمه فقال : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾

أى : يا رب بسبب إنعامك علىّ ، أعاهدك أنى لن أكون مناصرا للمجرمين أو مدافعا عنهم . وهذه الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - تدل على نقاء روحه ، وشدة صلته بربه ، وخوفه منه ، ومراقبته له - سبحانه - فإن من شأن الأخيار فى كل زمان ومكان ، أنهم لا يعينون الظالمين ، ولا يقفون إلى جانبهم .

قال القرطبى : ويروى عن النبى ﷺ أنه قال : «من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزال الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام» . (١)

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة فقال : ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ .

أى : واستمر موسى - عليه السلام - بعد قتله للقبطى ، يساوره القلق ، فأصبح يسير فى طرقات المدينة التى حدث فيها القتل ، ﴿خَائِفًا﴾ من وقوع مكروه به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ما يسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات .

والتعبير بقوله : ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يشعر بشدة القلق النفسى الذى أصاب موسى - عليه السلام - فى أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر - أيضا - بأنه - عليه السلام - لم يكن فى هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أو خففوا المسألة عليه .

و ﴿إِذَا﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ فجائية . أى : وبينما موسى على هذه الحالة من الخوف والترقب ، فإذا بالشخص الإسرائيلى الذى نصره موسى بالأمس ، يستغيث به مرة أخرى من قبلى آخر ويطلب منه أن يعينه عليه ، وهنا قال موسى - عليه السلام - لذلك الإسرائيلى المشاكس : ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ .

(١) تفسير القرطبى ج٣ ص ٢٦٣

أى : قال له موسى - عليه السلام - بحدة وغضب : إنك لضال بين الضلال ولجاهل واضح الجهالة ، لأنك تسببت فى قتلى لرجل بالأمس ، وتريد أن تحملنى اليوم على أن أفعل ما فعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لاقدرة لك على منازعته أو مخاصمته .

ومع أن موسى - عليه السلام - قد قال للإسرائيلى ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ إلا أن همته العالية ، وكرهيته للظلم ، وطبيعته التى تأبى التخلى عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطى ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا .. ﴾ .

أى : فحين هيا موسى - عليه السلام - نفسه للبطش بالقبطى الذى هو عدو موسى وللإسرائيلى ، حيث لم يكن على دينهما .

﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

ويرى بعض المفسرين ، أن القائل لموسى هذا القول ، هو الإسرائيلى ، الذى طلب من موسى النصرة والعون ، وسبب قوله هذا : أنه توهم أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطى ، عندما قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

فيكون المعنى : قال الإسرائيلى لموسى بخوف وفزع : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا - هى نفس القبطى - بالأمس ، وما تريد بفعلك هذا إلا أن تكون ﴿ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : ظالما قتالا للناس فى الأرض ، ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ الذى يصلحون ، بين الناس فتدفع التخاصم التى هى أحسن .

ويرى بعضهم أن القائل لموسى هذا القول هو القبطى ، لأنه فهم من قول موسى للإسرائيلى ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أنه - أى : موسى - هو الذى قتل القبطى بالأمس .

وقد رجح الإمام الرازى هذا الوجه الثانى فقال : والظاهر هذا الوجه ، لأنه - تعالى - قال : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى ﴾ ، فهذا القول إذن منه - أى من القبطى - لا من غيره - وأيضا - قوله : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، لا يلىق إلا بأن يكون قولا من كافر - وهو القبطى - .

وما رجحه الإمام الرازى هو الذى غلب إليه ، وإن كان أكثر المفسرين قد رجحوا الرأى

الأول ، وسبب ميلنا إلى الرأي الثانى ، أن السورة الكريمة قد حكمت ما كان عليه فرعون ، وملؤه من علو وظلم واضطهاد لبنى إسرائيل ، ومن شأن الظالمين أنهم يستكثرون الدفاع عن المظلومين ، بل ويتهمون من يدافع عنهم بأنه جبار فى الأرض لذا نرى أن القائل هذا القول لموسى ، هو القبطى ، وليس الإسرائيلى - والله أعلم بمراده .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ معطوف على كلام محذوف يرشد إليه السياق .

والتقدير : وانتشر خبر قتل موسى للقبطى بالمدينة ، فأخذ فرعون وقومه فى البحث عنه لينتقموا منه .. وجاء رجل - قيل هو مؤمن من آل فرعون - من أقصى المدينة ، أى : من أطرافها وأبعد مكان فيها ﴿ يَسْعَى ﴾ أى : يسير سيرا سريعا نحو موسى ، فلما وصل إليه قال له : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ ﴾ وهم زعماء قوم فرعون .

﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أى : يتشاورون فى أمرك ليقتلوك ، أو يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، وقوله : ﴿ فَأَخْرَجَ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى : قال الرجل لموسى : مادام الأمر كذلك يا موسى فإخرج من هذه المدينة ، ولا تعرض نفسك للخطر ، إنى لك من الناصحين بذلك ، قبل أن يظفروا بك ليقتلوك .

واستجاب موسى لنصح هذا الرجل ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أى : من المدينة ، حالة كونه ﴿ خَائِفًا ﴾ من الظالمين ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ التعرض له منهم ، ويعد نفسه للتخفى عن أنظارهم . وجعل يتضرع إلى ربه قائلا : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي ﴾ ، بقدرتك وفضلك ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ بأن تخلصنى من كيدهم ، وتحول بينهم وبينى ، فأنا ما قصدت بما فعلت إلا دفع ظلمهم وبغيهم .

والى هنا تكون السورة الكريمة ، قد قصت علينا هذا الجانب من حياة موسى ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن دفع بهمته الوثابة ظلم الظالمين ، وخرج من مدينتهم خائفا يترقب ملتصقا من خالقه - عز وجل - النجاة من مكرهم .

\* \* \*

٥ - ثم حكمت لنا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما كان منه عندما توجه إلى جهة مدين ، وما حصل له فى تلك الجهة من أحداث فقال - تعالى - :

وَمَا

تَوَجَّهَ نِلْقَاءَ مَدِينٍ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٣﴾ وَمَا  
وَرَدَ مَاءَ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُونَ وَوَجَدَ مِنْ  
دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْتَيْحِي حَتَّى  
يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ  
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَاءَهُ بِهِ إِحْدَاهُمَا  
تَمَشِّي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا سَمِعْتِ لَنَا قَلَمًا  
جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحْوَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾  
قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْكِرْهُ إِنْ خَيْرٌ مِّنْ سَكِرَاتِ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ  
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَلِيْنِ عَلَى أَنْ نَأْجُرَنِي تَمَنِّي  
حُجَّجٌ فَإِنْ أَمَّمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْقُكَ عَلَيْكَ سَجْدُنِي  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ  
فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

﴿مَدِينٍ﴾ اسم لقبيلة شعيب - عليه السلام - أولقريته التي كان يسكن فيها ،  
سميت بذلك نسبة إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .

وإنما توجه إليها موسى - عليه السلام - لأنها لم تكن داخلية تحت سلطان فرعون وملئه .

أى : وبعد أن خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، صرف وجهه إلى جهة قرية مدين  
التي على أطراف الشام جنوبا ، والحجاز شمالا .

صرف وجهه إليها مستسلما لأمر ربه ، متوسلا إليه بقوله : ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي

سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .

أى : قال على سبيل الرجاء فى فضل الله - تعالى - وكرمه : عسى ربى الذى خلقنى بقدرته ، وتولانى برعايته وتربيته ، أن يهدينى ويرشدنى إلى أحسن الطرق التى تؤدى بى إلى النجاة من القوم الظالمين .

وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ووصل موسى بعد رحلة شاقة مضية إلى أرض مدين ، ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إليها فيقول : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ .

والمعنى وحين وصل موسى - عليه السلام - إلى الماء الذى تستقى منه قبيلة مدين ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ﴾ أى جماعة كثيرة ﴿ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أى : يسقون إبلهم وغنمهم ، ودوابهم المختلفة .

﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ أى : ووجد بالقرب منهم ، أو فى جهة غير جهتهم .

﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أى : امرأتين تطردان وتمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الماء ، حتى ينتهى الناس من السقى ، ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما إذ لا قدرة لهما على مزاحمة الرجال .

وهنا قال لهما موسى - صاحب الهمة العالية والمروءة السامية والنفس الوثابة نحو نصره المحتاج قال لهما بما يشبه التعجب : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أى : ما شأنكما؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء ، مع أن الناس يسقون منه؟

وهنا قالتا له على سبيل الاعتذار وبيان سبب منعهما لمواشيهما عن الشرب : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ .

أى : قالتا لموسى - عليه السلام - : إن من عادتنا ألا نسقى مواشينا حتى يصرف الرعاء دوابهم عن الماء ، ويصبح الماء خاليا لنا ، لأننا لا قدرة لنا على المزاحمة ، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة ، وأبونا شيخ كبير فى السن ، لا يقدر - أيضا - على القيام بمهمة الرعى والمزاحمة على السقى .

وبعد أن سمع موسى منهما هذه الإجابة ، سارع إلى معاونتهما - شأن أصحاب النفوس الكبيرة ، والفترة السليمة - وقد عبر القرآن عن هذه المسارعة بقوله : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ .

أى : فسقى لهما مواشيهما سريعا ، من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الانتظار ،

وفى هذا التعبير إشارة إلى قوته ، حيث أنه استطاع - وهو فرد غريب بين أمة من الناس يسقون - أن يزاحم تلك الكثرة من الناس ، وأن يسقى للمرأتين الضعيفتين غنمهما دون أن يصرفه شىء عن ذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، بيان لما فعله موسى وقاله بعد أن سقى للمرأتين غنمهما ، ثم أعرض عنهما متجها إلى الظل الذى كان قريبا منه فى ذلك المكان ، قيل كان ظل شجرة وقيل ظل جدار .

فقال : على سبيل التضرع إلى ربه : ياربى إننى فقير ومحتاج إلى أى خير ينزل منك على سواء أكان هذا الخير طعاما أو غيره .

واستجاب الله - تعالى - لموسى دعاءه ، وأرسل إليه الفرج سريعا ، يدل لذلك قوله - تعالى - بعد هذا الدعاء من موسى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا .. ﴾ .

وفى الكلام حذف يفهم من السياق وقد أشار إليه ابن كثير بقوله : لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما فقستا عليه ما فعل موسى - عليه السلام - فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ ، أى : مشى الحرائر ، كما روى عمر بن الخطاب أنه قال : كانت مستترة بكم درعها ، أى قميصها .

ثم قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبى - عليه السلام - الذى أرسله الله إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ورواه ابن أبى حاتم .

وقد روى الطبرانى عن مسلمة بن سعد العنزى أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : مرحبا بقوم شعيب ، وأختان موسى .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من آل شعيب .

ثم قال - رحمه الله - ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب ، أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٣٨ .

والمعنى : ولم يطل انتظار موسى للخير الذى التمسه من خالقه - عز وجل - فقد جاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما ، حالة كونها ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أى : على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات .

﴿ قَالَتْ ﴾ بعبارة بليغة موجزة : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ للحضور إليه ﴿ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أى : ليكافئك على سقيك لنا غنما .

واستجاب موسى لدعوة أبيها وذهب معها للقاءه ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى : فلما وصل موسى إلي بيت الشيخ الكبير ، ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أى : وقص عليه ما جرى له قبل ذلك ، من قتله القبطى ، ومن هروبه إلى أرض مدين .

﴿ قَالَ ﴾ أى : الشيخ الكبير لموسى ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : لا تخف يا موسى من فرعون وقومه ، فقد أنجاك الله - تعالى - منهم ومن كل ظالم .

وهذا القول من الشيخ الكبير لموسى ، صادف مكانه ، وطابق مقتضاه ، فقد كان موسى - عليه السلام - أحوج ما يكون فى ذلك الوقت إلى نعمة الأمان والاطمئنان بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ، ما أشارت به إحدى الفتاتين على أبيها : فقال - تعالى - : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ ، ولعلها التى جاءت إلى موسى على استحياء لتقول له : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أى : قالت لأبيها بوضوح واستقامة قصد - شأن المرأة السليمة الفطرة النقية العرض القوية الشخصية - يا أبت استأجر هذا الرجل الغريب ليكفيننا تعب الرعى ، ومشقة العمل خارج البيت .

ثم عللت طلبها بقولها : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، أى : استأجره ليرعى غنما ، فإنه جدير بهذه المهمة ، لقوته وأمانته ، ومن جمع فى سلوكه وخلقه بين القوة والأمانة ، كان أهلا لكل خير ، ومحلا لثقة الناس به على أموالهم وأعراضهم .

واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحت عليه ابنته ، وكأنه أحس بصدق عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلا : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي هَاتِيْنُ ﴾ .

أى : قال الشيخ الكبير لموسى مستجيبا لاقتراح ابنته : يا موسى إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين .

ولعله أراد بإحداهما ، تلك التى قالت له : يا أبت استأجره ، لشعوره - وهو الشيخ الكبير ، والأب العطوف ، الحريص على راحة ابنته - بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوى الأمين ، هو موسى - عليه السلام - .

وفى هذه الآيات ما فيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، فى الرجل الصالح وإلى أنه من شأن الآباء العقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .

قال الشوكانى : فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ ﴾ بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على موسى - عليه السلام - .

أى قال له بصيغة التأكيد : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين ، بشرط أن تعمل أجيرا عندى لرعى غنمى ﴿ ثَمَانِي حِجَجٍ ﴾ أى : ثمانى سنين .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أى : فإن أتممت عشر سنين كأجير عندى لرعاية غنمى ، فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفضل والتكريم فإنى لا أشرط عليك سوى ثمانى حجج .

وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، بيان لحسن العرض الذى عرضه الشيخ على موسى .

أى : وما أريد أن أشق عليك أو أتعبك فى أمر من الأمور خلال استئجارى لك ، بل ستجدنى - إن شاء الله - تعالى - من الصالحين ، فى حسن المعاملة ، وفى لين الجانب ، وفى الوفاء بالعهد .

وقال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ للدلالة على أنه من المؤمنين ، الذين يفوضون أمورهم إلى الله - تعالى - ويرجون توفيقه ومعونته على الخير .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به موسى فقال : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ .

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج٤ ص ١٦٩ .

أى : ﴿ قَالَ ﴾ موسى فى الرد على الشيخ الكبير ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ ، أى : ذلك الذى قلته لى واشترطته علىّ ، كائن وحاصل بينى وبينك ، وكلانا مطالب بالفداء به .

والمعنى : أى الأجلين ، أى الثمانية الأعوام أو العشرة الأعوام ﴿ قَضَيْتُ ﴾ أى : وفيت به ، وأديته معك أجيرا عندك ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أى : فلا ظلم علىّ .

والمقصود بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ ﴾ توثيق العهد وتأكيده ، وأنه لاسبيل لواحد منها على الخروج عنه أصلا .

أى : واللّه - تعالى - شهيد ووكيل وورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا على تنفيذه وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التى تدل على أن موسى - عليه السلام - قد قضى أطول الأجلين ، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكملهما وأتمهما ، وفى رواية : «أبرهما وأوفاهما» (١) .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى فيها بجلاء ووضوح ، ما جبل عليه موسى - عليه السلام - من صبر على بأساء الحياة وضرائها ، ومن همة عالية تحمله فى كل موطن على إعانة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائما لايقف أمام ما لا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن عاطفة رقيقة تجعله فى كل الأوقات دائم التذكر لخالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء .

كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس ، والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل فى قصة هاتين المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، واللتين جاءته إحداهما تمشى على استحياء ، ثم قالت لأبيها : يا أبت استأجره .

كما يرى فيها ما كان يتجلى به ذلك الشيخ الكبير من عقل راجح ، ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب للعواطف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذى شرعه الله - تعالى - .

٦ - ومضت السنوات التى قضاهها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير فى مدين ، ووفى كل واحد منهما بما وعد به صاحبه ، وتزوج موسى بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، وقرر الرجوع

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٤٠ .

بأهله إلى مصر ، فماذا حدث له فى طريق عودته؟ يحكى لنا القرآن الكريم بأسلوبه البديع ما حدث لموسى - عليه السلام - بعد ذلك فيقول :

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ

الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا  
 إِنِّي آنَسْتُ نَارًا عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ مِنْهَا نَجِيًّا أَوْ جَدُّوهُ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ  
 تَصْطَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَنهَاهُ نُودِيَ مِنْ شَرِّطِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ  
 الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَنْ  
 أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا هتَزَّتْ رُكْبَاتُهَا جَاءَ وَوَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ  
 يَمْوَسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا يَخْفَىٰ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢٥﴾ أَسَلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ  
 تَخْشَىٰ بَيَظًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَكَ  
 بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾  
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٧﴾ وَأَخِي هَارُونَ  
 هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ  
 يُكَذِّبُونِ ﴿٢٨﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مِصْرًا  
 فَلْيَصِلُونَ إِلَيْكَ كَمَا بَأْسُنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴿٢٩﴾

والمراد بالأجل فى قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ .. ﴾ المدة التى قضاها

موسى أجيرا عند الشيخ الكبير ، بجهة مدين .

والمعنى : ومكث موسى عشر سنين فى مدين ، فلما قضاها وتزوج بإحدى ابنتى الشيخ

الكبير ، استأذن منه ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ أى وسار بزوجه متجها إلى مصر ليرى أقاربه

وذوى رحمه ، أو أى مكان آخر قيل : هو بيت المقدس .

﴿ أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ ولفظ ﴿ أَنَسَ ﴾ من الإناس ، وهو إبصار الشيء ورؤيته بوضوح لا التباس معه ، حتى لكأنه يحسه بجانب رؤيته له .

أى : وخلال سيره بأهله إلى مصر ، رأى بوضوح وجلاء ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ أى : رأى من الجهة التى تلى جبل الطور نارا عظيمة .

وقوله - سبحانه - ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴾ حكاية لما قاله موسى - عليه السلام - لزوجته ومن معها عندما أبصر النار .

أى : عندما أبصر موسى بوضوح وجلاء ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ فى مكانكم ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ على مقربة منى وسأذهب إليها .

﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ ينفعنا فى مسيرتنا ﴿ أَوْ ﴾ أقتطع لكم منها ﴿ جَذْوَةً مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

أى : قال موسى لأهله امكثوا فى مكانكم حتى أرجع إليكم ، فإنى أبصرت نارا سأذهب إليها ، لعلى آتيكم من جهتها بخبر يفيدنا فى رحلتنا ، أو أقتطع لكم منها قطعة من الجمر ، كى تستدفئوا بها من البرد .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان ذلك بعدما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله ، قيل : قاصدا بلاد مصر بعد أن طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا - أى : ليخرج نارا - كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن وصل إلى الجهة التى فيها النار فقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أى : فحين أتى موسى - عليه السلام - إلى النار التى أبصرها ، ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى سمع نداء من الجانب الأيمن بالنسبة له ، أى : لموسى وهو يسير إلى النار التى رآها .

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٢٧٠ .

ويرى بعضهم أن المراد بالأيمن ، أى المبارك ، مأخوذ من اليمن بمعنى البركة .  
أى : فلما اقترب موسى من النار ، نودى من ذلك المكان الطيب ، الكائن على يمينه  
وهو يسير إليها ، والمشمول على البقعة المباركة من ناحية الشجرة .

ولعل التنصيص على الشجرة ، للإشارة إلى أنها كانت الوحيدة فى ذلك المكان .  
﴿ أَنْ ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تفسيرية لأن  
النداء قول .

أى : نودى أن يا موسى تنبه وتذكر إنى أنا الله رب العالمين .  
قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : ﴿ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى :  
الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء لا إله غيره ، ولا رب سواه ،  
تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وأقواله - سبحانه - (١) .  
قوله - سبحانه - : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَنْ يَا مُوسَى ﴾ فكلاهما  
مفسرد للنداء ، والفاء فى قوله فصيحة .

والمعنى : نودى أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، ونودى أن ألق عصاك فألقاها ،  
﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ أى تضطرب بسرعة ، ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أى : كأنها فى سرعة حركتها  
وشدة اضطرابها ﴿ جَانٌّ ﴾ أى : ثعبان يدب بسرعة ويمر فى خفة ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ  
يَعْقِبْ ﴾ أى : ولى هاربا خوفا منها ، دون أن يفكر فى العودة إليها ، ليتبين ماذا بها ،  
وليتأمل ما حدث لها .

يقال : عقب المقاتل إذا كر راجعا إلى خصمه ، بعد أن فر من أمامه .  
وهنا جاءه النداء مرة أخرى ، فى قوله - تعالى - : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ  
الْآمِنِينَ ﴾ .

أى : يا موسى أقبل نحو المكان الذي كنت فيه ، ولا تخف بما رأيته ، إنك من عبادنا  
الآمين عندنا ، المختارين لحمل رسالتنا .

ثم أمره - سبحانه - بأمر آخر فقال : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ  
سُوءٍ .. ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٤٤ .

أى : أدخل يدك يا موسى فى فتحة ثوبك ، تخرج بيضاء من غير مرض أو عيب ﴿ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ والجناح : اليد ، والرهب : الخوف والفرع .

والمقصود بالجملة الكريمة ﴿ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ إرشاد موسى إلى ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل خوفه .

والمعنى : افعل يا موسى ما أمرناك به ، فإذا أفزعك أمر يدك وما تراه من بياضها وشعاعها ، فأدخلها فى فتحة ثوبك ، تعد إلى حالتها الأولى .

وإذا انتابك خوف عند معاينة الحية ، فاضمم يدك إلى صدرك ، يذهب عنك الخوف .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ ﴾ يعود إلى العصا واليد ، والتذكير لمراعاة الخبر وهو ﴿ بُرْهَانَانِ ﴾ والبرهان : الحجة الواضحة النيرة التى تلجم الخصم ، وتجعله لا يستطيع معارضتها ، أى : فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى ، وهما العصا واليد ، حجتان واضحتان كائنتان ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فذهب بهما إلى ﴿ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ ﴾ لكى تبلغهم رسالتنا ، وتأمروهم بإخلاص العبادة لنا .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ ، أى : فرعون وملاه ﴿ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى : خارجين من الطاعة إلى المعصية ، ومن الحق إلى الباطل .

وهنا تذكر موسى ما كان بينه وبين فرعون وقومه من عداوة ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ إذا ذهبت إليهم بهذه الآيات ، وهو - عليه السلام - لا يقول ذلك ، هروبا من تبليغ رسالة الله - تعالى - وإنما ليستعين برعايته - عز وجل - ويحفظه عندما يذهب إلى هؤلاء الأقوام الفاسقين .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ أى هو أقدر منى على المدافعة عن الدعوة وعلى تبيان الحق وتوضيحه .

﴿ فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾

أى : فأرسل أخى هارون معى إلى هؤلاء القوم ، لكى يساعدنى ويعيننى على تبليغ رسالتك ، ويصدقنى فيما أدعوهم إليه ، ويخلفنى إذا اعتدى علىّ ، ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن معى أخى هارون يعيننى ويصدقنى .

والتأمل فى هذا الكلام الذى ساقه الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - يرى فيه إخلاصه فى تبليغ رسالة ربه ، وحرصه على أن يؤتى هذا التبليغ ثماره الطيبة على أكمل صورة وأحسن وجه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟

قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق أخى ، وإنما هو أن يخلص لسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار كما يصدق القول بالبرهان ، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإن سبحانه وبقا يستويان فيه . (١)

ثم حكى القرآن بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أجاب لموسى رجاءه فقال : ﴿ قَالَ سَشِدْ عُضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ .

أى قال - سبحانه - لقد استجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك بأخيك ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمْ ﴾ بقدرتنا ومشيتنا ﴿ سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة وبرهاناً وقوة تمنع الظالمين ﴿ فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ بأذى ولا يتغلبان عليكما بحجة .

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف ، أى : فوضا أمركما إلى ، واذهبا إلى فرعون وقومه بآياتنا على صدقكما .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله ، من تقوية قلب موسى ، وتبشيريه بالغلبة والنصر على أعدائه .

أى : أجبنا طلبك يا موسى ، وسنقويك بأخيك ، فسيرا إلى فرعون وقومه ، فسنجعل لكما الحجة عليهم ، وستكونان أنتم ومن اتبعكما من المؤمنين أصحاب الغلبة والسلطان على فرعون وجنده .

ونفذ موسى وهارون - عليهما السلام - أمر ربهما - عز وجل - فذهبا إلى فرعون ليبلغاه دعوة الحق ، وليأمره بإخلاص العبادة لله - تعالى - .

٧ - وتحكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما دار بين موسى وبين فرعون وقومه من محاورات ومجادلات ، انتهت بانتصار الحق ، وهلاك الباطل ، تحكى الآيات كل ذلك فتقول :

(١) تفسير الكشف ج٣ ص ٤١٠ .

فَلَمَّا

جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا  
بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴿١٧٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدَى  
مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٧٧﴾  
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأْمَا عَمْتُ لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمُنُ  
عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ  
مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٧٨﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ  
وَوَطَّنُوا أُنْتُمْ إِلَيْنَا أَلِيرْجِعُونَ ﴿١٧٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ وَفَبَدَّنْهُمْ  
فِي آيَةٍ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً  
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٨١﴾ وَأَنْبَأْنَاهُمْ فِي هَذِهِ  
الدُّنْيَا الْعَذَابَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى  
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصِيرًا لِكَيْ يُهْتَدَى  
وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨٣﴾

والمراد بالآيات في قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ العصا واليد ،  
وجمعهما تعظيماً لشأنهما ، ولاشتمال كل واحدة منهما على دلائل متعددة على صدق  
موسى - عليه السلام - فيما جاء به من عند ربه - تعالى - .

والمعنى : ووصل موسى إلى فرعون وقومه ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ، فلما جاءهم  
بالمعجزات التي أيدها بها ، والتي تدل على صدقه دلالة واضحة .

﴿ قَالُوا ﴾ له على سبيل التبجح والعناد ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾ أى : قالوا له : ما  
هذا الذي جئت به يا موسى إلا سحر أتيت به من عند نفسك .

ثم أكدوا قولهم الباطل هذا بأخر أشد منه بطلانا ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم :  
﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾ .

أى : وما سمعنا بهذا الذى جئتنا به يا موسى ، من الدعوة إلى عبادة الله وحده ومن إخبارك لنا بأنك نبي ، ما سمعنا بشيء من هذا كائنا أو واقعا فى عهد آبائنا الأولين .

وقولهم هذا يدل على إعراضهم عن الحق ، وعكوفهم على ما ألفوه بدون تفكير أو تدبر ، وقد رد عليهم موسى ردا منطقيا حكيما ، حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۗ ۖ ﴾ .

أى : وقال موسى فى رده على فرعون وملئه : ربى الذى خلقنى وخلقكم ، أعلم منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده ، وسيحكم بينى وبينكم بحكمه العادل .

ولم يصرح موسى - عليه السلام - بأنه يريد نفسه ، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله - تعالى - ليكفكف من عناده وغرورهم ، وليرخى لهم حبل المناقشة ، حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التى أيده الله - تعالى - بها .

وقوله : ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : وربى - أيضا - أعلم منى ومنكم بمن تكون له النهاية الحسنة ، والعاقبة الحميدة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ تذييل قصد به بيان سنة من سننه - تعالى - التى لا تتخلف أى إنه - سبحانه - قد اقتضت سنته أن لا يفوز الظالمون بمطلوب ، بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

ولكن هذا الرد المهذب الحكيم من موسى - عليه السلام - لم يعجب فرعون المتناول المغرور فأخذ فى إلقاء الدعاوى الكاذبة ، التى حكاها القرآن عنه فى قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ .

أى : وقال فرعون لقومه - على سبيل الكذب والفجور - يأيها الأشراف من أتباعى إنى ما علمت لكم من إله سواى .

وقوله فى هذا يدل على ما بلغه من طغيان وغرور ، فكأنه يقول لهم : إنى لم أعلم بأن هناك إلهًا لكم سواى ، وما لا أعلمه فلا وجود له .

وقد قابل قومه هذا الهراء والهذيان ، بالسكوت والتسليم ، شأن الجهلاء الجبناء وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . (١)

(١) سورة الزخرف الآية ٥٤ .

ثم تظاهر بعد ذلك بأنه جاد فى دعواه أمام قومه بأنه لا إله لهم سواه وأنه حريص على معرفة الحقيقة فقال لوزيره هامان : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ .

والصرح : البناء الشاهق المرتفع ، أى فاصنع لى يا هامان من الطين أجرا قويا ، ثم هين لى منه بناء عاليا مكشوبا ، أصعد عليه ، لعلى أرى إله موسى من فوقه ، والمراد بالظن فى قوله : ﴿ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ اليقين : أى : وإنى لمتيقن أن موسى من الكاذبين فى دعواه أن هناك إلهها غيرى ، فى هذا الكون .

وهكذا ، استخف فرعون بعقول قومه الجاهلين الجبناء ، فأفهمهم أنه لا إله لهم سواه ، وأن موسى كاذب فيما ادعاه .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ . (١)

قال ابن كثير : وذلك لأن فرعون ، بنى هذا الصرح ، الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه .

وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته ، تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلهها غير فرعون ، ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : فى قوله إن ثم ربا غيرى . (٢)

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت فرعون على هذا القول الساقط الكاذب ، فقال : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

والاستكبار : التعالى والتطاول على الغير بحمق وجهل ، أى : وتعالى فرعون وجنوده فى الأرض التى خلقناها لهم ، دون أن يكون لهم أى حق فى هذا التطاول والتعالى وظنوا واعتقدوا أنهم إلينا لا يرجعون لمحاسبتهم ومعاقبتهم يوم القيامة .

فماذا كانت نتيجة ذلك التطاول والغرور ، والتكذيب بالبعث والحساب؟ لقد كانت نتيجته كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ .

(١) سورة غافر الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٤٨ .

والنبذ : الطرح والإهمال للشئء لحقارته وتفاهته .

أى : فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذنا سريعا حاسما فألقينا بهم فى البحر ، كما يلقى بالنواة أو الحصىة التى لاقيمة لها ، ولا اعتداد بها .

﴿ فَانظُرْ ﴾ أيها العاقل نظر تدبر واعتبار ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ لقد كانت عاقبتهم الإغراق الذى أزهق أرواحهم واستأصل باطلهم .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ أى : فرعون وجنوده ، ﴿ أُمَّةً ﴾ فى الكفر والفسوق والعصيان بسبب أنهم ﴿ يَدْعُونَ ﴾ غيرهم إلى ما يوصل ﴿ إِلَى النَّارِ ﴾ وسعيها والاحتراق بها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أى : ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم ، بأن يدفع العذاب عنهم بأية صورة من الصور .

﴿ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ التى قضوا حياتهم فيها فى الكفر والضلال ، أتبعناهم فيها ﴿ لَعْنَةً ﴾ أى : طردا وإبعادا عن رحمتنا .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ والشئء المقبوح : هو المطرود المبعد عن كل خير ، أى : وهم يوم القيامة - أيضا - من المبعدين عن رحمتنا بسبب كفرهم وفسوقهم .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ يتناسب كل التناسب مع ما كانوا عليه فى الدنيا من تطاول وغرور واستعلاء .

فهؤلاء الذين كانوا فى الدنيا كذلك ، صاروا فى الآخرة محل الازدراء وقبح الهيئة والاشمئزاز من كل عباد الله المخلصين .

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى - ببيان جانب مما منحه - عز وجل - له من نعم فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أى آتيناه التوراة لتكون هداية ونورا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ أى : أنزلنا التوراة على موسى ، من بعد إهلاكنا للقرون الأولى من الأقسام المكذبين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أى : آتيناه التوراة من أجل أن تكون أنوارا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ، كما يبصرون بأعينهم المرثيات ، ومن أجل أن تكون هداية لهم إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم من العذاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تعليل لهذا الإيتاء وحض لهم على الشكر .  
أى آتيناهم الكتاب الذى عن طريقه يعرفون الحق من الباطل ، كى يكونوا دائما  
متذكرين لنعمنا ، وشاكرين لنا على هدايتنا لهم ورحمتنا بهم .  
والى هنا نرى السورة الكريمة ، قد حدثتنا عن جوانب متعددة من حياة  
موسى - عليه السلام - .

حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له حيث أراد له أن يعيش فى بيت فرعون وأن يحظى  
برعاية امرأته ، وأن يعود بعد ذلك إلى أمه كى تقر عينها به ، دون أن يصيبه أذى من فرعون  
الذى كان يذبح الذكور من بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، حيث نجاه من القوم  
الظالمين ، بعد أن قتل واحدا منهم .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب متجها إلى  
قرية مدين ، التى قضى فيها عشر سنين أجيرا عند شيخ كبير من أهلها .

ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن قضى تلك المدة ، وسار بأهله متجها  
إلى مصر ، وكيف أن الله - تعالى - أمره بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ، وأنه - عليه  
السلام - قد لى أمر ربه - سبحانه - وبلغ رسالته على أتم وجه وأكمله ، فكانت العاقبة  
الطيبة له ولمن آمن به ، وكانت النهاية الأليمة لفرعون وجنوده .

وهكذا طوفت بنا السورة الكريمة مع قصة موسى - عليه السلام - ذلك الطواف الذى  
نرى فيه رعاية الله - تعالى - لموسى ، وإعداده لحمل رسالته ، كما نرى فيه نماذج متنوعة  
لأخلاقه الكريمة ، ولهفته العالية ، لصبره على تكاليف الدعوة ، ولسنن الله - تعالى - فى  
خلقه ، تلك السنن التى لا تختلف فى بيان أن العاقبة الحسنة للمتقين ، والعاقبة القبيحة  
للكافرين والفاستقين .

٨ - وفى سورتى «النمل» و«طه» آيات كريمة ، صورت لنا بأسلوب آخر ، جانبا من قصة  
إعداد موسى - عليه السلام - لحمل الرسالة ، وتزويده بالمعجزات وذهابه ومعه أخوه هارون  
إلى فرعون لدعوته بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ونهيه عن قتل الذكور من بنى  
إسرائيل ، وتبدأ آيات سورة «النمل» بقوله - تعالى - :

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سائِكُمُ مِّنْهَا خَبْرٌ أَوْءَاتِيكُم  
بِشَهَابٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ دَىٰ أَنْ بُورِكَ مِنْ

فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ يَمْوَسِيٰٓ اِنَّهُ  
 اَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ وَالَّذِي عَصَاكَ فَمَا رَءَا هَا نَهْتَزُ كَانَهَا  
 جَانٌّ وَّالَّذِي مُدْبِرًا وَّمَعِبَبَ يَمْوَسَى لَا تَخَفْ اِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى  
 الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٠﴾ اِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَدْسُوٓءٍ فَاِنِّي غَفُوْرٌ  
 رَّحِيْمٌ ﴿٢١﴾ وَاَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى  
 تِسْعِ آيَاتٍ اِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ اِنَّهُمْ كَانُوْا قَوْمًا فَاسِقِيْنَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا  
 جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿٢٣﴾ وَجَحَدُوْا بِهَا  
 وَاسْتَفْتَنُوْا اَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَّعُلُوًّا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِيْنَ

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال موسى لأهله ، وهو فى طريقه من جهة مدين إلى مصر .

إنى أبصرت - إبصاراً لا شبهة فيه - ناراً ، فامكثوا فى مكانكم ، فإنى ﴿ سَأْتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى : سأتيكم من جهتها بخبر ينفعنا فى رحلتنا هذه ، ونسترشد به فى الوصول إلى أهدى الطرق التى توصلنا إلى المكان الذى نريده .

﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِسِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : أو آتيكم بشعلة مقتطعة لعلكم تستدفنون بها من البرد .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى عندما اقترب من النار فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنَّ بُورِكَ مِنْ فِى النَّارِ وَمِنْ حَوْلَهَا .. ﴾ .

والمراد بمن فى النار : هو من قريب منها ، وهو موسى - عليه السلام - .

والمراد بمن حولها : الملائكة الحاضرون لهذا النداء ، أو الأماكن المجاورة لها .

أى : فلما وصل موسى - عليه السلام - إلى القرب من مكان النار ، نودى موسى من قبل الله - عز وجل - على سبيل التكريم والتحية : أن قدس وطهر واختير للرسالة من هو بالقرب منها وهو موسى - عليه السلام - ومن حولها من الملائكة ، أو الأماكن القريبة منها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من تتمة النداء ، وخبر منه - تعالى - لموسى بالتنزيه ، لثلاثا يتوهم من سماع كلامه - تعالى - التشبيه بما للبشر من كلام .

أى : وتنزه الله - عز وجل - وتقدس رب العالمين عن كل سوء ونقص وبماثلة للحوادث .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إعلام منه - عز وجل - لعبده موسى بأن المخاطب له ، إنما هو الله - تعالى - الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ، والذى أحكم كل شىء خلقه .

أى : يا موسى إن الحال والشأن أنى أنا الله العزيز الحكيم ، الذى أحاطبك وأناجيك ، فتنبه لما أمرك به ، ونفذ ما أكلفك بفعله .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلكم بعض ما أمر به موسى - عليه السلام - فقال : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

أى : نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ، ونودى أن ألق عصاك التى بيدك .  
وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴾ معطوف على كلام مقدر .

أى : فاستجاب موسى - عليه السلام - لأمر ربه فألقى عصاه فصارت حية ، فلما رآها تهتز ، أى : تضطرب وتتحرك بسرعة شديدة حتى لكأنها ﴿ جَانٌّ ﴾ فى شدة حركتها وسرعة تقلبها ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ عنها من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى : ولم يرجع على عقبه ، بل استمر فى إداره عنها دون أن يفكر فى الرجوع إليها .

والجان : الحية الصغيرة السريعة الحركة ، أو الحية الكبيرة ، والمراد هنا : التشبيه بها فى شدة الحركة وسرعتها مع عظم حجمها .

وإنما ولى موسى مدبرا عنها ، لأنه لم يخطر بباله أن عصاه التى بيده ، يحصل منها ما رآه بعينه ، من تحولها إلى حية تسعى وتضطرب وتتحرك بسرعة كأنها جان ، ومن طبيعة الإنسان أنه إذا رأى أمرا غريبا اعتراه الخوف منه ، فما بالك بعصا تتحول إلى حية تسعى .

ثم بين - سبحانه - ما نادى به موسى على سبيل التثبيت وإدخال الطمأنينة على قلبه ، فقال : ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ .

أى : فلما ولى موسى ولم يعقب عندما ألقى عصاه فانقلبت حية ، ناداه ربه - تعالى - بقوله : ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ بما رأيت ، أو من شىء غيرى مادمت فى حضرتى .

وجملة : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ تعليل للنهى عن الخوف ، أى : إني لا يخاف عندى من اخترته لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، استثناء منقطع مما قبله .

أى : إني يا موسى لا يخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلا سيئا من عبادى ، ثم تاب إلى توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى الخير ، والمعصية إلى الطاعة ، فإني أغفر له ما فرط منه ؛ لأنى أنا وحدى الواسع المغفرة والرحمة .

ثم أرشد - سبحانه - موسى - عليه السلام - إلى معجزة أخرى ، لتكون دليلا على صدقه فى رسالته إلى من يرسله إليهم فقال :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾

والمعنى : وأدخل يا موسى يدك اليمنى فى فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء ، أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يكون بها أى سوء من مرض أو برص أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها مشرقا مصحوبا بالسلامة بقدرة الله - تعالى - وإرادته .

وقوله - تعالى - : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ أى : وأدخل يا موسى يدك فى جيبك تخرج حالة كونها بيضاء ، وحالة كونها من غير سوء ، وحالة كونها مندرجة أو معدودة فى ضمن تسع آيات زودناك بها ، لتكون معجزات لك أمام فرعون وقومه ، على أنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

والمراد بالآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى ، أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ استئناف مسوق لبيان سبب إرسال موسى إلى فرعون وقومه .

أى : هذه الآيات التسع أرسلناك بها يا موسى إلى فرعون وقومه ، لأنهم كانوا قوما فاسقين عن أمرنا ، وخارجين على شرعنا ، وعابدين لغيرنا من مخلوقاتنا .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وقومه من هذه المعجزات الدالة على صدق موسى فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

والمعنى : وذهب موسى - عليه السلام - ومعه المعجزات الدالة على صدقه ، إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات المضيئة الواضحة للدلالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والغرور ، هذا الذى نراه منك يا موسى ، سحر بين وظاهر فى كونه سحرا .

وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه - تعالى - مع أن أنفسهم قد علمت علما لاشك معه أنها معجزات وليست سحرا ، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم ﴿ ظُلْمًا ﴾ للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسموها سحرا ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أى : ترفعا واستكبارا عن الإيمان بها .

﴿ فَانظُرْ ﴾ أيها العاقل ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا ، بسبب كفرهم وظلمهم وجحودهم وفسادهم فى الأرض .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تسلية عظمى للرسول ﷺ عما أصابه من الكافرين .

فهم كانوا كفرعون وقومه فى جحود الحق الذى جاءهم به الرسول ﷺ مع يقينهم بأنه حق ، ولكن حال بينهم وبين الدخول أسباب متعددة ، على رأسها العناد ، والحسد ، والعكوف على ما كان عليه الآباء ، والكراهية لتغيير الأوضاع التى تهواها نفوسهم ، وزينتها لهم شهواتهم .

٩ - وأما الآيات التى جاءت فى سورة «طه» وقصت علينا من قصة نبوة موسى - عليه السلام - ومن تكليف الخالق - عز وجل - له ولأخيه هارون بالذهاب إلى فرعون ، فمنها قوله - تعالى - :

وَهَلْ أَنْتَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى  
 نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ  
 أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ  
 فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخِزْتُكَ فَاسْتَمِعْ  
 لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي  
 ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ تَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ  
 قَلِيلٌ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لِيُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

والمعنى : لقد أتاك - أيها الرسول الكريم - خبر أخيك موسى ، وقت أن رأى نارا وهو  
 عائد ليلا من مدين إلى مصر ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ﴾ أى : لامراته ، ومن معها ﴿ امْكُثُوا ﴾  
 أى : أقيموا فى مكانكم ولا تبرحوه حتى أعود إليكم .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا  
 مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

أى : فلما أتى موسى - عليه السلام - إلى النار ، واقترب منها . . ﴿ نُودِيَ ﴾ من قبل  
 الله - عز وجل - ﴿ يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴿ فَاخْلَعْ  
 نَعْلَيْكَ ﴾ تعظيما لأمرنا ، وتادبا فى حضرتنا .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ تعليل للأمر بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من  
 رجلك لأنك الآن موجود بالوادي ﴿ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر المبارك ، المسمى طوى .

﴿ وَأَنَا آخِزْتُكَ ﴾ أى : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى  
 ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ إليك منى ، ونفذ ما أمرك به .

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ مستحق للعبادة والطاعة والخضوع ﴿ فاعْبُدْنِي ﴾ عبادة خالصة لوجهي .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ التي هي من أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات ﴿ لَذِكْرِي ﴾ أى : وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشهد تذكرك لى ، واتصالك بى ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التي فيها الثناء على ذاتى وصفاتى .

أو المعنى : وأدم الصلاة لذكرى خاصة ، بحيث تكون خالصة لوجهي ، ولا رياء فيها لأحد ، ثم بين - سبحانه - أن الساعة آتية لا ريب فيها فقال :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ . فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّآ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فتردى ﴾ .

أى : إن الساعة التي هي وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى : كائنة وحاصلة لا شك فيها .

وقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أى : أقرب أن أخفى وقتها ولا أظهره إلا جمالا ولا تفصيلا ، ولولا أن فى إطلاع أصفياى على بعض علاماتها فائدة ، لما تحدثت عنها .

وقوله : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ .

أى : إن الساعة آتية لا ريب فيها ، لكى تجزى كل نفس على حساب سعيها وعملها فى الدنيا .

قال - تعالى - :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾

[الإسراء: ١٩]

وقال - سبحانه - :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]

ثم حذر - سبحانه - من عدم الاستعداد للساعة ، ومن الشك فى إتيانها فقال : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا ﴾ أى : فلا يصرفك عن الإيمان بها ، وعن العمل الصالح الذى ينفعك

عند مجيئها ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ من الكافرين والفاستقين ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فى إنكارها وفى تكذيب ما يكون فيها من ثواب أو عقاب ﴿فَتَرَدَّى﴾ أى : فتهلك إن أنت أطعت هذا الذى لا يؤمن بها .

فالأية تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة والمعرضين عن الاستعداد لها ، بعد أن أكد - سبحانه - فى آيات كثيرة أن الساعة آتية لا ريب فيها .

قال - تعالى - : ﴿ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّأَرْبَابٍ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ . (١)

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أثبتت وحدانية الله - تعالى - كما فى قوله : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما فى قوله - سبحانه - : ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ كما أثبتت أن يوم القيامة لاشك فى إتيانه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - ، كما قال - عز وجل - : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ . .﴾ .

١٠ - ثم بين - سبحانه - بعض التوجيهات والأوامر التى وجهها - عز وجل - إلى نبيه موسى - عليه السلام - كما حكى ما التمسه موسى من خالقه - تعالى - فقال :

وَمَا نِلَكَ بِمِينِكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا  
وَأَهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾  
فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا  
سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ  
غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِزُرَيْكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ  
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي  
أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي

(١) سورة الحج الآيتان ٦ ، ٧

وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ أَشَدَّ بِهِ أَرْزِي ﴿٢١﴾ وَأَشْرِكُهُ  
فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ كَيْ نُنْسِجَ كَثِيرًا ﴿٢٣﴾ وَنَذْرُكَ كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا  
بَصِيرًا ﴿٢٥﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ للتقرير ، لأن الله - تعالى - عالم بما فى يمين موسى ، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى وإقراره بأن ما فى يده إنما هى عصا فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله - تعالى - عندما يرى العصا التى بيمينه قد انقلبت حية تسعى .

والآية الكريمة : شروع فى بيان ما كلف الله - تعالى - به عبده موسى - عليه السلام - من الأمور المتعلقة بالخلق ، إثر حكاية ما أمر - سبحانه - به موسى من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

والمعنى : وأى شىء بيدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى بقوله - كما حكى القرآن عنه - ﴿ قَالَ هِيَ عَصَاي ﴾ أى : الشىء الذى بيمينى هو عصاى .. ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به ، وكأئنة بيده اليمنى .

ثم بين وظيفتها فقال : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أى : أعتمد عليها لتساعدنى فى حال السير ﴿ وَأَهْشُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ أى : واضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقه فترعاه أغنامى . يقال هش فلان الشجرة بالعصا - من باب رد - فهو يهشها هشا ، إذا ضربها بعصاه ، أو بما يشبهها ليتساقط ورقها ، ومفعول أهش محذوف ، أى : وأهش بها الشجر والورق .

﴿ وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى ﴾ أى : ولى فى هذه العصا حاجات أخرى ، ومنافع غير التى ذكرتها .

وقد كان يكفى موسى - عليه السلام - فى الجواب أن يقول : هى عصاى ، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، لأن المقام يستدعى البسط والإطالة فى الكلام ، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه ، والحبيب مع حبيبه .

وأجمل فى قوله : ﴿ وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى ﴾ إما حياء من الله - تعالى - لطول الكلام فى الجواب ، وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب الجملة ، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا فى الخطاب .

قال القرطبي: وفي هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ذكر معاني أربعة وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا، والتوكؤ، والهش، والمأرب المطلقة، فذكر موسى من منافع عصاه معظمها. وفي الحديث: سئل النبي ﷺ عن ماء البحر فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر». (١) وقوله - سبحانه - : ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى﴾ جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله - تعالى - لموسى بعد ذلك؟

فكان الجواب: قال - سبحانه - لموسى: اطرح يا موسى هذه العصا التي بيمينك لتري ما يكون بعد ذلك ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾.

أى: فامتثل موسى أمر ربه، فألقاها على الأرض، ونظر إليها فإذا هي قد تحولت بقدرة الله - تعالى - إلى «حية» أى: ثعبان عظيم - «تسعى»، أى: تمشى على الأرض بسرعة وخفة حركة، ووصفها - سبحانه - هنا بأنها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ووصفها فى سورة الشعراء ﴿تُعَبَّانُ مَبِينٌ﴾ (٢) ووصفها فى سورة النمل بأنها ﴿تَهْتَرُ كَأَنَّهُا جَانٌ﴾.

ولاتنافية بين هذه الأوصاف، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والثعبان: هو العظيم منها، والجنان: هو الحية الصغيرة الجسم السريعة الحركة.

وقد صرحت بعض الآيات أن موسى - عليه السلام - عندما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك، ولى مدبراً ولم يعقب، قال - تعالى - : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ..﴾.

ولكن الله - تعالى - ثبت فؤاده، وطمأن نفسه: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أى: خذ هذه الحية التي تحولت عصاك إليها ولا تخف منها، كما هو الشأن فى الطبائع البشرية، فإننا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أى: سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى، وهي أن نعيدها بقدرتنا التي لا يعجزها شيء إلى عصا كما كانت من قبل.

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٨٦.

(٢) الآية ٣٢

فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف ، أى : خذها ولا تخف منها ، فإن هذه الحية سترجعها عصا كما كانت من قبل .

قالوا : ومن الحكم التى من أجلها حول الله - تعالى - العصا إلى حية تسعى : توطين قلب موسى - عليه السلام - على ذلك ، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عندما يلقبها أمام فرعون وقومه .

فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشيء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة .

ثم وجه - سبحانه - أمرا آخر إلى عبده موسى فقال : ﴿ وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيَضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ والمعنى : واضمم - يا موسى - يدك اليمنى إلى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط ، ثم أخرجها فإنها تخرج ﴿ بَيَضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرها ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله - تعالى - وإرادته .

وقوله : ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ أى : معجزة أخرى غير معجزة العصا التى سبق أن منحناها لك .

وقوله : ﴿ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ تعليل محذوف ، أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد ، لنريك بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرى الدالة على عظيم قدرتنا ، وانفرادنا بالربوبية .

ثم صرح - سبحانه - بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمةتين فقال : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أى : اذهب يا موسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتى وحدى ، ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، وأنه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم للناس أنه ربهم الأعلى .

وهنا التمس موسى - عليه السلام - العون من خالقه ، لكى يتسنى له أداء ما كلفه به فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدرى بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح .

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أى : وسهل لى ما أمرتنى به ، فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير ، فلا طاقة لى بحمل أعباء هذه الرسالة .

وقوله : ﴿ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه

- تعالى - أى : وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم ،  
وحدىشى معهم ، فهما يتأتى منه المقصود .

وقد روى أنه كان بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله - تعالى -  
فى آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ  
أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ . (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ  
فِي أَمْرِي ﴾ دعاء آخر تضرع به إلى ربه فى أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه فى أمر يتعلق  
بصدره ولسانه .

أى : وأسألك - يا إلهى - أن تجعل لى «وزيراً» أى : معيناً وظهيراً من أهلى فى إبلاغ  
رسالتك ، وهذا الوزير والمعين هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهرى ، وأن  
تجعله شريكاً لى فى تبليغ رسالتك ، حتى تؤديها على الوجه الأكمل ، وكان موسى - عليه  
السلام - قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لكى يعينه  
بأخيه هارون ، ليقوى به ويتشاور معه فى الأمر الجليل ، الذى هو مقدم عليه ، وهو تبليغ  
رسالة الله إلى فرعون الذى طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

وقوله : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ تعليل للدعوات  
الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .

أى : أجب - يا إلهى - دعائى بأن تشرح صدرى . . وتشد بأخى هارون أزرى ، كى  
نسبحك تسيحاً كثيراً ، ونذكرك ذكراً كثيراً ، إنك - سبحانه - كنت وماتزال بنا بصيراً ،  
لا يخفى عليك شىء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ،  
وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك .

بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه وأطال الابتهاال فى بسط حاجته ،  
وكشف ضعفه ، فماذا كانت النتيجة؟

لقد كانت النتيجة أن أجب الله له دعاه ، وحقق له مطالبه ، فقال - تعالى - : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ  
سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ، أى : لقد أجبنا دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ما سألنا إياه بفضلنا وإحساننا .

١١ - المحاورات والمناقشات بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون وملئه :

وهذه المحاورات قد وردت فى سور متعددة ، وبأساليب شتى ، فيها المنطق السليم ،

(١) سورة القصص الآية ٣٤ .

والحجة الناصعة ، والشجاعة الفائقة ، من جانب موسى - عليه السلام - وفيها التهديد  
السافر ، والجهل الفاضح ، والتباهى بالقوة والطغيان ، من جانب فرعون .

ومن الآيات القرآنية التى قصت علينا جانباً من تلك المناقشات التى حدثت بين  
موسى وفرعون ، قوله - تعالى - فى سورة «طه» :

أَذْهَبُ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي ﴿٤٣﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ  
إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٤﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْسَ لَكَ بِهِ ذِكْرٌ وَلَا يَخَشَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّا  
رَبُّنَا أَخْفَ أَنْ يُفْرطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٦﴾ قَالَ لَا يَخَافُ إِنِّي مُعَذِّبُكُمْ  
أَسْمَعُ وَارَىٰ ﴿٤٧﴾ فَأَنْبِئَاهُ قَوْلًا إِنَّ رَسُولَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي  
إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا  
أَنْبِئَ الْهَدْيَىٰ ﴿٤٨﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ

والمعنى اذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث أمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتى ،  
ولا تضعفا أو تتراخيا فى ذكرى وتسيحى وتقديسى بما يليق بذاتى وصفاتى من العبادات  
والقربات ، فإن تذكركما لى هو عدتكما وسلاحكما وسندكما فى كل أمر تقدمان عليه .  
فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم فى كل زمان ومكان إلى  
المداومة على ذكر الله - تعالى - فى كل موطن ، بقوة لا ضعف معها وبعزيمة صادقة لا فتور  
فيها ولا كلال .

وقد مدح - سبحانه - المداومين على تسيحىه وتحميدىه وتقديسه فى كل أحوالهم فقال :  
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ  
يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ .

قال ابن كثير : المراد بقوله : ﴿وَلَا تَبْتَغُوا فِي ذِكْرِي﴾ أنهما لا يفتران فى ذكر الله بل يذكران  
الله فى حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما ، وسلطاناً كاسراً له ،  
كما جاء فى الحديث «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه» .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٨٧ .

ثم أُرشدَهما - سبحانه - إلى الوجهة التي يتوجهان إليها فقال : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

أى : اذْهَبَا إلى فرعون لتبلغاه دعوتى ، ولتأمراه بعبادتى ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد فى الأرض ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى ، وقال لهم - أيضا - ما علمت لكم من إله غيرى .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، إرشاد منه - سبحانه - إلى الطريقة التي ينبغى لهما أن يسلكاها فى مخاطبة فرعون .

أى : اذْهَبَا إليه ، وادعواه إلى ترك ما هو فيه من كفر وطغيان ، وخاطباه بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق ، فإن الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر ، وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

وهذا القول اللين الذى أمرهما الله - تعالى - به هنا قد جاء ما يفسره فى آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على لطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا .. ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهى أن فرعون كان فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الوقاشى عند قراءته لهذه الآية : يا من يتحجب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه وينادي به ؟

والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل ، ليكون أوقع فى النفوس ، وأبلغ وأنجع ، كما قال - تعالى - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (1)

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى وهارون عندما أمرهما - جل جلاله - بذلك فقال : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ .

(1) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٨٨ .

أى : قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق :  
يا ربنا إننا نخاف ﴿ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أى يعالجننا بالعقوبة قبل أن تنتهى من الحديث معه  
فى الأمر .

﴿ أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ أى : يزداد طغيانه ، فيقول فى حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ،  
ويقول فى حقنا ما نحن بريئون منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .

وقد جمع - سبحانه - بين القولين اللذين حكاهما عنهما ، لأن الطغيان أشمل من  
الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل  
الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره من ألوان الاعتداء سواء أكان فى الحال أم فى الاستقبال .  
وهنا يجيبهما الخالق - جل وعلا - بما يثبت فؤادهما ويزيل خوفهما فقال : ﴿ لَا تَخَافَا  
إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لهما لا تخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتى وقدرتى  
ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله ، ولا يخفى على شىء من  
حالكما وحاله ، فاطمئنا أننى معكما بحفظى ونصرى وتأيدى ، وأن هذا الطاغية ناصيته  
بيدى ، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى .

ثم رسم لهما - سبحانه - طريق الدعوة فقال : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ﴾ .

أى : فأتيا فرعون ، وادخلا عليه داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل  
﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ الذى خلقتك فسواك فعدلك .

وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما ، وإحقاق الحق من أول الأمر ،  
ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما ربه وربهما ورب العالمين ، لدعوته إلى  
الدين الحق ، وإلى اخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإلى التخلّى عن الكفر والطغيان ،  
وأنهما لم يأتياه بدافع شخصى منهما ، وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين .

أما الجملة الثانية التى أمرهما الله - تعالى - أن يقولها لفرعون فقد حكاها - سبحانه -  
بقوله : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾ ، أى : فأطلق سراح بنى إسرائيل ،  
ودعهم يعيشون أحرارا فى دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم وقهرهم ، وقتل أبنائهم  
واستحياء نساءهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ ﴾ ، جملة ثالثة تدل على صدقهما فى  
رسالتهما .

والمراد بالآية هنا : جنسها فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التي أعطاها الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - .

أى : قد جئناك بمعجزة من ربك تثبت صدقنا ، وتؤيد مدعانا ، وتشهد بأننا قد أرسلنا الله - تعالى - إليك لهدايتك ، ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول في الدين الحق .

فالجملة الكريمة تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل لوجوب إطلاق بنى إسرائيل وكف الأذى عنهم .

أما الجملة الرابعة التي أمرهما الله - تعالى - بأن يقولوها لفرعون فهي قوله - سبحانه - : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَبَعِ الْهُدَى ﴾ .

أى : وقولا له - أيضا - السلامة من العذاب في الدارين لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وفى هذه الجملة من الترغيب في الدخول في الدين الحق مافيها ، ولذا استعملها النبي ﷺ في كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله ﷺ في رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

ثم حكى - سبحانه - الجملة الخامسة التي أمر موسى وهارون أن يخاطبا بها فرعون . فقال : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ وَتَوَلَّى ﴾ .

أى : وقولا له : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من عند ربنا وخالقنا ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ ﴾ بآياته وحججه - سبحانه - ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ عنها ، وأعرض عن الاستجابة لها .

وبذلك نرى في هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها ، فهي قد بدأت بالأساس الذي تقوم عليه كل رسالة سماوية ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ ﴾ وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله ، ﴿ فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾ وثلث بإقامة الأدلة على صدقهما ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، وربعت بالترغيب والاستمالة ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَبَعِ الْهُدَى ﴾

ثم ختمت بالتحذير والترهيب من المخالفة ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ وَتَوَلَّى ﴾ .

١٢ - وبعد أن غرس - سبحانه - الطمانينة في قلب موسى وهارون وزودهما بأحكام الوسائل وأنجعها في الدعوة إلى الحق ، أتبع ذلك بحكاية جانب من الحوار الذي دار بينهما وبين فرعون بعد أن التقوا جميعا وجها لوجه فقال - تعالى - :

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٥١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٢﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥٣﴾ قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّنَا فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٥﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٦﴾ \* مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٨﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ جَاءَ مِنْ أَرْضِنَا بِسْمِ رَبِّكَ يَا مُوسَى ﴿٥٩﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَعْدٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا ﴿٦٠﴾ سَوَىٰ ﴿٦١﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿٦٢﴾ فَنُؤَلِّا فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٣﴾

فقلوه - تعالى - : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون عليهما السلام - بعد أن ذهب إليه ليلبغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما - سبحانه - .  
ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه ، لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التي لا تتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .  
والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا عليه ، وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه : من ربكما يا موسى الذي أرسلكما إلي؟

وكأنه - لطغيانه وفجوره - لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه وخالقه كما قال له قبل ذلك ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ .

وخص موسى بالنداء مع أنه وجه الخطاب إليهما لظنه أن موسى - عليه السلام - هو الأصل في حمل رسالة الحق إليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه ، أو أنه لخبثه ومكره ، تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى - عليهما السلام - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا يخرسه ويكبته فقال : ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ .

أى : قال موسى فى رده على فرعون : يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته ، وكل شىء من الأشياء الصورة التى تلائمه ، والهيئة التى تتحقق معها منفعتها ومصالحته ، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها ، وأمده بالوسائل والملكات التى تحقق هذه الوظيفة .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ .

أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد الحكيم : يا موسى فما حال القرون الأولى ، كقوم نوح وعاد وشمود ، الذين كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله - تعالى - الذى تدعونى لعبادته؟

وسؤاله هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله السابق ﴿مَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق بأمور لاصلة لها برسالة موسى إليه وهى دعوته لعبادة الله - تعالى - وحده ، وإطلاقه سراح بنى إسرائيل من الأسر .

ولذا رد عليه موسى - عليه السلام - بما يخرس لسانه ، ويبطل كيده ، فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ .

أى : علم حال هذه القرون الأولى محفوظ عند ربى وحده ، فى كتاب هو اللوح المحفوظ ، وهو - سبحانه - لا يخفى عليه شىء من أحوالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقوله : ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ يؤكد لما قبله ، أى : لا يخطئ ربى فى عمله ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك ، فالضلال هنا بمعنى الخطأ وقلة الإدراك .

وجمع - سبحانه - بين نفى الضلال والنسيان ؛ لإفادة تنزهه عن أن يغيب شىء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شىء ، ولبيان أن علمه باق بقاء أبديا لانسيان معه ، ولا زوال له .

ثم بين له آثار علم الله - تعالى - وقدرته فقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا .. ﴾ .  
أى : هو - سبحانه - الذى جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش ، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها .

﴿ وَسَلِّكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى : وجعل لكم فى داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى لقضاء مصالحكم .

﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾

أى : وأنزل - سبحانه - بقدرته من السماء ماء نافعا كثيرا فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى - أى متفرقة - من النبات ، وهذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عباده ، وهى : تمهيد الأرض وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء وإخراج النبات المتنوع من الأرض .

وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة فى جميع فجاج الأرض ، إلا أنها أظهر ما تكون وأوضح ما تكون فى أرض مصر ، التى كان يعيش فيها فرعون حيث تبدو الأرض فيها منبسطة ممهدة على جانبى النيل الممتد امتدادا كبيرا .

وكان الأجدد بفرعون - لو كان يعقل - أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن ، ومسدى هذه النعم ، وهو الله رب العالمين .

والأمر فى قوله - سبحانه - : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ للإباحة .

أى : هذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات شتى هى لمنفعتكم ومصالحتكم ، فكلوا - أيها الناس - من هذه الثمار المتنوعة التى انشقت عنها الأرض ، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم فى المكان الصالح للرعى من هذه الأرض ، واشكروا الله - تعالى - على هذه النعم لكى يزيدكم منها .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ، يعود إلى المذكور من تلك النعم السابقة .

و ﴿النُّهَى﴾ جمع نُهْيَة - بضم النون وإسكان الهاء - وهى العقل ، سُمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق .

والمعنى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها ؛ وإنزال المطر عليها ، وإخراج النبات منها ، إن فى كل ذلك لآيات وعظات وعبر ، لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القوية .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الأرض منها خلق الإنسان ، وإليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

أى : من هذه الأرض خلقنا أبائكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أى : وفى الأرض نعيدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم واستقرار أجسادكم .

وقوله : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ، أى : ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ بيان للموقف الجحودى الذى وقفه فرعون من الحجج والمعجزات التى طرحها أمامه موسى - عليه السلام - .

والمعنى : ولقد أرينا فرعون بعينه آياتنا كلها الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن يستجيب للحق .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، أى : قال فرعون لموسى على سبيل التهديد ، والوعيد : يا موسى أجئتنا من المكان الذى هربت إليه ، ومعك هذه الآيات التى رأيناها ، لكى تخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها وهى أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر وخفة يد .

وسمى اللعين ما جاء به موسى - عليه السلام - من معجزات سحرا ؛ ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة .

وقال : ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ ليحمل أتباعه على الوقوف فى وجه موسى بإبراز أن موسى جاء ليحتل أرضهم ، ويحوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم .

ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال : ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ .

أى : قال فرعون لموسى مهديدا ومتوعدا : أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثل سحرك ، فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة ، لانخلف نحن ولا أنت هذا الوعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك فى مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع جميع سكانها أن يحضروا إليه .

والمأمل فى الآية الكريمة يرى أن فرعون قد قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه .

ويشهد لذلك : تصديره كلامه بالقسم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ وتركه لموسى اختيار الموعد الذى يناسبه ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ واشترطه عدم الخلف فى الوعد ﴿لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ واقتراحه أن يكون مكان المباراة فى وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ .

ولقد حكى القرآن أن موسى - عليه السلام - قد قبل تحدى فرعون ، ورد عليه يقول : ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ .

أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بينى وبينكم هو يوم زينتكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا فى وقت الضحى عند ارتفاع الشمس ، لكى يشهدوا ما يكون بينى وبين سحرتك يا فرعون .

وبذلك نرى أن موسى - عليه السلام - قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم ، فقد طلب منه أن يكون موعد المباراة يوم العيد ، كما طلب منه - أيضا - أن يجمع الناس فى وقت الضحى لكى يشاهدوا تلك المباراة .

١٣ - وفى سورة «الشعراء» آيات كريمة ، قصت علينا جانبا من المحاورات والمناقشات التى حدثت بين موسى وفرعون ، وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

وَذُنَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ آتِنَا  
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي  
 أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ  
 إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا  
 بَيَاتِنَاتٍ مَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَإِنِّي أَرْسِلُ فَرَعُونَ فَقَوْلًا إِتَّارَسُوكَ  
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَابْنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن نادى ربك نبيه موسى قائلاً له : اذهب إلى  
 القوم الظالمين لتبلغهم رسالتي ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لى ، وهؤلاء الظالمون هم :  
 ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ تعجيب من حالهم ، أى : اتتهم يا موسى وقل لهم :  
 ألا يتقون الله - تعالى - ويخشون عقابه ، ويكفون عن كفرهم وظلمهم .

ثم حكى - سبحانه - رد موسى فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ .

أى : قال موسى فى الإجابة على ربه - عز وجل - : يا رب إنى أعرف هؤلاء القوم ،  
 وأعرف ما هم عليه من ظلم وطغيان ، وإنى أخاف تكذيبهم لى عندما أذهب إليهم لتبلغ  
 وحيك ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ أى : وينتابنى الغم والهم بسبب تكذيبهم لى .

﴿ وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ أى : وليس عندى فصاحة اللسان التى تجعلنى أظهر مافى نفسى  
 من تفنيد لأباطيلهم ، ومن إزهاق لشبهاتهم ، خصوصاً عند اشتداد غضبى عليهم .

﴿ فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ ﴾ أى : فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون ، ليكون معينا لى  
 على تبليغ ما تكلفنى بتبليغه .

﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ عَظِيمٍ ﴾ حيث إنى قتلت منهم نفسا ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ عندما  
 أذهب إليهم ، على سبيل القصاص منى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد شكأ إلى ربه خوفاً من تكذيبهم وضيق صدره من طغيانهم ، وعقدة في لسانه ، وخشيته من قتلهم له عندما يروونه .

وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة ، أو الاعتذار عن تبليغها ، وإنما هو من باب طلب العون من الله - تعالى - والاستعانة به - عز وجل - على تحمل هذا الأمر والتماس الإذن منه في إرسال هارون معه ، ليكون عوناً له في مهمته ، وليخلفه في تبليغ الرسالة في حال قتلهم له .

وشبيه بهذا الجواب ما حكاه عنه - سبحانه - في سورة طه في قوله - تعالى - :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا ﴾ .

[ طه : ٢٤ - ٣٥ ]

وقد رد الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - رداً حاسماً لإزالة الخوف ، ومزهقاً لكل ما يحتمل أن يساور نفسه من عدوان عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم : كلا ، لا تخف أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك ، أو ألا ينطلق لسانك ، أو أن يقتلوك ، كلا لا تخف من شيء من ذلك ، فأنا معكما برعايتي ، ومادام الأمر كذلك فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإننا معكم سامعون لما تقولونه لهم ولما يقولونه لكما .

وعبر - سبحانه - بكلاً المفيدة للزجر ؛ لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى - عليه السلام - .

والمراد بالآيات هنا : المعجزات التي أعطاها - سبحانه - لموسى وعلى رأسها العصا . .

والفاء في قوله : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنَّ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما .

أى : اذها وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا ، فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه ﴿ فَقُولَا ﴾ له بكل شجاعة وجرأة ﴿ إِنَّا

رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ، أى : رب جميع العوالم التى من بينها عالم الجن ، وعالم  
الملائكة .

وقد أرسلنا - سبحانه - إليك ، لكى تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك ،  
وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكى يعبدوا الله - تعالى - وحده .

والى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله - تعالى - به نبيه موسى -  
عليه السلام - وما زوده به - سبحانه - من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه - سبحانه -  
العون والتأييد .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين موسى وفرعون من محاورات فقال -  
تعالى :-

قَالَ لِمَ تُزَيِّدُ فِينَا وِلِيًّا  
وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ ﴿١١﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ الْإِنِّي فَعَلْتُ وَأَنْتَ  
مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٣﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ  
لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ وَذَلِكَ نِعْمَةٌ  
تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ  
﴿١٦﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ  
لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا اسْتَمِعُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ  
إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْنُونٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ  
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ لَيْسَ أَخْذُنَ إِلَّاهَا  
غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ السَّجُونِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾  
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ  
مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٢٦﴾

أى : قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنى إسرائيل ، قال له : يا موسى ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ أى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا ، ورعيناك وأنت صغير عندما قالت امرأتى ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ .

﴿ وَلَبِثْنَا فِينَا ﴾ أى : فى كنفنا وتحت سقف بيتنا ﴿ مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴾ عدا

﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ وهى قتلك لرجل من شيعتى ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أى : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتى التى أنعمتها عليك ، فى حال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شبابك ، لأنك جئتنى أنت وأخوك بما يخالف ديننا ، وطلبتما منا أن نرسل معكما بنى إسرائيل ، فهل هذا جزاء إحسانى إليك؟

وهكذا نرى فرعون يوجه إلى موسى - عليه السلام - تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهما أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

ولكن موسى - عليه السلام - وقد استجاب الله - تعالى - دعاءه ، وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردا حكيما ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ .

أى : قال موسى فى جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها ، ولكنى فعلتها وأنا فى ذلك الوقت من الضالين ، أى : فعلت ذلك قبل أن يشرفنى الله بوحيه ، ويكلفنى بحمل رسالته ، وفضلا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة تؤدى إلى قتل ذلك الرجل من شيعتك ، لأنى ما قصدت قتله ، وإنما قصدت تأديبه ومنعه من الظلم لغيره .

فالمراد بالضلال هنا : الجهل بالشىء ، والذهاب عن معرفة حقيقته .

وقوله : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ ﴾ بيان لما ترتب على فعلته التى فعلها .

أى : وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا من الضالين ، توقعت الشر منكم ، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى فكانت النتيجة أن وهبى ﴿ رَبِّي حُكْمًا ﴾ أى : علما نافعا ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين اصطفاهم الله - تعالى - لحمل رسالته والتشرف بنبوته .

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى هذا الرد الملمزم لفرعون ، رداً آخر أشد إلزاماً وتوبيخاً فقال : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يرى بعضهم أنه قاله على جهة الاعتراف له بالنعمة ، فكأنه يقول له : تلك التربية التي رببتها لى نعمة منك على ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أكون رسولا من الله - تعالى - إليك ، لكى تطلع عن كفرك ، ولكى ترسل معنا بنى إسرائيل .

ويرى آخرون أن هذا الكلام من موسى لفرعون ، إنما قاله على سبيل التهكم به ، والإنكار عليه فيما امتن به عليه ، فكأنه يقول له : إن ما تمن به على هو فى الحقيقة نقمة ، وإلا فأية منة لك على فى استبعادك لقومى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمة من قتلك لى هو الذى حملها على أن تلقى بى فى البحر ، وتربيتى فى بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك .

ويبدو لنا أن هذا الرأى أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسياق القصة .

وبهذا الجواب التوبيخى أفحم موسى - عليه السلام - فرعون ، وجعله يحول الحديث عن هذه المسألة التى تتعلق بتربيته لموسى إلى الحديث عن شىء آخر حكاها القرآن فى قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى قال فرعون لموسى : أى شىء رب العالمين الذى أنت وأخوك جئتما لتبلغا رسالته لى ، وما صفته ؟

وهذا السؤال يدل على طغيان فرعون - قبحه الله - وتجاوزه كل حد فى الفجور ، فإن هذا السؤال يحمل فى طياته استنكاراً أن يكون هناك إله سواه ، كما حكى عنه القرآن فى آية أخرى قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾ . (١)

فهو ينكر رسالة موسى - عليه السلام - من أساسها .

وهنا يرد موسى ، بقوله : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ .

أى : قال موسى : ربنا - يا فرعون - هو رب السموات ورب الأرض ، ورب ما بينهما من أجرام وهواء ، وإن كنتم موقنين بشىء من الأشياء ، فإيمانكم بهذا الخالق العظيم وإخلاصكم العبادة له أولى من كل يقين سواه .

وفى هذا الجواب استصغار لشأن فرعون ، وتحقير لمزاعمه ، فكأنه يقول له : إن ربنا هو رب هذا الكون الهائل العظيم ، أما ربوبيتك أنت - فمع بطلانها - هى ربوبية لقوم معينين خدعتهم بدعواك الألوهية ، فأطاعوك لسفاهتهم وفسقتهم .

(١) سورة القصص الآية ٣٨ .

وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله ليشاركوه التعجيب بما قاله موسى وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه ، فيقول لهم : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى ، والذى لاعهد لنا به ، ولا قبول عندنا له ولا صبر لنا عليه .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يهلهم حتى يردوا على فرعون بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وهيمنته على هذا الكون ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

أى : ربنا الذى هو رب السموات والأرض وما بينهما ، هو ربكم أنتم - أيضا - وهو رب آبائكم الأولين ، فكيف تتركون عبادته ، وتعبدون عبدا من عباده ومخلوقا من مخلوقاته هو فرعون؟

وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه ، فقال ملتفتا إلى من حوله : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

أى : قال فرعون - على سبيل السخرية بموسى - مخاطبا أشراف قومه : إن رسولكم الذى أرسل إليكم بما سمعتم ﴿ لَمَجْنُونٌ ﴾ لأنه يتكلم بكلام لا تقبله عقولنا ، ولا تصدقه أذاننا ، وسماه رسولا على سبيل الاستهزاء ، وجعل رسالته إليهم لا إليه ، لأنه - فى زعم نفسه - أكبر من أن يرسل إليه رسول ، ولكى يهيجهم حتى ينكروا على موسى قوله .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يؤثر ما قاله فرعون فى نفسه ، بل رد عليه وعليهم بكل شجاعة وحزم فقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

أى : قال موسى : ربنا رب السموات والأرض وما بينهما ، وربكم ورب آبائكم الأولين ، ورب المشرق الذى هو جهة طلوع الشمس وطلوع النهار ، ورب المغرب الذى هو غروب الشمس وغروب النهار .

وخصهما بالذكر ، لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لا يجرؤ ولا يملك ادعاء تصريفهما أو التحكم فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة ، والتى لا اختلال فيها ولا اضطراب .

كما قال إبراهيم للذى حاجه فى ربه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ .

وجملة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ حض لهم على التعقل والتدبر ، وتحذير لهم من التماذى فى الجحود والعناد .

أى : ربنا وربكم هو رب هذه الكائنات كلها ، فأخلصوا العبادة له ، إن كانت لكم عقول تعقل ما قلته لكم ، وتفهم ما أرشدتكم إليه .

وهكذا انتقل بهم موسى من دليل إلى دليل على وحدانية الله وقدرته ، ومن حجة إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب لكي لا يترك مجالا في عقولهم للتردد في قبول دعوته .

ولكن فرعون - وقد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرا - انتقل من أسلوب المحاوراة في شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد - شأن الطغاة عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة - قال لموسى - عليه السلام - : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

أى : قال فرعون لموسى بشورة وغضب : لئن اتخذت إلها غيرى يا موسى ليكون معبودا لك من دونى ، لأجعلنك واحدا من جملة المسجونين فى سجنى فهذا شأنى مع كل من يتمرد على عبادتى ، ويخالف أمرى .

ولكن موسى - عليه السلام - لم يخفه هذا التهديد والوعيد ، بل رد عليه ردا حكيما فقال له : ﴿ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾

والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على كلام مقدر يستدعيه المقام ، والمعنى ، أتفعل ذلك بى بأن تجعلنى من المسجونين ، ولو جئتك بشىء مبین ، يدل دلالة واضحة على صدقى فى رسالتى وعلى أنى رسول من رب العالمين؟

وعبر عن المعجزة التى أيده الله بها بأنها ﴿ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ للتحويل من شأنها والتفخيم من أمرها ، ولعل مقصد موسى - عليه السلام - بهذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الحديث فى شأن الرسالة التى جاءه من أجلها بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد ، وأن يسد منافذ الهروب عليه أمام قومه ، ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلا أن يقول له : ﴿ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

أى : فأت بهذا الشىء المبین ، إن كنت - يا موسى - من الصادقين فى كلامك السابق .

وهنا كشف موسى - عليه السلام - عما أيده الله - تعالى - به من معجزات حسية خارقة ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ على الأرض أمام فرعون وقومه ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أى : فإذا هى حية عظيمة فى غاية الجلاء والوضوح على أنها حية حقيقية ، لا شائبة معها للتخييل أو التمويه كما يفعل السحرة .

ولم يكتف موسى بذلك فى الدلالة على صدقه ، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى : من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴾ أى : فإذا هى بيضاء بياضا يخالف لون جسمه - عليه السلام - فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس فيها ما يشير على أن بها سوءا أو مرضا .

وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى فى أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة قد أوشكت على الانكشاف ، وبأن معجزة موسى توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول .

قَالَ لِلْإِسْحَاقِ  
 إِنَّ هَذَا السَّحَرَاءُ عَلَيْهِمْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢٦﴾ يَا تُوّكُّ يَا كَلْبُ سِحْرٍ عَلَيْهِمْ ﴿٢٧﴾ جَمْعُ السَّحْرِ لِمَيْقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٢٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا الْفِرْعَوْنَ إِنَّ نَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٣٢﴾

أى : قال فرعون للملأ المحيطين به - بعد أن زلزلته معجزة موسى ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ - أى : لساحر بارع فى فن السحر ، فهو مع اعترافه بضخامة ما أتى به موسى ، يسميه سحرا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله لهم : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم ﴾ هذا الساحر ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ التى نشأتم عليها ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى : فبأى شىء تشيرون علىّ وأنتم حاشيتى ومحل ثقتى؟ وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لنفس هذا الطاغية وأمثاله .

إنه منذ قليل كان يرغى ويزبد ، وإذا به بعد أن فاجأه موسى بمعجزته ، يصاب بالذعر ويقول لمن زعم أنه ربهم الأعلى ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

وهكذا الطغاة عندما يضيق الخناق حول رقابهم يتدللون ويتباكون ، فإذا ما انفك الخناق من حول رقابهم ، عادوا إلى طغيانهم وفجورهم .

ورد الملائكة من قوم فرعون عليه بقولهم : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أى : أخر أمرهما ، ﴿ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أى : وابعث فى مدن مملكتك رجالا من شرطتك يحشرون السحرة ، أى : يجمعونهم عندك لتختار منهم من تشاء .

وقوله : ﴿ يَا تُوتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴾ مجزوم فى جواب الأمر ، أى : إن تبعثهم يأتوك بكل سحر فائق فى سحره ، عليم بفنونه ومدخله .

ولبى فرعون طلب مستشاريه ، فأرسل فى المدائن من يجمع له السحرة ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ ﴾ أى : المعروفون ببراعتهم فيه ﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى : جمعوا وطلب منهم الاستعداد لمنازلة موسى - عليه السلام - فى وقت معين هو «يوم الزينة» أى : يوم العيد ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما فعله أعوان فرعون من حض الناس على حضور تلك المباراة فقال : ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ أى : فى ذلك اليوم المعلوم الذى ينازل فيه السحرة موسى؟ فالمقصود بالاستفهام الحض على الحضور والحث على عدم التخلف .

والترجى فى قولهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ المقصود به - أيضا - حض السحرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلبوا على موسى - عليه السلام - فكأنهم يقولون لهم : ابدلوا قصارى جهدكم فى حسن إعداد سحركم فنحن نرجو أن تكون الغلبة لكم ، فنكون معكم لا مع موسى - عليه السلام - .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله السحرة لفرعون عند التقائهم به فيقول : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ ﴾ ، بعد أن التقى بهم ليشجعهم على الفوز ، ﴿ أَأَنْ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ مجزيا ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ لموسى - عليه السلام - .

وهنا يرد عليهم فرعون ، فيعدهم ، ويمنيهم ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ .  
أى : نعم لكم الأجر العظيم الذى يرضيكم ، وفضلا عن ذلك فستكونون عندى من الرجال المقربين إلى نفسى ، والذين أحصهم برعايتى ومشورتى .

وهكذا يعد فرعون السحرة ويمنيهم ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .  
 ١٣ - وفى سورة الأعراف ، طرف من تلك المحاورات والمجادلات التى نشبت بين موسى  
 - عليه السلام - وبين فرعون وجنده .  
 ومن هذه الآيات قوله - تعالى - :

### وَقَالَ مُوسَى

يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ  
 إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ  
 إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ  
 فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ  
 الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلَيْهِمْ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكُمْ  
 مِّنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا نَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ  
 حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلَيْهِ ﴿١١٢﴾

أى : وقال موسى - عليه السلام - فى أدب واعتزاز - لفرعون : يا فرعون إني رسول من  
 رب العالمين ، أرسلنى إليك لأدعوك لعبادته ، والخضوع له .

ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول إلا كلمة الحق ، فقال : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا  
 أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ .. ﴾ أى : جدير بأن لا أقول على الله إلا القول الحق .

ثم قال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله أعطانيها  
 دليلا على صدقى فيما جئتكم به ، وفى قوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إشعار بأن ما جاء به من  
 حجج وبراهين لم يكن من صنعه ، وإنما هو من عند رب العالمين ، الذى بيده ملكوت كل  
 شىء .

﴿ فَأَرْسَلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : قد جئتمكم ببينة عظيمة الشأن فى الدلالة على صدقى ، فأطلق بنى إسرائيل من أسرك وأعتقهم من رقبك وقهرك ، ودعهم يخرجون أحرارا من تحت سلطانتك ليذهبوا معى إلى دار سوى دارك .  
وإلى هنا يكون موسى - عليه السلام - قد بين لفرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين فماذا كان رد فرعون؟

يحكى القرآن رده فيقول : ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ أى : فأحضرها عندى ليثبت بها صدقك فى دعواك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى دعواك أنك من الملتزمين لقول الحق .

وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أى فألقى موسى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هى ثعبان مبين ، أى : ظاهر بين لاختفاء فى كونه ثعبانا حقيقيا يسعى فى خفة وسرعة كأنه جان .  
والثعبان : الذكر العظيم من الحيات ، وقيل : إنه الحية مطلقا .  
وقد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، إلا أننا أضربنا عنها صفحا لضعفها .

ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقه فقال : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ ﴾ أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أو من طوق قميصه ، أو من إبطه ، فإذا هى بيضاء بياضا عجيبا خارقا للعادة من غير أن يكون بها علة من مرض أو غيره ، قيل : إنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس .

وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملأه إلى الإيمان به فهل آمنوا؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم ، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة ، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظهم ما جاء به موسى ، يدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : قال الأغنياء من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، أى : راسخ فى علم السحر ، ماهر فيه ، ولم يكتفوا بهذا القول الباطل ، بل أخذوا يثيرون الناس على موسى ، ويهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

أى : يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملككم ، وأن يصبح هو ملكا على مصر ، فماذا تأمرون لا تقاء هذا الخطر الداهم؟ وبماذا تشيرون فى أمره؟

ثم حكى القرآن ما أشار به الملأ من قوم فرعون فقال : ﴿ قَالُوا أُرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ .

والمعنى : قال الملأ من قوم فرعون حين استشارهم فى أمر موسى : أخر أمره وأمر أخيه ولا تتعجل بالقضاء فى شأنهما ، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يجمعون إليك السحرة المهرة ، لكى يقفوا فى وجه هذا الساحر العليم ، ويكشفوا عن سحره ويبطلوه بسحر مثله ، أو أشد ، وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من أهل مملكته .

١٤ - وفى سورة «يونس» آيات كريمة ، قصت علينا جانبا من المحاورات التى حدثت بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون وجنده الذين أقروه على ظلمه وغروره ، وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ  
بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا  
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا  
إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا  
وَلَا يُفْعَلُ السَّحْرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ  
عِبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبيّنات .  
﴿ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ عليهما السلام .. ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ الذى قال لقومه : «أنا ربكم الأعلى» والى ﴿ مَلئِهِ ﴾ أى : خاصته وأشراف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .

﴿بَيِّنَاتِنَا﴾ أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات وتوجيهات .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى : فاستكبروا عن طاعتها ، وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم وديدنهم الإجمام وهو ارتكاب ما عظم من الذنوب والقبائح .

ثم بين - سبحانه - ما تفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم موسى بدعوته فقال : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من عندنا لا من عند غيرنا ﴿قَالُوا﴾ على سبيل العناد والحقد والغرور ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذى جئت به يا موسى ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير .

والتعبير بقوله : ﴿جَاءَهُمُ﴾ يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .

وفى قوله : ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التى جاءهم بها موسى - عليه السلام - لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بالقسم المؤكد : يدل على تبجحهم الذميمة ، وكذبهم الأثيم ، حيث وصفوا الحق الذى لا باطل معه بأنه سحر واضح ، وهكذا عندما تقسو القلوب وتفسق النفوس ، تتحول الحقائق فى زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم ، فقال : ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ .  
وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :

قال موسى لفرعون وملئه منكرنا عليهم غرورهم وكذبهم ، ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذى هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهدتكم له ، أتقولون عنه ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

يا سبحان الله!! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذى يدل على الجهالة والغباء ،  
انظروا وتأملوا ﴿ أَسْحَرُ هَذَا ﴾ الذى ترون حقيقته بأعينكم ، وترتجف من عظمتة قلوبكم ،  
والحال أنه ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ فى أى عمل من شأنه أن يهدى إلى الخير والحق .

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين  
فقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي  
الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجيئنا  
ياموسى بما جيئنا به ﴿ لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى : لتصرفنا عن الدين الذى  
وجدنا عليه آبائنا ، وتكون لك ولأخيك هارون ﴿ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : السيادة  
والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة  
خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى - عليه السلام - من الدين الحق فقالوا - كما  
حكى القرآن عنهم - ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : وما نحن لكما بمصدقين فيما  
جيئنا به ، لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آبائنا ، وينزع منا  
ملكنا الذى تتمتع بكبريائه خاصتنا ، وتعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا .

وأفردوا موسى - عليه السلام - بالخطاب فى قولهم : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا . . ﴾ لأنه هو الذى  
كان يجابهم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف  
عن غرورهم وغبائهم .

وجمعوا بين موسى وهارون - عليهما السلام - فى قولهم ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي  
الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما وباعتبار أن  
الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى  
موسى وهارون - عليهما السلام - هى تهمة قديمة جديدة تقوم نوح - مثلا - يمتنعون عن  
قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا يقول القرآن

الكريم : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) ، أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم فيكون زعيما وأتم له تابعون .

١٥ - وفى سورة «الإسراء» نرى مشادة عنيفة ، ومحاورات تحمل التهديد والوعيد من جانب فرعون لموسى - عليه السلام - ومن جانب موسى لفرعون ، كما نرى فيها سوء عاقبة فرعون بسبب كفره وفجوره .  
وهذه الآيات تبدأ بقوله - تعالى - :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَرَائِي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ فَجِنَّاكُمْ لِيُفِيَّا ﴿١٠٤﴾

والمراد بالآيات التسع فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ﴾ : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

والمعنى : لاتظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك ، وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعناب .. إلخ ، لاتظن ذلك .

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

فإن الخوارق مهما عظمت لا تنشىء الإيمان فى القلوب الجاحدة الحاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أحاك موسى تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه فى نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرا على كفرهم ورجسا على رجسهم ، فاصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك .

هذا . . . والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ للنبي ﷺ والمستولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقت أن أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه ، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه فى التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت فى تأييد المدعى .

والفاء فى قوله : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ هى الفصيحة : إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم ، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - يا موسى إنى لأظنك مسحورا .  
أى : سُحرت فخلوط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفا يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لا تدل على تفكير قويم .

وهذا شأن الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ، يرمون أهله - زورا وبهتانا - بكل نقيصة .

وهنا يحكى القرآن الكريم ما رد به موسى على فرعون فيقول : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ ﴾ .

أى : قال موسى لفرعون ردا على كذبه وافترائه : لقد علمت يا فرعون أنه ما أوجد هذه الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها - سبحانه - بصورة واضحة جلية ، حتى لكانها البصائر فى كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله : ﴿ بِصَائرٍ ﴾ حال من ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدقى .

وفى هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن

موسى - عليه السلام - ليس مسحورا ولا ساحرا ، وأن الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ توبيخ آخر لفرعون ، وتهديد له ؛ لأنه وصف نبيا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .

ومثبورا بمعنى مهلك مدمر ، يقال : ثبر الله - تعالى - الظالم يشبره ثبورا ، إذا أهلكه .  
أو بمعنى مصروفا عن الخير ، مطبوعا على الشر من قولهم : ما ثبرك يا فلان عن هذا الأمر؟ أى : ما الذى صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى ؛ وإننى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى الهلاك والتدمير ، بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتيانى بالمعجزات الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربي الذى خلقتنى وخلقك وخلق كل شىء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما هم به فرعون ، بعد أن أحرسه موسى - عليه السلام - بقوة حجته ، وثبات جنانه فقال : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ .

أى : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده ، أن يطرده وقومه من أرض مصر التى يسكنون معه فيها ، وأن يقطع دابرهم .

كما أشار إلى ذلك - سبحانه - فى قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَيْكَلُ قَالَ سَنَقْتَلِ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١٢٧) [الأعراف] .

ثم حكى - سبحانه - ما ترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى وقومه فقال : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ .

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وأن يهلكهم ، فكانت النتيجة أن عكسنا عليه مكره وبغيه حيث أهلكناه هو وجنده بالغرق ، دون أن نستثنى منهم أحدا .

وقلنا من بعد هلاكه لبني إسرائيل على لسان نبينا موسى - عليه السلام - : « اسكنوا الأرض التى أراد أن يستفزكم منها فرعون وهى أرض مصر .

قال الألوسى : وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ، وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده ، وإن لم يثبت فالمراد من بنى إسرائيل : ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم ، واختار غير واحد أن المراد من الأرض - الأرض المقدسة - وهى أرض الشام .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير الألوسى ج٥ ص ١٨٦ .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الظالمين ، وفى توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ، وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة ، مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول ﷺ منها ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلما وكرما ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاريها ، وأورثهم بلاد فرعون» (١).

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ . أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذى حدده الله - تعالى - لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعا أنتم وفرعون وقومه ، مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانبا مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف فى نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين .

١٦ - مرحلة مبارزة موسى للسحرة ، وما قاله فرعون لهم ، وما قالوه له ، والنتيجة : وهذه المرحلة من قصة موسى - عليه السلام - زاخرة بالعظات والعبر ، التى نراها من خلال محاورة موسى للسحرة ، ومن خلال محاورتهم لفرعون ، ووعدهم بالعطايا السخية . وقد وردت هذه المبارزة فى مواطن متعددة من سور القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ

قَالُوا إِنَّا لَنَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ

الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ

الْقَوْمُ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

• وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ ألقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ١٢٤ .

الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعَلُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾  
 وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى  
 وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ  
 مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ الْخَرِيبِ ءَأَمِنْتُ بِأَهْلِهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَا قَطْعَنَ  
 أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا  
 إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَقْمُهُنَّ إِلَّا أَنْ ءَأَمَنَّا بِرَبِّنَا مَا جَاءَنَا  
 رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ .

أى : وأقبل السحرة سريعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما يعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجرا عظيما إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولا من جزالة الأجر وضحامته ، وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلا عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى ، فهو يغريهم بالأجر المادى ويعددهم بالقرب المعنوى من قلبه ، تشجيعا لهم على الإجادة ، وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة التى لا يستطيع الوقوف فى وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم .

هذا ، وقد اختلف المفسرون فى عدد هؤلاء السحرة فقليل ؛ كانوا اثنين وسبعين ساحرا ، وقيل : كانوا أكثر من ذلك بكثير .

وبعد أن اطمأن السحرة على الأجر ، وتطلعت نفوسهم إليه ، يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى بلغة الواثق من قوته ، المتحدى لخصمه : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ .

أى : أنت يا موسى مخير بين أن تلقى عصاك أولا ، وبين أن نلقى نحن أولا وأنت

تفعل ما تشاء بعدنا ، وكأنهم يقولون له : وفى كلتا الحالتين فنحن على ثقة من الفوز والنصر فأرح نفسك واستسلم لنا مقدما .

ولقد حكى لنا القرآن فى سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه فى معركة هم الخاسرون فيها قطعاً ، فقال : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلْكُم لَأَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۖ ۞ ﴾ (١) .

أما هنا فيحكى لنا القرآن أن موسى - عليه السلام - قد طلب منهم أن يلقوا أولاً مستهيناً بتحديهم له ، غير مبال بهم ولا بمن جمعهم ، لأنه قد اعتمد على خالقه : ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۖ ۞ ﴾ .

أى : قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون أولاً ، فلما ألقوا ما كان معهم من الجبال والعصى ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل - سبحانه - سحروا الناس .

وقوله : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أى : خوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد منهم عصاه فصارت كأنها ثعابين .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ تعبير مصور بليغ ، فهو يوحى بأنهم استجاشوا وجدان الناس قسراً ، وساقوهم سوقاً بوسائل مصطنعة مفتعلة لاتستند إلى واقع سليم . روى أنهم ألقوا حبلاً غلاباً وخشباً طويلاً ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضاً .

وروى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها مايوهم الحركة ، قيل جعلوا فيها الزئبق . ويعضى القرآن فبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم ، قد تهاوى فى لحظة ، وانطوى فى ومضة ، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه ، استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۖ ۞ ﴾ .

(١) الآية ٦١ من سورة طه .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر السحرة - أن ألق عصاك ولا تخف إنك أنت الأعلى ، فألقاها فإذا هي تبتلع وتلتقم بسرعة ما يكذبون ويوهون به أولئك السحرة فوقع الحق . أى : ظهر وتبين وثبت الحق الذى عليه موسى ، وفسد وبطل ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل وذهب تأثيره ، وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملاؤه وسحرتة فى ذلك المجمع العظيم ، الذى حشر الناس له فى يوم عيدهم وزينتهم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء بعد أن أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .

(وَأَنْ) فى قوله : ﴿ أَنْ أَلْقِ ﴾ يجوز أن تكون مفسرة لتقدم مافيه معنى القول دون حروفه وهو الإيحاء ، ويجوز أن تكون مصدرية فتكون هى وما بعدها مفعول الإيحاء .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تجسيم لهذا الحق الذى كان عليه موسى ، وتثبيت واستقراره ، حتى لكأنه شىء ذو ثقل نزل على شىء آخر خفيف الوزن فأزاله ومحاه من الوجود .

وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه لفترة من الوقت ، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان ، حتى ليخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف ، ولكن ما أن يواجهه الحق الهادئ الثابت المستقر بقوته التى لا تغالب حتى يزهق ويزول ، وينطفئ كشمعة الهشيم ، وإذا أتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار ، وهم يرون صروحهم تنهار ، وأمالهم تتداعى ، أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحديثهم الصريح ، وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين ، وذل مشين .

ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعد أن رأوا بأعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر فقال : ﴿ فَعُلبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ . وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَٰجِدِينَ ﴾ ، أى : خروا سجدا .

والمراد أن ظهور بطلان سحرهم ، وإدراكهم بأن موسى على الحق ، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن نور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكأن أحدا قد دفعهم إليه دفعا ، وألقاهم إليه إلقاء .

وقوله : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أى : قال السحرة بعد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله ، آمنا بمالك أمر العالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، ألا وهو ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ الذى لا إله سواه .

وهكذا نرى أثر الحق عندما تخالط بشاشته القلوب الواعية ، لقد آمن السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ما جاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر ، والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعدادا للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذى لا يجحده إلا مكابر حقود .

ولكن فرعون وملاه لم يرقهم ما شاهدوا من إيمان السحرة ، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب ، فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أى : قال فرعون منكرا على السحرة إيمانهم ، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن أمركم أنا بذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .

ثم أضاف إلى ذلك اتهامهم بأن إيمانهم لم يكن عن إخلاص ليصرف الناس عنهم فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرَجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أى : إن ما صنعتموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن اقتناع منكم بذلك ، بل هو حيلة احتلتموها أنتم وموسى قبل أن يلقي كل منكم بسحره ، لكى تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل .

وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان السحرة كان عن تواطؤ مع موسى ، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى إخراجهم من أوطانهم ، فعليهم - أى القبط - أن يستمسكوا بدينهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة ولبنى إسرائيل .

ولاشك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من ورائه فرعون صد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام - .

ثم أتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم ، ثم فصل هذا الوعيد بقوله : ﴿ لِأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى : أقسم لأقطعن من كل شق منكم عضوا مغايرا للآخر ، كاليد من الجانب الأيمن ، والرجل من الجانب الأيسر ، ثم لأصلبكنم أجمعين تفضيحا لكم ، وتنكيلا لأمثالكم ، ومع أن فرعون قد توعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسى البطيء المرهوب ، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل ، والإيمان العميق ، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات واطمئنان : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أى : راجعون .

ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ﴾ أى : وما تكره منا وتعيب إلا الإيمان بالله ، مع أن ما تكرهه منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلبا لمرضاتك .

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه والالتجاء إلى الله - تعالى - فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : يا ربنا أفض علينا صبيرا واسعنا لنثبت على دينك ، وتوقنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مدعين لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك .

وبذلك يكون السحرة قد ضربوا للناس فى كل زمان ومكان أروع الأمثال فى التضحية من أجل العقيدة ، وفى الوقوف أمام الطغيان بثبات وعزة ، وفى الصبر على المكاره والآلام ، وفى المسارعة إلى الدخول فى الطريق الحق بعد أن تبين لهم ، وفى التعالى عن كل مغريات الحياة .

قال قتادة : كانوا فى أول النهار كفارا سحرة ، وفى آخره شهداء برة ، فرضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم .

١٧ - وفى سورة «طه» ست عشرة آية قصت علينا بصورة مفصلة ، تلك المحاورات التى دارت بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة ، والتى انتهت بانتصار موسى عليهم ، وبمسارعتهم إلى الدخول فى الدين الحق ، كما تحكى لنا أن موسى - عليه السلام - قبل أن يبارزهم نصحهم بالعدول عن هذه المباراة التى تنتهى بفشلهم ، وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وِإِلَيْكُمْ لَأَنْتَرُوا  
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَيْسَرُكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ ﴿١٦﴾ فَنَزَعُوا  
أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدَانِ  
أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُشْتَا ﴿١٨﴾  
فَاجْعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنْتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعَىٰ ﴿١٩﴾ قَالُوا  
يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ نُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا  
جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ مِنْ سُحْرِهِمْ أَهْتَاسَعَىٰ ﴿٢١﴾ فَأَوْجَسَ

فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَالْقَى  
مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا وَإِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْعَلُ السَّاحِرُ  
حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ  
بِعَذَابٍ .. ﴾ حكاية لما وجهه موسى - عليه السلام - من نصيح وإنذار ، بعد أن جمعهم  
فرعون ومناهم بالهدايا إن انتصروا على موسى - عليه السلام - .

أى : قال موسى - عليه السلام - للصحرة الذين التقى بهم وجهها لوجه بعد أن حشدهم  
فرعون أمامه ، فقال لهم : الويل والهلاك لكم ، ولا تفتروا على الله - تعالى - كذبا ، بأن  
تقفوا في وجهي ، وتزعموا أن معجزاتي هي نوع من السحر فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم  
الله - تعالى - وأبادكم بعذاب عظيم من عنده .

وجملة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ معترضة لتقرير وتأکید ما قبلها .

أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله - تعالى - قولاً باطلا لا حقيقة له ، وفرعون  
أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا في ركابه ، أو أن تطيعوا له أمرا .

ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب في نفوس بعض الصحرة ،  
بليل قول - تعالى - بعد ذلك ﴿ فَتَنَّا زَعْوَاهُمْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ ، والنجوى : المسارة  
في الحديث .

أى : وبعد أن سمع الصحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال  
والهلاك ، إذا ما استمروا في ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴾ أى :  
وبالغوا في إخفاء ما يсарون به عن موسى وأخيه - عليهما السلام - .

فمنهم من قال - كما روى عن قتادة - إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن  
كان من عند الله فسيكون له أمر .

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر .

ومنهم من أخذ في حض زملائه المترددين على منزلة موسى - عليه السلام - لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان ، ولسلب المنافع التي تأتي لهم أى للسحرة عن طريق السحر .

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذى استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة فى النهاية ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ .

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون ، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم فى تجميع صفوفهم ، وفى تشجيع بعضهم لبعض ، حتى لا يستلب موسى - عليه السلام - منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم .

أى : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجى والإسرار ، وما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران ﴿ يُرِيدَانِ ﴾ عن طريق سحرهما أن يخرجوا السحرة من أرضهم مصر : ليستوليا هما وأتباعهما عليها .

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتهما المثلى ، أى : بمذهبكم ودينكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها ، وبملككم الذى أتم فيه ، وبعيشكم الذى تنعمون به .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ أى : إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، فأحكموا سحركم وأعزموا عليه ولا تجعلوه متفرقا .

﴿ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا ﴾ أى : ثم اتتوا جميعا مصطفين ، حتى يكون أمركم أكثر هيبة فى النفوس ، وأعظم وقعا على القلوب ، وأدعى إلى الترابط والثبات ، وقوله : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴾ تذييل مؤكد لما قبله .

أى : وقد أفلح وفاز بالمطلوب فى يوم النزال من طلب العلو ، وسعى من أجله ، واستطاع أن يتغلب على خصمه ، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى ، وإذا تغلب علينا خسرتنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها .

وحانت ساعة المبارزة والمنازلة ، فتقدم السحرة نحو موسى - عليه السلام - وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾

أى : قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذى يبدو فيه التحدى والتلويح بالقوة : يا موسى إما أن تلقى أنت عصاك قبلنا ، وإما أن تتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك .

ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - ترك فرصة البدء لهم ، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة ، فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

أى : قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا ، فامتثلوا أمره ، وألقوا ما معهم ، فإذا حبالهم وعصيتهم التى طرحوها ، جعلت موسى - لشدة اهتزازها واضطرابها - يخيل إليه من شدة سحرهم ، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها .

ويبدو أن فعل السحرة هذا ، قد أثر فى موسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ .

والإيجاس : الإخفاء والإضمار ، والخيفة : الخوف ، أى : فأخفى موسى - عليه السلام - فى نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيتهم كأنها حيات تسعى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر فى نفوس الناس فيصرفهم عما يفعله .

وهنا ثبته الله - تعالى - وقواه ، وأوحى إليه - سبحانه - بقوله : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ .

أى : قلنا له عندما أوجس فى نفسه خيفة من فعل السحرة : لا تخف يا موسى بما فعلوه ، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر ، وأنت الأعلى ؛ لأن معك الحق ومعهم الباطل .

وقد أكد الله - تعالى - هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها : إن المؤكدة ، وثانيها : تكرير الضمير ، وثالثها : التعبير بالعلو المفيد للاستعلاء عليهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ زيادة فى تشجيعه وتثبيته .

والمعنى : وألق يا موسى ما فى يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير وتخيل ، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيتهم تسعى .

قال ابن كثير : وذلك أنها صارت تنينا هائلا - أى حية عظيمة - ذا عيون وقوائم ، وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلتفقه

وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهارا ، فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ ﴾ تعليل لقوله : ﴿ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا ﴾ .

والتقدير : وألق يا موسى عصاك تلقف ما صنعوه فإن الذى صنعوه إنما هو كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم وتمويههم .

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾ أى : ولا يفوز هذا الجنس من الناس ﴿ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى : حيث كان ، أى : أن الساحر لا يفلح ولا يفوز أينما كان ، وحيثما أقبل ، وأنى اتجه ، لأنه يصنع للناس التخيل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق .

ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا ما رأوا بعد أن ألقى موسى ما فى يمينه ، قال - تعالى - : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴾ .

أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما فى يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت حبالهم وعصيتهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخرروا سجدا لله على وجوههم قائلين آمنا برب هارون وموسى .

والحق أن التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. ﴾ يدل على قوة البرهان الذى عاينوه ، حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التى عاينوها ، وأطلق - سبحانه - عليهم اسم الحسرة فى حال سجودهم له - تعالى - وإيمانهم به ، نظرا إلى حالهم الماضية .

وهكذا النفوس النقية عندما يتبين لها الحق ، لا تلبث أن تفتى إليه ، وتستجيب لأهله ، قال الكرخى : خروا ساجدين لله لأنهم كانوا فى أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر البتة .<sup>(٢)</sup>

وقال صاحب الكشاف : « ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيتهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين » .<sup>(٣)</sup>

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما توعد فرعون به السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٩٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٠١ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٧٥ .

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنٰ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ  
 فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ  
 النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّكُمْ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا  
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ  
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْرِفَ لِمَا أَخْطَيْنَا وَمَا أَكْرَهْنَا  
 عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِ مُجِيمٌ فَإِنْ لَوْ جَهَنَّمَ  
 لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٩﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ  
 فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٨٥﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خرروا لله - تعالى - ساجدين : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنٰ لَكُمْ ﴾ أى : هل آمنتم لموسى وصدقتموه فى دعوته وانقدتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك ، فلا استفهام للتقريع والتهديد .

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى : أن موسى الذى انقدتم له لهُو كبيركم وشيخكم الذى علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأتم معه ، وآمنتم به لأنكم من أتباعه .  
 وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى بهم ، وعن الإيمان بالحق الذى آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع ، من هول ما رأوه .

ثم أضاف إلى قوله هذا تهديدا أشد فقال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ .

أى : فوالله لأقطعن أيديكم اليمنى - مثلا - مع أرجلكم اليسرى ، ولأصلبكنم على جذوع النخل ، لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم .

فالمراد من قوله : ﴿مَنْ خِلَافٍ﴾ أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شىء كامل صحيح ، بخلاف قطعهما من جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين .

واختار أن يصلبهم فى جذوع النخل ، لأن هذه الجذوع أحسن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها ، وأظهر للرأى لعلوها عن سواها ، فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب ليصبها على هؤلاء المؤمنين .

وقوله : ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ تهديد فوق تهديد ، ووعيد إثر وعيد أى : والله لتعلمن أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ، أنا أم موسى وربه .

وكانه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم ، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم .

ثم حكى - سبحانه - أن السحرة بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال : ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ .

أى : قال السحرة فى ردهم على تهديد فرعون لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ، ولن نقدم سلامتنا من عذابك ، على ما ظهر لنا من المعجزات التى جاءنا بها موسى ، والتى على رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى تبتلع حبالنا وعصينا .

وجملة ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ الواو فيها للعطف على «ما» فى قوله : ﴿مَا جَاءَنَا﴾

أى : لن نختارك يا فرعون على الذى جاءنا من البينات على يد موسى ، ولا على الذى فطرنا أى : خلقنا وأوجدنا فى هذه الحياة .

ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول مقسم به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : وحق الذى فطرنا لن نؤترك يا فرعون على ما جاءنا من البينات .

وقوله : ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم ، ورد منهم على قوله : ﴿فَلَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ .

أى : لن نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق ، فافعل ما أنت فاعله ،

ونفذ ما تريد تنفيذه فى جوارحنا ، فهى وحدها التى تملكها ، أما قلوبنا فقد استقر الإيمان فيها ، ولا تملك شيئاً من صرفها عما أمنت به .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ تعليل لعدم مبالاتهم بتهديده لهم .

أى : افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا إنما يتعلق بحياتنا فى هذه الحياة الدنيا ، وهى سريعة الزوال ، وعذابها أهون من عذاب الآخرة .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ وخالقنا ومالك أمرنا ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ السالفة ، التى اقترفناها بسبب الكفر والإشراك به - سبحانه - .

﴿ و ﴾ ليغفر لنا ﴿ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ لكى نعارض به موسى - عليه السلام - معارضة من هو على الباطل لمن هو على الحق ، وقد كنا لانتك أن نعصيك .

وخصوا السحر بالذكر مع دخوله فى خطاياهم ، للإشعار بشدة نفورهم منه ، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ تذييل قصدوا به الرد على قول فرعون لهم : ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ .

أى : والله - تعالى - خير ثواباً منك يا فرعون ، وأبقى جزاءً وعطاءً ، فإن ثوابه - سبحانه - لا ينقص معه ، وعطاءه أبقى من كل عطاء .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا . . ﴾ يصح أن يكون كلاماً مستأنفاً ساقه الله - تعالى - لبيان سوء عاقبة المجرمين وحسن عاقبة المؤمنين .

ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة فى ردهم على فرعون .

والمعنى : ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : الحال والشأن ﴿ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ ﴾ يوم القيامة فى حال كونه ﴿ مُجْرِمًا ﴾ .

أى : مرتكباً لجريمة الكفر والشرك بالله - تعالى - ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ أى : لهذا المجرم ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ يعذب فيها عذاباً شديداً من مظاهره أنه ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلَا يَحْيَى ﴾ حياة فيها راحة .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ به إيماننا حقا ،  
 ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ الأعمال ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ بجانب إيمانه ، ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك  
 الصفات ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ أى : المنازل  
 الرفيعة والمكانة السامية .

وقوله : ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ بدل من الدرجات العلى .

أى : لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾  
 خلودا أبديا

﴿ وَذَلِكَ ﴾ العطاء الجزيل الباقي جزاء من تزكى ، أى : من تطهر وتجرد من دنس  
 الكفر والمعاصى .

والى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ، تلك المحاورات التى  
 دارت بين موسى وفرعون والسحرة ، والتى انتهت بانتصار الحق ، واندحار الباطل .

١٨ - وفى سورة الشعراء تصوير بليغ لتلك المبارزة التى دارت بين موسى - عليه  
 السلام - وبين السحرة ، ومن الآيات التى حكم ذلك قوله - تعالى - :

قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقَوْمَا  
 أَنْتُمْ مُلْكُونَ ﴿٤٦﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا  
 لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثُ حُرُوفٍ ﴿٤٨﴾  
 فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِجِّدِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ رَبِّ مُوسَى  
 وَهَارُونَ ﴿٥١﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَرِيمٌ الَّذِي  
 عَلَّمَكَ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ  
 خَلْفٍ وَلَا أُولِيكُمْ أَعْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا الْأَضْيَارُ نَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٣﴾  
 إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا إِنَّ كَا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾

أى : قال موسى للسحرة بعد أن أعدوا عدتهم لمنازلته ، ومن خلفهم فرعون وقومه يشجعونهم على الفوز قال لهم : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ من السحر ، فسوف ترون عاقبة منازلتكم لى .

وأسلوب الآية الكريمة يشعر بعدم مبالاة موسى - عليه السلام - بهم أو بتلك الحشود التى من ورائهم ، فهو مطمئن إلى نصر الله - سبحانه - له .

﴿ فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا ﴾ أى : عند إلقاءهم لتلك الحبال والعصى ﴿ بَعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى : بقوته وجبروته وسطوته ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ لا موسى - عليه السلام - ولم تفصل السورة هنا ما فصلته سورة «الأعراف» من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أو ما وضحته سورة «طه» من أنهم حين ألقوا حبالهم : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ... ﴾ .

ولعل السرفى عدم التفصيل هنا ، أن السورة الكريمة تسوق الأحداث متتابعة متابعا سريعا ، تربط معها قلب القارئ وعقله عما تسفر عنه هذه الأحداث من ظهور الحق ، ومن دحور الباطل .

ولذا جاء التعقيب السريع بما فعله موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أى : تتبلع بسرعة ، وتأخذ بقسوة ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى : ما فعلوه وما يفعلونه من السحر ، الذى يقبلون به حقائق الأشياء عن طريق الترمويه والتخييل ، ورأى السحرة بأعينهم ومعهم الحشود من خلفهم ، رأوا ما أجراه الله - تعالى - على يد موسى - عليه السلام - رأوا كل ذلك فذهلوا وبهروا وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس سحرا وإنما هو شىء آخر فوق طاقة البشر ، ولو كان سحرا لعرفوه فهم رجاله ، وأيضا لو كان سحرا لبقيت حبالهم وعصيهم على الأرض ، ولكنها ابتلعته عصا موسى - عليه السلام - عندئذ لم يتمالكوا أنفسهم ، بل فعلوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴾ أى : فخرروا ساجدين على وجوههم بدون تردد ، وهم يقولون : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

وهكذا بعد أن شاهد السحرة الحق يتلأأ أمام أبصارهم ، لم يملكوا إلا أن ينطقوا به على رؤوس الأشهاد ، وتحولوا من قوم يلتمسون الأجر من فرعون قائلين : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين إلى قوم آخرين هجروا الدنيا ، ومغانمها ، واستهانوا بالتهديد والوعيد ، ونطقوا بكلمة الحق فى وجه من كانوا يقسمون بعزته إنا لنحن الغالبون .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول فى حديثه الذى رواه الشيخان : « مامن قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » .

ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك موقف فرعون وقد رأى ما حطمه وزلزله فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ ﴾ أى : فرعون للسحرة ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى : لموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ بالإيمان به . ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى : موسى - عليه السلام - ﴿ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى : فأنتم متواطئون معه على هذه اللعبة ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما أنزله بكم من عذاب .

﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ﴾ أى : لأقطعن من كل واحد منكم يده اليمنى مع رجله اليسرى ﴿ وَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : فى جذوع النخل - كما جاء فى آية أخرى - والمتأمل فى قول فرعون كما حكاه القرآن عنه يرى فيه الطغيان والكفر ، فهو يستنكر على السحرة إيمانهم بدون إذن ، ويرى فيه الكذب الباطل الذى قصد من ورائه تشكيك قومه فى صدق موسى وفى نبوته فهو يقول لهم : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ .

ويرى فيه بعد هذا التلبيس على قومه ، التهديد الغليظ - شأن الطغاة فى كل زمان ومكان - فهو يقول للسحرة الذين صاروا مؤمنين : ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : بدون استثناء لواحد منهم . ولم يلتفت السحرة إلى هذا التهديد والوعيد بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، بل قالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ مصدر ضاره الأمر يضوره ويضيره ضيرا ، أى : ضره وألحق به الأذى .

أى : قالوا - بكل ثبات وعدم مبالاة بوعيده - لا ضرر علينا من عقابك فستحمله صابرين فى سبيل الحق الذى آمننا به .

﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أى : راجعون إليه ، فيجازينا على صبرنا .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ التى وقعنا فيها قبل الإيمان ، كعبادة فرعون وكتعاطى السحر ﴿ أَنْ كُنَّا ﴾ أى : لأن كنا ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالحق بعد أن جاءنا .

وفى سورة «يونس» أربع آيات تحكى لنا ما طلبه فرعون من حاشيته ، وما نصح به موسى - عليه السلام - السحرة وما اقتضته سنة الله - عز وجل - من جعل العاقبة للمتقين .

وهذه الآيات فى قوله - تعالى - :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِمَ  
مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتَ مُلْقُونُ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ  
السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٩﴾ وَيُحَقِّقُ  
اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْجَاهِلُونَ ﴿٧٠﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى ثعبان مبین .

قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام - ﴿ أَتُونِي ﴾ أيها الملأ ﴿ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : بكل ساحر من أفراد مملكتى تكون عنده المهارة التامة فى فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام والتقدير : فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا فى إحضار السحرة ، فلما جاءوا والتقوا بموسى - عليه السلام - وخبروه بقولهم : ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ على سبيل التحدى ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ من ألوان سحرهم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم ولتميزوا بين حقى وباطلكم .

﴿ فَلَمَّا أَلْقُوا ﴾ أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيتهم .

﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَى ﴾ على سبيل السخرية بما صنعوه .

﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : قال لهم موسى : أيها السحرة إن الذى جئتم به هو السحر بعينه ، وليس الذى جئت به أنا بما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبین .

وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرنى الله - سبحانه - من إلقاء عصاى ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يصلح عمل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح .

وقوله : ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ تأكيد لسنة الله - تعالى - فى تنازع الحق والباطل ، والصالح والفساد .

أى : أنه جرت سنة الله - تعالى - ألا يصلح عمل المفسدين ، بل يحقه ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى : يثبته ويقويه ويؤيده ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ النافذة ، وقضائه الذى لا يرد ، ووعده الذى لا يتخلف ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لاتعطل مشيئة الله ، ولاتحول بين تنفيذ آياته وكلماته وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وهكذا نرى أن المبارزة بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة ، قد انتهت بنصرة الحق ، وخذلان الباطل ، وإيمان السحرة إيماناً عميقاً صادقاً .

١٩ - اشتداد ظلم فرعون وملئه لبنى إسرائيل ، بعد انتصار موسى - عليه السلام - على السحرة ، وبعد إيمانهم بالحق الذى جاء به موسى - عليه السلام - .

وقد قص علينا القرآن الكريم فى سور متعددة ، تلك التهديدات التى وجهها فرعون وقومه لموسى - عليه السلام - ولبنى إسرائيل ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ

أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ فِي الْأَرْضِ قَالَ سَتَقْبَلُونَ

أَبْنَاؤَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ

أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ

مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ

فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾

أى : وقال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابتهم الهزيمة والخذلان فى معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التهيج والإثارة : أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين فى أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس فى دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم .

وروى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا عددا كبيرا من الناس ، قد دخل فى الإيمان متبعا السحرة الذين قالوا ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيَذَرِكْ وَالْهَتِكْ ﴾ معناه : أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون ، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك ، فيظهر للناس عجزك وعجزها ، فتكون الطامة الكبرى التى بها يفسد ملكك .

قال السدى : إن فرعون كان قد صنع لقومه أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها ، وسمى نفسه الرب الأعلى .

والتأمل فى هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن الملأ من قوم فرعون ، يراه يطفح بأشد ألوان التآمر والتحريض ، فهم يخوفونه فقدان الهيبة والسلطان بتحطيم الأوهام التى يستخدمها السلطان ، لذا نراه يرد عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : ﴿ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

أى : لاتخافوا ولا ترتاعوا أيها الملأ فإن قوم موسى أهون من ذلك ، وسننزل بهم ما كنا نفعله معهم من قبل وهو تقتيل الأبناء ، وترك النساء أحياء ، وإنا فوقهم غالبون كما كنا ما تغير شىء من حالنا ، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء ، وهم الأذلة ونحن الأعزة .

فأنت ترى أن ما قاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية السوء فى كل عهود الطغيان ، فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله إفساد فى الأرض ؛ لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد ، ولأنها هى الدعوة إلى وحدانية الله التى ستحرر الناس من ظلمهم وجبروتهم ، وتفتح العيون على النور الذى يخشاه أولئك الفاسقون .

وترى أن ما قاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائما ، فهم يلجأون إلى قوتهم المادية ليحموا بها أئامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ، والبطش ، والمنافع الشخصية .

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال موسى - عليه السلام - ؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل أوصى قومه بالصبر ، ولوح

لهم بالنصر ، استمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى - عليه السلام - فيقول : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أى : قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسلية حين ضجوا وارتعبوا من تهديدات فرعون وملئه : يا قوم استعينوا بالله فى كل أموركم ، واصبروا على البلاء ، فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه ، وإنما هى ملك لله رب العالمين ، وهو - سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحدا سواه .

بهذا الأسلوب المؤثر البليغ ، وبهذه الوصايا الحكيمة ، وصى موسى قومه بنى إسرائيل فماذا كان ردهم عليه ؟ لقد كان ردهم يدل على سفاهتهم ، فقد قالوا له : ﴿ أَوَذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى : قال بنو إسرائيل لموسى ردا على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة ، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألوانا من الظلم ، والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى من سوء أحوالنا ، واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهينة ، فنحن لم نستفد من رسالتك شيئا ، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التى لاجدوى من ورائها ؟

ومع هذا الرد السفيه من قوم موسى - عليه السلام - عليه ، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ فرعون الذى فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد .

﴿ وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يجعلكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته .

﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : فيرى - سبحانه - الكائن منكم من العمل ، حسنه وقبيحه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلافكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان ، فإن أحسنتم زادكم الله من فضله ، وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم .

وفى التعبير «بعسى» الذى يدل على الرجاء أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل - وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامى مع خالقهم ، وفيه كذلك منع لهم من الانكسار وترك العمل ، لأنه لو جزم لهم فى الوعد فقد يتركون السعى والجهاد اعتمادا على ذلك .

وقيل : إن موسى ساق لهم ما وعدهم به فى صيغة الرجاء لئلا يكذبوه ، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم للملكه وقوته ، فكأنهم يرون أن ماقاله لهم موسى مستبعد الحصول ، لذا ساقه لهم فى صورة الرجاء .

٢٠ - وفى سورة «غافر» نجد بضع آيات ، تصور لنا بأسلوب مؤثر ، تلك التهم الباطلة التى وجهها فرعون وشيعته إلى موسى - عليه السلام - وتلك التهديدات الساخرة له ولقومه من بنى إسرائيل .

كما نرى فيها جانبا من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها موسى - عليه السلام - إلى خالقه - عز وجل - .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

وَلَقَدْ

أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهٰمٰنَ  
وَقَرٰوِنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا  
قَالُوا أَأَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا مَعَهُ وَءَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ  
الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيْٓ اَقْتُلْ مُوسٰى  
وَلْيَدْعُ رَبَّهُٗٓ اِنِّىْٓ اَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِيْنَكُمْ اَوْ اَنْ يُظْهِرَ فِي الْاَرْضِ  
الْفَسَادَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ مُوسٰى اِنِّىْٓ عٰذْتُ بِرَبِّيْ وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ  
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة التى تغلب بها فى الحجاج والجدال على فرعون .

أى : والله لقد منحنا موسى - عليه السلام - بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه - أيضا - حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهٰمٰنَ وَقَارُونَ .. ﴾ بيان لمن أرسله الله - تعالى - إليهم .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر فى تلك العهود السابقة ، والمراد به هنا : ذلك الملك الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى - عليه السلام - ، ويقال إنه «منفتاح» بن رمسيس الثانى .

و﴿ هَامَانَ ﴾ هو وزير فرعون و﴿ قَارُونَ ﴾ هو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وأعطاه الله - تعالى - الكثير من الأموال ، ثم خسف به وبداره الأرض .

وخص - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى كانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكائد ضد موسى - عليه السلام - . فيتبعهم العامة من أقوامهم .

وقوله : ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ بيان لما وصفوا به موسى - عليه السلام - أى : أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، أن قالوا فى شأنه إنه ساحر يمويه على الناس بسحره ، وأنه كذاب فى دعواه أنه رسول من رب العالمين .

وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة الظالمين ، أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وهو المؤيد بآيات الله ، وبحججه الظاهرة وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكتهم .

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ .. ﴾ .

أى : فحين وصل إليهم موسى - عليه السلام - بدعوته ، وخاطبهم بما أمره الله - تعالى - أن يخاطبهم به ، وجابهم بالحق الذى زوده الله - تعالى - به .

ما كان منهم إلا أن قالوا - على سبيل التهديد والوعيد - : «اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ، واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ فى إذلالهم ، إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة ، وذل عظيم .

والتعبير بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم ، وأنهم لم يخرجوا لطلبه ، وإنما هو الذى جاءهم عن طريق موسى ، المؤيد بآيات الله - تعالى - .

والقائلون : ﴿ اَقْتُلُوا اَبْنَاءَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَهُ وَاَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ هم الملائم من قوم فرعون الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان ، إرضاء له ، وإرهابا لموسى - عليه السلام - ولئن آمن معه .

قال الإمام الرازى : والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى ، لأن القتل فى ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأبناء فى ذلك الوقت ، وأما فى هذا الوقت ، فموسى - عليه السلام - كان قد جاء وأظهر المعجزات ، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ، لئلا ينشأوا على دين موسى ، فيقوى بهم ، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات ، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِى ضَلٰلٍ ﴾ توهين لشأن الكافرين فى كل زمان ومكان ، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا فى طريق الحق دون أن يرهبهم وعدو وعيد ، فإن النصر سيكون فى النهاية لهم .

أى : وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم ، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان ، يقال : ضل فلان الطريق إذا ضاع منه الرشد ، والتبست عليه السبل ، وصار تأثها لا يعرف له طريقا يوصله إلى ما يريد .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان فجور فرعون وبغيه فقال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىْ اَقْتُلْ مُوسَىٰ . . ﴾ .

أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصته : اتركونى لأقتل موسى - عليه السلام - وأتخلص منه ومن أقواله التى فيها ما فيها من الضرر بى وبكم .

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة من بعض مستشاريه ، لأنهم يرون أن قتله لا ينهى المتاعب ، بل قد يزيدا اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثائرتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدى إلى نزول العذاب بهم ، غضبا من رب موسى ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدى إلى تفرغ فرعون لهم ، وهم لا يريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم .

(١) تفسير الفخر الرازى ج٧ ص ٣٠٢ .

وقوله : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ تظاهر من فرعون بأنه لا يبالي بما يكون من وراء قتله لموسى ، وأنه غير مكترث لاجبوسى ولا برب موسى .

فالجمله الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر واستهزاء بالحق فكأنه يقول : إني قاتل لموسى وليدع ربه لكى يخلصه منى . !!

ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ما حملة على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم فيقول : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .

أى : اتركونى لأقتل موسى ، وليدع ربه لكى يخلصه منى ، إن كان فى إمكانه ذلك ، فإنى أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر ، أو بأن يظهر فى الأرض التى تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم ، والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة ، ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم ، أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية!

قال الإمام الرازى : والمقصود من هذا الكلام ، بيان السبب لقتل موسى ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين ، أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين : فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق .

وأما فساد الدنيا : فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن .

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبههم لأموالهم ، لاجرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى - عليه السلام - بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي عُذْتُ بربِّي وَربِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

(١) تفسير الفخر الرازى ج٧ ص ٣٠٣ .

أى : قال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق يا قوم ، إنى استجرت وتحصنت بربى وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب .

وفى هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله - تعالى - له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله - تعالى - الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبإنجائهم وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .

٢١ - نزول المصائب والكوارث بفرعون وقومه ، وطلبهم من موسى - عليه السلام - أن يدعو ربه بأن يبعتها عنهم .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم أن فرعون وقومه قد حلت بهم الشدائد والحن ، لاسيما بعد أن فعلوا ما فعلوا من إيذاء وإرهاب لموسى - عليه السلام - ومن قتل وإذلال لقومه من بنى إسرائيل ، كما قص علينا القرآن الكريم أن موسى - عليه السلام - بعد أن طال ظلم فرعون وحاشيته لبنى إسرائيل ، وبعد أن أصر هو وأعوانه على كفرهم ، وفسوقهم ، بعد كل ذلك دعا موسى - عليه السلام - عليهم ، فأجاب الله - تعالى - دعاه .

ومن الآيات القرآنية التى صورت كل ذلك قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ  
 مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا  
 هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ  
 عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هُمَا تَأْتِيَانِي بِهِ مِنْ  
 آيَةٍ لِيَتَّبِعَنَاهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ  
 وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا  
 وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى  
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ

وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٥﴾ فَلَا كَشْفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَالَ إِلَىٰ آجَلٍ مُّ  
 بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٦﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا  
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ  
 كَانُوا يُسْضَعُفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا  
 فِيهَا وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا  
 مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٨﴾

والمعنى : ولقد أخذنا آل فرعون أى : اختبرناهم وامتحانهم بالجذب والقحط ، وضيق المعيشة ، وانتقاص الثمرات لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتذكرون ضعفهم أمام قوة خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والعصيان ، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وتصفى النفوس ، وترغب فى الصراعة إلى الله ، وتدعو إلى اليقظة والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلايا .

ثم بين - سبحانه - أن آل فرعون لم يعتبروا بهذا الأخذ والامتحان ، وإنما ازدادوا تمردا وكفرا فقال : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ .

أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء قالوا بغرور و صلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا أهل له ، ونحن مستحقوه وبكدنا واجتهادنا وامتيازنا على غيرنا ناسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم غافلين عن شكره على نعمائه .

﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أى : وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أى : حالة تسوؤهم كجذب أو قحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق ، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم ، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَأَّرْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباطيلهم ، وصدر بلفظ «ألا» الذى يفيد التنبيه ؛ لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر .

أى : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله ، فهي التى ساقَتْ إليهم ما يسوؤهم وليس لموسى ولا لمن معه أى تدخل فى ذلك ، ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، فيقولون ما يقولون بما تمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم .

وفى إسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك ، ولكنها لا تعمل بمقتضى علمها .

هذا ، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا بالجذب الشديد ، ولا بالرخاء العظيم ، وأن الخصب الواسع زادهم غرورا وبطرا ، والشدائد - كما يقول صاحب الكشف - تجعل الناس «أضرع حدودا وألين أعطافا ، وأرق أفتدة» .

ثم تحكى السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجوا فى طغيانهم يعمهون فقالت : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : قال الملأ من قوم فرعون لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : إنك يا موسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على أحقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أى : تصرفنا بها عما نحن فيه ، فما نحن لك بمصدقين ولا لرسالتك بمتبعين .

ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود ، فهم قد صاروا فى حالة نفسية لا يجدى معها دليل ، ولا ينفع فيها إقناع ؛ لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل ، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم ، ومسخت نفوسهم وأظلمت مشاعرهم ، حين يدمغهم الحق ، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح ، إنهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أى لون من ألوان التفكير والتدبر .

ثم حكى السورة الكريمة ما حل بهؤلاء الفجيرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقالت : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ .

أى : فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان ، أى : الماء الكثير الذى أغرق زروعهم .

وأرسلنا عليهم ﴿ الْجَرَادَ ﴾ فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم ، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة .

وأرسلنا عليهم ﴿ الْقُمَّلَ ﴾ وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية .

وأرسلنا عليهم ﴿الضَّفَادِع﴾ فصعدت من الأنهار والخلجان والمانابع فغطت الأرض  
وضايقتهم فى معاشهم ومنامهم .

وأرسلنا عليهم ﴿الدَّم﴾ فصارت مياه الأنهار مختلطة به ، فمات السمك فيها ، وقيل  
المراد بالدم : الرعاف الذى كان يسيل من أنوفهم .

تلك هى النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين ، بسبب فسوقهم عن أمر  
ربهم ، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام - .

وقوله : ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ أى : عظات مبيّنات واضحات لا يشك عاقل فى كونها  
آيات إلهية لمدخل فيها للسحر كما يزعمون .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند نزول العقاب بهم فقال : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا  
يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنَكْشِفَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ﴾ .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى فقال : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ  
بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ، أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى الوقت الذى  
أجل لهم وهو وقت إغراقهم فى اليم ، إذا هم ينكثون : أى : ينقضون عهدهم الذى  
التزموه ، ويحثثون فى قسمهم فى كل مرة .

ثم حكّت السورة الكريمة نهايتهم الأليمة ، بسبب نقضهم لعهودهم ومواثيقهم فى كل  
مرة ، وبسبب تكذيبهم لآيات الله ، وعصيانهم لنبيهم موسى - عليه السلام - فقالت :  
﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى : فانتقمنا  
منهم عند بلوغ الأجل المضروب لإهلاكهم بأن أغرقناهم فى اليم - أى البحر - وذلك  
بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة ، وحججنا الساطعة وكانوا عنها غافلين بحيث  
لا يتدبرونها ، ولا يتفكرون فيما تحمله من عظات وعبر .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملكه بصورة مجملّة ، فلا يفصل خطواته كما  
فصلها فى مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال  
الطويل ، فلادعى إذن إلى طول العرض والتفصيل ، إن الحسم السريع هنا أوقع فى  
النفس ، وأرهب للحس ، وأزجر للقلب ، وأدعى إلى العظة والاعتبار ، ولأن سورة الأعراف  
- كما سبق أن بينا - يغلب عليها هذا الأسلوب الذى ينزل قلوب الطغاة ، ويغرس فى

النفوس الرهبة والخوف وهي تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه ، وهو ما حل بالأمم السابقة التي كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها .

ثم هي تحكى لهم ما أعد للمستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم وانتهاكهم لحرمان الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أن بين نهاية فرعون وآله فقال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ .

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملئه بالاستبعاد وقتل الأبناء ، وسوء العذاب ، أعطيناهم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التي باركنا فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق ، ويكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم ، واختبارا لنفوسهم .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : ونفذت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة ، حيث رزقهم - سبحانه - النصر على أعدائهم ، والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون وملئه .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من بناء القصور الشاهقة والمنازل القوية ، وما كانوا يرفعونه من البساتين ، والصورح المشيدة ، كصرح هامان وغيره .

و ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشئ المسقف المرفوع .

وهكذا تنهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والغادرين من دمار وخراب ، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف فى الأرض .

٢٢ - وفى سورة «الزخرف» نجد آيات كريمة تحكى لنا كيف أن فرعون قد استهزأ برسالة موسى - عليه السلام - وتبعه فى ذلك من كان على شاكلته فى الفسوق والعصيان ، ووصفوا من جاء لهدايتهم بأنه ساحر ، فلما حل بهم البلاء والجذب طلبوا من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - أن يفرج كربهم ، فلما فرج كربهم عادوا إلى ضلالهم وجحودهم ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل نرى فرعون يتباهى أمام قومه ، بأنه خير من موسى - عليه السلام - فكانت نهايته ونهاية الذين استخف بهم الهلاك والدمار .

وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ

بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا  
جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا  
هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا  
يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّاعِ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا  
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ  
قَالَ يَا قَوْمِ أَوَّلَبِ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا  
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾  
فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أُجَاءَ مَعَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾  
فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا  
أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا

لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

أى : والله لقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا  
وقدرتنا ، والتي على رأسها اليد والعصا . . وأرسلناه بهذه الآيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾  
أى : أشرف قومه ﴿فَقَالَ﴾ لهم ناصحا ومرشدا : إني رسول رب العالمين إليكم ، لا مرمك  
بعبادة الله - تعالى - : وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أى : فحين جاء موسى - عليه السلام -  
إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا ، سارعوا إلى الضحك منها ، والسخرية بها ،  
بدون تأمل أو تدبر ، شأن المغرورين الجهلاء .

فقوله - تعالى - : ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ جواب ﴿ لَمَّا ﴾ والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية ، والاستخفاف بالآيات التي جاء بها موسى - عليه السلام - مع أن هذه الآيات كانت تقتضى منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا . . ﴾ بيان لقسوة قلوبهم ، وعدم تأثرهم بالآيات والمعجزات .

أى : وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها ، فى الدلالة على ذلك ، مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة فى ذاتها .

والمقصود بالجملة الكريمة ، بيان أن هؤلاء القوم لم يأتهم موسى - عليه السلام - بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بيان للمصير السيئ الذى أکوا إليه .

أى : وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى ، بالعذاب الدنيوى الشديد لكى يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق ، ولكنهم لم يرجعوا .

فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوى ، الذى أشار إليه - سبحانه - بقوله :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . (١)

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب ، فقال : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

أى : وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب قالوا لموسى - على سبيل التذلل والتعظيم من شأنه - يا أيها الساحر الذى غلبنا بسحره وعلمه ، ادع لنا ربك بحق عهده إليك بالنبوة ، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذى نزل بنا إننا لمهتدون . أى : إننا لمؤمنون ثابتون على ذلك متبعون لك فى كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه .

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٣ .

فدعا موسى - عليه السلام - ربه أن يكشف عنهم العذاب ، فأجاب الله دعوته بأن كشفه عنهم ، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنهم نقضوا عهودهم ، واستمروا على كفرهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ ﴾ أى : فحين كشفنا عنهم العذاب الذى حل بهم ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى : إذا هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلا يؤمنون .

ومن سوء أديهم أنهم قالوا : ادع لنا ربك ، فكأن الله - تعالى - رب موسى وحده ، وليس ربا لهم .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من طغيان فرعون وفجوره ، واستخفافه بعقول قومه فقال : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ أى : أن فرعون جمع زعماء قومه ، وأخبرهم بما يريد أن يقول لهم .

أو أنه أمر منادياً ينادى فى قومه جميعاً ، ليعلمهم بما يريد إعلامهم به ، وأسند - سبحانه - النداء إلى فرعون لأنه هو الأمر به .

والتعبير بقوله : ﴿ فِي قَوْمِهِ ﴾ يشعر بأن النداء قد وصل إليهم جميعاً ودخل فى قلوبهم . وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ حكاية لما قاله فرعون لقومه .

أى : أن فرعون جمع عظماء قومه ، وقال لهم - بعد أن خشى إيمانهم بموسى : ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ بحيث لا ينازعنى فى ذلك منازع ، ولا يخالفنى فى ذلك مخالف ، فالاستفهام للتقرير .

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الأنهار التى ترونها متفرعة من النيل تجرى تحت قدمه ، أو من تحت قصرى .

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ذلك ، وتستدلون به على قوة أمرى ، وسعة ملكى ، وعظم شأنى . و﴿ أَمْ ﴾ فى قوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ هى المنقطعة

المقدرة بمعنى بل التى هى للإضراب ، والإشارة بهذا تعود لموسى - عليه السلام - .

أى : بل أنا خير من هذا الذى هو فقير وليس صاحب ملك أو سطوة أو مال . . وفى الوقت نفسه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أى : لا يكاد يظهر كلامه لعقدة فى لسانه .

ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ .

والأسورة : جمع سوار ، وهو كناية عن تملكه ، وكانوا إذا ملكوا رجلا عليهم ، جعلوا في يديه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة على أنه ملكهم .

أى : فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا ، أن يحلى نفسه بأساور من ذهب ، أو جاء إلينا ومعها الملائكة محيطين به ، ومتقارنين معه ، لكي يعينوه ويشهدوا له بالنبوة .

ولاشك أن هذه الأقوال التى تفوه بها فرعون ، تدل على شدة طغيانه ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه ، وسفاهتهم وضعفهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : وهذا الذى قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة تبهر أبصار ذوى الألباب .

وقوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افتراء - أيضا - فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه ، فاستجاب الله - تعالى - له ، وفرعون إنما أراد بهذا الكلام ، أن يروج على رعيته ، لأنهم كانوا جهلة أغبياء (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع ، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج على طاعة الله - تعالى - .

أى : وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى - عليه السلام - طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم ، فأجابوه إلى طلبه منهم ، لأنهم كانوا قوما خارجين عن طاعتنا ، مؤثرين الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ .

أى : فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق ، والعصيان ، انتقمنا منهم انتقاما شديدا ، حيث أغرقناهم أجمعين فى اليم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٢١٨ .

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أى : قدوة لمن بعدهم فى الكفر ، فى استحقاق مثل عقوبتهم كما جعلناهم ﴿مَثَلًا﴾ أى : عبرة وعظة ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ الذين يعملون مثل أعمالهم .  
وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة ، جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه .

ويتجلى فى هذا الجانب من القصة طغيان فرعون ، واستخفافه بعقول قومه ، ومجاهرته بالكذب ، والفجور ، فكانت عاقبتهم جميعا الدمار والبوار .

٢٣ - وفى سورة «يونس» آيات كريمة قصت علينا دعاء موسى - عليه السلام - على فرعون وملئه ، بعد أن تجاوزوا الحدود فى طغيانهم وعدوانهم وظلمهم لأتباع موسى - عليه السلام - وأن الله - تعالى - قد أجاب دعاءه ، فأخذ فرعون وجنده أخذ عزيز مقتدر .  
استمع إلى قوله - تعالى - :

فَاءَمَّنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ  
مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ  
لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ  
ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ تُسَلِّينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ  
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ  
مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا  
بِمِصْرَ بِيوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد أن تخلف عن الإيمان أبائهم وأغنياؤهم .

والضمير فى قوله ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ يعود لموسى - عليه السلام - والمعنى :

فما آمن لموسى - عليه السلام - فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء العذاب ، أما آبائهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعا فى عطائه وخوفا من بطشه بهم .

وقوله : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ بيان لطبيعة إيمانهم .

أى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قومه ، والحال أن إيمانهم كان مع خوف من فرعون ومن اشراف قومهم أن يفتنوه عن دينهم ، أى : يعذبوهم ليحملوهم على ترك اتباع موسى - عليه السلام - .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ اعتراض تذيلى مؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون متكبر ومتجبر فى أرض مصر ، كلها وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد فى الظلم والبغى وادعاء ماليس له .

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتماد على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ ﴾ حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده اعتمدوا وبجنابه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأييده .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : مجيبين لنصيحة نبيهم ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ وحده لا على غيره ﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾ واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : يا ربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين ، بأن تمكنهم منا فيسومونا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - فى زعمهم - لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه فى المباحدة بينهم وبين الظالمين فقالوا : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أى : نحن لانلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجيننا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

وبعد هذا الدعاء الخالص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى مايوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بِيوتًا وَاجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون فى طغيانه وفى إنزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذوا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم فى مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أى : واجعلوا هذه البيوت التى حللتكم بها مكانا لصلواتكم وعبادتكم بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، فإن فى أدائها بهذه الصورة ، وسيلة إلى تفريج الكروب ، وفى الحديث الشريف : « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة » .

وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تذييل قصد به بعث الأمل فى نفوسهم متى أدوا ما كلفوا به ، أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل فى الآخرة .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التى نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح ، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات بعد أن يئس من إيمان فرعون وملئه فقال - سبحانه - :

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً  
 وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ  
 عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ  
 ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ كَمَا فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ  
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مخاطبا ربه ، بعد أن فقد الأمل فى إصلاح  
 فرعون وملئه : يا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه ، وأصحاب الرياسات منهم ،  
 الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتنعيم ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال فى هذه  
 الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم ، قد يضعف الإيمان فى بعض النفوس ، إما بالإغراء الذى  
 يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون  
 بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام فى قوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ ﴾ لام العاقبة والصيرورة أى : أعطيتهم ما  
 أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر ،  
 ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران  
 والضلال ، فأزل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ  
 الْأَلِيمَ ﴾ ، دعاء عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلال .

والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : يا ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأمواالا فى  
 الحياة الدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل قابلوا عطاءك  
 بالجحود ، اللهم يا ربنا اطمس على أموالهم بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ،  
 حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .

﴿ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعنادا على عنادها مع

استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذي لا ينفع عند إتيانه إيمان ، ولا تقبل معه توبة ، لأنهما حدثا في غير وقتهما .

قال الإمام ابن كثير : «وهذه الدعوة كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله - تعالى - ولدينه على فرعون وملئه ، الذين تبين له أنه لاخير فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم .» (١).

فقال : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام - : أبشرا فقد أجت دعوتكما فى شأن فرعون وملئه ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ على أمرى وامضيا فى دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان لى والطاعة لأمرى .

﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ماجرت به سنتى فى خلقى ، ولا يدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون ، مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآيات السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه موسى ، والتأمين لونه من الدعاء .

هذا . . . ومن الحكم والعظات التى نأخذها من هاتين الآيتين الكريميتين : أن من علامات الإيمان الصادق ، أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة من بين أيدي المصرين على جحودهم وفسوقهم وبطهرهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا ما يكون سببا فى إيذاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس بعضهم .  
وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه - .

٢٣ - خروج بنى إسرائيل من مصر ، وتعقب فرعون لهم ، وغرقه وجنوده أمام أعينهم .

وذلك بعد أن قضى موسى - عليه السلام - ما قضاه من الزمان فى مصر ، يدعو فرعون وقومه إلى وحدانية الله - عز وجل - وبعد أن تعرض هو وبنو إسرائيل لألوان من الأذى والاضطهاد من فرعون وملئه ، وبعد أن قتل فرعون من ذكور بنى إسرائيل من قتل .

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٢٥ .

بعد كل ذلك ، أوحى الله - تعالى - إلى نبيه موسى - عليه السلام - أن يأمر قومه من بنى إسرائيل بأن يعدوا أنفسهم للخروج من مصر ، حتى ينجو من بطش فرعون وظلمه .  
وقصة خروج بنى إسرائيل من مصر ، قد وردت فى سور متعددة فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة «الشعراء» :

وَأَوْحَيْنَا

إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ  
حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ فَلْيُدَّوِّنُوا أَعْيُنَهُمْ لِئَلَّا يَصِفُوا ﴿٥٤﴾ وَإِنَّمَا لَنَا الْغَاطِطُونَ ﴿٥٥﴾  
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾  
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾  
فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا  
لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى  
أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾  
وَأَزَلْفَانَا تَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾  
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ  
﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ معطوف على كلام مقدر يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن انتصر موسى على السحرة نصرًا جعلهم يخرون ساجدين لله - تعالى - وبعد أن مكث موسى فى مصر حينًا من الدهر ، يدعو فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فلم يستجيبوا له ، وبعد أن تعرض هو وأتباعه لصنوف من الأذى .

بعد كل ذلك ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ أى : سر ببنى إسرائيل ليلا إلى

جهة البحر ، وعبر - سبحانه - عنهم بعبادى ، تلطفا بهم بعد أن ظلوا تحت ظلم فرعون مدة طويلة .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ تعليل للأمر بالإسراء ، أى : سر بهم ليلا إلى جهة البحر ، لأن فرعون سيتبعكم بجنوده ، وسأقضى قضائى فيه وفى جنده .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ هى الفصيحة ، والحاشرين جمع حاشر : والمراد بهم الذين يحشرون الناس ويجمعونهم فى مكان معين لأمر من الأمور الهامة .

قالوا : جمعوا له جيشا كبيرا يتكون من مئات الآلاف من الجنود ، أى وعلم فرعون بخروج موسى ومعه بنو إسرائيل ، فأرسل جنوده ليجمعوا له الناس من المدائن المتعددة فى مملكته .

وبعد أن اكتمل عددهم ، أخذ فى التهوين من شأن موسى ومن معه فقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ .

والشردمة : الطائفة القليلة من الناس .

أى : إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذنى وإذنكم ، لطائفة قليلة من الناس الذين هم بمنزلة العبيد والخدم لى ولكم .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أى : وإنهم بجانب قلتهم ، وخروجهم بدون إذنا ، يأتون بأقوال وأفعال تغيظنا وتغضبنا ، على رأسها اقتراحهم علينا أن نترك ديننا .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ أى : متيقظون لمكائدهم ، ومحتاطون لمكرهم ، وممسكون بزمام الأمور حتى لا يؤثر فينا خداعهم .

وكلام فرعون هذا - الذى حكاه القرآن عنه - يوحى بهلعه وخوفه مما فعله موسى - عليه السلام - إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتهوين من شأنه ومن شأن الذين خرجوا معه وبتحريض قومه على اللحاق بهم وتأديبهم ، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه لمجابهة الأخطار والتمرد بكل قوة وحزم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما اقتضته إرادته ومشيتته فى فرعون وقومه فقال : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى : فأخرجناهم بقدرتنا وإرادتنا من ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ .

أى : بساتين كانوا يعيشون فيها ﴿ وَعَيُونٍ ﴾ عذبة الماء كانوا يشربون منها .

﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ أى : أموال كانت تحت أيديهم ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : ومساكن حسنة جميلة كانوا يقيمون فيها .

أى : أخرجناهم من كل ذلك بقدرتنا ومشيتنا ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الغرق ، بسبب إصرارهم على كفرهم وطغيانهم .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وأورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمنازل الحسنة لبني إسرائيل .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ أى : الجنات والعيون والكنوز لبني إسرائيل ، وذلك أن الله - عز وجل - رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه ، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن الحسنة .

والظاهر أن هذه الجملة اعتراضية وأن قوله - بعد ذلك - ﴿ فَأَتَّبَعُوهُمْ ﴾ معطوف على قوله - تعالى - : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُونٍ ﴾ لأن إعطاء البساتين وما بعدها لبني إسرائيل ، كان بعد هلاك فرعون وقومه .<sup>(١)</sup>

ومن العلماء من يرى أن بني إسرائيل لم يعودوا لمصر بعد هلاك فرعون وقومه ، وأن الضمير فى قومه - تعالى - : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ لا يعود إلى الجنات والعيون التى أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه ، فيقول : ولا يعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة ، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه ، لذلك يقول المفسرون إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملته ، فهى وراثه لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم .

وقيل : المراد بالوراثة هنا : وراثه ما استعاره بنو إسرائيل من حلى آل فرعون عند خروجهم من مصر مع موسى - عليه السلام - .

ويبدو لنا أنه لا مانع من عودة الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ إلى الجنات والعيون والكنوز التى أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه ، بأن عاد موسى ومن معه

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ٢٨٠ .

إلى مصر - لفترة معينة - بعد هلاك فرعون وملئه ، ثم خرجوا منها بعد ذلك مواصلين سيرهم إلى الأرض المقدسة ، التي أمرهم موسى - عليه السلام - بدخولها .

ولعل مما يؤيد ما نرجحه قوله - تعالى - :

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ . (١)

وقوله - سبحانه - :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . (٢)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حدث من فرعون وقومه ، وما قاله بنو إسرائيل عندما شاهدوهم ، فقال - تعالى - : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ .

أى : أخرجنا فرعون وقومه من أموالهم ومساكنهم ، فساروا مسرعين خلف موسى ومن معه ، ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ ﴾ أى : فلاحقوا بهم ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أى : فى وقت شروق الشمس ، يقال : أشرق فلان إذا دخل فى وقت الشروق ، كأصبح إذا دخل فى وقت الصباح .

﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ ﴾ أى : تقاربا بحيث يرى كل فريق خصمه .

﴿ قَالَ ﴾ بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - والخوف يملأ نفوسهم ، ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ أى : سيدركنا بعد قليل فرعون وجنوده ، ولا قدرة لنا .. على قتالهم .

وهنا رد عليهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات بقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ أى : كلالن يدركوكم ، فاثبتوا ولا تجزعوا ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

بهذه الجزم والتأكيد رد موسى على بنى إسرائيل ، وهو رد يدل على قوة إيمانه ، وثبات يقينه ، وثقته التى لا حدود لها فى نصر الله - تعالى - له ، وفى هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح .

(١) سورة الأعراف ١٣٧

(٢) سورة القصص الآيتان ٥ ، ٦

ولم يطل انتظار موسى لنصر الله - تعالى - بل جاءه سريعا متمثلا فى قوله - سبحانه -  
﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ أى : البحر الأحمر - على أرجح الأقوال -  
وهو الذى كان يسمى ببحر القلزم .

فضربه ﴿ فَأَنْفَلَقَ ﴾ إلى اثنى عشر طريقا ، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أى : قسم منه  
﴿ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كاجبل الشامخ الكبير .

وسار موسى ومن معه فى الطريق اليابس بين أمواج البحر - بقدره الله - تعالى -  
﴿ وَأَزَلَّوْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴾ ، أى : وقرنا - بقدرتنا وحكمتنا - هناك القوم الآخرين وهم  
فرعون وجنوده ، أى : قربناهم من موسى وقومه فدخلوا وراءهم فى الطريق الذى سلكوه  
بين أمواج البحر ، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن خرج موسى ومن معه سالمين ، أما فرعون وجنوده فقد انطبق عليهم  
البحر فأغرقهم أجمعين .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَأَنْجَيْنَا ﴾ - أى : بقدرتنا ورحمتنا - ﴿ مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ  
أَجْمَعِينَ ﴾ من الغرق ومن لحاق فرعون بهم ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ وهم فرعون وجنوده .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة - كما ختم غيرها - بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ  
أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من قصة موسى وفرعون ،  
﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لنا ، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به  
نبينا موسى ، إلا عدد قليل ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى :  
الغالب المنتقم من أعدائه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أى : الواسع الرحمة بأوليائه حيث جعل العاقبة  
لهم .

وهكذا ساق لنا - سبحانه - هنا جانبا من قصة موسى - عليه السلام - بهذا الأسلوب  
البيدع ، لتكون عبرة وعظة لقوم يؤمنون .

٢٤ - وفى سورة «الدخان» آيات كريمة صورت بأسلوبها البليغ المؤثر ، جانبا من قصة  
خروج بنى إسرائيل من مصر ، ومن دعوة موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه ، ومن  
غرقهم بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

وتبدأ هذه الآيات بقوله - تعالى - :

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ  
رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾  
وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَيَّ اللَّهُ إِلَهِي وَإِلَهُكُمْ بَسْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ رَبِّي  
وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُوْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرَبْنَا بِكَ فِي لَيْلٍ لِّئَلَّا تُكَلِّمَهُمْ فَتُحَدِّثَهُمْ  
بِالْبَحْرِ هُوًّا إِنَّهُمْ يَحْمَدُونَكَ ﴿٢٣﴾ كَمَا تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾  
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ ﴿٢٦﴾ كَذَلِكَ  
وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ  
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٨﴾

والمعنى : والله لقد اخترنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين ، وكان اختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال نبينا موسى إليهم ، وعن طريق ابتلائهم بالسراء ، والضراء لعلهم يرجعون إلى طاعتنا ، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم .

فالآية الكريمة مقصود بها تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، ببيان أن تكذيب الأقسام لرسولهم ، حاصل من قبله ، فعليه أن يتأسى بالرسول السابقين في صبرهم .

والمراد بالرسول الكريم في قوله - تعالى - : ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ موسى - عليه السلام - ، فقد أرسله - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، فبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه وعصوه .

ووصف - سبحانه - نبيه موسى بالكرم ، على سبيل التشريف له ، والإعلاء من قدره ، فقد كان - عليه السلام - كليما لربه ، ومطيعا لأمره ، ومتحليا بأسمى الأخلاق وأفضلها .

أى : جاء إلى فرعون وقومه رسول كريم ، هو موسى - عليه السلام - فقال لهم : سلموا إلى بنى إسرائيل ، وأطلقوهم من الذل والهوان ، واتركوهم يعيشون أحرارا في هذه الدنيا .

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - فى موضع آخر: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبَهُمْ﴾ .

ويصح أن يكون المراد بقوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ بمعنى: أن استجيبوا لدعوتى ، والمراد بالعباد: ما يشمل بنى إسرائيل وغيرهم ، ويكون لفظ ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منصوب بحرف نداء محذوف .

وعليه بكون المعنى: أرسلنا إلى فرعون وقومه رسولا كريما ، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصيح والإرشاد: يا عباد الله إنى رسول الله إليكم ، فاستمعوا إلى قولى ، واتبعوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة غيره .

وقوله - سبحانه - : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل لما تقدم ، أى: استجيبوا لدعوتى ، وأطيعوا أمرى ، فإنى مرسل من الله - تعالى إليكم ، وأمين على الرسالة لأنى لم أبدل شيئا مما كلفنى به ربى .

وقوله - سبحانه - : ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ وداخل فى حيز القول .

أى: قال لهم: أرسلوا معى بنى إسرائيل ، واستجيبوا لدعوتى ، واحذروا أن تتجبروا أو تكبروا على الله - تعالى - بأن تستخفوا بوحيه أو تعرضوا عن رسوله .

﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: إنى آتاكم من عنده - تعالى - بحجة واضحة لاسبيل إلى إنكارها ، وبرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى .

﴿وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أى: وإنى اعتصمت واستجرت بربى وربكم من أن ترجمونى بالحجارة ، أو أن تلحقوا بى ما يؤذنى ، وهذا الاعتصام بالله - تعالى - يجعلنى لا أبالى بكم ، ولا أتراجع عن تبليغ دعوته - سبحانه - بحال من الأحوال .

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونَ﴾ أى: وقال لهم - أيضا - فى ختام نصحه لهم: إنى لن أتراجع عن دعوتكم إلى الحق مهما وضعت فى طريقى من عقبات وعليكم أن تؤمنوا بى ، فإن لم تؤمنوا بى ، فكونوا بمعزل عنى بحيث تتركونى وشأنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإنه لا موالاة ولا صلة بينى وبينكم ، مادتم مصرين على كفركم .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة لدعوته ، ونهاهم عن التكبر والغرور ، وبين لهم أنه رسول أمين ، على وحى الله - تعالى - وأنه

معتصم بربه من كيدهم ، وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن يتركوه وشأنه ، لكى يبلغ رسالة ربه ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، فإن الطغيان فى كل زمان ومكان ، لا يعجبه منطق الحق والعدل والمسألة ، ولكن الذى يعجبه هو التكبر فى الأرض بغير الحق ، وإيثار الغى على الرشد .

ولذا نجد موسى - عليه السلام - يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءِ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العبادة لله - تعالى - ونهاهم عن الإشراف به ، بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه ، وأعرضوا عن دعوته ، وأذوه بشتى ألوان الأذى فدعا ربه دعاء حاراً قال فيه : يا رب إن هؤلاء القوم - وهم فرعون وشيعته - قوم راسخون فى الكفر والإجرام ، فأنزل بهم عقابك الذى يستحقونه .

ثم حكى السورة الكريمة بعد ذلك ما يدل على أن الله - تعالى - قد أجاب دعاء موسى - عليه السلام - وأنه - سبحانه - قد أرشده إلى ما يفعله فقال : ﴿ فَاسْرِعْ بِعِبَادِي لِئَلَّا يَكُونُوا مُّتَعَبِينَ ﴾ .

والكلام على تقدير القول ، أى : فقال الله - تعالى - على سبيل التعليم والإرشاد : سر يا موسى ببني إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر ، بقطع من الليل ﴿ إِنَّكُمْ مُّتَعَبُونَ ﴾ من جهة فرعون وملئه ، متى علموا بخروجكم .

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا .. ﴾ أى : ومتى وصلت إلى البحر - أى : البحر الأحمر - فاضربه بعصاك ، ينفلق - بإذن الله - فسر فيه أنت ومن معك ، واتركه ساكناً مفتوحاً على حاله ، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ تعليل للأمر بتركه رهوا ، أى : اترك البحر على حاله ، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقاً يدمرهم ويهلكهم .

ثم بين - سبحانه - سوء مآلهم فقال : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جُنَّاتٍ وَعَيْونٍ ﴾ و ﴿ كَمْ ﴾ هنا خبرية للتكثير والتهويل ، أى : ما أكثر ما ترك هؤلاء المغرقون خلفهم من بساتين ناضرة ، وعيون يخرج منها الماء النмир .

﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ كثيرة متنوعة ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : ومحافل ومنازل كانت مزينة بألوان من الزينة والزخرفة .

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ أى : وتنعم وترفه كانوا فيه يتلذذون ، بما بين أيديهم من رغد العيش ، وكثرة الفاخرة . . ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن فرعون وقومه بعد أن غرقوا ، لم يحزن لهلاكهم أحد ، فقال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ .

أى : أن هؤلاء المغرقين ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، وكانوا يذلون غيرهم ، وكانوا يملكون الجنات والعيون ، هؤلاء الطغاة ، لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السموات أو أهل الأرض ، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر فى الدنيا أو فى الآخرة ، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويق .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان هوان منزلة هؤلاء المغرقين ، وتفاهة شأنهم وعدم أسف أحد على غرقهم ، لأنهم كانوا ممقوتين من كل عاقل .

٢٥ - وفى سورة « طه » جانب من قصة خروج بنى إسرائيل من مصر ، وتذكيرهم بنعم الله - تعالى - عليهم ، لكى يشكروه على كرمه وفضله قال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ

أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا

وَلَا تَحْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتَهُمْ

﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَاءِيلَ قَدْ أَنْجَيْتَكُم

مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ

الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ

فِيحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِذْ لَغَوَّارٌ

لِمَنْ نَّابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

أى : والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى - عليه السلام - وقلنا له : سر بعبادى من بنى إسرائيل فى أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه ، ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. ﴾ .

أى : فاجعل لهم طريقا فى البحر يابسا .

والمراد بالطريق جنسه فإن الطرق التى حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر ، كانت اثنتى عشر طريقا بعدد أسباط بنى إسرائيل .

وعبر - سبحانه - عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية لله - تعالى - للإشعار بعطفه - عز وجل - عليهم ورحمته بهم ، وللتنبية على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق - سبحانه - وجعلهم عبيدا له .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخَشْيَ ﴾ تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى - عليه السلام - وإدخال الطمأنينة على قلبه .

أى : اضرب لهم طريقا فى البحر يابسا ، حالة كونك غير خائف من أن يدركك فرعون وجنوده من الخلف ، وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم .

فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان فى قلب موسى ومن معه .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال - تعالى - : ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ .

أى : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع فى طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله - تعالى - فرعون وجنوده فى البحر ، وأهلكهم عن آخرهم .

والتعبير بالاسم المبهم الذى هو الموصول فى قوله : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أى : فعلاهم وغمرهم من ماء البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - بحيث صاروا جميعا فى طيات أمواجه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله - تعالى - بالغرق .

أى : وأضل فرعون فى حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليها وإنما هداهم إلى طريق الغى والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار .

ثم ذكر - سبحانه - بنى إسرائيل بنعمة عليهم فقال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ فرعون وجنده ، بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب .

﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ أى : وواعدنا نبيكم موسى فى هذا المكان لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِئَمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ نعمة ثالثة من نعمه - سبحانه - عليهم .

والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

والسلوى : طائر لذيذ الطعم ، يشبه الطائر الذى يسمى السمانى ، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله .

وقيل : هما كناية عما أنعم الله به عليهم ، وهما شىء واحد ، سمي أحدهما «مَنَّأ» لامتنان الله - تعالى - عليهم ، وسمى الثانى «سلوى» لتسليتهم به .

أى : ونزلنا عليكم بفضلنا ، ورحمتنا وأنتم فى التيه تلك المنافع والخيرات التى تأخذونها من غير كد أو تعب .

والأمر فى قوله - سبحانه - ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ للإباحة ، والجملة مقول لقول محذوف ، أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من المن والسلوى ، ومن غيرها من اللذائذ التى أحلها الله لكم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ تحذير لهم من تجاوز الحدود التى شرعها الله - تعالى - لهم ، إذ الطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .

والمعنى : كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات التى رزقكم الله إياها ، واشكروه عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التى شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم

غضبي ، ونزل بكم عقابي ، ومن حق عليه غضبي ونزل به عقابي ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ أى : إلى النار .

ثم فتح - سبحانه - باب الأمل لعباده فقال : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أى : لكثير المغفرة ﴿لَمَنْ تَابَ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَأَمَنَ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى : وعمل عملا مستقيما يرضى الله - تعالى - ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أى : ثم واطب على ذلك ، وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقي الله - تعالى - .

٢٦ - وفى سورة «يونس» بضع آيات ، حكى لنا بأسلوبها البليغ كيف كانت نهاية فرعون ، وماذا قال عندما أدركه الغرق ، وماذا كان الرد عليه .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ  
بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَإِلَهٍ إِلَّا الَّذِي  
ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠١﴾ ءَأَكْفُرُ  
وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾ فَالْيَوْمَ نُحْجِجُكَ بِبَدَنِكَ لَئِنْ  
خَلَقْنَا ءَأَيَّةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَأَيَاتِنَا الْغَافِلُونَ ﴿١٠٣﴾  
بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَسَاجِدَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا  
حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا  
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٤﴾

والمعنى : وجاوزنا بنى إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث جعلناهم لهم طريقا ييسر ، فساروا فيه حتى بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب البغى والعدوان .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - :

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَإِلَهٍ إِلَّا الَّذِي

ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

أى : لقد اتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعابن الموت وأيقن أنه لانجاة له منه ، قال أمنت وصدقت ، بأنه لامعبود بحق سوى الإله الذى أمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده ، وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أى : الآن تدعى الإيمان حين يثست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على تكذيب الحق الذى جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - .

قال الإمام ابن كثير : «وهذا الذى حكاه الله - تعالى - عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك ، من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله ﷺ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لما قال فرعون : أمنت أنه لا إله إلا الذى أمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل لى يا محمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طينا أسود من طين البحر - فدسسته فى فمه مخافة أن تناله الرحمة » ، رواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث حماد بن سلمة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً .. ﴾ تهكم به ، وتخيب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه .

والمعنى إن دعواك الإيمان الآن مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، نلقى بجسمك الذى خلا من الروح على مكان مرتفع من الأرض لتكون عبرة وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بنى إسرائيل أم من غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة ، أو الإخبار سوء عاقبة المكذبين ، وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الفرد الصمد .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ تذييل قصد به دعوة الناس جميعا

إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٢٧ طبعة دار الشعب

أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء ، كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبى ﷺ لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم فصوموه .<sup>(١)</sup>  
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أن أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا ، فيه الأمان والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التى أحللناها لهم .

وقوله : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. ﴾ توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم وديناهم على مذاهب شتى ، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذى أمرهم الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وألا يستخدموه فى التأويلات الباطلة .

فالجملته الكريمة توبيخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه - فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل .

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقونه من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

هذا ومن كل ما سبق يتبين لنا أن خروج بنى إسرائيل من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - كان نعمة بالنسبة لهم ، وكان نعمة على فرعون وملئه ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٢٩ .

٢٧ - ماذا كان موقف بنى إسرائيل من موسى - عليه السلام - بعد غرق فرعون وقومه؟

كان موسى - عليه السلام - واحدا من بنى إسرائيل ، إذ ينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - كما سبق أن بينا .

وقد أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه ، ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولينقذ بنى إسرائيل من ظلم فرعون وملئه لهم ، حيث كانوا يذبحون الذكور من بنى إسرائيل عند ولادتهم ، ويتركون الإناث أحياء ، كما حكى القرآن الكريم ذلك فى آيات متعددة وقد رأينا فيما سبق كيف أن موسى - عليه السلام - قد لبى دعوة ربه - عز وجل - ، وبقي يكرر الدعوة لفرعون وقومه لكى يخلصوا عبادتهم لله - تعالى - ويمتنعوا عن الظلم مدة متطاولة لا يعلمها إلا الله - عز وجل - وكانت نتيجة إصرار فرعون وقومه على الكفر والجحود والعناد ، أن أغرقهم جميعا أمام أعين بنى إسرائيل .

وبدأ موسى - عليه السلام - بعد هلاك فرعون وملئه ، يتفرغ لدعوة قومه من بنى إسرائيل لعبادة الله - تعالى - وحده ، وللتحلي بمكارم الأخلاق ، وللمداومة على شكر الله - عز وجل - لكى يزيدهم من نعمه .

ومن الآيات القرآنية التى حكى لنا جانبها من دعوة موسى - عليه السلام - لهؤلاء القوم ، قوله - تعالى - فى سورة «إبراهيم» :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ  
مِنَ الظُّلُمِ إِلَى التُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ  
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ  
وَيَذَبُونَ أَسْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ  
عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ  
إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ نَاظِرَكُمْ يُرِئِيكُمْ فِي  
الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦٨﴾

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة يرى أن موسى - عليه السلام - قد استعمل فى دعوته لقومه من بنى إسرائيل أسمى الأساليب وأحكمها ، فهو دعاهم - أولاً - إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ثم ذكرهم - ثانياً - بنعم الله عليهم ، حيث أنجاهم من ظلم فرعون وملئه لهم ، حيث كانوا يذبحون الذكور ويستحيون الإناث ، ثم ذكرهم - ثالثاً - بآيات الله التى فيها السعادة لمن آمن وعمل صالحاً ، وفيها الشقاء لمن كفر وعمل سيئاً ، ثم ذكرهم - رابعاً - بسنة من سنن الله فى خلقه وهى أنه - سبحانه - يزيد الشاكرين من نعمه ، ويعذب الجاحدين لهذه النعم ثم وضح لهم - خامساً - أن جحود الجاحدين وكفر الكافرين لن يضر الله - تعالى - شيئاً ، لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

هذا جانب من النصائح السديدة والتوجيهات الحكيمة ، التى وجهها موسى - عليه السلام - لقومه من بنى إسرائيل ، فماذا كان موقفهم من نبيهم وهاديهم ومرشدهم الذى أنقذهم من ظلم فرعون لهم ، والذى لم يأل جهداً فى الدفاع عنهم؟

إن المتدبر للقرآن الكريم ، يرى بوضوح أن أكثر بنى إسرائيل قد وقفوا من نبيهم موسى - عليه السلام - مواقف فيها مافيها من العصيان له ، والمخالفة لأمره ، والتطاول عليه ، والإصرار على الإشراك بالله - تعالى - فى العبادة .

ومن بين مواقفهم المخزية التى تدل على جهلهم وغبائهم ، أنهم طلبوا من موسى - عليه السلام - وهو رسولهم من الله - تعالى - : أن يجعل لهم آلهة كما لغيرهم آلهة .

وقد حكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» :

وَجَوزَ نَائِبِيَّ

إِسْرَائِيلَ الْبَصْرَةَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى  
 اجْعَلْ لَنَا آلِهَةً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ  
 مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ  
 إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾ وَلِذُنُوبِكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ  
 سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ  
 مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبني إسرائيل ملخصها : أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها ، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون ، وجنده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذى غرق فيه عدوهم والذى مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بنى إسرائيل؟

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - الذى جاء لهدايتهم وإنقاذهم بما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التى يعبدها أولئك القوم .

وهنا غضب عليهم موسى غضبا شديدا ، ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، وبين لهم فساد ما عليه المشركون وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة ، توجب عليهم إفراده ، بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ بيان للمنة العظيمة التى منحهم الله إياها ، وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحذوهم عنايته ورعايته ، والمراد بالبحر : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ، ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا بما أبصروه ، لأن العهد لم يظل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - لكى يزيدهم من فضله .

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهام أولاء ما إن وقعت أبصارهم على قوم يعكفون ويدومون على عبادة أصنام لهم<sup>(١)</sup> ، حتى انجذبوا إليها ، وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم ، أن يجعل لهم وثنا كغيرهم لكى يعبدوه من جديد ، لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، مالبتوا أن قالوا لنبيهم : ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا

(١) اختلف المفسرون فى شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم عند مرور بنى إسرائيل بهم ، فقيل هم من عرب لخم ، وقيل هم من لخم وجذام ، وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى ، قومه بقتالهم وقيل إنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر .

إِلَٰهَا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴿١٠﴾ قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم ، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم ، مازال متمكنا من نفوسهم ، ومسيطرًا على عقولهم .

وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تفضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تسير في طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفى قولهم لنبيهم ﴿١١﴾ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴿١٢﴾ بصيغة الأمر ، أكبر دليل على غباء عقولهم ، وسوء أدبهم ، لأنهم لو استأذنوه - مثلاً - فى اتخاذ صنم يعبدونه ، كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة ، ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله - تعالى - والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكى يعبدوه كغيرهم!

ولقد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم ردا قويا فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : ﴿١٣﴾ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٤﴾ أى : إنكم يا بنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لاتفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم ، وسفه النفس ، وفساد العقل ، وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه فى ذاته ، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل ﴿١٥﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ .

أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان ، محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون وصرح لهم بأن مصير ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير .

ثم مضى موسى - عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب ، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : ﴿١٧﴾ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ .

أى قال موسى - عليه السلام - مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع : أغير الله أطلب لكم معبودا أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمي زمانكم ، وقد كان الواجب عليكم أى تخصصه بالعبادة ، كما اختصكم هو بشتى النعم الجليلة ، فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار المشرب معنى التعجب لابتغائهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل ، ليبثليهم أيشكرون أم يكفرون ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعضوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ويستبقون نفوس نسايتكم ليستخدموهن ويستذلوهن ، وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان لكم لشكروا الله على نعمه ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الإذلال فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الأمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً على إذاقتهم سوء العذاب ، وفى إنزال ألوان الإذلال بهم .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل - مع أنه فى ظاهره نعمة لهم - لأن هذا الإبقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن ، واستعمالهن فى شتى أنواع الخدمة ، وإذلالهن بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء دليل وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة ، والطباع الحرة الأبية .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه ، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير ، وسفاهة تفكير ، فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً كما لغيرهم إلهة ، ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه فى ذاته ، لأن مصيره إلى الزوال والهلاك ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً ، ثم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لا تجوز بأى حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر ، ثم ذكرتهم فى ختامها بوجوه النعم التى أسبغها الله عليهم ، لتشعرهم بأن ما طلبوه من نبيهم ، هو من قبيل مقابلة الإحسان بالجحود والنكران ، ولتحملهم على أن يتدبروا أمرهم ، ويراجعوا أنفسهم ، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحاً ، إن كانوا ممن ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلثات .

٢٨ - عصيانهم لنبیهم موسى - علیه السلام - واستخفافهم بتوجيهاته :

وقد حکى القرآن ذلك عنهم فى مواطن متعددة من آياته ، ومن أبرز ألوان تخاذلهم عن طاعة نبیهم ما قصه القرآن علينا فى قوله - تعالى - فى سورة «المائدة» :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ  
أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا  
وَمَا تَكْفُرُونَ أَمْ لَمْ تَرَوْا أَنَّ مِنَ الْعَالَمِينَ لِقَوْمًا أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ  
الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدِبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥٦﴾  
يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنزِلُهَا عَلَيْكَ بِغُورٍ مِنْهَا  
فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْعَمَ  
اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ  
فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا  
فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقُلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿١٥٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي  
لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٠﴾ قَالَ  
فَاتَّهَا حَرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا نَأْسُ عَلَى  
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦١﴾

هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من جبن شديد ، وعزيمة خوارة ،  
وعصيان لرسولهم ، وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد وهى تحكى بأسلوبها البليغ  
قصة تاريخية معروفة ، وملخص هذه القصة .

أن بنى إسرائيل بعد أن ساروا مع نبیهم موسى - علیه السلام - إلى بلاد الشام ، عقب  
غرق فرعون أمام أعينهم ، أوحى الله - تعالى - إلى موسى أن يختار من قومه اثنى عشر  
نقيباً ، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون حينئذ ،  
ليتحسسوا أحوال سكانها ، وليعرفوا شيئاً من أخبارهم .

ولقد نفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - سبحانه - وكان بما قاله موسى للنقباء عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : « لا تخبروا أحدا سواى عما ترونه » .

فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على أحوال سكانها ، وجدوا منهم قوة عظيمة ، وأجساما ضخمة ، فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له - وهو فى جماعة من بنى إسرائيل - قد جئنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها ، فإذا هى فى الحقيقة تدر لبنا وعسلا ، وهذا شىء من ثمارها ، غير أن الساكنين فيها أقوياء ، ومدينتهم حصينة ، وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال ، إلا اثنين منهم فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى - عليه السلام - وبقتال الكنعانيين معه ، ولكن بنى إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة ، وأصروا على عدم الجهاد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء ، وقالوا : يا ليتنا متنا فى مصر أو فى هذه البرية .

وحاول موسى - عليه السلام - أن يصددهم عما تردوا فيه من جبن وعصيان وأن يحملهم على قتال الجبارين ، ولكنهم عموا وضموا .

وأوحى الله - تعالى - إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم .

هذا هو ملخص هذه القصة كما وردت فى كتب التفسير والتاريخ ، وقد حشا بعض المفسرين كتبهم بأوصاف للجبارين - الذين ورد ذكرهم فى الآيات الكريمة - لا تقبلها العقول السليمة ، وليس لها أصل يعتمد عليه بل هى مما يستحى من ذكره كما قال ابن كثير (١) .

هذا ، وقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان بعض ما فعله بنو إسرائيل من ردائل بعد أخذ الميثاق عليهم ، وتفصيل كيفية نقضهم لهذا الميثاق .

أى : واذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك ، قول موسى لأبائهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، أى : تذكروا إنعامه عليكم بالشكر والطاعة .

وفى قول موسى لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تلطف معهم فى الخطاب ، وحمل لهم على شكر النعمة ، واستعمالها فيما خلقت له لكى يزيدهم الله منها ، وفيه كذلك تذكير لهم بما يربطهم به من رابطة الدم والقرباة التى تجعله منهم ، يهمة ما يهتمهم ويسعده ما يسعدهم ، فهو يوجه إليهم ما هو كائن لهدايتهم وسعادتهم .

(١) من ذلك ما جاء فى وصفهم أن منهم عوج بن عنق الذى كان طوله ثلاثة آلاف ذراع ، وأن سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا فى ظل واحد منهم ، وقال الألوسى بعد أن حكى ما قيل فيهم من صفات : وهى عندى حديث خرافة .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ، بيان لنعم ثلاث أسبغها الله عليهم .

أما النعمة الأولى : فهي جعل كثير من الأنبياء فيهم كموسى وهارون ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف - عليهم السلام - وقد أرسل الله - تعالى - هؤلاء الأنبياء وغيرهم فى بنى إسرائيل ، لكى يخرجوهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والطاعة والإيمان .

وأما النعمة الثانية : فهي جعلهم ملوكا ، أى : جعلكم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه ، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب .

أى : جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم ، بعد أن كنتم لاتملكون شيئا من ذلك وأنتم تحت سيطرة فرعون وقومه .

وهذه النعمة - أى : نعمة الحرية بعد الذل ، والسعة بعد الضيق - من النعم العظمى التى لا يقدرها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة ، التى تعاف الظلم وتأبى الضيم ، وتحسن الشكر لله - تعالى - .

وأما النعمة الثالثة : فهي أنه - سبحانه - آتاهم من ألوان الإكرام والمن مالم يؤت أحدا من عالمى زمانهم ، فقد فلق لهم البحر فساروا فى طريق يابس حتى نجوا وغرق عدوهم ، وأنزل عليهم المن والسلوى لياكلوا من الطيبات ، وفجر لهم من الحجر اثنتى عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم ، إلى غير ذلك من ألوان النعم التى حباهم الله - تعالى - بها ، والتى كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

وبعد هذا التذكير بالنعم وجه إليهم نداء ثانيا طلب منهم فيه دخول الأرض المقدسة فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

ومعنى المقدسة : المطهرة المباركة بسبب أنها كانت موطننا لكثير من الأنبياء .

والمراد بها : بيت المقدس وقيل المراد بها : أريحاء وقيل : الطور وما حوله .

قال ابن جرير : وهى لاتخرج عن أن تكون من الأرض التى ما بين الفرات وعريش مصر ، لإجماع أهل التأويل والسير والعلماء بالإخبار على ذلك .

ومعنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ : قدر لكم سكنائها ، ووعدكم إياها متى آمنتم به وأطعتم أنبياءه ، أو معناه : فرض عليكم دخولها وأمركم به كما أمركم بأداء الصلاة والزكاة .

ومفعول ﴿ كَتَبَ ﴾ محذوف ، أى : كتب لكم أن تدخلوها وفرض عليكم دخولها لإنقاذكم من الأهوال التى نزلت بكم فى أرض مصر من فرعون وجنده .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ تحذير لهم من الجبن والإحجام ، بعد ترغيبهم الشديد فى الشجاعة والإقدام .

والمعنى : امضوا أيها القوم لأمر الله ، وسيروا خلفى لقتال الأعداء ودخول الأرض المقدسة التى أمركم - سبحانه - بدخولها ، ولا ترجعوا القهقرى منصرفين عن القتال خوفاً من أعدائكم ، ومبتعدين عن طاعتي وأمرى ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الخسران فى الدنيا والآخرة ، وإلى الحرمان من خيرات الأرض التى أوجب الله عليكم دخولها .

هذا ، وقد جاءت هذه الجملة الكريمة ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ تحمل طابع التحذير الشديد ، وتندرهم بالخسران المبين إذا لم يستجيبوا لأمر الله بعد أن ساق لهم موسى ألواناً من المشجعات والمرغبات فى الجهاد ، وذلك لأنه - عليه السلام - كان متوقفاً منهم الإحجام عن القتال ، بعد أن جرب عنادهم وعصيانهم ، ونكوصهم على أعقابهم فى مواطن كثيرة ، فهذه التجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة يذكر لهم أكبر النعم ويسوق لهم أكرم الذكريات وأقوى الضمانات وأشد التحذيرات لكى يقبلوا على الجهاد بعزيمة صادقة .

ولكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل ، مهما قيل لهم من ألوان الترغيب والترهيب فإن همتهم الساقطة وعزيمتهم الخائرة ، وطبيعتهم المنتكسة لم تتركهم فقد قالوا لنبيهم متذرعين بالمعاذير الكاذبة : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - إن الأرض التى وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على من يقاتلهم ، ولا قدرة لنا على لقائهم وإننا لن ندخل هذه الأرض المقدسة التى أمرتنا بدخولها مادام هؤلاء الجبارون فيها ، فإن يخرجوا منها لأى سبب من الأسباب التى لاشأن لنا بها ، فنحن على استعداد لدخولها فى راحة ويسر ، وبلا أدنى تعب أو جهد .

ولاشك أن قولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ليدل على منتهى الجبن والضعف ، لأنهم لا يريدون أن ينالوا نصراً باستخدام حواسهم البدنية أو العقلية ، وإنما يريدون أن ينالوا مايغنون بقوة الخوارق والآيات ، وأمة هذا شأنها لاتستحق الحياة الكريمة ، لأنها لم تقدم العمل الذى يؤهلها لتلك الحياة .

ثم بين القرآن بعد ذلك أن رجلين مؤمنين منهم قد استنكروا إحجام قومهم عن الجهاد ، وحرصاهم على طاعة نبيهم فقال : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمراد بالرجلين : يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا ، وكانا من الاثنى عشر نقيبا .

وقد وصف الله - تعالى - هذين الرجلين بوصفين :

أولهما : قوله : ﴿ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أى : من الذين يخافون الله وحده ويتقونه ولا يخافون سواه ، وفى وصفهم بذلك تعريض بأن من عداهما من القوم لا يخافونه - تعالى - بل يخافون العدو .

وقيل المعنى : من الذين يخافون الأعداء ويقدرون قوتهم إلا أن الله - تعالى - ربط على قلبيهما بطاعته ، فجعلهما يقولان ما قالوا .

الوصف الثانى : فهو قوله : ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ فهذه الجملة صفة ثانية للرجلين ، أى : قال رجلان موصوفان بأنهما من الذين يخافون الله - تعالى - ولا يخافون سواه ، وبأنهما من الذين أنعم الله عليهما بالإيمان والتثبيت والثقة بوعده ، والطاعة لأمره قالوا لقومهما ، ادخلوا عليهم الباب .

وقوله - تعالى - : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ تشجيع من الرجلين لقومهما ليزيلا عنهم الخوف من قتال الجبارين .

أى : قال الرجلان اللذان يخافان الله لقومهما : ادخلوا على أعدائكم باب مدينتهم وفاجئوهم بسيفوكم ، وباغتوهم بقتالكم إياهم ، فإذا فعلتم ذلك أحرزتم النصر عليهم ، وأدرکتهم الفوز ، فإنه « ماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا » .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ دعوة من الرجلين المؤمنين لقومهما ، بأن يكلوا أمورهم إلى خالقهم بعد مباشرة الأسباب ، وأن يعقدوا عزمهم على دخول الباب على أعدائهم ، إن كانوا مؤمنين حقا ، فإن النصر يحتاج إلى تأييد من الله - تعالى - لعباده ، وإلى توكل عليه وحده ، وإلى عزيمة صادقة ، ومباشرة للأسباب التى توصل إليه .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هذين الرجلين المؤمنين ، لم تصادف من بنى

إسرائيل قلوبا واعية ، ولا أذانا صاغية بل قابلوها بالتمرد والعناد ، وكرروا لنبيهم موسى - عليه السلام - نفيهم القاطع للإقدام على دخول الأرض المقدسة مادام الجبارون فيها فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۗ ﴾ .

أى : قالوا غير عابئين بالنصيحة ، بل معلنين العصيان والمخالفة : يا موسى إنا لن ندخل هذه الأرض التى أمرتنا بدخولها فى أى وقت من الأوقات ، مادام أولئك الجبارون يقيمون فيها ، لأننا لا قدرة لنا على مواجهتهم .

وقد أكدوا امتناعهم عن دخول هذه الأرض فى هذه المرة بثلاث مؤكدات ، هى : إن ، ولن ، وكلمة أبدا .

أى : لن ندخلها بأى حال من الأحوال مادام الجبارون على قيد الحياة ويسكنون فيها . ثم أضافوا إلى هذا القول الذى يدل على جبنهم وخورهم ، سلاطة فى اللسان ، وسوء أدب فى التعبير ، وتطاولوا على نبيهم فقالوا :

﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۗ ﴾ .

أى : إذا كان دخول هذه الأرض يهكم أمره ، فاذهب أنت وربك لقتال سكانها الجبابرة وأخرجاهم منها لأنه - سبحانه - ليس ربا لهم - فى زعمهم - إن كانت ربوبيته تكلفهم قتال سكان تلك الأرض .

وقولهم : ﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۗ ﴾ تأكيد منهم لعدم دخولهم لتلك الأرض المقدسة .

أى : إنا هاهنا قاعدون فى مكاننا لن نبرحه ، ولن نتقدم خطوة إلى الأمام لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال الجبارين فنحن فى غنى عنه ، ولا رغبة لنا فيه .

ثم قصت علينا السورة الكريمة أن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه ما رأى من عناد وجبن ، لجأ إلى ربه يشكو إليه منهم ، يلتمس منه أن يفرق بينه وبينهم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۗ ﴾ .

أى : قال موسى باثا شكواه وحزنه إلى الله ، ومعتذرا إليه من فسوق قومه وسفاهتهم وجبنهم : رب إنك تعلم أنى لا أملك لنصرة دينك أمر أحد أئزمه بطاعتك سوى أمر نفسي ، وأمر أخى هارون ، ولا ثقة لى فى غيرنا أن يطيعك فى العسر واليسر والمنشط والمكره .

ولم يذكر الرجلين اللذين قالوا لقومهما فيما سبق ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ لعدم ثقته الكاملة فى دخولهما معه أرض الجبارين ، وفى وقوفهما بجانبه عند القتال إذا تخلى بقية

القوم عنه فإن بعض الناس كثيرا ما يقدم على القتال مع الجيش الكبير ، ولكنه قد يحجم إذا رأى أن عدد المجاهدين قليل ، ومن هنا لم يذكر أنه يملك أمر هذين الرجلين كما يملك أمر نفسه وأمر أخيه .

وصرح موسى - عليه السلام - بأنه يملك أمر أخيه هارون كما يملك أمر نفسه ، لمؤازرته التامة له في كفاحه ظلم فرعون ، ولوقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة في كل موطن من مواطن الشدة وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ بيان لما يرجوه موسى من ربه - عز وجل - بعد أن خرج بنو إسرائيل عن طاعته .

والمعنى : قال موسى مخاطبا ربه : لقد علمت يا إلهي أني لا أملك لنصرة دينك إلا أمر نفسي وأمر أخي ، أما قومي فقد خرجوا عن طاعتي وفسقوا عن أمرك ومادام هذا من شأنهم فافصل بيننا وبينهم بقضائك العادل ، بأن تحكم لنا بما نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون ، فإنك أنت الحكم العدل بين العباد .

وهذا الرجاء من موسى لربه في معنى الدعاء عليهم بسبب جبنهم وعصيانهم وقد أجاب الله - تعالى - دعاءه فيهم ، بأن أضلهم ظاهرا كما ضلوا باطنا ، وجاء الحكم الفاصل من يملكه فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

والمعنى : قال الله - تعالى - لنبيه موسى مجيبا لدعائه : يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة ، يسبرون خلالها في الصحراء تائهين حيارى لا يستقيم لهم أمر ، ولا يستقر لهم قرار ، فلا تحزن عليهم بسبب هذه العقوبة ، فإننا ماعاقبناهم بهذه العقوبة إلا بسبب خروجهم عن طاعتنا ، وتمردهم على أمرنا ، وجبنهم عن قتال أعدائنا ، وسوء أدبهم مع أنبيائنا .

٢٩ - عكوفهم على عبادة العجل في غيبة نبيهم موسى - عليه السلام - .

وقد فصلت سورة «طه» الحديث عما كان من بنى إسرائيل من جهالات وسفاهات تدل على انطماس بصيرتهم ، حيث عبدوا عجلا جسدا له خوار وتبدأ الآيات التي تشهد على ذلك بقوله - تعالى - :

وَمَا أَجْعَلُكَ عَنْ

قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٢٩﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ

لَتَرْضَى ﴿٨٥﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾  
 فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ  
 وَعَدَّ أَحْسَنَ أَفْطَالٍ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ  
 مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا  
 وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى  
 السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ  
 وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ  
 لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

وهذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها : أن موسى - عليه السلام - بعد أن أهلك الله - تعالى - فرعون وجنوده ، سار ببني إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره - سبحانه - بما أحدثه قومه فى غيبته عنهم ، وجملة ﴿ وَمَا أَعْمَلُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : وقلنا لموسى : أى شىء جعلك تتعجل المجىء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك مع أنه ينبغى لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم وناظرا عليهم ؟

فأجاب موسى معتذرا لربه - تعالى - بقوله : ﴿ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي ﴾ أى : على مقربة منى ، وسيلحقون بى بعد زمن قليل ﴿ وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أى : وقد حملنى على أن أحضر قبلهم ، شوقى إلى مكلمتك - يا إلهى - وطمعى فى زيادة رضاك عنى .

فموسى - عليه السلام - قد علل تقدمه على قومه فى الحضور بعلتين ، الأولى : أنهم كانوا على مقربة منه ، والثانية حرصه على استدامة رضى ربه عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ إخبار منه - سبحانه - بما فعله قومه بعد مفارقتهم لهم .

والسامرى : اسم الشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل ، قيل : كان من زعماء بنى إسرائيل وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة .

وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة .

أى : قال الله - تعالى - لموسى : فإننا قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب فى ضلالهم السامرى ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ بيان لما كان منه - عليه السلام - بعد أن علم بضلال قومه .

والمعنى فرجع موسى إلى قومه - بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة - حالة كونه ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أى : غضبان شديد الغضب .

فالمراد بالأسف : شدة الغضب ، وقيل المراد به : الحزن والجزع .

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾ .

أى : قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لاسبيل لكم إلى إنكاره ، ومن هذا الوعد الحسن : إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم وإهلاك عدوكم أمام أعينكم ، فلماذا أعرضتم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون فى خيرته ورزقه؟

ثم زاد فى تأنيبهم وفى الإنكار عليهم فقال : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ .

والمعنى : أفتال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ، فأخلفتم موعدى الذى وعدتمونى إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - .

ثم حكى - سبحانه - معاذيرهم الواهية التى تدل على بلاة عقولهم ، وانتكاس أفكارهم ، وتفاهة شخصيتهم فقال - تعالى - : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. ﴾ .

أى : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو أقيح من الذنب : ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خيلنا بيننا وبين أنفسنا ، ولم يسول لنا السامرى ما سول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله - تعالى - وحده .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ حكاية لبقية ما قالوه من أعداز قبيحة .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ، ولكننا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق ، ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ فى النار بتوجيه من السامرى ﴿ فَكَذَلِكَ ﴾ أى : فكما ألقينا ما معنا ﴿ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ ما معه من تلك الزينة .

قال ابن كثير : وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم ، فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا الأمر الكبير .<sup>(١)</sup>

ثم بين - سبحانه - ما صنعه لهم السامرى من تلك الحلى فقال : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ .

أى : فكانت نتيجة ما قذفوه من الحلى فى النار ، أن أخرج السامرى لهم من ذلك ﴿ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا ﴾ أى : صوت كصوت البقر .

قيل : إن الله - تعالى - خلق الحياة فى ذلك العجل على سبيل الاختبار والامتحان لهم .

وقيل : لم تكن به حياة ، ولكن السامرى صنعه لهم بدقة وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت منه صوتا كصوت خوار البقر .

فقال بنو إسرائيل عندما رأوا العجل الذى صنعه لهم السامرى : هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، لأن موسى نسى إلهه هنا ، وذهب ليبحث عنه فى مكان آخر .

وقولهم هذا : يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم ، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل ، بل زعموا أن نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله ، قد كان يعبد العجل ، وأنه قد نسى مكانه فذهب يبحث عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾  
تقريع لهم على جهلهم وغباثتهم وسوء أدبهم .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أبلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفتنوا إلى أن هذا العجل الذى اتخذوه إلهها ، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٣٠٤ .

أو خاطبوه ، ولا يرد عليهم قولا يقولونه له ، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع .

ثم بين - سبحانه - موقف هارون - عليه السلام - من هؤلاء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾ .

وجملة : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ ﴾ قسمية مؤكدة لما قبلها .

أى : والله لقد نصح هارون - عليه السلام - عبدة العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعظفا : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ أى : يا قوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو بسبب عبادتكم العجل ، فالضمير فى ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى العجل .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .

وجمع - سبحانه - بين لفظى الرب والرحمن ؛ لجذبهم نحو الحق ، واستمالتهم نحوه ، وللتنبية على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأن - سبحانه - هو الرحمن الرحيم .

والفاء فى قوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى : وما دام الأمر كذلك فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، فى الثبات على الحق ، وفى نبذ عبادة العجل ، وفى المحافظة على ما عهدكم عليه موسى - عليه السلام - .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ما هم فيه من ضلال ، إذ قالوا فى الرد عليه : ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ﴾ أى : سنستمر على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ فنرى ماذا يكون منه .

فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم ، وسوء أدبهم ، يرون أن هارون - عليه السلام - ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع أنه قد خاطبهم بأحكام أسلوب ، وألطف منطق .

ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى ما عليه قومهما من ضلال فقال - تعالى - :

﴿ قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنُوَّامَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ .

أى : قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبه : يا هارون أى شىء منعك من مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل و«لا» فى قوله : ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ مزيدة للتأكيد ، والاستفهام فى قوله : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ للإلنكار .

أى : ما الذى منعك من أن تتبعنى فى الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة العجل ، أف عصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وفيما أمرتك به من الصلابة فى الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله - تعالى - يعتبر تهاونا معهم فيما لا يصح التهاون فيه .

وكان موسى - عليه السلام - كان يريد من أخيه هارون - عليه السلام - موقفا يتسم بالحزم والشدة مع هؤلاء الجاهلين ، حتى ولو أدى الأمر لمقاتلتهم .

وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرقق والاستعطف فيقول :

﴿ يَا بَنُوَّامَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ .

أى : قال هارون لموسى محاولا أن يهدىء من غضبه ، بتحريك عاطفة الرحم فى قلبه : يا ابن أُمى لا تمسك بلحيتى ولا برأسى على سبيل التأنيب لى ، فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولا معرضا عن اتباعك .

وقوله : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ استئناف

لتعليل موجب النهى ، بتحقيق أنه غير عاص لأمره ، وغير معرض عن أتباعه .

أى : يا ابن أُمى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى فإنى ما حملنى على البقاء معهم ، وعلى ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل ، إلا خوفى من أن تقول لى - لو قاتلتهم أو فارقتهم بمن معى من المؤمنين - إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين متنازعتين ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أى : ولم تتبع وتطع قولى لك : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ولذلك لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين ، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم ، بل بقيت معهم ناصحا واعظا ، حتى تعود أنت إليهم ، فتتدارك الأمر بنفسك ، وتعالجه برأيتك .

هذا ، وبعد أن انتهى موسى من سماع اعتذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامري - رأس الفتنة ومديرها - فأخذ في زجره وتوبيخه ، وقد حكى - سبحانه - ذلك في قوله :

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٤٦٥﴾ قَالَ  
 بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا  
 وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٤٦٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ  
 نَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ  
 عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٤٦٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ  
 الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٤٦٨﴾

أى : قال موسى - عليه السلام - للسامري : ﴿ مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أى : ما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل ما فعلت ؟

وقد رد السامري على موسى بقوله : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أى : علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ، ورأيت ما لم يروه .

﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ روى أن السامري رأى جبريل - عليه السلام - حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة عن الله - عز وجل - ولم ير جبريل أحد غير السامري من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شيء أخضر ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه الفرس حافرها شأنًا ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلى المذاب فصار عجلا جسدا له خوار .

والمعنى قال السامري لموسى : علمت ما لم يعلمه غيرى فأخذت حفنة من تراب أثر حافر فرس الرسول وهو جبريل - عليه السلام - فألقيت هذه الحفنة فى الحلى المذاب ، فصار عجلا جسدا له خوار .

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أى : ومثل هذا الفعل سولته لى نفسى ، أى : زينته وحسنته لى نفسى ، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك ياموسى ، ويعبدون العجل الذى صنعته لهم .

وعلى هذا التفسير الذى سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول : جبريل - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .

هذا وقد نقل الفخر الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى رأيا آخر فى تفسير الآية فقال ماملخصه : ليس فى القرآن مايدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامرى بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل ، رد عليه بقوله : بصرت بما لم يبصروا به ، أى : عرفت أن الذى أتتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أى : كرهته .<sup>(١)</sup>

وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه .

ويكون المعنى الإجمالى للآية : أن السامرى قال لموسى - عليه السلام - كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك ، ثم تبين لى أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك ، وسولت لى نفسى أن أصنع للناس عجلا لكى يعبدوه ؛ لأن عبادته أراها هى الحق .

ويبدو لنا أن ماذهب إليه أبو مسلم ، أقرب إلى مايفيده ظاهر القرآن الكريم ، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التى ذكرها المفسرون فى شأن السامرى وفى شأن رؤيته لجبريل .

ولانرى حرجا فى استبعادها ، لأنها عارية عن السند الصحيح إلى رسول الله ﷺ أو إلى أصحابه ، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التى نرد العلم فيها إلى الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ حكاية لما قال موسى - عليه السلام - للسامرى .

والمعنى : قال موسى للسامرى : مادمت قد فعلت ذلك فاذهب ، فإن لك فى مدة حياتك ،

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج٦ ص ٧٠ .

أن تعاقب بالنبذ من الناس ، وأن تقول لهم إذا ما اقترب أحد منك : ﴿ لا مساس ﴾ أى : لا أمس أحدا ولا يمسنى أحد ، ولا أخالط أحدا ولا يخالطنى أحد .

قال صاحب الكشاف : عوقب فى الدنيا بعقوبة لاشيء أعظم منها وأوحش وذلك أنه مُنع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا ، وإذا اتفق أن يماس أحدا - رجلا أو امرأة - حم الماس والممسوس - أى أصيبا بمرض الحمى - فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس ، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم ، ومن الوحش النافر فى البرية .<sup>(١)</sup>

وقال الألوسى ما ملخصه : والسّر فى عقوبته على جنايته بما ذكر ، أنه ضد ما قصده ، من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعزروه ، فكان مافعله سببا لبعدهم عنه وتحقيره .

وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل ، حيث نبذ فنبذ ، فإن ذلك التحامى عنه أشبه شىء بالنبذ .<sup>(٢)</sup>

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم . ثم بين - سبحانه - عقوبة السامرى فى الآخرة ، بعد بيان عقوبته فى الدنيا فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ ﴾ .

أى : وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفك الله - تعالى - إياه ، بل سينجره لك ، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذى تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك ، كما عاقبك فى الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس .

ثم بين - سبحانه - مافعله موسى - عليه السلام - بالعجل الذى صنعه السامرى لإضلال الناس ، فقال : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ .

أى : وقال موسى - أيضا - للسامرى : وانظر إلى معبودك العجل الذى أقمت على عبادته أنت وأتباعك فى غيبتى عنكم .

﴿ لَنَحْرِقَنَّهُ ﴾ بالنار أمام أعينكم ، والجملة جواب لقسم محذوف ، أى : والله لنحرقنه ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ، أى : ثم لنذرينه فى البحر تدرية ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٨٥ .

(٢) تفسير الألوسى ج١٦ ص ٢٥٦ .

وقد نفذ موسى - عليه السلام - ذلك حتى يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لا يستحق ذلك ، وإنما يستحق التذرية ، وأن عبادتهم له إنما هي دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وشدة جهلهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ استئناف مسوق لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله - تعالى - وحده ، الذى وسع علمه كل شىء ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .  
 ٣٠ - وفى سورة «الأعراف» آيات كريمة ، فصلت الحديث - أيضا - عن عكوف بنى إسرائيل على عبادة العجل الذى صنعه لهم السامرى ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ  
 بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا  
 يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَا سِقْطَ فِي  
 أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَضَلُوا قَالُوا الْبَيْنَ لَنَا وَمِثْرًا رَبَّنَا وَبِعْغِرْنَا  
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٩﴾ وَلَا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ  
 أَسْفًا قَالَ بِنِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا رِيبَكُمْ وَالْقَىٰ الْأُلُوحَ  
 وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي  
 وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ  
 ﴿١٦٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ  
 الرَّاحِمِينَ ﴿١٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ  
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٦٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ  
 ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا أَنَّ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا الْغَوُّورُ رَحِيمٌ ﴿١٦٣﴾

والمعنى : واتخذ قوم موسى من بعد فراقه لهم لأخذ التوراة عن ربه عجلا جسدا له صوت البقر ليكون معبودا لهم .

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ تقريع لهم على جهالاتهم وبيان لفقدان عقولهم .

والمعنى : أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم ، أنهم لم يفتنوا حين عبدوا العجل ، أنه لا يقدر على ما يقدر عليه أحاد البشر ، من الكلام والإرشاد إلى أى طريق من طرق الإفادة ، وليس ذلك من صفات ربهم الذى له العبادة ، لأن من صفاته - تعالى - أنه يكلم أنبياءه ورسله ، ويرشد خلقه إلى طريق الخير ، وينهاهم عن طريق الشر!

ثم أكد - سبحانه - ذمهم بقوله : ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أى : اتخذوا العجل معبودا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأى كلام ، ولا يرشدهم إلى أى طريق ، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله ، وبوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى : وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل ، وتبينوا ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين : ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى : لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم .

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه الله التوراة ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل ، قالوا : ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ وبدليل أن موسى - عليه السلام - لما رجع أنكر عليهم ما هم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بما هم عليه من ضلال مبين .

وعبر - سبحانه - عن شدة ندمهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ لأن من شأن الذى اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غما فتصير يده مسقوفا فيها لأن فاه قد وقع فيها ، وكان أصل الكلام ولما سقطت أفواههم فى أيديهم ، أى ندموا أشد الندم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ ، بيان للحالة التى كان عليها موسى - عليه السلام - عند رجوعه من الطور ، ومشاهدته للعجل الذى عبده قومه ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله - تعالى - وحزينا لفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار .

وقول موسى لقومه : ﴿بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ ذم منه لهم ، والمعنى : بس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة ربي ، وبس الفعل فعلكم بعد فراقي إياكم . حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم محبته ، ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به إليكم ، من توحيد الله ، وإخلاص العبادة والسير على سنتي وشريعتي .

وقوله تعالى : ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِكُمْ﴾ معناه : أسبقتم عبادة العجل ما أمركم به ربكم وهو انتظاري حافظين لعهدى ، وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى أتاكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل .

ثم بين - سبحانه - أن غضب موسى ترتب عليه أمران يدلان على شدة الانفعال ، أولهما : قوله - تعالى - : ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أى طرحها من يديه لما اعتراه من فرط الدهش ، وشدة الضجر ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل ، فإلقاء الألواح لم يكن إلا غضبا لله ، وحمية لدينه ، وسخطا على قومه الذين عبدوا ما يضرب به المثل فى البلادة .

وثانيها : قوله - تعالى - : ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أى : أخذ موسى بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر فى نصحتهم وزجرهم عن عبادة العجل ، ولكن هارون - عليه السلام - أخذ يستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه الشديد ، وليكشف له عن طبيعة الموقف ، وليبرئ ساحته من مغبة التقصير ، فقال له : ﴿يَا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، أى : قال هارون لموسى مستعظفا : يا ابن أُمى - بهذا النداء الرقيق وبتلك الوشيحة الرحيمة - لاتعجل بلومى وتعنيفى فإنى ما آليت جهدا فى الإنكار عليهم ، وما قصرت فى نصيحتهم ولكنهم لم يستمعوا إلىّ ، بل قهرونى واستضعفونى ، وأوشكوا أن يقتلونى عندما بذلت أقصى طاقتى لأخفف هياجهم واندفاعهم نحو العجل ، فلاتفعل بى ما هو أمنيته ومحل شماتتهم ، من الاستهانة بى والإساءة إلىّ ، فإن من شأن الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء ، ولاتجعلنى فى زمرة القوم الظالمين ، فإنى برىء منهم ، ولقد نصحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين .

وهنا اقتنع موسى - عليه السلام - ببراءة هارون من مغبة التقصير فقال :

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

أى : قال موسى ليرضى أخاه ، وليظهر لأهل الشمامة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته : رب اغفر لى ما فرط منى من قول أو فعل فيه غلظة على أخى ، واغفر له كذلك ما عسى أن يكون قد قصر فيه بما أنت أعلم به منى ، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء فأنت أرحم بعبادك من كل راحم .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير ، وأثبت أنه قد عرض نفسه للأذى فى سبيل أن يصرف عابدى العجل عن عبادته .

ثم أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى شأن عبدة العجل فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ  
وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴾ .

والمعنى : إن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمروا على ضلالتهم سيحقيق بهم سخط شديد من ربهم ، ولا تقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ، وسيصيبهم كذلك هوان وصغار فى الحياة الدنيا ، وبمثل هذا الجزاء نجازى المفتريين جميعا فى كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا ، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة من بنى إسرائيل وغيرهم .

ثم فتح - سبحانه - بابه لكل تائب صادق فى توبته فقال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والمعنى : والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحا ، ورجعوا إلى الله - تعالى - معتردين نادمين مخلصين الإيمان له ، فإن الله - تعالى - من بعد الكبائر التى أقلعوا عنها لساتر عليهم أعمالهم السيئة ، وغير فاضحهم بها ، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين .

والى هنا تكون الآيات الكريمة - بعد أن دمغت بنى إسرائيل بما يستحقونه من تفرغ ووعيد - قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة ليفيئثوا إلى نور الحق ، وليتركوا ما انغمسوا فيه من ضلالات وجهالات .

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سُخْتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

والمعنى : وحين سكت غضب موسى بسبب اعتذار أخيه وتوبة قومه أخذ الألواح التى كان قد ألقاها .

وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تتكسر ، ولم يرفع من التوراة شىء ، وأنه أخذها بعينها .

وقوله : ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ ﴾ أى : أخذ موسى الألواح التى سبق له أن ألقاها ، وفيما نسخ من هذه الألواح أى : كتب فى هذه الألواح هداية عظيمة على طريق الحق ، ورحمة واسعة للذين يخافون أشد الخوف من خالقهم - عز وجل - .  
ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع السبعين الذين اختارهم من قومه فنقول :

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا  
فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتُم مِّن قَبْلِ وَإِيسَى  
أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ  
وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾  
\* وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ  
قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِم مِّنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا  
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

أى : اختار موسى سبعين رجلا من قومه للميقات الذى وقته الله له ، ودعاهم للذهاب معه .  
وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم ، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلا من القوم جميعا فى الاختيار ، وكان بنى إسرائيل على كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلاء سوى هؤلاء السبعين .

وتختلف روايات المفسرين فى سبب هذا الميقات وزمانه ، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم الله فيه موسى تكليما فقد كان معه سبعون رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة ، فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى ، وأن يروه جهرة فأخذتهم الصاعقة ، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد عبدوا العجل فى غيبته .

والذى نرجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول ، وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة

موسى ، فقد عرفنا أن الله قد أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة ، فرجع موسى إليهم مسرعا ووبخهم على صنيعهم وأحرق العجل ، وأمره الله - تعالى - بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فاختر موسى هؤلاء السبعين .

وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بنى إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - ما لا يصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك ، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوه عن المنكر ، ولم يأمرهم بالمعروف .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّايَ ﴾ أى : فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى : يا رب إننى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان ، وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل ، لأنهم سيقولون لى : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم .

ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى موتهم جميعا ثم أحياهم الله - تعالى - بعد ذلك ، ويرى آخرون أنهم غشى عليهم ثم أفاقوا .

وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التى اقترفها قومه ، بعد أن من عليهم - سبحانه - بالنعم السابقة الوافرة ، وأنقذهم من فرعون وقومه ، فكأنه يقول : يارب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ، ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جريا على مقتضى كرمك .

وقوله : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ استئناف مقرر لما قبله ، أى : ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك ، فأنت الذى ابتليتهم واختبرتهم ، فالأمر كله لك ويبدك ، لا يكشفه إلا أنت ، كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت ، فنحن عائدون بك منك ، ولا جئون منك إليك ، ماشئت كان وما لم تشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أى : أنت القائم بأمرنا كلها لا أحد غيرك ، فاغفر لنا ما فرط منا ، وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شىء ، وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغرض نفسانى ، كحب الشئ واجتلاب المنافع ، أما أنت - يا إلهنا - فمغفرتك لا لطلب عوض أو غرض وإنما هى لمحض الفضل والكرم .

ثم أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعوات أخرى فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أى : وأثبت لنا فى هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق ، وأثبت لنا فى الآخرة - أيضا - ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض .

وقوله : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة الصادقة تجعل الدعاء جديرا بالإجابة ، أى : لأننا تبنا إليك من المعاصى التى جئناك للاعتذار منها ، فآكتب لنا الحسنات فى الدارين ، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل .

وقوله : ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - عند دعاء موسى ، فكان الجواب : قال عذابي . الخ

ثم قال الله - تعالى - لموسى ردا على دعائه : يا موسى إن عذابي الذى تخشى أن يصيب قومك أصيب به من أشاء تعذيبه من العصاة ، فلا يتعين أن يكون قومك محلا له بعد توبتهم ، فقد اقتضت حكمتى أن أجازى الذين أساءوا بما عملوا وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلا تضيق على قومك ، ولا عن غيرهم من خلقى ممن هم أهل لها .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل لرحمته فقال :

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أى : فسأكتب رحمتى للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم .

وتخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى ، لأن إيتاءها كان شاقا على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال .

ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات ، اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنهيات عن آخرها وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون .

٣١ - تعنتهم في الأسئلة ، وسوء أدبهم مع نبيهم موسى - عليه السلام - :

إن المتدبر للقرآن الكريم يرى أن هذا السلوك من بنى إسرائيل مع نبيهم ، قد تكرر في مواضع شتى ، وفي حوادث متعددة .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عنهم في قوله - تعالى - في سورة «البقرة» :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً  
قَالُوا أَنْتَجِدُ نَاهِرًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا  
رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ  
عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْصَلُوا مَا تَوْمُرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا  
مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوُثَّهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ  
﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ  
الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَيْفَ جِئْتَ بِالْحَقِّ  
فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ  
فِيهَا وَاللَّهُ مٌخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧١﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا  
كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قَسَتْ  
قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارِ  
لَمَا يَنْفَجْرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّوْنَ فَيُصْرَبُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ  
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾

ذكر المفسرون أنه كان في بنى إسرائيل رجل غنى ، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ليرثه ، وحمله إلى قرية أخرى فآلقاه فيها ، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل ، فسألهم موسى - عليه

السلام - فجددوا ، فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي ، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً .. ﴾ (١).

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع ، الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار ، فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتتعضوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى ، فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقي ، فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً ﴾ فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ﴾ ؟ أى : أتجعلنا موضع سخريتك؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به .

والذى عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقي إذا ضرب القتيل ببعضها ، كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ، لأنها من جنس ما عبده وهو العجل ، وفى أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة ، لا يصلح أن يكون معبودا من دون الله ، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح .

وقولهم : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ﴾ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال ، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم ، وانتظروا النتيجة بعد ذلك ولكنهم قوم لا يعقلون .

ولما كان قولهم هذا يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به ، أجابهم موسى بقوله : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى :

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ١٩٧ بتصريف وتلخيص وهناك روايات أخرى فى شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبوحيان وغيرهما لم نذكرها لأنها تختلف عن النص الذى سقناه إلا فى التفاصيل .

التجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل ،  
وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء ، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف  
بالمزاح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن  
فيه - أيضا - ردا لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب  
الخالق ، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى - .

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافيا لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة  
تنفيذا لأمر ربهم ، ولكن طبيعتهم المتتوية المعقدة لم تفارقهم ، فأخذوا يسألون كما أخبر  
القرآن عنهم بقوله : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ ؟

أى : قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها ، وسبب  
سؤالهم عن صفتها ، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم ، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه  
الحياة ، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل  
القتيل ، لا بد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها .

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه  
السلام - لأنهم قالوا ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فكأنما هورب موسى وحده ، لاربهم كذلك ، وكأن  
المسألة لاتعنيهم هم وإنما تعنى موسى وربهم ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربى الحكيم  
للأتباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لِأَفَارِضٍ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ  
بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ .

أى : قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها : إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التى  
أمركم بذبحها لامسنة ولاصغيرة ، بل نصف بينهما ، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة ،  
وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به .

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾ تنزيلا لهم منزلة المنكرين  
لتعننتهم فى السؤال ومحاولتهم التنصل بما أمروا به .

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر : إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿ لِأَفَارِضٍ  
وَلَا بَكْرٌ ﴾ للتعريض بغباوتهم والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة لذا لجأ فى  
جوابهم إلى تنكير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة

والامثال ، أى : إذا كان الأمر كذلك ، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به ، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقى بأيسر طريق ، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم ، ولا تكثروا من المراجعة ، فإنها ليست فى مصلحتكم .

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعا ، واستقصاء فى السؤال فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سننها ، فقالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لُونُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ ﴾ .

والمعنى : قال بنو إسرائيل لنبيهم ، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سننها : سل لنا ربك يبين لنا مالونها ، لكى يسهل علينا الحصول عليها ، فأجابهم بقوله : إنه - تعالى - يقول إن البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها ، تعجب فى هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها .

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سننها ووصفها من حيث لونها ، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟ كلا! ما أغنتهم ، فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم فى غنى عنه فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ومعنى الآيتين الكرمتين : قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها : سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها ، حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير ، فاشتبه علينا أيها نذبح ، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها ، ومنفدون لما تكلفنا به ، فأجابهم موسى بقوله : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى : قال إنه - سبحانه - يقول : إنها بقرة سائمة ليست منزلة بالعمل فى الحراثة ولا فى السقى ، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب ، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة ، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها وميزاتها قد اكتملت ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ الواضح ، ولم يبق إشكال فى أمرها ، وبحثوا عنها ، وحصلوها ﴿ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم .

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التى من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ

بِعِضِّهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم أنفسا ، فاختلقتم وتنازعتم فى قاتلها ، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه ، والله - عز وجل - مخرج لامحالة ما كتمتم من أمر القاتل ، فقد بين - سبحانه - الحق فى ذلك فقال على لسان رسوله - موسى - عليه السلام - اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة ، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله ، ويمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة ، وبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شىء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم .

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها ، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة ، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جنائياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها ، فتقبلها بشغف واهتمام .

ثم بين القرآن الكريم ، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التى تزلزل المشاعر ، وتهز القلوب وتبعث فى النفوس الإيمان ، لم تؤثر فى قلوب بنى إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم ومحا الاعتبار بها من عقولهم ، فقال - تعالى - :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والمعنى : ثم صلبت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم من معجزات منها إحياء القتيل أمام أعينكم ، فهى كالحجارة فى صلابتها وبيوستها ، بل هى أشد صلابة منها ، لأن من الحجارة مافيه ثقب متعددة ، وخروق متسعة ، فتندفق منه مياه الأنهار التى تعود بالمنافع على المخلوقات ، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعا قليلا فيخرج منه ماء العيون ، والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته ، أما أنتم - يا بنى إسرائيل - فإن قلوبكم لاتتأثر بالمواعظ ولاتنقاد للخير ، ولاتفعل ما تؤمر به ، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات ، وما الله بغافل عما تعملون .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بما هم أهلها ، من قساوة القلب وانظماس البصيرة ، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت ، وبالآيات مهما تواترت .

هذا وقد اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية ومن ذلك :

١ - دلالتها على ماجبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة ، وسوء أدب مع مرشديهم ، وإلحاف فى الأسئلة بلا موجب ، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل ، ومماثلة فى الانصياع للتكاليف ، وانحراف عن الطريق المستقيم .

٢ - دلالتها على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، فقد أخبر فى هذه القصة الواقعية

التي لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى - عليه السلام - وأنه رسول من رب العالمين .

٣ - دلالتها على أن التنطع في الدين ، والإلحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في الأحكام ، لأن بنى إسرائيل لو أنهم من أول الأمر عمدوا إلى ذبح أى بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : «لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم» .<sup>(١)</sup>

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهاى عن كثرة السؤال قال - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [المائدة]

وفى الحديث الشريف : «ذرونى ماتركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوه ، وإذا نهيتكم عن شىء فانتهاوا عنه ما استطعتم» .

٤ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت - عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشف للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التى لا يدرون كيف تعمل ، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ .

٣٢ - هذا ، والمتدبر للقرآن الكريم يرى أن بنى إسرائيل قد وقف كثير منهم من نبيهم موسى - عليه السلام - لاموقف المخالفة والعصيان فحسب بل تجاوزوا ذلك إلى الإيذاء والإساءة إلى شخصه .

فقد صرح القرآن الكريم أنهم آذوه حيث وصفوه بما هو برىء منه ، قال - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (٢)

(١) تفسير ابن جرير ج١ ص ٣٤٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

والمراد بالذين آذوه هنا : قومه وعشيرته من بنى إسرائيل ، فقد روى البخارى والترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن موسى كان رجلا حيبا ستيرا ، لا يرى من جلده شيء ، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة ، وإن الله - تعالى - أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ، ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملاء بنى إسرائيل ، فرأوا جسده أحسن ما خلق الله - تعالى - وبرأه الله مما قالوا ، فذلك قوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى... ﴾ .

أى : احذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا كأولئك السفهاء من بنى إسرائيل ، الذين آذوا نبيهم موسى - عليه السلام - أذى شديدا ، فبرأه الله - تعالى - مما وصفوه به ، وكان عند الله - تعالى - ذا جاه عظيم ، ومكانة سامية ، ومنزلة عالية» .

كما حكى لنا القرآن أن موسى - عليه السلام - تعجب من كثرة إيذاء بنى إسرائيل له ، مع أنه رسولهم وهاديهم ومرشدهم ، فقال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُذُّونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . (١)

أى : قال لهم : يا أهلى ويا عشيرتى لماذا تلحقون الأذى بى ، وأنتم تعلمون حق العلم أنى رسول الله - تعالى - إليكم ، لأخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، ولأنقذكم من ظلم فرعون ، فلما أصروا على زيغهم وضلالهم ، أزاع الله قلوبهم وصرفها عن الحق إلى الباطل ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أنه لا يهدى الخارجين عن طريق الحق ، المصرين على عنادهم وكفرهم .

كما حكى لنا القرآن الكريم أن الله - تعالى - بفضله وكرمه ، قد أجرى على يد نبيه موسى كثيرا من النعم على بنى إسرائيل ومن ذلك : إنجائهم من فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ومن ذلك فرق البحر بهم حيث نجاهم - سبحانه - وأغرق فرعون وقومه ، بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

ومن ذلك : نزول التوراة على موسى - عليه السلام - لهدايتهم ومن ذلك : إنزال المن والسلوى عليهم وتظليل الغمام لهم ، استجابة لدعاء موسى - عليه السلام - .

(١) سورة الصف : الآية ٥ .

ومن ذلك : ضرب موسى - عليه السلام - بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فصار كل فريق منهم يشرب من العين المخصصة له ، بعد أن كاد العطش يهلكهم ، إلى غير ذلك من النعم العظيمة التي أجراها الله - تعالى - على يد موسى - عليه السلام - وانتفع بها قومه من بنى إسرائيل انتفاعا عظيما ولكنهم قابلوا هذه النعم بالعصيان لنبيهم موسى - عليه السلام - وبالإساءة إليه ، وبالمخالفة لأمره ، وبالتطاول عليه ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

٣٣ - لقاء موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح ، من أجل تحصيل العلم النافع :

كان موسى - عليه السلام - محبا للعلم والمعرفة ، شأنه في ذلك شأن إخوانه الأنبياء الذين اختارهم الله - تعالى - لحمل رسالته ، وتبليغها إلى الناس ، والذين منحهم - سبحانه - من العقل الراجح ، والعلم النافع ، والحكمة السديدة ، والحجة البليغة ، ماجعلهم يؤدون ما كلفهم خالقهم به على أكمل وجه ، وأعظم بيان .

وقد قص علينا القرآن الكريم في سورة «الكهف» ذلك اللقاء الذي تم بين موسى - عليه السلام - وبين عبد من عباد الله الصالحين ، وقد انتهى هذا اللقاء بعد محاورات فيها مافيها من العبر والعظات وتبدأ هذه الآيات التي حكى لنا هذا اللقاء بقوله - تعالى - :

وَأذَقَالَ

مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَآ آبْرَحَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٦﴾  
 فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ  
 سَرَبًا ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْتِي الْقَدِّ لِقِينَا مِنْ سَفَرِنَا  
 هَذَا نُنْصَبُ ﴿٦٨﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ  
 وَمَا أَنسَكْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ  
 عَجَبًا ﴿٦٩﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْزُقْنَا عَلَىٰءِ إِثَارِهَا قَصَصًا ﴿٧٠﴾  
 فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ  
 لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٧١﴾

و ﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الألوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان . . والبحران : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما : مما يلي المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما . . وقيل البحرين : بحر الأردن وبحر القلزم . (١)

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن مجمع البحرين - بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح ، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر ، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وعلى أية حال فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة . (٢)

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لكى يعتبروا ويتعظوا وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، اصحبنى فى رحلتى هذه فإنى لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين ، فأجد فيه بغيتى ومقصدى ، أو أمضى فى سيرى حقبا ، أى : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والآية الكريمة تدل بأسلوبها البليغ ، على أن موسى - عليه السلام - كان مصمما على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة فى سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذى يقطعه فى سبيل الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : «أو أمضى حقبا» .

وقد أشار الألوسى - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : وكأن منشأ عزيمة موسى - عليه السلام - على ما ذكره ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم؟ فقال : أنا ، فعاتبه الله - تعالى - على ذلك ، إذ لم يرد العلم إليه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك .

وفى رواية أخرى عنه عن أبى - أيضا - عن رسول الله ﷺ أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أى رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له : «نعم فى عبادى من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه» . (٣)

(١) تفسير الألوسى ج٥ ص ٣١٢ .

(٢) فى ظلال القرآن ج٥ ص ٢٢٨٧ للأستاذ سيد قطب .

(٣) تفسير الألوسى ج٥ ص ٣١٣ .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ما حدث بعد ذلك فتقول : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

والمعنى : وبعد أن قال موسى لفتاه ما قال ، أخذًا في السير إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا هذا المكان «نسيا حوتهما» أى : نسيا خبر حوتهما ونسيا تفقد أمره ، فعادت الحياة إلى الحوت ، وسقط في البحر ، واتخذ «سبيله» أى طريقه «فى البحر سربا» .

أى : واتخذ الحوت طريقه فى البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق فى الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى الرجل الصالح الذى هو أعلم منك يا موسى فى هذا المكان - فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان فى مكمل مع يوشع ، وطفرو من المكمل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت فى البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البناء المقوس كالقنطرة - لا يلتئم بعده ، ولهذا قال : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أى : مثل السرب فى الأرض (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أى : المكان الذى فيه مجمع البحرين .

﴿ قَالَ ﴾ موسى - عليه السلام - ﴿ لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت المشوى الذى معنى : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ أى تعبًا وإعياء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ حكاية لما رد به يوشع على موسى - عليه السلام - عندما طلب منه الغداء .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ للتعجب بما حدث أمامه من شأن الحوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع ذلك نسي يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ١٧١ .

أى : قال يوشع لموسى - عليه السلام - : تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت ، أرأيت مادهانى فى وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ، فإنى هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز فى البحر .

وقال : ﴿ إِذْ أَوْينَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ دون أن يذكر مجمع البحرين ، زيادة فى تحديد المكان وتعيينه ، وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى طلبه منه موسى ، للإشعار بأن الغداء الذى طلبه موسى منه ، هو ذلك الحوت الذى فقدها .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ جملة معترضة جىء بها لبيان مايجرى مجرى السبب فى وقوع النسيان منه .

أى : وما أنساني تذكرك بماحدث من الحوت إلا الشيطان الذى يوسوس للإنسان بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور المهمة .  
وقوله : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر فى الماء والماء من حوله كالقنطرة التى تنفذ منها الأشياء .

وهنا يحكى القرآن مايدل على أن موسى - عليه السلام - قد أدرك أنه تجاوز المكان الذى حدده له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال :  
﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذى تركته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى فقدنا فيه الحوت .

﴿ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ أى : فرجعا من طريقهما الذى أتيا منه ، يتتبعان آثارهما لثلا يضلا عنه ، حتى انتهيا عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .

ثم حكى القرآن ماتم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

أى : وبعد أن عادا إلي مكان الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا «عبدا من عبادنا» الصالحين .

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أى : هذا العبد الصالح منحناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره ، وهذه الرحمة تشمل النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه كنعمة الهداية والطاعة وغيرها .

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أى : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علما خاصا ، لا يتيسر إلا لمن نريد تيسيره ومنحه له .

والمراد بهذا العبد : الخضر - عليه السلام - كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .  
ومن العلماء من يرى أنه كان نبيا ، ومنهم من يرى أنه كان عبدا صالحا اختصه الله بلون معين من العلم اللدنى .

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إنما سُمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء» . (١)

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس وإلى ذلك ذهب الإمام البخارى وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم .  
ويرى آخرون أنه حى وسيموت فى آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التى يذكر فيها أنه حى كلها كذب ، ولا يصح فى ذلك حديث واحد ، وهذه المسألة من المسائل التى فصل العلماء الحديث عنها فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت . (٢)

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ، ما دار بين موسى والخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مَا عَلَّمْتَنِي رُشْدًا  
﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٣١٩

(٢) راجع ابن كثير ج ٥ ص ١٧١ ، والألوسى ج ١٥ ص ٣١٩ وأضواء البيان ج ٤ ص ١٥٧ .

تُحِطُّ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ  
 أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ  
 ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا هل أتبعك ، أى : هل تأذن لى  
 فى مصاحبتك واتباعك ، بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه : شيئاً  
 أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب  
 اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على  
 التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ، وحيث استأذنه فى أن يكون  
 تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخبر .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت  
 المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل  
 من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا  
 اختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى يتعلق  
 بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة  
 البواطن (١).

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى : إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى  
 صبيرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى لما ترى من الأفعال التى  
 تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - الذى علمنى إياه ، فكل منا  
 مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحتى (٢).

وقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

(١) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٤٧٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٧٨ .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور سترها منى ، هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه؟

فالخبير بمعنى العلم يقال : خبر فلان الأمر يخبره ، أى : علمه ، والاسم الخبير ، وهو العلم بالشيء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبيرا ، لأن ما أفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك .

ولكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

أى : قال موسى للخضر : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التى تكلفنى بها .

وقدم موسى - عليه السلام - المشيئة ، أدبا مع خالقه - عز وجل - واستعانة به - سبحانه - على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ماسبق أن قاله لموسى وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته فقال : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : يا موسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لاتعجبك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق ، فلأتعرض عليها ، ولأتناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بتلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أفسره لك .

قالوا : «وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر - موسى - ودأب لرأى العجب» (١)

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه - سبحانه - بقوله :

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٨ .

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا  
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا  
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

وقوله : ﴿فَانطَلَقَا﴾ بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع ابن نون ، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى .

ويرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول : أى أجر .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بيان لما فعله الخضر بالسفينة .

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها ، قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذا الصورة المؤلمة؟

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ، والإمر : الداهية ، وأصله كل شىء شديد كبير ، ومنه قولهم : إن القوم قد أمرؤا ، أى : كثروا واشتد شأنهم ، ويقال : هذا أمرٌ أمرٌ ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة ، حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لاتعرف الحكمة من ورائها؟

(١) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٣٣٥ .

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي ﴾ أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان ، ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق على الأمر ، فإن فى هذا التضيق ما يحول بينى وبين الانتفاع بعلمك .

وكان موسى - عليه السلام - الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى المصاحبة ، كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الوقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر ، إلا أنه بعد أن شاهد ما لا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله :

﴿ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ .

أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه ﴿ فَقَتَلَهُ ﴾ ، وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : ﴿ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أى : طاهرة بريئة من الذنوب ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ .

أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها ، أى : أن قتلت لهذا الغلام كان بغير حق .

﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أيها الرجل ﴿شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي : منكرا عظيما ، يقال ، نكر الأمر ، أى : صعب واشتد ، والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه ، وبالوعد الذى قطع على نفسه ، فيقول له : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ .

وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ . .﴾ بل يضيف لفظ لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت ياموسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبورا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه ، فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ﴾ أيها الصديق ﴿عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى : بعد هذه المرة الثانية ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أى : فلا تجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ، فإنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أى فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مرارا .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدل على اعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

قال القرطبى : كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : «رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب» ، ولكنه قال : ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ . (١)

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فنقول :

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ .

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢٣ .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما ، حتى إذا أتيا أهل قرية من القرى التى صادفتهما فى طريقهما .

﴿ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا ﴾ والاستطعام : سؤال الطعام ، والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ يشهد له .

أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

وقوله - تعالى - ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ﴾ أى : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ أى : بناء مرتفعا ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ أى : ينهدم ويسقط ﴿ فَاقَامَهُ ﴾ أى الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله ، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون ، ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم ، هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية!

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به ، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هونهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ﴿ هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أى : هذا الذى قلته لى ، يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك : ﴿ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .

ومع ذلك فانظر : سأنبئك ، قبل مفارقتى لك ﴿ بِنُأْوِيلٍ ﴾ أى : بتفسير وبيان ماخفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تستطع عليها صبورا ، لأنك لم يكن عندك ماعندى من العلم بأسرارها الباطنة التى أطلعنى الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى - عليهما السلام - فى هذا الشأن فقال - تعالى - :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

أى قال الخضر لموسى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ ﴾ التى خرقتها ولم ترض عنها ، ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذى ينتفعون به .

﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتة فيها ، ولم أرد أن أغرق أهلها ، كما ظننت ياموسى ، والسبب فى ذلك : أنه ﴿ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ ظالم من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة ، كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم وكان سببا فى بقائها فى أيدي أصحابها المساكين .

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

وظاهر قوله - تعالى - : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد ، وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة ، بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لكى لا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ «سفينة» هنا موصوف لصفة محذوفة ، أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و«غصبا» منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ ، والغصب - فعله من باب ضرب - : أخذ الشيء ظلما وقهرا .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال - تعالى - :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾  
﴿ ٨٠ ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿ ٨١ ﴾

أى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ ﴾ الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت علىّ فى قتله ياموسى ﴿ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا .  
﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

﴿ يُرْهِقَهُمَا ﴾ من الإرهاق وهو أن يُحمل الإنسان ما لا يطيقه .  
أى : فخشيننا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهم له ، وحرصهما على إرضائه .

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ ﴾ والإبدال : رفع شىء وإحلال آخر محله .  
أى : ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ بقتله ﴿ أَن يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ولدا آخر ﴿ خَيْرًا مِنْهُ ﴾ أى من هذا الغلام ، ﴿ زُكَاةً ﴾ أى طهارة وصلحا ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ ،  
أى : وأقرب فى الرحمة بهما ، والعطف عليهما والطاعة لهما .  
ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢) .

أى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ ﴾ الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .  
﴿ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ .

قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح .

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ ﴾ أى تحت هذا الجدار ﴿ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ أى : مال مدفون من ذهب وفضة ، ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما .

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ ومالك أمرك : ومدبر شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

﴿أَنْ يَلْبِغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أى : كمال رشدهما ، وتمام غوهما وقوتهما .

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أى : وما أَرَادَهُ رَبُّكَ - ياموسى - بهذين الغلامين ، هو الرحمة التى ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعدها حكمة .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأى الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربي ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها . . كما أطلعنى .

وحذفت التاء من ﴿تَسْطِعُ﴾ تخفيفا ، يقال : استطاع فلان هذا الشئ واستطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

وبذلك انكشف المستور لموسى - عليه السلام - وظهر ما كان خافيا عليه .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر حديث واحد .

قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوحا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبي بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم؟ فقال أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه : إن عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك ، فقال موسى : يارب ، وكيف لى به؟

قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ - أى : فهو هناك . . فأخذ حوتا ، فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سرّيا ، وأمسك الله عن الحوت جرّية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به . قال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قال : فكان للحوت سرّيا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ . قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى - أى مغطى - بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . قال : إنك موسى ، قال : موسى نبي بنى إسرائيل قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى بما علمت رشدا قال : إنك لن تستطيع معى صبّرا . يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه ، لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه .

قال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال الخضر ، فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يميشيان ، فمرت سفينة فكلّمهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا فى السفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدم .

فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتغرق أهلها ، قد جئت شيئا إمرا .

قال له الخضر: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا، قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا .

قال: وقال رسول الله ﷺ كانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاما، يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله - فقال له موسى: ﴿ أَقْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا .

قال وهذه أشد من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَبْئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

فقال رسول الله ﷺ: وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما (١).

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وأدبا من أهمها ما يأتي:

١ - أن الإنسان مهما أوتي من العلم، فعليه أن يطلب المزيد، وأن لا يعجب بعلمه، فالله - تعالى - يقول: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وطلب من نبيه ﷺ أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

٢ - أن الرحلة في طلب العلم من صفات العقلاء، فموسى - عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل، تجشم المشاق والمتاعب لكي يلتقى بالرجل الصالح، لينتفع بعلمه، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله - تعالى - حكاية عنه:

﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ .

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٧٢ طبعة دار الشعب .

من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء ، وإن بعدت أقطارهم ، وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح ، وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم أقدام ، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس فى طلب حديث .<sup>(١)</sup>

٣ - جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفته : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ورد عليه فتاه بقوله : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. ﴾ .

وفى هذا الرد - أيضا - من الأدب مافيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان وإن كان الكل بقضاء الله - تعالى - وقدره .

٤ - أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدرکه الإنسان باجتهاده وتحصيله .. بعد عون الله - تعالى - له ، وعلم لدنى يهبه الله - سبحانه - لمن يشاء من عباده فقد قال - تعالى - فى شأن الخضر ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى : علما خاصا أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية .

٥ - أن على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات وألطفها حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى فى قوله للخضر : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ فقد أخرج الكلام بصورة الملائفة والمشاورة ، فكأنه يقول له : هل تأذن لى فى ذلك أولا ، مع إقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبير ، الذى لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه .<sup>(٢)</sup>

٦ - أنه لا بأس على العالم ، إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم لا يطبق ذلك لجهله بالأسباب التى حملت العالم على فعل تلك الأمور التى ظاهرها يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر .

فقد قال الخضر لموسى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴾ فقد جعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خيرا بالأمر .

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١١

(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ج ٥ ص ٢٣ للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدى .

٧ - إن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله ، فقد قال موسى للخضر : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ومع ذلك فعندما رأى منه أفعالاً يخالف ظاهرها الحق والصالح ، لم يصبر .

وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلم أموراً معينة قبل أن يبدأ في تعليمه .  
فقد قال الخضر لموسى : ﴿ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

٨ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ، فإن حرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غضباً ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر الذي يترتب على بقاءه ، وهو إرهاقه لأبويه ، وحملهما على الكفر .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملاً في ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقاً في دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه ، ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد حرق الخضر السفينة ، لكي تبقى لأصحابها المساكين .

٩ - أن التأنى في الأحكام والتثبت من الأمور ، ومحاولة معرفة العلة والأسباب ، كل ذلك يؤدي إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول والعمل .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : «رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب» .

١٠ - أن من دأب العقلاء الصالحين ، استعمال الأدب مع الله - تعالى - في التعبير ، فالخضر قد أضاف خرقه للسفينة إلى نفسه فقال : «فأردت أن أعيبها . .» وأضاف الخير الذي فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ﴾ .

وشببه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحى الجن فى قولهم : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

١١ - أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

١٢ - أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التي حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . (١)

أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك عن الأسباب التي حملتنى على فعل ما فعلت بما لم تستطع معه صبرا .

ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - فى غير معصية الله - تعالى - على رأس الأسباب التي تعين على دوام الصحة ، وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ، وكثرة المخالفة ، تؤدي إلى المقاطعة .

كما يفهم من ذلك - أيضا - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها الوصول إلى الحق ، وإلى العلم ، وكانت بأسلوب مهذب ، وبنية طيبة ، لا تؤثر فى دوام المحبة والصدقة ، بل تزيدهما قوة وشدة .

نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

٣٤ - شوق موسى - عليه السلام - لرؤية ربه وللحديث معه - عز وجل - :

من الصفات الجليلة ، والمزايا الكريمة ، التي منحها الله - تعالى - لرسوله موسى - عليه السلام - أنه كلمه تكليما ، قال - تعالى - : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ . (٢)

فهذه الآية الكريمة صريحة فى أن الله - تعالى - قد خاطب نبيه موسى - عليه السلام - بما خاطبه به من كلام حكيم ، ولكن بكيفية نفوض أمرها إليه وحده - سبحانه - ولقد كان موسى - عليه السلام - مشوقا للحديث مع خالقه - عز وجل - ولرؤية ذاته الكريمة . ويحكى لنا القرآن ذلك فى قوله - تعالى - :

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَا فِي عَشْرٍ  
فَقَمَّ مِيقاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٨٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥٥﴾ وَمَا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا  
 وَكَلَّمَ رَبَّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَىٰكَ إِلَّا بِرَبِّكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى  
 الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَىٰكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ  
 دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا  
 أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي  
 وَبِكَلِمَىٰ فُتِدْ مَاءَ آيَاتِكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٥٧﴾

قال صاحب الكشاف: «روى أن موسى - عليه السلام - وعد بنى إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يدورون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذى القعدة، فلما أتم الثلاثين أمره الله - تعالى - أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك، وقيل أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها بما يقربه من الله ثم أنزل الله عليه فى العشر التوراة وكلمه فيها» (١).

والمواعدة مفاعلة من الجانبين، وهى هنا على غير بابها، لأن المراد بها هنا أن الله - تعالى - أمر موسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيدا لإعطائه التوراة، أى: أمرنا موسى أن ينقطع لعبادتنا مدة أربعين ليلة، نعطيه بعدها التوراة لتكون هداية ونورا له ولقومه.

ثم حكى - سبحانه - ما وصى به موسى أخاه هارون فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ أى: قال موسى لأخيه هارون حين استودعه ليذهب لمناجاة ربه: كن خليفتى فى قومى، وراقبهم فيما يأتون ويدورن فإنهم فى حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم ﴿ وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الذين ﴿ إِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ .

وإننا لنلمح من هذه الوصية أن موسى - عليه السلام - كان متوقعا شرا من قومه، ولقد

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ١٥١.

صح ما توقعه ، فإنهم بعد أن فارقهم موسى استغلوا جانب الين فى هارون فعبدوا عجلا جسدا له خوار صنعه لهم السامرى .

ثم حكى القرآن ما كان من موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى : وحين حضر موسى لميقاتنا الذى وقتناه له وحددناه ، وكلمه ربه ، أى : وخاطبه من غير واسطة ملك ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أى : قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه : رب أرنى ذاتك الجليلة ، والمراد مكنى من رؤيتك ، أو تجل لى أنظر إليك وأراك .

و ﴿ ارْنِي ﴾ فعل أمر مبنى على حذف الياء ، وياء المتكلم مفعول ، والمفعول الثانى محذوف أى : ذاتك أو نفسك ولم يصرح به لأنه معلوم ، وزيادة فى التأدب مع الخالق - عز وجل - .

وجملة ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ مستأنفة استثنافا بيانيا ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - حين قال موسى ذلك ، فكان الجواب ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ أى : لن تطيق رؤيتى ، وأنت فى هذه النشأة وعلي الحالة التى أنت عليها فى هذه الدنيا فنفى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أما فى الآخرة فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم فى روضات الجنات .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ أى : لن تطيق رؤيتى : يا موسى وأنت فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك ، فإن استقر مكانه أى ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت من هذا التجلى ، فسوف ترانى أى تثبت لرؤيتى إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتى .

وفى هذا الاستدراك ﴿ وَلَكِنْ انظُرْ ﴾ . . . إلخ ، تسلية لموسى - عليه السلام - وتلطف معه فى الخطاب ، وتكريم له ، وتعظيم لأمر الرؤية وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته .

ثم بين - سبحانه - ما حدث للجبل عن التجلى فقال : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى : فحين ظهر نوره - سبحانه للجبل على الوجه اللائق بجلاله ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى مدقوقا مفتتا ، فنبه - سبحانه - بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته مادام لم يستقر عند هذا التجلى ، فالأدمى مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر ، والدك والدق بمعنى ، وهو تفتيت الشيء وسحقه وفعله من باب رد .

وقوله ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ أى : سقط من هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلى مغشيا عليه ، كمن أخذته الصاعقة .

يقال : صعقتهم السماء تصعقهم صعقا فهو صعق أى : غشى عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : فلما أفاق موسى من غشيته ، وعاد إلى حالته الأولى التى كان عليها قبل أن يخر مغشيا عليه ، قال تعظيما لأمر الله ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك من مشابهة خلقك فى شىء ﴿ تَبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بعظمتك وجلالك أو وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد .

والذى نراه أن رؤية الله فى الآخرة ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك ، أما فى الدنيا فقد منع العلماء وقوعها لأنه لم يرد ما يدل على وقوعها فى الدنيا ، وقد بينا ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ . (١)

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله - تعالى - به موسى - عليه السلام - فقال : ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ .

الاصطفاء افتعال من الصفوة ، و صفوة الشىء خالصه وخياره أى : قال الله - تعالى - لموسى إنى اخترتك واجتبيتك على الناس الموجودين فى زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده ، فهو اصطفاء على جيل معين من الناس بحكم هذه القرينة .

وقوله : ﴿ بِرِسَالَاتِي ﴾ أى : بأسفار التوراة ، أو بإرسالى إياك إلى من أرسلت إليهم ، و ﴿ بِكَلَامِي ﴾ أى : بتكليمى إياك بغير واسطة قال - تعالى - : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

والجملة الكريمة مسوقة لتسليته - عليه السلام - عما أصابه من عدم الرؤية فكأنه - سبحانه - يقول له : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه ودم على شكرى .

وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق ، أو ليترقى إلى الأشرف .

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٢٨ من التفسير الوسيط للقرآن الكريم .

ثم قال - تعالى - : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى : فخذ يا موسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراسخين فى الشكر على ما أنعمت به عليك ، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٤٥) .

ثم فصل - سبحانه - بعض النعم التى منحها لنبيه موسى فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

والمراد بالألواح - كما قال ابن عباس - ألواح التوراة واختلف فى عددها فقيل : سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك .

والذى نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ يوضح عددها أو كيفيتها .

والمعنى : وكتبنا لموسى - عليه السلام - فى ألواح التوراة من كل شىء يحتاجون إليه من الحلال والحرام ، والمحاسن والقبايح ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر فى قلوبهم ترغيباً وترهيباً ، كما كتبنا له فى تلك الألواح تفصيل كل شىء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية .

وإسناد الكتابة إليه - تعالى - إما على معنى أن ذلك كان بقدرته - تعالى - وصنعه ولا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنه كتبها بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لهاموسى أم ملك من ملائكته - عز وجل - .

قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة : وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة ، والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الإجمالى ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبه بها الله - تعالى - فى أوقات الحاجة إليها<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : كتبنا له فيها كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ يعود إلى الألواح أى : كتبنا له فى

(١) تفسير المنار ج٩ ص ١٩٠

الألواح من كل شيء ، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم ، وصبر وجلد ، لأنه - عليه السلام - قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم فى الذل والاستعباد ، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى مافيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين ، فإنه قد يعجز عن تربيتهم ويفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم .

قال الجمل : وقوله - تعالى - : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُدُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى التوراة ومعنى بأحسنها بحسنها إذ كل مافيهما حسن ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، وفعل الخير أحسن من ترك الشر ، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب ، أو أن فيها حسنا وأحسن كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور به والمباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثوابا .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والتهديد .

أى : سأريكم عاقبة من خالف أمرى ، وخرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار ، فتلك سنتى التى لا تتغير ولا تتبدل .

قال ابن كثير : وإنما قال : ﴿ سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غدا ما يصير إليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .<sup>(٢)</sup>

وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر ، كيف أقفرت منهم ودمروا لنفسهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم .

وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم .

وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون ، فإنهم لم يدخلوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهذه السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمر بها تكون عاقبتها الذل والدمار ، ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين .

فالآية الكريمة قد اشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى - عليه السلام - كما اشتملت على الأمر الصريح منه - سبحانه - له بأن يهيبه نفسه لحمل

(١) حاشية الجمل على الدالين ج٢ ص ١٩٠

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٤٦ .

تكاليف الرسالة بعزم وصبر ، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا بأكملها وأعلاها بدون ترخيص أو تحايل ، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة وعزيمتهم ضعيفة ، ونفوسهم منحرفة ، كما اشتملت على التحذير الشديد لكل من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرمانه .

٣٥ - أهم الدروس والعظات التي نأخذ من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - :

تعد قصة موسى - عليه السلام - كما سبق أن أشرنا - على رأس القصص التي فصل القرآن الكريم الحديث عنها تفصيلا يفوق ما جاء عن كثير من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بدليل أن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، ومع قومه من بني إسرائيل قد تكررت في القرآن الكريم في أكثر من عشرين سورة ، تارة بصورة فيها إسهاب وتفصيل ، وتارة بصورة فيها اختصار وتركيز ولعل السر في ذلك أن هذه القصة قد اشتملت على كثير من الأحداث والوقائع والمجادلات والمحاورات والتحديات . . التي تزيد على غيرها .

ومن الدروس النافعة والعظات البليغة التي نتعلمها من هذه القصة :

أن الله - تعالى - إذا أراد أمرا هيا له أسبابه ، ويسر له وسائله ، وأن رعايته - سبحانه - إذا أحاطت بعباد من عباده ، صانته من كل أعدائه ، مهما بلغ مكر وبطش هؤلاء الأعداء .

والدليل على ذلك ، ما قصه الله - تعالى - علينا من حياة موسى - عليه السلام - فقد ولد في وقت كان فرعون فيه يذبح الذكور ويستبقى الإناث من بني إسرائيل الذين هم قوم موسى - عليه السلام - .

وقد ذكرنا قبل ذلك الآيات الكريمة التي فصلت قصة ولادة موسى - عليه السلام - كما جاءت في سورة «القصص» .

وفي سورة «طه» آيات أخرى تحدثت عن هذه الرعاية التي شمل الله - تعالى - بها نبيه موسى - عليه السلام - وتبدأ هذه الآيات بقوله - سبحانه - :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ مَتَّعْنَاكَ مَرَّةً  
أُخْرَى ﴿٦٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٦٨﴾ أَنْ اقْذِيبِي فِي التَّابُوتِ  
فَاقْذِيبِي فِي الْيَمِّ فَلْيُلْفِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَا خُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿١٦﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ  
فَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا  
وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ  
فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْسِي ﴿١٧﴾ وَأَصْرَطْنَاهُ لِنَفْسِهِ ﴿١٨﴾

أى : قال الله - تعالى - لموسى بعد أن ابتهل إليه - سبحانه - بما ابتهل : لقد أجبنا دعاءك يا موسى ، وأعطيناك ما سألتنا إياه ، فطب نفسا وقر عينا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ تذكير منه - سبحانه - لموسى ، بجانب من النعم التى أنعم بها عليه ، حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله - تعالى - ولذا صدرت الجملة بالقسم .

أى : وبعزتى وجلالى لقد مننا عليك ، وأحسننا إليك ﴿ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ قبل ذلك ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك .

ثم فصل - سبحانه - هذه المنن التى امتن بها على عبده موسى ، فذكر ثمانية منها : أما أول هذا المنن فتتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ .

والمعنى : ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى ، وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن ، يتعلق بنجاتك من بطش فرعون .

ثم وضح - سبحانه - ما أوحاه إلى أم موسى فقال : ﴿ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ .. ﴾ .

والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك يا موسى أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل : أن ضعى ابنك فى الصندوق ، ثم بعد ذلك أقدفيه بالصندوق فى البحر ، وبأمرنا وقدرتنا يلقى اليم بالتابوت على شاطئ البحر وساحله ، وفى هذه الحالة يأخذه عدولى وعدوله ، وهو فرعون الذى طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ بيان للمنة الثانية .

أى : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى - لامن غيرى - قد زرعتها فى القلوب ، فكل من رآك أحبك .

ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذها ولدا .

وكان من آثار هذه أن يعيش موسى فى صغره معززا مكرما فى بيت فرعون مع أنه فى المستقبل سيكون عدوا له .

وهكذا رعاية الله - تعالى - ومحبة لموسى جعلته يعيش بين قوى الشر والطغيان آمنا مطمئنا .

قال ابن عباس : أحب الله - تعالى - موسى ، وحببه إلى خلقه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ بيان للمنة الثالثة ..

أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عيني ، أى : ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتى وعنايتى وعينى ، كما يراعى الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره .

وهذا ما حدث لموسى فعلا ، فقد عاش فى طفولته تحت عين فرعون ، وهو عدو لله - تعالى - ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله - تعالى - كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته .

فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى - عليه السلام - ومن الرعاية له ، ما يعجز القلم عن وصفه .

وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله فى شأنه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ .

ثم بين - سبحانه - المنة الرابعة على موسى فقال : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ ۝ ٢٠ ۚ ﴾ .

وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطيء ، وبعد أن امتنع عن الرضاعة من أى امرأة سوى أمه .

أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتى عليك ، ورعايتى لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك ، سارت فى طرقات مصر فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة ، فقالت أختك لفرعون وامرأته ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ .

أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه ، والفاء فى قوله : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ هى الفصيحة ، أى : التى تفصح عن كلام مقدر .

والمعنى : بعد أن قالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على من يكفله ، أجاوبها بقولهم : دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعناك إليها كي تسر برجوعك ، ويمتلئ قلبها فرحا بلقائها بك بعد أن ألقتك فى اليم ، ولا تحزن بسبب فراقك عنها .

ثم حكى - سبحانه - المنة الخامسة فقال : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ وكان ذلك عندما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه .

أى : وقتلت نفسا هى نفس القبطى ، عندما استعان بك عليه الإسرائيلى فنجيناك من الغم الذى نزل بك بسبب هذا القتل .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ بيان للمنة السادسة التى امتن الله - تعالى - بها على موسى - عليه السلام - .

والفتون : جمع فتن كالظنون جمع ظن ، والفتن : الاختبار والابتلاء تقول : فتننت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته .

والمعنى : واختبرناك وابتليناك - يا موسى - بألوان من الفتن والحزن .

ونظم - سبحانه - هذا الفتن والاختبار فى سلك المنن ، باعتبار أن الله - تعالى - ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من شرورها .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثا طويلا سماه بحديث الفتون ذكر فيه قصة مولد موسى ، والقائه فى اليم ، وتربيته فى بيت فرعون وقتله للقبطى وهروبه إلى مدين ، وعودته منها إلى مصر ، وتكليف الله - تعالى - له بالذهاب إلى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده . . . . الخ (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ أى : فلبثت عشر سنين فى قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح ، ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذى ناديتك فيه ﴿ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أى على وفق الوقت الذى قدرناه لمجيئك ، وحددناه لتكليمك واستنبائك ، دون أن تتقدم أو تتأخر لأن كل شىء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه .

ثم حكى - سبحانه - المنة الثامنة : فقال : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أى : وجعلتك محل صنيعتى وإحسانى ، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتى وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٥ ص ٢٧٩ وما بعدها .

فلاية الكريمة تكريم عظيم لموسى - عليه السلام - اختاره الله - تعالى - واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل .

هذه ثماني من ساقها الله - تعالى - هنا مجملة وقد ساقها - سبحانه - في سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

وبما سبق يتبين لنا بوضوح أن رعاية الله - تعالى فوق كل رعاية ، وأنه - سبحانه - إذا أراد أمرا قضاه ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لأمره .

(ب) كذلك من الدروس التي نتعلمها من قصة موسى - عليه السلام - أن الأختيار من الناس ، هم الذين في شتى مراحل حياتهم يقفون إلى جانب المظلوم بالتأييد والعون ، ويقفون في وجه الظالم حتى ينتهي عن ظلمه لغيره ، وينهضون لمساعدة كل محتاج إلى المساعدة والمعاونة ، لأن مروءتهم ، وعلو هممتهم تأبى عليهم السلبية والقعود عن فعل الخير . وهم الذين يقفون إلى جانب الحق والعدل ومكارم الأخلاق في كل المواطن وأمام جميع الأحداث .

وهذا ما نراه واضحا في حياة سيدنا موسى - عليه السلام - حتى قبل نبوته ، فهو قبل النبوة نراه يلبي استغاثة المظلوم من قومه ، كما نراه يسقى للمرأتين الضعيفتين دوابهما ، رحمة بهما ، وعونا لهما ، لأن مروءته وهمته العالية تأبى عليه أن يترك امرأتين هما في حاجة إلى مساعدته ثم لا يساعدهما .

أما بعد النبوة ، فنرى أن جميع مواقفه كانت تمتاز بالشجاعة في الدفاع عن الحق ، وباللحجة الدامغة التي تزهق باطل خصومه .

ولقد مدح الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - مدحا عظيما ، لأنهما أديا ما كلفهما خالقهما به على أحسن وجه وأتمه ، ومن ذلك قوله - سبحانه - في سورة «مریم» :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس خبر أخيك موسى - عليه السلام - إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان - أيضا - ﴿ رَسُولًا ﴾ من جهتنا لتبليغ ما أمرناه بتبليغه ،

وكان كذلك ﴿ نَبِيًّا ﴾ رفيع القدر ، عالي المكانة والمنزلة ، فقد جمع الله - تعالى - له بين هاتين الصفتين الساميتين صفة الرسالة وصفة النبوة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ بيان لفضائل أخرى منحها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - أى : وناديناه موسى - عليه السلام - من الناحية التى عن يمينه وهو فى ذلك المكان المبارك .

وقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ أى : وقربناه تقرب تشريف وتكريم حالة مناجاته لنا ، حيث أسمعناه كلامنا ، واصطفيناه لحمل رسالتنا إلى الناس .

فقوله : ﴿ نَجِيًّا ﴾ من المناجاة وهى المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول وقربناه ، أى : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر فضل الله - تعالى - على عبده موسى .

أى : ووهبنا لموسى من أجل رحمتنا له ، وعطفنا عليه ، أخاه هارون ليكون عوناً له فى أداء رسالته كما قال - تعالى - حكاية عنه ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ .

وأيضاً من الآيات القرآنية التى مدح الله - تعالى - فيها هذين النبيين الكريمين ، قوله - تعالى - فى سورة الصافات :

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٥﴾

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبَىٰ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا لَهُمْ

الْعَٰلِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُنِيرَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

والمعنى : لقد أنعمنا على موسى - وهارون - عليهما السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم الأخرى .

والتى من بينها أننا نجيناها وقومها المؤمنين ، من استعباد فرعون إياهم ، ومن ظلمه لهم .

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أى : ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما ، فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناهم إياه ، هم الغالبون لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم .

﴿ وَأَتَيْنَاهُمَا ﴾ بعد كل ذلك ﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ أى : الكتاب المبين الواضح وهو التوراة .

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى : وهديناهما وأرشدناهما - بفضلنا وإحساننا - إلى الطريق الواضح الذى لا عوج فيه .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أى : وأبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : مثل هذا التكريم مجازى عبادنا المحسنين ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى الذين صدقوا فى إيمانهم ، وفى طاعتهم لنا .

(ج) كذلك من الدروس الحكيمة ، والعظات البليغة ، التى يجب علينا أن نتعلمها من قصة موسى - عليه السلام - : أن الحق لن يعدم له أنصارا حتى ولو كثر عدد المبطلين .

وهذه السنة الإلهية فى البشر ، نراها واضحة فى قصة موسى - عليه السلام - فخلال الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى - عليه السلام - قبض الله - تعالى - لموسى رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يخفى إيمانه ، هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعا حكيما مؤثرا ، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ  
إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ  
رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ  
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ  
الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢١﴾  
 وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَئِذٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ ﴿٢٢﴾  
 مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرِيدُ ظَلَمًا  
 لِلْعِبَادِ ﴿٢٣﴾ وَيَقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مِنْ دُبُرِهِمْ  
 مَا كُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ  
 يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ  
 قَلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ  
 مُرْتَابٌ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرُوا  
 مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْعَمُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ  
 مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٧﴾

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى  
 لا يصيبه أذى منهم ، فعندما سمع فرعون يقول : ﴿ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ قال لهم :  
 ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى : أتقتلون رجلا  
 لأنه يقول ربى الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات الواضحة من عند  
 ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .

فقلوه : ﴿ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ فى موضع المفعول لأجله ، أى : أتقتلونه من أجل قوله  
 هذا ، وجملة ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ حالية من فاعل يقول وهو موسى - عليه  
 السلام . -

والمقصود بهذا الاستفهام : الإنكار عليهم والتبكيث لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل  
 ذنبه أنه عبد الله - تعالى - وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة  
 فعله وقوله .

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدهم

موسى بالقتل بل أخذ في محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال :

﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ... ﴾ .

أى : أنه قال لهم : إن كان موسى - على سبيل الفرض - كاذبا فيما يقوله ويفعله فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شيء ، وإن كان صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عنده .

فأنت ترى أن الرجل كان فى نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، فى مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج عن فرضين ، وكلاهما لا يوجب قصد موسى - عليه السلام - بالقتل .

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التى لا تتغير فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

أى : أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أنه - سبحانه - لا يهدى إلى الحق والصواب ، من كان مسرفا فى أموره ، متجاوزا الحدود التى شرعها الله - تعالى - ومن كان كاذبا فى أخباره عن الله - تعالى - ولو كان موسى مسرفا أو كاذبا ، لما أیده الله - تعالى - بالمعجزات الباهرة ، وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه .

فالجملة الكريمة إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما يبلغه عن ربه وتعرض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .

ثم أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفى تحذيرهم من نقمه فقال : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ .

أى : وقال الرجل المؤمن لقومه - أيضا - : يا قوم ، أى : يا أهلى ويا عشيرتى أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين فى أرض مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى .

وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .

وإنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم فى موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيدانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا يهمه سوى منفعتهم ومصالحتهم .

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ،

أخذته العزة بالإثم ، وقال مايقوله كل طاغية معجب بنفسه : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

أى : قال فرعون لقومه ، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن : يا قوم لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيرا ، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهدىكم برأى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد .

وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتمويه على قومه ، وأنه ما يريد إلا منفعتهم مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا ، هو التخلص من موسى حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جهلة قومه ، فإنهم كانوا كما قال - تعالى - فى شأنهم : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذى نطق به فرعون ، بل استرسل فى نصحه لقومه ، وحكى القرآن عنه ذلك فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ .. ﴾ .

أى قال لهم : يا قوم إنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام - بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها ، وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسرا .

فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء ، وكان تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر .

والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه ، فالكلام على حذف مضاف .

أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب .

وقوله : ﴿ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ .. ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله : ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ .

والدأب : العادة الدائمة المستمرة يقال : دأب فلان على كذا ، إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة .

أى : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم كقوم لوط ، فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله - تعالى - ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ

ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿١٠٠﴾ أى : فما أنزله - سبحانه - بهم من عذاب إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم ، وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ .

أخاف عليكم يوم القيامة الذى يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار ، ونداء أهل النار لأهل الجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاوة .

لفظ «التناد» - بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم إذا نادى بعضهم بعضاً .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ .. ﴾ بدل من يوم التناد ، أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء فتتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون ، لأنه لا عاصم لكم ولا مانع فى هذا اليوم من عذاب الله - تعالى - وعقابه .

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق بسبب سوء استعداده ، واستحبابه العمى على الهدى ، فماله من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم .

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد أن خوف قومه من العذاب الدنيوى ، أتبع ذلك بتخريفهم من العذاب الأخرى .

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ .

والذى عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - والمراد بمجيئه إليهم : مجيؤه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى - عليهما السلام - أكثر من أربعة قرون ، فالتعبير فى الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم فى الإعراض عن الحق .

أى : ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل مجيء موسى إليكم ،

وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات والبيّنات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه .

﴿ فَمَا زُتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أى : فما زال آباؤكم فى شك مما جاءهم به من البيّنات والهدى ، كشأنكم أتمم مع نبيكم موسى - عليه السلام - .

﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ أى : مات يوسف - عليه السلام - .

﴿ قُلْتُمْ ﴾ أى : قال آباؤكم الذين أتمم من نسلهم ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾

فهم قد كذبوا رسالته فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده .

فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، فى تكذيب رسل الله ، وفى الإعراض عن دعوتهم .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ أى : مثل ذلك الإضلال الفظيع

يضل الله - تعالى - من هو مسرف فى ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب فى دينه ، شك فى صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون فى آيته الدالة على وحدانيته ، وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال :

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾

أى : الذين يجادلون فى آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل وبرهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا ﴾ أى : مثل ذلك الطبع العجيب

يطبع الله - تعالى - ويختتم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متناول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء .

ومع هذا النصح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات السليمة ، والإشادات القوية من الرجل المؤمن لقومه ، ظل فرعون سادرا فى غيه ، مصرا على كفره وضلاله ، إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر ، ويحكى القرآن الكريم كل ذلك فيقول :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَٰمُنُ ابْنُ لِي صِرْحًا عَلَيَّ أَبْلُغْ  
 الْأَسْبَبَ ﴿٦٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ  
 كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا  
 كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي نَبَابٍ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَوْمَ اتَّبَعُونَ أَهْدَكُمُ  
 سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٨﴾ يَتَقَوْمِ لِي مَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ  
 هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٦٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزَبْ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
 مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ هُزْزِقُونَ فِيهَا  
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٠﴾ وَيَتَقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٧١﴾  
 تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَآ لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ  
 إِلَى الْعِرْزِ الْغَضَرِ ﴿٧٢﴾ لَاجِرَمَ إِنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا  
 وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧٣﴾  
 فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧٤﴾  
 فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّامَكُرُوا وَحَاقَ بِئَالَ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٧٥﴾  
 النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا  
 ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٧٦﴾

والمراد بالصرح فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنُ لِي صِرْحًا ﴾ البناء  
 العالى المكشوف للناس ، الذى يرى الناظر من فوقه ما يريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح  
 بمعنى الكشف والإيضاح .

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشيء ، والمراد بها هنا : أبواب السماء وطرقها التي يصل منها إلى مابداخلها .

أى : وقال فرعون لوزيره هامان : يا هامان ابن لى بناء ظاهرا عاليا مكشوبا لا يخفى على الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعلنى عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر إلى إله موسى .

المراد بالظن فى قوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ اليقين لقوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١)

فقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ قرينة قوية على أن المراد بالظن فى الآيتين : اليقين والجزم ، بسبب غروره وطغيانه .

أى : وإنى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا فى دعواه أن هناك إلهها غيرى لكم وفى دعواه أنه رسول إيلنا .

ولاشك أن قول فرعون هذا بجانب دلالته على أنه بلغ الغاية فى الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول ، يدل - أيضا - على شدة خداعه ، إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس .

قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذى لم يرد فى الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله ، من أن هناك إلهها غير فرعون . (٢)

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وقول فرعون هذا المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا لبقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله ، وأنه ليس فى جهة ، ولكنه أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحلها إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فيبقى أن يكون فى السماء ، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلم . (٣)

(١) سورة القصص آية ٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٤٨ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ج٤ ص ١٦ .

ثم بين - سبحانه - أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنُ  
لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدُّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ .

أى : ومثل ذلك التزيين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره  
وطغيانه ، وحُجِبَ عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحَب العمى على الهدى ، وما كيد  
فرعون ومكره وتلييسه واحتياله فى إبطال الحق ، إلا فى هلاك وخسران وانقطاع .

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه ، بعد أن  
استمع إلى ما قاله فرعون من باطل ، وغرور فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ .. ﴾  
أى : فيما أنصحتكم به ، وأرشدكم إليه

﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أى : اتبعونى فيما نصحتكم به ، فإن فى اتباعكم لى  
هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعادة وسداد ، أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم  
إلى طريق الغى والضلال .

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ .. ﴾ أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه ،  
﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ ﴾ وحدها ﴿ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام  
والخلود .

﴿ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئَةٍ ﴾ فى هذه الدنيا ﴿ فَلَا يُجْزَى ﴾ فى الآخرة ﴿ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ كرما من  
الله - تعالى - وعدلا .

﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله - تعالى - إيماننا حقا .  
﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ المؤمنون الصادقون ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى :  
يرزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم قدره إلا الله - تعالى - ولا يحاسبهم عليه محاسب ،  
فقد تفضل - سبحانه - على عباده ، أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات .

ثم استنكر موقف قومه منه فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ من العذاب  
الدينوى والأخروى ، بأن أمركم بالإيمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول  
ربى الله ، وقد جاءكم البيئات من ربكم ، وهو موسى - عليه السلام - .

وأنتم ﴿ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ أى : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله -  
تعالى - والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم .

وقوله: ﴿ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ ﴾ بدل من قوله :  
﴿ تَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ وتفسير وبيان له .

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوننى إلى الإشراك بالله - تعالى - وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لاشريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته .

وقوله : ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له .

فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، الغالب لكل ما سواه الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه .

ثم يؤكد لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أن ما يطلبونه منه هو الباطل وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول :

﴿ لَا جَرَمَ لَهَا وَأَمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ۖ ﴾

أى : حق وثبت لدى بما لا يقبل الشك ، أن آلهتكم التى تدعوننى لعبادتها آلهة باطلة ، لا وزن لها ولا قيمة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا ﴾ جميعا ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ - تعالى - وحده ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى : المستكثرين من المعاصى فى الدنيا ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ فى الآخرة .

ثم نصح نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : فستذكرون يا قوم ما أقول لكم من حق وصدق .

﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ - تعالى - وحده لكى يعصمنى من كل سوء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ - تعالى - ﴿ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا ۗ ﴾ بيان للعاقبة الطيبة التى أكرمه الله - سبحانه - بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده .

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصحه لقومه ، أن وقاه الله - تعالى - ما أراداه الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سبىء . .

﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ بأن أغرقهم الله - تعالى - فى اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

والغدو : أول النهار ، والعشى : آخره ، وجملة : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ بدل من قوله - تعالى - ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ بعرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم ، وهم فى قبورهم فى الصباح والمساء ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ يقال لملائكة العذاب : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم .

قال القرطبي : والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت عذاب القبر بقوله - تعالى - : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ مادامت الدنيا ..

قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ألا تراه يقول - سبحانه - عن عذاب الآخرة : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

وفى الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار ، تعرض على النار بالغداة والعشى ، فيقال : هذه داركم .<sup>(١)</sup>

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل فرعون ، أسمى الأساليب وأحكمها فى الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهى قومه عن قتل موسى - عليه السلام - ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن ما يدعوهم إليه هو الحق ، وبأن ما يدعونه إليه هو الباطل .

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : ﴿ فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فكانت نتيجة هذا التفويض ، أن وقاه الله - تعالى - من سوء مكر أعدائه ، ونجاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيىء يحيق بهم .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣١٨ .

( د ) كذلك من الدروس النافعة التي نأخذها من قصة موسى - عليه السلام : أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، ضحى الإنسان فى سبيله بكل شىء ، ولقد ضرب سحرة فرعون أروع الأمثال فى صدق الإيمان ، وفى سلامة اليقين ، فإنهم بعد أن اعتقدوا أن ما جاء به موسى - عليه السلام - أمامهم ليس سحرا ، وإنما هو معجزة أعطها الله - تعالى - إياهم ، ورأوا بأعينهم عصاه وهى تتبلع ما يأفكون .

بعد أن شاهدوا كل ذلك ، ما كان منهم إلا أن جاهدوا بإيمانهم برب هارون وموسى ، وإلا أن خروا ساجدين لخالقهم - عز وجل - ولم يلتفتوا إلى تهديد فرعون أو وعيده ، بل قالوا له بكل شجاعة وإخلاص : ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴾ .

( هـ ) ومن الدروس الحكيمة التى نتعلمها من قصة موسى - عليه السلام - : أن العقلاء الأخيار من الناس ، قد يختلفون فى موقفهم من الأحداث التى تواجههم ، وقد يتصرف كل واحد منهم التصرف الذى يراه متناسبا مع هذه الأحداث حسب اجتهاده ، الذى قد يخالف اجتهاد غيره ، ولكن هذا الغير سرعان ما يعود إلى رأى صاحبه متى اقتنع به .

وهذا ما نراه واضحا فى موقف موسى من أخيه هارون - عليه السلام - . فإن موسى عندما بلغه أن قومه من بنى إسرائيل قد عبدوا العجل فى غيبته ، رجع إليهم غضبان أسفا ، وقال لأخيه هارون بغضب : ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ۖ ﴾ .

أى : ما الذى منعك يا هارون من صد هؤلاء الجهلاء عما تردوا فيه من كفروا إشراك بالله - تعالى - وكيف خالفت أمرى فى ذلك؟

وهنا يرد عليه أخوه هارون بكل أناة وحلم فيقول له يا أخى يا موسى : ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ .

وهنا يقتنع موسى - عليه السلام - بأن أخاه على حق ، فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۖ ﴾ .

وهكذا العقلاء الأخيار ، يقتنعون بوجهة نظر من يخالفهم ، عندما يرون أن هذه المخالفة كان لها ما يبررها .

( و ) كذلك من أهم الدروس التى نأخذها من قصة موسى - عليه السلام - : أن سنة

الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل نصره وثوابه في النهاية للأخيار وأن يجعل خذلانه وعقابه للأشرار .

لقد سلك موسى - عليه السلام - في دعوته فرعون إلى وحدانية الله - تعالى أحكم الوسائل ، وأبلغ الأساليب ، ولكن فرعون طغى وبغى وأصر على كفره وظلمه فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن نجى الله - تعالى - موسى ومن معه من المؤمنين وأن أغرق فرعون وجنده الجاحدين .

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة في آيات متعددة ، منها قوله - سبحانه - في سورة «هود» :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٦٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ  
الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٦٨﴾ وَاتَّبِعُوا هٰذِهِ  
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿١٦٩﴾

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبرائهم .

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فسادهم والضمير في قوله ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ يعود إلى الملأ .

أى : فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر ، وفي كل ما أشار به من فساد .

وفي هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزمخشري - تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

وقال - سبحانه - : ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمه الذي صرح به في قوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ .

أى : وما شأن فرعون وأمره بذى رشد وهدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : ﴿ يَاقَوْمِ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴾ .

أى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم فى الكفر فى الدنيا ، فأوردهم النار ، أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (١)

وقوله وبئس الورد المورود ، أى : وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - الذى هو النصب المقدر للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمئه ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .  
ثم صرح - سبحانه - بلعنهم فى الدارين فقال :

﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ . . ﴾

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعتهم فى الدنيا وفى الآخرة ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وَأَتَّبِعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٢) وجملة : ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ .

أى : وبئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لا يستهم فى الدنيا والآخرة ، وسميت اللعنة رفا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع ، فكأنه - سبحانه - يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكير أو تدبر .  
ومنها قوله - تعالى - فى سورة «النازعات» :

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿١٩﴾ فآرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَا ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

(١) سورة غافر الآية ٤٥ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٢ .

## الْأَعْلَى ﴿٢٦﴾ فَأَحْذَرُ اللَّهَ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٨﴾

والمعنى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون؟ إن كان لم يصل إليك فهناك جانباً من خبره نقصه عليك ، فتنبه له ، لتزداد ثباتاً على ثباتك ، وثقة في نصر الله - تعالى - لك على ثقتك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أى : هل بلغك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى ، وقت أن نادينه وهو بالوادي المقدس طوى ، الذى هو بجانب الطور الأيمن ، بالنسبة للقدام من أرض مدين التى هى فى شمال الحجاز .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ .. ﴾ مقول لقول محذوف ، أى : نادينه وقلنا له : ﴿ اذْهَبْ ﴾ يا موسى إلى فرعون إنه طغى ، أى : إنه تجاوز كل حد فى الكفر والغرور والعصيان .

ثم بين - سبحانه - ما قاله لموسى على سبيل الإرشاد إلى أحكم وأفضل وسائل الدعوة إلى الحق فقال : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ .

أى : اذهب يا موسى إلى فرعون فقل له على سبيل النصيح الحكيم ، والإرشاد البليغ : هل لك يا فرعون رغبة فى أن أدلك على مايزكيك ويطهرك من الرجس والفسوق والعصيان .

وهل لك رغبة - أيضاً - فى أن أرشدك إلى الطريق الذى يوصلك إلى رضى ربك فيترتب على وصولك إلى الطريق السوى ، الخشية منه - تعالى - والمعرفة التامة بجلاله وسلطانه .

والحق أن هاتين الآيتين فيهما أسمى ألوان الإرشاد إلى الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ . فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ للإفصاح والتفريع على كلام محذوف يفهم من المقام ، والتقدير : فامتثل موسى - عليه السلام - أمره ، فذهب إلى فرعون ، فدعاه إلى الحق ، فكذبه فرعون ، فما كان من موسى إلا أن أراه الآية الكبرى التى تدل على صدقه ، وهى أن ألقى أمامه عصاه فإذا هى حية تسعى ، وأن نزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء ، ولكن فرعون لم يستجب لدعوة موسى ، بعد

أن أراه الآية الكبرى الدالة على صدقه ، بل كذب ما رآه تكذيبا شديدا ، وعصى أمر ربه عصيانا كبيرا .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ أى : ثم أضاف إلى تكذيبه وعصيانه ، إعراضه ، وتوليه عن الإيمان والطاعة ، وسعيه سعيا حثيثا فى إبطال أمر موسى ، وإصراره على تكذيب معجزته .

ثم بين - سبحانه - ما فعله بعد ذلك فقال : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ .  
أى : فجمع فرعون الناس عن طريق جنده ، وناداهم بأعلى صوته ، قائلا لهم : أنا ربكم الأعلى الذى لارب أعلى منه ، وليس الأمر كما يقول موسى من أن لكم إلها سواى .  
والتعبير بالفاء ﴿ فَنَادَى ﴾ فى قوله : للإشعار بأنه بمجرد أن جمعهم دعاهم إلى الاعتراف بأنه هو رب الأرباب .

وجاء نداؤه بالصيغة الدالة على الحصر ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ للرد على ما قاله موسى له ، من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الفجور الذى تلبس به فرعون ، وعلى هذا الطغيان الذى تجاوز معه كل حد ، فقال : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ .

أى : إن فرعون عندما تمادى فى تكذيبه وعصيانه وطغيانه ، كانت نتيجة ذلك أن أخذه الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بأن أنزل به فى الآخرة أشد أنواع الإحراق ، وأنزل به فى الدنيا أفظع ألوان الإغراق .

وقدم - سبحانه - عذاب الآخرة على الأولى لأنه أشد وأبقى .

والإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ تعود إلى حديث موسى الذى دار بينه وبين فرعون ، وما ترتب عليه من نجاة موسى ومن إهلاك لفرعون .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عما دار بين موسى وفرعون ، لعبرة وعظة ، لمن يخشى الله - تعالى - ويقف عند حدوده ، لا لغيره ممن لا يتوبون ولا يتذكرون ولا تحالط أنفسهم خشية الله - تعالى - .

وبعد : فهذا جانب من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - كما وردت فى القرآن الكريم ، وهذه بعض الدروس النافعة والعظات البليغة ، التى نأخذها من هذه القصة التى فصل القرآن الكريم الحديث عنها تفصيلا فيه العبرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .



طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

# القِصَّة فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الجزء الثاني

الإمام الأكبر  
الدكتور / محمد سيد طنطاوي  
شيخ الأزهر



اسم الكتاب: القصة فى القرآن الجزء الثانى  
اسم المؤلف: د. محمد سيد طنطاوى  
تاريخ النشر: طبعة أولى يناير ١٩٩٧.

رقم الإيداع: ١١٧.٩ / ١٩٩٦

الترقيم الدولى: 1 - 0507 - 14 - N 977 - I. S. B.

النشــــار: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة

مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٢٢٠٢٨٧ - ٢٢٠٢٨٩ / ١١/٣٣

فاكس: ٢٢٠٢٩٦ / ١١/٣٣

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٢/٥٩

فاكس: ٢٢٠٣٣٩٥ / ٢/٥٩

ص.ب: ٩٦ الفجالة

ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٢/٣٤٧٢٨٦٤

فاكس: ٢٢٠٣٤٦٢٥٧٦ / ٢/٣٤٦٢٥٧٦

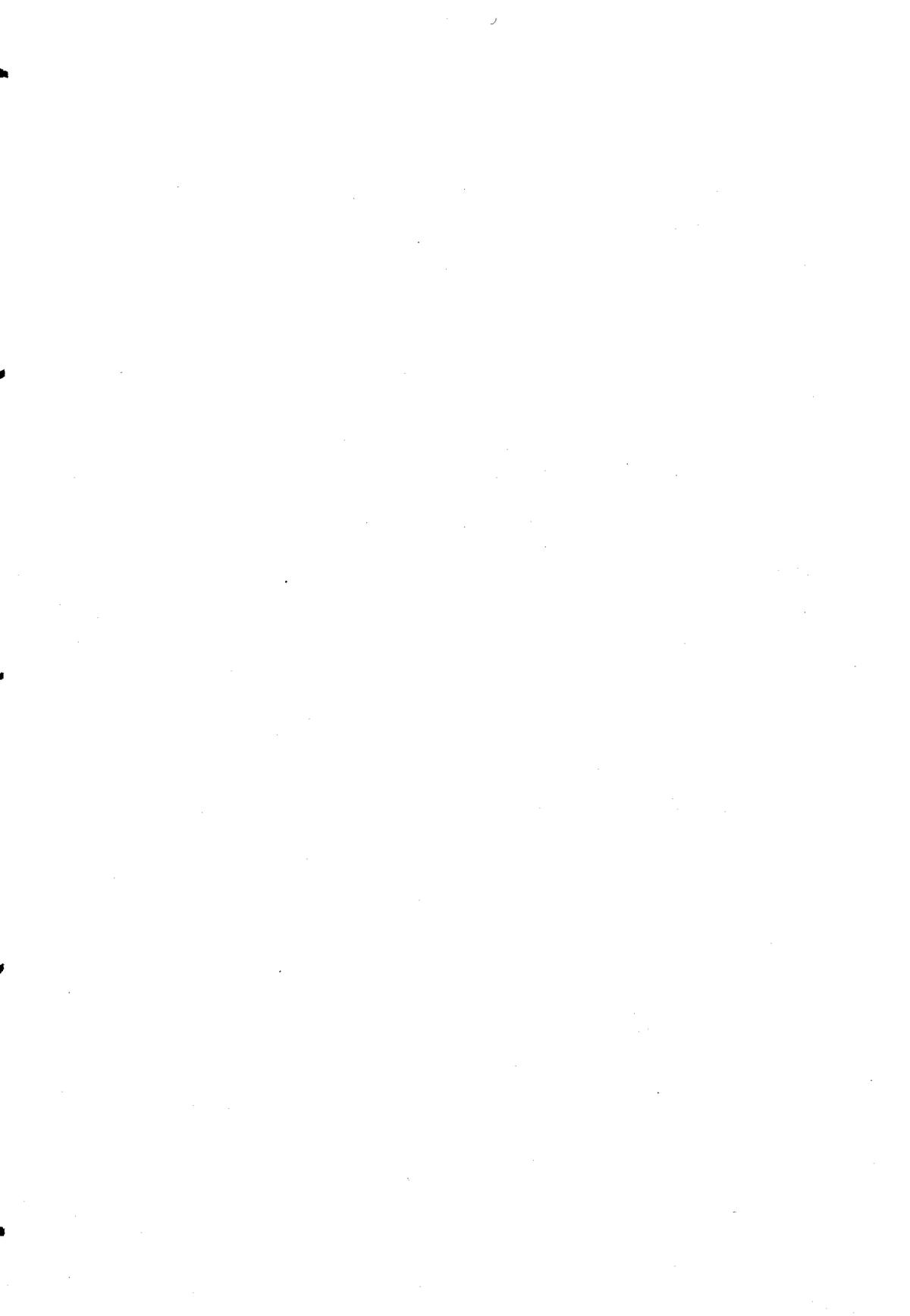
ص.ب: ٢٠ أمبابة

## مقدمة الجزء الثانى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .  
وبعد . . فقد تحدثنا فى الجزء الأول من كتاب «القصة فى القرآن الكريم» عن  
قصة آدم وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب  
ويوسف وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام .  
وهانحن نتحدث عن قصص بقية الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومنهم  
شعيب وداود وسليمان وزكريا ويحيى وأيوب ويونس ، وإلياس واليسع وذو الكفل  
وعيسى . . ثم عن حديث القرآن عن خير الأنام محمد ﷺ .  
كما تحدثنا خلال ذلك عن قصص أصحاب الكهف ، وصاحب الجنتين ، وذى  
القرنين وأصحاب القرية ، وأصحاب الجنة ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل  
وغيرهم ممن جاء الحديث عنهم فى القرآن الكريم .  
ونسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وصلى الله  
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

شيخ الأزهر

محمد سيد طنطاوى



## قصة شعيب - عليه السلام -

١ - وردت قصة شعيب - عليه السلام - في سور متعددة ، منها قوله - تعالى - في سورة «الأعراف» :

وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ  
 شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ  
 مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا  
 تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾  
 وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن  
 ءَامَنَ بِهِ وَبَعُونَهَا عَوَجًا وَذَكَرُوهَا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا وَكَثُرْتُمْ وَأَنْظُرُوا  
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا  
 بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ مَّرُؤُونَ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا  
 وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

٢ - وقوله : ﴿ وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾  
 أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا ، ومدين اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين ابن  
 إبراهيم - عليه السلام - وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى «معان» بين حدود الحجاز  
 والشام ، وهم أصحاب الأيكة - والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية  
 «معان» وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم فى النسب ، وكان  
 النبى ﷺ إذا ذكر شعيب قال : « ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، وقوة  
 حجته » .

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان فدعاهم إلى توحيد الله - تعالى - ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

وعن السدى وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : إلى أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ، وإلى أصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأنه لم يبعث نبى مرتين إلا شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة فأهل مدين هم أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أى السحابة - وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

وبعد أن دعاهم إلى وحدانية الله شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم قال لهم : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى : قد جاءكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى توجب عليكم الإيمان بى والأخذ بما أمركم به والانتهاه عما أنهاكم عنه .

ثم أخذ فى نهيمهم عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم فقال - كما حكى القران عنه - :

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى : فأتوا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .  
﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات .

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء ، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده .  
ثم نهاهم عن الإفساد بوجه عام فقال : ﴿ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ أى : لا تفسدوا فى الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغى ، وكفر وعصيان ، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون الذين يعدلون فى معاملاتهم ويلتزمون الحق فى كل تصرفاتهم .

ثم ختمت الآية بتلك الجملة الكريمة التى استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان فى نفوس قومه حيث قال لهم : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : ذلكم الذى أمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى ، ومنفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم .

فاسم ﴿ ذَلِكَ ﴾ الإشارة يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض .

ثم انتقل شعيب إلى نهيهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ توعدون: من التواعد بمعنى التخويف والتهديد، أى: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل، وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون بى وأنا نبيكم التهم التى أنا برىء منها، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتى: إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم. وقوله: ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِهِ وَتَبَغُّونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به، وتطلبون لطريقه العوج بالقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد ما يكون عن شائبة الاعوجاج.

ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال: ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ ﴾ أى: اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد، وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة.

ثم أتبع هذا التذكير بالنعم بالتخويف من عواقب الإفساد فقال: ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى: وانظروا نظر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية والقرون الماضية، كقوم لوط وقوم صالح، فسترون أنهم قد دمروا تدميرا بسبب إفسادهم فى الأرض، وتكذيبهم لرسولهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار.

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر، وأن يتركوا أتباعه أحرارا فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين، فقال: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

أى: إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل أصر على شركه وعناده، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل، الذى يتجلى فى نصرة المؤمنين، وإهلاك الظالمين - سبحانه - خير الحاكمين.

والى هنا تكون السورة الكريمة قد حكمت لنا جانبا من الحجج الناصعة، والنصائح الحكيمة، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب - خطيب الأنبياء - إلى قومه.

ارجع البصر - أيها القارئ الكريم - فى هذه النصائح ترى شعيبا - عليه السلام - يأمر

قومه بوحداية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التي كانت متفشية فيهم ، فيأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان ، وينهاهم عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد في الأرض ، وعن القعود في الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم ، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق ، بإلقاء الشبهات ، وإشاعة الأباطيل ، مستعملا في وعظه التذكير بنعم الله تارة ، وبنقمه على المكذبين تارة أخرى .

٣ - ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلا حسنا ، وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وطمعوا عن الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول :

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ  
يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ  
كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٤٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عِدْنَا فِي مَلِكٍ كُمْ بَعْدَ  
إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ  
رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ  
وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ اتَّعَمَّ  
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا خَسِرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ  
جِثِيمٍ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مَرْغُوبًا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا  
شُعَيْبًا كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٢﴾ فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ  
رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٥٣﴾

أى : قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له ردا على مواعظه لهم : والله لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم ، ودفعنا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا ، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ، ومن المستحيل علينا تركها ، فعليك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا .

هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب .  
وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للمبالغة فى إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ ما يريدونه منه ومن أتباعه .

ونسبوا الإخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا ، للتنبيه على أصالته فى ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ما أخرج هو كان إخراج غيره أسهل .  
وجملة : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾ وهى - أى جملة ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ المقصود الأعظم - فهؤلاء المستكبرون يهتمهم فى المقام الأول أن يعود من فارق ملتهم وديانتهم إليها ثانية .

والتعبير بقولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب - عليه السلام - فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر فضلا عن الشرك .

وقد أجيّب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ما قالوا من باب التغليب ، لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيبا ، قالوا لهم : إما أن تخرجوا مع نبيكم الذى اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى ملتنا التى سبق أن كنتم فيها ، فأدرجوا شعيبا معهم فى الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا ، هذا هو الجواب الذى ارتضاه كثير من العلماء وهناك أجوبة أخرى ذكرها المفسرون ومنها :

١ - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان فى ملتهم ، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم .  
٢ - أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسا على الناس وإيهاما لهم بأنه كان على دينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على طريق المشاكلة .

٣ - أن قولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بمعنى : أو لتصيرن ، إذ كثيرا ما يرد «عاد» بمعنى «صار» فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة .

هذه بعض الأجوبة التى أجاب بها العلماء على قول قوم شعيب ولعل أرجحها هو الرأى الأول «لبعده عن التكلفة ، واتساقه مع رد شعيب عليهم» ، فقد قال لهم :

﴿ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أى : أتجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها ، لاعتقادنا بأنها باطلة وقيحة ومنافية للعقول السليمة والأخلاق المستقيمة ، لا ، لن نعود إليها بأى حال من الأحوال ، فالهمزة لإنكار الوقوع ونفيه ، والتعجب من أحوالهم الغربية حيث جهلوا أن الدخول فى العقائد اختيارى محض ولا ينفع فيه الإجمار أو الإكراه .  
ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم فقال :

﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ .

أى : قد اختلقنا على الله - تعالى - أشنع أنواع الكذب إن عدنا في ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهدایتنا إلى الدين الحق وتنزيهنا عن الإشراك به - سبحانه - .

ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أى ما يصح لنا ولايتأتى منا أن نعود فى ملتكم الباطلة فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مشيئة الله - المتصرف فى جميع الشئون - عودتنا إليها ، فهو وحده القادر على ذلك ولا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن ، لأننا موقنون بأن ملتكم باطلة وملتنا هى الحق والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره وإنما ذلك بيد مقلب القلوب ، الذى وسع علمه كل شىء .

وهذا اللون من الأدب العالى ، حكاه القرآن عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم ، فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبدا ، مع ذلك هو يفوض الأمر إلى الله تأدبا معه ، فلا يجزم بمشيئته هو ، بل يترك الأمر لله ، فقد يكون فى علمه - سبحانه - ما يخفى على البشر ، بما تقتضيه حكمته وإرادته .

ثم يترك شعيب - عليه السلام - قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

أى : على الله وحده وكلنا أمرنا ، فهو الذى يكفيننا أمر تهديدكم ووعيدكم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ربنا احكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين ، لخلو حكمك عن الجور والحيف .

فقوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ إظهار للعجز من جانب شعيب ، وأنه فى مواجهته لأولئك المستكبرين لا يعتمد إلا على الله وحده ، ولا يأوى إلا إلى ركنه المكين ، وحصنه الحصين ، والجملة الكريمة تفيد الحصر لتقديم المعمول فيها .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾ إعراض عن مجادلتهم ومفاوضتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفهم وإقبال على الله - تعالى - بالتضرع والدعاء .

والفتح : أصله إزالة الإغلاق عن الشىء ، واستعمل فى الحكم ، لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر ، ومنه قيل للحاكم : فاتح وفتاح لفتحته أغلاق الحق ، وقيل للحكومة : الفتاحة - بضم الفاء وكسرهما .

أخرج البيهقي عن ابن عباس قال : ما كنت أدرى قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ ﴾ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينها وبينه كلام : تعال أفتحك ، تريد أقاضيك وأحاكمك .

وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بهذا القيد إظهار للنصفة والعدالة .

والخلاصة أنك إذا تأملت في رد شعيب - عليه السلام - على ما قاله المستكبرون من قومه ، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، فهو يرد على وعيدهم وتهديدهم بالرفض التام لما ييغون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم يكل الأمور كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إليه - سبحانه - بالدعاء متمسكا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى التنازع بين المسلمين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين .

وهنا نلمح أن الملا من قوم شعيب قد يئسوا من استمالة شعيب وأتباعه إلى ملتهم ، فأخذوا يحذرون الناس من السير فى طريقه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنَّ أَبَعْتُمْ شَعِيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

أى : قال الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم : ﴿ لَنَّ أَبَعْتُمْ شَعِيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم ، وخاسرون لثروتكم ولربحكم المادى ، لأن اتباعكم له سيحول بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم .

وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب ، وتثبيطهم عن الإيمان به ، وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة ، وتقاليدهم البالية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، فهم لم يكتفوا بضلالتهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم .

وبعد هذه المحاولات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه ، جاءت الخاتمة التى حكاها القرآن فى قوله : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ ﴾ أى : فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا فى دارهم هامدين صرعى لاحراك بهم .

ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم : إن من يتبع شعيبا خاسر ، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا ، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خلفوه وكذبوه ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أى : الذين كذبوا شعيبا وتناولوا عليه وهددوه وأتباعه بالإخراج من قريتهم ، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا فى ديارهم ناعمى البال ، يظلمهم العيش الرغيد والغنى الظاهر .

يقال : غنى بالمكان يغنى ، أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

والجملة الكريمة استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ فكان سائلا قال : فكيف كان مصيرهم؟ فكان الجواب : الذين هددوا شعيبا ومن معه وأنذروهم بالإخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لكأنهم لم يقيموا بها ، ولم يعيشوا فيها مطلقا ، لأنه متى انقضى الشئ صار كأنه لم يكن .

ثم أعاد القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير ، ولإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين ، فقال : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أى : الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا ودنيويا ، وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون .

وبهذا القدر اكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا ، وقد صرح بإنجائه فى سورة هود فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴾ .

وأخيرا تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشيعة إياهم بالتبكيك والإهمال من رسولهم وأخيهم فى النسب فتقول : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

الأسى : الحزن ، وحقيقته اتباع الفائت بالغم ، يقال : أسيت عليه - أسا ، أى : حزنت عليه .

والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النعمة والعذاب وقال مقرعا إياهم : يا قوم ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ التى أرسلنى بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ بما فيه إصلاحكم وهدايتكم فكيف أحزن على قوم كافرين ، بذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم ، ولكنهم كرهوا النصح واستحبوا العمى على الهدى .

لا ، لن أسى عليهم ، لن أحزن من أجل هلاكهم ، لأنهم لا يستحقون ذلك .

وفى سورة «هود» آيات كريمة قصت علينا ما كان بين شعيب - عليه السلام - وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب بليغ حكيم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم ، قال - تعالى - :

وَإِلَىٰ مَدِينٍ آخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ  
 اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَكْوَالَ وَالْيَزَانَ  
 إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿١٥٥﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا  
 الْمَكِّيَّالَ وَالْيَزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا يُخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تَعْتَسُوا  
 فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٥٦﴾ بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ  
 وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْفِظٍ ﴿١٥٧﴾ قَالَُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ  
 مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ  
 الرَّشِيدُ ﴿١٥٨﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَدَّتْ  
 مِنِّي رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمُ عَنْهُ إِن  
 أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ  
 وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٥٩﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ  
 مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّو طُغِيَ مِنْكُمْ  
 بِبَعِيدٍ ﴿١٦٠﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ  
 وَدُودٌ ﴿١٦١﴾ قَالَُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يُمَاتُ قَوْلُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا  
 ضَعِيفًا وَلَا رَهْطًا لَّرَحْمَتِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١٦٢﴾ قَالَ  
 يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعْرَبُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذُ نَوْمَهُ وَرَاءَ كُرْحِي ظَهْرِي  
 إِن رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ ﴿١٦٣﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتَكُمْ وَإِنِّي  
 عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْقُبُوا  
 إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٦٤﴾ وَمَا جَاءَ أَمْرُنَا بِجِنَاتِنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبُؤْا فِي دِيَارِهِمْ جَثْمِينَ  
 ﴿١٦٥﴾ كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ شَمُودُ ﴿١٦٦﴾

وتلك هي قصة شعيب - عليه السلام - كما حكته هذه السورة الكريمة .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاللَّيْلِ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴾ معطوف على ما سبقه من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحا - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم وهو الذى إليه مرجعكم .

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان فقال :  
﴿ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾

والمكيال والميزان : اسمان للآلة التى يكال بها ويوزن .  
ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : لاتنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم .

والى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزُّوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

ثم بين لهم الأسباب التى دعتهم إلى أمرهم ونهيهم فقال :

﴿ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويغنيه ويسره .

ومحيط : أى شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه ، كما يحيط الظرف بالمظروف .

أى أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون فى رغد من العيش ، وفى بسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه ، أن يقابل هذه النعم بالشكر لوابها وهو الله - تعالى - وأن يستعملها استعمالا يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإني - أيضا - أخاف عليكم إذا ما تماديتم في مخالفة ما أمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها .

فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم ، ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعاً لعذرهم حتى لا يقولوا له : نحن في حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ما حملة على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب في دعوته فقال :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

أى : ويا قوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم العدل والقسط .

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴾ أى : ولا تنقصوهم شيئا من حقوقهم ، يقال :

بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه وانتقصه ، وهو يشمل النقص والعيب فى كل شىء .  
والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردىء .

قال الجمل ما ملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء ، لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد ، ولاشك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل . .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله فى غير ما خلقه له .

أى : ولا تسعوا فى أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصى ، فتسلب عنكم ، ثم أرشدكم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال :

﴿ بَقِيَّتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾

أى : ما يبقيه الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة فى حياتكم ، بسبب التزامكم بالقسط فى معاملاتكم ، هو خير لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص٤١٦ .

وجملة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .

أى : ما يقيه الله لكم من الحلال ، هو خير لكم إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فلن تكون بقية الله خيرا لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتي لتسعدوا فى دنياكم وأخرتكم .

وجملة ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .  
أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه ، وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربي بتبليغه ، وهو وحده - سبحانه - الذى يتولى مجازاتكم .

٥ - وإلى هنا نجد شعيبا - عليه السلام - قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد ويهدى للتى هى أقوم .

فماذا كان رد قومه عليه؟

لقد كان ردهم عليه - كما حكاه القرآن الكريم - طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له - على سبيل التهكم والاستهزاء - : يا شعيب أصلاتك - التى تزعم أن ربك كلفك بها - التى أنت تكثر منها - تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه .

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه - عليه السلام - كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه صلى سخرُوا منه .

وجملة ﴿أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص الكيل والميزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

أى : أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن نترك ما تعودنا فعله فى أموالنا من التطفيف فى الكيل والميزان .

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فهى فى نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك .

وجملة ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ زيادة منهم فى السخرية منه - عليه السلام -  
وفى التهكم عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ،  
وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقيني بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما  
حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه الرشيد الذى  
يرشد غيره إلى ماينفعه؟ .

إن هذين الوصفين لايليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ،  
أى الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام .

هكذا رد قوم شعيب على شعيب ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعه ،  
ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريرته!

٦ - ومع كل هذه السفاهة ، ترى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى  
عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من  
عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي .. ﴾ والبينة :  
مايتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة  
واضحة وبصيرة مستنيرة منحنى إياها ربي ومالك أمرى .

﴿ وَرَزَقْنِي مِنْهُ ﴾ - سبحانه - ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى  
المال الحلال الذى بين يدي ، وفى الحياة الطيبة التى أحيأها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبرونى إن كنت كذلك ، هل يليق بى بعد ذلك  
أن أخالف أمره مسaire لأهوائكم؟ كلا إنه لا يليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع  
ما أمرنى بتبليغه دون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُحِلَّكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ .. ﴾ .

أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وينهى إياكم عن التطفيف والبخس ،  
مجرد مخالفتكم ومنازعتكم ومعاستكم ، أو أن أمركم بشيء ثم لا أفعله ، أو أنهاكم  
عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية .

كلا ، كلا إنى لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما  
أختاره لنفسى .

ثم بين لهم أنه ما يريد لهم إلا الإصلاح فيقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ...﴾ .  
أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع ذلك ، وأقدر  
عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله - تعالى - فيقول :

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد الله  
وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع  
فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع  
السابقين ، محذرا إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول :

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ  
صَالِحٍ...﴾ .

والمعنى : ويا قوم لا تحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب علىّ ، وعلى التمدادى فى  
عصيانى ومحاربتى ، فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم  
نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .

أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح  
دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من عذاب  
جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

والمراد بالبعد - فى قوله - ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ بعد الزمن والمكان والنسب .

فزمن لوط - عليه السلام - غير بعيد من زمن شعيب - عليه السلام - .

وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة بجوار معان مما  
يلى الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت .

وكان مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وهو جد قبيلة شعيب ، المسماة باسمه ،  
متزوجا بابنة لوط .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل فى رحمة الله ، إن هم تابوا إليه - سبحانه - وأتابوا  
فقال : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ .

أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه توبة صادقة  
نصوحاً : ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ ومالك أمرى ﴿ رَحِيمٌ ﴾ ، أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ،  
﴿ وَدُودٌ ﴾ أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

٧ - وهكذا نجد شعيباً - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه النصيح ، وينوع  
لهم المواعظ ، ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه . . فقد ردوا على هذه  
النصائح الغالية بقولهم : ﴿ قَالُوا يَا شَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ .. ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا لانفهم الكثير  
من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم نتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت فى دعوتنا إلى عبادة الله  
وترك النقص فى الكيل والميزان حتى كرهنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على  
مسامعنا وخافية على عقولنا .

فمرادهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ  
بحديثه : لا أدرى ما تقوله ، ولا أفهم ما تتفوه به من ألفاظ .

ثم قالوا له - ثانياً - ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ أى : لا قوة لك إلى جانب قوتنا ،  
ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له - ثالثاً - ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ ورهط الرجل : قومه وعشيرته  
الأقربون ، ومنه الراهط لجرح اليربوع ، لأنه يحتمى فيه .

ولفظ «الرهط» اسم جمع يطلق غالباً على العصابة دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ،  
ولكن مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك .

ثم قالوا له - رابعاً - ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ ﴾ أى : وما أنت علينا بمكرم ، أو محبوب أو  
قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فىنا الضعيف المكره .

٨ - وهنا نجد شعيباً - عليه السلام - ينتقل فى أسلوب مخاطبته لهم من اللين إلى  
الشدّة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعاً عن جلال ربه - سبحانه - فيقول لهم :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ .. ﴾

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أعز وأكرم عندكم  
من الله - تعالى - الذى هو خالقكم ورازقكم وميتكم ومحبيكم .

﴿ وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا .. ﴾ أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئتمكم بها من لدنه - سبحانه - كالشئ المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بسبب كفركم وطغيانكم ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى : إن ربي قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ والمكانة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشئ مكانه ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن والأمر فى قوله ﴿ اَعْمَلُوا ﴾ للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل ما فى إمكانكم عمله معى ، وابدلوا فى تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ؟

وإنى سأقابل عملكم السيئ هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ استئناف مؤكد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى ينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .

﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ عاقبة تكذيبكم للحق ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أى : إنى معكم منتظر ومراقب لما يفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمان الله - تعالى - والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لما يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا .. ﴾ .

أى : وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من غيرنا .

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ من قومه ﴿ الصَّيْحَةَ ﴾ التي زلزلتهم وأهلكتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ ﴾ التي كانوا يسكنونها ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى : هامدين ميتين لاتحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .

من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل ، يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

﴿ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا ﴾ أى : كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء والأمان .

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

﴿ أَلَا بَعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ أى : ألا هلاكاً مصحوباً بالخزى واللعنة والطرده من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب - عليه السلام - كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليه السلام - .

٩ - هذا ، ومن أهم العبر والعظات التي تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى مايقنع العقل ويقنع العاطفة .

ففى هذه القصة نجد شعيبا - عليه السلام - يبدأ دعوته بأمر قومه بعبادة الله - تعالى - ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التي كانت منتشرة وهى نقص المكيال والميزان ثم يبين لهم الأسباب التي حملته على ذلك :

﴿ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد فى الأرض ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو صالح وما هو طالح : ﴿ بَقِيَّتِ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم يذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس من يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. ﴾ .

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين من قبلهم : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ .. ﴾ .

ثم يفتح لهم باب الأمل في عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

ثم تراه يثور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالنسبة لله - تعالى - وللحق الذي جاءهم به من عنده - سبحانه - : ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ .. ﴾ .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول ﷺ يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير والتوجيه السديد .

وليت الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى - .

١٠ - وفي سورة «السجدة» آيات تحكى لنا جانبا من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْبَغْتُمْ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي

خَلَقَكُمْ وَالْجِبَلَةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا  
 أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا  
 كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾  
 فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾  
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ  
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

والأيكة : منطقة مليئة بالأشجار ، كانت - في الغالب - بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التي تسمى بعمان .

قال ابن كثير : «هؤلاء - أعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا : أخوهم شعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة ، وقيل شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : كَذِبَ أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فقطع نسبة الأخوة بينهم ، للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبا ، ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبا - عليه السلام - بعثه الله إلى أمتين ، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء» (١).

وقد افتتح شعيب - عليه السلام - دعوته لقومه ، بأمرهم بتقوى الله - تعالى - وبيان أنه أمين في تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم ، وبمصارحتهم بأنه لا يسألهم أجرا على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم .

ثم نهاهم عن أفحش الرذائل التي كانت منتشرة فيهم فقال لهم : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبَلَةَ الْأُولِينَ .. ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ١٦٨ .

والجبلية : الجماعة الكبيرة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب ، والمقصود بهم أولئك الذين كانوا ذوى قوة كأنها الجبال فى صلابتها ، كقوم هود وأمثالهم من اغتروا بقوتهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

قال القرطبي : وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ .

الجبلية : هى الخليقة ، ويقال : جبل فلان على كذا ، أى : خلق فالخلق جبلية وجبلية - بكسر الجيم والباء وضمهما - والجبلية : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

والمعنى : قال شعيب - عليه السلام - لقومه ناصحا ومرشدا ، يا قوم أوفوا الكيل أى : اتقوا الله ولا تكونوا من المخسرين ﴿ الذين يأكلون حقوق غيرهم عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان .

ثم أكد نصحه هذا بنصح آخر فقال : ﴿ وَزِنُوا ﴾ للناس الذين تتعاملون معهم ﴿ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى : بالعدل الذى لا جور معه ولا ظلم .

ثم أتبع هذا الأمر بالنهى فقال : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : ولا تنتقصوا للناس شيئا من حقوقهم ، أى كان مقدار هذا الشيء .

﴿ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ والعثو : أشد أنواع الفساد ، يقال : عثا فلان فى الأرض يعثو ، إذا اشتد فساده .

أى : ولا تنتشروا فى الأرض حالة كونكم مفسدين ، فيها بالقتل وقطع الطريق وتهديد الأمنين .

فقوله : ﴿ مَفْسِدِينَ ﴾ حال مؤكدة لضمير الجمع فى قوله : ﴿ تَعَثُوا ﴾ .

ثم ذكرهم بأحوال السابقين ، وبأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم وخلق أولئك السابقين فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ من ماء مهين ، وخلق - أيضا - الأقسام السابقين ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا ، والذين أهلكهم - سبحانه - بقدرته بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

واستمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة ، ولكن لم يتأثروا بها ، بل اتهموا نبيهم فى عقله وفى صدقه ، وتحذوه فى رسالته فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إِنَّمَا

(١) تفسير القرطبي ج٣ ص ١٣٦ .

أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا  
مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠﴾ .

قالوا له بسفاهة وغرور : إنما أنت يا شعيب من الذين أصيبوا بسحر عظيم جعلهم لا يعقلون ما يقولون ، أو إنما أنت من الناس الذين يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ولا مزية لك برسالة أو نبوة علينا ، فأنت بشر مثلنا ، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه ، فإن كنت صادقاً في دعوى الرسالة فأسقط علينا ﴿ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : قطعاً من العذاب الكائن من جهة السماء .

وجاء التعبير بالواو هنا فى قوله ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ للإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة ، وهما : كونه من المسحرين وكونه بشراً وقصدوا بذلك المبالغة فى تكذيبه ، فكأنهم يقولون له : إن وصفا واحداً كافى فى تجريدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فىك الوصفان ، ولم يكتفوا بهذا بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا : وما نظنك إلا من الكاذبين .

ثم أضافوا إلى كل تلك السفاهات ، الغرور والتحدى حيث تعجلوا العذاب ، ولكن شعيباً - عليه السلام - قابل استهزاءهم واستهزاءهم بقوله : ﴿ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أى : ربى وحده هو العليم بأقوالكم وأعمالكم ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب أليم .

ثم يعجل - سبحانه - ببيان عاقبتهم السيئة فيقول :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال الألوسى : وذلك على ما أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم عن ابن عباس : أن الله - تعالى - بعث عليهم حراً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم ، فخرجوا منها هراباً إلى البرية ، فبعث الله - تعالى - عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، وهى الظلة ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أسقطها الله عليهم نارا ، فأهلكتهم جميعاً . (١)

وقال ابن كثير : فى سورة «الأعراف» ذكر الله - تعالى - أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا

(١) تفسير الألوسى ج١٩ ص ١٢٠ .

فى ديارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا .. ﴾ فلما أرحفوا بنبى الله ومن تبعه - أى : حاولوا زلزلتهم وتخويفهم - أخذتهم الرجفة .

وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فناسب أن تأتيمهم صيحة تسكتهم ، وهاهنا قالوا : ﴿ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ على وجه التعنت والعناد فناسب أن ينزل بهم ما استبعدوا وقوعه فقال : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ (١)

ثم ختم - سبحانه - قصة شعيب مع قومه بمثل ما ختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

١١ - هذا ، ومن الدروس التى نأخذها من قصة شعيب - عليه السلام - :

(١) أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى أصولها ، ألا وهى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل - والحض على التحلى بمكارم الأخلاق .

وهذا ما تراه فى دعوة كل نبى لقومه ، فنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كل واحد منهم كانت النصيحة الأولى التى يوجهها لقومه أن يقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

قال - تعالى - : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (٢)

(ب) أن المرشد العاقل ، والواعظ الحكيم ، والداعية الموفق ، من صفاته أن يهتم أول ما يهتم بإزالة أبرز المنكرات المتفشية فى بيئته ، ويقدم الأهم على المهم .

وهذا ما نراه واضحا فى دعوة خطيب الأنبياء ، شعيب - عليه السلام - فقد بدأ دعوته لقومه بنهيهم عن الإشراك بالله - عز وجل - فى العبادة ، ثم أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ، كما نهاهم عن إيذاء الناس وعن الإفساد فى الأرض بصفة عامة ، فهو يقول لهم :

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ١٧٠ .

(٢) سورة الشورى : الآية ١٣ .

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

(ج) كذلك من الدروس النافعة والعظات البليغة أن الداعية العاقل المخلص ، لا يكتفى بأسلوب واحد في دعوته غيره إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وإنما يلون في خطابه على حسب حال المدعويين أمامه ، فهو تارة يأمر وتارة ينهى ، وطورا يرغب وطورا يرهب ، وأحيانا يبشر وأحيانا ينذر ، وهذا ما نراه واضحا - أيضا - في أسلوب شعيب - عليه السلام - وهو يدعو قومه إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى التخلي عن الرذائل التي كانت متفشية فيهم فهو يقول لهم : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٢)

ويقول لهم :

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُغِيَ مِنْكُمْ بَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ . (٣)

ويقول لهم : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . (٤)

( د ) نأخذ من قصة شعيب - عليه السلام - أيضا ، أن المرشد اللبيب الفطن ، هو الذي يكون قدوة حسنة لغيره بفعله وسلوكه ، قبل أن يكن قدوة له بقوله ومنطقه .

وهذا ما يتجلى بوضوح في قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، فإنه يجابههم بكل قوة ، بأنه لا يدعوهم إلى شيء هو يتركه ، ولا ينهاهم عن شيء هو يفعله ، فيقول لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) سورة هود : الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٧٨ ، ١٨٠ .

حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي  
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾ .

(هـ) كذلك من الدروس الحكيمة التي نأخذها من قصة شعيب مع قومه ، أن اللين شيء ، وأن الضعف شيء آخر ، وأن العقلاء يلتزمون أدب الحوار مع غيرهم بكل تواضع وأناة ، فإذا ما خرج السفهاء في مناقشاتهم عن حدود الدين والأخلاق ، تصدى العقلاء لهم بكل قوة وحزم ، ولقنوهم ما يوقفهم عند حدودهم ، وزجروهم زجرا يردعهم ويخرسهم .

انظر إلى شعيب - عليه السلام - تراه قد خاطب قومه بكل أدب وحكمة ، ولكنهم عندما طلبوا منه العودة إلى ملتهم الفاسدة ، وعقيدتهم الباطلة ، زجرهم بقوله : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا .. ﴾ .

وعندما قالوا له : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ رد عليهم بقوله : ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ وهكذا نرى شعيبا - عليه السلام - في موقف اللين شيء ، وفي موقف الشدة شيء آخر ، فهو لا يغضب لنفسه ، فإذا ما تناول قومه على خالقهم - عز وجل - وقف لهم بالمرصاد ، وغضب لربه غضبا يردعهم ويخيفهم .

هذه بعض الدروس النافعة ، والعظات البليغة التي نأخذها من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، وإنها لدروس بليغة لقوم يعقلون .

## قصة داود وسليمان - عليهما السلام -

١ - قصة داود وسليمان - عليهما السلام - وردت في سور متعددة ، منها : سورة الأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وص .

وداود وسليمان نبيان كريمان ، وملكان عظيمان ، جمع الله - تعالى - لهما بين الملك والنبوة ، وينتهي نسب داود - عليه السلام - إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وكانت ولادته في بيت لحم بفلسطين ، قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم بحوالى ألف سنة ، وقد تكرر اسم داود في القرآن ست عشرة مرة في سور شتى ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا  
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ  
الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ  
الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٠ ، ٢٥١] .

وقد مدح النبي ﷺ أخاه داود مدحا عظيما ، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «أحب الصيام إلى الله - تعالى - صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه .»

٢ - أما سليمان فهو ابن داود ، فقد ورد اسمه في القرآن سبع عشرة مرة ، ومن ذلك قوله - سبحانه - : ﴿ وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ... ﴾ [البقرة : ١٠٢]

أى : واتبع الضالون والجاحدون من بنى إسرائيل ما تقولته واختلقته الشياطين كذبا على ملك سليمان - عليه السلام - حيث زعموا أن ملكه يقوم على السحر ، والحق أن سليمان قد أخلص العبادة لخالقه - عز وجل - أتم الإخلاص وأكمله ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا ، إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد الإفساد والإضلال .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى مدح فيها النبي ﷺ أخاه سليمان ، ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّ عَفْرِيَّتَا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَا عَلَىٰ

البارحة ليقطع على الصلاة ، أى : ليحملنى على الخروج من الصلاة - فأمكننى الله - تعالى - منه ، فأردت أن أربطه فى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه ، ولكنى تركته بعد أن تذكرت قول أخى سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

ويعد عهد داود وسليمان - عليهما السلام - هو العهد الوحيد الذى عاش فيه قومهما بنو إسرائيل فى رخاء وأمان واطمئنان .

٣ - ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن هذين النبيين الكريمين ، قوله - تعالى - فى سورة « الأنبياء » .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ

فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّآءَ آيِنَاهُمْ لَعَلَّآ أَوْعَىٰ وَاسْمَعْنَ دَاوُدَ الْجَبَالَ

يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَمَّنَا مِصْبَعَةُ أَلْبُوسٍ لَّكُمْ

لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ إِذْ رَمَحَ عَاصِفَةً

تَجْرِي بِأَمْرٍ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَعْصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا

لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وِدَاوُدَ ﴾ منصوب بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله - سبحانه -

قبل ذلك : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى ﴾ .

والحرث : الزرع ، قيل : كان كرمًا - أى عنبًا - تدلت عناقيده .

وقوله : ﴿ نَفَشَتْ ﴾ من النفس وهو الرعى بالليل خاصة ، يقال : نفشت الغنم والإبل ،

إذ رعت ليلا بدون راع .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصها : أن رجلين دخلا على

داود - عليه السلام - أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع

لداود : يا نبي الله ، إن غنم هذا قد نفشت في حرثي فلم تبق منه شيئا ، فحكم داود - عليه السلام - لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه في مقابل إتلافها لزرعه .

وعند خروجهما التقيا بسليمان - عليه السلام - فأخبراه بحكم أبيه ، فدخل سليمان على أبيه فقال له : يا نبي الله ، إن القضاء غير ما قضيت ، فقال له : كيف؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها ، وادفع الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده ، يأخذ صاحب الزرع زرعه ، وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود - عليه السلام - القضاء ما قضيت يا سليمان .<sup>(١)</sup>

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - قصة داود وسليمان ، وقت أن كانا يحكمان في الزرع الذي «نفشت فيه غنم القوم» ، أي : تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته .

قال القرطبي : «ولم يرد - سبحانه - بقوله : ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ الاجتماع في الحكم وإن جمعهما في القول ، فإن حكمن على حكم واحد لا يجوز وإنما حكم كل واحد منهما على انفراد ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله - تعالى - له» .<sup>(٢)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ جملة معترضة جيء بها لبيان شمول علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شيء .

أي : وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالين وحاضرين ، بحيث لا يغيب عنا شيء مما قاله .

وضمير الجمع في قوله : ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال : إن أقل الجمع اثنان ، وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب الزرع وصاحب الحرث أي : وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين .

والضمير المنصوب في قوله - تعالى - : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يعود إلى القضية أو المسألة التي عرضها الخصمان على داود وسليمان .

أي : فهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية ، وذلك لأن داود - كما يقول العلماء - قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث ، وهذا عدل فحسب ، أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحى الإيجابى فى صورته البانية الدافعة وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء من عباده .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج١٧ ص ٣٨ ، وتفسير ابن كثير ج٥ ص ٣٤٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج١١ ص ٣٠٧ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ثناء من الله - تعالى - على داود وسليمان - عليهما السلام - والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا في حكمه .

أى : وكلا من داود وسليمان قد أعطينا من عندنا ﴿ حُكْمًا ﴾ أى : نبوة وإصابة فى القول والعمل ﴿ وَعِلْمًا ﴾ أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمر .

وقد توسع بعض المفسرين فى الحديث عن هذا الحكم الذى أصدره داود وسليمان فى قضية الحرث أكان بوحي من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ، وقد رجح بعض العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان فى الحرث المذكور فى هذه الآية كان بوحي ، إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود .

وفى الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي ، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولا ذما لعدم إصابته .

كما أثنى - سبحانه - على سليمان بالإصابة فى قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ وأثنى عليهما فى قوله : ﴿ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

فدل قوله : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ على أنهما حكما فيها معا ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف ، ثم قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهما إياها كما ترى .

فقوله : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ مع قوله ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهم الله إياه ذلك .

والقرينة الثانية : هى أن قوله - تعالى - ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ يدل على أن فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه - تعالى - أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا ، لأن قوله - تعالى - : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أليق بالأول من الثانى كما ترى . (١)

٤ - ثم بين - سبحانه - نماذج من النعم التى أنعم بها على داود - عليه السلام - فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج٥ ص ٥٩٩ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والتسخير: التذليل أى: وجعلنا الجبال والطيير يسبحن الله - تعالى - ويقدسنه مع داود، امثالاً لأمره - سبحانه - .

قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته، بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترغم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويها، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب، فوقف واستمع إليه وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود» (١).

وقال صاحب الكشاف: «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل فى الإعجاز، لأنها جمادى، والطيور حيوان، إلا أنه غير ناطق، روى أنه كان يرب بالجبال مسبحاً وهى تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار» (٢).

وتسبيح الجبال والطيور مع داود - عليه السلام - هو تسبيح حقيقى، ولكن بكيفية يعلمها الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..﴾ (٣)

وشبيهه بالآية التى معنا قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنْ قَبْلِنَا مَا يَشَاءُ وَيَأْتِيهِ مِنَ الْجِبَالِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ سَاقُ مَاءٍ فَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ مَاءٌ فَشَارَبُوا مِنْهُ وَأَشْرَبُوا بِأَنْعَامِهِمْ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُؤْتِي﴾ (٤)

وقوله - سبحانه - : ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (٥)

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أى: كنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطيور معه، يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء، على سبيل التكريم له، والتأييد لنبوته، إذ أن قدرتنا لا يعجزها شىء، سواء أكان هذا الشىء مألوقاً للناس أم غير مألوف .

وقوله - تعالى - :

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص ٣٥٢ .

(٢) الكشاف ج٣ ص ١٢٩ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

(٤) سورة سبأ الآية ١٠ .

(٥) سورة «ص» الآيات ١٧ - ١٩ .

واللبوس : كل ما يلبس كاللباس والملبس : والمراد به هنا : الدرع .

أى : وبجانب ما منحنا داود من فضائل ، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التى علمناها إياها بمهارة وجودة ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ .

أى : لتجعلكم فى حرز ومأمن من الإصابة بألّة الحرب ، وتقى بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

يقال : أحصن فلان فلانا ، إذا جعله فى حرز وفى مكان منيع من العدوان عليه ، والاستفهام فى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ للحض والأمر أى : فاشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، بأن تستعملوها فى طاعته - سبحانه - .

قال القرطبي - رحمه الله - : «وفى هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلق ، فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة ، وقد أخبر الله - تعالى - عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع ، وكان - أيضا - يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفى الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف ، ويبغض السائل الملحف» .<sup>(١)</sup>

٥ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال :

وقوله : ﴿ وَاسْلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ معطوف على معمول ﴿ سَخَرْنَا ﴾ فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ و﴿ عَاصِفَةً ﴾ حال من الريح .

أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما سخرنا مع آبيه الجبال يسبحن والطير .

يقال : عصفت الريح تعصف إذا اشتدت ، فهى عاصفة وعصوف سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن .

وقوله - تعالى - : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى : جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التى باركنا فيها وهى أرض الشام ، وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض الشام .

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة ، وفى آية أخرى بأنها رخاء قال - تعالى - : ﴿ فَسَخَرْنَا

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣٢١ .

لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿١﴾ لأنها تارة تكون عاصفة ، وتارة تكون لينة رخاء ، على حسب ما تقتضيه حكمته - سبحانه - .

وقال - سبحانه - هنا : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى تجرى بأمره إلى تلك الأرض فى حال إيباه ورجوعه إليها ، حيث مقر مملكته ومسكنه ، فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها فى حال عودته إلى مملكته .

أما الآية الأخرى التى تقول : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (١) أى : حيث أراد لها أن تجرى ، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه فى غير حال عودته إلى مملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ الجهة فيهما منفكة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أى : وكنا بكل شىء يجرى فى هذا الكون عالين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا ، فإنه علم محدود بما نشأؤه ونقدره .

فالجمله الكريمة بيان لإحاطة علم الله - تعالى - بكل شىء ، والتنبيه بأن ما أعطاه الله - تعالى - لسليمان ، إنما كان بإرادته - سبحانه - وعلمه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التى امتن بها - سبحانه - على عبده . ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغواص الذى ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها .

أى : وسخرنا - أيضا - لسليمان من يغوص له ، أى : لأجله ، من الشياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان .

وفى التعبير بقوله : ﴿ لَهُ ﴾ إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان - عليه السلام - وبأمره .

وقوله : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط ، وإنما كان

سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا

آل دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢﴾

(١) سورة ص الآية ٣٦ .

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٢ ، ١٣ .

فاسم الإشارة في قوله : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين من أن يخرجوا عن طاعته ، أو أن يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون له .  
٦ - وفى سور «سبأ» آيات أخرى تحدثت عن جانب من النعم التي أنعم الله - تعالى - بها على هذين النبيين الكريمين ، ألا وهى قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا <sup>١١٠</sup> جِبَالٍ  
 أَوَّيَّ مَعَهُ وَالظَّيْرَ <sup>١١١</sup> وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ <sup>١١٢</sup> أَنِ اعْمَلْ سَبْغًا وَقَدِّرْ  
 فِي السَّرْدِ <sup>١١٣</sup> وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ <sup>١١٤</sup> وَلَسْلَيْمَ <sup>١١٥</sup> الرِّيحَ  
 غَدُوها شَهْرًا <sup>١١٦</sup> وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا <sup>١١٧</sup> وَأَسْلَمْنَا لَهُ <sup>١١٨</sup> الْبَطْنَ <sup>١١٩</sup> وَالْمِنْجَنَ  
 مَن يَعْمَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ <sup>١٢٠</sup> وَمَن يَزِغْ مِنْهُم <sup>١٢١</sup> عَنْ أَمْرِنَا <sup>١٢٢</sup> نَذِقْهُ <sup>١٢٣</sup> مِنْ  
 عَذَابِ <sup>١٢٤</sup> السَّعِيرِ <sup>١٢٥</sup> يَعْمَلُونَ لَهُ <sup>١٢٦</sup> مَا يَشَاءُ <sup>١٢٧</sup> مِنْ مَّحْرَبٍ <sup>١٢٨</sup> وَتَمْثِيلٍ <sup>١٢٩</sup> وَجِفَانٍ  
 كَالْجَوَابِ <sup>١٣٠</sup> وَقُدُورٍ <sup>١٣١</sup> رَّاسِيَةً <sup>١٣٢</sup> اعْمَلُوا <sup>١٣٣</sup> أَلْ دَاوُودَ <sup>١٣٤</sup> شُكْرًا <sup>١٣٥</sup> أَوْ قَلِيلٌ <sup>١٣٦</sup> مِنْ عِبَادِي  
 الشُّكُورِ <sup>١٣٧</sup> فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ <sup>١٣٨</sup> الْمَوْتَ <sup>١٣٩</sup> مَا دَلَّهُمْ <sup>١٤٠</sup> عَلَى <sup>١٤١</sup> مَوْتِهِ <sup>١٤٢</sup> إِلَّا <sup>١٤٣</sup> دَابَّةٌ <sup>١٤٤</sup> الْأَرْضِ  
 نَأْكُلُ <sup>١٤٥</sup> مِنْ سَائِرِ <sup>١٤٦</sup> مَنَسَائِهِ <sup>١٤٧</sup> فَلَمَّا خَرَّ <sup>١٤٨</sup> نَبِيْنَا <sup>١٤٩</sup> الْجَنُّ <sup>١٥٠</sup> أَن <sup>١٥١</sup> لَوْ <sup>١٥٢</sup> كَانُوا <sup>١٥٣</sup> يَعْلَمُونَ <sup>١٥٤</sup> الْغَيْبَ <sup>١٥٥</sup> مَا لَبِثُوا  
 فِي الْعَذَابِ <sup>١٥٦</sup> الْمُهِينِ <sup>١٥٧</sup>

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بيان لما من الله - تعالى - به على عبده داود - عليه السلام - من خير وبركة .

أى : ولقد آتينا عبدنا داود فضلا عظيما وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا بسبب إنابته إلينا ، وطاعت لنا .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ والتأويب إذا رَجَّع مع غيره مايقوله .

والجملة مقول لقول محذوف : أى : وقلنا يا جبال رددى ورجعى مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عما أنعم به على عبده ورسوله داود - عليه السلام - مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العُدَّة والعَدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبَّح ، تسبَّح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات الرائحات وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعري يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : «لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود» . (١)

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : «وأتينا داود منا فضلا : تأويب الجبال معه والطيور»؟

قلت : كم بينهما من الفرق؟ ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال مُنَزَّلَةً مُنَزَّلَةَ العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممانع على إرادته . (٢)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليه .

أى : وصيرنا الحديد لنا فى يده ، بحيث يصبح - مع صلابته وقوته - كالعجين فى يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله فى نار ، أو أن يطرقه بمطرقة .

أى : أَلْنَا لَهُ الحديد ، لكى يعمل منه دروعا سابغات ، والدرع السابغ ، هى الدرع الواسعة التامة ، يقال : سبغ الشيء سبوغا ، إذا كان واسعاً تاماً كلاماً ، ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .

قال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٨٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج٣ ص ٥٧١ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٠ .

وقوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير في عمل الشيء ، والسرد : نسج الدروع وتهيتها لوظيفتها .

أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذى من جملته إلانة الحديد فى يده ، وقلنا له يا داود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة ، وأقوى هيئة .

روى أن الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها فى الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله - تعالى - داود - عليه السلام - أن يعملها بطريقة لا تثقل الجسم ولا تتعبه ، وفى الوقت نفسه تكون محكمة إحكاما تاما بحيث لا تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف ، وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله - تعالى - لعبده داود - عليه السلام - .

ثم أمر - سبحانه - داود وأهله بالعمل الصالح فقال :

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

أى : واعملوا عملا صالحا يرضينى ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

قال القرطبى : « وفى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالى عن الامتنان ، وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال : إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » . (١)

هذا ما أعطاه - سبحانه - لنبيه داود من فضل ، أما سليمان فقد أعطاه - سبحانه - أفضلا أخرى ، عبر عنها فى قوله - تعالى - : ﴿ وَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا ﴾ .

والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال ، والرواح : من الزوال إلى الغروب .

والمعنى : وسخرنا لنبينا سليمان بن داود - عليهما السلام - الريح ، تجرى بأمره فى الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره فى الروحة مسيرة شهر ، أى : أنها لسرعتها تقطع فى مقدار الغدوة الواحدة ما يقطعه الناس فى شهر من الزمان ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة ، وهى فى كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق إرادته التى منحه الله - تعالى - إياها .

(١) تفسير القرطبى ج٤ ص ٢٦٧ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿وَسَلِّمَانَ الَّرِيحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الَّرِيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٢)  
ثم بين - تعالى - نعمة ثانية من النعم التي أنعم بها على سليمان فقال : ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ﴾ .

والقطر : هو النحاس المذاب ، مأخوذ من قطر الشيء يَقْطُرُ قَطْرًا وَقَطْرَانًا ، إذا سال .

أى : كما أننا لداود الحديد ، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا ، فكان يستعمله فى قضاء مصالحه ، كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا .

ثم بين - سبحانه - نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان - عليه السلام - فقال : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ .

أى : وسخرنا له من الجن من يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه مايريده منهم ، وهذا كله بأمرنا ومشيئتنا وقدرتنا .

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا﴾ أى : من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به من طاعة سليمان ، ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى : ننزل به عذابنا الأليم ، الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والاخرة .

ثم بين - سبحانه - بعض الأشياء التى كان الجن يعملونها لسليمان - عليه السلام - فقال : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ .

والمحارِب : جمع المحراب ، وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذى يقف فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ، وعلى أشرف أماكن البيوت .

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة .

والتماثيل : جمع التمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك .

قال القرطبى ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال ، وهو كل ما صور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان ، وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

(٢) سورة «ص» الآية ٣٦ .

بحيوان ، وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس ،  
فيزدادوا عبادة واجتهادا .

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا في زمانهم ، ونسخ ذلك بشرع محمد ﷺ (١)  
والجفان : جمع جَفَنَة ، وهي الأنية الكبيرة ، والجَوَاب : جمع جابية ، وهي الحوض  
الكبير الذى يجبى فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .  
والقدور : جمع قدر ، وهو الأنية التى يطبخ فيها الطعام من نحاس أو فخار أو غيرهما .  
وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لا تتحرك .

أى : أن الجن يعملون لسليمان - عليه السلام - ما يشاء من مساجد وقصور ، ومن صور  
متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ، ومن قدور ثابتات على قواعدها ،  
بحيث لا تتحرك لضخامتها وعظمتها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ ﴾ مقول لقول  
محذوف .

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل داود عملا صالحا  
شكرا خالصا على نعمى وفضلى وإحسانى .

وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل  
زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله -  
تعالى - وشكره .

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه -  
سبحانه - فيما خلقت له .

والإنسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن  
طريق قلبه ولسانه وجوارحه .

ثم ختم - سبحانه - النعم التى أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد وفاة  
سليمان ، فقال : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ  
مِنْ سَاتِهِ ﴾ .

والمراد بدابة الأرض : قيل هى الأرضة التى تأكل الخشب وتتغذى به ، يقال : أرضت  
الدابة الخشب أرضًا - من باب ضرب - إذا أكلته ، فإضافة الدابة إلى الأرض - بمعنى  
الأكل والقطع - من إضافة الشيء إلى فعله .

(١) تفسير القرطبي ج٤ ص ٢٧٢ .

و ﴿مِنْسَأَتَهُ﴾ أى : عصاه التى كان مستندا عليها ، وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا جاوزت مرعاها ، من نسا البعير - كمنع - إذا زجره وساقه ، أو إذا أخره ودفعه .

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان - عليه السلام - بالموت ، وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ، ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أى : الجن الذين كانوا فى خدمته ﴿عَلَى مَوْتِهِ﴾ بعد أن مات وظل واقفا متكئا على عصاه ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ .

أى : أنهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التى تفعل الأرض - أى الأكل والقطع - فأكلت شيئا من عصاه التى كان متكئا عليها ، فسقط واقعا بعد أن كان واقفا .

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أى : فلما سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنِّ﴾ أى : ظهر لهم ظهورا جليا ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبِ﴾ كما يزعم بعضهم .

﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أى : ما بقوا فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .

وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ، حتى جاءت الأرضة فأكلت شيئا من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات .

قال ابن كثير : «يذكر - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان - عليه السلام - وكيف عمى الله موته على الجن المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه ، - وهى منسأته - مدة طويلة نحو من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض - وهى الأرضة - ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن - والإنس أيضا - أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك»<sup>(١)</sup> .

٨ - وفى سورة «ص» حديث متنوع عن داود وسليمان - عليهما السلام - ويبدأ هذا الحديث عنهما بقوله - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٨٩ .

أَصْبِرْ

عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٧٧﴾ إِنَّا  
سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ ﴿٧٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً  
كُلٌّ لَكَ أَوَّابٌ ﴿٧٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَمْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ  
الْخِطَابِ ﴿٨٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبِيُّ الْأَخْضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْحَرَابَ ﴿٨١﴾  
إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَخَفُ خَصَّانَ بَنِي بَعْضِنَا  
عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ  
﴿٨٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ قَالَ أَوْلَيْتُهَا  
وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٨٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ  
كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا  
وَأَنَابَ ﴿٨٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُفَى وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٨٥﴾ يَا دَاوُدُ  
إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ  
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ  
شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٨٦﴾

والخطاب في قوله - تعالى - : ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ للنبي ﷺ .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما قاله أعداؤك فيك وفي دعوتك لقد قالوا عنك  
إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر ، وقالوا عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين ، وقالوا  
في شأن دعوتك إياهم إلى وحدانية الله - تعالى - ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ  
هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك - أيها

الرسول الكريم - أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذى سلكه كل نبي من قبلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ معطوف على جملة «اصبر» . . داود - عليه السلام - : هو ابن يسي من سبط «يهودا» بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ صفة لداود ، والأيد : القوة ، يقال : آد الرجل يثيد أيدياً وإيادا ، إذا قوى واشتد عوده ، فهو أيدي ، ومنه قولهم فى الدعاء : أيدك الله ، أى : قواك ﴿ وَأَوَّابٌ ﴾ صيغة من أب إذا رجع .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك حتى يحكم الله بينك وبينهم .  
واذكر - لتزداد ثباتا وثقة - قصة حال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة فى عبادتنا وطاعتنا وفى دحر أعدائنا ، ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا .  
ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود - عليه السلام - فقال :  
﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ .

والعشى : الوقت الذى يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح ، والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أى : سطوعها وصفاء ضوئها ، قالوا : وهو وقت الضحى .  
فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس ، وهو يسبق الإشراق أى : إن من مظاهر فضلنا ، على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به فتسبح بتسبيحه فى أوقات العشى والإشراق .

وقال - سبحانه - : ﴿ مَعَهُ ﴾ للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به فى ذلك .  
أى : أنها إذا سمعته يسبح الله - تعالى - ويقدمه وينزهه ، رددت معه مايقوله .

وهذا التسبيح من الجبال لله - تعالى - إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - عز وجل - بدليل قوله - سبحانه - : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١)

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمر منها : المخالفة لظاهر ماتدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن تقييد التسبيح بلسان الحال موجود منها فى كل وقت ، ولا يختص بكونه فى هذين الوقتين أو مع داود .

وخص - سبحانه - وقتى العشى والإشراق بالذكر ، للإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۗ ۝ ﴾ معطوف على الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة ، وهى حال من الطير ، والعامل قوله : ﴿ سَخَرْنَا ۗ ﴾ .

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبيح مع داود عند تسبيحه لنا ، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .

والتعبير بقوله : ﴿ مَحْشُورَةً ۗ ﴾ يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى لكأنها تخلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى - وتقديسه .

وجملة ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ۗ ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير .

واللام فى ﴿ لَهُ ۗ ﴾ للتعليل ، والضمير يعود إلى داود - عليه السلام - .

أى : كل من الجبال والطير ، من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح .

ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله - تعالى - بما يرضيه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۗ ﴾ أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة .

﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ۗ ﴾ أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق .

﴿ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ۗ ﴾ أى : وأتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين

الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل وبالجزم الذى لا يشوبه تردد أو تراجع .

٩ - ثم ساق - سبحانه - ما يشهد لعبده داود بذلك فقال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ

تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۗ ﴾ .

والاستفهام للتعجب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمرا غريبا تتطلع إلى معرفته النفس .

والنبا : الخبر الذى له أهمية فى النفوس .

﴿الْخَصْمُ﴾ : أى المتخاصمين أو الخصماء ، وهو فى الأصل مصدر خصمه أى : غلبه فى الخصامة والمجادلة والمنازعة ، ولكونه فى الأصل مصدرا صح إطلاقه على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخصم الآخر ، أى : بجانبه .

والظرف فى قوله : ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ متعلق بمحذوف ، والتسور : اعتلاء السور ، والصعود فوقه ، إذ صيغة التفعّل تفيد العلو والتصعد ، كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذا علا فوق سنامه .

والحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود - عليه السلام - للتعبّد وذكر الله - تعالى - . والمعنى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم ، الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدمهم .

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فما نحن نقصه عليك . وقوله : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ..﴾ بدل ما قبله ، والفرع : انقباض فى النفس يحدث للإنسان عند توقع مكروه .

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته .

ومن شأن النفس البشرية أن تفرح عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة .

ثم بين - سبحانه - ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجع والفرع ، فقال : ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ .

والبغى : الجور والظلم ، وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد . والشطط : مجاوزة الحد فى كل شىء ، يقال : شط فلان على فلان فى الحكم واشتط ، إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

وقوله : ﴿خَصْمَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان ، والجملة استئناف معلل للنهى فى قولهم ﴿لَا تَخَفْ﴾ أى : قالوا لداود : لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوز به إلى غيره ، ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .

وإضافة سواء للصراف ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ثم أخذنا فى شرح قضيتهما فقال أحدهما : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

والمراد بالأخوة هنا : الأخوة فى الدين أو فى النسب ، أو فيهما وفى غيرهما كالصحة والشركة .

والنعجة : الأنثى من الضأن .

وقوله : ﴿ أَكْفَلْنِيهَا ﴾ أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون تحت كفالتى وملكىتى كبقية النعاج التى عندى ، لىتم عددها مائة .

وقوله : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى : غلبنى فى المحاجة والمخاطبة وأنه أفصح وأقوى منى ، يقال فلان عز فلانا فى الخطاب ، إذا غلبه ، ومنه قولهم فى المثل : من عزُّ بَرٌّ ، أى : من غلب غيره سلبه حقه ، أى : قال أحدهما لداود - عليه السلام - : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى ، وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى وقال لى : ﴿ أَكْفَلْنِيهَا ﴾ أى : ملكنيها وتنازل لى عنها ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى : وغلبنى فى مخاطبته لى ، لأنه أقوى وأفصح منى .

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ، وعدم اعتراضه على قوله ، أمام كل ذلك ، لم يلبث أن قال داود فى حكمه : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ .. ﴾ .

أى : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما ادعاه : والله إن كان ما تقوله حقا أيها المدعى ، فإن أخاك فى هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

وإنما قلنا إن داود - عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضى لا يحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصمين حتى يتمكن من الحكم بالعدل .

ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه بعد سماع كلام المدعى عليه ، لأنه مقرر ومعروف فى كل الشرائع ، وحذف ما هو مقرر ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .

ثم أراد داود - عليه السلام - وهو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، أراد - أن يهون المسألة على نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه الغنى له ، وما فعله معه ، فقال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى الْآلِدِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ .. ﴾ .

أى : قال داود للمشتكى - على سبيل التسلية له - : وإن كثيرا من الخلطاء أى : الشركاء - جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بال غيره .

﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى : ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم فى مال الآخر ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل ما لا يرضى خالقهم .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ بيان لقلة عدد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون فى أحكامهم . فكأنه - سبحانه - يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على إعطاء كل ذى حق حقه .

وبهذا نرى أن داود - عليه السلام - قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل . ثم بين - سبحانه - ما حاك بنفس داود - عليه السلام - بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

وفتناه : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه ، مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .

أى : وظن داود - عليه السلام - أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه ، وأن ذلك لون من ابتلاء الله - تعالى - له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ، ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى : ساجدا لله - تعالى - وعبر عنه بالركوع لأنه فى كل منهما انحناء وخضوع لله - عز وجل - ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أى : ورجع داود إلى الله - تعالى - بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنهما حضرا إليه فى خصومة بينهما ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ، فغفر الله - تعالى - له .

فقوله - تعالى - : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه ...  
﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ أى : لقربة منا ومكانة سامية ﴿ وَحَسَنَ مَأَبٍ ﴾ أى : وحسن  
مرجع فى الآخرة وهو الجنة .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة ، والآداب القوية ، التى  
وجهها - سبحانه - إلى كل حاكم فى شخص داود - عليه السلام - فقال : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا  
جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ .

والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو فعيل بمعنى فاعل ، والتاء فيه  
للمبالغة ، أى : يا داود إنا جعلناك - بفضلنا ومنتنا - خليفة ونائبنا عنا فى الأرض ، لتتولى  
سياسة الناس ، ولترشدهم إلى الصراط المستقيم .

والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقتها ، أى : فغفرنا له ذلك  
وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىَّ .. ﴾ للتفريع ،  
أوهى جواب لشرط مقدر ، والهوى : ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب .  
أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك فاحكم - يا داود - بين الناس بالحكم الحق الذى  
أرشدك الله - تعالى - إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان والأحوال : ولا تتبع هوى  
النفس وشهواتها ، فإن النفس أماراة بالسوء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَيُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ بيان للمصير السيئ الذى يؤدي  
إليه اتباع الهوى فى الأقوال والأحكام .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم للهوى ، لهم  
عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - لأنهم تركوا الاستعداد ليوم الحساب ،  
وما فيه من ثواب وعقاب .

١٠ - هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - سمو منزلة داود - عليه السلام - عند ربه ، فقد افتتحت هذه الآيات ، بأن أمر الله -  
تعالى - رسوله ﷺ أن يتذكر ما حدث لأخيه داود ، ليكون هذا التذكير تسلية له عما  
أصابه من المشركين وعونا له على الثبات والصبر .

ثم وصف - سبحانه - عبده داود بأنه كان قويا فى دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه ، وأنه - سبحانه - قد وهبه نعمًا عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ثم ختمت هذه الآيات - أيضا - بالثناء على داود - عليه السلام - حيث قال - سبحانه - : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ۖ ﴾ وبيان أنه - تعالى - قد جعله خليفة فى الأرض .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضله - عليه السلام - ما أخرجه البخارى فى تاريخه أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر داود ، حدث عنه قال : « كان أعبد البشر » .

وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا ينبغى لأحد أن يقول إبنى أعبد من داود » .

٢ - أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس فى شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التى حكاهها القرآن الكريم ، فزع منهما داود - عليه السلام - وظن أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله - تعالى - يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث .

فلما تبين لداود بعد ذلك أن الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه فى مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق - أى ظن الاعتداء عليه فغفر الله - تعالى - له .

والذى يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا فى تأييد هذا المعنى .

قال أبو حيان ما ملخصه - بعد أن ذكر جملة من الآراء - : والذى أذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس ، دخلوا من غير المدخل ، وفى غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه ، إذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا فى حكومته ، وبرز منهم اثنان للتحاكم ، وأن ما ظنه غير واقع ، استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونه ، وخر ساجدا منيبا إلى الله - تعالى - فغفر الله له ذلك الظن ولذلك أشار بقوله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ۖ ﴾ ولم يتقدم سوى قوله - تعالى - : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ۖ ﴾ ويعلم قطعاً أن

الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولا يمكن وقوعهم فى شىء منها ضرورة أننا لوجوزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم تثق بشىء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله - تعالى - فى كتابه ، ير على ما أراده - تعالى - وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة ، طرحناه .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٧ ص ٣٩٣ .

٣ - ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبي حيان ، هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه يتناسب مع مكانة داود - عليه السلام - ومع ثناء الله - تعالى - عليه وتكريمه له .

أقول مع كل ذلك ، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا فى نهاية النكارة ، وأقوالا فى غاية البطلان والفساد .

فمثلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : «أن داود - عليه - السلام - كان يصلى فى محرابه ، ثم تطلع من نافذة المكان الذى كان يصلى فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته ، فسألها عن زوجها فأخبرته بأن زوجها ، اسمه «أوريا» وأنه خرج مع الجيش الذى يحارب الأعداء ، فأمر داود - عليه السلام - قائد الجيش أن يجعله فى المقدمة لكى يكون عرضة للقتل ، وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة .<sup>(١)</sup>

ونرى صاحب الكشاف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله : «فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء» ، نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصها : أن داود - عليه السلام - لم يعمل على قتل «أوريا» وإنما سأله أن يتنازل له عن امرأته ، فأنصاع لأمره وتنازل له عنها ، أو أنه خطبها بعد أن خطبها «أوريا» ، فأثر أهلها داود على «أوريا» .

قال صاحب الكشاف : كان أهل زمان داود - عليه السلام - يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبتهم ، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها ، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له «أوريا» ، فأحبها ، فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان - عليه السلام - وقيل : خطبها «أوريا» ثم خطبها داود فأثر أهلها داود على «أوريا» .<sup>(٢)</sup>

والذى نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها .

ينكرها النقل : لأنها لم تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكذوبة .

قال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة .<sup>(٣)</sup>

(١) راجع تفسير ابن جرير ج٢٣ ص ٩٣ ، وتفسير القرطبي ج١٥ ص ١٦١ .

(٢) تفسير الكشاف ج٤ ص ٨٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٧ ص ٥١ .

وقال السيوطي : القصة التي يحكونها فى شأن المرأة وأنها أعجبتة ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفى إسناده ابن لهيعة - وحاله معروف - عن ابن صخر ، عن زيد الرقاشى ، وهو ضعيف .

وقال البقاعى : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود - وقد أخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه .<sup>(١)</sup>

إذن فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن روايتها معروفون بالضعف ، وبالنقل عن الإسرائيليات .

ويروى أن الإمام عليا ع قال : «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء» .<sup>(٢)</sup>

وهى غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح فى أول الآيات وفى آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق ، أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته .

إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء ، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء ، هو داود - عليه السلام - الذى مدحه الله - تعالى - بالقوة فى دينه ، وبكثرة الرجوع إلى ما يرضى الله - تعالى - وبأنه - سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب ، وبأن له عند ربه ﴿ لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ .

والخلاصة : أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة ، لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل ، بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا ، لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء ، الذين صانهم الله - تعالى - من ارتكاب ما يخذش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها .

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه : «ما حكاه الله - تعالى - عن داود قول صادق صحيح ، لا يدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود .

وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلاشك ، مختصمين فى نجاج من الغنم .

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله - تعالى - مالم يقل ، وزاد فى القرآن ما ليس فيه ، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾

(١) راجع تفسير القاسمى ج٤ ص ٥٠٨٨ .

(٢) راجع تفسير الكشاف ج٤ ص ٨١ .

فقال هو : لم يكونا خصمين ، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعمة ، ولا كان للآخر نعمة واحدة ولا قال له : ﴿ أَكْفَلْنِيهَا ﴾ . (١)

٤ - هذا : وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، منها : أن استغفار داود - عليه السلام - إنما كان سببه أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلّة التي جعلت داود يستغفر ربه - إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» فحكم عليه بكونه ظلماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الخصم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل . (٢)

والذي نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ولا يتناسب مع منزلة داود - عليه السلام - الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأوليياته ، ألا يحكم القاضى بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعاً ، فكيف يقال بعد ذلك إن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام الآخر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف سارع داود إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه ؟ .

قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم ، ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة . (٣)

ومنهم من يرى أن استغفار داود - عليه السلام - كان سببه : أن قوماً من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عليه لقصد قتله وجدوا عنده أقواماً ، فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه بما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الانتقام . (٤)

وهذا القول - وإن كان لا بأس به من حيث المعنى - إلا أن الرأى الذى سقناه سابقاً ، والذي ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر من معنى الآيات .

(١) راجع تفسير القاسمى ج٤ ص ١٤٩ ص ٥٠٨٩ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ج٧ ص ١٨٢ .

(٣) تفسير الكشاف ج٤ ص ٨٧ .

(٤) تفسير الألوسى ج٢٣ ص ١٨٦ .

وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين اثنين من البشر ، واستغفار داود - عليه السلام - سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتiale ولايذائه ، وأن هذا ابتلاء من الله - تعالى - ابتلاه بهم ثم تبين له بعد ذلك أنهم ماجاءوا للاعتداء عليه وإنما جاءوا ليقضى بينهم فى خصومة فاستغفر ربه من ذلك الظن ، فغفر الله - تعالى - له .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، التى ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل ، أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين اختارهم الله - تعالى - لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته ، وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال .

١١ - ثم ذكر - سبحانه - جانباً من قصة سليمان - عليه السلام - فمدحه لكثرة رجوعه إلى الله ، وذكر بعض النعم التى منحها إياه ، كما ذكر اختباره له ، وكيف أن سليمان - عليه السلام - طلب من ربه المغفرة والملك فأعطاه ، سبحانه - ما طلبه قال - تعالى - :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ  
 إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيَّتِ الْجِيَادِ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي  
 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ  
 فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى  
 كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي  
 لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ  
 رُجَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصِرٍ ﴿٢٧﴾  
 وَءَاخِرِينَ مَّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا وَمَنْ أَكْفَى  
 بَعِيرٍ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٣٠﴾

فى هذه الآيات الكريمة مسألتان ذكر بعض المفسرين فيهما كلاما غير مقبول .  
 أما المسألة الأولى فهى مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان والمقصود به .

وأما المسألة الثانية فهي معنى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ .

وسنسير في تفسير هذه الآيات على الرأي الذي تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض الأقوال التي قيلت في هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منها ، فنقول - وبالله التوفيق - :

المختص بالمدح في قوله - تعالى - : ﴿ نَعِمَ الْعَبْدُ ﴾ محذوف ، والمقصود به سليمان - عليه السلام - أي : ووهبنا - بفضلنا وإحساننا - لعبدنا داود ابنه سليمان - عليهما السلام - ونعم العبد سليمان في دينه ، وفي خلقه وفي شكره لخالقه - تعالى - .

وجملة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ تعليل هذا المدح من الله - تعالى - لسليمان - عليه السلام - أي : إنه رجاع إلى ما يرضى الله - تعالى - مأخوذ من أب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها .

و﴿ إِذْ ﴾ في قوله : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ منصوب بفعل تقديره : اذكر ، و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ متعلق بعرض و ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار ، وقيل إلى مطلع الفجر .

والصافنات : جمع صافن ، والصابن من الخيل : الذي يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرهما .

والجياذ : جمع جواد ، وهو الفرس السريع العدو ، الجيد الركض ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، يقال : جاد الفرس يجود جوداً فهو جواد ، إذا كان سريع الجرى ، فاره المظهر .

أي : اذكر - أيها العاقل - ما كان من سليمان عليه السلام - وقت أن عرض عليه بالعشى الخيول الجميلة الشكل ، السريعة العدو .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال استعراضه للخيول الصافنات الجياذ على سبيل الشكر لربه ، فقال - تعالى - : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ .

والخير : يطلق كثيراً على المال الوفير ، كما في قوله - تعالى - ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيراً ، لتعلق الخير بها ، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

و﴿ عَنْ ﴾ هنا تعليلية ، والمراد بـ ﴿ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ طاعته وعبادته والضمير في قوله ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ ﴾ يعود إلى الخيل الصافنات الجياذ ، والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذي يحجب الرؤية .

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إنى أحببت استعراض الصافنات الجياد ، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربي وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال فى سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام الذى يحجب الرؤية ﴿ رَدُّوْهَا عَلَيَّ ﴾ أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافنات الجياد على مرة أخرى ، لأزداد معرفة بها ، وفهما لأحوالها .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق ، و«طفق» فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان و﴿ مَسْحًا ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف ، والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات الجياد على ، فردوها عليه ، فأخذ فى مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها ، وسرورا بما هى عليه من قوة هو فى حاجة إليها للجهاد فى سبيل الله - تعالى - .

هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه من كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ولكن كثيرا من المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان - عليه السلام - جلس يوما يستعرض خياله ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قرية لله - تعالى - .

فهم يرون أن الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعود إلى الشمس ، أى : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

وأن المراد بقوله - تعالى - ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ الشروع فى ضرب سوق الخيل وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر .

قال الجمل : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ أى : جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين (١) .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج-٣ ص ٥٧٣ وغيرها من كتب التفسير .

ولم يرتض الإمام الرازى - رحمه الله - هذا التفسير الذى عليه أكثر المفسرين وإنما ارتضى أن الضمير فى ﴿ تَوَارَتْ ﴾ يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ الإعجاب بها والمسح عليها بيده حبا لها .

فقد قال ما ملخصه : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين الإسلام ، ثم إن سليمان - عليه السلام - احتاج إلى الغزو ، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها ، وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه ، وهو المراد من قوله : ﴿ ذَكَرَ رَبِّي ﴾ ثم إنه - عليه السلام - أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره .

ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها . والغرض من ذلك : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو ، وإظهار أنه خبير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض (١) .

وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة ، قد جمعت أفانين من القول لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها ، وإتلاف مال منتفع به بلا معنى ، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها .

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها .

ثم أمر بردها ، فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده ، برا بها ، وإكراما لها ، هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكره من قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة (٢) .

والحق أن ماذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر ، وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها ، لا دليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم .

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازى والإمام ابن حزم ، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى - ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ إنما هو تكريمها .

وأن الضمير فى قوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ ﴾ يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور .

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج٧ ص ١٩٢ فقد أفاض وأجاد فى تفسيره للآيات .

(٢) راجع تفسير القاسمى ج٤ ص ٥١٠ .

١٢ - ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه السلام - فقال -  
تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَتَنَّا ﴾ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان ، تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعلم جودته .

قال الألوسى : وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله - تعالى - ولم يقل : إن شاء الله ، طاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا ، وفيه : «فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا» .

ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين ، وأن الملك قال له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل - أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان .

والمراد بالجدد ذلك الشق الذى ولدته له ، ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة له عليه ليراه .<sup>(١)</sup>

وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال : «تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله» على سبيل التمنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة فى سبيل الله .

ومعنى «فلم يقل» أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمو منزلته اعتبر ذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ .

وقوله : «لأطوفن الليلة» كناية عن الجماع ، قالوا : ولعل المقصود ، طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولأمانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال .

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه .

وهذا الرأى فى تقديرنا هو الرأى الصواب فى تفسير الآية الكريمة لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت فى الصحيحين وفى غيرهما ، لأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان الذى لا يترتب عليه ترك شىء من التكاليف التى كلفهم الله - تعالى - بها جائز عليهم .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١٩٨ .

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أن الوحي مكث فترة لم ينزل على رسول الله ﷺ لأنه نسي أن يقول - عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء - إن شاء الله ، وقال سأجيبكم على ما سألتموني عنه غدا . (١)

ومن العلماء من أثر عدم تعيين الفتنة التي اختبر الله - تعالى - بها سيدنا سليمان - عليه السلام - بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : وجائز أن تكون هذه الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال .

ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان - عليه السلام - في شأن يتعلق بتصرفات في الملك والسلطان ، كما يتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء . (٢)

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأي السابق لاستناده في استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح .

هذا وهناك أقول أخرى ذكروها في المقصود بفتنة سليمان وبالجسد الذي ألقاه الله على كرسى سليمان ، وهي أقوال ساقطة تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم السلام - .

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذي ألقى على كرسى سليمان ، عبارة عن شيطان تمثل له في صورة إنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذي كان يصرف به ملكه ، وقعد ذلك الشيطان على كرسى سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذي قتله سليمان في إحدى الحروب ، وقد بقيت على هذه الحال هي وجواربها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه ولد له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته ، ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسى سليمان ، فاستغفر سليمان ربه ، لأنه لم يعتمد عليه في حفظ ابنه ، إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التي تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتتنافى - أيضا - مع

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص ٤٩٨

(٢) راجع تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٠٠

كل عقل سليم ولا مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصاص الذين يأتون  
بقصص ما أنزل الله بها من سلطان (١).

قال أبوحيان - رحمه الله - نقل المفسرون في هذه الفتنة وفي إلقاء الجسد أقوالا يجب  
براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها في كتبهم ، وهي مما لا يحل نقلها ، وهي إما من أوضاع  
اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ماهي ، ولا الجسد الذي ألقاه على  
كرسى سليمان .

وأرق ما قيل فيه أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال فيه : لأطوفن  
الليلة على سبعين امرأة ، والجسد الملقى هو المولود شق رجل (٢).

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي . . ﴾  
بيان لما قاله سليمان - عليه السلام - بعد الابتلاء والاختبار من الله - تعالى - له .

أى : قال سليمان - عليه السلام - يارب اغفر لى ما فرط منى من ذنوب وزلات .

﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا ﴾ عظيما ﴿ لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ أى : لا يحصل مثله لأحد من  
الناس من بعدى ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ﴾ يا إلهى ﴿ الْوَهَّابُ ﴾ أى : الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .  
وقدم سليمان - عليه السلام - طلب المغفرة على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هي  
الأهم عنده .

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على  
مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة ، وأيضا الآية على أن  
طلب المغفرة من الله - تعالى - سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا لأن سليمان طلب  
المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة (٣).

ولا يقال كيف طلب سليمان - عليه السلام - الدنيا والملك مع حقارتها إلى جانب الآخرة ،  
وما فيها من نعيم دائم ؛ لأن سليمان - عليه السلام - ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه  
وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ونشر العدالة بين الناس ،  
وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج ، وتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

فهو - عليه السلام - لم يطلب الملك للظلم أو البغى ، وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ  
شريعة الله - تعالى - فى الأرض .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج٢٣ ص ١٠١ والألوسى ج٢٣ ص ٢٠٠ وغيرهما .

(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٣ ص ٣٩٧ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٩٦ .

ولقد وضع الإمام القرطبي هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا مع ذمها من الله - تعالى - ؟ . . .

فالجواب : أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، وحاشا لسليمان - عليه السلام - أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ، لأنه هو والأنبياء أزهّد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .

ومعنى قوله : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ أى : أن يسأله ، فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة (١) .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

والتسخير : التذليل والانقياد ، أى : دعانا سليمان - عليه السلام - والتمس منا أن نعطيه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه ، وذللنا له الريح ، وجعلناها منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينة ، إلى حيث يريد أن تجرى .

وقوله : ﴿ تَجْرِي ﴾ حال من الريح ، وقوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ من إضافة المصدر لفاعله ، أى : بأمره إياها ، ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . . . ﴾ (٢) لأن المقصود من الآيتين بيان أن الريح تجرى بأمر سليمان ، فهى تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفة ، وفى كلتا الحالتين هى تسير بأمره ورغبته .

وقوله : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ معطوف على الريح أى : سخرنا له الريح تجرى بأمره ، وسخرنا له الشياطين ، بأن جعلناهم منقادين لطاعته ، فمنهم من يقوم ببناء المباني العظيمة التى يطلبها سليمان منهم ومنهم الغواصون الذين يغوصون فى البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التى اشتملت عليها البحار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ معطوف على كل بناء ، داخل معه فى حكم البذل من الشياطين .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البنائون ، وكان منهم الغواصون وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .

فمعنى ﴿ مَقْرَنَيْنِ ﴾ مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود ، والأصفاذ : جمع صفا وهو مايوثق به الأسير من قيد وغل .

ثم بين - سبحانه - أنه أباح لسليمان - عليه السلام - أن يتصرف فى هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان - عليه السلام - وقلنا له : هذا عطاؤنا لك ﴿ فَاْمُنُّنْ أَوْ أْمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : فاعط من شئت منه ، وأمسك عمن شئت ، فأنت غير محاسب منا لا على العطاء ، ولا على المنع . ثم بين - سبحانه - ما أعده لسليمان - عليه السلام - فى الآخرة ، فقال : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا ﴾ أى فى الآخرة ﴿ لَزُلْفَى ﴾ لقربى وكرامة ﴿ وَحُسْنِ مَّآبٍ ﴾ أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

١٣ - وفى سورة « النمل » قصة طويلة حكى القرآن الكريم معظمها عما دار بين سليمان وبين ملكة سبأ ، قال - تعالى - :

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى  
كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ عُلِّمْنَا مَطْقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ  
الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ  
يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّى إِذَا تَوَّأَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ تَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا  
مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩﴾ فَنَبَسَمَ  
ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ  
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي  
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٠﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ .

أى : والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علما واسعا من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا .

أما داود فقد أعطاه - سبحانه - علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما علمه صناعة الدروع ، قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (١) .

وأما سليمان فقد آتاه - سبحانه - ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمه منطلق الطير ، وورقه الحكم السديد بين الناس ، قال - تعالى - : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لوقوفهما من نعم الله - تعالى - عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما .

والواو فى قوله : ﴿ وَقَالَا ﴾ للعطف على محذوف ، أى : آتيناها علما غزيرا فعملا بمقتضاه وشكرا لله عليه ، وقالوا : الحمد لله الذى فضلنا بسبب ما آتانا من علم ونعم ، على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم ينالوا ما نلنا من خيره وبره - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : «وفى الآية دليل على شرف العلم ، وإنافة محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم ، وأن من أوتيته فقد أوتى فضلا على كثير من عباده الله» (٣) .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ ﴾ دلالة على حسن أدبهما ، وتواضعهما ، حيث لم يقولوا فضلنا على جميع عباده .

والمراد بالوراثة فى قوله - تعالى - : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ ﴾ وراثة العلم والنبوة والملك ، أى : وورث سليمان داود فى نبوته وعلمه وملكه .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ ﴾ أى : فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك ، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، ولكن

(١) سورة سبأ الآية ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٩ .

(٣) تفسير الكشاف ج٣ ص ٣٥٣ .

المراد بذلك وراثته الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، أخبر بذلك رسول الله - ﷺ - «نحن معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقة» . (١)

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان على سبيل التحدث بنعم الله عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْتُمْ طَائِرٌ وَإِنَّا لَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۗ ﴾ .

أى : وقال سليمان - عليه السلام - على سبيل الشكر لله - تعالى - : يا أيها الناس : علمنا الله - تعالى - بفضلته وإحسانه فهم ما يريد كل طائر إذا صوت أو صاح ، وأعطانا - سبحانه - من كل شيء نحتاجه وننتفع به فى ديننا أو دنيانا .

وقدم نعمة تعليمه منق الطير ، لأنها نعمة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، وتعتبر من معجزاته - عليه السلام - .

وقيل : إنه علم منق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير لأنه أظهر فى النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس .

وعبر عن نعم الله - تعالى - عليه بنون العظمة فقال : ﴿ وَأَوْتِينَا ۗ ﴾ ولم يقل أوتيت ، للإشعار بأنه عبد من عباد الله المطاعين ، الذين سخر لهم جنودا من الجن والإنس والطير ، ليكونوا فى خدمته ، وليستعملهم فى وجوه الخير لا فى وجوه الشر ، فهو لم يقل ذلك على سبيل التباهى والتعالى ، وإنما قاله على سبيل التحدث بنعمة الله .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ يعود إلى ما أعطاه الله - تعالى - إياه من العلم والملك وغيرهما .

أى : إن هذا الذى أعطانا إياه من العلم والملك ، وكل شيء تدعو إليه الحاجة ، لهو الفضل الواضح ، والإحسان الظاهر منه - عز وجل - .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر ملك سليمان - عليه السلام - فتقول : ﴿ وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۗ ﴾ .

والحشر : الجمع ، يقال : حشر القائد جنده إذا جمعهم لأمر من الأمور التى تهمة . وقوله : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ من الوزع بمعنى الكف والمنع ، يقال : وزعه عن الظلم وزعا ، إذا كفه عنه .

ومنه قول عثمان بن عفان رضي الله عنه : «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ١٩٢ .

ومنه قول الشاعر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس ، إلا وافر العقل كامله

والمعنى : وجمع لسليمان - عليه السلام - عساكره وجنوده من الجن والإنس والطيور ﴿ فَهَمُّ يُوَزَعُونَ ﴾ أى : فهم محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب ، بحيث لا يتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المسئول عنها .

فالتعبير بقوله : ﴿ يُوَزَعُونَ ﴾ يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثرتهم ، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفرادها إلى جادة الصواب .

ولقد ذكر بعض المفسرين هنا أقوالا فى عدد جيش سليمان ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لضعفها ، ويكفيها أن نعلم أن الله - تعالى - قد سخر لسليمان جندا من الجن والإنس والطيور ، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد علمه إلى الله - تعالى - وحده ، وإن كان التعبير القرآنى يشعر بأن هؤلاء الجند المجموعين ، يمثلون موكبا عظيما ، وحشدا كبيرا .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته نملة عندما رأت هذا الجيش العظيم المنظم ، فقال - تعالى - : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ والمعنى : وحشر لسليمان جنوده ، فسار هؤلاء الجنود فى قوة ونظام ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴾ أى : على مكان يعيش فيه النمل فى مملكة سليمان ، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ على سبيل النصيح والتحذير بعد أن رأت سليمان وجنوده : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ أى : ادخلوا أماكن سكناكم ، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير ، وانجوا بأنفسكم ، كى ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما فعله سليمان بعد أن أدرك ما قالته النملة لأفراد جنسها ، فقال - تعالى - : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ أى : فسمع قولها السابق فاهترت نفسه ، وتبسم ضاحكا من قولها ، لفطنتها إلى تحذير أبناء جنسها ، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه ، حيث وصفتهم بأنهم لا يقدمون على إهلاك النمل ، إلا بسبب عدم شعورهم بهم . وقوله : ﴿ ضَاحِكًا ﴾ حال مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم ، وقيل : هو حال مقدرة ، لأن التبسم أول الضحك .

ثم حكى سبحانه - ما نطق به سليمان بعد ذلك فقال : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِي... ﴾ .

أى : وقال سليمان : يا رب ألهمنى المداومة على شكرك والامتناع عن جحود نعمك ، والكف عن كل ما يؤدى إلى كفران مننك التى أفضتها على وعلى والدى .  
ووفقنى كذلك لأن ﴿ أَعْمَل ﴾ عملاً ﴿ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ عنى وتقبله منى ﴿ وَأَدْخَلْنِي ﴾ يا إلهى ﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾ وإحسانك ﴿ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

وهكذا جمع سليمان - عليه السلام - فى هذا الدعاء البليغ المؤثر ، أسمى ألوان الخشية من الله - تعالى - والشكر له - سبحانه - على نعمه والرجاء فى رضاه وعطائه الجزيل .

١٤ - ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك ما دار بين سليمان - عليه السلام - وبين جندى من جنود مملكته وهو الهدهد ، فقال - تعالى - :

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ  
كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ لَا عَذِيبَةَ عَذَابًا شَدِيدًا أُولَئِكَ أَزْوَاجُ ثُلَاثٍ  
أُولَئِكَ يُرِيكَ سُلْطَانُ مَبِينٍ ﴿١٧﴾ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطُ بِهِ  
وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِي يَاقِينٍ ﴿١٨﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ  
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ  
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾

والتفقد : تطلب الشيء ومعرفة أحواله ، ومنه قولهم : تفقد القائد جنوده ، أى : تطلب أحوالهم ليعرف حاضرهم من غائبهم .

والطير : اسم جنس لكل ما يطير ، ومفرده طائر ، والمراد بالهدهد هنا : طائر معين وليس الجنس .

أى : وأشرف سليمان - عليه السلام - على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال بعد أن نظر فى أحوال الطير : ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدُودَ ﴾ أى : ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدهد ثم تأكد من غيابه فقال بل هو من الغائبين .

وقوله - تعالى - : ﴿ لِأَعَذِبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ بيان للحكم الذى أصدره سليمان - عليه السلام - على الهدهد بسبب غيابه بدون إذن .

أى : لأعذبن الهدهد عذابا شديدا يؤله ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بحجة قوية توضح سبب غيابه ، وتقتنعنى بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه أو ذبحه .

فأنت ترى أن سليمان - عليه السلام - وهو النبى الملك الحكيم العادل - يقيد تعذيب الهدهد أو ذبحه ، بعدم إتيانه بالعدر المقبول عن سبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه .

فكأنه - عليه السلام - يقول : هذا الهدهد الغائب إما أن أعذبه عذابا شديدا وإما أن أذبحه بعد حضوره ، وإما أن يأتينى بعدر مقبول عن سبب غيابه ، وفى هذه الحالة فأنا سأعفو عنه .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من الهدهد ، فقال : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : فمكث الهدهد زمانا غير بعيد من تهديد سليمان له ، ثم أتاه فقال له : ﴿ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : علمت أشياء أنت لم تعلمها ، وابتدأ كلامه بهذه الجملة التى فيها مافيهما من المفاجآت لترغيبه فى الإصغاء إليه ، ولاستمالة قلبه لقبول عذره بعد ذلك .

وقوله : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴾ تفسير وتوضيح لقوله قبل ذلك : أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وسبأ فى الأصل : اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم صار بعد ذلك اسما لحنى من الناس سموا باسم أبيهم ، أو صار اسما للقبيلة ، أو لمدينة تعرف بجأرب باليمن ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

أى : قال الهدهد لسليمان بادئا حديثه بما يشير إلى قبول عذره : علمت شيئا أنت لم تعلمه ، وجئتك من جهة قبيلة سبأ بنياً عظيماً خطيراً ، أنا متيقن من صدقه .

ثم قص عليه ما رآه فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ والمراد بهذه المرأة : بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان ، ورثت الملك عن أبيها .

أى : إنى وجدت قبيلة سبأ تحكمها امرأة ، وتتصرف فى أمورهم دون أن يعترض عليها معترض ، أو ينافسها منافس .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : وبين يديها جميع الأشياء التى تحتاجها لتصريف شئون مملكتها ، والمحافظة على قوتها واستقرارها .  
وفضلا عن كل ذلك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : لها سرير ملك فخم يدل على غناها وترفها ، ورقى مملكتها فى الصناعة وغيرها .  
والمراد أن لها عرشا عظيما بالنسبة إلى أمثالها من الدنيا .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ .

أى : والأهم من كل ذلك أنى وجدت هذه المرأة ومعها قومها يتركون عبادة الله - تعالى - ويعبدون الشمس التى هى من مخلوقاته - عز وجل - .

﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التى هى عبادتهم للشمس ، وما يشبهها من ألوان الكفر والفسوق عن أمر الله - تعالى - .

﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ أى فمنعهم الشيطان ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الحق ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى عبادة الله - تعالى - الذى لا معبود بحق سواه .

وقوله : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بيان لما ترتب على إغواء الشيطان لهم ، وقد قرأ عامة القراء ﴿ أَلَا ﴾ - بتشديد اللام - ﴿ يَسْجُدُوا ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المدغمة فى لفظه لا ، وهو مع ناصبه فى تأويل مصدر ، فى محل نصب على أنه مفعول لأجله .

والمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم من أجل أن يتركوا السجود لله - تعالى - الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴿ أى : الذى يظهر الشئ المخبوء فى السموات والأرض ، كائنا ما كان هذا الشئ لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شئ فىهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ معطوف على ما قبله .

والمعنى : زين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يعلم الخبوء والمستور فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون من أسرار ، وما تعلنون من أقوال .

وقوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فى معنى التعليل لحقيقة السجود لله - تعالى - وحده .

أى : اجعلوا سجودكم لله - تعالى - وحده ، واتركوا السجود لغيره ، لأنه - سبحانه - لا إله بحق سواه ، وهو - سبحانه - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يدانيه ولا يشبهه شىء مما يطلق عليه هذا اللفظ .

١٥ - ثم تحكى السور بعد ذلك ما كان من سليمان - عليه السلام - وما كان من ملكة سبأ بعد أن وصلها كتابه ، فقال - تعالى - :

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقًا أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَبْ بِكِتَابِي  
هَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ  
يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِي بِكِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَنُؤِنِّي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾  
قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفَؤُنِّي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾  
قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوْدٍ وَأَوْلُوْا أَبَاسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا  
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا  
أَعْرَافَ أَهْلِهَا أَذْلًا ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ  
بِهَدِيَّةٍ فَانظُرِي لَهُمْ رُجُوعَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ ﴾ حكاية لما قاله سليمان - عليه السلام - فى رده

على الهدهد ، الذى قال له فى تبرير عذره : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ الخ .

والفعل : «ننظر» من النظر بمعنى التأمل فى الأمور ، والتدبير فى أحوالها ، أى : قال سليمان للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر - أيها الهدهد - فى أقوالك ، ونرى أكنت صادقاً فيها أم أنت من الكاذبين .

وهكذا نرى نبى الله سليمان - وهو العاقل الحكيم - لا يتسرع فى تصديق الهدهد أو تكذيبه ، ولا يخرج به النبأ العظيم الذى جاء به الهدهد عن اتزانة ووقاره ، وإنما يبنى أحكامه على ما سيسفر عنه تحقيقه من صدق خبره أو كذبه .

وهذا هو اللائق بشأن النبى الكرم سليمان ، الذى آتاه الله - تعالى - النبوة والملك والحكمة .

وقوله - تعالى - : ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

بيان لما أمر به سليمان - عليه السلام - الهدهد ، بعد أن قال له : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

أى : خذ - أيها الهدهد - كتابى هذا ، فاذهب به إلى هؤلاء القوم من أهل سبأ ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى : انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يراجع بعضهم بعضا ، ثم أخبرنى بذلك .

ثم بين - سبحانه - ما فعلته ملكة سبأ ، بعد أن جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : قالت لحاشيتها بعد أن قرأت الكتاب وفهمت مافيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ﴾ أى : يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ مِنْ قَوْمِي ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب البديع ، والتوجيه الحسن ، ولجمال هيئته ، وعجيب أمره .

ثم أفصحت عن مصدره فقالت : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ وعن مضمونه فقالت : ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم ، حيث اشتمل على اسم الله - تعالى - وعلى بعض صفاته ، وعلى ترك التكبر ، وعلى الدخول فى الدين الحق ، كما يدل عليه قوله - تعالى - : ﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ ﴾ أى : ألا تتكبروا علىّ كما يفعل الملوك الجبابرة ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين طائعين لشريعة الله - وحده - التى توجب عليكم إخلاص العبادة له ، دون أحد سواه ، إذ هو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، وكل معبود سواه فهو باطل .

فالكتاب - مع إيجازه - متضمن لفنون البلاغة ، ولمظاهر القوة الحكيمة العادلة ، التى أتبعها سليمان فى رسالته إلى ملكة سبأ وقومها .

وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها فقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ والفتوى : الجواب على المستفتى فيما سأل عنه ، والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأى .

أى : قالت يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ وَالْقَادَةَ مِنْ قَوْمِي ، أشيروا علىّ ماذا سأفعل فى أمر هذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان والذى يطلب منا فيه ما سمعتم؟ .

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ أى : أنتم تعلمون أنى لا أقطع أمرا يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم ، وأخذ رأيكم .

وفى قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلها ، حيث جمعت رءوس مملكتها ، واستشارتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها ، وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

فقد قالوا لها : ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً ﴾ أى : أصحاب قوة فى الأجساد ، ﴿ وَأَوْلُوا بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ أى : وأصحاب بلاء شديد فى القتال .

﴿ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فتأملى وتفكرى فيما تأمريننا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فنحن سنطيعك فى كل ما تطلبينه منا .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقال - تعالى - : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ ﴾ من شأنهم أنهم ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ من القرى أو مدينة من المدن ، بعد تغلبهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ ، أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار .

وفوق كل ذلك : ﴿ وَجَعَلُوا أَعْزَةَ أَهْلِهَا أَدْلَةً ﴾ أى : أهانوا أشرفها ورؤساءها ، وجعلوهم أدلة بعد أن كانوا أعزة ، ليكونوا عبرة لغيرهم .

﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أى : وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى ، عن طريق القهر والقسر والقتال .

والمقصود من قولها هذا : التلويح لقومها بأن السلم أجدى من الحرب ، وأن الملاينة مع سليمان - عليه السلام - أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة .

ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ مُرْسَلَةٌ ﴾ معطوف على ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ وهو من الانتظار بمعنى الترقب .

أى : وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان ، وإنى لمنتظرة ماذا سيقول سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية وماذا سيفعل معهم .

قال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

وقال قتادة : رحمها الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها!! لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس (١) .

١٦ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية ، فقال - تعالى - :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، والتقدير : وهيات ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام - وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة ، فلما جاء سليمان ، أى : فلما وصل الرسل إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .

فلما رآها قال - على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية - ﴿ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ ﴾ .  
أى : أتقدمون إلى هذا المال الزائل والمتمثل فى تلك الهدية لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله - تعالى - وحده ، وتاركون لعبادة غيره؟ .  
كلا لن ألتفت إلى هديتكم ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ ﴾ من النبوة والملك الواسع ﴿ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ من أموال من جملتها تلك الهدية .

فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم ، ولاستخفافه بها ، وسخريته منها .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ إضراب عما ذكره من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار ، إلى بيان ما هم عليه من ضيق فى التفكير ، حيث توهموا أن هذه الهدية ، قد تفيد فى صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله - تعالى - وقد تحمله على تركهم وشأنهم .

أى : افهموا - أيها الرسل - وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية : إن سليمان ما آتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم وإنه يقول لكم جميعا : انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها ، لأنكم لا تفكرون إلا فى متع الحياة الدنيا ، أما أنا ففى غنى عن هداياكم ولا يهمنى إلا إيمانكم .  
ثم أتبع - سليمان - عليه السلام - هذا الاستنكار بالتهديد فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٢٠٠ .

أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : عد من حيث أتيت ومعك هديتك .  
﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أى : فوالله لنأتينهم بجنود لاقدرة لهم على  
مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .  
﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى : ووالله لنخرجن هذه الملكة وقومها من  
بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مهزومين مهزورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .  
وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن  
لا يهتم إلا بالجواهر واللباب فيما يقصه من أحداث .  
١٧ - ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما طلبه سليمان - عليه السلام - من جنوده فيقول :

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي  
مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ عَفْرِيُّ مِنْ الْجِنِّ أَنَاءَ إِنِّيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ نَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ  
وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا  
ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ  
هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا  
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد  
- والله - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبعثت إليه : إنى قادمة إليك بملوك  
قومى ، لأنظر فى أمرك وما تدعوننا إليه من دينك ، ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف  
رجل من أشرف قومها ، بعد أن أقفلت الأبواب حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس  
والجن من تحت يده فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه الملكة قبل  
أن تحضر إلى هى وقومها مسلمين ، أى : منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به .

ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها ، من بلاد اليمن إلى بيت  
المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم قدرة الله - تعالى - وعلى ما أعطاه

- سبحانه - له من ملك عريض ، ومن نعم جلييلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير ، ولعل كل ذلك يقودها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين .

وبعد أن قال سليمان لجنده : أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، رد عليه عفريت من الجن بقوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ .

والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله - تعالى - لخدمة سليمان ، وللقيام بأداء ما يكلفهم به ، ويقال له : عفريت ، وعفريتة - بكسر العين وسكون الفاء - .

أى : قال عفريت من الجن لسليمان : أنا آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى تجلس فيه للقضاء بين الناس ، أو قبل أن تقف من جلوسك .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أى : وإنى على حملة وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك بحيث لا يثقل على حملة ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شىء .

وكان سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك الملكة ، فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوى ، فنهض جندى آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قالوا : والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : أصف بن برخيا ، وهو رجل من صلحاء بنى إسرائيل آتاه الله - تعالى - من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .

قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعا به الداعى أجاب الله له دعاؤه .

وقيل : المراد به سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت ، فكأنه استبطأ ما قاله العفريت فقال له : - على سبيل التحقير - أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وقيل : المراد به جبريل ، والأول هو المشهور عند المفسرين .

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله - تعالى - يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة فى إحضاره .

وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله وشرف حامله وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله - تعالى - لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه - سبحانه - من علم .

وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ﴿ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ ﴾ أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه ، لم يعتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والغرور ، بل قال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ .

أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة من فضل ربي وعطائه ، لكى يمتحنى أشكره على نعمه أم أجدد هذه النعم .

﴿ وَمَنْ شَكَرَ ﴾ الله - تعالى - على نعمه ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ حيث يزيده سبحانه - منها .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ نعم الله - تعالى - وجحدها ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ كَرِيمٌ ﴾

فى معاملته لهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعفو عن كثير من ذنوبهم .

١٨ - ثم ختم - سبحانه - هذه القصة البديعة ، ببيان ما فعله سليمان بالعرش ، وبما قاله للملكة سبأ بعد أن قدمت إليه ، وبما انتهى إليه أمرها ، فقال - تعالى - :

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا

عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا

جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْبِنَا أَلْجِمِ مِنْ قَبْلِهَا

وَكَمَا مَسَّلِينَ ﴿١٩﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ

لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ

رَبِّ إِنِّي نَزَّلْتُ نَفْسِي وَأَسَلْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾

وقوله : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ من التنكير الذى هو ضد التعريف ، وهو جعل الشىء على هيئة تخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .

أى : قال سليمان لجنوده ، بعد أن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذه الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته ، وأعلاه فى أسفله .

وافعلوا ذلك لكى ﴿ نَنْظُرْ ﴾ ونعرف ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عندما تسأل ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفة الشيء بعد تغيير معاملة المميّزة له ، أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه .

فالمقصود بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ، عند مفاجأتها بإطلاعها على عرشها الذى خلفته وراءها فى بلادها ، وإيقافها على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى ما وهبه لسليمان - عليه السلام - من معجزات .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ .. ﴾ شروع فى بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .

أى : فلما وصلت بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - عرض عليها عرشها بعد تغيير معاملة ، ثم قيل لها من جهته - عليه السلام - : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ أى : أمثل هذا العرش الذى ترينه الآن ، عرشك الذى خلفته وراءك فى بلادك .

فالهمزة للاستفهام والهاء للتنبية - والكاف حرف جر ، وذا اسم إشارة مجرور بها ، والجار والمجرور خبر مقدم ، وعرشك مبتدأ مؤخر .

ولم يقل لها : أهذا عرشك لثلا يكون إرشادا لها إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اختبار ذكائها وحسن تصرفها .

ولاشك أن هذا القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن فى حساباتها ، وإلا فأين هى من عرشها الذى تركته خلفها على مسافة بعيدة ، بينها وبين مملكة سليمان عشرات الآلاف من الأميال .

ولكن الملكة الأريية العاقلة ، هداها تفكيرها إلى جواب ذكى ، فقالت - كما حكى القرآن عنها - ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى : هذا العرش - الذى غيرت هيئته - كأنه عرشى الذى تركته فى بلادى ، فهى لم تثبت أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمر مبنيًا على الظن والتشبيه ، لكى يناسب الجواب السؤال ، وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ يرى بعض المفسرين أنه من تنمة كلام بلقيس ، وكأنها عندما استشعرت بما شاهدته اختبار عقلها قالت : وأوتينا العلم من قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان وكنا مسلمين طائعين لأمره .

ومنهم من يرى أنه من كلام سليمان ، وتكون الجملة معطوفة على كلام مقدر وجيء بها من قبيل التحدث بنعمة الله - تعالى - .

والمعنى : قال سليمان : لقد أصابت بلقيس فى الجواب ، وعرفت الحق ، ولكننا نحن الذين أوتينا العلم من قبلها - أى من قبل حضور ملكة سبأ - وكنا مسلمين لله - تعالى - وجوهنا .

ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكاها القرآن على أنها من تنمة كلامها أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ بيان للأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل ذلك .

أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبده من دون الله - تعالى - وهو الشمس - عن عبادة الله - تعالى - وحده ، وعن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

وجملة ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ تعليل لسببية عبادتها لغير الله - تعالى - .

أى : إن هذه المرأة كانت من قوم كافرين بالله - تعالى - جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن فى مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم ، فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ، ليزداد يقيننا بوحداية الله - تعالى - وبِعَظْمِ النِّعَمِ التى أعطاه - سبحانه - له فقال : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا .. ﴾ .

والصرح : القصر ويطلق على كل بناء مرتفع ، ومنه قوله - تعالى - :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (١)

ويطلق - أيضا - على صحن الدار وساحته ، يقال : هذه صرحة الدار ، أى : ساحتها وعرضتها .

وكان سليمان - عليه السلام - قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبللور ، بحيث يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء .

أى : قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألتها : أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه ، قال لها : ادخلى هذا القصر ، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة ، حسبت لجة أى : ظنته ماء غزيرا كالبحر .

﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا .. ﴾ لثلاث تبتل بالماء أذيال ثيابها .

(١) سورة غافر الآية ٣٦ .

وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة: ﴿إِنَّهُ﴾ أى: ما حسبته لجة ﴿صَرَخَ مُرَدًّا مِّن قَوَارِيرٍ﴾ أى: قصر ملس من زجاج لا يحجب ما وراءه .

فقوله: ﴿مُرَدًّا﴾ بمعنى ملس ، مأخوذ من قولهم: شجرة مرداء إذا كانت عارية من الورق ، و غلام أمرد ، إذا لم يكن فى وجهه شعر والتمريد فى البناء معناه: التلميس والتسوية والنعومة .

والقوارير: جمع قارورة ، وهى إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر فى رحمها ، أو تشبيها لها بأنية الزجاج من حيث ضعفها ، ومنه الحديث الشريف: «رفقا بالقوارير» والمراد بالقوارير هنا ، المعنى الأول .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانبا من عجائب صنع الله فقال: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أى: بسبب عبادتى لغيرك قبل هذا الوقت ﴿وَأَسَلْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ طائعة مختارة ، وإسلامى إنما هو ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس لأحد سواه .

١٩ - وبعد ، فهذا تفسير محرر لتلك القصة ، وقد عرضنا عن كثير من الإسرائيليات التى حشا بها بعض المفسرين تفاسيرهم ، عند حديثهم عن الآيات التى وردت فى هذه القصة ، ومن ذلك ما يتعلق بسليمان - عليه السلام - وبعجنوده من الطير ، وبمحاورة النملة والهدهد له ، وبالهدية التى أرسلتها ملكة سبأ إليه ، إلخ ، وقد اشتملت هذه القصة على عبر وعظات وأحكام وآداب من أهمها ما يأتى :

١ - أن الله - تعالى - قد أعطى - بفضله وإحسانه - داود وسليمان - عليهما السلام - نعما عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .

وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله - تعالى - واستعمالها فيما خلقت له .

ونرى ذلك فى قوله - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وفى قوله - تعالى - :

﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

٢ - أن سليمان - عليه السلام - قد أقام دولته على الإيمان بالله - تعالى - وعلى العلم النافع ، وعلى القوة العادلة .

أما الإيمان بالله - تعالى - وإخلاص العبادة له - سبحانه - فهو كائن له - عليه السلام - بمقتضى نبوته التى اختاره الله لها ، وبمقتضى دعوته غيره إلى وحدانية الله - عز وجل - فقد حكى القرآن عنه أنه قال فى رسالته إلى ملكة سبأ : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾ .

وأما العلم النافع ، فيكفى أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا .. ﴾ .

واشتملت على قوله - سبحانه - :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .. ﴾ .

وعلى قوله - عز وجل - :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴾ .

وأما القوة فنراها فى قوله - تعالى - : ﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بَجُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَدْلَلَةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

٣ - أن سليمان - عليه السلام - كانت رسالته الأولى نشر الإيمان بالله - تعالى - فى الأرض ، وتطهيرها من كل معبود سواه .

والدليل على ذلك أن الهدهد عندما أخبره بحال الملكة التى كانت هى وقومها يعبدون الشمس من دون الله ما كان من سليمان - عليه السلام - إلا أن حملة كتابا قويا بليغا يأمرهم فيه بترك التكبر ، والغرور ، وبإسلام وجوههم لله وحده : ﴿ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

٤ - أن سليمان - عليه السلام - كان يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته ، حيث يعرف شئونها الصغيرة والكبيرة ، ويعرف الحاضر من أفرادها والغائب ، حتى ولو كان الغائب طيرا صغيرا ، من بين آلاف الخلائق الذين هم تحت قيادته .

ولقد صور القرآن ما كان عليه سليمان - عليه السلام - من يقظة ودراية بأفراد رعيته  
أبدع تصوير فقال: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : فى الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ،  
والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره ، كيف لم يخف على سليمان حاله ،  
فكيف بعظام الملك .

ثم يقول - رحمه الله - على سبيل التفجع والشكوى عن حال الولاية فى عهده : فما  
ظنك بوال تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان ، ورحم الله القائل :  
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها<sup>(١)</sup>

٥ - أن سليمان - عليه السلام - كان بجانب تعهده لشئون رعيته ، يمثل الحاكم الحازم  
العادل ، الذى يحاسب المهمل ، ويتوعد المقصر ، ويعاقب من يستحق العقاب ، وفى  
الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذرا مشروعا ومقنعا .

انظر إليه وهو يقول - كما حكى القرآن عنه - عندما تفقد الهدهد فلم يجده :  
﴿ لِأَعَذِبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

إن الجيوش الجرارة التى تحت قيادة سليمان - عليه السلام - لا يؤثر فيها غياب هدهد  
منها ، ولكن سليمان القائد الحازم ، كأنه يريد أن يعلم جنوده ، أن لكل جندى رسالته  
التي يجب عليه أن يؤديها على الوجه الأكمل سواء أكان هذا الجندى صغيرا أم كبيرا ،  
وأن من فرط فى الأمور الصغيرة ، لا يستبعد منه أن يفرط فى الأمور الكبيرة .

٦ - أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلمها العدل والحرية والأمان ، لا يمنعه صغره من  
أن يرد على الحاكم الكبير ، بشجاعة وقوة .

وانظر إلى الهدهد - مع صغره - يحكى عنه القرآن ، أنه رد على نبي الله سليمان الذى  
أتاه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده بقوله : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّأٍ  
بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ .

ونجد سليمان - عليه السلام - لا يؤاخذ على هذا القول ، بل يضع قوله موضع التحقيق  
والاختبار فيقول له : ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

وهكذا الأم العاقلة الرشيدة ، لا يهان فيها الصغير ، ولا ينتقص فيها الكبير .

(١) تفسير القرطبي ج-١٣ ص ١٧٨ .

٧ - أن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن تتألف الأمم من حاكمين ومحكومين ، وأن كل فريق له حقوق وعليه واجبات ، وأن الأمم لا تصلح بدون حاكم يحكمها ويرعى شئونها ، ويحق الحق ويبطل الباطل .

قال القرطبي عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ، في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعةً - أى ولاية ، أو قضاة - يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض .

قال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضاة : والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة - أى : حكاما حازمين عادلين (١) .

ومن الأقوال الحكيمة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» ، أى : ليردع ويخيف بالسلطان ما لا يردع ويخيف بالقرآن .

٨ - أن الحاكم العاقل هو الذى يستشير من هو أهل للاستشارة فى الأمور التى تهم الأمة .  
فهاهى ذى ملكة سبأ عندما جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - جمعت وجوه قومها ، وقالت لهم - كما حكى القرآن عنها - : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ ﴾ .

قال القرطبي : وفى هذه الآية دليل على صحة المشاورة ، وقد قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ وقد مدح الله الفضلاء بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ ﴾ والمشاورة من الأمر القديم خاصة فى الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس من دون الله قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ... ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدِ الأَمْرِ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٢)

٩ - أن الهدية إذا لمس المهدي إليه من ورائها ، عدم الإخلاص فى إهدائها ، وأن المقصد منها صرفه عن حق يقيمه ، أو عن باطل يزيه ، فإن الواجب عليه أن يرد هذه الهدية لصاحبها ، وأن يمتنع عن قبولها .

(١) تفسير القرطبي ج١٣ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج١٣ ص ١٩٤ .

ألا ترى إلى سليمان - عليه السلام - قد رد الهدية الثمينة التي أهدتها بلقيس إليه ، حين أحس أن وراء هذه الهدية شيئاً ، يتنافى مع تبليغ وتنفيذ رسالة الله - تعالى - التي أمره بتبليغها وتنفيذها ، ألا وهى : الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - والنهي عن الإشراف به ، وبلقيس إنما كانت تقصد بهديتها ، اختبار سليمان ، أنبى هو أم ملك ، كما سبق أن أشرنا .

لذا وجدنا القرآن يحكى عن سليمان - عليه السلام - أنه رد هذه الهدية مع من جاءوا بها ، وقال : ﴿ أَتَمْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ .

١٠ - أن ملكة سبأ دل تصرفها على أنها ملكة عاقلة رشيدة ، حكيمة ، فقد استشارت خاصتها فى كتاب سليمان - عليه السلام - ولوحت لهم بقوته وبما سترتب على حربه ، وأثرت أن تقدم له هدية على سبيل الامتحان ، واستحبت المسألة على المحاربة ، وكان عندها الاستعداد لقبول الحق والدخول فيه ، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين .

وعندما التقت بسليمان ، وانكشفت الحقائق سارعت إلى الدخول فى الدين الحق ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذه بعض العبر والعظات التى تؤخذ من هذه القصة البديعة الحكيمة ، التى تشهد بأن هذا القرآن من عند الله «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» .

## قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام -

١ - قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام - وردت في سور: آل عمران ، ومريم ، والأنبياء .

وقد تكرر اسم زكريا في القرآن سبع مرات ، أما ابنه يحيى فقد تكرر اسمه ست مرات .  
وزكريا - عليه السلام - هو ابن أزن بن برشيا ، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهما السلام - .

وكان زكريا قريب العهد بعيسى ابن مريم ، يدل على ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم من أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى - عليه السلام - .  
قال - تعالى - :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران]

والمتأمل فى القرآن الكريم يراه يجمع بين زكريا وابنه يحيى خلال حديثه عن هذين النبيين الكريمين .

٢ - ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى فضل هذين النبيين الكريمين ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا - عليه السلام - نجارا » .

أى : أنه كان يعيش من عمل يده ، ولا يتطلع إلى مافى يد غيره ، وفى الحديث الشريف : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ومنها : ما روى عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يحيى بن زكريا - عليهما السلام - فإنه ما هم بخطيئة » .

ومنها ما روى عن الحارث الأشعري أن النبى ﷺ قال : إن الله - تعالى - أمر يحيى ابن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن .

فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله - عز وجل - أمرنى بنخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن :

أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن مثل ذلك كمثله رجل اشترى عبداً من خالص ماله ، فجعل يعمل ويؤدى عمله إلى غير سيده ، فأيكف يسره أن يكون عبده كذلك؟ وأمركم بالصلاة ، فإن الله - تعالى - ينصب وجهه بوجه عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثله رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثله رجل أسره العدو ، فشدوا يديه إلى عنقه ، وقربوه ليضربوا عنقه ، فقال لهم : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وأمركم بذكر الله كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثله رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله - تعالى - .

٣ - ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن زكريا ويحيى - عليهما السلام - قوله - تعالى - فى مطلع سورة «مريم» .

ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿١٨٦﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً  
خَفِيًّا ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ  
بِدُعَاؤِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿١٨٨﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي  
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿١٨٩﴾ يَرْتَضِيهِ وَيَرْثُ مِنْهُ آلُ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ  
رَبِّ رِضِيًّا ﴿١٩٠﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيًّا ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

والمعنى : هذا الذى نذكره لك يا محمد ، هو جانب من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التى اختصاصناه بها ، ومنحناه إياها .

وقوله : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ ظرف لرحمة ربك ، والمراد بالنداء : الدعاء الذى تضرع به زكريا إلى ربه - عز وجل - .

أى : هذا الذى قرأناه عليك يا محمد فى أول هذه السور ، وذكرناه لك ، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا ، وقت أن نادانا وتضرع إلينا فى خفاء وستر ، ملتصقا منا الذرية الصالحة .

وإنما أخفى زكريا دعاءه ، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء ، وقرب من الإخلاص ، وقد أمر الله - تعالى - به فى قوله : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .  
ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه فى أوقات تردده على مريم ، واطلاعه على ما اعطاه الله - تعالى - من رزق وفير .

ويشهد لذلك قوله - تعالى - ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١)

ثم بين - سبحانه - ما نادى به زكريا ربه فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . . ﴾  
والوهن : الضعف ، يقال : وهن الجسم يهن - من باب وعد - إذا ضعف .  
وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن ، وعماد الجسم وبه قوامه ، فإذا ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف ، وإفراد لفظ العظم لإرادة الجنس .

﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ والمراد باشتغال الرأس شيباً : انتشار بياض الشيب فيه ، والألف واللام فى لفظ ﴿ الرأس ﴾ قاما مقام المضاف إليه .

والمراد : واشتغل رأسى شيبا ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما يشهد له قوله - تعالى - ﴿ وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتِ الْكِبَرِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى : ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى إجابة دعائى ، ومادام الأمر كذلك فأجيب دعائى فى الزمان الآتى من عمرى ، كما أجبته فى الزمان الماضى منه .

فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر فى دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه ، حيث توسل إليه - سبحانه - بضعف بدنه ، ويتقدم سنه ، وبما عوده إياه من إجابة دعائه فى الماضى .

(١) سورة آل عمران : ٣٧ ، ٣٨ .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا فى الدعاء فقال :  
﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ .

والموالى : جمع مولى ، والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء عمومته الذين يلون أمره بعد موته ، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم .

والعافر : العقيم الذى لا يلد ، ويطلق على الرجل والمرأة ، يقال : امرأة عافر ، ورجل عافر .  
أى : وإنى - يا إلهى - قد خفت ما يفعله أقاربي ﴿ مِنْ وَرَائِي ﴾ أى : من بعد موتى ، من تضييع لأموال الدين ، من عدم القيام بحقه ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ، لا تلد قط فى شبابها ولا فى غير شبابها ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ ، أى : من عندك ﴿ وَلِيًّا ﴾ أى : ولدا من صلبى ، هذا الولد ﴿ يَرِثُنِي ﴾ فى العلم والنبوة ﴿ وَيَرِثُ ﴾ أيضا ﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة ، ﴿ وَاجْعَلْهُ ﴾ يارب ﴿ رَضِيًّا ﴾ أى : مرضيا عندك فى أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته .

ففى هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد فى الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لا من أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه فى علمه ، ونبوته ، ويكون مرضيا عنده - عز وجل - .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ مِنْ وَرَائِي ﴾ المراد به من بعد موتى ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى : خفت فعل الموالى من ورائى أو جور الموالى ، وهم عصابة الرجل ، وكانوا على سائر الأقوال شرار بنى إسرائيل ، فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته (١) .

وفى قوله اعتراف عميق بقدرة الله - تعالى - لأن مثل هذا العطاء لا يرجى إلا منه - عز وجل - بعد أن تقدمت بزكريا السن ، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة .

وقد أشار - سبحانه - فى آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)  
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ  
فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ (٢)

(١) تفسير الألوسى ج ١٦ ص ٦١ .

(٢) سورة الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠ .

أى : وجعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عقيما من حين شبابها إلى شبيها .  
 والمراد بالوراثة فى قوله : ﴿ يَرِثْنِي ﴾ وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة .  
 قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي ﴾ قرأ  
 الأكترون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول ، وعن الكسائى أنه سكن الياء .  
 ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده فى الناس تصرفا سيئا ، فسأل الله ولدا  
 يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله ، فإن النبى أعظم  
 منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد ، وأن يأنف من وراثة عصبته له ،  
 ويسأل أن يكون له ولدا ليحوز ميراثه دونهم .

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «لأنورث ، ما تركنا  
 صدقة» وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : «نحن معاشر الأنبياء لأنورث» .

وعلى هذا فتعين حمل قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثْنِي ﴾ على ميراث النبوة  
 ولهذا قال : كقوله : أى : فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ،  
 ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل ، أن  
 الولد يرث أباه فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبتته ما صح فى  
 الحديث ، : «نحن معاشر الأنبياء لأنورث ، ما تركنا فهو صدقة»<sup>(١)</sup> .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى يرثنى أى : إرث علم ونبوة ودعوة إلى الله  
 والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل لذلك أمران :

أحدهما قوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان  
 فلا يرث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

والأمر الثانى ما جاء من الأدلة أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لا يرث  
 عنهم المال ، وإنما يرث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر  
 الصديق أن رسول الله ﷺ قال : «لأنورث ما تركناه صدقة»<sup>(٢)</sup> .

٤ - ثم بين القرآن الكريم أن الله - تعالى - قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا ،  
 كما بين ما قاله زكريا عندما بشره ربه بغلام اسمه يحيى فقال - تعالى - :

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٣ ص ١١١

(٢) راجع تفسير أضواء البيان ج٤ ص ٢٠٦ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله .

يَذَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ  
 مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ مِّمَّا كَانَتْ أُمَّرَاتِي  
 عَارِوًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ  
 هَيْبٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ نَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي  
 آيَةً قَالَ آيَتُكَ الْأَنْكُمُ النَّاسُ تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَفَرَجَ عَلَى  
 قَوْمِهِ مِنَ الْحَرْبِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - ﴿ يا زكريا ﴾ في الكلام حذف ، أى : فاستجاب الله دعاءه فقال : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى .. ﴾ فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء : أحدها : إجابة دعائه وهى كرامة ، الثانى : إعطاؤه الولد وهو قوة ، الثالث : أن يفرد بتسميته (١).

وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أن الذى بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى فى المحراب ، قال - تعالى - :

﴿ فَنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ﴾ (٢)

وقوله - سبحانه - : ﴿ اسمه يحيى .. ﴾ يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله - تعالى - ليحيى ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم .

وقوله - تعالى - : ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ أى لم نجعل أحدا من قبل مشاركا له فى هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل .

قال بعض العلماء : «وقول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى : نظيرا يساويه فى السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى فالقول الأول هو الصواب ، ومن قال به : ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم» (٣).

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٨٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

(٣) تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٢١٤ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة ، فقال - تعالى - :

﴿ قَالَ رَبِّ انِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال تقديره : فماذا قال زكريا عندما بشره الله - تعالى - بيحيى؟ .

ولفظ ﴿ انِّي ﴾ بمعنى : كيف ، أو بمعنى : من أين .

أى : قال زكريا مخاطبا ربه بعد أن بشره بآبانه يحيى : يا رب كيف يكون لى غلام ، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا فى شبابها وفى شيخوختها ، وحالى أنا أننى قد بلغت من الكبر عتيا ، أى : قد تقدمت فى السن تقدما كبيرا .

يقال : عتى الشيخ يعتو عتيا - بكسر العين وضمها - إذا بلغ النهاية فى الكبر .

قال ابن جرير : «قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ يقول : وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه للعود اليابس : عات وعاس ، وقد عتا يعتو عتوا وعتيا ، وكل متناه فى كبر أو فساد أو كفر فهو عات» .<sup>(١)</sup>

فإن قيل : ما المراد باستفهام زكريا - عليه السلام - مع علمه بقدرة الله - تعالى - على كل شىء؟ .

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه لم يكن يعلم أن الله - تعالى - سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها .

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته .

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته ، وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

ثم حكى سبحانه - ما رد به على استفهام زكريا فقال : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيٌّ هِينٌ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

(١) تفسير ابن جرير ج١٦ ص ٣٨ طبعة بولاق سنة ١٣٢٨هـ .

والمعنى : قال الله - تعالى - مجيباً على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقراً ، وأنت قد بلغت من الكبر عتياً ، ولكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا فى منحك هذا الغلام ، فإن قدرتنا لا يعجزها شيء ، ولا تنحضع لما جرث به العادات .  
وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿ هُوَ عَلِيَّ هَيْنٌ ﴾  
أى : يسير سهل .

ثم ذكر له - سبحانه - ما هو أعجب مما سأل عنه فقال :

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

أى : لا تعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة ، فإنى أنا الله الذى أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور .  
فالآية الكريمة قد ساقط بطريق منطقى برهانى ، ما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - وما يزيد فى اطمئنان قلب زكريا - عليه السلام - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما التمسه زكريا - عليه السلام - من خالقه فقال :  
﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ .

أى : اجعل لى علامة أستدل بها على وقوع ما بشرتنى به ، لأزداد سرورا واطمئنانا ولأعرف الوقت الذى تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك .  
فأجابه الله - تعالى - بقوله : ﴿ قَالَ آيَتُكَ الْأَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - لعبده زكريا : يا زكريا ، علامة وقوع ما بشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزا عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الحواس ليس بك من خرس ، أو بكم ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة .

فقوله : ﴿ سَوِيًّا ﴾ حال من فاعل ﴿ تُكَلِّمَ ﴾ وهو زكريا أى : حال كونك يا زكريا سوى الخلق ، سليم الجوارح ، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا .

ثم بين - سبحانه - ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

المحراب : المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب ، لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٩

أى : فخرج زكريا - عليه السلام - على قومه من المكان الذى كان يصلى فيه ، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه ﴿ أَنْ سَبِّحُوا ﴾ الله - تعالى - و قدسوه ﴿ بِكُرَّةٍ ﴾ أى : فى أوائل النهار ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ أى : فى أواخره .

وقد ذكر - سبحانه - فى آية أخرى ، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذى خرج منه زكريا - عليه السلام - على قومه ، هو ذلك المكان الذى بشره الله - تعالى - فيه بيحى .

قال - تعالى - : ﴿ فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا بأسلوبها البليغ جانباً من رحمة الله - تعالى - بعبده زكريا ، ومن الدعوات التى تضرع بها إلى خالقه - عز وجل - وأن الله - تعالى - قد أجاب له دعاءه ، وبشره بيحى ، وعرفه بالعلامة التى بها يعرف وقوع ما بشره به ، زيادة فى اطمئنانه وسروره .

٥ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يحيى ، فبينت ما أمره الله - تعالى - به ، وما منحه من صفات فاضلة ، فقال - تعالى - :

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ

لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ مقول لقول محذوف ، والسر فى حذفه التسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم .

والتقدير : وبعد أن ولد يحيى ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ﴾ الذى هو التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى : بجهد واجتهاد ، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، فإن بركة العلم فى العمل به .

والجار والمجرور ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أى : خذه حالة كونك ملتبساً بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا ﴿ الْحُكْمَ ﴾ أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه وهو فى سن الصبا .

قيل : كان سنة ثلاث سنين ، وقيل : سبع سنين .

قال الألوسى : أخرج أبو نعيم ، وابن مردويه ، والديلمي ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال في ذلك : «أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين»<sup>(١)</sup> .

وقال الجمل في حاشيته : «إن قلت : كيف يصح حصول العقل والفتنة والنبوة حال الصبا؟ قلت : لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات ، إذا ثبت هذا ، فلا تمنع صيرورة الصبي نبيا : وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير»<sup>(٢)</sup> .

والذى تظمن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

قال ابن كثير : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا ، قال : فلهذا أنزل الله : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾<sup>(٣)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ معطوف على ﴿ الْحُكْمَ ﴾ أى : وأعطيناه الحكم صبيا ، وأعطيناه حنانا .

قال القرطبي ما ملخصه : «الحنان : الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس .

وأصله : من حنان الناقة على ولدها ، قال طرفه :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض<sup>(٤)</sup>

والمعنى : منحنا ﴿ يَحْيَى ﴾ الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه ، ورحمة فى قلبه جعلته يعطف على غيره ، وأعطيناه كذلك زكاة أى : طهارة فى النفس ، أبعدهته عن ارتكاب ما نهى الله عنه ، وجعلته سباقا لفعل الخير ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى : مطيعا لنا فى كل ما نأمره به ، أو ننهاه عنه .

(١) تفسير الألوسى ج٦ ص ٧٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١١٣ .

(٤) تفسير القرطبي ج١١ ص ٨٧ .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تلك الصفات الكريمة ليحيى صفات أخرى فقال : ﴿ وَبِرًّا  
بِوَالِدَيْهِ ﴾ أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا ﴾ أى : مستكبرا متعاليا مغرورا ﴿ عَصِيًّا ﴾ . أى : ولم يكن ذا  
معصية ومخالفة لأمر ربه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التى ادخرها ليحيى - عليه  
السلام - فقال : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ أى : وتحية وأمان له منا يوم ولادته ﴿ وَيَوْمَ  
يَمُوتُ ﴾ ويفارق هذه الدنيا للحساب ﴿ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا ﴾ يوم القيامة .

وخص - سبحانه - هذه الأوقات الثلاثة بالذكر ، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها .  
قال سفيان بن عيينة : أحوج ما يكون المرء فى ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه  
خارجا عما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه فى  
محشر عظيم .

٦ - وفى سورة آل عمران آيات كريمة تحدثت عن جانب من قصة زكريا ويحيى -  
عليهما السلام - حيث قال - تعالى - :

هٰذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ  
قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٢٨﴾ فَوَدَّعَهُ  
الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّيٰ فِي الْخُرَابِ ۗ اَنَّ اللّٰهَ يَبْشُرُكَ بِبُحْيٍ مُّصَدِّقًا  
بِكَلِمَةٍ مِّنْ اللّٰهِ وَسَيِّدًا وَّحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿١٢٩﴾ قَالَ رَبِّ اِنِّى  
يَكُوْنُ لِيْ غُلَامٌ وَّوَقَدْ بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَاْمْرًاۗتِىْ عَاقِرٌ ۗ قَالَ كَذٰلِكَ اَللّٰهُ  
يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٣٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيْٓ اٰيَةً ۗ قَالَ اِنَّكَ اِلٰهٌ مُّكَلِّمٌ لِّلنَّاسِ  
ثَلَاثَةَ اَيَّامٍ اِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا وَسَمِعْ بِالْعَصِيْرِ ۗ وَاِلَّا بُكْرًا ﴿١٣١﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ هٰذَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ كلام مستأنف ، وقصة مستقلة سيقت فى  
تضاعيف قصة مريم وأمها لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك مع مافى إيرادها  
من تقرير ما سيقت له قصة مريم وأمها من بيان اصطفاء آل عمران .

و«هنا» ظرف يشار به إلى المكان القريب كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ وتدخل عليه اللام والكاف «هنالك» أو الكاف وحدها «هناك» فىكون للبعيد وقد يشار به للزمان اتساعا .

والمعنى : فى ذلك المكان الطاهر الذى كان يلتقى فيه زكريا بمرىم ويرى من شأنها ما يرى من فضائل وغرائب ، تحركت فى نفس زكريا عاطفة الأبوة ، وهو الشيخ الكبير الذى وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ، وبلغ من الكبر عتيا - فدعا الله تعالى - بقلب سليم ، وبنفس صافية وبجوارح خاشعة ، أن يرزقه الذرية الصالحة .

ولقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

أى : قال زكريا مناجيا ربه : يا رب أنت الذى خلقتنى ، وأنت الذى لا يقف أمام قدرتك شىء ، وأنت الذى جعلتنى أرى من أحوال مرىم ما يشهد بقدرتك النافذة وفضلك العميم فهب لى يا خالقى من عندك ذرية صالحة تقر بها عينى ، وتكون خلفا لى من بعدى ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أى إنك عليم بدعائى علم من يسمع ، قريب الإجابة لمن يدعوك ، فإن أجبت لى سؤالى بفضلك وإن لم تجبه ، فبعذك وحكمتك .

فأنت ترى فى هذا الدعاء الذى صدر عن زكريا - عليه السلام - أسمى ألوان الأدب والخشوع والإناة ، فقد رفع أكف الضراعة فى مكان مقدس طاهر .

وفى التعبير بقوله : ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره بقدرة الله على كل شىء ، فهو الذى خلقه ورباه وتولاه برعايته فى كل أدوار حياته .

وفى قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ إشعار بأنه يريد من خالقه - عز وجل - أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادى ، ولكن بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر فى هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعدا إذ هو قد بلغ من الكبر عتيا وزوجته قد تجاوزت السن التى يحصل فيها الإنجاب فى العادة .

أى هب لى من عندك لا من عندى ، لأن الأسباب عندى أصبحت مستبعدة ، وفى تقييد الذرية بكونها طيبة ، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه ونقاء سريرته ، وحسن صلته بربه ، لا يريد ذرية فحسب وإنما يريد ذرية صالحة يرجى منها الخير فى الدنيا والآخرة .

وجملة ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ تعليلية ، أى إنى ما التجأت إليك يا إلهى إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء .

قال القرطبى ما ملخصه «دلت هذه الآية على طلب الولد وهو سنة المرسلين والصديقين ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا

وَذُرِّيَّةٌ ﴿١﴾ وقد ترجم البخارى على هذا «باب طلب الولد» وقال النبى ﷺ لأبى طلحة حين مات ابنه : «أعرستم الليلة» قال : نعم ، قال : «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» ، فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن . والأخبار فى هذا المعنى كثيرة ، تحت على طلب الولد لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد مماته ، قال ﷺ : «إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث : - فذكر منها - : أو ولد صالح يدعو له» ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية . (١)

هذا هو دعاء زكريا كما حكاه الله - تعالى - فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع ، والتضرع الخالص؟ لقد كانت نتيجته الإجابة من الله - تعالى - لعبيده زكريا ، فقد قال - تعالى - : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾ .

أى : فنادت الملائكة زكريا - عليه السلام - وهو قائم يصلى فى المحراب ، يناجى ربه ، ويسبح بحمده بأن الله قد استجاب دعائك وبيشرك بغلام اسمه يحيى ، لكى تقر به عينك ويسر به قلبك .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿فَنَادَتْهُ﴾ يشعر بأن الله - تعالى - فضلا منه وكرما قد استجاب لزكريا دعاءه بعد فترة قليلة من هذا الدعاء الخاشع ، إذ الفاء تفيد التعقيب . ويرى فريق من المفسرين أن الذى ناداه هو جبريل وحده ، ومن الجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع .

قال ابن جرير : كما يقال فى الكلام : خرج فلان على بغال البريد وإنما ركب بغلا واحدا وركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة ، وكما يقال : بمن سمعت هذا؟ فيقال : من الناس ، وإنما سمعه من رجل واحد ، وقد قيل : إن منه قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ . والقائل كان فيما ذكر واحد (٢) .

ويرى فريق آخر منهم أن الذى نادى زكريا وبشره بمولوده يحيى ، جمع من الملائكة لأن الآية صريحة فى أن هذا النداء قد صدر من جمع لا من واحد ، ولأن صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة ، فقد جرت العادة فى أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد ، ولا شك أن حالة زكريا وحالة زوجه تستدعيان عددا من المبشرين لإدخال السرور على هذين الشخصين اللذين كادا يفقدان الأمل فى إنجاب الذرية .

(١) تفسير القرطبي ج٤ ص ٧٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج٣ ص ٢٤٩ .

وقد رجح هذا الاتجاه ابن جرير فقال : «وأما الصواب من القول فى تأويله فأن يقال : إن الله - جل ثناؤه - أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد ، وجبريل واحد فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل فى ألسن العرب دون الأقل ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد فيحتاج له إلى المخرج بالخفى من الكلام والمعانى» (١) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ ﴾ جملة حالية من مفعول النداء ، و﴿ يُصَلِّي ﴾ حال من الضمير المستكن فى قائم أو حال أخرى من مفعول النداء على القول بجواز تعدد الحال ، وقوله ﴿ فِي الْمِحْرَابِ ﴾ متعلق بىصلى ، والمراد بالمحراب هنا المسجد ، أو المكان الذى يقف فيه الإمام فى مقدمة المسجد .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ أَنْ اللَّهَ يَشْرِكُ ﴾ بفتح همزة أن - على أنه فى محل جر بباء محذوفة ، أى : نادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى .

وقرأ ابن عامر وحمزة : ﴿ أَنْ اللَّهَ يُشْرِكُ ﴾ - بكسر الهمزة - على تضمين النداء معنى القول ، أى : قالت له الملائكة : إن الله يبشرك بيحيى .

وقوله : ﴿ بِيْحِي ﴾ متعلق ببشرك ، وفى الكلام مضاف ، أى يبشرك بولادة يحيى ، لأن الذوات ليست متعلقا للشارة .

وفى اقتران التبشير بالتسمية بيحيى ، إشعار بأن ذلك المولود سيحيا اسمه وذكره بعد موته ، وبذلك تتحقق الإجابة لدعاء زكريا تحققا تاما ، فقد حكى القرآن عنه فى سورة مريم أنه قال : ﴿ يَرْتْنِي وَيَرْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ .

قال الجمل : و«يحيى» فيه قولان : أحدهما : وهو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سماوا بالأفعال كثيرا نحو يعيش ويعمر ، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، نحو يزيد ويشكر وتغلب .

والثانى : أنه أعجمى لا اشتقاق له ، وهذا هو الظاهر ، فامتناعه من الصرف للعلمية والعجمة . (٢)

ثم وصف الله - تعالى - يحيى - عليه السلام - بأربع صفات كريمة فقال :

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) تفسير ابن جرير ج٣ ص ٢٥٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص ١٦٧ .

فالصفة الأولى : من صفات يحيى - عليه السلام - أنه كان ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةِ مَنِ اللَّهِ ﴾ وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :

أما الاتجاه الأول فىرى أصحابه - وهم جمهور العلماء - أن المراد بكلمة الله هو عيسى - عليه السلام - لأنه كان يسمى بذلك أى أن يحيى كان مصدقا بعيسى ومؤمننا بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

وقد كان يحيى معاصرا لعيسى ، وكانت بينهما قرابة قوية إذ أن والده يحيى كانت أختا لأم مريم وقيل : إن أم يحيى كانت أختا لمريم .

وأما الاتجاه الثانى فىرى أصحابه أن المراد بكلمة الله كتابه ، أى أن يحيى من صفاته الطيبة أنه كان مصدقا بكتاب الله وبكلامه ، وذلك لأن الكلمة قد تطلق ويراد منها الكلام ، والعرب تقول أنشد فلان كلمة أى قصيدة ، وقال كلمة أى خطبة .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأن القرآن قد وصف عيسى بأنه كلمة الله فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وقوله - تعالى - : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةِ مِنْهُ اسْمَهُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ولأن فى التعبير عن عيسى الذى صدقه يحيى - بأنه كلمة من الله ، إشعارا بأن ولادتهما متقاربة من حيث الزمن ، وإيحاء إلى أن زكريا - عليه السلام - قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب ، وأن يحيى - عليه السلام - سيعيش حتى يدرك عيسى .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ منصوب على الحال المقدره من يحيى ، أى على الحال التى سيكون عليها فى المستقبل ، والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى - كما سبق أن أشرنا - قيل : هو أول من آمن بعيسى وصدق أنه كلمة الله وروح منه .<sup>(١)</sup>

و ﴿ مِنْ ﴾ فى قوله : ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ للابتداء ، والجار والجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ، أى مصدقا بكلمة كائنه من الله - تعالى - .

والصفة الثانية : من صفات يحيى عبر عنها القرآن بقوله ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ والسيد - كما يقول القرطبى الذى يسود قومه وينتهى إلى قوله ، وأصله سيود يقال فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيذا ، وفى الحديث أن

(١) تفسير الألوسى ج٣ ص ١٤٧ .

رسول الله ﷺ قال لبنى قريظة عندما دخل سعد بن معاذ «قوموا إلى سيدكم» وفي الصحيحين أنه قال في الحسن «إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (١).

والمراد أن يحيى عليه السلام - من صفاته أنه سيكون سيذا ، أى يفوق غيره فى الشرف والتقوى وعفة النفس ، بأن يكون مالكا لزامها ، ومسيطرأ على أهوائها .

والصفة الثالثة : من صفاته عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ وَحَصُورًا ﴾ وأصل الحصر : المنع والحبس ، يقال حصرنى الشيء وأحصرنى إذا حبسنى .

والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون حابسا نفسه عن الشهوات ، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج - وهو قادر على ذلك - زهادة منه واستعفافا ، وليس صحيحا ما قيل من أنه كان لا يأتى النساء لعدم قدرته على ذلك .

قال ابن كثير : وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله على يحيى بأنه كان ﴿ وَحَصُورًا ﴾ معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتىها كأنه حصور عنها .

وقيل : مانعا نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة فى النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله - تعالى - كيحيى - عليه السلام - ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : درجة عليا وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم تشغله كثرتهم عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحسينهن وهدايتة لهن ، والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس معناه أنه لا يأتى النساء ، بل معناه أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كأنه قال ولدا له ذرية ونسل وعقب . (٢)

أما الوصف الرابع : من أوصاف يحيى - عليه السلام - فهو قوله : ﴿ وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لله - تعالى - وفى هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا بأن ابنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس ، وهذه البشارة أسمى وأعلى من الأولى التى أخبره الله فيها بولادة يحيى ، لأن النبوة منزلة لا تعدلها منزلة فى الشرف والفضل .

(١) تفسير القرطبي - بتصرف يسير - ج٤ ص ٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير بتصرف يسير ج١ ص ٣٦١ .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله زكريا بعد أن سأقت له الملائكة تلك البشارات السارة فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ رَبِّ انِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾  
أى هنا بمعنى كيف ، و«عاقرة» أى عقيم لاتلد لكبر سنها من العقر وهو العقم يقال عقرت المرأة فهى عاقرا إذا بلغت سن اليأس من الولادة .

أى قال زكريا على سبيل التعجب بعد أن نادته الملائكة وبشرته بما بشرته به : يا رب كيف يكون لى غلام والحال أننى قد أدركنى الكبر الكامل الذى أضعفنى وفوق ذلك فإن امرأتى عاقرة أى عقيم ، لاتلد لشيخوختها وبلوغها العمر الذى ينقطع معه النسل؟

قال بعضهم : وإنما قال ذلك استفهاما عن كيفية حدوث الحمل ، أو استبعادا من حيث العادة ، أو استعظاما وتعجبا من قدرة الله - تعالى - لا استبعادا أو إنكارا فلايرد : كيف قال زكريا ذلك ولم يكن شاكا فى قدرة الله - تعالى - . (١)

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال زكريا عندما بشرته الملائكة؟ فكان الجواب : قال : رب أنى يكون لى غلام .

وقد خاطب زكريا ربه مع أن النداء له صدر من الملائكة ، للإشعار بالمبالغة فى التضرع وأنه قد طرح الوسائط واتجه إلى خالقه مباشرة بشكره ويظهر التعجب من قدرته لأنه - سبحانه - أعطاه ما لم تجر العادة به .

وقوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ﴾ جملة حالية من ياء المتكلم ، أى أصابنى الكبر وأدركنى أضعفنى وأفقدنى قوتى .

والكبر مصدر كبر الرجل إذا أسن ، وقد قال زكريا : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ﴾ ولم يقل وقد بلغت الكبر للإشارة إلى أن الكبر قد تابعه ولازمه حتى أصابه بالضعف والآلام والأسقام .

وقوله : ﴿ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ جملة حالية أيضا إما من ياء ﴿ لِي ﴾ أو ياء ﴿ بَلَغَنِي ﴾ .

فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر التعجب عندما بشرته الملائكة بغلامه يحيى لأنه كان شيخا مسنا ، ولأن امرأته كانت عقيما لاتلد إما لكبر سنها - أيضا - وإما لأنها من الأصل كانت على غير استعداد للحمل والإنجاب .

قال ابن عباس : «كان زكريا يوم بشر بيحيى ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة» (٢)

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج٨ ص ٤٢ .

ثم حكى القرآن أن الله - تعالى - قد رد على زكريا بما يزيل عجبه ويمنع حيرته فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

أى قال - سبحانه - : مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى رأيت من أن يكون لك غلام وأنت شيخ كبير وامرأتك عاقر ، مثل ذلك الفعل يفعل الله ما يشاء أن يفعله ، لأنه - سبحانه - هو خالق الأسباب والمسببات ، ولا يعجزه شئ فى هذا الكون ، وبقدرته أن يغير ماجرت به العادات بين الناس .

فالجملته الكريمة بجانب تضمنها إقناع زكريا وإزالة عجبه ، تتضمن أيضا تقرير قضية عامة ، وهى أن الله - تعالى - يفعل ما يشاء أن يفعله بدون تقييد بالأسباب والمسببات والعادات فهو الفعال لما يريد .

ثم حكى القرآن أن زكريا - لشدة لهفته على تحقيق البشارة - سأل ربه أن يجعل له علامة تكون دليلا على تحقيق الحمل عند زوجته فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ .

أى قال زكريا مناجيا ربه : يا رب إنى أسألك أن تجعل لى ﴿ آيَةً ﴾ أى : علامة تدلنى على حصول الحمل عند زوجتى : لأبادر إلى القيام بشكر هذه النعمة شكرا جزيلا ولأقوم بحققها حق القيام .

وقد أجابه - سبحانه - إلى طلبه فقال : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ .

أى قال الله - تعالى - لعبيده زكريا : آيتك أى علامتك ألا تقدر على كلام الناس من غير آفة فى لسانك لمدة ثلاثة أيام إلا ﴿ رَمْزًا ﴾ أى إلا عن طريق الإيحاء والإشارة .

وأصل الرمز الحركة ، يقال ارتمز أى تحرك ، ومنه قيل للبحر الراموز وفعله من باب نصر وضرب ، ثم أطلق الرمز على الإيماء بالشفتين أو بالحاجبين وعلى الإشارة باليدى وهو المراد هنا .

قال صاحب الكشاف : قال الله - تعالى - لزكريا : آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام ، وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولذلك قال : ﴿ وَادُّكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .  
يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة .

فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره ، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر ، أو أحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أى : إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما<sup>(١)</sup> .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٣٦١ .

وعلى رأى صاحب الكشف يكون احتباس لسان زكريا عن كلام الناس اضطراريا وليس عن اختيار منه .

ويمكن أن يقال : إن المراد بقوله - تعالى - ﴿ قَالَ آيَتِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴾ أن زكريا - عليه السلام - عندما طلب آية يعرف بها أن زوجته قد حملت بهذا الغلام الذى بشره الله به ، أخبره - سبحانه - أن العلامة على ذلك أن يوفق إلى خلوص نفسه من شواغل الدنيا حتى أنه ليجد نفسه متجها اتجاها كليا إلى ذكر الله وتمجيده وتسيبجه ، دون أن يكون عنده أى دافع إلى كلام الناس أو مخالطتهم مع قدرته على ذلك ، وعلى هذا يكون انصراف زكريا - عليه السلام - عن كلام الناس اختياريا وليس اضطراريا كما يرى صاحب الكشف .

ثم أمره الله - تعالى - بالإكثار من ذكره وتسيبجه فقال : ﴿ وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

و ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ جمع عشية وقيل : هو واحد وذلك من حين نزول الشمس إلى أن تغيب ، أما ﴿ الإِبْكَارِ ﴾ فمصدر أبكر يبكر إذا خرج للأمر فى أول النهار ، ومنه الباكورة لأول الثمرة ، والمراد به هنا الوقت الذى يكون من طلوع الفجر إلى الضحى .

أى عليك أن تكثر من ذكر الله - تعالى - ومن تسيبجه فى أول النهار وفى آخره وفى كل وقت لاسيما فى تلك الأيام الثلاثة شكرا لله - تعالى - على ما أعطاك من نعم جليلة لا تحصى ، فقد وهبك الذرية بعد أن بلغت من الكبر عتيا ، وجعل هذا المولود من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته .

وفى هذا الأمر الإلهى لزكريا حصٌ لكل عاقل على الإكثار من ذكر الله ومن تسيبجه وتمجيده لأن ذكر الله به تطمئن القلوب ، وتسكن النفوس ، وتغسل الخطايا والذنوب ويكفى للدلالة على فضل الذكر أن الله - تعالى - أمر به حتى فى حالة الحرب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقنا لنا جانبا من قصة زكريا - عليه السلام - فيها الكثير من العبر والعظات لقوم يعقلون .

٧ - وفى سورة الأنبياء آيات كريمة تحدثت عن الدعوات الصالحات التى تضرع بها زكريا - عليه السلام - إلى خالقه - تعالى - فقال :

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ  
الْوَارِثِينَ ﴿١٤٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ بِرَبَّتِهِ ﴿١٤٧﴾  
كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خَاشِعِينَ ﴿١٤٨﴾

أى : واذكر - أيها المخاطب - حال زكريا - عليه السلام - وقت أن نادى ربه وتضرع إليه  
قال : يارب لا تتركنى فردا أى : وحيدا بدون ذرية ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى : وأنت  
خير حتى باق بعد كل الأموات .  
فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾  
أى دعاءه وتضرعه .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ بفضلنا وإحساننا ابنه ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ - عليهما السلام - .

﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ ﴾ بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ تعليل لهذا العطاء الذى منحه -  
سبحانه - لأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - والضمير فى ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعود للأنبياء  
السابقين ، وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحىي .

أى : لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون فى فعل الخيرات  
التي ترضينا ، ويجتهدون فى أداء كل قول أو عمل أمرناهم به .

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين فى آلائنا ونعمنا  
وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا .

فقوله : ﴿ رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ مصدران بمعنى اسم الفاعل ، منصوبان على الحال ، وفعلهما  
من باب «طرب» ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أى : مخبتين متضرعين لامتكبرين  
ولامتجبرين .

وبهذه الصفات الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيراتنا وعطاءنا ورضانا .

٨ - هذا ، ومن العظات والدروس النافعة التي نتعلمها من قصة هذين النبيين الكريمين  
زكريا ويحىي - عليهما السلام - :

( ١ ) أن العقلاء من الناس يلجئون إلى خالقهم - عز وجل - لكي يرزقهم الذرية الصالحة والأولاد الراشدين ، الذين يخلصون عبادتهم لله - تعالى - ويبدلون أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الحق ، ومن أجل نشر الفضائل ونبذ الرذائل .

وهذا ما نراه واضحا في قصة زكريا - عليه السلام - فهو يدعو الله - تعالى - أن يرزقه ولدا صالحا يرثه في نبوته وعلمه وفضله ، بعد أن رأى من عصيته وأبناء عمومته انحرافا عن الحق ، وتقصيرا في أداء فرائض الله - تعالى - .

فهو لم يطلب الذرية الصالحة من أجل الشهوة أو التباهي والتفاخر ، وإنما طلبها من أجل خدمة الدين الحق ، والدفاع عن مكارم الأخلاق .

(ب) أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء ، فقد وهب الله - تعالى - نبيه زكريا الذرية الصالحة ، بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، وبعد أن اشتعل رأسه شيبا وبعد أن يش من حمل امرأته التي كانت عاقرا لاتلد ، وعندما تعجب زكريا من حصوله على الولد ، بعد كل ذلك ، أجابه - سبحانه - بما يزيل هذا العجب ، بأن أخبره بأنه - عز وجل - قد أوجده من العدم ، ومن كان كذلك فهو قادر على أن يرزقه بهذا الغلام الذي لم يجعل له من قبل سميا .

(ج) أن الدعاء متى صدر من قلب سليم ، ومن لسان صادق ، كان مرجو القبول .

ومن أعظم الأدلة على ذلك ما حكاه القرآن في آيات متعددة عن زكريا - عليه السلام - فإنه رفع أكف الضراعة إلى خالقه بمشاعر نقية ، وبمقاصد شريفة ، وبنفس مطمئنة ، وبدعاء خاشع ، فكانت نتيجة هذا الدعاء ، الإجابة من الله - تعالى - لأن زكريا - عليه السلام - وزوجه كانا يسارعان في الخيرات ، ويدعوان الخالق - عز وجل - رغبا ورهبا ، وكانا من الخبثين المتواضعين ، لا من المتكبرين المتجبرين ، ومن الشاكرين لنعمه - تعالى - لا من الجاحدين لها .

# قصة أيوب ويونس وإلياس واليسع وذى الكفل عليهم الصلاة والسلام.

- ١ - إن الذى يقرأ القرآن الكريم ، يراه قد فصل الحديث عن قصص بعض الأنبياء كنوح ، وإبراهيم وموسى - عليهم الصلاة والسلام - ويراه قد أوجز الحديث عن قصص بعض الأنبياء كإلياس وإدريس واليسع - عليهم الصلاة والسلام - ، ولعل الحكمة فى ذلك أن الله - تعالى - وهو أعلم بمراده - قد حكى لنا ماينفعنا بما قد حدث لكل نبي مع قومه .  
ولقد أخبرنا - سبحانه - بأنه قد أرسل رسلا كثيرين منهم من أخبرنا بما حدث له مع قومه ، ومنهم من لم يخبرنا بشيء من أحواله .
- ٢ - ومن الرسل الكرام الذين جاء الحديث عنهم بصورة تتناسب مع مقتضى أحوالهم مع أقوامهم : أيوب - عليه السلام - .  
ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن جانب من قصته ، قوله - تعالى - فى سورة (ص) .

وَأَذْكُرُ

عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤٥﴾  
أَرْكُضْ بَرِيحَكَ هَذَا مُنْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ لُؤْلُؤًا  
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِقَوْلِ آلِ الْيَسْرِ ﴿٤٧﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ  
ضَمِيمًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ  
أَوَّابٌ ﴿٤٨﴾

وأيوب - عليه السلام - هو ابن أموص بن بزراح ، وينتهى نسبه إلى إسحاق بن إبراهيم - عليهما السلام - وكانت بعثته على الراجح بين موسى ويوسف - عليهما السلام - .  
وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد ، فابتلى فى ماله وولده وجسده ، وصبر على كل ذلك صبورا جميلا ، فكافأه الله - تعالى - على صبره ، بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ .. ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك :  
﴿ وَأَذْكُرْنَا عَبْدَنَا دَاوُدَ .. ﴾ .

و«النصب» - بضم فسكون - وقرأ حفص ونافع - بضم النون والصاد - : التعب والمشقة مأخوذة من قولهم : أنصبنى الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه ، والعذاب : الآلام الشديدة التى

يحس بها الإنسان فى بدنه ، أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال أخيك أيوب - عليه السلام - حين دعا ربه - تعالى - فقال : يارب أنت تعلم أنى مسنى الشيطان بالهموم الشديدة ، وبالآلام المبرحة التى حلت بجسدى فجعلتنى فى نهاية التعب والمرض .

وجمع - سبحانه - فى بيان ما أصابه بين لفظى النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التى كانت بين يديه ، وهو ما يشير إليه لفظ «النصب» والألم الكثير الذى حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام ، والعلل ، وهو ما يشير إليه لفظ «العذاب» .

ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان تأديبا منه مع ربه - عز وجل - حيث أبى أن ينسب الشر إليه - سبحانه - وإن كان الكل من خلق الله - تعالى - .

وفى هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذ اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئا معينا ، أو يطلب شيئا معينا .

قال صاحب الكشاف : أطف أيوب - عليه السلام - فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب .

ويحكى أن عجزوا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له : يا أمير المؤمنين مشيت جردان - أى فئران - بيتى على العصا!! فقال لها : أطففت فى السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملا بيتها حبا<sup>(١)</sup> .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا فى غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان تناثرت من جسده ، وأن لحمه قد تمزق .<sup>(٢)</sup>

وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله - تعالى - عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة ، التى تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم ، سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية .

والذى يجب اعتقاده أن الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لا تتنافى مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل فى الصبر فكانت عاقبة صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه ، أو مقول لقول محذوف معطوف على قوله : ﴿ نَادَى ﴾ .

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ١٣٠ .

(٢) راجع على سبيل المثال تفسير الألوسى ج٢٣ ص ٣٠٦ والقرطبي ج١٥ ص ٢٠٨ .

وقوله : ﴿ اَرْكُضْ ﴾ بمعنى الدفع والتحرك للشىء ، يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها .

والمغتسل : اسم للمكان الذى يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذى يغتسل به .  
وقوله : ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه إلى الدواء ، بأن قلنا له : ﴿ اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أى : اضرب بها الأرض ، فضربها فنبعت من تحت رجله عين الماء ، فقلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ بإذننا من كل داء .

ثم بين - سبحانه - أنه بفضلله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال - تعالى - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق أى : استجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله ، ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .

وذلك كله ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى من أجل رحمتنا به ﴿ وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجئوا إلى الله - تعالى - كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ الجمهور على أنه - تعالى - أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشتت منهم ، وقيل - وإليه أميل - : وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا<sup>(١)</sup> .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من المنن التى من بها على عبده أيوب فقال : ﴿ وَخَذُ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٢٠٧ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : ﴿ اِرْكُضْ ﴾ أو على ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ بتقدير :  
وقلنا له .

والضَّغْتُ في اللغة : القبضة من الحشيش اختلط فيها الرطب باليابس ، وقيل : هي  
قبضة من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد .  
والحنث : يطلق على الإثم وعلى الخلف في اليمين .

والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد حلف أن يضرب شيئا وأن عدم  
الضرب يؤدي إلى حنثه في يمينه ، أي : إلى عدم وفائه فيما حلف عليه ، فنهاه الله -  
تعالى - عن الحنث في يمينه ، وأوجد له المخرج الذي يترتب عليه البر في يمينه دون أن  
يتأذى المضروب بأي أذى يؤلمه .

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب وسبب هذا الضرب ، روايات لعل أقربها إلى  
الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته في حاجة له فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برئ من  
مرضه ليضربنها مائة ضربة ، وبعد شفائه ، رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة - وهي  
المعبر عنها بالضغث - وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع  
بين الوفاء بيمينه ، وبين الرحمة بزوجه التي كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم  
بواجبها نحوه خير قيام .

والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه : خذ بيدك  
حزمة صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة  
وبذلك تكون غير حانث في يمينك .

هذا وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة ، أهي خاصة بأيوب ، أم عامة للناس ؟ .

فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا  
غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذي جاء في الآية ، لأن شرع من قبلنا  
شرع لنا .

وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب - عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن  
الخطاب إليه وحده ، لأن الله - تعالى - لم يبين لنا في الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع  
عليه الضرب (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره ، وكثرة رجوعه إلى ما  
يرضيه فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

أي : إنا وجدنا عبدا أيوب صابرا على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو ، إنه  
كثير الرجوع إلينا في كل أحواله .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢١٢ . وتفسير الألوسي ج ٢٣ ص ٢٠٨ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقَت لنا جانباً من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه .

٣ - وفي سورة الأنبياء ساق - سبحانه - جانباً آخر من قصة أيوب - عليه السلام - فقال - تعالى - :

﴿ وَيُؤْيُبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن أيوب - عليه السلام - ما كان قد أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شيء كثير ، وأولاد كثيرون ، ومنازل مرضية ، فابتلى في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى في جسده ، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته ، وقد كان نبي الله أيوب غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك .<sup>(١)</sup>

وقال الألويسي : وهو ابن أموص بن برزاح بن عيص بن إسحاق ، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه عن أمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون . وقيل : بعد شعيب ، وقيل : بعد سليمان .<sup>(٢)</sup>

والضر - بالفتح - يطلق على كل ضرر ، وبالضم خاص بما يصيب الإنسان في نفسه من مرض وأذى وما يشبهها .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يا رب إنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها .

فأنت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد في تضرعه عن وصف حاله ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن يقترح شيئاً أو يطلب شيئاً ، وهذا من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - .

وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة فى قوله - تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى دعاءه وتضرعه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى : فأزلنا ما نزل به من بلاء فى جسده ، وجعلناه سليماً معافى ، بأن أمرناه أن

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٤ .

(٢) تفسير الألويسى ج ١٧ ص ٨٠ .

يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿وَأذْكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (١)

وقال - تعالى - : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاءه بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا له المرض الذى نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عن فقدته من أولاده ، ورزقناه مثلهم معهم .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ فقال : «رد الله - تعالى - امرأته إليه ، وزاد فى شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا» .

فالمعنى على هذا : أتيناها فى الدنيا مثل أهلها عددا مع زيادة مثل آخر .

وعن قتادة : أن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا فى بلائه ، وأوتى مثلهم فى الدنيا (٢) .  
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى : أجبنا له دعاءه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكرى لغيره من العابدين حتى يقتدوا به فى صبره على البلاء ، وفى المداومة على شكرنا فى السراء والضراء .

وخص - سبحانه - العابدين بالذكرى ، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا ، ففى الحديث الشريف : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل» .

وفى حديث آخر : «يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» (٣) .

وقد كان أيوب آية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

٤ - أما قصة يونس - عليه السلام - مع قومه ، فقد وردت فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - فى سورة الصافات :

(١) سورة ص : الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ٨١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٥٤ .

وَإِن يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٠﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٢١﴾ فَسَاهَمَ  
فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٢﴾ فَالْقَمَّةَ الْخَوْتُ وَهُوَ مِثْلُهُ ﴿١٢٣﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ  
كَانَ مِنَ السَّجِيحِينَ ﴿١٢٤﴾ لَكُنْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٥﴾ فَنَبَذْنَاهُ  
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٢٦﴾ وَأَنْبَأْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّفْطِينٍ ﴿١٢٧﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ  
إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٢٨﴾ فَأَمَنُوا فَمَسَّاهُمْ إِلَى الْحِينِ ﴿١٢٩﴾

ويونس - عليه السلام - : هو ابن متى ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » .

وملخص قصته أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، في حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب .

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا ، ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك .

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشثوما ، فاقترعوا ليلقوا فى البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ثم أعادوها ف وقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت . (١)

والمعنى : وإن يونس - عليه السلام - لمن المرسلين الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه - يقال : أبق العبد - كضرب ومنع - إذا هرب من سيده فهو أبق .

﴿ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : هرب من قومه إلى الفلك الملىء بالناس والأمتعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أى : فقارع من فى السفينة بالسهام ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ .

(١) راجع تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١٤٣ .

أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواه ، يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى وبعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه فى البحر ، ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ ﴾ أى : ابتلعه ، يقال : لقم فلان الطعام - كسمع - والتقمه ، إذا ابتلعه بسرعة ، وتلقمه إذا ابتلعه على مهل .

وجملة ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ حالية فى محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال مايلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه .

يقال : رجل ملِيم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال مايلام عليه ، وهو اسم فاعل من ألام الرجل ، إذا أتى مايلام عليه .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : فلولا أن يونس - عليه السلام - كان من المسبحين لله - تعالى - المداومين على ذكره ، لولا هذا التسبيح للبت يونس فى بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله - تعالى - وتسبيحه ، سبب فى تفريج الكرب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته ، وفى الحديث الشريف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : « أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر .

وفى الحديث الشريف : « من استطاع منكم أن تكون له خبيثة من عمل صالح فليفعل » ، فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها على خلق الله ، لكى يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه .<sup>(١)</sup>

فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، والنبذ : الطرح ، والعراء : الخلاء .

أى : أن يونس - عليه السلام - بعد أن التقمه الحوت أخذ فى الإكثار من تسبيحنا ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض .

وجملة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ حالية ، أى : ألقيناه بالأرض الفضاء حالة كونه عليلا سقيما لشدة ما لحقه من تعب وهو فى بطن الحوت .

(١) تفسير القرطبى ج١٥ ص ١٢٧ .

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ أى : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من يقطين لكى تظلل عليه وتمنع عنه الحر .

اليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .

وقد قالوا : إن المراد بهذه الشجرة هى شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أى : وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعايناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك فى نظر الناظر إليهم ، فأمنوا جميعا ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ بالحياة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ انتهاء آجالهم .

قال الإمام ابن كثير : ولا مانع من أن يكون هؤلاء هم الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وأمنوا به ، وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون<sup>(١)</sup> .

هذا ومن العبر التى نأخذها من هذه القصة أن رحمة الله - تعالى - قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل فيه التوبة ، قبل الله - تعالى - توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا فى رفع البلاء .

٥ - وفى سورة الأنبياء جانب آخر من قصة يونس - عليه السلام - حيث قال - تعالى - :

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ .

والمراد بذى النون : يونس بن متى - عليه السلام - والنون : الحوت ، وجمعه نينان وأنوان ، وسمى بذلك لابتلاع الحوت له .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ - عبدنا ذا النون ، وقت أن فارق قومه ، وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا إلي الاستجابة له .

قال الجمل : وقوله : ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أى غضبان على قومه ، فالمفاعلة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة ، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا فى أول الأمر<sup>(٢)</sup> .

(١) تفسير ابن كثير ج٧ ص ٣٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ١٤٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ بيان لما ظنه يونس - عليه السلام - حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه - عز وجل - .

أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته فظن أن لن نصيق عليه ، عقابا له على مفارقتهم لهم من غير أمرنا ، أو : فظن أننا لن نقضى عليه بعقوبة معينة فى مقابل تركه لقومه بدون إذنتنا .

فقوله : ﴿ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ بمعنى نصيق عليه ونعاقبه ، يقال : قدر الله الرزق يقدره - بكسر الدال وضمها - إذا ضيقه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ . (١)  
وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. ﴾ (٢) أى : ضيقه عليه .

ثم بين - سبحانه - ما كان يردده يونس وهو فى بطن الحوت فقال : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .  
والفاء فى قوله : ﴿ فَنَادَى ﴾ فصيحة .  
والمراد بالظلمات : ظلمات البحر ، وبطن الحوت ، والليل .

أى : خرج يونس غضبان على قومه ، فحدث له ما حدث من التقام الحوت له ، فلما صار فى جوفه المظلم ، بداخل البحر المظلم ، أخذ يتضرع إلينا بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق العبادة ، ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : أنزهك تنزيها عظيما ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ لنفسى حين فارقت قومى بدون إذن منك ، وإنى أعترف بخطئى - يا إلهى -  
اقبل توبتى ، واغسل حوبتى .

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التى مكثها يونس فى بطن الحوت ، وعن فضل الدعاء الذى تضرع به إلى الله - تعالى -  
ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى » قال : قلت : يا رسول الله ، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هى ليونس ابن متى خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله - تعالى - : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو شرط من الله لمن دعا به » . (٣)

(١) سورة الرعد : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الفجر : الآية ١٦ .

(٣) تفسير ابن جرير ج١٧ ص ٦٥ .

ثم بين - سبحانه أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ أى دعاءه وتضرعه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى: من الحزن الذى كان فيه حين التقمه الحوت وصار فى بطنه .

وقد بين - سبحانه - فى آية أخرى ، أن يونس - عليه السلام - لو لم يسبح الله للبت فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، قال - تعالى - : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ بشارة لكل مؤمن يقتدى بيونس فى إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه .

أى : ومثل هذا الإنجاء الذى فعلناه مع عبدنا يونس ، ننجى عبادنا المؤمنين من كل غم ، حتى صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى دعائهم .

٦ - وفى سورة يونس : آية كريمة تحكى لنا أن قوم يونس قبل الله - تعالى - توبتهم فقال - تعالى - :

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا

عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾

قال القرطبى ما ملخصه : «روى فى قصة يونس - عليه السلام - عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنيونى من أرض الموصل - بالعراق - وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ، فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فأرقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لاشك .

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأصبحوا فلم يجدوه ، فأمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم وردوا المظالم .

قال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ولو رأوا العذاب لما نفعهم الإيمان» (١) .

وكلمة ﴿لَوْلَا﴾ فى قوله - سبحانه - : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ..﴾ للحث والتحضيض ، فهو بمعنى هلا .

والمقصود بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان ، وقوله ﴿آمَنَتْ﴾ خبرها ، وقوله : ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ معطوف على ﴿آمَنَتْ﴾ .

(١) تفسير القرطبى ج٨ ص ٣٨٧ .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فأمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذى حل بهم فقطع دابرهم ، كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا أمارات العذاب الذى أنذرهم به نبيهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، ومتعهم بالحياة المقدره لهم ، إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الشيخ القاسمى ما ملخصه : وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب نزل عليهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ، ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة . وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - :

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : «عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد» .<sup>(١)</sup>

وفى الآية الكريمة - أيضا - تسليية للرسول ﷺ عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

٧ - أما قصة - إياس - عليه السلام - فقد وردت فى سورة الصافات فى قوله - تعالى - :

وَأَنَّ

إِيَّاسَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ الْآنَتْ قُورُنُكُمْ أَتَدْعُونِ

بِعَلَا وَتَدْرُونَ أَحْسَنَ الْخَلِيفِينَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ

الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

﴿١٢٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَأْسِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّمَا كَذَلِكَ

نَجْحَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾

(١) تفسير القاسمى ج٦ ص ٣٤٠٠ .

وإلياس - عليه السلام - هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون - عليه السلام - فهو ينتهى نسبه - أيضا - إلى إبراهيم وإسحاق .

ويعرف إلياس فى كتب الإسرائيليين باسم «إيليا» وقد أرسله الله - تعالى - إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا .

ويقال : إن رسالته كانت فى عهد «آخاب» أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر «ق .م» .

والمعنى : «وإن إلياس لمن المرسلين» الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقوله - تعالى - : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ شروع فى بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف ، والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه : أَلَا تَتَّقُونَ الله ، وتخشون عذابه ونقمته ، والاستفهام للحض على تقوى الله - تعالى - واجتناب ما يغضبه .

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره - سبحانه - فقال : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ والبعل : اسم للصنم الذى كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل : سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله - عز وجل - الذى خلقكم ورزقكم .

ولفظ الجلالة فى قوله : ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ بدل من ﴿ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ .

أى : أتعبدون صنما صنعتموه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقرأ غير واحد من القراء السبعة ﴿ اللَّهُ ﴾ - بالرفع على أنه مبتدأ ، و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبره . والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لآبائهم الأولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم : إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم بل - أيضا - رب آبائكم الأولين ، الذين من طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم عن دعوته .

أى : دعا إلياس قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضارا فيه ذلهم وهوانهم .

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ فإنهم ناجون من الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريمنا وإحساننا .

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى : وأبقينا على إلياس فى الأمم الأخرى ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه .

٨ - وأما «اليسع» فهو ابن شافاط ، قيل : استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه - الله - تعالى - النبوة ، وكانت وفاته حوالى سنة ٨٤٠ ق.م ودفن بالسامرة ، وقد جاء اسمه فى القرآن مرتين ، إحداهما فى سورة الأنعام فى قوله - تعالى - :

﴿وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦]

والثانية فى قوله - تعالى - فى سورة «ص» :

﴿وَأذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]

٩ - وأما ذو «الكفل» فقيل هو ابن أيوب - عليه السلام - بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقيما فى الشام ، والأكثرون ، على أنه نبى لذكره معهم .

قال الألوسى : أما ذو الكفل فالظاهر من نظمه فى سلك الأنبياء أنه واحد منهم ، وهذا ما ذهب إليه الأكثر .

واختلف فى اسمه : فقيل : بشر ، وهو ابن أيوب ، وقيل : هو زكريا والد يحيى - عليهما السلام - وسمى بذلك لكفالة مريم .

وقيل : لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا<sup>(١)</sup> .

وقد تكرر اسم ذى الكفل مرتين - أيضا - فى القرآن الكريم ، مرة فى قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : ﴿وإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]

ومرة أخرى فى سورة «ص» :

﴿وَأذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار .

(١) تفسير الألوسى ج١٧ ص ٨٢ .

## قصة عيسى - عليه السلام - وأمه مريم

١ - قصة المسيح ابن مريم - عليه السلام - وقصة أمه مريم ابنة عمران ، وردت في القرآن الكريم في سور شتى ، منها ما جاء في السور المكية - أى : التى كان نزولها قبل الهجرة - ومنها ما جاء في السور المدنية - أى : التى كان نزولها بعد الهجرة .

وقد تكرر اسم مريم ابنة عمران في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة بينما تكرر اسم ابنها عيسى - عليه السلام - خمساً وعشرين مرة .

كما تكرر لفظ المسيح - أى : المبارك - كلقب كريم لهذا النبى الذى هو واحد من أولى العزم من الرسل إحدى عشرة مرة .

وكانت ولادة عيسى - عليه السلام - فى أحد الأماكن المباركة التى تجاور بيت المقدس ، بمدينة المقدس ، من أرض فلسطين .

ومن الأحاديث النبوية التى وردت فى فضل مريم ابنة عمران ، ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط ثم قال : «أتدرون ما هذا؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال ﷺ : «أفضل نساء أهل الجنة أربعة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ وأسية بنت مزاحم - امرأة فرعون - ومريم ابنة عمران» .

وأما الأحاديث الشريفة التى وردت فى فضل عيسى - عليه السلام - فكثيرة ، ومنها ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ أنه قال : «ما من مولود يولد إلا نحسه الشيطان - أى : إلا طعنه الشيطان - فيستهل صارخاً من نحسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه» .

ثم قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : اقرءوا إن شئتم قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

وفى الصحيحين - أيضاً - عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة» .

قالوا : كيف يا رسول الله؟ قال : «الأنبياء إخوة من علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وليس بينى وبينه نبى» .

ولفظ «علات» جمع علة وهى الضرة ، لأنها تعلل من ضررتها .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «رأى عيسى - عليه السلام - رجلاً يسرق ، فقال له : سرقت؟ فقال الرجل : كلا والذى لا إله إلا هو ، فقال عيسى - عليه السلام - : أمنت بالله وكذبت نفسى» .

أى : صدقت من حلف بالله - تعالى - وكذبت نفسى فيما ظهر لى ، لاحتمال أنه محق فى ذلك وهذا يدل على صفاء نفس عيسى - عليه السلام - وعلى عمق إيمانه ، وتعظيمه لخالقه - عز وجل - وللقسم به .

٢ - والذى يتدبر القرآن الكريم يراه قد فصل الحديث عن نشأة مريم ابنة عمران ، وعن فضلها وطهارتها ، واصطفائها على نساء زمانها ، وما أعده الله - تعالى - لها من ثواب عظيم .

كما تحدث القرآن - أيضا - عن ابنها عيسى - عليه السلام - حديثا واضحا حكيما عن مولده ، وعن معجزاته ، وعن دعوته ، وعن الخصائص التى أكرمه - سبحانه - بها ، وعن جهاده من أجل إعلاء كلمة الحق ، وعن صبره على الأذى ، وعن الشبهات الباطلة التى أثارها أعداؤه من حوله وعن بشارته بالنبى ﷺ وعن تكريم الخالق - عز وجل - له فى الدنيا والآخرة .

٣ - ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن نشأة مريم ابنة عمران قوله - تعالى - :

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالِ  
عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾  
إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي  
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي  
أُعِدُّهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٣٤﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ  
حَسَنٍ وَأَبْنَاهَا نَبَاً حَسَنًا وَكَلَّمَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا  
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا نَىٰ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ  
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٣٥﴾

والمعنى أن الله - تعالى - قد اختار واصطفى ﴿آدم﴾ أبا البشر ، بأن جعله خليفة فى الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته .

واصطفى ﴿نُوحًا﴾ لأنه - كما يقول - الألوسى - آدم الأصغر ، والأب الثاني للبشرية ، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله - سبحانه - ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ . (١)

واصطفى ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى عشيرته وذوى قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما .

واصطفى ﴿آلَ عِمْرَانَ﴾ إذ جعل فيهم عيسى - عليه السلام - الذى آتاه الله البينات وأيده بروح القدس .

والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى - عليه السلام - فهو عمران بن ياشم بن ميشا ابن حزقيا ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - .

وإن فى ذلك التسلسل دليل على أن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن يجعل فى الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم فقد ابتدأت الهداية بآدم أبى البشر كما قال - تعالى - : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ثم جاء من بعده بقرون لا يعلمها إلا الله نوح - عليه السلام - فمكث يدعو الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق «ألف سنة إلا خمسين عاما» ثم جاء من بعد ذلك إبراهيم - عليه السلام - فدعا الناس إلى عبادة الله وحده فكان هو وآله صفوة الخلق وفيهم النبوة ، فمن إسماعيل بن إبراهيم كان محمد ﷺ الذى ختمت به الرسالات السماوية .

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، ومن فرع إسحاق كان آل عمران وهم ذريته وأقاربه كزكريا ويحيى وعيسى الذى كان آخر نبي من هذا الفرع .

وفى التعبير بالاصطفاء تنبيه إلى أن آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران صفوة الخلق ، إذ أن الرسل والأنبياء جميعا من نسلهم .

وقوله : ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى على عالمى زمانهم ، أى أهل زمان كل واحد منهم .

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بتسلسل هذه الصفوة الكريمة بعضها من بعض فقال : ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ بَعْضٍ﴾ وأصل الذرية - كما يقول القرطبى - فعلية من الدر ، لأن الله - تعالى - أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم - وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا أى : خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين . (١)

(١) تفسير الألوسى ج ٣ ص ١٣١ .

والمعنى : أن أولئك المصطفين الأخبار بعضهم من نسل بعض ، فهم متصلو النسب ، فنوح من ذرية آدم ، وآل إبراهيم من ذرية نوح ، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم ، فهم جميعا سلسلة متصلة الحلقات فى النسب ، والخصال الحميدة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى هو - سبحانه - سميع لأقوال عباده فى شأن هؤلاء المصطفين الأخيار وفى شأن غيرهم ، عليم بأحوال خلقه علما تاما بحيث لاتخفى عليه خافية تصدر عنهم .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته امرأة عمران عندما أحست بعلامات الحمل فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ .

وامرأة عمران هذه هى - «حُتَّة» بنت فاقوذا بن قنبل وهى أم مريم وجدة عيسى - عليه السلام - وعمران هذا هو زوجها ، وهو أبو مريم .

وقوله : ﴿ نَذَرْتُ ﴾ من النذر وهو التزام التقرب إلى الله - تعالى - بأمر من جنس العبادات التى شرعها - سبحانه - لعباده ليتقربوا بها إليه .

وقوله : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ أى عتيقا مخلصا للعبادة متفرغا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ، يقال : حررت العبد إذا خلصته من الرق وحررت الكتاب إذا أصلحته ولم يبق فيه شيئا من وجوه الخطأ ، ورجل حر إذا كان خالسا لنفسه ليس لأحد عليه سلطان .

والمعنى : اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن لجأت امرأة عمران إلى ربها تدعوه بضراعة وخشوع فتقول : يا رب إنى نذرت لخدمت بيتك هذا الجنين الذى فى بطنى مخلصا لعبادتك متفرغا لطاعتك فتقبل منى هذا النذر الخالص ، وتلك النية الصادقة ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لقولى ولأقوال خلقك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنيتى وبنوايا سائر عبادك .

فأنت ترى فى هذا الدعاء الخاشع الذى حكاه القرآن عن امرأة عمران أسمى ألوان الأدب والإخلاص ، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين الذى فى بطنها ، ملتزمة منه - سبحانه - أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة بيته .

قال بعضهم : «وكان هذا النذر يلزم فى شريعتهم ، فكان المحرر عندهم إذا حرر جعل فى الكنيسة يخدمها ولا يبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم ، ثم يتخير فإن أحب ذهب حيث شاء ، وإن اختار الإقامة لا يجوز له بعد ذلك الخروج ، ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم إلا ومن أولادهم من حرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان ، ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى .<sup>(١)</sup>

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص ٤٦٢ .

وجملة ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تعليلية لاستدعاء القبول ، من حيث أن علمه - سبحانه - بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لقبول نذرها تفضلا منه وكرما .

ثم حكى - سبحانه - ما قالت بعد أن وضعت ما فى بطنها فقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ .

قالوا : إن هذا خبر لا يقصد به الإخبار ، بل المقصود منه إظهار التحسر والتحزن والاعتذار ، فقد كانت امرأة عمران تتوقع أن يكون ما فى بطنها ذكرا ، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيت الله والانقطاع للعبادة فيه ، لكنها حين وضعت حملها ووجدته أنثى ، قالت على سبيل الاعتذار عن الوفاء بنذرها : رب إنى وضعتها أنثى ، والأنثى لا تصلح للمهمة التى نذرت ما فى بطنى لها وهى خدمة بيتك المقدس ، وأنت يا إلهى القدير على كل شىء بقدرتك أن تخلق الذكر وبقدرتك أن تخلق الأنثى .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ جملة معترضة سيقى للإيماء إلى تعظيم المولود الذى وضعته وتفخيم شأنه ، وللإشعار بأن الأنثى ستصلح لما يصلح له الذكور من خدمة بيته ، أى : والله - تعالى - أعلم منها ومن غيرها بما وضعت ، لأنه هو الذى خلق هذا المولود وجعله أنثى ، وهو العليم بما يصير إليه أمر هذه الأنثى من فضل ، إذ منها سيكون عيسى - عليه السلام - وسيجعلها - سبحانه - آية ظاهرة دالة على كمال قدرته ، ونفوذ إرادته .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ يحتمل أنه من كلامه - سبحانه - وهو الظاهر - فتكون الجملة معترضة كسابقتها ، ويكون : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى ولدتها ، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه فى العبادة والمكانة إلا أنها لا تصلح عندهم لسدانة بيت الله - تعالى - بسبب حرمة اختلاطها بالرجال وما يعترىها من حيض وغير ذلك مما يعترى النساء .

ويحتمل أنه من كلامها الذى حكاها الله - تعالى - عنها فلا تكون الجملة معترضة ويكون المعنى : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى وضعتها ، بل هو خير منها لأنه هو الذى يصلح لسدانة بيتك وخدمته ، ومع هذا فأنا فى كلتا الحالتين راضية بقضائك مستسلمة لإرادتك .

ثم حكى - سبحانه - أيضا - بعض ما قالت بعد ولادتها فقال : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

قالوا : إن كلمة مريم معناها فى لغتهم : العابدة ، فأرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله والالتماس منه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها .

ومعنى ﴿أَعِيذُهَا بِكَ﴾ أمنعها وأجيرها بحفظك ، مأخوذ من العوذ ، وهو أن تلتجئ إلى غيرك وتتعلق به ، يقال : عاذ فلان بفلان إذا استجار به ، ومنه العوذة وهى التميمية والرقية .

والشيطان فى لغة العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء ، وهو مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول ، أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير ، وقيل : رجيم بمعنى راجم لأنه يرمم الناس بالوساوس والشرر .

والمعنى : وإنى يا خالقى مع حبى لأن يكون المولود ذكرا للتتهيا له خدمة بيتك فقد رضيت بما وهبت لى ، وإنى قد سميت هذه الأنثى التى أعطيتنى إياها مريم ، أى العابدة الخادمة لك ، وإنى أحصنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان الرجيم الذى يزين للناس الشرور والمساوى .

قال القرطبى : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه » .

ثم قال أبوهريرة : « اقرءوا إن شئتم : وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديث أن الله - تعالى - استجاب دعاء أم مريم ، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس ، إن ذلك ظن فاسد ، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ، ومع ذلك عصمهم الله عما يرومه الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (١)

تلك هى بعض الكلمات الطيبات والدعوات الخاشعات ، التى توجهت بها امرأة عمران إلى ربها عندما أحست بالحمل فى بطنها وعندما وضعت حملها - كما حكاها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر - فماذا كانت نتيجتها؟ .

كانت نتيجتها أن أجاب الله دعاءها وقَبِلَ تضرعها ، وقد حكى - سبحانه - ذلك بقوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا ﴾ تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة ، والضمير يعود إلى مريم ، والتقبل - كما يقول الراغب - قبول الشىء على وجه يقتضى ثوبا كالهديّة ونحوها .

وإنما قال - سبحانه - : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ ﴾ ولم يقل بتقبل : للجمع بين الأمرين :

التقبل الذى هو الترقى فى القبول ، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة . (٢)

(١) تفسير القرطبى ج٤ ص ٦٨ بتلخيص .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ج٢ ص ٢٩ .

والمعنى : أن الله - تعالى - تقبل مريم قبولا مباركا وخرق بها عادة قومها ، فرضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور ، مع كونها أنثى وفاء بنذر الأم التقية التي قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ .

﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أى رباها تربية حسنة وصانها من كل سوء ، فكان حالها كحال النبات الذى ينمو فى الأرض الصالحة حتى يؤتى ثماره الطيبة .

وهكذا قيض الله - تعالى - لمريم كل ألوان السعادة الحقيقية ، فقد قبلها لخدمة بيته مع أنها أنثى ، وأنشأها نشأة حسنة بعيدة عن كل نقص خلقى أو خلقى ، وهى لها وسائل العيش الطيب من حيث لا تحتسب ، فقد قال - تعالى - : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

قوله : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضمها إلى زكريا لأن الكفالة فى الأصل معناها الضم ، أى ضمها الله - تعالى - إليه وجعله كافلا لها وضامنا لمصالحها .

وزكريا هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وينتهى نسبه إلى سليمان بن داود - عليهما السلام - وكان متزوجا بخالة مريم ، وقيل : كان متزوجا بأختها .

وكانت كفالته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا فى كفالتها من سدنة بيت المقدس ، يدل على ذلك قوله - تعالى - :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

قال صاحب الكشاف : « روى أن « حنة » حين ولدت مريم ، لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ، ووضعته عند الأحبار وهم فى بيت المقدس ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم .

فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها فقالوا : لا ، نقترع عليها ، فانطلقوا إلى نهر وألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها» (١)

وقوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ بيان لكفالة الله - تعالى - لرزقها ورضاه عنها ، ورعايته لها .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٣٥٧ بتلخيص يسير .

والمحراب الموضع العالى والمراد به الغرفة التى كانت تتخذها مريم مكانا لعبادتها فى المسجد ، سُمى بذلك لأنه مكان محاربة الشيطان والهوى .

وهذا دليل على قدرة الله - سبحانه - على كل شىء ، وعلى رعايته لمريم ، فقد رزقها - سبحانه - من حيث لا تحتسب ، ودليل على وقوع الكرامة لأولياته - تعالى - .

ولقد كان وجود هذا الرزق عند مريم دون أن يعرف زكريا - عليه السلام - مصدره مع أنه لا يدخل عليها أحد سواه كان ذلك محل عجبه ، لذا حكى القرآن عنه : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكَ هَذَا ﴾ أى من أين لك هذا الرزق العظيم الذى لا أعرف سببه ومصدره ﴿ أَنَّنِي ﴾ هنا بمعنى من أين .

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذا الرزق؟ فكان الجواب : قال يا مريم من أين لك هذا .

ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها ، وصفاء نفسها ، فقد أجابته بقولها - كما حكى القرآن عنها - : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أى : قالت له : إن هذا الرزق من عند الله - تعالى - هو الذى رزقنى إياه وساقه إلى بقدرته النافذة .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ جملة تعليلية ، أى : إن الله - تعالى - يرزق من يشاء أن يرزقه رزقا واسعا عظيما لا يحده حد ، ولا تجرى عليه الأعداد التى تنتهى ، فهو - سبحانه - لا يحاسبه محاسب ، ولا تنقص خزائنه من أى عطاء مهما كثر وعظم .

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أنها من كلام الله - تعالى - فتكون مستأنفة ، ويحتمل أنها من كلامها الذى حكاه القرآن عنها ، فتكون تعليلية فى محل نصب داخله تحت القول .

هذا وفى تلك الآيات التى حكاها القرآن عن مريم ، وأمها نرى كيف يعمل الإيمان عمله فى القلوب فينقيها ويصفيها ويحررها من رق العبودية لغير الله الواحد القهار وكيف أن الله - تعالى - يتقبل دعاء الصالحين ، وينبتهم نباتا حسنا ، ويرعاهم برعايته ، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون .

حديث القرآن عن ولادة مريم لعيسى - عليه السلام - وعن فضائله ومعجزاته :

فى القرآن الكريم آيات متعددة حدثت عن مولد عيسى - عليه السلام - وعن نشأته ، وعن فضائله وعن معجزاته ، وعن المحاورات التى دارت بين مريم وبين جبريل - عليه السلام - وكذلك عن المحاورات التى دارت بينها وبين قومها .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - في سورة مريم :

وَأذْكَرُ  
فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ  
مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾  
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَفِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ  
رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ  
وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيِّئٍ  
وَلِيَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّفْضِيًّا ﴿٢١﴾

والمعنى : ﴿ وَأذْكَرُ ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ أي في هذه السورة  
الكريمة ، أو في القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها ﴿ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾  
أي : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم في مكان يلي الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو  
من بيتها الذي كانت تسكنه .

وفي التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ إشارة إلى شدة عزلتها عن  
أهلها ، إذ النبذ معناه الطرح والرمى ، فكأنها ألقت بنفسها في هذا المكان لتتخلى للعبادة  
والطاعة ، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .

قال القرطبي : واختلف الناس لم انتبذت؟ فقال السدي : انتبذت لتطهر من حيض أو  
نفاس ، وقال غيره : لتعبد الله وهذا حسن ، وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد  
وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب  
في شرقيه لتخلو للعبادة .

فقوله : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أي : مكانا من جانب الشرق ، والشرق - بسكون الراء -  
المكان الذي تشرق فيه الشمس ، والشرق - بفتح الراء - الشمس .

وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٩٠ .

وقوله : ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ تأكيد لانتبازها من أهلها ، واعتزالها إياهم .  
أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها ، فى مكان يلى شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها  
وبينهم حجابا وساترا للتفرغ لعبادة ربها .  
ثم بين - سبحانه - ما أكرمها به فى حال خلوتها فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ  
لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل - عليه السلام - فتشبه لها فى صورة بشر سوى  
معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن ما يكون الإنسان .

يقال : رجل سوى إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق لا يعيبه فى شأن من شئونه إفراط أو تفريط .  
والإضافة فى قوله : ﴿ رُوحَنَا ﴾ للتشريف والتكريم ، وسمى جبريل - عليه السلام -  
روحا لمشابهة الروح الحقيقية فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر ، فجبريل من حيث  
ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .  
وإنما تمثل لها جبريل - عليه السلام - فى صورة بشر سوى ، لتستأنس بكلامه ، وتتلقى  
منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولو بدا لها فى صورته التى خلقه الله - تعالى - عليها  
لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من حوار ونقاش فقال :  
﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ .

أى : قالت لجبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى : إنى أعود  
والتجئ إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه .

وخصت الرحمن بالذكر ، لتثير مشاعر التقوى فى نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى  
أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى إن كنت تقيا ، فابتعد عنى واتركنى فى خلوتى  
لأتفرغ لعبادة الله - تعالى - .

وبهذا القول الذى حكاه القرآن عن مريم ، تكون قد جمعت بين الاعتصام بربها ، وبين  
تخوف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله ، إن سولت له نفسه إرادتها بسوء ، كما أن  
قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهى  
تقول له هذا القول ، وهى تراه بشرا سويا ، وفى مكان بمعزل عن الناس .

وهنا يجيبها جبريل - كما حكى القرآن عنه - بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ  
لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ .

أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : إنما أنا يا مريم رسول ربك الذى استعذت به ، والتجأت إليه ، فلاتخافى ولا تجزعى وقد أرسلنى - سبحانه - إليك ، لأهب لك بإذنه وقدرته غلاما زكيا ، أى : ولدا طاهرا من الذنوب والمعاصى ، كثير الخير والبركات .

ونسب الهبة لنفسه ، لكنه سببا فيها ، وقرأ نافع وأبو عمرو : ﴿ لِيَهَبَ لَكَ ﴾ بالياء المفتوحة بعد اللام أى : ليهب لك ربك غلاما زكيا .

وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشتد عجبها فتقول : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

أى قالت على سبيل التعجب بما سمعته : كيف يكون لى غلام ، والحال أنى لم يمسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذى أحله الله - تعالى - ولم أك فى يوم من الأيام بغيا ، أى : فاجرة تبغى الرجال ، أو يبيغونها للزنا بها ، يقال : بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف .

قال صاحب الكشاف : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه كقوله - تعالى - : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ والزنا ليس كذلك إنما يقال : فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمم أن تراعى فيه الكنايات والآداب ، والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال (١) .

وعلى هذا الرأى الذى ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم ، من قولها : ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ المقصود به الزواج الحلال .

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام ، أى : ولم يمسنى بشر كائنا من كان لابتنكاح ولا بزنى ، ويكون قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ من باب التخصيص بعد التعميم ، ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢)

ويؤيده أيضا أن لفظ ﴿ بَشَرٌ ﴾ نكرة فى سياق النفى فيعم كل بشر سواء أكان زوجا أم غير زوج .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى زانية ، وذكرت هذا تأكيدا لأن قولها يشمل الحلال والحرام (٣) .

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ١٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٧ .

(٣) تفسير القرطبى ج١١ ص ٩١ .

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وإنما تعجبت بما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد الاتصال برجل ، فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه - تعالى - قادر على خلق الولد ابتداء ، كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله - تعالى - من غير أب أو أم .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ رد من جبريل عليها .

أى : قال الأمر كذلك أى : كما ذكرت من أن بشرنا لم يمسسك ومن أنك لم تكونى فى يوم من الأيام بغيا ، أو الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلاما زكيا من غير أن يكون له أب .

وقوله : ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، أى : ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ ﴾ أى : خلق ولدك من غير أب ﴿ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى : سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها شىء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ تعليل لمعلل محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسسك بشر ﴿ آيَةً ﴾ عظيمة وأمرا عجيبا يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعا ، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك ، كما لا يعجزها أن توجد بشرنا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم ، أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر .

وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : ولنجعل هذا الغلام الذى وهبنا لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به ، واتبع دعوته ، ﴿ وَكَانَ ﴾ وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية ﴿ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أى : مقدرًا فى الأزل مسطورا فى اللوح المحفوظ ، ولا بد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكمت لنا جانبا من حالة مريم ومن الحوار الذى جرى بينها وبين جبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكمت فيها حالتها عند حملها بعبسى ، وعندما جاءها المخاض فقال - تعالى - :

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٦ .

فَحَمَلَتْهُ

فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٣٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ  
قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٣٤﴾ فَادَّهَمَ مِنْ تَحْتِهَا  
أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٣٥﴾ وَهَزِيءَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ  
تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٣٦﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا مَسَا  
تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّهَ  
الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٣٧﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : يقول - تعالى - مخبرا عن مريم ، أنها لما قال لها جبريل  
عن الله - تعالى - ما قال : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ  
النَّخْلَةِ ﴾ أنها استسلمت لقضائه - تعالى - فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن الملك  
وهو جبريل - عليه السلام - عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت  
في الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله - تعالى - .

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر ، قال عكرمة : ثمانية أشهر .

وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا أن جملت فوضعت ، وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ  
من ظاهر قوله - تعالى - : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ  
النَّخْلَةِ ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه .

فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء  
بأولادهن (١) .

الفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فَحَمَلَتْهُ .. ﴾ هي الفصيحة ، أي : وبعد أن قال جبريل لمريم :  
إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، نفخ فيها فحملته ، أي : عيسى ، فانتبذت به ،  
أي : فتنحت به وهو في بطنها ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي : إلى مكان بعيد عن المكان الذي  
يسكنه أهلها .

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١١٦ .

يقال : قصى فلان عن فلان قَصْوًا وقُصُوًّا ، إذا بعد عنه ، ويقال : فلان بمكان قصى ،  
أى : بعيد .

وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصى ، كان بيت لحم بفلسطين .  
قال ابن عباس : أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم ، فرارا من قومها أن يعيروها  
بولادتها من غير زوج .<sup>(١)</sup>

ثم حكى - سبحانه - ما اعترأها من حزن عندما أحست بقرب الولادة فقال :  
﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ .  
وقوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أى : فأجأها ، يقال : أجأته إلى كذا ، بمعنى : ألبأته إليه ، ويقال  
جاء فلان ، وأجأه غيره ، إذا حمله على الجىء ، ومنه قول الشاعر :

وجار سارَ معتمدا علينا      أجأته المخافة والرجاء

قال صاحب الكشاف : «أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل  
إلى معنى الإلجاء ، ألا تراك تقول : جئت المكان وأجأنيه زيد ، كما تقول : بلغته  
وأبلغنيه» .<sup>(٢)</sup>

والمخاض : وجع الولادة ، يقال : مخضت المرأة - بكسر الخاء - تمخض - بفتحها - إذا دنا  
وقت ولادتها مأخوذ من الخض ، وهو الحركة الشديدة ، وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين  
فى بطن الأم عند قرب خروجه .  
وجذع النخلة : ساقها الذى تقوم عليه .

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به - وهو محمول فى بطنها - عن قومها ،  
وحان وقت ولادتها ، ألبأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكئ عليه عند الولادة .

فاعترأها فى تلك الساعة ما اعترأها من هم وحزن وقالت : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾  
الحمل والمخاض الذى حل بى ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أى : وكنت شيئا منسيا متروكا  
لا يهتم به أحد ، وكل شىء نسى وترك ولم يطلب فهو نسى ونسى .

قال القرطبى : «والنسى فى كلام العرب : الشىء الحقيقير الذى من شأنه أن ينسى  
ولا يتألم لفقده كالوتد ، والحبل للمسافر ، وقرئ : ﴿ نَسِيًّا ﴾ بكسر النون وهما لغتان  
مثل : الوتر والوتر»<sup>(٣)</sup>

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ٥٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج٣ ص ١١ .

(٣) تفسير القرطبى ج١١ ص ٩٢ .

قال الألوسى ما ملخصه : وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم ، استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس فى المعصية بسبب كلامهم فى شأنها .

وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه - لأنه يتعلق بأمر دينى - نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر ، وفى صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لا بد متمنيا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى » .

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجد فقد أساء الظن .<sup>(١)</sup>

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من إكرامه لمريم فى تلك الساعات العصبية من حياتها فقال : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . . . ﴾ .

والذى ناداها يرى بعضهم أنه جبريل - عليه السلام - وقوله ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ فيه قراءتان سبعيتان : إحداهما : بكسر الميم فى لفظ ﴿ مِنْ ﴾ على أنه حرف جر ، وخفض تاء ﴿ تَحْتِهَا ﴾ على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف أى ناداها جبريل من مكان تحتها أى أسفل منها .

والثانية : بفتح الميم فى لفظ ﴿ مِنْ ﴾ على أنه اسم موصول ، فاعل نادى وفتح التاء فى ﴿ تَحْتِهَا ﴾ على الظرفية ، أى : ناداها الذى هو تحتها ، وهو جبريل - عليه السلام - . قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ .

قال ابن عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وفى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة ، التى لله - تعالى - فيها مراد عظيم .<sup>(٢)</sup>

ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى - عليه السلام - فيكون المعنى : ناداها ابنها عيسى الذى كان عندما وضعت موجودا تحتها .

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا رأى فقال : وأولى القولين فى ذلك عندنا قول من قال : الذى ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية - أى ضمير - ذكره أقرب منه من

(١) تفسير الألوسى ج ١٦ ص ٨٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٩٢ .

ذكر جبريل ، فرده على الذى هو أقرب إليه أولى من رده على الذى هو أبعد منه ، ألا ترى أنه فى سياق قوله - تعالى - ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ثم قيل : فناداها نسقا على ذلك ، ولعلة أخرى وهى قوله : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ .. ﴾ ولم تشر إليه - إن شاء الله - إلا وقد علمت أنه ناطق فى حاله تلك . (١)

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذى نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة ، فيه مافيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها .

أى : فناداها ابنها عيسى الذى كان أسفل منها عندما وضعته ، مطمئنا إياها بعد أن قالت : يا ليتنى مت قبل هذا الذى حدث لى . . ناداها بقوله : ﴿ أَلَا تَحْزَنِي ﴾ يا أماه ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴾ أى : جدولا صغيرا من الماء ، لتأخذى منه ما أنت فى حاجة إليه ، وسمى النهر الصغير من الماء سرىا ، لأن الماء يسرى فيه .

وقيل : المراد بالسرى عيسى - عليه السلام - مأخوذ من السرو بمعنى الرفعة والشرف . يقال : سرو الرجل يسرو - كشرف يشرف - فهو سرى ، إذا علا قدره وعظم أمره ومنه قول الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم      ولا سراة إذا جهالهم سادوا

أى : قد جعل ربك تحتك يامرهم إنسانا رفيع القدر ، وهو ابنك عيسى .  
والجملة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله : ﴿ أَلَا تَحْزَنِي ﴾ .  
قال بعض العلماء ما ملخصه : وأظهر القولين عندى أن السرى فى الآية النهر الصغير لأمرين :

أحدهما : القرينة من القرآن ، لأن قوله بعد ذلك ﴿ فَكُلِّي وَأَشْرَبِي ﴾ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به فى قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴾ :  
الثانى : ماجاء عن ابن عمر من أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إن السرى الذى قال الله لمريم : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه » .

فهذا الحديث - وإن كانت طرقة لا يخلو شىء منها من ضعف - أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه . (٢)

(١) تفسير ابن جرير ج١٦ ص ٥٢ .

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى - رحمه الله تعالى - ج٤ ص ٢٤٨ .

وقوله - سبحانه - ﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ بَجْدَعِ النَّخْلَةِ ﴾ معطوف على ما قاله عيسى لأمه مريم ، والباء فى قوله ﴿ بَجْدَعِ ﴾ مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه .

أى : وحركى نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ﴿ تَسَاقَطُ عَلَيْكَ رُطْبًا ﴾ وهو ما نضج واستوى من التمر ﴿ جَنِيًّا ﴾ أى : صالحا للأخذ والاجتناء ﴿ فَكَلِمِي ﴾ من ذلك الرطب ﴿ وَأَشْرَبِي ﴾ من ذلك السرى ، ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى : طيبى نفسا بوجودى تحتك ، واطردى عنك الأحزان .

يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت ما تحبه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن مباشرة الأسباب فى طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافى التوكل على الله ، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه ويريده .

وهنا قد أمر الله - تعالى - مريم - على لسان مولودها - بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب ، مع قدرته - سبحانه - على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب  
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ، ولكن كل شىء له سبب

كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب ، قالوا : لأنه لو كان شىء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله - تعالى - لمريم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ حكاية منه - تعالى - لبقية كلام عيسى لأمه .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لأمه : لاتحزنى يا أماه بسبب وجودى بدون أب ، وقرى عينا ، وطيبى نفسا لذلك ، إما ترين من البشر أحدا كائنا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى : صمتا عن الكلام ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابنى ليشرح لكم حقيقة أمره .

وقالوا : إنما منعت من الكلام لأمرين : أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها ، فى هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .

والثانى : كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفية واجب ، ومن أذل الناس سفية لم يجد مسافها . (١)

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكمت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما فعلته مريم عندما شعرت بالحمل وما قالته عندما أحست بقرب الولادة ، وما قاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، مشهد مريم عندما جاءت بوليدها إلى قومها وما قالوه لها ، وما قاله وليدها لهم .  
استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُحْكِمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمَدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنْ بَدَأَ اللَّهُ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى - عليه السلام - اطمأنت نفسها ، وقرت عينها ، فأنت به أى بمولودها عيسى إلى قومها ، وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها .

قال الألوسى : أى : جاءتهم مع ولدها حاملة إياه ، على أن الباء للمصاحبة ، وجملة ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ فى موضع الحال من ضمير ، وكان هذا المجرى على ما أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من نفاسها .  
وظاهر الآية والأخبار «أنها جاءتهم به من غير طلب منهم» (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج٥ ص ٥٣٥

(٢) تفسير الألوسى ج١٦ ص ٨٧

ثم حكى - سبحانه - ما قاله قومها عندما رأوها ومعها وليدها فقال: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ .

أى : قالوا لها على سبيل الإنكار : يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئا منكرا عجيبا فى بابہ ، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك .

والفرى : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئا قاطعا وخارقا للعادة ، ومرادهم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿وَبِكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ . [ النساء : ١٥٦ ]

ويدل على أن مرادهم هذا ، قولهم بعد ذلك : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأًا سَوْءًا﴾ .

أى : ما كان أبوك رجلا زانيا أو معروفا بالفحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ ، أى : تتعاطى الزنا ، يقال : بغت المرأة ، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف .

وليس المراد بهارون : نبي الله أخا موسى - عليهما السلام - وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون فى الصلاح والتقوى . أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم .

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ استئناف لتجديد التعبير ، وتأکید التوبيخ ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - لما أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، والطبرانى ، وابن حبان ، وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» .

وعن قتادة قال : «هو رجل صالح فى بنى إسرائيل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا قبل من صلاحها»<sup>(١)</sup>

وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هى بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم .

(١) تفسير الألوسى ج٦ ص ٨٨ .

وهنا نجد مريم تبدأ فى الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ .  
أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم عليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر .

ولكنهم لم يقنعوا بإشارتها بل قالوا لها : ﴿ كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ .  
والمهد : اسم للمضطجع الذى يهياً للصبى فى رضاعه ، وهو فى الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه .

أى : كيف نكلم طفلاً صغيراً مازال فى مهده وفى حال رضاعه .  
والفعل الماضى وهو ﴿ كَانَ ﴾ ههنا بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال ، كما يدل عليه سياق القصة .

ولكن عيسى - عليه السلام - أنطقه الله - تعالى - بما يدل على صدق مريم وطهارتها فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أى : قال عيسى فى رده على المنكرين على أمه إتيانها به :  
إنى عبد الله ، خلقتنى بقدرته ، فأنا عبده وأنتم - أيضاً - عبيده ، وهذا الخالق العظيم ﴿ آتَانِي الْكِتَابَ ﴾ أى : سبق فى قضائه إتيانى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة أو مجموعهما .

وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى .

وهذا التعبير له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ . [ النحل : ١ ]

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنِي نَبِيًّا ﴾ أَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ﴿ وَجَعَلْنِي ﴾ أيضاً بجانب نبوتى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أى : كثير الخير والبركة ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أى : حينما حللت جعلنى مباركا ، فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه .

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالرُّكَاةِ ﴾ أى : بالمحافظة على أدائهما ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى هذه الدنيا .

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .

وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أى : وجعلنى كذلك مطيعا لوالدتى ، وبارا بها ، ومحسنا إليها ، ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي ﴾ - سبحانه - فضلا منه وكرما ﴿ جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى : ولم يجعلنى مغرورا متكبيرا مرتكبا للمعاصى والموبقات .

﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ والأمان منه - تعالى - ﴿ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ مفارقا هذه الدنيا ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة .

فأنت ترى أن عيسى - عليه السلام - قد وصف نفسه بمجموعة من الصفات الفاضلة ، افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التى لاحق سواها ، ولتحذير أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ، أو هو مشارك له فى العبادة .

واختتمها برجاء الأمان له من الله - تعالى - فى كل أطوار حياته .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأنذر الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريثان منه بسوء المصير ، فقال - تعالى - :

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ  
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٦﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ  
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ  
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَلَّيَ  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ  
يَأْتُونَكَ مِنَ الْأَعْيُنِ الْيَوْمِ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ وَأَنْذِرْهُمْ  
يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّا  
نَحْنُ نَزَّلْنَا الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ  
إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٣٣﴾

واسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى ما ذكره الله - تعالى - قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة ، ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ وعيسى خبره وابن مريم صفته .

ولفظ : ﴿قَوْلٍ﴾ فيه قراءتان سبعيتان إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام ، والثانية قراءة ابن عامر وعاصم بفتحها .

وعلى القراءة بالرفع يكون ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، فيكون المعنى : ذلك الذى أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو قول الحق - عز وجل - وهو قول لا يحوم حوله باطل ، ولا يخالطه ريب أو شك ، فلفظ ﴿الْحَقِّ﴾ يصح أن يراد به الله - سبحانه - لأنه من أسمائه ، ويصح أن يراد به ما هو ضد الباطل ، وهو الصدق والثبوت .

وعلى قراءة النصب يكون لفظ ﴿قَوْلٍ﴾ مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من شأن عيسى ابن مريم ، هو القول الثابت الصادق ، الذى أقول فيه قول الحق .

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى : القول الحق ، كقوله - تعالى - ﴿وَعَدُ الصِّدْقِ﴾ أى : الوعد الصدق .

وقوله : ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذى ذكره الله - تعالى - عن عيسى وأمه ، و ﴿الَّذِي﴾ صفة للقول ، أو للحق ، و ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل .

أى : ذلك الذى ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق ، الذى شك فى صدقه الكافرون ، وتنازع فيه الضالون ، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم بل ذرهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون له ولد فقال : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وُلْدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أى : ما يصح وما يستقيم وما يتصور فى حقه - تعالى - أن يتخذ ولدا ، لأنه منزه عن ذلك ، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله - تعالى - هو الباقي بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذى لا يعجزه شىء .

و ﴿مِنْ﴾ فى قوله : ﴿مِنْ وُلْدٍ﴾ لتأكيد هذا النفي وتعميمه .

وفى معنى هذه الآيات جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - فى هذه السورة :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ

السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ

دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى : لا يتصور فى حقه - سبحانه - اتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له : كن ، فيكون فى الحال ، بدون تأخير أو تردد .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ ۝ ﴾ قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة ﴿ وَإِنَّ ﴾ على الاستئناف ، أى : وإن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه - أيضا - : وإن الله - تعالى - هو ربي وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه .

وقرأ الباقون بفتح همزة ﴿ وَإِنَّ ﴾ بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال عيسى لقومه : ولأن ربي وربكم فاعبدوه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ أى : ولأن المساجد لله .

ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من عيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

والأحزاب جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه - عليه السلام - فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه ، وهم اليهود كما فى قوله : ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ .

ومنهم من قال : هو ابن الله ، أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث ثلاثة ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى .

ولفظ ﴿ وَيَلٌ ﴾ مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد .

﴿ مَّشْهَدٌ ﴾ يصح أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الشهود والحضور .

والمعنى : هكذا قال عيسى - عليه السلام - لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ ولكن

الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم فى شأنه اختلافا كبيرا ، وضلوا ضلالا بعيدا ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم

العظيم وهو يوم القيامة ، حيث يلقون عذابا شديدا من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان .

وعبر عنهم بالموصول فى قوله : ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إيدانا بكفرهم جميعا ، وإشعارا بعلّة الحكم .

قال أبوحيان : ومعنى : ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم . (١)

وجاء التعبير فى قوله ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بالتنكير ، للتحويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ..﴾ تهكم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله .

و﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ صيغتا تعجب ، لفظهما لفظ الأمر ، ومعناهما التعجب ، أى حمل المخاطب على التعجب ، وفاعلها الضمير المحرور بالباء ، وهى زائدة فيهما لزوما ، والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم ، لما يخلع قلوبهم ويسود وجوههم ، مع أنهم كانوا فى الدنيا صما وعميانا عن الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

فالمراد باليوم فى قوله : ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق .

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة ، وهم أسمع ما يكن السمع وأبصر ما يكون البصر ، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

والإنذار : الإعلام بالخوف منه على وجه التهيب والتحذير ، وأشد ما يخوف به يوم القيامة .

والحسرة : أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولا يمكن تداركه .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٦ ص ١٩١ .

أى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم فى طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿ أَنْذَرَهُمْ ﴾ .  
أى : أنذرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان .

هذا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله - تعالى - ﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ . أى : ذبح الموت ، فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون ، وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . (١) .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه فقال : أى : إنا نحن وحدنا الذين نमित جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، فلا يبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها ، وهؤلاء الخلائق جميعا ﴿ وَالْيَنَّا ﴾ وحدنا ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة ، فنحاسبهم على أعمالهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ .

والى هنا تكون الآيات الكريمة التى ذكرناها قد حدثتنا عن جانب من قصة مريم وعيسى - عليهما السلام - حديثا يهدى إلى الرشد ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق .

٨ - هذا ، وفى سورة «آل عمران» آيات كريمة ، حدثتنا عن الفضائل التى منحها الله - تعالى - لمريم أم عيسى - عليهما السلام - وعن البشارات التى بشرتها بها الملائكة ، وعن المناقب الحميدة ، والمعجزات الباهرة ، التى اختص الله - تعالى - بها رسوله عيسى - عليه السلام - وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٢٢ .

وَإِذْ

قَالَتِ الْمَلَأِئِكَةُ يُمَرِّمِينَ إِنْ أَلَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى  
نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ يُمَرِّمُ أَقْبَنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّكْعِينَ  
﴿٤٧﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ  
أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٨﴾  
إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِئِكَةُ يُمَرِّمِينَ إِنْ أَلَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ السَّمِيُّ  
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَبِكَلِمَةٍ  
النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَتِ رَبِّ أَنْ يَكُونَ لِي وَلَدٌ  
وَلَمْ تَمْسَسْنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ أَلَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا  
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥١﴾

المعنى ، واذكري يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمرم - التي تقبلها ربها بقبول  
حسن وأنبتها نباتا حسنا - : يا مريم ﴿ إِنَّ أَلَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أى اختارك واجتباك لطاعته ،  
وقبلك لخدمة بيته ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الأدناس والأقذار ، ومن كل ما يتنافى مع الخلق  
الحميد ، والطبع السليم ﴿ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير  
أب دون أن يمسسك بشر ، وجعلك أنت وهو آية للعالمين .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر  
والحبة ، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه والتنويه بقدره .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : والاصطفاء الأول إشارة إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة  
فى أول عمرها بأن قبل الله - تعالى - تحريها ، أى خدمتها لبيته ، مع أنها أنثى ولم يحصل  
مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ، وبأن فرغها لعبادته وخصها فى هذا المعنى بأنواع اللطف  
والهداية والعصمة ، وبأن كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله .

وأما الاصطفاء الثانى فالمراد به أنه - تعالى - وهب لها عيسى - عليه السلام - من غير أب ، وجعلها وابنها آية للعالمين .<sup>(١)</sup>

ولاشك أن ولادتها لعيسى من غير أب ودون أن يمسه بشر ، هو أمر اختصت به مريم ولم تشاركها فيه امرأة قط فى أى زمان أو مكان ، فهى أفضل النساء فى هذه الحثية .  
أما من حيث قوة الإيمان وصلاح الأعمال فيجوز أن يحمل اصطفاؤها على نساء العالمين على معنى تفضيلها على عالمى زمانها من النساء وبعضهم يرى أفضليتها على جميع النساء فى سائر الأعصار .

هذا وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث التى وردت فى فضل مريم وفى فضل غيرها من النساء ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» ، وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ، وأخرج البخارى عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .<sup>(٢)</sup>

وقول الملائكة لمريم : إن الله اصطفاك وطهرك . . إلخ : الراجح أنهم قالوه لها مشافهة ، لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الآية ، وإليه ذهب صاحب الكشاف فقد قال : روى أنهم كلموها شفاها معجزة لذكريا ، أو إرهابا لنبوة عيسى - عليه السلام - .<sup>(٣)</sup>

وقال الجمل قوله : ﴿وَأَذَقْنَا لِمَلَأَكَّةُ﴾ أى مشافهة لها بالكلام ، وهذا من باب التربية الروحية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللاتقة بحال صغرها .<sup>(٤)</sup>

وقيل : كان خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة فى النوم .  
والأول أولى لأنه هو الظاهر من الآية ، ولأنه الموافق لأقوال جمهور المفسرين ، ولأنه جاء صريحا فى آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشرا سويا وكلمها ، وذلك فى قوله - تعالى - فى سورة مريم :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٣ .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦١ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٦٩ .

دُونِهِمْ حَجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ  
بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١﴾ .

قال الألوسي : «واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم : لأن تكليم الملائكة يقتضيها ، ومنعها اللقاني وغيره من العلماء ، لأن الملائكة قد كلموا من ليس بنبي إجماعا ، فقد جاء في الحديث الشريف أنهم كلموا رجلا خرج لزيارة أخ له في الله ، وأخبروه بأن الله يحبه كما أحب هو أخاه ، ولم يقل أحد بنبوته - فكلام الملائكة لمريم لا يقتضى نبوتها وهو الصحيح» (١) .

ثم حكى القرآن أن الملائكة أمرت مريم بأن تكثر من عبادة الله - تعالى - ومن المداومة على طاعته شكرا له فقال - تعالى - :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

القنوت : لزوم الطاعة والاستمرار عليها ، مع استشعار الخشوع والخضوع لله رب العالمين .

أى : قالت الملائكة أيضا لمريم : يا مريم أخلصى العبادة لله وحده وداومى عليها ، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين ، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه - عز وجل - .

فالآية الكريمة دعوة قوية من الله - تعالى - لمريم ولعباده جميعا بالمحافظة على العبادات ولاسيما الصلاة فى جماعة .

قال صاحب الكشاف : أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئة الصلاة وأركانها ثم قيل لها : ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ بمعنى ولتكون صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة ، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم (٢) .

فأنت ترى فى هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهديب لمريم البتول ، فلقد أخبر - سبحانه - باصطفائها صغيرة وكبيرة ، وبطهرها من كل سوء ، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى ، وذلك لما لايس مولد عيسى - عليه السلام - من خوارق ، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم ، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هى بريئة منه ، ثم بعد ذلك يأمرها - سبحانه - بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين .

(١) تفسير الألوسى بتصرف يسير - ج ٣ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٢ .

وبذلك يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ هو الدين الحق ، لأنه قد قال القول الحق فى شأن مريم وابنها عيسى - عليه السلام - أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد اختلفوا فى شأنهما اختلافا عظيما أدى بهم إلى الضلال والخسران .

ثم بين - سبحانه - أن ما جاء به القرآن فى شأن مريم - بل وفى كل شأن من الشئون - هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سواه فقال - تعالى - : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة امرأة عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر العظيم الشأن .

والغيب مصدر غاب ، وهو الأمر المغيب المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله - تعالى - .

ونوحيه : من الإيحاء وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفى ، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء وبمعنى الإلهام .

أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ، فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران وما قاله زكريا ، وما قالته الملائكة لمريم وفيما يتعلق بغير ذلك من شئون ذلك القصص الحكيم هو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سوى الله - عز وجل - وقد أخبرناك بها لتكون دليلا على صدقك فيما تبلغه عن ربك ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ مبتدأ وخبره قوله - تعالى - ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ والجملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب ، وقوله : ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى ، والضمير فى ﴿ نُوحِيهِ ﴾ يعود إلى الغيب أى الأمر والشأن أنا نوحى إليك الغيب ونعلمك به ، ونظرك على قصص من تقدمك مع عدم مدارسك لأهل العلم والأخبار .

ولذا قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ والأقلام جمع قلم وهى التى كانوا يكتبون بها التوراة وقيل : المراد بها السهام .

أى وما كنت - يا محمد - لديهم أى عندهم معانينا لفعالهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم ، ﴿ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ ﴾ التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا فى كفالتها .

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله صاحب الكشف من أن مريم بعد أن ولدتها أمها خرجت بها إلى بيت المقدس فوضعتها عند الأحبار وقالت لهم : دونكم هذه النذيرة!! فقالوا : هذه ابنة إمامنا عمران - وكان فى حياته يؤمهم فى الصلاة ، فقال لهم زكريا : ادفعوها إلى فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى - فقالوا : لا حتى نقترع عليها فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتولى كفالتها زكريا - عليه السلام - (١) .

فالضمير فى قوله ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ يعود على المتنازعين فى كفالة مريم لأن السياق قد دل عليهم . والمقصود من هذه الجملة الكريمة ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ ﴾ إلخ تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحى من الله - تعالى - لنبيه ﷺ لأن الرسول ﷺ لم يكن معاصرا لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم ، ولم يقرأ أخبارهم فى كتاب من الكتب ، مع ذلك فقد أخبر النبى ﷺ أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لا يستطيعون تكذيبه إلا على سبيل الحسد والجحود فثبت أن القرآن من عند الله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لمريم على سبيل تبشيرها بعيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

أى : اذكر وقت أن قالت الملائكة لمريم ، يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ، أى : يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - ، وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب .

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب ، لأن غيره - وإن وجد بتلك الكلمة - لكنه بواسطة أب ، أى أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل من ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء ، فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك ، بل خلقه الله - تعالى - خلقا آخر ، خلقه ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ وهى «كن» فكان كما أراه الله و«من» فى قوله «منه» لا ابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة أى : لكلمة كائنة منه .

(١) تفسير الكشف ج١ ص ٣٥٧ بتصرف يسير .

فالمراد بقوله «كلمة» أى يبشر بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين .

ورجح ابن جرير أن معنى ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ ببشرى منه - سبحانه - فقد قال : وقوله يعنى برسالة من الله وخير من عنده وهو من قول القائل : ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى خبرا فرحت به ، فتأويل الكلام : وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده ، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم<sup>(١)</sup> .  
وعلى كلا التأويلين فى التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله تكريم له وتشريف ، وقوله ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة نعت ، والضمير فى قوله ﴿اسْمُهُ﴾ يعود إلى كلمة ، وجاء مذكرا رعاية للمعنى لأننا سبق أن بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد .

والمسيح : لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك ، وقد حكى الله - تعالى - أنه قال عن نفسه ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾  
وقيل : المسيح فعيل بمعنى فاعل ، للمبالغة فى مسحه الأرض بالسياحة للعبادة : أو مسحه ذا العاهة ليبراً ، أو بمعنى مفعول أى مسموح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب .  
وعيسى : اسم لهذا الاسم الكريم ، وهو اسم ينبئ عن البياض والصفاء والنقاء .

قال الراغب : عيسى اسم علم ، وإذا جعل عربيا أمكن أن يكون من قولهم بعيرا عيسى وناقاة عيساء وجمعها عيس وهى إبل بيض يعترى بياضها بعض الظلمة<sup>(٢)</sup> .  
أى فيها اغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاء وجمالا .

وابن مريم : هو كنيته ، وهى للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها وليس ابنا لله - تعالى - كما قال الضالون .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم؟ قلت : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين : فإن قلت لم ذكر ضمير الكلمة ، قلت لأن المسمى بها مذكر ، فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٥٣ .

مريم وهذه ثلاثة أشياء : الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقلب وصفة؟ قلت :  
الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره ، فكأنه قيل : الذى يعرف به ويتميز من  
سواه مجموع هذه الثلاثة» (١).

والمعنى الإجمالى للجملة الكريمة : اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم : يا مريم  
إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب ، هذا المولود  
العجيب اسمه الذى يميزه لقباً المسيح ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور  
كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور  
لا يشاركه فيها أحد من البشر .

ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته  
فقال - تعالى - : ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ  
وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أما الصفة الأولى فهى قوله - تعالى - : ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى ذا جاه  
وشرف ومنزلة عالية ، يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه إذا  
صارت له منزلة رفيعة عند الناس ، واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو  
الذى يواجه الإنسان به غيره .

وعيسى - عليه السلام - شهد الله - تعالى - له - وكفى بالله شهيدا - شهد له بالوجاهة  
وسمو المنزلة فى الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من  
الظلمات إلى النور ، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وإقامة التوراة بعد  
أن اختلفوا فيها .

والصفة الثانية من صفاته أنه ﴿ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ أى أنه من المقربين عند الله - تعالى -  
ويا لها من صفة عظيمة هى منتهى ما تتطلع إليه النفوس وتهفو القلوب .

وأما الصفة الثالثة من صفات عيسى - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - : ﴿ وَيُكَلِّمُ  
النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وهذه الجملة معطوفة على قوله ﴿ وَجِيهًا ﴾ وعطف الفعل  
على الاسم لتأويله به جازر والتقدير : وجيهاً ومكلماً ، والمهد اسم لمضجع الطفل ، أى  
المكان الذى يهيا له وهو فى الرضاعة ، والكهل : هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل  
شبابه ، وهو مأخوذ من قول العرب : اكتهل النبات إذا قوى وتم .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٣٦٣ .

والمراد أن عيسى - عليه السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيرا قبل أوان الكلام ، كما يكلمهم فى حال كهولته ، واكتمال شبابه ، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة ، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن فى سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا .  
 قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا  
 أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى من عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس ، أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه ، قالوا : ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحا لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان فى جميع الأفعال ، والتروك مواظبا على المنهج الأصلى وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا ، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات . (١)

تلك هى البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم ، وتلك هى بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟ .

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها ، وشدة تأثرها فقال - تعالى -  
 ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ .

أى : قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب : يارب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسنى بشر ، أى لست بذات زوج ، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد .

والجملة الكريمة مستأنفة استثنافا بيانيا كأنه قيل : فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ . . . إلخ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص ٢٧٢ .

وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها للقدره الإلهية وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكارا لقدرة الله - تعالى - وجملة ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا﴾ حالية محققة لما مر ومقوية له .

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التي تقع بين الرجل والمرأة والتي يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها لم يلمسها رجل ، لأنها كانت معتكفة في بيت الله ومنصرفه لعبادته ، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط ، وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس ، فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسه بشر .

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله :

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ .

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته : كهذا الخلق الذى تجدينه ، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسك بشر وهو إبداع ، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لاراد لمشيئته ولا معقب لحكمه .

وبعضهم يجعل الوقوف على ﴿كَذَلِكَ﴾ فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى : قال - سبحانه - فى إجابته على مريم : الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات لأنه هو خالقه وخالق كل شىء ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .  
وصرح ههنا بقوله : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقل «يفعل» كما فى قصة زكريا ، لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسه بشر أبدع وأعرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير ، فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام عن مطلق الفعل .

ثم أكد - سبحانه - عظيم قدرته ونفاذ إرادته بقوله : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

وقضى هنا بمعنى أراد ، أى : إذا أراد - سبحانه - شيئا ، فإنما يقول لهذا الشىء : كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب ، فهو كقوله - تعالى - ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالبَصْرِ﴾ أى : إنما تأمره مرة واحدة لاتثنية فيها فيكون ذلك الشىء سريعا كلمح البصر .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا بعض البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم وبعض الصفات التي وصف الله - تعالى - بها عيسى ، وبينت جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته ، وفي ذلك ما فيه من العظات والعبر لأولى الألباب .

ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى - :

وَعَلَّمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٩﴾  
 وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ  
 مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ  
 الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ  
 وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾  
 وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ  
 وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ  
 فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

فأنت ترى في هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التي أكرمها الله - تعالى - بها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَعَلَّمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ معطوف على ﴿ يُبَشِّرُكَ ﴾ أى : يامرهم إن الله يبشرك بكلمة منه ، وإن الله يعلم ذلك المولود - المعبر عنه بالكلمة - ﴿ الْكِتَابَ ﴾ ، وقرأ بعضهم ونعلمه الكتاب ، وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقول محذوف من كلام الملائكة ، أى : ويقول - الله تعالى - ونعلمه ، وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قوله «وجيها» فكأنه قال وجيها ومعلما .

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة مستأنفة سيقت تطيباً لقلب مريم ، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسه بشر .

ولقد حكى القرآن الكريم عنها فى سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها المخاض ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴾ .

والمراد بالكتاب الكتابة والخط ، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتفعت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحي ، وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية .

قال الفخر الرازى : «والأقرب عندى أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومجموعها هو المسمى بالحكمة ، ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه التوراة ، وإنما أخرج تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار الكتب الإلهية ، ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل ، وإنما أخرج ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته فى العلم فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسرار ذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا فى العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية»<sup>(١)</sup> .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيا لها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى - : أى أن الله - تعالى - سيجعل عيسى - عليه السلام - رسولاً إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ولكى يبشروهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين ألا وهو محمد ﷺ .

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علمها من الرومان : لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم ، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية ، وكانت دعوته بينهم وانبعثت منهم إلى غيرهم ، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم ، لأنهم أتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله ، بل لم يكتفوا بالكفر وإنما أذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقاً منهم .

وقوله : ﴿ وَرَسُولًا ﴾ منصوب بمضمرة يقود إليه المعنى ، معطوف على ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ أى

يعلمه ويجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٥٧ .

وقوله : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ معمول لقوله ﴿ وَرَسُولًا ﴾ بما فيه من معنى النطق ، كأنه قيل : ورسولا ناطقا بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم .

والباء للملابسة وهى مع مدخولها فى محل الحال وقوله ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف صفة لآية ، والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها .

أى : أن الله - تعالى - قد علم عيسى - عليه السلام - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل مخبرا إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى ملتبسا مجيئى بالمعجزات الدالة على صدقى ، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هى من عند ربكم .

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى - عليه السلام - أما المعجزة الأولى فعبر عنها بقوله : ﴿ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد حكى الله عنه أنه قال لبنى إسرائيل : لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته ، ولأمركم بإخلاص العبادة له ، وقد أعطانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربه ، ومن بين هذه المعجزات أنى أفدر على أن أصور لكم من الطين شيئا صورته مثل صورة الطير ، فأنفخ فى ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقيا ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال : ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه ، أما الثالث فهو من صنع الله - تعالى - وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها ، ولذا حكى الله - تعالى - عنه قال : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره ، واللام فى قوله ﴿ لَكُمْ ﴾ للتعليل أى : أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى .

والكاف فى قوله : ﴿ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئا مثل هيئة الطير ، والهيئة هى الصورة والكيفية .

والضمير فى قوله : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ يعود إلى هذا المفعول المحذوف .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ متعلق ببيكون وجىء به لإظهار العبودية ، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكا لله فى خلق الكائنات .

وأما النوع الثانى والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاها القرآن فى قوله - تعالى -  
﴿ وَأُبْرِئُ ﴾ أى : أشفى يقال : برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه .  
﴿ الْأَكْمَهَ ﴾ : هو الذى يولد أعمى ، يقال كمه كمها إذا ولد أعمى ، فهو أكمه وامرأة كمهاء .  
﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ : هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة وهو مريض من  
الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه : والمعجزات التى تدل على صدقى أن  
أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى ، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص ،  
وأعيد الحياة إلى من مات ، ولا أفعل كل ذلك بقدرتى وعلمى وإنما أفعله بإذن الله  
وبإرادته وأمره .

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن  
إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك  
دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقا مختارا لا يعجزه شىء وعلى أن  
الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ من الصعب إلى الأصعب ، لأن مما لاشك فيه أن  
إحياء الموتى حادث عظيم ، يدل دلالة قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هى المؤثرة  
وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت  
بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة ، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه .  
وقيد مايقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله : للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق إنما  
هو بأمر الله وتيسيره وإرادته .

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق  
الدعاء ، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم ، وذكروا من بين من أحياهم سام ابن نوح (١).

قال ابن كثير : بعث الله كل نبي بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان  
موسى السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ،  
فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وأما عيسى فبعث فى زمن  
الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات ، بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون  
مؤيدا من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة  
الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء

(١) تفسير الألوسى ج ٣ ص ١٦٩ .

فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا وما ذاك إلا أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق (١).

أما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن في قوله - تعالى - :

﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن .

وقوله : ﴿ تَدَّخِرُونَ ﴾ من الادخار وهو إعداد الشيء لوقت الحاجة إليه ، يقال : دخرته وادخرته ، إذا أعددته للعقبى ، وأصله «تدخرون» بالذال المعجمة ، من ادتخر الشيء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء ذالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمتا .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل : وإن من معجزاتي التي تدل على صدقي فيما أبلغه عن ربي أنى أخبركم بالشيء الذى تأكلونه وبالشيء الذى تخبئونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه .

قال القرطبي : وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى ، وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد ، فأخبرهم فقال : يافلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا ، وادخرت كذا وكذا فذلك قوله : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ ﴾ (٢) .

و«ما» فى الموضعين موصولة ، أو نكرة موصوفة والعائد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه .

ولاشك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشيء الذى يأكلونه وبالشيء الذى يدخرونه يدل على صدقه ، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به .

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجزاها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه ، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويدعن لها .

فاسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأدغمتم للحق الذى جئتكم به من عند الله .

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٥ بتلخيص يسير .

(٢) تفسير القرطبي ج٤ ص ٩٥ .

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى - ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ عطف على المضمرة الذى تعلق به قوله تعالى ﴿ بِآيَةٍ ﴾ أى قد جئتمكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم ، ومصداقا لما بين يدي ، وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه «قد جئتمكم» أى وجئتمكم مصداقا لما بين يدي من التوراة ، ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب ، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل : إن الله - تعالى - قد أرسلنى إليكم لهدايتكم وقد جئتمكم بالمعجزات التى تثبت صدقى ، وجئتمكم مصداقا لما بين يدي من التوراة ، أى مقررا لها ومؤمنا بها .

ومعنى ما بين يدي ماتقدم قبلى : لأن المتقدم السابق يمشى بين يدي الجائى فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان بين عيسى - عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمته طويلة لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمن طويل ويستعمل بين يدي كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله - تعالى - ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ معمول لمقدر بعد الواو ، أى : وجئتمكم لأحل لكم بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة .

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها ، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله - تعالى - ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... ﴾ فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم .

قال ابن كثير : فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطئوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية ﴿ وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ (١)

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٥ .

قالوا : ومن الأطعمة التي أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى : لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور .<sup>(١)</sup>  
 وقوله : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه .

قال الفخر الرازى «وإنما أعدد قوله - تعالى - : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر ، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ومؤثرا فى طباعهم ، ثم خوفهم فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما أمركم عن ربى .<sup>(٢)</sup>

ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبدا لله مخلوقا له ، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى : قال عيسى - عليه السلام - داعيا قومه إلى عبادة الله - تعالى - هو الذى خلقنى وخلقكم وهو الذى ربانى ورباكم ، وما دام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى - عليه السلام - كما حكى لنا بعض التوجيهات القوية ، والإرشادات الحكيمة التى نصح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

وفى سورة «المائدة» آية تحدثت عن جانب من الفضائل والمعجزات التى أيد الله - تعالى - بها عبده ورسوله عيسى - عليه السلام - وهذه الآية هى قوله - تعالى - :

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى  
 وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا  
 وَإِذْ عَلَّمَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنْ

(١) تفسير الألوسى ج ٣ ص ١٧١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٦٣ .

الطَّيْنِ كَيْفَةَ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَعُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِي الْأَكْمَهَ  
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
عَنْكَ إِذْ جُنَّهْمُ بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَابٌ مِنْ

والمعنى : اذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ قوله - سبحانه - لعيسى ابن مريم : تذكر يا عيسى نعمى المتعددة عليك وعلى والدتك .

وعبر بالماضى فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة ، للدلالة على تحقيق الوقوع ، وأن هذا القول سيحصل بلا أدنى ريب يوم القيامة .

والمراد بالنعمة فى قوله : ﴿ اذْكَرْ نِعْمَتِي ﴾ النعم المتعددة التى أنعم بها - سبحانه - على عيسى وعلى والدته مريم حيث طهرها من كل ريبة ، واصطفاها على نساء العالمين .

وفى ندائه - سبحانه - لعيسى بقوله ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ إشارة إلى أنه ابن لها وليس لأحد سواها ، فقد ولد من غير أب ، ومن كان شأنه كذلك لا يصلح أن يكون إلها ، لأن الإله الحق لا يمكن أن يكون مولودا أو محدثا .

وقوله : ﴿ إِذْ أَيْدُتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ تعديد للنعم التى أنعم الله - تعالى - بها على عيسى .

وقوله : ﴿ أَيْدُتْكَ ﴾ أى قويتك من التأيد بمعنى التقوية .

والمراد بروح القدس : جبريل - عليه السلام - فإن من وظيفته أن يؤيد الله به رسله بالتعليم الإلهى ، وبالتثبيت فى المواطن التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها .

وقيل : ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ المراد روح عيسى حيث أیده - سبحانه - بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية وسيطرت .

أى : أيدتك بروح الطهارة والنزاهة والكمال ، فكنت متمسا بهذه الروح الطاهرة من كل سوء .

والمهد : سن الطفولة والصبا - والكهولة : السن التى يكون فى أعقاب سن الشباب .  
والمعنى : اذكر يا عيسى نعمى عليك وعلى والدتك ، وقت أن قويتك بروح القدس  
الذى تقوم به حجتك ، ووقت أن جعلتك تكلم الناس فى طفولتك بكلام حكيم  
لا يختلف عن كلامك معهم فى حال كهولتك واكتمال رجولتك .

وذكر - سبحانه - كلامه فى حال الكهولة - مع أن الكلام فى هذه الحالة معهود فى  
الناس - للإيذان بأن كلامه فى هاتين الحالتين - المهد والكهولة - كان على نسق واحد  
بديع صادر عن كمال العقل والتدبير ، دون أن يكون هناك فرق بين حالة الضعف وحالة  
القوة .

قال الرازى : وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له ، وما حصلت لأحد من الأنبياء  
قبله ولا بعده .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أى فى خلقى إياك من أم بلا ذكر ،  
وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ حيث جعلتك لها  
برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة و ﴿ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ  
الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل ، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك ، فأنطقتك فى  
المهد صغيراً : فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لى بالعبودية ، وأخبرت عن  
رسالتى إياك ودعوتك إلى عبادتى ولهذا قال : ﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أى :  
تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك ، وضمن ﴿ تَكَلَّمَ ﴾ معنى تدعو ، لأن كلامه  
الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب . (١)

وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ بيان لنعمة أخرى من  
النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عيسى .

والمراد بالكتاب : الكتابة ، أى أن عيسى - عليه السلام - لم يكن أمياً بل كان قارئاً  
وكاتباً ، وقيل المراد به ما سبقه من كتب النبيين كزبور داود ، وصحف إبراهيم ، وأخبار  
الأنبياء الذين جاءوا من قبله .

والمراد بالحكمة : الفهم العميق للعلوم مع العمل بما فهمه وإرشاد الغير إليه .

أى واذكر وقت أن علمتك الكتابة حتى تستطيع أن تتحدى من يعرفونها من قومك ،

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٥ .

ووقت أن علمتك ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ بحيث تفهم أسرار العلوم فهما سليما تفوق به غيرك ، كما علمتك أحكام الكتاب الذي أنزلته على أخيك موسى وهو التوراة وأحكام الكتاب الذي أنزلته عليك وهو الإنجيل .

ثم ذكر - سبحانه - بعض معجزات عيسى ، بعد أن بين بعض ما منحه من علم ومعرفة ، فقال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أى : واذكر وقت أن وفقتك لأن تخلق أى تصور من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير ﴿ فَتَنْفُخُ فِيهَا ﴾ أى فى تلك الهيئة المصورة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ أى : فتصير تلك الهيئة المصورة ﴿ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أى : تصير كذلك بقدرتى وإرادتى وأمرى .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ وهو الذى يولد أعمى ، وتبرئ كذلك ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ وهو المريض بهذا المرض العضال ﴿ بِإِذْنِي ﴾ .

وقوله : ﴿ وَتُبْرِئُ ﴾ معطوف على ﴿ تَخْلُقُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتَى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ ﴾ .

أى : واذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون ، وكل ذلك بإذنى ومشيتى وإرادتى .

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم ، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح (١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المعجزات التى أعطاها لعيسى لكى ينفع بها الناس ، أتبعها بذكر ما دفعه عنه من مضار فقال : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

أى : واذكر نعمتى عليك وقت أن صرفت عنك اليهود الذين أرادوا بك السوء ، وسعوا فى قتلك وصلبك مع أنك قد بشرتهم وأنذرتهم وجثتهم بالمعجزات الواضحات التى تشهد بصدقك فى نبوتك .

وقوله : ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴾ تذييل قصد به ذمهم وتسجيل الحقد والجحود عليهم .

(١) تفسير الألوسى ج٢ ص ١٦٩ .

أى : لقد أعطيناك يا عيسى ما أعطيناك من النعم والمعجزات لتكون دليلا ناطقا بصدقك ، وشاهدا يحمل الناس على الإيمان بنبوتك ، ولكن الكافرين من بنى إسرائيل الذين أرسلت إليهم لم يصدقوا ما جئتهم به من معجزات واضحات ، بل سارعوا إلى تكذيبك قائلين : ما هذا الذى جئتنا به يا عيسى إلا سحر ظاهر ، وتخيل بين .

وهكذا نرى أن الكافرين من بنى إسرائيل ، لم تزد لهم البينات التى جاء بها عيسى إلا جحودا وعنادا ، وأن الله - تعالى - قد أكرم نبيه عيسى ابن مريم بكثير من الفضائل والمعجزات التى تدل على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

وقد كانت هذه المعجزات مناسبة تامة للعصر الذى ظهر فيه عيسى ابن مريم - عليه السلام - فقد كان الطب فى هذا العصر قد وصل إلى درجة عظيمة من الرقى والتقدم ، فكان من المناسب أن تكون معجزة عيسى - عليه السلام - تتعلق بالطب عن طريق إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى - بإذن الله - .

كما أن معجزة موسى - عليه السلام - كانت مناسبة لعصره ، فقد كان السحر هو أشهر حرفة فى زمانه ، لدرجة أن موسى - عليه السلام - عندما ألقى السحرة عصيهم خيل إليه من قوة سحرهم أنها تسعى ، فكانت معجزته أن ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .

أما معجزة خاتم الرسل محمد ﷺ فكانت القرآن الذى أعجز الفصحاء والبلغاء عن أن يأتوا بسورة من مثله ، مع أنهم كانوا هم أساتذة الشعر والبيان .

وهكذا نرى أن حكمة الله قد اقتضت أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه لتكون دليلا واضحا على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

## القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام -

### وتبرؤه مما قاله الضالون فى شأنه

تحدث القرآن فى آيات متعددة عن عيسى - عليه السلام - من حيث إنه نبي من أنبياء الله الذين أرسلهم - سبحانه - لدعوة بنى إسرائيل إلى إخلاص العبادة لخالقهم - عز وجل - وإلى التحلى بمكارم الأخلاق ، ومن حيث إنه عبد من عباد الله الصالحين ، كما قال - سبحانه - فى شأنه : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت هذه الحقيقة وهى أن عيسى - عليه السلام - رسول من رب العالمين ، وعبد من عباده الصالحين ، قوله - تعالى - :

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ  
وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ  
تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ  
﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا  
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْهَلْ  
فَجَعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا  
مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعِزَّةُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ اسم الإشارة فيه وهو «ذلك» مشار به إلى المذكور من قصة آل عمران وقصة مريم وأمها ، وقصة زكريا وندائه لربه ، وقصة عيسى وما أجره الله - تعالى - على يديه من معجزات وما خصه به من كرامات .

أى ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ﴿ تَلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ أى : نقصه عليك متتابعا بعضه تلو بعض من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه ، فأنت لم تكن معاصرا لهؤلاء الذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم وهذا من أكبر الأدلة على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

والمراد بالآيات الحجج الدالة على صدق النبى ﷺ وقوله : ﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ أى القرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمشمول على الحكم التى من شأنها أن تهدى الناس إلى ما يسعدهم متى اتبعوها وقيل المراد بالذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذى نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . ثم بين - سبحانه - أن خلق عيسى من غير أب ليس مستبعدا على الله - تعالى - فقد خلق آدم كذلك فقال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

والمثل هنا : بمعنى الصفة والحال العجيبة الشأن ، ومحل التمثيل كون كليهما قد خلق بدون أب ، والشىء قد يشبه بالشىء متى اجتمعا ولو فى وصف واحد .

والمعنى : إن شأن عيسى وحاله الغريبة ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : فى تقديره وحكمه ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ أى كصفته وحاله العجيبة فى أن كليهما قد خلقه الله - تعالى - من غير أب ، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم - أيضا - .

فالآية الكريمة ترد ردا منطقيا حكيما يهدم زعم كل من قال بالوهية المسيح أو اعتبره ابن الله .

وكأن الآية الكريمة تقول لمن ادعى ألوهية عيسى لأنه خلق من غير أب : أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه إلها أو ابن إله فأولى بذلك ثم أولى آدم لأنه خلق من غير أب ولا أم ، ومادام لم يدع أحد من الناس ألوهية آدم لهذا السبب فبطل حينئذ القول بالوهية عيسى لانهايار الأساس الذى قام عليه وهو خلقه من غير أب .

ولأنه إذا كان الله - تعالى - قادرا على أن يخلق إنسانا بدون أب ولا أم فأولى ثم أولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب فقط ، ومن أم هى مريم التى تولها - سبحانه - برعايته وصيانتته لها من كل سوء وجعلها وعاء لهذا النبى الكريم عيسى - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم - أى للأمر الذى لأجله كان ذلك التشبيه - أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا

أم وكذلك حال عيسى ، فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلت : هو مثيله في أحد الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب ، ليكون أقطع للخصم ، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيم هو أغرب مما استغربه (١).

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تصوير لخلق الله - تعالى - آدم من تراب أى أراد - سبحانه - أن يوجد آدم فصوره من طين ثم قال له حين صوره : كن بشرا فصار بشرا كاملا روحا وجسدا كما أمر - سبحانه - .

فالجملة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله ، تصويرا بديعا يدل على أنه - سبحانه - لا يعجزه شئ في هذا الكون .

وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء في «يكون» دون الماضي بأن يقول «فكان» لأن التعبير بالمضارع فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت ، ومن جهة أخرى فإن صيغة المضارع في هذا المقام تنبئ عما كان ، وتوهم إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله - تعالى - المستمر في المستقبل كما كان في الماضي .

ثم بين - سبحانه - أن ما أخبر به عباده في شأن عيسى وغيره هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل فقال - تعالى - ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

والامتراء هو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الرازى - مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها فكان الشاك يجتذب بشكه وراء كاللبن الذى يجتذب عند الحلب ، يقال : قد مارى فلان فلانا إذا جادله كأنه يستخرج غضبه (٢).

والمعنى : هذا الذى أخبرناك عنه يا محمد من شأن عيسى ومن شأن غيره هو الحق الثابت اليقيني الذى لا مجال للشك فيه ، ومادام الأمر كذلك فاثبت على ما أنت عليه من حق ، ولا تكون من الشاكين فى أى شئ مما أخبرناك به .

وقد أكد - سبحانه - أن ما أوحاه إلى نبيه ﷺ هو الحق بثلاثة تأكيدات :

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٨٠ .

أولها : بالتعريف فى كلمة ﴿ الْحَقُّ ﴾ أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذى لا يخالطه باطل .

ثانيها : بكونه من عنده - سبحانه - وكل شىء من عنده فهو صدق لا ريب فيه .

ثالثها : بالنهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق ، لأن من شأن الأمور الثابتة أن يتقبلها العقلاء بإذعان وتسليم وبدون جدل ، أو امتراء .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الجواب الذى يقطع لسان المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ .. ﴾ ... إلخ .

والمعنى : فمن جادلَكَ وخاصمكَ «يامحمد» من أهل الكتاب «فيه» أى : فى شأن عيسى - عليه السلام - بأن زعموا أنه إله أو ابن أو ثالث ثلاثة ، أو غير ذلك من الأقاويل الكاذبة فى شأنه .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ .. ﴾ أى فمن جادلَكَ فى شأن عيسى من بعد الذى أنزلناه إليك وقصصناه عليك فى أمره ، فلاتبادلَه الجادلة ، فإنه معاند لا يقنعه الدليل مهما كان واضحاً ، ولكن قل له ولأمثاله من الضالين : ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ تَعَالَوْا ﴾ اسم فعل أمر لطلب القدوم ، وهو فى الأصل أمر من تعالى يتعالى «كترامى يترامى» إذا قصد العلو ، فكأنهم أرادوا به فى الأصل أمراً بالصعود إلى مكان عالٍ تشریفاً للمدعو ، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور .

وقوله : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أى نتباهل ونتلاعن ، فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة أى بأن نقول : بهلة الله على الكاذب منا ومنكم ، والبهلة بفتح الباء وضمها : اللعنة ، يقال بهله الله يبهله بهلا لعنه الله وأبعده من رحمته ثم شاعت فى كل دعاء مجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً .

والمعنى : فإن جادلَكَ أهل الكتاب فى شأن عيسى من بعد أن أخبركَ ربك بما هو الحق من أمره فقل لهم : ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يعرف فيه الحق من الباطل ، وهو أن ندعو نحن وأنتم الأبناء والنساء ثم تجتمع جميعاً فى مكان واحد ، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل إليه بأن يجعل لعنته على الكاذبين فى دعواهم المنحرفين عن الحق فى اعتقادهم .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد لقتن النبي ﷺ الجواب الحاسم الذى يخرس السنة المجادلين فى عيسى ، ويتحداهم - إن كانوا صادقين - أن يقبلوا هذه المباهلة ، ولكنهم نكصوا على أعقابهم ، فثبت كذبهم وضلالهم .

وهذه الآية الكريمة تسمى بأية المباهلة ، وقد ذكر العلماء أنها نزلت للرد على نصارى نجران الذين جادلوا النبي ﷺ فى شأن عيسى - عليه السلام - .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نصارى نجران حين قدموا المدينة فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والألوهية فأنزل صدر هذه السورة ردا عليهم ، وكانوا ستين راكبا منهم ثلاثة إليهم يثول أمرهم وهم : العاقب أميرهم واسمه عبدالمسيح ، والسيد صاحب رحلهم واسمه الأيهم ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم ، وفى القصة أن النبي ﷺ لما أتاه الخبر من الله - تعالى - ، والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعتهم ، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : يا عبدالمسيح ماذا ترى؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط ، فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فأتوا النبي ﷺ وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ ابن مردويه عن جابر قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة فواعدها على أن يلاعناه الغداة ، فقال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج .

قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى بعثنى بالحق لولا عنا لأمطر عليهم الوادى نارا» .

ثم قال : وروى البخارى عن حذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لاتفعل ، فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لانفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا ، ثم قالا للنبي ﷺ : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا ، فقال : «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين» ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة» . (١)

وقال صاحب الكشاف : إن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ .

قلت : ذلك أكد فى الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه حيث استجراً على

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٨ .

تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة ، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب ، وفى الآية دليل واضح على صحة نبوة النبى ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .<sup>(١)</sup>

ثم أكد - سبحانه - صدق ما أخبر به عن عيسى وغيره فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : إن الذى قصصناه عليك وأخبرناك به يا محمد من شأن عيسى ومن كل شأن من الشئون لهو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر ، ولا لتشكيك متشكك .

وقد أكد - سبحانه - صدق هذا القصص بحرف إن وباللام فى قوله ﴿ لَهُوَ ﴾ وبضمير الفصل «هو» وبالقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين وفى كل ما قصه على نبيه ﷺ .

وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ نفى قاطع لأن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - وإثبات بأن الألوهية الحققة إنما هى لله رب العالمين .

وقد أكد - سبحانه - نفى الألوهية عن غيره بكلمة ﴿ مِنْ ﴾ المفيدة لاستغراق النفى استغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تذييل قصد به تأكيد قصر الألوهية على الله - تعالى - وحده ، أى وإن الله - تعالى - لهو المنفرد بالألوهية وحده ، لأنه هو الغالب الذى يقهر ولا يقهر ، الحكيم فى كل ما يخلقه ويدبره .

ثم ختم - سبحانه - تلك المحاجة بقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أى : فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البينات والحجج الواضحات التى أخبرناك بها وقصصناها عليك ، فأنذرهم بسوء العاقبة ، وأخبرهم أن الله - تعالى - عليم بهم ، وبما يقولونه ويفعلونه من فساد فى الأرض ، وسيعاقبهم على ذلك العقاب الأليم .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٢٦٩ .

فقلوه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ قائم مقام جواب الشرط ، أى : فإن تولوا فأخبرهم بأنهم مفسدون وأن لهم سوء العقبى لأن الله عليم بإفسادهم ولن يتركهم بدون عقوبة .

وهذه الجملة الكريمة تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدا لهؤلاء المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - ولكل من أعرض عن الحق الذى جاء به النبى ﷺ لأن الله - تعالى - ليس غافلا عن إفساد المفسدين وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

والى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب معجز حكيم :

أن عيسى عبد الله ورسوله ، وأن هذا هو الحق ، وقد تحدى الرسول ﷺ كل من نازعه فى ذلك بالمباهلة ولكن المجادلين نكصوا على أعقابهم ، فثبت صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

وبذلك يكون القرآن قد بين الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - بيانا يهدى القلوب ويقنع العقول ويحمل النفوس على الاعتبار ، وإخلاص العبادة لله رب العالمين .

وفى سورة المائدة آيات كريمة ، قصت علينا ماسيقوله الله - تعالى - لعيسى يوم القيامة ، ومايرد به عيسى على خالقه - عز وجل - لكى تزداد حسرة الذين وصفوا المسيح وأمه بما هما بريئان منه .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَأُذِّقَ اللَّهُ  
يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ  
عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾  
مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُ وَاللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ  
شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ  
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ .

والخطاب للنبي ﷺ وهذا القول إنما يكون في الآخرة - على الصحيح - .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم وليذكر معك كل مكلف وقت أن يسأل الله - تعالى - عبده ورسوله عيسى فيقول له : يا عيسى : أأنت قلت للناس ﴿ اتَّخِذُونِي ﴾ أى : اجعلونى ﴿ وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من غير الله .

وكان النداء بقوله - سبحانه - : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أى : بغير ذكر النبوة ، للإشارة إلى الولادة الطبيعية التى تنفى أن يكون إلها أو ابن إله أو فيه عنصر الألوهية بأى وضع من الأوضاع لأن الألوهية والبشرية نقيضان لا يجتمعان فلا يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية ، ولا إله فيه بشرية .

والتعبير بقوله : ﴿ اتَّخِذُونِي ﴾ يدل على أنه ليس له حقيقة ، بل هو فى ذاته اتخاذ بما لا أصل له .

والمقصود بالاستفهام فى قوله : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ توبيخ للكفرة من قومه وتبكيث كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما ، وفضيحتهم على رءوس الأشهاد فى ذلك اليوم العصيب لأن عيسى سينفى عن نفسه أمامهم أنه قال ذلك : وإنما هو أمرهم بعبادة الله وحده ، ولاشك أن النفى بعد السؤال أبلغ فى التكذيب وأشد فى التوبيخ والتفريع وأدعى لقيام الحجة على من وصفوه بما هو برىء منه .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ بيان لما أجاب به عيسى على خالقه - عز وجل - .

أى : قال عيسى مجيباً ربه بكل أدب وإذعان : تنزيها لك - يا إلهى - عن أن أقول هذا القول ، فإنه ليس من حقى ولا من حق أحد أن ينطق به . فأنت ترى أن سيدنا عيسى - عليه السلام - قد صدر كلامه بالتنزيه المطلق لله - عز وجل - ثم عقب ذلك بتأكيد هذا التنزيه ، بأن أعلن بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول ، لأنه عبده له - تعالى - ومخلوق بقدرته ، ومرسل منه لهداية الناس فكيف يليق بمن كان شأنه كذلك أن يقول لمن أرسل إليهم ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

ثم أضاف إلى كل ذلك الاستشهاد بالله - تعالى - على براءته ، وإظهار ضعفه المطلق أمام علم خالقه وقدرته فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ .

أى : إن كنت قلت هذا القول وهو ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فأنت تعلمه ولا يخفى عليك منه شيء - لأنك أنت - يا إلهي - تعلم مافى ﴿ نَفْسِي ﴾ أى : ما فى ذاتي ، ولا أعلم ما فى ذاتك .

والمراد : تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم ، وتعلم مافى غيبى ولا أعلم مافى غيبك ، وتعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ماتقول وتفعل إنك أنت - إلهي - علام الغيوب .

فهذه الجملة الكريمة بجانب تأكيدها لنفى ما سئل عنه عيسى - عليه السلام - تدل بأبلغ تعبير على إثبات شمول علم الله - تعالى - بكل شيء ، وقد أكد عيسى ذلك ، بإن المؤكدة وبالضمير أنت ، وبصيغة المبالغة «علام» وبصيغة الجمع للفظ «الغيوب» فهو لم يقل : إنك أنت عالم الغيب وإنما قال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ بكل أنواعها ، وبكل ما يتعلق بالكائنات كلها .

وبعد هذا التنزيه من عيسى - عليه السلام - لله عز وجل - وبعد هذا النفى المؤكد لما سئل عنه بعد كل ذلك يحكى القرآن ما قاله عيسى لقومه فيقول : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ ﴾ .

أى : ما قلت لهم - يا إلهي - ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وإنما القول الذى قلته لهم هو الذى أمرتني أن أبلغهم إياه وهو عبادتك وحدك لا شريك لك ، فأنت ربى وربهم ، وأنت الذى خلقتنى وخلقتهم ، فيجب أن تدين لك جميعا بالعبادة ، والخضوع والطاعة ، وأنت تعلم يا إلهي أننى لم أقصر فى ذلك ، وأننى كنت رقيبا وشهيدا على قومى ، وداعيا لهم إلى إخلاص العبادات لك والعمل بموجب أمرك مدة بقائى فيهم .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بيان لانتهاه مهمته بعد فراقه لقومه .

أى : أنت تعلم يا إلهي بأنى ما أمرتهم إلا بعبادتك ، وبأنى ما قصرت فى حملهم على طاعتك مدة وجودى معهم ، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ يا إلهي : أى : قبضتني بالرفع إلى السماء ، حيا ، كنت أنت الرقيب عليهم ، أى : كنت وحدك الحفيظ عليهم المراقب لأحوالهم ،

العليم بتصرفاتهم، الخبير بمن أحسن منهم ومن أساء وأنت - يا إلهي - على كل شيء شهيد ، لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك .

وبعد أن أجاب عيسى على سؤال ربه تلك الإجابة الموفقة ، فوض الأمر إليه - سبحانه - فى شأن قومه ، فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : إن تعذب - يا إلهي - قومى ، فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم بقدرتك ، والذين تملكهم ملكا تاما ، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملوكه ، وإن تغفر لهم ، وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فذلك إليك وحدك ، لأن صفحك عن تشاء من عبادك هو صفح القوى القاهر الغالب الذى لا يعجزه شيء ، والذى يضع الأمور فى مواضعها بمقتضى حكمته السامية .

وقد قال بعض المفسرين هنا : كيف جاز لعيسى أن يقول : ﴿ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ والله - تعالى - لا يغفر أن يشرك به؟

وقد أجاب عن ذلك الإمام القرطبى بقوله : قول عيسى ﴿ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والرأفة بهم ، كما يستعطف السيد لعبده ، ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك ، وقيل : قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه ، وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر وقيل ، الهاء والميم فى ﴿ إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ ﴾ لمن مات منهم على الكفر ، والهاء والميم فى قوله : ﴿ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ لمن تاب منهم قبل الموت وهذا وجه حسن .<sup>(١)</sup>

أقول : هذا الوجه الثالث الذى ذكره القرطبى قد اكتفى به بعض المفسرين فقال : قوله : ﴿ إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ ﴾ أى : من أقام على الكفر منهم ﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وأنت مالكم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أى : لمن آمن منهم ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه .<sup>(٢)</sup>

ومع وجهة هذا الوجه فإننا نرى أن الآية الكريمة حكاية للتفويض المطلق الذى فوضه عيسى إلى ربه - سبحانه - فى شأن قومه ولهذا قال ابن كثير :

هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله - تعالى - فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وكذبوا على رسوله ، وجعلوا لله ندا وصاحبة وولدا .

(١) تفسير القرطبى ج٦ ص٣٧٨

(٢) تفسير الجلالين - ومعه حاشية الجمل - ج١ ص٥٤٦ .

وهذه الآية لها شأن عظيم ونباٌ عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددّها .

فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة : فقرأ بأية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله ألم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال : إني سألت ربي - عز وجل - الشفاعة لأمتي فأعطانيها - وهي نائلة - إن شاء الله - لمن لا يشرك بالله شيئاً (١).

وبعد أن حكى القرآن الكريم ما رد به عيسى - عليه السلام - على قول ربه وخالقه - سبحانه - ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقد تضمن هذا الرد - كما سبق أن بينا - التنزيه المطلق لله - تعالى - والنفي التام لأن يكون عيسى قد قال هذا القول ، بعد كل ذلك ختم - سبحانه - تلك المجاوبة ببيان حسن عاقبة الصادقين يوم القيامة فقال :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)  
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾ .

والمراد باليوم في قوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ ﴾ يوم القيامة الذي تجازى فيه كل نفس بما كسبت : أى قال الله - تعالى - : إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينتفع الصادقون فيه بصدقهم فى إيمانهم وأعمالهم ، لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدموا من خيرات فى دنياهم .

أى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة ، بخلاف صدق الكفار يوم القيامة فإنه لا ينفعهم ، لأنهم لم يكونوا مؤمنين فى دنياهم .

وقوله : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

أى : أن هؤلاء الصادقين فى دنياهم قد نالوا فى آخرتهم جنات تجرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : مقيمين فيها إقامة دائمة لا يعترئها انقطاع وقوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : رضى الله عنهم فأعطاهم بسبب

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٢١ .

إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح عطاء هو نهاية الآمال والأمانى ، ورضوا عنه بسبب هذا العطاء الجزيل الذى لا تحيط العبارة بوصفه .

واسم الاشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يعود إلى ما انتفع به الصادقون من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن رضا الله عنهم ، أى : إلى النعيم الجثمانى المتمثل فى الجنات وما يتبعها من عيشة هنيئة ، وإلى النعيم الروحانى المتمثل فى رضا الله عنهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه لكل شىء فى هذا الكون فقال : ﴿ لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أى : لله - تعالى - وحده دون أحد سواه الملك الكامل للسموات وللأرض ، ولما فيهن من كل كائن وهو - سبحانه - على كل شىء قدير لا يعجزه أمر أراده ، ومن زعم أن له شريكا - سواء أكان هذا الشريك عيسى أم أمه أم غيرهما - فقد أعظم الفرية وتسربل بالجهل ، وكان مستحقا لحزى الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فغلب غير العقلاء ، للإشارة إلى أن كل المخلوقات مسخرة فى قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره وهم فى ذلك التسخير كالجمادات التى لا قدرة لها ، إذ أن قدرة سائر المخلوقات بالنسبة لقدرة الله كلا قدرة .

وأن هذه الآية الكريمة ، لمتسقة كل الاتساق مع الآية التى قبلها ، لأنه - سبحانه - بعد أن بين جزاء الصادقين فى دنياهم عقبه ببيان سعة ملكه ، وشمول قدرته الدالين على أن هذا الجزاء لا يقدر عليه أحد سواه - سبحانه - .

وإن هذه الآية الكريمة - أيضا - لمتسقة كل الاتساق لأن تكون خاتمة لهذه السورة التى ساقته ما ساقته من تشريعات وأحكام وأداب وهدايات ومن حجج حكيمة ، وأدلة ساطعة دحضت بها الأقوال الباطلة التى افتراها بعض أهل الكتاب على عيسى وأمه مريم ، وبرهنت على أن عيسى وأمه ما هما إلا عبدان من عباد الله ، يدينان له بالعبادة والطاعة والخضوع ، وبأمران غيرهما بأن ينهج نهجهما فى ذلك .

## موقف الحواريين من دعوة عيسى - عليه السلام -

تحدث القرآن الكريم فى مواطن عدة عن موقف الحواريين من دعوة عيسى - عليه السلام - .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة آل عمران :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ  
قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ  
بِأَنَّ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا إِنَّمَا أَنْزَلْتَنَا بِكَلِمَاتٍ فَأَكْتُمبِنَا  
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا لِّمَنْ كَرِهَهُ اللَّهُ لِيُنزِلَ اللَّهُ مِن سَمَاءٍ  
خَيْرًا لِّلْمُكْرِمِينَ ﴿٥٤﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ شروع فى بيان مآل أحواله - عليه السلام - وفى بيان موقف قومه منه بعد أن بين - قبل ذلك - بعض صفاته ومعجزاته وخصائص رسالته .

وأحس : بمعنى علم ووجد وعرف ، والإحساس : الإدراك ببعض الحواس الخمس ذلك وهى التذوق والشم واللمس والسمع والبصر ، يقال أحس الشيء علمه بالحس ، وأحس بالشيء شعر به بحاسته ، والمراد أن عيسى - عليه السلام - علم من بنى إسرائيل الكفر علما لاشبهة فيه .

والأنصار جمع نصير مثل شريف وأشرف .

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد جاء لقومه بالمعجزات الباهرات التى تشهد بصدقه فى دعوته ولكنه لم يجد منهم أذنا واعية ، فلما رأى تصميمهم على باطلهم ، وأحس منهم الكفر أى علمه يقينا وتحققه تحقق ما يدرك بالحواس ، قال على سبيل التبليغ وطلب النصرة : من أنصارى إلى الله؟ أى من أعوانى فى الدعوة إلى الله والتبشير بدينه حتى أبلغ ما كلفنى بتبليغه .

قال ابن كثير: وذلك كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «هل من رجل يؤويني وينصرني حتى أبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» فقيض الله له الأنصار فأووه ونصروه ومنعوه من الأسود والأحمر. (١)

والفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّا ﴾ تؤذن بالتعقيب على الآيات الباهرة، أى أنهم بعد أن رأوا ما رأوا من معجزات عيسى لم يمتثلوا له ولم يتدبروا عاقبة أمرهم بل كذبوه على الفور، وحاولوا قتله تخلصاً منه واستمروا على كفرهم.

والتعبير بأحس - كما أشرنا من قبل - يشعر بأنه علم منهم الكفر علماً لاشبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس.

والمقول لهم ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ هم الحواريون كما يشير إليه قوله - تعالى - في سورة الصف: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وقيل المقول لهم جميع أفراد قومه.

وفى قوله: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ حض لهم على المسارعة إلى نصرته الحق لأنهم لا ينصرونه من أجل متعة زائلة، وإنما هم ينصرونه لأنه يدافع عن دين الله ويبشر به، ومن نصر دين الله، نصره الله - تعالى -.

والآية الكريمة تشير إلى أن الكافرين كانوا هم الكثرة الكاثرة من بنى إسرائيل، بدليل أنه - سبحانه - نسب الكفر إليهم فى قوله: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلة غير الظاهرة حتى لكأن عيسى بقوله: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ يبحث عنهم من بين تلك الجموع الكثيرة من الكافرين.

وهنا يحكى القرآن أن المؤمنين الصادقين - مع قلتهم - لم يتقاعسوا عن تلبية نداء عيسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى -: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ والحواريون جمع حوارى وهم أنصار عيسى الذين آمنوا به وصدقوه، وأخلصوا له ولازموه وكانوا عوناً له فى الدعوة إلى الحق.

يقال فلان حوارى فلان أى خاصته من أصحابه ومنه قول النبي ﷺ فى الزبير بن العوام: «لكل نبي حوارى وحوارى الزبير».

وأصل مادة «حور» هى شدة البياض، أو الخالص من البياض، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق الحوارى، وقالوا فى النساء البيض الحواريون والحواريات.

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٦٥.

وقد سمي - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بالحواريين لأنهم أخلصوا لله - تعالى - نياتهم ، وطهرت سرائرهم من النفاق والغش فصاروا في نقائهم وصفائهم كالشئ الأبيض الخالص البياض .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - لما أحس الكفر من بنى إسرائيل قال لهم من أنصاري إلى الله؟ فأجابه الحواريون الذين آمنوا به وصدقوه وباعوا نفوسهم لله - تعالى - : نحن أنصار الله الذين تبحت عنهم ، ونحن الذين سنقف إلى جانبك لنصرة الحق ، فقد آمننا بالله إيمانا عميقا ، ونريد أن تشهد على إيماننا هذا ، وأن تشهد لنا يا عيسى بأنا مسلمون حين تشهد الرسل لأقوامهم وعليهم .

فأنت ترى أن الحواريين لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم قد لبوا دعوة عيسى - عليه السلام - في طلب النصرة دون أن يخشوا أحدا إلا الله .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ إشعار بأنهم ما وقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ودفاعا عن الحق الذي أنزله على رسوله عيسى .

وقولهم ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ جملة في معنى العلة للنصرة أي نحن أنصار الله يا عيسى لأننا آمننا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه هو الخالق لكل شئ والقادر على كل شئ .

وقولهم : ﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴾ معطوف على آمنا والشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة فهم يطلبون من عيسى - عليه السلام - أن يكون شاهدا لهم يوم القيامة بأنهم أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة .

وأقوالهم هذه التي حكاها القرآن عنهم تدل على أنهم كانوا في الدرجة العليا من قوة الإيمان وصدق اليقين ، ونقاء السريرة .

ثم حكى القرآن عنهم أنهم قالوا - أيضا - ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ على أنبيائك من كتب ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أي امتثلنا ما أتى به منك إلينا ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : اكتبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدانيتك العاملين بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك .

فهم قد صدروا ضراعتهم إلى الله - تعالى - بالاعتراف الكامل بربوبيته ثم أعلنوا إيمانهم به وبما أنزل على أنبيائه ثم أقروا باتباعهم لرسوله والأخذ بسنته ، ثم التمسوا منه - سبحانه - بعد ذلك أن يجعلهم من عباده الذين رضى عنهم وأرضاهم .

وهذا يدل على أنهم كانوا فى نهاية الأدب مع الله - تعالى - وعلى أنهم فى أسمى مراتب الإيمان .

قال بعض العلماء : وكان عدد هؤلاء الحواريين اثنى عشر رجلا آمنوا بعمسى وصدقوه ولازموه فى دعوته إلى الحق .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل فقال : ﴿ وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ والمكر : التدبير المحكم ، أو صرف غيرك عما يريد به حيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح كما فعل اليهود مع عمسى - عليه السلام - ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمعنى : أن أولئك اليهود الذين أحس عمسى منهم الكفر دبروا له القتل غيلة واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ مآربهم الذميمة ، فأحبط الله - تعالى - مكرهم ، وأبطل تدبيرهم بأن نجى نبيه عمسى - عليه السلام - من شرورهم ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أى أقواهم مكرًا وأنفذهم كيدا ، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعرون المعاقب .

وفى سورة المائدة آيات كريمة قصت علينا ما قاله الحواريون لعمسى ، وما طلبوه منه ، بما يدل على إكرام الله - تعالى - لهذا النبى الكريم ، وهذه الآيات هى قوله - سبحانه - :

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ  
بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ  
أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾  
قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَأَنْتُمْ  
عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا  
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلِيَانَا وَأَخْرَانَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا  
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَنْنَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ  
مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ هذا أيضا من الامتنان على عيسى ، بأن جعل الله له أصحابا وأنصارا - وهم الحواريون - والمراد بهذا الوحي الإلهام كما فى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وكما فى قوله : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ وقال بعض السلف فى هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أى : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا . (١)

فأنت ترى أن الإمام ابن كثير يرى أن المراد بالوحي هنا الإلهام ، وعلى ذلك كثير من المفسرين ، ومنهم من يرى أن المراد بقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أى : أمرتهم فى الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على السنة رسلى .  
قال الألوسى معززا هذا رأى : وقد جاء استعمال الوحي بمعنى الأمر فى كلام العرب ، كما قال الزجاج وأنشد :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت

أى : أمرها أن تقر فامتثلت (٢) .

والمعنى : اذكر نعمتى عليك - يا عيسى - حين ﴿ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك ، وقلت لهم : ﴿ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ أى : آمنوا وصدقوا بأنى أنا الواحد الأحد المستحق للعبادة والخضوع وآمنوا برسولى عيسى بأنه مرسل من جهتى لهدايتكم وسعادتكم .

وفى ذكر كلمة ﴿ بَرَسُولِي ﴾ إشارة إلى مقامه من الله - عز وجل - وانفصال شخصه عن ذات الله - سبحانه - وأن عيسى ما هو إلا رسول من رب العالمين وأن من زعموا أنه غير ذلك جاهلون وضالون .

وقوله : ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ حكاية لما نطق به الحواريون من إيمان وطاعة .

أى : أن الحواريين عندما دعوا إلى الدين الحق ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ بأن الله هو الواحد الأحد المستحق للعبادة وأنه لا والد له ولا ولد ، ثم أكدوا إيمانهم هذا ، بأن قالوا ﴿ وَأَشْهَدُ عَلَيْنَا يَا إِلَهَنَا واشهد لنا يا عيسى يوم القيامة ﴾ ﴿ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ أى : منقادون لكل ما

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٤ .

(٢) تفسير الألوسى ج٧ ص ٥٨ .

جئتنا به وما تدعوننا إليه .

وقدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب ، وأخروا ذكر الإسلام لأنه عبارة عن الانقياد الظاهر فكأنهم قالوا : لقد استقر الإيمان في قلوبنا استقرارا مكينا ، كان من ثماره أن انقادت ظواهرنا لكل ما يأمرنا الله به على لسانك يا عيسى .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : فإن قيل : إنه - تعالى - قال في أول الآية : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ ثم إن جميع ما ذكره - تعالى - من النعم مختص بعيسى ، وليس لأمه تعلق بشيء منها ، قلنا : كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل التضمن والتبع للأُم ولذلك قال - تعالى - ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ فجعلهما معا آية واحدة لشدة اتصال كل واحدة منهما بالآخر .

وإنما ذكر - سبحانه - قوله - ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ في معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبا في قلوبهم ، من أعظم نعم الله على الإنسان .

وقد عدد عليه من النعم سبعا : ﴿ إِذْ أَيْدُتُكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَخَلَّقُ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَبَرَّئْتَ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَخْرُجُ ﴾ ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ ﴾ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعض ما دار بين عيسى وبين الحوارين فقال : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ .

و«المائدة» : الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يمد ، إذ تحرك ، فكأن المائدة تتحرك بما عليها ، ويرى بعضهم أن المائدة هي الطعام في ذاته .

و﴿ إِذْ ﴾ في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر وقت قول الحوارين يا عيسى ابن مريم .

وقد ذكره باسمه ونسبوه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - لثلاثتهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولديته .

وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فيه قراءتان سبعيتان :

الأولى : ﴿ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بالياء - على أنه فعل وفاعل ، وقوله : ﴿ أَنْ يُنْزِلَ ﴾ المفعول والاستفهام على هذه القراءة محمول على الجاز ، لأن الحوارين كانوا مؤمنين ، ولا يعقل من مؤمن أن يشك في قدرة الله .

(١) تفسير الفخر الرازي ج٢ ص ١٢٨ .

ومن تخريجاتهم فى معنى هذه القراءة أن قوله : ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بمعنى «يطيع» والسين زائدة ، كاستجاب وأجاب .

أى : أن معنى الجملة الكريمة : هل يطيعك - ربك - يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء .

وسنفضل القول فى تخريج هذه القراءة ، وفى اختلاف المفسرين فى إيمان الحواريين بعد انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة .

أما القراءة الثانية : فهى «هل تستطيع ربك» بالتاء ويفتح الباء فى «ربك» .

والمعنى : هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .

فقوله «ربك» منصوب على التعظيم بفعل محذوف يقدر على حسب المقام وهذه القراءة لا إشكال فيها ، لأن الاستطاعة فيها متجهة إلى عيسى ، أى : أتستطيع يا عيسى سؤال ربك إنزال المائدة أم لا تستطيع؟

قال القرطبى : قراءة الكسائى وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد «هل تستطيع» بالتاء «ربك» بالنصب وقرأ الباقون بالياء «هل يستطيع» «ربك» بالرفع .

والمعنى على قراءة الكسائى - بالتاء : هل تستطيع أن تسأل ربك .

قالت عائشة : كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وقال

معاذ : أقرأنا النبى ﷺ : هل تستطيع ربك قال معاذ : «وسمعت النبى ﷺ مرارا يقرأ بالتاء» (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حكاية لما رد به عيسى على

الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة :

أى قال لهم عيسى : اتقوا الله وقفوا عند حدوده ، واملئوا قلوبكم هيبة وخشية منه ، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان ، فإن المؤمن الصادق فى إيمانه يتعد عن أمثال هذه المطالب التى قد تؤدى إلى فتنته .

ثم حكى القرآن ما رد به الحواريون على عيسى فقال : ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

أى : قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب :

أولها : أننا نرغب فى الأكل منها لننال البركة ، ولأننا فى حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك .

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٣٦٤ . بتصرف وتلخيص .

وثانيها : أننا نرغب فى نزولها لكى تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه عن ربك ، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالى ، مما يؤدي إلى رسوخ الإيمان وقوة اليقين .

وثالثها : أننا نرغب فى نزولها لكى نعلم أن قد صدقتنا فى دعوى النبوة ، وفى جميع ما تخبرنا به من مأمورات ومنهيات ، لأن نزولها من السماء يجعلها تحالف ما جئتنا به من معجزات أرضية ، وفى ذلك مافيه من الدلالة على صدقك فى نبوتك .

ورابع هذه الأسباب : أننا نرغب فى نزولها لكى نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، ليزداد الذين آمنوا منهم إيمانا ويؤمن الذى عنده استعداد للإيمان .

وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون فى قدرة الله ، أو فى نبوة عيسى التى يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى فى نبوته .

ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من الحواريين ما قالوه فى سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ اللَّهُمَّ ﴾ أى : يا الله ، فالميم المشددة عوض عن حرف النداء ، ولذلك لا يجتمعان ، وهذا التعويض خاص بنداء الله ذى الجلال والإكرام .

وقوله : ﴿ عِيدًا ﴾ أى سرورا وفرحانا ، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور .

قال القرطبى : والعيد واحد الأعياد ، وأصله من عاد يعود أى : رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيد ، لأنهما يعودان كل سنة ، وقال الخليل : العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه ، وقال ابن الانبارى : «سمى عيدا للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور» .<sup>(١)</sup>

والمعنى : قال عيسى بضراعة وخشوع - بعد أن سمع من الحواريين حاجتهم - ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ أى : يا الله يا ربنا ومالك أمرنا ، ومجيب سؤالنا ، أتوسل إليك أن تنزل علينا ﴿ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : أطعمة كائنة من السماء ، هذه الأطعمة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أى : يكون يوم نزولها عيدا نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها ، ويكون - أيضا - يوم نزولها عيدا وسرورا وبهجة لمن يأتى بعدنا من لم يشاهدها .

(١) تفسير القرطبى ج٦ ص ٣٦٧ .

قال ابن كثير: قال السدى: أى: نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيدنا نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثورى: يعنى يوما نصلى فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وقال سلمان الفارسى: تكون عظة لنا ولمن بعدنا. (١)  
وقوله: ﴿وَأَيَّةً مِّنكَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عِيدًا﴾.

أى: تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيدا لأولنا وآخرنا، وتكون - أيضا - دليلا وعلامة منك - سبحانهك - على صحة نبوتى ورسالتى، فيصدقوننى فيما أبلغه عنك، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تذييل بمثابة التعليل لما قبله، أى: أنزلها علينا يا ربنا وارزقنا من عندك هنيئا رغدا، فإنك أنت خير الرازقين، وخير المعطين، وكل عطاء من سواك لا يغنى ولا يشبع.

وقد جمع عيسى فى دعائه بين لفظى «اللهم وربنا» إظهارا لنهاية التضرع وشدة الخضوع، حتى يكون تضرعه أهلا للقبول والإجابة.

وعبر عن مجيء المائدة بالإنزال من السماء للإشارة إلى أنها هبة رفيعة، ونعمة شريفة، آتية من مكان عال مرتفع فى الحس والمعنى، فيجب أن تقابل بالشكر لواهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع والإخلاص له.

قال الفخر الرازى: تأمل فى هذا الترتيب، فإن الحوارين لما سألوا المائدة ذكروا فى طلبها أغراضا فقدموا ذكر الأكل فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية. فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال: ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح فى كون بعضها روحية، وبعضها جسمانية.

ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكر الرزق انتقل إلى الرازق بقوله: ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه: بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ ابتداء منه بذكر الحق، وقوله: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ انتقال من الذات إلى الصفات. وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَأَخْرِنَا﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث أنها نعمة، بل من حيث أنها صادرة من المنعم.

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٦.

وقوله : ﴿ وَآيَةٌ مِنْكَ ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال .  
وقوله : ﴿ وَارزُقْنَا ﴾ إشارة إلى حصّة النفس .

ثم قال الإمام الرازى : فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدون فالأدون .  
ثم قال : ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، ومن غير  
الله إلى الله ، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى  
الكلمات الإلهية ونزولها<sup>(١)</sup> .

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحواريين من  
أقوال فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ  
عَذَابًا لَأُعَذِّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ ورد فيه قراءتان متواتران .

إحدهما : منزلها - بتشديد الزاى - من التنزيل وهى تفيد التكثير أو التدرج كما  
تنبىء عن ذلك صيغة التفعيل ، وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع .  
وقرأ الباقون ﴿ مَنَزِّلُهَا ﴾ بكسر الزاى - من الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة .

والمعنى : قال الله - تعالى - إنى منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولى  
عيسى - عليه السلام - ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ ﴾ أى فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها  
الطالبون لها ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَأُعَذِّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : فإن الله - تعالى -  
يعذب هذا الكافر بآياته عذابا لا يعذب مثله أحدا من عالمى زمانه أو من العالمين جميعا .

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها  
بمؤكدات منها : حرف إن فى قوله ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ ﴾ ومنها : المصدر فى قوله : ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ  
عَذَابًا ﴾ إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب ، ومنها : وصف هذا  
العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين .

وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه : أن  
الكفر بعد إجابة ما طلبوه ، وبعد رؤيته ومشاهدته ، وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله ،  
وكمال قدرته ، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢ ص ١٣١ .

أقول : الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد ، والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب وأعظم العقاب .

هذا ، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريمة ، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل .

المسألة الأولى : آراء العلماء فى إيمان الحواريين وعدم إيمانهم .

المسألة الثانية : آراء العلماء فى نزول المائدة وعدم نزولها .

ولإجابة على المسألة الأولى نقول : لعل منشأ الخلاف فى إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى قولهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فإن هذا القول يشعر بشكهم فى قدرة الله على إنزال هذه المائدة .

وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسهم الزمخشري - إلى عدم إيمانهم ، وجعلوا الظرف فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ متعلقا بقوله قبل ذلك ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

أى : أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون ، فى الوقت الذى قالوا له فيه ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ فكأنهم ادعوا الإيمان والإسلام ادعاء بدون إيقان وإذعان ، وإلا فلو كانوا صادقين فى دعواهم لما قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قالوا ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ فإذن دعواهم كانت باطلة ، وأنهم كانوا شاكين ، وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا فى اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة (١) .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٦٩٣ .

١ - أن الظرف فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ ليس متعلقا بقوله : ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ وإنما هو

منصوب بفعل مضممر تقديره اذكر ، وهذا ما رجحه العلامة أبو السعود فى تفسيره فقد قال :

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه - عليه

السلام - وبين قومه منقطع عما قبله ، كما ينبى عنه الإظهار فى موضع الإضمار وإذ

منصوب بمضممر ، وقيل : هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاء الإيمان

والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم .<sup>(١)</sup>

٢ - أن قول الحواريين لعيسى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾

لا يسحب عنهم الإيمان ، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخریجات منها .

( أ ) أن قولهم لم يكن من باب الشك فى قدرة الله ، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان

عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظرى بدليل أنهم قالوا بعد ذلك ﴿ نُريدُ أَنْ

نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ .

وشبيه بهذا قول إبراهيم ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : «الحواريون خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم ، وقد كانوا

عالمين باستطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك ، كما

قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر

ونظر ، ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها ريب ولا شبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله

الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة لا يدخله شىء من ذلك ، ولذلك قال الحواريون :

﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ كما قال إبراهيم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾<sup>(٢)</sup>

(ب) أن السؤال إنما هو عن الفعل لا عن القدرة عليه ، وقد بسط الألوسى هذا المعنى

فقال : إن معنى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هل يفعل ربك كما تقول للقادر على القيام : هل

تستطيع أن تقوم معى مبالغة فى التقاضى .

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ هى - أى

الاستطاعة - من أسباب الإيجاد .<sup>(٣)</sup>

(١) تفسير أبى السعود ج٢ ص ٧٢ .

(٢) تفسير القرطبى ج٦ ص ٣٦٥ .

(٣) تفسير الألوسى ج٧ ص ٥٩ .

(ج) أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - ويشهد لذلك قول الفخر الرازي : قال السدي ، قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ أى : هل يطيعك ربك إن سألته ، وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة (١).

والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التى ذكرناها ، ولأن الله - تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم ، فقد جرت سنته - سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذروهم ، ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين ، لما أمر الله أتباع النبي ﷺ بالتأسى بهم فى إخلاصهم ورسوخ يقينهم قال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ (٢).

وقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣)

فهاتان الآيتان صريحتان فى مدح الحواريين وفى أنهم قوم التفوا حول عيسى - عليه السلام - وناصروه مناصرة صادقة ، وآمنوا به إيمانا سليما من الشك والتردد .

وأما المسألة الثانية : وهى آراء العلماء فى نزول المائدة : فالجمهور على أنها نزلت .

وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن يقال «إن الله أنزل المائدة» ، لأن الله لا يخلف وعده ، ولا يقع فى خبیره الخلف ، وقد قال - تعالى - مخبرا فى كتابه عن إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك ﴿ إِنِّي مُنَزَّلُهَا ﴾ وغير جائز أن يقول الله إنى منزلها عليكم ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه - تعالى - خبر ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر (٤) .

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير فقال : وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ١٢٩ .

(٢) الآية الأخيرة من سورة الصف .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .

(٤) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٣٥ .

ومن الآثار ما أخرجه الترمذى عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً ، وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد : فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخهم قردة وخنازير .

قال الترمذى : وقد روى عن عمار من طريق موقوفا وهو أصح .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .<sup>(١)</sup>

والذى يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاماً كثيراً عما كان على المائدة من أصناف الطعام ، وعن كيفية نزولها ومكانه ، وعن كيفية استقبالها وكشف غطائها ، والأكل منها والباقي عليها بعد الأكل ، وهذا الكلام الكثير رأينا من الخبير أن نضرب عنه صفحاً ، لضعف أسانيد ، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونكارة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثراً طويلاً فى هذا المعنى ثم قال فى نهايته : هذا أثر غريب جداً قطعه ابن حاتم فى مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم .<sup>(٢)</sup>

ويعجبني فى هذا المقام قول ابن جرير : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة ، فإن يقال : كان عليها مأكول ، وجائز أن يكون هذا المأكول سمكاً وخبزاً ، وجائز أن يكون من ثمر الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولاضار الجهل به ، إذا أقرت الآية بظاهر ما احتمله التنزيل .<sup>(٣)</sup>

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل ، فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل .

وروى منصور بن زاذان عن الحسن أيضاً أنه قال فى المائدة : إنها لم تنزل .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء .

أى : مثل ضربه للناس نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه .

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٩ .

(٣) تفسير ابن جرير ج٧ ص ١٣٥ .

قال الحافظ ابن كثير: هذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لاتعرفه النصارى، وليس في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوافر الدواعى على نقله، وكان يكون موجودا فى كتابهم متواترا ولا أقل من الأحاد (١).

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال: ولنا أن نقول: إن هذا الاستدلال إن كان يعنى عدم نزولها فقط، فقد يكون له شىء من الوجاهة وإن كان يعنى أنها لم تنزل ولم يسأل، فهو محل نظر كبير، لأن السؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر الدواعى على نقله، لاسيما وعيسى فى بيئة محصورة: جماعة سألوا وأجيبوا، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سؤالها فى كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورأها الناس فعلا وأكلوا منها، وتذوقوا طعامها، ولم يذكر عن ذلك شىء.

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - فى القرآن قد قصه فى غيره من الكتب المتقدمة، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شىء حتى يمثل هذه المحاولة الخاصة التى لم تنته بحادث كوني حتى يكون عدم ذكرهم إياها فى أناجيلهم - التى وضعوها - دليلا على عدم سؤالها، فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين.

ومن الجائز أن تكون ما ورد فى الأناجيل، وأن تكون ما أخفاه أهل الكتاب، أو ضاع منهم علمه بسبب ما، والقرآن قد وصف نفسه بأنه مهيمن على كتبهم التى وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيرا منها، وأنه يبين لهم كثيرا مما كانوا يخفون (٢). هذا وما سبق يتبين لنا أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها، كما جاء فى الآية الكريمة.

ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا؟ فالجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك فى قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب عليه من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا: لاحاجة لنا فيها، فلم تنزل.

ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب، لأن ظاهر الآيات يؤيده، وكذلك الآثار التى وردت فى ذلك.

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١١٩.

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ٢٨١، لفضية الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت.

هذا وفى ختام سورة الصف آية كريمة مدحت الحواريين ، ودعت المؤمنين إلى التشبه بهم ، وهذه الآية هى قوله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان داوموا على أن تكونوا أنصارا لدين الله فى كل حال ، كما كان الحواريون كذلك ، عندما دعاهم عيسى - عليه السلام - إلى نصرته والوقوف إلى جانبه .

فالكلام محمول على المعنى ، والمقصود منه حض المؤمنين على طاعة الرسول ﷺ وعلى الاستجابة التامة لما يدعوهم إليه ، كما فعل الحواريون مع عيسى ، حيث ثبتوا على دينهم ، وصدقوا مع نبيهم ، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى لهم : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح ، والمراد كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم : من أنصارى إلى الله .

فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين : والذى يطابقه أن يكون المعنى : من جندى متوجها إلى نصرته دين الله .<sup>(١)</sup>

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه .

وأضافهم - عليه السلام - إليه ، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه .

وقوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ متعلق بأنصارى ، ومعنى «إلى» الانتهاء المجازى .

أى : قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم : من الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله - تعالى - فى نصرته دينه ، وفى التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته؟

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص٥٢٨ .

فأجابوه بقولهم : نحن أنصار دين الله - تعالى - ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا فى سبيل تبليغ دعوته - عز وجل - ومن أجل إعلاء كلمته .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ مفرع على ما قبله ، لبيان موقف قومه منه .

أى : قال الحواريون لعيسى عندما دعاهم إلى اتباع الحق : نحن أنصار دين الله ، ونحن الذين سنثبت على العهد ، أما بقية بنى إسرائيل فقد افرقوا إلى فرقتين : فرقة أمنت بعيسى وبما جاء به من عند الله - تعالى - وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته .

وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بيان للنتائج التى تحققت لكل طائفة من الطائفتين : المؤمنين والكافرين .

وقوله : ﴿ ظَاهِرِينَ ﴾ من الظهور بمعنى الغلبة ، يقال : ظهر فلان على فلان ، إذا تغلب عليه وقهره .

أى : كان من قوم عيسى من آمن به ، ومنهم من كفر به ، فأيدنا وقوينا ونصرنا الذين آمنوا به ، على الذين كفروا به ، فصار المؤمنون ظاهرين ومنتصرين على أعدائهم بفضلهم - تعالى - ومشيتته .

والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنين فى كل زمان ومكان ، على الإيمان والعمل الصالح ، لأن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم ، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين على أعدائهم الكافرين .

ومن كل ماسبق يتبين لنا أن موقف الحواريين من دعوة عيسى - عليه السلام - كان موقفا كريما ، يدل على صدق إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم .

# كُفِرَ الَّذِينَ نَسَبُوا الْأُلُوْهِيَّةَ أَوْ الْبَنُوَّةَ إِلَى عِيسَى

## - عليه السلام -

المتدبر للقرآن الكريم يرى أن كل رسول أرسله الله - تعالى - إلى الناس ، كانت الكلمة الأولى التي يأمر بها قومه ، أن يخلصوا العبادة والطاعة لخالقهم - عز وجل - قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [ الأنبياء : ٢٥ ]

كما يرى أن الإشراف مع الله - تعالى - في العبادة آلهة أخرى ، جريمة لا تقبل المغفرة .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [ النساء : ١١٦ ]

وقد نزه الخالق - عز وجل - ذاته عن أن يكون له شريك أو ولد ، قال - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ ﴾ .

ولقد توعد الله - تعالى - في آيات متعددة ، أولئك الذين نسبوا الألوهية إلى المسيح ، عيسى ابن مريم - عليه السلام - وأنذرهم بسوء المصير ، ووصفهم بالكفر وانطماس البصيرة ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - في سورة المائدة :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٧) .

واللام في قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ﴾ واقعة جوابا لقسم مقدر .

والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره ، والانغماس في الباطل والضلال .

والمعنى : أقسم لقد كفر أولئك الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح عيسى ابن مريم .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يرد على أولئك الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ بما يكشف عن جهلهم وضلالهم فقال - تعالى - :

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين قالوا : ﴿ إِنْ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والتجهيل : من ذا الذى يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض ، إن أراد الله - سبحانه - أن يهلكهم ويبيدهم؟ لاشك أن أحداً لن يستطيع أن يمنع إرادته - سبحانه - لأنه هو المالك لأمر الوجود كله ، ولا يملك أحد من أمره شيئاً يستطيع به أن يصرفه عن عمل يريده ، أو يحمله على أمر لا يريده ، أو يستقل بعمل دونه ، وما دام الأمر كذلك فدعوى أن الله هو المسيح ابن مريم ظاهرة البطلان ، لأن المسيح وأمّه من مخلوقات الله التى هى قابلة لطوء الهلاك والفناء عليها ، وحاشا للمخلوق الفانى أن يكون إلهاً وإنما الألوهية لله الخالق الباقي : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وفى توجيه الأمر إلى الرسول ﷺ للرد عليهم تثبيت له وتقوية لحجته حتى يبطل قولهم الفاسد إبطالا يزداد معه المؤمنون إيماناً بالحق الذى آمنوا به .  
وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها فى عموم المعطوف ، لزيادة تأكيد عجز المسيح ، وأنه هو وأمّه عبدان من عباد الله لا يقدران على دفع الهلاك عنهما .

وعطف عليهما قوله : ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، ليكونا قد ذكرا مرتين ، مرة بالنص عليهما ، ومرة بالاندراج فى العام ، وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة فى تعليق نفاذ الإرادة فيهما .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تأكيد لاختصاص الألوهية به - تعالى - إثر بيان انتفائها عما سواه .

أى : ولله - تعالى - وحده دون أن ينازعه منازع ، أو يشاركه مشارك ، ملك جميع الموجودات ، والتصرف المطلق فيها ، ايجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، فهو المالك للسموات وما فيها وللأرض ، وما عليها ولما بينهما من فضاء تجرى فيه السحب بأمره ، ويطير فيه الطير بإذنه وقدرته ، وما المسيح وأمّه إلا من جملة ما فى الأرض ، فهما عبدان من عباد الله يدينان له - سبحانه - بالعبادة والطاعة والخضوع .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يقل وما بينهما مع أن السموات بلفظ الجمع ، لأن المراد بالسموات والأرض النوعان أو الصنفان .

أى : ولله - تعالى - وحده ملك السموات والأرض وما بين هذين النوعين من مخلوقات خاضعة لمشيئة الله وقدرته .

وقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزعج ما اعترى النصارى من شبهة في أمر المسيح لولادته من غير أب ، وإحيائه الموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، كل ذلك بإذن الله .

أى : أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء أن يخلقه من أنواع الخلق بالكيفية التى يريد بها تبعاً لمشيئته وإرادته .

فتارة يخلق الإنسان من ذكر وأُنثى كما هو المعتاد بين الناس ، وتارة يخلقه بدون أب أو أم كما هو الشأن فى خلق آدم ، وتارة يخلقه بدون أب كما هو الشأن فى خلق عيسى ، إلى غير ذلك من مخلوقاته التى ليست مقصورة على نوع واحد بل هى شاملة لهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد ، فكل ما تعلقت إرادته بإيجاده أوجده ، وكل ما تعلقت إرادته بإعدامه أعدمه ، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا حائل دون نفاذ قدرته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - قدير على كل شىء ومالك لكل شىء ومهيمن على كل شىء لا يغلبه شىء طلبة ، ولا يعجزه أمر أراده وما عيسى وأمه إلا من مخلوقاته وعبيده ، وحاشا للمخلوق العاجز أن يكون إلها من دون الله - عز وجل - .

فهذه الآية الكريمة تحكى الأقوال الباطلة فى شأن عيسى - عليه السلام - وترد على قائلها بما يزهق باطلهم ، ويثبت أن عيسى إنما هو عبد من عباد الله وأن العبادة إنما تكون لله الواحد القهار .

كذلك من الآيات التى توعدت الذين نسبوا الألوهية إلى عيسى - عليه السلام - بأشد أنواع العذاب ، قوله - تعالى - فى صورة المائدة - أيضا :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي سَرَايِيلَ عِبَادُ وَاللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا أُولَئِكَ النَّارُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا

مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْهَوْهُمَا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ  
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾  
 قَالِ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ  
 كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ فَانظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ اتِّي  
 يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

أى : أقسم لقد كفر أولئك الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو  
 المسيح ابن مريم .

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر ، لأنهم غالوا فى إطرء عيسى وفى وضعه  
 فى غير موضعه ، كما غالت اليهود فى الكفر به وفى وصفه بالأوصاف التى هو برىء  
 منها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى فى الرد على من جعلوه إلهًا فقال : ﴿ وَقَالَ  
 سِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .

أى : وقال المسيح مكذبا لمن وصفه بالألوهية : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله وحده  
 ولا تشركوا به شيئا فهو ربي الذى خلقنى وتعهدنى بالتربية والرعاية ، وهو ربكم - أيضا -  
 الذى أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات .

والواو فى قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ ﴾ للحال ، والجملة حالية من الواو التى هى فاعل  
 أى : قالوا ما قالوا ، والحال أن عيسى قد تبرأ عما قالوه ، وقال لبنى إسرائيل حين إرساله  
 إليهم : اعبدوا لله ربي وربكم .

وقوله : ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور ، لأن  
 عيسى لم يفرق بينه وبين غيره فى العبودية لله - تعالى - سبحانه - هو الخالق له ولهم  
 ولكل شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذرا من الإشراك فقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ  
 فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده ، والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك : منعه من دخولها لإشراكه مع الله آلهة أخرى .

والمأوى : المكان الذى يأوى إليه الإنسان ، أى يرجع إليه ويستقر فيه .

أى : وقال المسيح لبنى إسرائيل : اعبدوا الله ربي وربكم ، لأنه أى الحال والشأن ﴿ من يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ شيئا فى عبادته - سبحانه - ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ أى : منعه من دخولها ، بسبب شركه وكفره ، وجعل ﴿ مَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ أى : جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم .

فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله ، وبيان لما سيؤول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء .

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهى حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهى استقرارهم فى النار ، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله ، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التى تدل على جهلهم وسفاهتهم .

والمراد بالظالمين : المشركون الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم فتكون «ال» للعهد .

ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا فتكون «ال» للجنس .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ بصيغة الجمع لكلمة «أنصار» وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق ، للإيدان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم .

أى : ما لهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأى طريقة من الطرق .

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذى حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده - ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك .

وقوله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ بيان لما قالته طائفة

أخرى من الطوائف الضالة .

ومعنى ثالث ثلاثة : واحد من ثلاثة ، أى : أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث .  
وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل .  
وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتمالها على «ما» و«إلا» مع تأكيد  
النفى بمن المفيدة لاستغراق النفى .

والمعنى : لقد كفر الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله واحد من آلهة ثلاثة ، والحق أنه ليس  
فى هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين ، الذى  
خلق الخلق بقدرته ، ورباهم بنعمته ، وإليه وحده مرجعهم وإيابهم .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب  
فقال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .  
وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ﴾ والمراد بانتهائهم : رجوعهم عما  
هم عليه من ضلال وكفر .

والمراد بقوله : ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى : عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان .

أى : لقد كفر أولئك الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة كفرا شديدا بينا والحق أنه ليس  
فى الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة ، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن  
عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ، ويعتصموا بعروة التوحيد ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم .

فالجملة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار فى هذا القول الكاذب ،  
والاعتقاد الفاسد الذى يتنافى مع العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

وقوله : ﴿ لَيَمَسَّنَّ ﴾ جواب لقسم محذوف ، وهو ساد مسد جواب الشرط المحذوف فى  
قوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا ﴾ والتقدير : والله إن لم ينتهوا ليمسن .

وأكد - سبحانه - وعيدهم بلام القسم فى قوله : ﴿ لَيَمَسَّنَّ ﴾ ردا على اعتقادهم أنهم  
لا تمسهم النار ، لأن صلب عيسى - فى زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر .

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام : لأن المراد أن هذا العذاب الأليم  
يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة ، كما قال - تعالى - فى آية  
أخرى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (١) .

(١) سورة النساء الآية ٥٦ .

وقال - سبحانه - : ﴿ لِيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم ، لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هي سبب الحكم .  
ومن فى قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يصح أن تكون تبعيضية : أى : ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصارى عذاب أليم ، لأن كثيرا منهم لم يستمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخلوا فى دين الإسلام .

ويصح أن تكون بيانية ، وقد وضع ذلك صاحب الكشاف بقوله : ومن فى قوله : ﴿ لِيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ للبيان كالتى فى قوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ .  
والمعنى : ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : نوع شديد الألم من العذاب ، كما تقول : اعطنى عشرين من الثياب ، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التى يجوز أن يتناولها عشرون .<sup>(١)</sup>

وبعد الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الأليم ، فتح لهم - سبحانه - باب رحمته ، حيث رغبتهم فى الإيمان ، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم عليه من عقائد فقال - تعالى - : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .  
والاستفهام هنا يتضمن حضمهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال والتعجب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التى لا يقبلها عقل سليم ولا تصور قويم .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام ، أى : أيسمعون ما يسمعون من الحق الذى يزهق باطلهم ومن النذر التى ترقق القلوب فلا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته ، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا .

إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله ، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين ليبدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم .

قال أبو السعود : وقوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ﴾ مؤكدة للإنكار والتعجب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار .

أى : والحال أن الله - تعالى - مبالغ فى المغفرة ، فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله .<sup>(٢)</sup>

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٦٦٤ .

(٢) تفسير أبى السعود ج٧ ص ٥٠ .

وقال ابن كثير: هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب ، والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم . (١)

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى - عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتها ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى - : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ .

وقوله : ﴿ صِدِّيقَةٌ ﴾ صيغة مبالغة في التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة في الشرب والمسك .

قال الراغب : والصديق من كثر منه الصدق ، وقيل : بل يقال لمن لم يكذب قط ، وقيل : بل لمن لا يأتي منه الكذب لتعوده الصدق ، وقيل : لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله ، قال - تعالى - : ﴿ فَأُوْثِقَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. ﴾ فالصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة . (٢)

والمعنى : إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، قد قالوا منكرًا وزورًا ، إذ ليست الألوهية إلا لله وحده وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعى واحد منهم الألوهية ، وأما أم عيسى مريم فما هي إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له في سائر أمورها ، وهما - أي عيسى وأمّه مريم - عبدان من عباد الله كانا يأكلان الطعام ، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوها بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافيا تاما مع صفات الألوهية . إن وصفكم لهما بالألوهية للدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم ، وعظيم جهلكم .

وقوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة ، وهو قصر إضافي ، أي : أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهي الألوهية فالقصر قصر قلب لرد الاعتقاد في عيسى أنه الله ، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة ، وقوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ صفة للرسول وهو عيسى أريد

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٨١ .  
(٢) المفردات في غريب القرآن الكريم ص ٢٧٧ .

بها بيان أنه مساو للرسول الكرام الذين سبقوه في تبليغ رسالة الله إلى الناس ، وأنه ليس بدعا في هذا الوصف وإذن فلا شبهة للذين زعموا أنه إله ، لأنه لم يجئ بشيء زائد على ما جاء به الرسل .

وقوله : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها ، ونفى أن يكون لها وصف أعلى من ذلك ، فهي ليست إلها ، كما أنها ليست رسولا .

ولذا قال ابن كثير : دلت الآية على أن مريم ليست نبية - كما زعمه ابن حزم وغيره من ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم ويقولن : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال - قال تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ . . ﴾

وقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ جملة مستأنفة لبيان خواصهما الأدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى - .

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس ، لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس ، ودالة على احتياجهما لغيرهما في مطلب حياتهما ، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلها .

قال صاحب الكشف : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفص ، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة ، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا للإله أن يكون كذلك . (١)

ففي هذه الجملة الكريمة رد على ما زعمه الضالون في شأن عيسى وأمه بأبلغ وجه وأحكمه ، ولذا عجب الله - تعالى - رسوله وكل من يصلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نَبَّيْنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ أى : يصرفون ، يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشيء .

أى : انظر - يامحمد - كيف نبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحا ظاهرا ، ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاحة إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم ، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم .

(١) تفسير الكشف ج١ ص ٦٦٥ .

فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوالهم الغربية وجرىء بشم المفيدة للتراخي  
 فى قوله : ﴿ تُمْ أَنْظِرْ أُنَى يُؤْفَكُونَ ﴾ لإظهار ما بين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من  
 تفاوت شديد ، أى : أن بياننا للآيات أمر بديع فى بابها بحيث يجعل كل عاقل يستجيب  
 لها ، وينخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات ، وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع  
 وضوحها وتعاضد ما يوجب قبولهم - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم  
 وسوء تفكيرهم .

هذا وفى سورة التوبة آيات كريمة ، حكى أقوال الضالين ، الذين قال بعضهم بأن  
 «عزيراً» ابن الله ، وقال آخرون بأن «المسيح ابن الله» وردت على أقوالهم هذه بما يبطلها ،  
 وبما يعجب العقلاء من سفههم وجهلهم .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ  
 ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ  
 قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٣﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ  
 أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا  
 لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَخُنَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ  
 بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ هُوَ الَّذِي  
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ، ونعمان ابن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا : كيف تتبعك - يامحمد - وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزيرا ابن الله ، فأنزل الله فى ذلك الآية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. ﴾ (١)

و«عزير» كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق.م تقريبا ، ومن أعماله أنه جمع أسفار التوراة ، وأدخل الأحرف الكلدانية عوضا عن العبرانية القديمة ، وألف أسفار : الأيام ، وعزرا ، ونحميا .

وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة ، وأطلقوا عليه لقب «ابن الله» .

وقد نسب - سبحانه - القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكانوا مشاركين لهم فى الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب .

وأما قول النصارى «المسيح ابن الله» فهو شائع مشهور ، ومن أسبابه أن الله - تعالى - قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته فى التوالد والتناسل ، فقالوا عنه : «ابن الله» .

وقد حاجهم - سبحانه - فى سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغى أن يكون عيسى كآدم .

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ذم لهم على ما نطقوا به من سوء يمجه العقل السليم ، والفكر القويم .

أى : ذلك الذى قالوه فى شأن «عزير والمسيح» قول تلوكة ألسنتهم فى أفواههم بدون تعقل ، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افتراءهم واختلاقهم ، فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .

(١) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١٠ .

قال - تعالى - :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (١)

ولقد أندر - سبحانه - الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٢)

وأسند - سبحانه - القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا بها ، لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ، حتى لكانها مسموعة مرئية ولبيان أن هذا القول لا وجود له في عالم الحقيقة والواقع ، وإنما هو قول لغو ساقط وليد الخيالات والأوهام ، ولزيادة التأكيد في نسبة هذا القول إليهم ، أى : أنه قول صادر منهم وليس محكيا عنهم .

والمراد بالذين كفروا من قبل : جميع الأمم التي ضلت وانحرفت عن الحق ، وأشركت مع الله في العبادة آلهة أخرى .

والمعنى : أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم «عزير ابن الله» وقال البعض الآخر : «المسيح ابن الله» ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (٣)

وقوله : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ تعجيب من شناعة قولهم ، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من قاتله الله لا بد أن يقتل ، ومن غالبه لا بد أن يغلب .

وعن ابن عباس ، أن معنى ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ لعنهم الله ، وكل شيء في القرآن قتل فهم لعن (٤)

وقوله : ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى الباطل المظلم المعقد .

(١) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٥ .

(٢) سورة الكهف الآيتان ٤ ، ٥ .

(٣) سورة الصافات : الآية ٧٠ .

(٤) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ١١٣ .

و ﴿أَنْتَى﴾ بمعنى كيف ، و ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ من الإفك بمعنى الانصراف عن الشيء والابتعاد عنه ، يقال : أفكه عن الشيء يأفكه أفكا ، أى : صرفه عنه وقلبه ، ويقال : أفكت الأرض أفكا ، أى : صرف عنها المطر .

والمعنى : قاتل الله هؤلاء الذين قالوا : ﴿عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ والذين قالوا : ﴿وَالْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ لأنهم بقولهم هذا محل مقت العقلاء وعجبهم ، إذ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له - تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك؟!

إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة ، وأفعال ذميمة .

والضمير فى قوله : ﴿اتَّخَذُوا﴾ يعود إلى الفريقين اللذين حكمت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان .

والأخبار : علماء اليهود جمع حبر - بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه ، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزين ، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة والحسن .

والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا ، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى - .

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، أنهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم ، وفيما حرموه عليهم ، ولو كان هذا التحليل والتحريم مخالفا لشرع الله .

وهذا التفسير مأثور عن رسول الله ﷺ فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام : وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومها ، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها حريتها فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيبى وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحادث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة ، وكان الرسول يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

قال عُذَى : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَحْبَابَهُمْ ﴾ والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى : اتخذوه ربا وإلها .

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ جملة حالية أى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، بأن أطاعوهم فيما يحلونهم لهم وفيما يحرمونه عليهم ولو كان ذلك مخالفا لشرع الله ، وكذلك اتخذ النصرارى المسيح ابن مريم ربا وإلها .

والحال أنهم جميعا ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده ، فهو المعبود الذى لاتعنو الوجوه إلا له ، ولا يكون الاعتماد إلا عليه ، وكل ما سواه فهو مخلوق له .

وقوله : ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ صفة ثانية لقوله : ﴿ إِلَهًا ﴾ أو هو استئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده ، وأنه - سبحانه - هو المستحق لذلك شرعا وعقلا .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه له عن الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة له .

أى : تنزه الله - عز وجل - وتقديس عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين وخالق الخلائق أجمعين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقاويلهم الكاذبة ، ودعاواهم الباطلة فقال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها نبيه ﷺ عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة .

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٤٨ .

وقوله : ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين ، وتقرير لسنته التي لا تتغير ولا تتبدل في جعل العقابة للحق وأتباعه .

والمعنى : يريد أعداء الله أن يطفثوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله - تعالى - لا يريد إلا إتمام هذا النور ، ولو كره الكافرون هذا الإتمام لأتمه - سبحانه - دون أن يقيم لكرهتهم وزنا .

فالآية الكريمة وعد من الله - تعالى - للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكي يمضوا قدما إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو ثقاقل ، وهي في الوقت نفسه تتضمن في ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم .

ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

والمعنى : هو الله - سبحانه - الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالقرآن الهادي للتي هي أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذي لا ينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة ، ولإظهار رسوله ﷺ على أهل الأديان كلها ، بما أوحى إليه - سبحانه - من هدايات وعبادات ، وتشريعات ، وأداب ، في اتباعها سعادة الدنيا والآخرة .

وختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ وختم التي قبلها بقوله : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ للإشعار بأن هؤلاء الذين قالوا : «عزيز ابن الله والمسيح ابن الله» قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا ، بين رذيلتي الكفر والشرك ، وأنه - سبحانه - سيظهر أهل دينه على جميع الأديان الأخرى .

هذا ، ومن كل ما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم قد ذم الذين نسبوا الألوهية أو البُنُوَّةَ إلى عيسى - عليه السلام - ذما شديدا ، وتوعدهم بسوء المصير ، وبالعذاب الشديد ، جزاء إصرارهم على كفرهم ، وضلالهم وجهلهم .

## حديث القرآن عن أتباع عيسى - عليه السلام -

أرسل الله - تعالى - رسوله عيسى ابن مريم إلى قومه ، ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لخالقهم ، ولينهاهم عن عبادة غيره ، وليأمرهم بالتحلى بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، فمنهم من آمن به وصدقه ، وقال له : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ومنهم من آمن به وصدقه ، ولكنه انحرف عن هديه وأحدث فى الدين الذى جاء به عيسى - عليه السلام - مالىس منه ، ومنهم من استمر على إيمانه وصدقه وإخلاصه العبادة لله الواحد القهار ، فلما جاء محمد ﷺ بالدين الذى ارتضاه الخالق - عز وجل - للناس ختام الأديان ، آمن بالرسول ﷺ وبجميع الرسل السابقين دون أن يفرق بين أحد منهم .

وفى سورة «الحديد» آيات كريمة تحدثت عن طائفة من أتباع عيسى - عليه السلام - ابتدعوا فى الدين مالىس منه ، وطائفة أخرى من أتباعه استمروا على الإيمان الحق ، الخالى من البدع والأهواء ، وطائفة ثالثة انحرفت عن الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - انحرفا شديدا وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

وإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُسْتَدِرٌّ وَكَثِيرٌ

مِنْهُمْ فَاسْتَوَى ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

وَعَآئِنَهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ

فَمَنْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَإِنَّهَا آيَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

فَاسْتَوَى ﴿٢٧﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ . معطوف على جملة : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ عطف الخاص على العام .

أى : لقد أرسلنا رسلا كثيرين ، وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء ، وأوحينا إليهم كتبنا ، التى تهدى أقوامهم إلى طريق الحق ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، وكالزبور الذى أنزلناه على داود .

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن ذريتهم من اهتدى إلى الدين الحق ، وأمن به ، وقام بأداء تكاليفه ، وكثير من أفراد هذه الذرية فاسقون ، أى : خارجون عن الاهتداء إلى الحق ، منغمسون فى الكفر والضلال .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ والتقفية اتباع الرسول برسول آخر يقال : قفا فلان أثر فلان ، إذا اتبعه ، وقفى على أثره بفلان ، إذا أتبعه إياه ، وأصله من القفا وهو مؤخر العنق ، فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه .

وضمير الجمع فى قوله : ﴿ آثَارِهِمْ ﴾ يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب .

أى : ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ، حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ أى : أوحينا إليه ليكون هداية لقومه .

قالوا : والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو فى الأصل ، يقال : رحم الله نجليه ، أى : والديه ، وقيل : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشئ إذا استخرجته وأظهرته ، ويقال للماء الذى يخرج من البئر : نجل ، وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين ، ومنه قولهم : طعنة نجلاء ، أى : واسعة .

وسمى الإنجيل بهذا الاسم ، لأنه سعة ونور وضياء ، أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى ، ليكون بشارة وهداية لقومه .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير الفخر الرازى ج٧ ص ١٧١ .

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التي كانت واضحة في أتباع عيسى فقال :  
﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ .

والرأفة : اللين وخفض الجناح ، والرحمة ، العطف والشفقة .

قالوا : وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص ، لأن الرأفة ، رحمة خاصة ، تتعلق بدفع الأذى والضرر ، أما الرحمة فهي أشمل وأعم ، لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها .

و«الرهبانية» معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهم النصارى المبالغون في الرهبة والخوف من الله - تعالى - والزهد في متاع الحياة الدنيا .

والمعنى : ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر ، حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وأتيناها الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه وأمنوا به ﴿ رَأْفَةً ﴾ أى : لنا وخفض جناح ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أى : شفقة وعظفا ، وحب رهبانية مبتدعة منهم ، أى : هم الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم ، زهدا في متاع الحياة الدنيا .

ونحن ما كتبنا عليهم هذه الرهبانية ، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى : ولكنهم بمرور الأيام ، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف ، بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

أى : أما الذين استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام - وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا بما يفسده ، فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة .

وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - حيث كفروا به وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، أو قالوا : المسيح ابن الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب .

وقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم ، أكثر من الذين آمنوا به إيمانا صحيحا .

فالأية الكريمة ثنتي على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - فطهروا أرواحهم من كل دنس ، وزهدوا في متع الحياة الدنيا ، وتذم الذين بدلوا ماجاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة في شأنه ، وفعلوا الأفعال القبيحة التي تغضب الله - تعالى - :

وفي سورة «المائدة» آيات كريمة ، مدحت قوما من أتباع عيسى - عليه السلام - استمروا على إخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، فلما أدركوا دعوة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ اتبعوه وصدقوه وأمنوا به وبجميع الرسل الذين سبقوه وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ  
 أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ يَا نَصْرُكَ يَا نَصْرُكَ يَا نَصْرُكَ  
 وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ  
 تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَكْثَرُ  
 مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ  
 يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْبَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ  
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ  
 كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال : بعث النجاشي وفدا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا ، قال : فأنزل الله فيهم : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم النجاشي فلم يزل مسلما حتى مات ، فقال رسول الله ﷺ : إن أحاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه فصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة والنجاشي بالحبشة .

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى في سبب نزول هذه الآيات : والصواب في ذلك من القول عندي ، أن الله - تعالى - وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى ، وأن نبى

الله ﷻ يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا ، لما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ، ولم يستكبروا عنه .<sup>(١)</sup>

فقوله - تعالى - : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من آيات سجلت على اليهود كثيرا من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة .

والمعنى : أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهما اليهود والذين أشركوا ، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور ، وهذه الرذائل متى تمكنت في النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق .

وقوله : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان .

أى : لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين .

والقسيسين : جمع قسيس ، وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه ، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم .

والرهبان : جمع راهب كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع ، والراهب هو الرجل العابد الزاهد المنصرف عن الدنيا ، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف ، يقال : رهب فلان ربه يرهبه ، أى : خافه .

والمعنى : ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى ، وذلك لأن منهم القسيسين الذين يرغبون في طلب العلم ، ويرشدون غيرهم إليه ، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضا فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق ، والانقياد له إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبرين .

(١) تفسير ابن جرير ج٧ ص٣ .

قال الألوسى : وفى الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت .

ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ والمراد بالرسول : محمد ﷺ وبما أنزل إليه : القرآن الكريم .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ والضمير فى قوله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ﴾ يعود على الذين قالوا : إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وأمنوا به .

أى : أن من صفات هؤلاء الذين قالوا : إنا نصارى زيادة على ما تقدم ، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله ﷺ من قرآن تأثرت قلوبهم ، وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزارة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذى بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه .

وفى التعبير عنهم بقوله : ﴿ تَرَى ﴾ الدالة على الرؤية البصرية والتى هى أقوى أسباب العلم الحسى ، مبالغة فى مدحهم ، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق ، لأنهم عندما سمعوه أشرقت له نفوسهم ودخلوا فى نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له .  
وقوله : ﴿ تَفِيضُ ﴾ من الفيض وهو انصباب عن امتلاء : يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه .

وقد أجاد صاحب الكشاف فى تصوير هذا المعنى فقال : فإن قلت : مامعنى قوله : ﴿ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ قلت : معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يملئ الإناء أو غيره حتى يطلع مافيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها ، أى : تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك : دمعت عينه دمعاً .

فإن قلت : أى فرق بين من ومن فى قوله : ﴿ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ قلت : الأولى لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتداء ونشأ من معرفة الحق ، وكان من أجله وبسببه ، والثانية لتبيين الموصول الذى هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبويض على أن عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟<sup>(١)</sup>

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٧٠ .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله بعد سماعهم للحق فقال : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

أى : يقولون بعد أن سمعوا الحق : يا ربنا إننا آمنا بما سمعنا إيمانا صادقا فاكْتُبْنَا مَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي آمَنْتَ بِهِ وَشَهِدْتَ بِصِدْقِ رَسُولِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبِصِدْقِ كُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلْتَهُ إِلَى النَّاسِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول فى الدين الحق ، فقال : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ .

فالآية الكريمة من تنمة قولهم .

والاستفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته ، وظهور أماراته ووضوح أدلته وشواهدة .

والمعنى : وأى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وبما جاءنا على لسان رسوله محمد ﷺ من قرآن يهدى إلى الرشده ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا - مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقيدة السليمة ، وبالعبادات الصحيحة وبالأخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبى الأسمى محمد ﷺ فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت نفوسهم به تأثرا شديدا ، فاضت معه أعينهم بالدمع ، ثم بعد ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التى تشهد على غيرها يوم القيامة ، ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته ، وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا ﴾ يدل على قوة إيمانهم ، وصدق يقينهم ، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد ، على الدين الحق والمسارة إلى العمل الصالح ، لم يجزموا بحسن عاقبتهم ، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع فى مغفرته وفى أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد ﷺ .

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه ، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء .

ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئا عظيما ، عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم ، جنات تجرى من تحت بساطينها وأشجارها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : باقين فى تلك الجنات بقاء لاموت معه ، ﴿ وَذَلِكَ ﴾ العطاء الجزيل الذى منحه الله لهم ﴿ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : المؤمنين المخلصين فى أقوالهم وأعمالهم .

والمراد بقوله : ﴿ بِمَا قَالُوا ﴾ ماسبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من قولهم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ورتب الثواب المذكور على القول : لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم ، وعلى صدق يقينهم ، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان .

وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا ، بل أكبر مما طلبوا ، فقد كانوا يطعمون فى أن يكونوا مع القوم الصالحين ، وأن يكتبهم مع الشاهدين ، فأعطاهم - سبحانه - جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وسماهم محسنين ، والإحسان أعلى درجات الإيمان ، وأكرم أوصاف المتقين .

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فأمنوا به ، وقالوا ما قالوا بما يشهد بصفاء نفوسهم ، أما الذين سمعوا فأعرضوا وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيئ بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

أى : والذين كفروا وجحدوا الحق الذى جاءهم ، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم ، أى : النار الشديدة الاتقاد ، يقال : جحمت فلان النار إذا شدد إيقادها .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى ، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا فى الدين الحق بسرعة ورغبة ، فأكرمهم الله غاية الإكرام ، وهذا ينطبق على كل نصرانى ينهج نهجهم ، ويسلك مسلكهم ، فيدخل فى الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون .

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير .

## موقف مشركى قريش من عيسى - عليه السلام -

مدح النبى ﷺ إخوانه من الرسل السابقين مدحا عظيما ، وأثنى على أخيه عيسى ابن مريم ثناء مستطابا ، وقال فى شأنه «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الأولى والآخرة ، وليس بينى وبينه نبى» .

ولكن مشركى قريش كانوا يقابلون مايقوله الرسول ﷺ بالجحود والعناد .  
ومن الآيات التى حكى موقفهم السيىء من عيسى - عليه السلام - قوله - تعالى - :

وَمَا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾  
وَقَالُوا هَذَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ لِأَجْدَالٍ لَّأَبَلٍ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾  
إِنْ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾  
وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعَالِمٌ  
لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصِدُّكُمْ  
الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ  
قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا  
اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْيَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ  
مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ  
عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ ﴿٦٤﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ  
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ۗ ﴾ روايات منها أنه لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ۗ ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد ﷺ إلا أن نتخذة إلهًا ، كما اتخذت النصرى عيسى ابن مريم فأنزل الله - تعالى - ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ۗ ﴾ .

وقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن هذه الآية ، نزلت فى مجادلة ابن الزبيرى - قبل أن يسلم - مع النبى ﷺ فإنه لما نزل قوله - تعالى - ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۗ ﴾ .

قال ابن الزبيرى خصمتك - يا محمد - ورب الكعبة - أليست النصرى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيزا ، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء فى النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا فى النار؟

فقال له النبى ﷺ : « ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن ﴿ ما ﴾ لما لا يعقل؟» وفى رواية أنه ﷺ قال له : «إنهم يعبدون الشيطان» وأنزل الله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ۗ ﴾ (١) وكلمة ﴿ يَصِدُونَ ﴾ قرأها الجمهور بكسر الصاد ، وقرأها ابن عامر والكسائى بضم الصاد ، وهما بمعنى واحد ، ومعناها : يضجون ويصيحون فرحا ، يقال : صد يصد - بكسر الصاد وضمها - بمعنى ضج - كعكف - بضم الكاف وكسرها .

ويرى بعضهم أن ﴿ يَصِدُونَ ﴾ - بكسر الصاد - بمعنى : يضجون ويصيحون ويضحكون ، وأن - ﴿ يَصِدُونَ ﴾ بضم الصاد - بمعنى يعرضون ، من الصد بمعنى الإعراض عن الحق .

والمعنى : وحين ضرب ابن الزبيرى ، عيسى ابن مريم مثلا ، وحاجك بعبادة النصرى له ، فاجأك قومك - كفار قریش - بسبب هذه الحاجة ، بالصياح والضجيج والضحك ، فرحا منهم بما قاله ابن الزبيرى ، وظنا منهم أنه قد انتصر عليك فى الخصومة والمجادلة .

والمراد بالمثل هنا : الحجة والبرهان .

ثم بين - سبحانه - أقوالهم التى بنوا عليها باطلهم فقال : ﴿ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۗ ﴾؟ والضمير ﴿ هو ﴾ يعود إلى عيسى - عليه السلام - .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٢٢٠ ، والشوكانى ج٤ ص ٥٦١ ، والآلوسى ج٢٥ ص ٩٤ .

ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى - عليه السلام - على آلهتهم ، مجازاة للنبي ﷺ .  
فكانهم يقولون : لقد أخبرتنا بأن عيسى بن مريم رسول من رسل الله - تعالى - وأنه  
خير من آلهتنا ، فإن كان في النار يوم القيامة لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا  
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. ﴾ فقد رضيْنَا أن نكون نحن وآلهتنا في النار .  
وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ .

أى : لآلهتهم - أيها الرسول الكريم - بما قالوه ، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثال بعيسى إلا  
من أجل مجادلتك بالباطل ، وليس من أجل الوصول إلى الحق .

وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مؤكد لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل  
بالباطل ، لا لطلب الحق ، وإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم في خصومتهم .

أى : ذرهم - أيها الرسول الكريم - في باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم مجبولون على  
الخصومة ، وعلى اللجاج في الباطل .

فقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ جمع خصم - بفتح فكسر - وهو الإنسان المبالغ في  
الجدل والخصومة ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق .

وجاء التعبير في قوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ بصيغة الجمع ، مع أن ضارب المثل  
واحد ، وهو ابن الزبعرى ، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ، من الأساليب المعروفة  
في اللغة العربية ، ومنه قول الشاعر :

فَسَيْفُ بَنِي عَبَسَ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ نَبَا بِيَدِي وَرَقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدٍ

فإنه قد نسب الضرب إلى جميع بني عبس ، مع تصريحه بأن الضارب واحد ، وهو  
ورقاء ، ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى في قوله ، فكانهم جميعاً قد قالوه .

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا  
عَلَيْهِ ﴾ .

أى : ليس هو أى : عيسى - عليه السلام - إلا عبد من عبادنا الذين أنعمنا عليهم  
بنعمة النبوة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا ﴾ أى : أمراً عجيباً ، جديراً بأن يسير ذكره كالأمثال ﴿ لِنَبِيِّ  
إِسْرَائِيلَ ﴾ الذين أرسلناه إليهم ، حيث خلقناه من غير أب ، وأعطيناه المعجزات الباهرات  
التي منها : إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وهذا كله دليل على  
وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ونفاذ إرادتنا .

فالأية الكريمة ترفع من شأن عيسى - عليه السلام - وتحدد منزلته ، وتنفي عنه غلو المغالين في شأنه ، وإنقاص المنقصرين من قدره .  
ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ ﴾ .

و«من» في قوله - تعالى - ﴿ مِنْكُمْ ﴾ يصح أن تكون للبدلية ، فيكون المعنى : ولو نشاء إهلاككم أيها الكافرون لفعلنا وجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم ، ولكننا لم نشأ ذلك لحكم نحن نعلمها .

ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى : ولو نشاء لجعلنا منكم يا رجال قريش ملائكة ، بطريق التوليد منكم ، من غير واسطة نساء ، فهذا أمر سهل علينا ، مع أنه أعجب من حال عيسى الذي تستغربونه ، لأنه جاء من غير أب ، مع أن الأم من طبيعتها الولادة .

فالمقصود بالأية الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء ، وأن ما تعجبوا منه ، الله - تعالى - قادر على أن يأتي بما هو أعجب منه .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا ﴾ لقدرتنا على خلق عجائب الأمور وبدائع الفطر ، ﴿ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أى : لولدنا منكم يا رجال ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ يخلفونكم فى الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام ، وذات الله - تعالى - متعالية عن ذلك .<sup>(١)</sup>  
ثم بين - سبحانه - بعض ما يتعلق بعيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ .

فالضمير فى ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعود إلى عيسى لأن السياق فى شأنه ، وقيل يعود إلى القرآن أو إلى الرسول ﷺ وضعف ذلك لأن الكلام فى شأن عيسى .  
والمراد بالعلم : العلامة ، واللام فى قوله : ﴿ لِلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى على ، والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : وإن عيسى - عليه السلام - عند نزوله من السماء فى آخر الزمان حيا ، ليكون علامة على قرب قيام الساعة ، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك أن تقع .

قال الألوسى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : عيسى - عليه السلام - ﴿ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ أى : بنزوله شرط من أشرطها .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ٢٦١ .

وقد نطقت الأخبار بنزوله - عليه السلام - فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لينزلن ابن مريم ، حكما عدلا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد .<sup>(١)</sup>

وقال ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الصحيح أن الضمير يعود على عيسى فإن السياق فى ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال - تعالى - ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ .. ﴾ أى : قبل موت عيسى .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : « أنه أخبر بنزول عيسى قبل يوم القيامة ، إماما عادلا ، وحكما مقسطا » .<sup>(٢)</sup>

وقوله : ﴿ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا ﴾ أى : فلا تشكن فى وقوعها فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فقوله : ﴿ تَمْتَرَنَّ ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب .

وقوله : ﴿ وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى : واتبعوا - أيها الناس - ما جئتكم به من عند ربى ، فإن هذا الذى جئتكم به ، هو الطريق المستقيم الذى يوصلكم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ ﴾ أى : ولا يمنعكم الشيطان بسبب وسوسته لكم ، عن طاعتى واتباعى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أى : إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة ، وكيدته لكم واضح ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى - عليه السلام - لقومه ، عندما بعثه الله إليهم فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ .

والبيّنات : جمع بينة وهى صفة لموصوف محذوف ، والمراد بها : المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها عيسى - عليه السلام - .

والمراد بالحكمة : التشريعات ، والتكاليف والمواعظ التى أرشدهم إليها ، عن طريق الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - إليه ، وهو الإنجيل .

(١) تفسير الألوسى ج٢٥ ص ٩٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٧ ص ٢٢٣ .

أى : وحين جاء عيسى - عليه السلام - إلى قومه ، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحات التى تشهد بصدقى وجئتكم بالإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ .

وقوله : ﴿ وَالْأَبِين لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ متعلق بمحذوف والتقدير :

قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، وجئتكم - أيضا - لأبين لكم لأصحح لكم بعض الأمور التى تختلفون فيها .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَالْأَبِين لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ولم يقل كل الذى تختلفون فيه ، للإشعار بالرحمة بهم ، وبالستر عليهم ، حيث بين البعض وترك البعض الآخر لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا بين لهم كل الذى يختلفون فيه ؟ قلت : كانوا يختلفون فى الديانات ، وما يتعلق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعينهم من أمر دينهم .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، فاتقوا الله - تعالى - بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وبأن تطيعونى فى كل ما أمركم به أو أنهاكم عنه .

وإن الله - تعالى - هو ربى وربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمركم به أو أنهاكم عنه ، هو الطريق القويم ، الذى يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية

ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى - عليه السلام - فقال : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ .. ﴾ .

والأحزاب : جمع حزب ، والمراد بهم الفرق التى تحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى .

وضمير الجمع فى قوله : ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ يعود إلى من بعث إليهم عيسى - عليه السلام - من اليهود والنصارى .

وقيل : يعود إلى النصارى خاصة ، لأنهم هم الذين اختلفوا فى شأنه ، فمنهم من قال : هو الله ، ومنهم من قال : هو ابن الله ، ومنهم من قال : ثالث ثلاثة .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ١٦٢ .

قال الألوسى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى : الفرق المتحزبة ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ .

أى : من بين من بعث إليهم ، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته - عليه السلام - .

وقيل : المراد النصارى ، وهم أمة إجابته ، وقد اختلفوا فرقا : ملكانية ، ومسطورية ، ويعقوبية . (١)

وقوله - تعالى - : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ بيان للعقاب الشديد الذى أعده الله - تعالى - لهم ، بسبب اختلافهم وبغيهم ، ونسبتهم إلى عيسى ماهو برىء منه .

أى : فهلاك وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبافترائهم على عيسى - عليه السلام - وما أشد حسرتهم فى هذا اليوم العصيب .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ للنفى .

وينظرون بمعنى : ينتظرون ، والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق .

أى : ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة ، وهذا القيام سيأتيهم فجأة ، وبدون شعور منهم بها ، وحينئذ يندمون ولن ينفعهم الندم ، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذى جاءهم به رسولنا ﷺ قبل فوات الأوان .

فالآية الكريمة دعوة لهؤلاء المشركين إلى الاستجابة للرسول ﷺ إذا دعاهم لما يصلحهم ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على جدالهم بالباطل وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وبينت الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - وتوعدت المختلفين فى أمره - اختلافا يتنافى مع ما جاءهم به - بالعذاب الشديد .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٥ ص ٩٧ .

## بشارة عيسى - عليه السلام -

### برسالة محمد ﷺ

فى سورة «الصف» آية كريمة واضحة كل الوضوح فى أن عيسى بن مريم - عليه السلام - قد بشر قومه الذين بعث فيهم ، بأن رسولا من بعده سيأتى للناس بالهدى ودين الحق ، وهذا الرسول هو سيدنا محمد ﷺ وهذه الآية هى قوله - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر الناس ليعتبروا ويتعظوا وقت أن قال عيسى ابن مريم ، مخاطبا من أرسله الله إليهم بقوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ لكى أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد .

ولم يقل لهم يا قوم - كما قال لهم - موسى - عليه السلام - بل قال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لأنه لا أب له فيهم ، وإن كانت أمه منهم ، والأنساب إنما تكون من جهة الآباء ، لا من جهة الأمهات .

وفى قوله : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ إخبار صريح منه لهم ، بأنه ليس إلها وليس ابن إله - كما زعموا وإنما هو عبدالله ورسوله .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته ، وحض لهم على تأييده وتصديقه والإيمان به .

أى : إنى رسول الله - تعالى - إليكم بالكتاب الذى أنزله الله على وهو الإنجيل ، حال كونى مصدقا للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - وهذا الكتاب هو التوراة ، ومادام الأمر كذلك فمن حقى عليكم ، أن تؤمنوا به ، وأن تتبعونى

لأنى لم أتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على ما يدل على صدقى فكيف تعرضون عن دعوتى .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ ﴾ فيه نوع مجاز ، لأن ما بين يدي الإنسان هو ما أمامه ، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واشتهاره .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ معطوف على ما قبله .

والتبشير : الإخبار بما يسر النفس ويبهجها ، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان ، وكان إخبارهم بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه أحمد تبشيرا ، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم ، ويرفع الأغلال عنهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ولفظ ﴿ أَحْمَدُ ﴾ اسم من أسماء نبينا ﷺ وهو علم منقول من الصفة ، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها : أنه ﷺ أكثر حمدا لله - تعالى - من غيره .

ويصح أن تكون من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمده الناس لأجل ما فيه من خصال الخير ، أكثر مما يحمدون غيره .

قال الألوسى : وهذا الاسم الجليل ، علم لنبينا محمد ﷺ وصح من رواية مالك ، والبخارى ، ومسلم ، عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لى أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب» . (١)

وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا محمد ﷺ ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة ، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من هذه البشارة ، فيسبب ما اعترأها من تحريف وتبديل على أيدي علماء أهل الكتاب .

ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة فى بعض الأناجيل ، كإنجيل يوحنا فى الباب الرابع عشر .

قال الإمام الرازى : فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبى ، حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٨ ص ٨٦ .

والفارقليط هو روح الحق واليقين (١).

ومنهم من يرى أن لفظ فارقليط معناه باليونانية : أحمد أو محمد (٢).

ومن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل ، قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (٣).

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بيان لموقف بنى إسرائيل الجحودى من أنبياء الله - تعالى - .

والضمير فى قوله : ﴿ جَاءَهُمْ ﴾ يرى بعضهم أنه يعود لعيسى ، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد ﷺ أى : فلما جاء عيسى - عليه السلام - أو محمد ﷺ إلى بنى إسرائيل بالآيات البينات الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والجحود : هذا سحر واضح فى بابه ، لا يخفى على أى ناظر أو متأمل .

ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى - عليه السلام - وكفروا به ونسبوا إلى أمه الطاهرة ، ماهى بريئة منه ، ومنزهة عنه .

كما كذبوا محمدا ﷺ وكفروا به ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . [البقرة : ٨٩]

ووصفوا ما جاء به بأنه سحر مبين ، على سبيل المبالغة فكأنهم يقولون إن ما جاء به هو السحر بعينه ، مع أنهم يعرفون أن ما جاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن ما جبلا عليه من جحود وعناد ، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق .

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٣٩ .

(٢) راجع تفسير القاسمى ج ١٦ ص ٥٧٨٨ .

(٣) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف الآية ١٥٧ ص ٣٩٠ .

# رفع الله - تعالى - لرسوله عيسى بن مريم - عليه السلام -

حديث القرآن الكريم عن رفع الله - تعالى - لعبده ورسوله عيسى بن مريم - عليه السلام -  
ورد في آيات متعددة منها قوله - تعالى - في سورة آل عمران :

إِذْ قَالَ

اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَقِيكَ وَرَافِعِكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ  
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ  
كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ  
مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ  
أُجْرَهُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

وللعلماء في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَقِيكَ وَرَافِعِكَ إِلَيَّ ﴾  
أقوال كثيرة أشهرها قولان :

أما القول الأول : وهو قول جمهور العلماء - فيرى أصحابه أن معنى ﴿ ابْنِي مَتْوَقِيكَ وَرَافِعِكَ إِلَيَّ ﴾  
أى : قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك لتستوفى  
حظك من الحياة هناك .

وأصحاب هذا الرأي لا يفسرون التوفى بالموت وإنما يقولون : إن التوفى في اللغة معناه  
أخذ الشيء تاما وافيا ، فمعنى ﴿ مَتْوَقِيكَ ﴾ أخذك وافيا بروحك وجسدك ومعنى  
﴿ وَرَافِعِكَ إِلَيَّ ﴾ ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء فالعطف للتفسير ، يقال : وفيت  
فلانا حقه أى : أعطيته إياه وافيا فاستوفاه وتوفاه أى أخذه وافيا كاملا .

قال القرطبي: «قال الحسن وابن جريج: معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته» (١).

أما القول الثاني: وهو قول قلة من العلماء - فيرى أصحابه أن معنى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي يميتك ورافع منزلتك وروحك إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي كما ترفع أرواح الأنبياء إليه - سبحانه . .

فأنت ترى أن أصحاب هذا الرأي يفسرون التوفى بالإماتة، ويقولون إن هذا التفسير هو الظاهر من معنى التوفى ويفسرون ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بمعنى رفع الروح إلى السماء .  
أي: أن الله - تعالى - قد توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها، ورفع روحه إليه كما يرفع أرواح النبيين .

والذي تسكن إليه النفس هو القول الأول لأمر:

أولها: أن قوله - تعالى - في سورة النساء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (٢).

يفيد أن الرفع كان بجسم عيسى وروحه لأن الإضراب مقابل للقتل والصلب الذي أرادوه وزعموا حصوله، ولا يصح مقابلا لهما رفعه بالروح لأن الرفع بالروح يجوز أن يجتمع معهما وما دام الرفع بالروح لا يصح مقابلا لهما إذن يكون المتعين أن المقابل لهما هو الرفع بالجسد والروح .

ثانيها: أن هناك أحاديث متعددة، بلغت في قوتها مبلغ التواتر المعنوي - كما يقول ابن كثير - قد وردت في شأن نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان ليملاها عدلا كما ملئت جورا، وليكون حاكما بشريعة محمد ﷺ ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، يقتل الدجال ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين» (٣).

وظاهر هذا الحديث وما يشابهه من الأحاديث الصحيحة في شأن نزول عيسى، يفيد أن نزوله يكون بروحه وجسده كما رفعه الله إليه بروحه وجسده .

ثالثا: أن هذا القول هو قول جمهور العلماء، وهو القول الذي يتناسب مع ما أكرم الله - تعالى - به عيسى - عليه السلام - من كرامات ومعجزات .

(١) تفسير القرطبي ج٤ ص ١٠٠ .

(٢) الآيتان ١٥٧، ١٥٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٧٨ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وجمهور العلماء على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء ، والخصوصية له - عليه السلام - هي في رفعه بجسده ، وبقاؤه فيها إلى الأمد المقدر له ولا يصح أن يحمل التوفى على الإمامة لأن إمامة عيسى في وقت حصار أعدائه ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها ورفعته إلى السماء جثة هامة سخف من القول ، وقد نزه الله السماء أن تكون قبورا لجثث الموتى ، وإن كان الرفع بالروح فقط فأى ميزة لعيسى في ذلك على سائر الأنبياء ، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة ، فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حيا بجسده ، وكما كان - عليه السلام - في مبدأ خلقه آية للناس ومعجزة ظاهرة ، وكان في نهاية أمره آية ومعجزة باهرة والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشر ومدارك العقول ، وهي من متعلقات القدرة الإلهية ومن الأدلة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .<sup>(١)</sup>

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى للعلماء في معنى هذه الآية الكريمة نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها وخوف الإطالة .<sup>(٢)</sup>

ومعنى الآية الكريمة : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ وقت أن قال الله - تعالى - لنبيه عيسى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أى آخذك ولما بروحك وجسدك من الأرض ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أى : ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء لتستوفى حظك من الحياة هناك إلى أن أذن لك بالنزول إلى الأرض .

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بإبعادك عنهم ، وبإنجائك مما بيتوه لك من مكر سيئ وتبترتكم مما أشاعوه عنك وعن أمك من أكاذيب وأباطيل .

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ﴾ وهم المسلمون الذين آمنوا بك وصدقوك ، وصدقوا بكل نبى بعثه الله - تعالى - بدون تفرقة بين أنبيائه ورسوله .

﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : جاعل هؤلاء المؤمنين فوق الذين كفروا بك وبغيرك من الرسل إلى يوم القيامة .

أى : فوقهم بحجتهم ، وبسلامة اعتقادهم ، وبقوتهم المادية والروحية إلى يوم القيامة . فالمراد بأتباع عيسى هم الذين أخلصوا لله - تعالى - عبادتهم ، وأقروا بوحدانيته - سبحانه - ونزهوا عيسى عن أن يكون ابن الله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الباطلة .

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن ج٩ ص ١٠٩ ص ٢١٣ لفضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف .

(٢) راجع تفسير الألوسى ج٤ ص ١٧٩ ، وتفسير الفخر الرازى ج٨ ص ٧١ .

والمراد بالفوقية ما يتناول الناحيتين الروحية والمادية ، أى هم فوقهم بقوة إيمانهم ، وحسن إدراكهم ، وسلامة عقولهم ، وهم فوقهم كذلك بشجاعتهم وحسن أخذهم للأسباب التى شرعها الله - تعالى - كوسائل للنصر والفوز .

ولذا قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : يعلنونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى (١) .  
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

أى : ثم إلى الله مرجعكم ومصيركم أيها الناس فيتولى - سبحانه - الحكم العادل بينكم فيما كنتم تختلفون فيه فى دنياكم من شئون دينية أو دنيوية .

ثم فصل - سبحانه - هذا الحكم الذى سيحكم به على عباده يوم القيامة فقال :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بى وبما يجب الإيمان به ﴿ فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

أى : فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا بإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم وبما يشبه ذلك من هزائم وأمراض وشقاء نفس لا يعلم مقدار أله إلا الله - تعالى - وأما فى الآخرة فيساقون إلى عذاب النار وبئس القرار .

وقد أكد - سبحانه - شدة هذا العذاب بعدة تأكيدات منها نسبة العذاب إليه - سبحانه - وهو القوى القهار الغالب على كل شىء ، ومنها التأكيد بالمصدر ، ومنها الوصف بالشدّة ، ومنها الإخبار بأنه لناصر لهم ينصرهم ، من هذا العذاب الشديد فى قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر ، وأيا كانت نصرته ولو كانت نصره ضئيلة لا وزن لها ولا قيمة .

هذا هو جزاء الكافرين وأما جزاء المؤمنين فقد بينه - سبحانه - بقوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ .

أى : فسيعطيهم - سبحانه - بفضلهم وإحسانه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، أجورهم كاملة غير منقوصة ، من ثواب جزيل ، جنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة ورضوان من الله أكبر من كل ذلك .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٣٦٧ .

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظمية للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقه .  
 ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .  
 أى : أنه - سبحانه - عادل فى أحكامه ، ويكره الظلم والظالمين الذين لا يضعون الأمور  
 فى مواضعها .

ومن أفحش أنواع الظلم مايقوله أهل الكتاب على عيسى - عليه السلام - فقد زعم  
 بعضهم أنه ابن الله ، وزعم فريق آخر أنه ثالث ثلاثة وافترى عليه اليهود وعلى أمه مريم  
 البتول المفتريات التى برأهما الله - تعالى - منها .

أما الذين آمنوا فقد قالوا فى عيسى وأمه قولا كريما ، ولذلك كافأهم الله - تعالى - بما  
 يستحقون من ثواب .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانبا من فضائل عيسى - عليه السلام - وبينت  
 للناس جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الطريق القويم .

وفى سورة «النساء» آيات كريمة تحدثت عن جانب من الرذائل التى وصف الله - تعالى -  
 - بها الظالمين ، من بنى إسرائيل ، ومن بينها كذبهم على مريم أم عيسى - عليه السلام -  
 وزعمهم أنهم قد قتلوا هذا النبى الكريم .

وهذه الآيات منها قوله - تعالى - :

وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا  
 عَظِيمًا ﴿١٥٥﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ  
 وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا  
 لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٦﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ  
 إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٧﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلْأَيْمَانِينَ بِيَدِهِ قَبْلَ  
 مُؤَيْدِهِمْ وَيَوْمَ الصِّدْقَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٨﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ .. إلخ

ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء أناس  
 من اليهود إلى رسول ﷺ فقالوا : يا محمد ، إن موسى جاء بالألواح من عند الله ، فأتانا  
 أنت بالألواح من عند الله حتى نصدقك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .

والمراد بالكفر فى قوله - تعالى - : ﴿ وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ كفرهم بعيسى

- عليه السلام - وهو غير الكفر المذكور قبل ذلك فى قوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ لأن المراد به هنا مطلق الجحود الذى لا يجعل الشخص يستقر على شىء ، فهو إنكار مطلق للحق .

والبهتان : هو الكذب الشديد الذى لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لغرابته وبعده عن الحقيقة ، يقال : بهت فلان فلانا ، إذا قال فيه قولا يدهشه ويحيره لغرابته وشناعته فى الكذب والافتراء .

والمعنى : إن من أسباب لعن اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم ، كفرهم بعبسى - عليه السلام - وهو الرسول المبعوث إليهم ليهديهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم .

وافترأؤهم الكذب على مريم أم عيسى ، ورميهم لها بما هى بريئة منه ، وغافلة عنه ، فقد اتهموها بالفاحشة لولادتها لعيسى من غير أب ، وقد برأها الله - تعالى - ﴿ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ ﴾ (١)

ثم سجل عليهم - سبحانه - بعد ذلك رذيلة أخرى ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد فى كل زمان ومكان فقال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنْنا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنْ شَبَّهُ لَهُمْ ﴾ والمسيح : لقب تشريف وتكريم لعيسى - عليه السلام - قيل : لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم ، وقيل : لأنه مسح بالبركة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب .

أى : وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، لعنهم الله وغضب عليهم ، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضا - بسبب جرائمهم السابقة .

وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة ، لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم - فى زعمهم - نبيا من أنبياء الله ، ورسولا من أولى العزم من الرسل .

وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع ، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلا ، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة ، فسدوا عليه عند الرومان ، ووصفوه بالدجل والشعوذة ، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه ، وحال بينهم أنهم أسلموه فعلا لهم ، ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم ، وأبطل مكرهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون ، حيث

(١) سورة التحريم الآية ١٢ .

نجى عيسى - عليه السلام - من شرورهم ورفعهم إليه دون أن يمسه سوء منهم .

ولاشك أن ما صدر عن اليهود فى حق عيسى - عليه السلام - من محاولة قتله ، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم ، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه ، لاشك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب جريمة من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها ، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته ، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد .

واليهود قد اتخذوا جميع الطرق لقتل عيسى - عليه السلام - كما بينا - وحيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم ، ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها ، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره ، وفى نيته ، وفى شروعه الأثيم ، لارتكاب ما نهى الله عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كانوا كافرين بعيسى - عليه السلام - أعداء له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فكيف قالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ؟

قلت : قالوه على وجه الاستهزاء ، كقول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم ، رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به ، وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله : ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ (١)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنَّ شِبْهَ لَهُمْ ﴾ رد على مزاعمهم الكاذبة ، وأقاولهم الباطلة التى تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - أى : إن ما قاله اليهود متفاخرين به ، وهو زعمهم أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم ، فإنهم ما قتلوه ، وما صلبوه ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه عيسى - عليه السلام - فى الخلقة فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه ، ثم قالوا إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله .

قال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ ﴾ زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال : ﴿ وَلَكِنَّ شِبْهَ لَهُمْ ﴾ أى : شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٥٨٧ .

ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه ، يظنونه المسيح وما هو فى الواقع ، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء ، ونجاه من شر الأعداء .

وقيل المعنى : ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهمهم بذلك أحبارهم .<sup>(١)</sup>

هذا ، وللمفسرين فى بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان :

الأول : أن الله - تعالى - ألقى شبه عيسى - عليه السلام - على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو «يهودا الإسخرىوطى» الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح ، والذى أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه ، وقال لهم : من أقبه أمامكم يكون هو المسيح ، فاقبضوا عليه لتقتلوه فدخل بيت عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى ، وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى .

وهذا الوجه قد جاء مفصلا فى بعض الأناجيل وأشار إليه الألوسى بقوله : كان رجل من الحواريين ينافس عيسى - عليه السلام - فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما ، فدخل بيت عيسى - عليه السلام - فرفع الله عيسى ، وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه ، وهم يظنون أنه عيسى .<sup>(٢)</sup>

الثانى : أن الله - تعالى - ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حينما أجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه ، فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى عليه شبيهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا ، فألقى الله صورة عيسى عليه ، فقتل ذلك الرجل وصلب .

وقد أطال الإمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه ، ومنه قوله : عن ابن عباس قال : لما أراد الله - تعالى - أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فقال لهم إن منكم من يكفر بعدى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى .

قال : ثم قال أيكم يلقى عليه شبيهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى؟

فقام شاب من أحدثهم سنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام ذلك الشاب .

فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام ذلك الشاب ، فقال : أنا فقال له عيسى ، هو أنت ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء .

قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى

(١) تفسير صفوة البيان ص ١٧٨ لفضيلة الاستاذ الشيخ حسين مخلوف .

(٢) تفسير الألوسى ج ٦ ص ١٠ .

عشرة مرة بعد أن آمن ، قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس ، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية ، وقال غير واحد من السلف : أنه قال لهم : أيكم يلقي عليه شبيهي فيقتل مكاني وهو رفيقي في الجنة؟<sup>(١)</sup>

والذي يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام - لم يقتل ولم يصلب ، وإنما رفعه الله إليه ، ونجاه من مكر أعدائه ، أما الذي قتل وصلب فهو شخص سواه .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ أى : وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك من حقيقة أمره ، أى : فى حيرة وتردد ، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه ، أو فى شأن قتله ، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة ، ولا يقوم عليه برهان . ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيرا ، فمنهم من زعم أنه ابن الله ، وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى ، ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى . ومنهم من قال : إن مريم ولدت العنصرين معا .

ولقد اختلفوا فى أمر قتله ، فقال بعض اليهود : إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقيا ، وتردد آخرون فقالوا : إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا ، وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

وقال آخرون : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا .

إلى غير ذلك من خلافاتهم التى لا تنتهى حول حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه .<sup>(٢)</sup>

وقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ تأكيد لنجاة عيسى مما يزعمونه من قتلهم له ، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف .

واليقين : هو العلم الجازم الذى لا يحتمل الشك والضمير فى قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ لعيسى

وقوله : ﴿ يَقِينًا ﴾ ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشهرها : أنه نعت لمصدر محذوف

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص .

(٢) إذا أردت المزيد من معرفة المسألة فراجع تفسير القاسمى ج٥ ص١٦٢٩ إلى ص١٧١٦ ، وتفسير المنار ج٦ ص٢٣ إلى ص٥٩ .

مأخوذ من لفظ قتلوه : أى : ما قتلوه قتلا يقينا ، أى متيقنين معه من أن المقتول عيسى - عليه السلام - وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم .

أو هو حال مؤكدة لنفى القتل ، أى انتفى قتلهم إياه انتفاء يقينا ، فاليقين منصب على النفى ، أى : أن نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به ، وليس ظنا كظنكم أو وهما كوهمكم يا معشر أهل الكتاب .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك بقوله : قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أى : وما قتلوه قتلا يقينا ، أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ ﴾ أو يجعل ﴿ يَقِينًا ﴾ تأكيدا لقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ كقولك : ما قتلوه حقا ، أى حق انتفاء قتله حقا .

والمعنى : أن اليهود قد زعموا أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - وزعمهم هذا أبعد مايكون عن الحق والصواب ، لأن الحق المتيقن فى هذه المسألة أنهم لم يقتلوه ، فقد نجاه الله من مكرهم ، ورفع عيسى إليه ، وكان الله ﴿ عَزِيزًا ﴾ أى منيع الجناب ، لا يلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه ، ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور .

هذا ، وجمهور العلماء على أن الله - تعالى - رفع عيسى إليه بجسده وروحه لابروحه فقط .

﴿ وَإِنْ ﴾ فى قوله - سبحانه - ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ نافية بمعنى ما النافية ، والمخبر عنه محذوف قامت صفة مقامه ، أى : وما أحد من أهل الكتاب ، وحذف أحد لأنه ملحوظ فى كل نفى يدخله الاستثناء ، نحو : ما قام إلا زيد ، أى ما قام أحد إلا زيد .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهات :

الأول : أن الضمير فى قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى عيسى - عليه السلام - وعليه يكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى - عند نزوله فى آخر الزمان - حق الإيمان ، ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أى : قبل موت عيسى ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ ﴾ عيسى - عليه السلام - ﴿ عَلَيْهِمُ ﴾ أى : على أهل الكتاب ﴿ شَهِيدًا ﴾ فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده ، وأنه قد نهاهم عن الإشراف معه آلهة أخرى .

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير ، فقد قال -

بعد سرد الأقوال فى الآية - : وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال ، تأويل ذلك : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى .<sup>(١)</sup>

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقوله : ولاشك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح ، لأن المقصود من سياق الآيات ، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وبطلان تسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فقد أخبر الله - تعالى - أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إن الله - تعالى - رفع إليه عيسى - وإنه باق حى ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة .

ثم عقد ابن كثير فصلا عنونه بقوله : ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

ثم ساق ابن كثير من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها» .

ثم يقول أبوهريرة : اقرؤا إن شئتم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ .<sup>(٢)</sup>

أما الاتجاه الثانى : فيرى أصحابه أن الضمير فى قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ وعليه يكون المعنى .

وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى ، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى له الحق ، ويتبين له صحة ما كان ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى - عليه السلام - ويشهد بأنه عبدالله ورسوله ، وأن الله واحد لا شريك له ، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه ، لأنه جاء فى وقت الغرغرة ، وهو وقت لا ينفع فيه الإيمان ، لانقطاع التكليف فيه .

والذى نراه أنه لا تعارض بين التأويلين ، فإن كلا منهما حق فى ذاته .

إذ كل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقا فى نبوته ، وأنه عبدالله ورسوله ، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله - تعالى - وحده .

وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمنن به ويتبعه ، ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه .

(١) تفسير ابن جرير ج٢ ص ٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٧٧ - بتصرف يسير .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد سمت بمنزلة عيسى - عليه السلام - وبينت أن الله - تعالى - قد رفعه إليه علي سبيل التشريف والتكريم له - عليه السلام - .

وبعد : فهذه قصة مريم وابنها عيسى - عليه السلام - كما وردت في القرآن الكريم - وهي قصة زاخرة بالدروس النافعة والعظات البليغة من أهمها :

( أ ) أن مريم ابنة عمران قد شرفها خالقها - عز وجل - تشريفا عظيما ، وكرمها تكريما كبيرا ، حيث اختارها لخدمة بيته ، وأبنتها نباتا حسنا ، ويكفيها فخرا وشرفا قوله - تعالى -  
فِي شَأْنِهَا : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ  
بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ ﴾ .

أى : واذكر بالتشريف والتكريم - أيها العاقل - مريم ابنة عمران - التي اعتصمت بالعفاف والطهر طول مدة حياتها ، فقد أمرنا أمين وحيننا جبريل أن ينفخ في جزء من جسدها الطاهر ، فامتثل لأمرنا ، فحملت بعبدنا ونبينا عيسى - عليه السلام - وكان من صفاتها أنها آمنت إيمانا عميقا بشريعة خالقها وبدينه وبكتبه التي أنزلها على أنبيائه ، وكانت من نسل الرجال القانتين الذين بذلوا أقصى جهدهم في طاعة الله وإخلاص العبادة له .

( ب ) أن عيسى بن مريم - عليه السلام - هو عبد من عباد الله الصالحين الذين أنعم الله - تعالى - عليهم ، وشرفهم بالرسالة والنبوة ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، فبلغ رسالة ربه ، حيث أمر بإخلاص العبادة والطاعة لله الواحد القهار ، وأنه هو وأمه مريم كانا من أعظم الأدلة على قدرة الله التي لا يعجزها شيء ، كما قال - سبحانه - ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

أى : وجعلنا نبينا عيسى - عليه السلام - كما جعلنا أمه مريم ، آية واضحة ، وحجة عظيمة في الدلالة على قدرتنا النافذة التي لا يعجزها شيء ، ومن مظاهر تكريمنا ورعايتنا لهما ، أننا آويناها وأسكناهما في جهة مرتفعة من الأرض ، وهذه الجهة ذات استقرار وصلاحيه للسكن فيها لوجود الزروع والثمار بها ، وذات مياه تنساب فيها بقدرتنا ورحمتنا .

قالوا : والمراد بهذه الربوة بيت المقدس بفلسطين .

( ج ) أن عيسى - عليه السلام - وأمّه مريم ، بريئان كل البراءة مما نسبته الضالون والجاحدون إليهما من كل مالا يليق ، وأنهما عبدان من عباد الله - تعالى - الصالحين ، الذين شرفهم تشريفا عظيما .

وما زعمه الجاهلون في شأن عيسى - عليه السلام - من أنه ابن الله ، أو هو الله ، هو زعم كاذب لا أساس له من النقل الصحيح أو العقل السليم وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ .. ﴾ [المائدة : ٧٥] .

( د ) أن الذين أرسل الله - تعالى - إليهم نبيه عيسى - عليه السلام - كان منهم المؤمنون الصادقون ، الذين ثبتوا على إخلاص العبادة والطاعة لخالقهم - عز وجل - . وكان منهم الذين آمنوا بعيسى - عليه السلام - ولكنهم ابتدعوا في الدين أشياء ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان منهم الفاسقون الذين انحرفوا عن طريق الحق ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله .

قال - تعالى -

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧]

نسأل الله - عز وجل - أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم .

## من قصص القرآن الكريم

كما اشتمل القرآن الكريم على قصص الأنبياء الكرام مع من أرسلوا إليهم ، اشتمل - أيضا - على قصص أخرى لغيرهم .

وفى هذه القصص جميعها مافيهما من العبر والعظات لقوم يعقلون ، وصدق الله - تعالي - إذ يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

ومن القصص التي تحدث عنها القرآن الكريم - سوى قصص الأنبياء : قصة أصحاب الكهف ، وقصة أصحاب الأخدود ، وقصة أصحاب الجنة ، وقصة أصحاب القرية ، وقصة أصحاب الفيل ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة ذى القرنين ، وقصة سيل العرم ..

وغير ذلك من القصص القرآني ، الذي يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وهاك الحديث المفصل عن كل قصة كما وردت في القرآن الكريم .

## ١. قصة أصحاب الكهف

١ - وردت قصة أهل الكهف في قوله - تعالى - في سورة «الكهف» :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا  
مِنَ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوْىُّ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا  
مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهِيَئًا لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارْشِدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ  
فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ لِقَامَهُمْ مِنَ الْخَزَائِنِ أَعْصَىٰ لِمَا  
لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

قال الإمام الرازي : «اعلم أن القوم من قريش تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ،  
وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان ، فقال - تعالى - : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ  
أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب  
فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات  
وحيوان ومعادن ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جزرا خالية من الكل ، كيف يستبعد من  
قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم» . (١)  
وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست  
شيئا عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات ملخصها : أن قريشا  
بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم :  
سلوهم عن محمد ﷺ ووصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ،  
وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢١ ص ٨٢ .

ﷺ فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن ، فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من خبرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجب .  
وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغرب ماذا كان من خبره؟ وسلوه عن الروح ، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا ، ثم سألوه عما قالته لهم يهود .  
فقال لهم رسول الله ﷺ سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن - أى : ولم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معابته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . (١)

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ للرسول ﷺ ويدخل فيه غيره من المكلفين .

والكهف : هو النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .

والمراد به هنا : ذلك الكهف الذى اتخذه هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقيم فقد ذكروا فى المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلبهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادى الذى كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التى خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذى كتبت فيه أسماءهم وأنسابهم وقصتهم ، فىكون الرقيم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - ومأخوذ من رقت الكتاب إذا كتبه .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٢ .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ . كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ (١) أى مكتوب .

قال بعض العلماء : «الظاهر أن اصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين : أحدهما : معطوف على الآخر ، خلافا لمن قال إن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى ، وأن الله قصص على نبيه فى هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر شيئا عن أصحاب الرقيم ، وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت ، وهم البار بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر ، وقصتهم مشهورة ثابتة فى الصحيح ، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى» . (٢)

والمعنى : أظننت - أيها الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا؟ لا ، لا تظن ذلك فإن قدرتنا لا يعجزها شيء .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم فى الكهف ، فقال : ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

و ﴿ إِذْ ﴾ هنا ظرف منصوب بفعل تقديره : اذكر

و ﴿ أَوْى ﴾ فعل ماض - من باب ضرب - تقول : أوى فلان إلى مسكنه يأوى ، إذا نزله بنفسه ، واستقر فيه .

و ﴿ الْفِتْيَةُ ﴾ : جمع قلة لفتى ، وهو وصف للإنسان عندما يكون فى مطلع شبابه .

وقوله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر وتقريبه وتسهيله حتى لا يخالطه عسر أو مشقة .

والمراد بالأمر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهلهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه ، وهو ضد الغى ، يقال : رشد فلان يرشد رشدا ورشادا ، إذا أصاب الحق .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شيء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : يا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدي

(١) سورة المطففين الآيات ١٨ - ٢٠ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج٤ ص ٢٠ .

بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وتردُّ بها الفتن عنا ، كما نسألك يا ربنا أن تهيبىء لنا من أمرنا الذى نحن عليه - وهو : فرارنا بديننا ، وثباتنا على إيماننا - ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك .

وقال - سبحانه - : ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ ﴾ بالإظهار - مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة وللتنصيب على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب فى مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شىء فى سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل ﴿ أَوْى ﴾ يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف ، ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وأثروه على مساكنهم المريحة ، لأنه وارا هم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالفاء فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ ۝ ﴾ يدل على أنهم بمجرد استقرارهم فى الكهف ابتهلوا إلى الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير .

والتنوين فى قوله : ﴿ رَحْمَةً ﴾ للتحويل والتنويع ، أى : آتنا يا ربنا من عندك وحدك لا من غيرك ، رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا وشئوننا ، فهى تشمل الأمان فى المنزل ، والسعة فى الرزق ، والمغفرة للذنوب .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والأوطان ، خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .<sup>(١)</sup>

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ، وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير ، فقال : ﴿ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكُهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ﴾ .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة .

يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذى غشاهم الله - تعالى - به فصاروا لا يسمعون شيئا مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية فى الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم فى الكهف حجبا ثقيلا مانعا من السماع ، فصاروا لا يسمعون

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٣٦٠ .

شيئا يوقظهم ، واستمروا فى نومهم العميق هذا ﴿ سِنِينَ ﴾ ذات عدد كثير ، بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .

وخص - سبحانه - الأذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة ، لأن الأذان هى الطريق الأول للتيقظ ، ولأنه لا يثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع .

وقد ورد أن النبى ﷺ عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال فى شأنه : « ذلك رجل قد بال الشيطان فى أذنه » ، أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة ، وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - أى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ ﴿ التَّصَقَّتْ بِهِمُ التَّصَاقًا لِفَكَكَ لَهُمْ مِنْهُ ، وَلا مَهْرَبَ لَهُمْ عَنْهُ .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ .

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشىء من محله وتحريكه بعد سكون ، ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله : ﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم . وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

قيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر ، وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى مكثها هؤلاء الفتية رقودا .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ - أى الفتية : ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ . . . ﴾

قال الآلوسى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ أى : منهم ، وهم القائلون : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ . والقائلون : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾

وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم ، والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت .<sup>(١)</sup>

والمراد بالعلم فى قوله : ﴿ لِنَعْلَمَ .. ﴾ إظهار المعلوم ، أى : ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لاحقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لنميز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .

ولفظ ﴿ أَحْصَى ﴾ يرى صاحب الكشاف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ ﴿ أَمَدًا ﴾ مفعوله ، و«ما» فى قوله : ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ مصدرية فىكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أضبط أمدا - أى مدة - للبثهم فى الكهف .

قال صاحب الكشاف : و﴿ أَحْصَى ﴾ فعل ماض ، أى : أيهم أضبط ﴿ أَمَدًا ﴾ لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ، والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به .<sup>(٢)</sup>

وبعضهم يرى أن لفظ ﴿ أَحْصَى ﴾ صيغة تفضيل ، وأن قوله ﴿ أَمَدًا ﴾ منصوب على أنه تمييز ، وفى إظهار هذه الحقيقة للناس ، وهى أن الله - تعالى - قد ضرب النوم على أذان هؤلاء الفتية ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم ، أقول : فى إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه .

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقنا قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار .

٢ - ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكى لنا قصتهم على سبيل التفصيل والبسط ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

(١) تفسير الألوسى ج٥ ص ٢١٢ .

(٢) راجع الكشاف ج٢ ص ٤٧٤ .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ  
 وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا  
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا  
 ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ  
 بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعَزَّمْتُمُوهُمْ وَمَا  
 يَعْجُدُونَ إِلَّا لِلَّهِ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُنَبِّئُ لَكُمْ  
 مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا ﴿١٦﴾

أى : ﴿ نَحْنُ ﴾ وحدنا يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا  
 لحمته وسداه الحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذى لا يخفى عليه شىء فى  
 الأرض ولا فى السماء .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى ﴾ كلام مستأنف جواب عن سؤال  
 تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل؟

أى : أنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم ، وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بربوبيته -  
 سبحانه - إيمانا عميقا ثابتا ، فزادهم الله ببركة هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية  
 على هدايتهم ، وإيمانا على إيمانهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية  
 كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - أنهم كانوا فتية - أى شبابا - وهم أقبل  
 للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله  
 شبابا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره بقوله : ﴿ وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى ﴾ إلى أن  
 الإيمان يزيد وينقص . (١)

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٩ .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من مظاهر هدايته لهم فقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ .

وأصل الربط: الشد، يقال: ربطت الدابة، أى: شدتها برباط، والمراد به هنا: ما غرسه الله فى قلوبهم من قوة، وثبات على الحق، وصبر على فراق أهليهم، ومنه قولهم: فلان رابط الجأش، إذا كان لا يفرغ عند الشدائد والكروب .

والمراد بقيامهم: عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل، وتصميمهم على ذلك تصميمًا لا ترحزه الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم: وقوفهم فى وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة، دون أن يباليوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبده قومهم، وإعلانهم دين التوحيد، ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال .

قال القرطبي ما ملخصه: قوله - تعالى - ﴿إِذْ قَامُوا﴾ يحتمل ثلاثة معان، أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا ما دعاهم إليه .

والمعنى الثانى فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير ميعاد، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله - تعالى - ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا، إذا عزم عليه بغاية الجد. (١)

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق الذى اهدت إليه، معتزة بالإيمان الذى أشربته، مستبشرة بالإخاء الذى جمع بينها على غير ميعاد، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن استقر الإيمان فى نفوسهم فقال: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ .

أى: أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله - عز وجل - حين قاموا فى وجه أعدائهم، وقالوا بكل شجاعة وجراءة ربنا - سبحانه - هو رب السموات والأرض، وهو خالقهما وخالق كل شىء، ولن نعبد سواه أى معبود آخر .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٦٥ .

ونفوا عبادتهم لغيره - سبحانه - بحرف «لن» للإشعار بتصميمهم على ذلك فى كل زمان ومكان ، إذ النفى بلن أبلغ من النفى بغيرها .

قال الألوسى : وقد يقال : إنهم أشاروا بالجملة الأولى - وهى : ربنا رب السموات والأرض - إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية - لن ندعو من دونه إلها - إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا ، ويقولون بالأول : ﴿ وَكُنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وحكى - سبحانه - عنهم أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وصح أنهم كانوا يقولون ، لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ تأكيد لبراءتهم من كل عبادة لغير الله - تعالى - .

والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه : أشط فلان فى السوم إذا جاوز الحد ، وأشط فى الحكم إذا جاوز حدود العدل : وهو صفة لموصوف محذوف ، وفى الكلام قسم مقدر ، واللام فى «لقد» واقعة فى جوابه و«إذا» حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها ، ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر ، والله لنكونن فى هذه الحالة قد قلنا إذا قولنا شططا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

والآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل على أن من أشرك مع الله - تعالى - إلها آخر يكون بسبب هذا الإشراك قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ . (٢)

ثم حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك استنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ . . . ﴾ .

﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ مبتدأ ، و﴿ قَوْمًا ﴾ عطف بيان وجملة ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ هى الخبر .

(١) تفسير الألوسى ج٥ ص ٢١٩ .

(٢) سورة الحج الآية ٣١ .

﴿لَوْلَا﴾ للتخصيص ، وهو الطلب بشدة والمقصود بالتخصيص هنا : الإنكار والتعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك .  
والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا ، وتعاقدوا على عبادة الله - تعالى - وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار ، والاحتقار لما عليه قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم اتخذوا مع الله - تعالى - أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة ، لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنٍ...﴾ تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لا بد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت (١) .

وشبيهه بهذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله - تعالى - : ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتُّنَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣) .  
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ، ووصفهم إياهم بالظلم فقال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلما من قوم افتروا على الله - تعالى - الكذب ، حيث زعموا أن له شريكا فى العبادة والطاعة ، مع أنه - جل وعلا - منزه عن الشريك والشركاء : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم وضوحا صريحا حاسما ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة ، فقال - تعالى - : ﴿وَإِذْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ .

(١) تفسير الكشاف ج-٢ ص ٤٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٤ .

﴿ إِذِ ﴾ يبدو أنها للتعليل ، والاعتزال : تجنب الشيء سواء أكان هذا التجنب بالبدن أم بالقلب ، و﴿ مَا ﴾ فى قوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ اسم موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله : ﴿ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾ استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى العبادة الأصنام ، و«من» قالوا إنها بمعنى البدلية .

وقوله : ﴿ مَرْفَقًا ﴾ من الارتفاق : بمعنى الانتفاع ، وقرأ نافع وابن عامر مرفقا - بفتح الميم وكسر الفاء .

والمعنى : أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد ، وعقدوا العزم على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا : ولأجل ما أنتم مقدمون عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار ، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله ، لأجل ذلك فالجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى ومستقرا لكم ، ينشر لكم ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ، ويهيبه لكم بدلا من أمركم الصعب ، أمرا آخر فيه اليسر والنفع .

وفى التعبير بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .. ﴾ دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذى لا حدود له ، بربهم - عز وجل - فهم عندما فارقوا أهلهم وأموالهم وزينة الحياة ، وقرروا اللجوء إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، لم ييأسوا من رحمة الله ، بل أيقنوا أن الله - تعالى - سيرزقهم فيه الخير الوفير ، ويسر لهم ما ينتفعون به ، ببركة إخلاصهم وصدق إيمانهم .

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالى من زينة الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، على المكان المليء باللين والرخاء الذى يحس فيه بالخوف على عقيدته .

فالاية الكريمة تدل على أن اعتزال الكفر والكافرين من أجل حماية الدين ، يؤدى إلى الظفر برحمة الله وفضله وعطائه العميم وصدق الله إذ يقول فى شأن إبراهيم - عليه السلام - ﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (١) .

٣ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن استقروا فى الكهف ، وبعد أن ألقى الله - تعالى - عليهم بالنوم الطويل فتقول :

(١) سورة مريم من ٤٨ : ٥٠

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ  
ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ  
ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ  
وَلِيَا مَرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتِنَا ظُحًى وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ  
وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ  
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فَارًا وَكَلِمَتٌ مِنْهُمْ رِعْبًا ﴿١٨﴾

قال الألوسي : قوله : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ .. ﴾ بيان لحالهم بعدما أووا إلى الكهف ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد من يصح ، وهو للمبالغة في الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل المراد الإخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين . (١)

وقوله : ﴿ تَزَاوَرُ ﴾ من الزور بمعنى الميل ، ومنه قولهم : زار فلان صديقه ، أى : مال إليه ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل ، ويقال : فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشيء إذا انحرف عنه .

ومعنى : ﴿ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ﴾ تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم ، من القرض بمعنى القطع والصرم ، يقال : قرض المكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : إنك - أيها المخاطب - لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كهفهم جهة اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك فهى فى الحالتين لاتصل إليهم ، حماية من الله - تعالى - لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرهما ، بأن تغير ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ جملة حالية ، أى : والحال أنهم فى مكان متسع من الكهف وهو وسطه ، والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ومنه قولهم : رجل أفجى ، وامرأة فجواء .

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان لخصهما الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولهما : أن باب ذلك : الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت

(١) تفسير الألوسي ج٥ ص ٢٢ - بتصريف يسير .

الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثانى : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف .<sup>(١)</sup>

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله - تعالى - بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال .

أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من الكهف ، أى : فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ، لأن قوله - تعالى - ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ يشير إلى أنهم مع اتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة - لا تصيبهم الشمس لاعدن الطلوع ولا عند الغروب ، وهذا أمر خارق للعادة ، ويدل على عجب حالهم ، كما أن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمرا عاديا مألوفا .

قال الألوسى : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصيبهم الشمس أصلا ، وإن اختلفوا فى منشأ ذلك واختار جمع منهم أنه لمحض حجب الله - تعالى - الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لاسيما فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة .<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا الرأى الثانى يكون اسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ إلى ما فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم فى متسع من الكهف .

أى : ذلك الذى فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة ، وإرادتنا التى لا يعجزها شىء .

وأما على الرأى الأول فيكون اسم الإشارة مرجعه إلى ما سبق من الحديث عنهم ،

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ٩٩ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٢٣ .

كهدايتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ، وجوئهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية ، إلى غير ذلك مما ذكر - سبحانه - عنهم .

أى : ذلك الذى ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول الكريم - هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، ويوقفه إلى الصواب ، فهو المهتد ، أى : فهو الفائز بالخط الأوفر فى الدارين ، ومن يضلله الله - تعالى - عن الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد - نصيرا ينصره ، ومرشدا يرشده إلى طريق الحق .

كما قال - تعالى - : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . (١)

وكما قال - سبحانه - : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ . (٢)

ثم صور - سبحانه - بعد ذلك مشهدا عجيبا من أحوال هؤلاء الفتية فقال : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

والحسبان بمعنى الظن ، والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم ، والرقود : جم راقد والمراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قدر لك أن تراهم - أيقاظا منتبهين ، والحال أنهم رقاد أى : نيام .

قالوا : وسبب هذا الظن والحسبان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ .

أى : ونحركهم وهم رقاد إلى الجهة التى تلى أيانهم وإلى الجهة التى تلى شمائلهم ، رعاية منا لأجسامهم حتى لا تأكل الأرض شيئا منها بسبب طول رقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب لا يعلمه إلا الله - تعالى - وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحا عنه .

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

ثم بين - سبحانه - حالة كلبهم فقال : ﴿ وَكَلَبُهُمْ بِأَسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ .

والمراد بالوصيد - على الصحيح فناء الكهف قريبا من الباب ، أو هو الباب نفسه ، ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لا يسد وصيدها ، أى : لا يسد بابها .

أى : وكلبهم الذى كان معهم فى رحلتهم ماد ذراعيه بباب الكهف حتى لكأنه يحرسهم ويمنع من الوصول إليهم .

وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهتم بذكره لعدم فائدته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رَعْبًا ﴾ .

أى : لو عاينتهم وشاهدتهم - أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت ، ولملئ قلبك خوفا ورعبا من منظرهم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها : أن صحبة الأخيار لها من الفوائد ما لها .

قال ابن كثير - رحمه الله - ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ، لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب - كما ورد فى الصحيح . . . وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن (١) .

وقال القرطبي - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثنى أبى قال : سمعت أبا الفضل الجوهري فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت - أى القرطبي - إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فى كتابه ، فما ظنك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء ، والصالحين! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال : المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد ، فلقينا رجلا عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ : «ما أعددت لها؟» قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤١ .

صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحببت الله ورسوله : قال ﷺ : «فأنت مع من أحببت» ، وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ «فأنت مع من أحببت» .

قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطمانا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين . (١)

٤ - ثم حكى - سبحانه - حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ  
لَيْسَاءَ لَوْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ  
يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى  
الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ  
وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ  
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلْهُمَّ وَلَنْ تَفْلُحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وقوله - سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لَيْسَاءَ لَوْ بَيْنَهُمْ ﴾ بيان للعلة التى من أجلها بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل .

أى : وكما أنماهم تلك المدة الطويلة بعثناهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكأنهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والاقتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لاينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها إيقاظهم ، وإنما أفرد - سبحانه - بالذكر لاستتباعه لساثر الآثار الأخرى .

ثم حكى - سبحانه - بعض تساؤلهم فقال : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ ﴾ أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا الكهف .

(١) تفسير القرطبي جـ ١٠ ص ٣٧٢ .

فأجابه بعضهم بقوله : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ لظنهم أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم .

ويصح أن تكون أو للشك ، أى : قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم : لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لاندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين .

ثم حكى القرآن أن بعضهم رد علم مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله - تعالى - ﴿ لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ ﴾ . (١)

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال فى الآية : قال قائل منهم ، وهذا واحد وقالوا فى جوابه : لبثنا يوما ، أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة . (٢)

ثم بين - سبحانه - ما قالوه بعد أن تركوا الحديث فى مسألة الزمن الذي قضوه نائمين فى الكهف فقال - تعالى - : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .

أى : كفوا عن الحديث فى مسألة المدة التى نتموها ، فعلمها عند الله ، وابعثوا أحداكم ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ ، أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ التى يوجد بها الطعام الذى نحن فى حاجة إليه ، والتى هى أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا والمراد بها مدينتهم التى كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فرارا بدينهم . ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أى : ومتى وصل المدينة ، فليتفقد أسواقها ، وليختر أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاما ، فيكون الضمير فى «منه» للطعام الأزكى .

ويصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها أى : فليأتكم بدلا منها بطعام تأكلونه ، وليتلف ، أى : وليتكلف اللطف فى الاستخفاء ، والدقة فى استعمال الحيل حال دخوله وخروجه من المدينة ، حتى لا يعرفه أحد من أهلها .

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٢٢٩ .

(٢) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٥٣٤ .

﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى : ولا يفعلن فعلا يؤدي إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ تعليل للأمر والنهي السابقين .

أى : قولوا لمن تختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أركى الطعام ، وعليه كذلك ألا يخبر أحدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أى : يطلعوا عليكم ، أو يظفروا بكم .

وأصل معنى ظهر ، أى : صار على ظهر الأرض ، ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل تارة فى الاطلاع ، وتارة فى الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أى : إن يعرفوا مكانكم يرموكم بالحجارة حتى تموتوا ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ الباطلة التى نجاكم الله - تعالى - منها .

﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ أى : وإن عدتم إليها بعد إذ نجاكم الله - تعالى - منها وعصمكم من اتباعها ، فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ حال الفتية وهم يتناجون فيما بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقاهم الطويل .

ونراهم فى تناجيهم - بعد أن تركوا الحديث عن المدة التى لبثوها فى نومهم - نراهم حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم .

٥ - ثم تضى السورة الكريمة لتحدثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية ، مشهد تتجلى فيه قدرة الله - تعالى - على أبلغ وجه ، كما تتجلى فيه حكمته ووحدانيته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك فيقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ (٢١)

فقوله - سبحانه - : ﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ بيان للحكمة التي من أجلها أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية .  
قال الالكوسى ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال : عثر عثورا وعتارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم فى المثل : الجواد لا يكاد يعثر ، ثم تجوز به فى الاطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الاطلاع والعرفان ، فهو فى ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية .

ومفعول ﴿ أَغْتَرْنَا ﴾ محذوف لقصد العموم ، أى : وكذلك أطلعنا الناس عليهم (١) .  
والمعنى : وكما أمتناهم تلك المدة الطويلة ، وبعثناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث ﴿ حَقٌّ ﴾ وصدق وليعلموا كذلك أن الساعة - أى القيامة - آتية لا ريب فيها ، ولا شك فى حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادرا على إنامتهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك ، فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقد ذكروا فى كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : أن زميلهم الذى أرسلوه بالدرهم إلى السوق ليشتري لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل من يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود ، لكى يأخذ فى مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها - لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد - وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال لهم : بعث بها أمس شيئا من التمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائى إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا ، فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته ، فسر الملك به ، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم ، ثم أماتهم الله - تعالى - . (٢) .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس فى شأنهم ، فقال :  
﴿ إِذِ تَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ .  
والظرف ﴿ إِذِ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، و﴿ تَنَازَعُونَ ﴾ من التنازع بمعنى التخاصم والاختلاف ، والضمير فى ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ يعود إلى الفتية .

(١) تفسير الالكوسى ج ١٥ ص ٢٣٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤٢ .

والمعنى : لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية ، وبيننا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الإعمار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون في شأنهم ، فمنهم من يقول إنهم وجدوا في زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا في كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبني حولهم بنيانا صفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ يعود إلى الذين أطلعهم الله على الفتية ، فيكون المعنى : اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم ، حيث أن بعضهم كان مؤمنا ، وبعضهم كان كافرا ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا ﴾ تفسير للمتنازع فيه ، وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلف الذين عثروا على الفتية فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ، حتى لا يصل الناس إليهم ، وحتى نصونهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة من المتنازعين في شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع في شأنهم ، وليفوضوا أمرهم إلى الله - تعالى - .

ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - ردا للخائضين في شأنهم .

أى : اتركوا أيها المتنازعون ما أنتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

أى : أن الذين أعتروهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على هؤلاء الفتية بنيانا يسترهم ، وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا تبركا بهم .

قال الألوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء ، واتخاذ المساجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك ومن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى فى حواشيه على البيضاوى ، وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد ، فقد روى أحمد وأبوداود والترمذى

والنسائي وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج» .

وزاد مسلم : «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك» .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . (١)

٦ - ثم حكى السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف وأمرت النبى ﷺ أن يكلم ذلك إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٢٢)

أى : سيختلف - الناس فى عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة سادسهم كلبهم . فالضمير فى قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ وفى الفعلين بعده ، يعود لأولئك الخائضين فى قصة أصحاب الكهف ، وفى عددهم ، على عهد النبى ﷺ .  
وقوله - تعالى - : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم .

وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، والمراد به هنا : القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا اطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب الرمى المقصود .

ثم حكى - سبحانه - القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

(١) راجع تفسير الألوسى ج٥ ص ٢٣٧ .

أى : وبعض الناس - وهم المؤمنون - يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلبهم .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف . فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجَمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أى : قول بلا علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإذا أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ دل على صحته وأنه هو الواقع فى نفس الأمر .<sup>(١)</sup>

ثم أمر الله - تعالى - النبى ﷺ أن يخبر الخائضين فى عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذى دار بينهم فقال : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف : ربي - عز وجل - أقوى علماً منكم بعدتهم - أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئاً علماً ظنياً ، فإن علم ربي بهم هو علم تفصيلي يقينى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم أثبت - سبحانه - علم عددهم لقليل من الناس فقال : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

أى : ما يعلم عدة أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها ، لأن علم هذا العدد القليل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى ، أما علم الله - تعالى - فهو علم تفصيلي يقينى شامل لجميع الأزمنة .

فضلاً عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، نابع من إعلام الله - تعالى - لهم عن طريق الوحي كالرسول ﷺ أو من يطلعه الرسول ﷺ على عدتهم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أنا من أولئك القليل ، كانوا سبعة ثم ذكر أسماءهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله ﷺ عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال - تعالى - : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

والمرء : هو الجدال والحاجة فيما فيه مرية ، أى : تردد ، مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للحلب .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤٣ .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير ، والفاء فى قوله : ﴿ فَلَا تَمَارِ ﴾ للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلا تجادل فى أمرهم أحدا من الخائضين فيه إلا جدالا واضحا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيها الرسول الكرم - ولا تطلب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

٧ - ثم نهى الله - تعالى - نبيه ﷺ عن الإخبار عن فعل شىء فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله - عز وجل - فقال :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ

إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ .

قال القرطبي : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم عن أسئلتكم ، ولم يستثن فى ذلك .

فاحتسب الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة ، وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل ، كان كاذبا ، وإذا قال ، لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه .<sup>(١)</sup>

والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا ، وعبر عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .

أى : ولا تقولن - أيها الرسول الكرم - لأجل شىء تعزم على فعله فى المستقبل : إني فاعل ذلك الشىء غدا ، إلا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه ، بأن تقول : سأفعل هذا الشىء غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله - تعالى - وحده .

وليس المقصود من الآية الكريمة نهى الإنسان عن التفكير فى أمر مستقبله ، وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ما سيقع علمه عند الله - تعالى - وحده .

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٨٥ .

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته - وتديبره - سبحانه - فوق كل تدبير .

وكم من أمور أعد الإنسان أسبابها التى تؤدى إلى قضائها ، ثم جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعدده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن ، إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، وأنه - سبحانه - القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ما تؤدى إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله ، فى المستقبل إن شاء الله .

وقوله : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ تأكيد لما قبله أى : لاتقولن أفعل غدا إلا ملتبساً بقول : إن شاء الله ، واذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله - تعالى - هو الذى يجب أن يفعل ، لأنه - تعالى - لا يقع شىء إلا بمشيئته فإذا نسى المسلم ثم تذكر ، فإنه يقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله - تعالى - .

وليس المقصود بها التحلل من يمين قد وقعت ، لأن تداركها قد فات بالانفصال ، ولأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ أى : قدم - أيها الرسول الكريم - مشيئة ربك عند إرادة فعل شىء ، وأت بها إذا نسيت ذلك عند التذكر ، وقل عسى أن يوفقنى ربي ويهدينى ويدلنى على شىء أقرب فى الهداية ، والإرشاد من هذا الذى قصصته عليكم من أمر أصحاب الكهف .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا .. ﴾ اسم الإشارة يعود إلى نبأ أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أنى نبى صادق ، ماهو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف .

وقد فعل - سبحانه - ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ماهو أعظم من ذلك وأدل (١) .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٤٨٠ .

٨ - ثم بين - سبحانه - على وجه اليقين ، المدة التي قضها أصحاب الكهف راقدين في كهفهم ، فقال - تعالى - :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ  
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا  
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿ (٢٦) 》 .

أى : أن أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .

فالآية الكريمة إخبار منه - سبحانه - عن المدة التي لبثها هؤلاء الفتية مضروباً على أذانهم .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ﴾ تقرير وتأكيد لكون المدة التي لبثوها هي ما سبق بيانه في الآية السابقة .

فكأنه - سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب في المدة التي لبثوها راقدين في كهفهم ، وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك أيها الرسول الكريم - وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك ، فلاتلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين في أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .

ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ حكاية لكلام أهل الكتاب في المدة التي لبثها أهل الكهف نيماً في كهفهم ، وأن قوله ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ﴾ للرد عليهم .

وقد حكى الإمام ابن كثير القولين ، ورجح الأول منهما فقال : هذا خبر من الله - تعالى - لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلالية وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .

وقال قتادة في قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ﴾ .

وفي هذا الذي قاله قتادة نظر ، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة

من غير تسع ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : ﴿ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تأكيد لاختصاصه - عز وجل - بعلم المدة التي لبثوها ، أى : أنه - سبحانه - وحده علم ما خفى وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلها ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ صيغتا تعجب : أى : ما أبصره وما أسمعته - تعالى - والمراد أنه - سبحانه - لا يغيب عن بصره وسمعه شيء .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره - تعالى - فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين ، إذ لا يحجبه شيء ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلى وخفى .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ .

أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ، وللغيرهما غير الله - تعالى - نصير ينصرهم ، أو ولى يلى أمرهم ، ولا يشرك - سبحانه - فى حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كان من خلقه ، كما قال - تعالى - : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

٩ - هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .

( أ ) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهوروا فيه ، أما مكان الكهف فللعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى «أفسوس» وهى من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة «أزمير» بحوالى أربعين ميلا ، وتعرف الآن باسم «أيازبوك» .

وقيل : إنه كان ببلدة تدعى «أبسس» - بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين - وهذه البلدة من ثغور «طرسوس» بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى «بتراء» بين خليج العقبة وفلسطين ، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلّة فائدتها .

وأما الزمن الذى ظهوروا فيه ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص١٤٦ .

الميلادى فى عهد الامبراطور الرومانى «دقيانوس» الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويعذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة - ومن أهمها :

١ - إثبات صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر - عن طريق ما أوحاه الله إليه من قرآن - عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. ﴾ .

٢ - الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم فى قصصه ، حيث ساق هذه القصة مجملة فى الآيات الأربع الأولى منها ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما ، وفى ذلك ما فيه من تمكن أحداثها وهداياتها فى القلوب .

والمرشد العاقل هو الذى ينتفع بهذا الأسلوب القرآنى فى وعظه وإرشاده .

٣ - بيان أن الإيمان متى استقر فى القلوب ، هان كل شىء فى سبيله ، فهؤلاء الفتية أثاروا الفرار بدينهم ، على البقاء فى أوطانهم ، لكى تسلم لهم عقيدتهم ، فهم كما قال - سبحانه - فى شأنهم : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ .

٤ - بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء - لاسيما عند الشدائد والكروب ، وأنه متى اتقى الله - تعالى - وأطاعه ، جعل له - سبحانه - من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وصانه من سوء .

فهؤلاء الفتية عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على أذانهم فى الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس لاتصل إليهم مع أنهم فى فجوة من الكهف ، وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلبهم بعتبة باب الكهف ، حتى لكأنه حارس لهم : وألقى الهيبة عليهم بحيث لو رأهم الرائي لولى منهم فرارا ، ولملئ قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم ، وللتعبير عن تكريهم لهم بقولهم :

﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾

٥ - بيان أن التفكير السليم - المصحوب بالنية الطيبة والعزيمة الصادقة - يؤدى إلى الاهتمام إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وأن فضح الباطل والكشف عن زيفه ، دليل على سلامة اليقين .

فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذ قاموا للوقوف في وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذبا .

وأن اعتزال الكفر ، يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق ، ولذا تواصلوا فيما بينهم بقولهم : ﴿ فَأَوْرَأُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ .

٦ - بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لاتنافى التوكل على الله .

فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم أخذوا معهم بعض النقود ، وبعد بعثهم من رقادهم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما طاهرا حلالا ، وأوصوه بالتلطف في أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لايعرف الأعداء مكانهم وهكذا العقلاء لاينعمهم توكلهم على الله - تعالى - من أخذ الحيلة والحذر في كل شئونهم التي تستدعى ذلك .

٧ - إقامة أوضح الأدلة وأعظمها على أن البعث حق ، فقد أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية ، ليقنوا بأنه سبحانه - قادر على إحياء الموتى ، لأن من يقدر على بعث الراقدين من رقادهم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ - بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شيء أن يقرن ذلك بمشيئة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - بيده الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ .

هذه بعض العظات والأحكام التي ترشدنا إليها هذه القصة ، وقد ذكرنا جانبا آخر منها خلال تفسيرنا للآيات التي اشتملت عليها ، وبالله التوفيق .

## ٢. قصة صاحب الجنتين

١ - هذه القصة ساقها القرآن الكريم مثلاً للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله - تعالى - .

كما ساقها - أيضاً - مثلاً للنفس الإنسانية المتواضعة المعتزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ، لكى يكون فى كل ذلك عبرة وعظة «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» .  
وقد وردت هذه القصة فى سورة الكهف ، فى قوله - تعالى - :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ  
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأْتَتْ أُكُلَهُمَا  
وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ  
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ  
جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ بِنِيْدِ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا  
أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا  
مُقَلَّبًا ﴿٣٦﴾

والمثل فى اللغة : الشبيه والنظير ، وهو فى عرف القران الكريم : الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إيراد ، وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه التأثير فى نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلاً للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

قال الألوسى : والمراد بالرجلين : إما رجلان مقدران على ما قيل ، وضرب المثل لا يقتضى وجودهما ، وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه ، فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما : كافر . . . والآخر مؤمن :

ثم قال : والمراد ضربهما مثلاً للفريقين المؤمنين والكافرين ، لا من حيث أحوالهما المستفادة ، بما ذكر أنفا بل من أن للمؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث عصيان الكفرة مع قلبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر (١).

أى : واضرب لهم مثلاً من حيثية العصيان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين : ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾ وهو الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه - مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض .

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنتان من خيرات فقال : ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ جمع عنب والعنب الحبة منه ، والمراد : من كروم متنوعة .  
وقوله : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴾ بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة .

والحف بالشىء : الإحاطة به ، يقال : فلان حفه القوم ، أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ .

أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعاً وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه ، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويفيد الناس .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنتين ، ومن غزارة خيرهما فقال : ﴿ كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ وكلتا : اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين ، وهو المذهب المشهور ، ومثنى لفظاً ومعنى عند غيرهم .

أى : أن كل واحدة من الجنتين ﴿ أَتَتْ أَكْلَهَا ﴾ أى : أعطت ثمارها التى يأكلها الناس

(١) تفسير الألوسى ج٥ ص ٢٧٣ .

من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أى : ولم تنقص من هذا المأكول شيئاً فى سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافياً كثيراً فى كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين ، فإنها فى الغالب تكثر ثمارها فى أحد الأعوام وتقل فى عام آخر .

وفى التعبير بكلمة ﴿ تَظْلِم ﴾ بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذى ظلم نفسه ببحوده لنعم الله - تعالى - واستكباره فى الأرض .

وقوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ أى : وشققنا فى وسطهما نهراً ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتهما ، واشتمالهما على ما يزيدهما بهجة ومنفعة .

ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال أخرى غيرهما ، فقال : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ .

قال الألوسى ما ملخصه : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين « ثمر » أى : أنواع أخرى من المال ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ، « ثَمْرٌ » بضم الثاء والميم ، وهو جمع ثمار - بكسر الثاء - أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَقَالَ لِّصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ حكاية لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطوره .

والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر ، يقال : تحاور القوم ، إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم ، ويقال : كلمته فما أحرار جواباً ، أى : مارد جواباً .

والنفر : من ينفرُ - بضم الفاء - مع الرجل من قومه وعشيرته لقتال عدوه .

أى : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر ، أنا أكثر منك مالاً وأعز منك عشيرة وحشماً وأعواناً .

وهذا شأن المطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها ، بطراً وفساداً فى الأرض .

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٧٤ .

وما أصدق قول قتادة - رضي الله عنه - : «تلك - والله - أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفس» .

ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد ، حكاها القرآن في قوله : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ .

أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به نحو جنته ، حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ أى : قال هذا الكافر لصاحبه : ما أظن أن هذه الجنة تفتنى أو تهلك أبدا .

يقال : باد الشيء يبيدُ ببيداً ويبيودا إذا هلك وفنى .

ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى : كائنة ومتحققة ، فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته ، ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أى : والله لئن رددت إلى ربي على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى يا صاحبي بأن هناك بعثا وحسابا ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ أى : من هذه الجنة ﴿ مُنْقَلَبًا ﴾ أى : مرجعا وعاقبه ، اسم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشيء إلى غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ .

والتدبير لحال صاحب الجنتين يراه ، - أولا - قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة ، ويراها - ثانيا - قد بنى حياته على الغرور والبطر ، واعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا ، ويراها - ثالثا - قد أنكر البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

ويراه - رابعا : قد توهم أن غناه في الدنيا سيكون معه مثله في الآخرة .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٤٨٤ .

قال صاحب الكشاف : وأخبر عن نفسه بالشك في بيدودة جنته ، لطول أمله ، واستيلاء الحرص عليه ، وتمادى غفلته ، واغتراره بالمهلة ، واطراحه النظر في عواقب أمثاله ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به ، منادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل الفرض والتقدير - ليجدن في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله .<sup>(١)</sup>

٢ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذى نطق بأفحش الفحش ، وأفجر الفجور فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي  
خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ  
رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ  
اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٦﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي  
أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ  
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤١﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ  
طَلْبًا ﴿٤٢﴾

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاوره والمجاوبه : يا هذا ﴿ أَكْفَرْتَ ﴾ بالله الذى ﴿ خَلَقَكَ ﴾ بقدرته ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أى : خلق أباك الأول من تراب ، كما قال : - سبحانه - ﴿ إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٤٨٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

﴿ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ أى : ثم صيرك إنسانا كاملا ، ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَكْفَرْتُ ﴾ للإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب ثم من نطفة ، ثم تسويته إياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنتين قبل ذلك : ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ أنه كان مؤمنا لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده فى إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى - لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف «ثم» فى الآية ، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان التى فصلها - سبحانه - فى آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ . (١)

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

أى : إن كنت أنت يا هذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولكنى أنا مؤمن ، أعترف له بالعبادة والطاعة وأقول : هو الله - تعالى - وحده ربي ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

وقوله - سبحانه - فى هذه الآية ﴿ لَكِنَّا . . ﴾ أصله : «لكن أنا» أى : لكن أنا أقول هو الله ربي ، فحذفت همزة «أنا» وأدغمت نون «لكن» فى نون أنا بعد حذف الهمزة .

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . . ﴾ .

(١) سورة المؤمنون الايات من ١٢ : ١٤ .

قال الإمام ابن كثير: هذا تحضيض وحث على ذلك ، أى : هلا إذا أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ، ما لم يعط غيرك وقلت : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ولده ، أو ماله ، فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة ، وقد روى فيه حديث مرفوع ، فعن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال : قال رسول الله ﷺ ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » . (١)

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ .

أى : إن ترن - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شيء ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : عذابا من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - إرساله عليها من المهلكات التى تذرهما قاعا صافصفا .

قال صاحب الكشاف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب ، أى : ويرسل عليها مقدارا قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها .

﴿ فَتُصْبِحُ ﴾ بعد اخضرارها ونضارتها ﴿ صَعِيدًا ﴾ أى : أرضا ﴿ زَلْقًا ﴾ ، أى : جرداء ملساء لانبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

والمراد أنها تصير عديمة النفع من كل شيء حتى من المشى عليها ، يقال : مكان زَلَقٌ ، أى : دَخْضٌ ، وهو فى الأصل مصدر زَلَقَتْ رجله تزلق زلقا ، ومعناه : الزلل فى المشى لوجل ونحوه .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا ﴾ أى : غائرا ذاهبا فى الأرض ، فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل ، يقال : غار الماء يغور غورا : أى سفل فى الأرض وذهب فيها .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١٥ ص ١٥٤ .

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴾ أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل ، لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الماء الغائر إلا الله - عز وجل - .

وإلى هنا نجد أن الرجل المؤمن قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بمنشئه ، وبما يوجهه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره . وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعتز بعقيدته ، ويتجه إلى الله وحده الذى تعنوله الجباه ، ويرجو منه وحده ما هو خير من بساتين الدنيا وزينتها .

٣ - ثم يختتم - سبحانه - هذه القصة ببيان العاقبة السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المغرور صاحب الجنتين فيقول :

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ تَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٥﴾ هَذَاكَ الْوَلَايَةَ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

أى : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه ، أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها ، فصار يقلب كفيه ظهرا لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق فى عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ معطوف على مقدر محذوف لدلالة السباق والسياق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذ من إحاطة العدو بعدوه ، من جميع جوانبه لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسابان على بستان صاحبه الجاحد المغرور ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ بأن هلكت أمواله وثماره كلها .

وجاء الفعل ﴿ أُحِيطَ ﴾ مبنيًا للمجهول ، للإشعار بأن فاعله متيقن وهو العذاب الذى أرسله الله - تعالى - أى : وأحاط العذاب بجنته .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ تصوير بديع لما اعتراه من غم وهم

وحسرة وندامة ، وتقليب اليدين عبارة عن ضرب إحداهما على الأخرى ، أو أن يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا ، وأيامًا كان فعله هذا كناية عن الحسرة الشديدة والندم العظيم .

﴿ وَهِيَ ﴾ أى الجنة التى أنفق فيها ما أنفق ﴿ خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أى : ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والتهدم ، يقال : خوى البيت إذا سقط ، كما يطلق على الخلاء من الشيء ، يقال : خوى بطن فلان من الطعام أى : خلا منه ، وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت .

والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه ، صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح .

وجملة : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يَقْلِبُ كَفِيهِ .. ﴾ .

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ، ويقول زيادة فى الحسرة والندامة : يا ليتنى اتبعت نصيحة صاحبى فلم أشرك مع ربى - سبحانه - أحدا فى العبادة أو الطاعة . وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والعاقبة .

والتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجيعة الرجل الجاحد فى جنته تصويرا واقعيا بديعا .

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويؤلمه ، أن يعجز عن النطق فى أول وهلة ، فإذا ما أفاق من دهشته بدأ فى النطق والكلام .

وهذا ما حدث من ذلك الرجل - كما صوره القرآن الكريم - فإنه عندما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا .

فياله من تصوير بديع ، يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المغرور بعد أن خوت جنته على عروشها ، عشيرة أو أعوان

ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما القادر على ذلك هو الله - تعالى - وحده ، وما كان هذا الرجل الذي جحد نعم ربه منتصرا لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدي إلى نصره وعونه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فالآية الكريمة تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله - عز وجل - وعجز ذلك الرجل في نفسه عن رد انتقام الله - تعالى - منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . . ﴾ تقرير وتأكيد للآية السابقة ، ولفظ هنالك ظرف مكان .

وكلمة ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ قرأها الجمهور بفتح الواو بمعنى الموالة والصلة والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة ﴿ الْحَقِّ ﴾ بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : في ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية - أى : الموالة والصلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ الكافر عندما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ (١) .

ويجوز أن يكون المعنى : في ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى الموالة لله - تعالى - وحده ، فيوالى المؤمنين برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (٢) .

وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو عمرو والكسائي لفظ ﴿ الْحَقِّ ﴾ بالرفع على أنه نعت للولاية .

فيكون المعنى : في ذلك المقام تكون الولاية الحق والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما قال - سبحانه - : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ (٣) .

قال بعض العلماء : وقوله ﴿ هُنَالِكَ ﴾ يرى بعضهم أنه متعلق بما يعده ، والوقوف تام على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ .

(١) سورة غافر : الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) سورة محمد : الآية ١١ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٢٦ .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف ﴿ هُنَالِكَ ﴾ عامله ما بعده أى : الولاية كائنة لله هنالك .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل الذى هو منتصرا أى : لم يكن انتصاره واقعا هنالك .<sup>(١)</sup>

وقوله - سبحانه - : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أى : هو - عز وجل - خير إثابة وإعطاء لأولياته ، وخير عاقبة لمن تاب وأمن وعمل صالحا ثم اهتدى .  
وعاقبة الأمر : آخره وما يصير إليه منتهاه .

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها الله - تعالى - مثلا للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صورة عاقبة الجاحدين المغرورين ، وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تترتب على الإيمان والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يفضى إليها الكفر وسوء العمل ، كما بينت لنا أن المتفرد بالولاية والقدرة هو الله - عز وجل - فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه ولا عاقبة لأولياته خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

(١) تفسير أضواء البيان ج٥ ص ١٠٨ .

## ٣. قصة ذى القرنين

هذه قصة من قصص القرآن الكريم ، وهي قصة ذى القرنين ، قصة إنسان أعطاه الله - تعالى - الملك الواسع ، والقوة العظيمة ، فشكر خالقه على نعمه ، وسخر حياته لخدمة الحق ، وللإصلاح فى الأرض ، وقد وردت هذه القصة فى قوله - تعالى - فى سورة «الكهف» .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي

الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُوُا عَلَيْهِ كُفْرًا ۖ إِنَّكُمْ تَأْتُونَ فِي الْأَرْضِ  
 وَعَآئِنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۗ فَاتَّبِعْ سَبَبًا ۗ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ  
 الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلْبًا يَدَّ  
 الْقَرْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَّخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا ۗ قَالَ أَمَّا مَنْ  
 ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ بِرُشْمٍ يُرْدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا ۗ  
 وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا  
 يُسْرًا ۗ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۗ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ  
 عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ۗ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا  
 لَدَيْهِ خُبْرًا ۗ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ۗ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهَا  
 قَوْمًا آيَكُادُونَ يَقْمُونَ قَوْلًا ۗ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ  
 وَمَا جُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ  
 بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۗ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ  
 أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۗ إِنِّي زَبْرٌ أَحْمَدٌ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ  
 بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ إِنِّي أَفْرِغُ عَلَيْهِ  
 قَطْرًا ۗ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۗ  
 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ  
 رَبِّي حَقًّا ۗ

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ﴾ معطوف على قصة موسى والخضر - عليهما السلام - عطف القصة على القصة .

قال البقاعي : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد فى سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين .<sup>(١)</sup>

والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف ، أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه - أى الرسول ﷺ - عن ثلاث نأمركم بهن ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من أمرهم ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسلوه عن الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع - مع أن الآيات نزلت بعد سؤالهم - لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم استمروا فى لجاجهم إلى أن نزلت الآيات التى ترد عليهم . أما ذو القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين اختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الألوسى بقوله : وذكر أبوالريحان البيرونى فى كتابه المسمى «بالآثار الباقية عن القرون الخالية» ، أن ذا القرنين هو أبوكريب الحميرى ، وهو الذى : افتخر به تبع اليمنى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الأرض غير مفند

بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبوالريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى ، كذى نواس ، وذى يزن . . الخ<sup>(٢)</sup>

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : ليس هو الاسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين ، تلميذ أرسطو ، فإن الاسكندر هذا كان وثنيا ، بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .

ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام - ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن يهتم فى قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص .

وسمى بذى القرنين - على الراجح - لبلوغه فى فتوحاته قرنى الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

(١) نظم الدرر للبقاعى ج١٢ ص١٢٨ .

(٢) تفسير الألوسى ج١٦ ص٢٧ .

والمعنى : ويسألك قومك - يا محمد - عن خبر ذى القرنين وشأنه .  
﴿ قُلْ ﴾ لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك ، ﴿ سَأْتَلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

والضمير فى ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود على ذى القرنين ومن للتبعيض .  
أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره - وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .  
ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَاتَّبَعِ سَبَبًا ﴾ .

وقوله : ﴿ مَكَّنَّا ﴾ من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة ، والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شىء أرادته فى دنياه لتقوية ملكه ﴿ سَبَبًا ﴾ أى : سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران .

وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلىنا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ، ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لاقيمة لها .

والفاء فى قوله : ﴿ فَاتَّبَعِ سَبَبًا ﴾ فصيحة ، أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى : حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هى فى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود ، يقال : حمأت البئر تحمأ حمأ إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينة السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : «وجدتها تغرب في عين حامية» : أى : حارة اسم فاعل من حَمِيَ يَحْمِي حَمِيًا .

﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما .  
الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فخيره الله - تعالى - فيهم فقال : ﴿ قَلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - له عن طريق الإلهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : يا ذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى - الله - تعالى - عنه فى الجواب مايدل على سلامة تفكيره ، فقال : ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يارب : أما من ظلم نفسه بالإصرار على الكفر والفسوق والعصيان ﴿ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾ فى هذه الدنيا بالقتل وما يشببه ، ثم يُرد الظالم نفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه فى الآخرة ﴿ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى : عذابا فظيحا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ يقتضيه إيمانه ﴿ فَلَهُ ﴾ فى الدارين ﴿ جَزَاءً الْحَسَنَى ﴾  
أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ ﴾ أى لمن آمن وعمل صالحا ﴿ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أى بما نأمره به قولا ﴿ يُسْرًا ﴾ لاصعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع فى حكمه الطريق القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .  
إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس ، المنحرفة ، حتى تعود إلى رشدها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب والجزاء الحسن .

وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون ، يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .

والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .  
أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس  
إلى جهة شروقها .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة  
فى زمنه من جهة المشرق .

﴿ وَجَدَهَا ﴾ أى : الشمس ﴿ تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى : لم  
نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون  
الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : ﴿ كَذٰلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه  
الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها .  
وقوله : ﴿ وَقَدْ أَحْطٰنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى  
القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كان شأن ذى القرنين ، وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لا يعزب عنه شىء ، بما  
كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات ، وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها .

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ، سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق  
والمغرب ، أخذاه فيه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ ﴾ فى مسيرة ذلك ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى : الجبلين ،  
وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجاء من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض  
الترك مما يلي المشرق .

﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا ﴾ أى : من دون السدين ومن ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أى : أمة من  
الناس لغتهم لاتكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - .

﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أى : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ،  
لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولا يعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

﴿ قَالُوا ﴾ أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : ﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ  
فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجه وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم ، وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم .

أى : قال هؤلاء القوم - الذين لا يكادون يفقهون قولاً - لذى القرنين بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح ، إذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق - بين أصابعه - قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث» .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .

والخَرْج : اسم لما يخرج الإنسان من ماله لغيره ، وقرأ حمزة والكسائى خراجا : وهما بمعنى واحد .

أى : فهل نجعل لك مقدارا كبيرا من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سدا يمنعهم من الوصول إلينا ، ويحول بيننا وبينهم؟ وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه - بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، فيقول : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . . ﴾ .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً : إن ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة ، خير من خرجكم ومالككم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا إلى جانبى ﴿ فَأَعْيُونِي ﴾ بسواعدكم وبآلات البناء ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى ﴿ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ وبين يأجوج ومأجوج ﴿ رَدْمًا ﴾ .

أى : حاجزا حصينا ، وجدارا متينا ، يحول بينكم وبينهم .  
والردم : الشئ الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق ، يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع ، وسحاب مردم ، أى : متكاثف بعضه فوق بعض .  
ويقال : ردمت الحفرة ، إذا وضعت فيها من الحجارة والتراب وغيرها ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة : ﴿ أَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ جواب الأمر في قوله : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ .

ثم شرع في تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : ﴿ اتُونِي زَبْرَ الْحَدِيدِ . . ﴾ .

والزبر - كالغرف - جمع زبره - كغرفة - وهي القطعة الكبيرة من الحديد وأصل الزبر ، الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله ، ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ﴿ حَتَّى إِذَا سَأَوِى بَيْنَ الصَّدْفَيْنِ ﴾ أى : بين جانبي الجبلين ، وسمى كل واحد من الجانبين صدفا ، لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل : أى : قابلته ولاقيته ، ولذا لا يقال للمفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة كالشفع والزوج .

وقوله : ﴿ قَالَ انْفُخُوا ﴾ أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .

وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى احمرارها وشدة توهجها ﴿ قَالَ اتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى : نحاسا أو رصاصا مذابا وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا ساوى بين جانبي الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران ، وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لى دعوة أولئك القوم فى بناء السد ، وبناء لهم بطريقة محكمة سليمة ، اهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ .

أى : فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا - أيضا - أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومثانته وثخانته .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله - تعالى - ، والعجز أمام قدرته - عز وجل - شأن الحكام الصادقين فى إيمانهم ، الشاكرين لخالقهم توفيقه إياهم لكل خير .

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ .

أى : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من آثار رحمة ربي التى وسعت كل شىء .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ الذى حدده لفناء هذه الدنيا ، ونهايتها ، أو الذى حدده لخروجهم منه ﴿ جَعَلَهُ دَكَاةً ﴾ أى : جعل هذا السد أرضا مستوية ، وصيره مذكوكا أى : بمساواة الأرض ، ومنه قولهم : ناقة دكاء أى : لاسنام لها .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : وكان كل ما وعد الله - تعالى - به عباده من ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الدروس والعبر والعظات ، التى من أبرزها : أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين الصادقين ، وأن الحاكم العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ، والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله - تعالى - وألا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى الله - تعالى - وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمدا لله - تعالى - كلما زادهم من فضله ، وما أجمل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله - تعالى - : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

## ٤. قصة سيل العرم

فى سورة «سبأ» قصتان متعاقبتان ، إحداهما لداود وسليمان - عليهما السلام - وهى تمثل النموذج المشرق للشاكرين ، وقد سبق الكلام عليها عند حديثنا عن قصة هذين النبیین الكرمين .

والثانية : لأهل سبأ الذين أعطاهم الله - تعالى - من فضله النعم الوفيرة ، فبطروا وجحدوا ، فمحق الله - تعالى - هذه النعم من بين أيديهم .

وهذه القصة الثانية نراها فى قوله - تعالى - :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ  
 وَشِمَالٍ كُنُوزٌ لَهُمَا مِنْ رَبِّكَ وَاللَّهُ بَدِيدٌ غَفُورٌ  
 ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جُنَيْنٍ  
 ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ  
 بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى  
 الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ  
 وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ  
 فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقَاتٍ كُلٌّ مُمَزَّقٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ  
 لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا  
 فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ  
 مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٢١﴾

و«سبأ» فى الأصل اسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن .

والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة باسمه ، وكانوا يسكنون بمأرب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلبها - سبحانه - منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال ﷺ : بل هو رجل ، كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مَذْحِجٌ ، وَكَنْدَه ، وَالْأَزْد ، وَالْأَشْعَرِيَّون ، وَأَنْمَار ، وَحَمِير ، وسكن الشام منهم أربعة وهم : لَحْم ، وَجُدَام ، وَعَامِلَةٌ ، وَغَسَّان .

وإنما سُمى «سبأ» لأنه أول من سبأ فى العرب - أى : جمع السبايا - وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال - ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه - المتقدم (١) .

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم التى يعيشون فيها ﴿ آيَةٌ ﴾ بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم .

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته .

ثم وضح - سبحانه - هذه الآية فقال : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة عن يمين بلدهم ، وطائفة أخرى عن شماله . وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار .

قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل ، فيمتلىء من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٩١ .

وقوله - تعالى - : ﴿ كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ مقول لقول محذوف .

أى وقلنا لهم على السنة رسلنا ، وعلى السنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التى أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له - سبحانه - هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .

وقوله : ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ رَبُّ غَفُورٌ ﴾ كلام مستأنف لبيان موجبات الشكر ، أى : هذه البلدة التى تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات ، وربكم الذى أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأتاب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه .

ثم بين - سبحانه - ما أصابهم بسبب جحودهم وبطهرهم فقال : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ .

والعرم : اسم للوady الذى كان يأتى منه السيل ، وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر .

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم فتفرقوا عنها ، ومزقوا شرمزق ، وضربت بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أيدي سبأ ، وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه .

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان .

وقوله : ﴿ ذَوَاتِي أُكُلِ حَمْطٍ ﴾ الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فَآتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ أى : ثمرها ، والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذى لا يمكن أكله .

﴿ وَأَثَلٍ ﴾ هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء ، أو هو نوع من الشجر كثير الشوك ، و﴿ سِدْرٍ ﴾ هو ما يعرف بالنبق ، أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم

السييل الجارف ، الذى اجتاح أراضيهم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق ، وبدلناهم بالجنان اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخري قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت فى أماكنهم الأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم مالذ وطاب ، وعظم نفعه .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم .

ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكْ جَزَايَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ .

أى : ذلك الذى فعلناه بهم من تبديل جنتيهم ، بجنتين ذواتى أكل خمط ، هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفعهم فسوقهم عن أمرنا .

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لانعاقب ولا نجازى هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وأثر الغى على الرشد ، والعصيان على الطاعة .

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذى تحدثت عنه الآية السابقة ، وهو المفعول الثانى لجزيناهم مقدم عليه ، أى : جزيناهم ذلك التبديل لاغيره ، والمراد بالجزاء هنا : العقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ بمعنى وهل نعاقب .

وهو الوجه الصحيح ، وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل نجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر ، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد الخاص وهو العقاب .<sup>(١)</sup>

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم ، وكيف أن هذه النعمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَأْتُوا وَيَأْتُوا آمِنِينَ ﴾ .

أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا بين أهل سبأ ﴿ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ كمكة فى الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس فى بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، ﴿ قُرَى ظَاهِرَةً ﴾ أى : قرى متقاربة متواصلة بحيث يرى من فى إحداها غيرها .

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٥٧٦ .

﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرًا محددًا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .

وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .

وقوله : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ مقول لقول محذوف ، أى : وقتنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات والتى توصلكم إلى القرى المباركة سيروا فيها ليلالى وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم بالليل أم النهار ، فإن الأمن فيها مستتب فى كل الأوقات : وفى كل الأحوال .

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمت أخرى أنعم الله - تعالى - بها على أهل سبأ ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهى نعمة عظمت لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر .

ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحمق والبطر ، أنهم دعوا الله - تعالى - بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ .

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها ، وهى نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله ، إلا أنهم - لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم - تضرعوا إلينا وقالوا : يا ربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة ، فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : بطروا النعمة ، وبشموا ، أى : سئموا - من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا النكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى : قالوا ذلك القول السيئ ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أوجب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم .

والأحاديث : جمع أحداث ، وهى ما يتحدث به الناس على سبيل التلهى والتعجب أى : قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا من منكر ، فكانت نتيجة ذلك ، أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم ، ويضربون بهم المثل ، فيقولون : تفرقوا أيدي سبأ ، ومزقناهم كل مزق فى البلاد المتعددة ، فمنهم من ذهب إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى العراق ، بعد أن كانوا أمة متحدة ، يظلمها الأمان والاطمئنان والغنى والجاه ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذى

فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطهرهم ﴿لآيَاتٍ﴾ واضحات بينات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله - تعالى - ﴿شَكُورٍ﴾ له - سبحانه - على نعمه .

وخص - سبحانه - الصبار والشكور بالذكر ، لأنهما هما المنتفعان بآياته وعبره ومواعظه .

ثم بين - عز وجل - الأسباب التي أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ولفظ ﴿صَدَّقَ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة ، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد ، وقوله : ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بصدق .

وقوله : ﴿ظَنَّهُ﴾ مفعول به على قراءة التشديد ، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وفى ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ يعود إلى قوم سبأ .

والمعنى : على القراءة بالتشديد : ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فى قدرته على إغوائهم ، وحقق ما كان يريد منهم من الانصراف عن طاعة الله - تعالى - وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان ، بسبب انغماسهم فى الفسوق والعصيان ، إلا فريقاً من المؤمنين ، لم يستطع إبليس إغوائهم لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم - عز وجل - متمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

والمعنى على القراءة بالتخفيف : ولقد صدق إبليس فى ظنه أنه إذا اغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصى أطاعوه ، إلا فريقاً من المؤمنين لم يطيعوه .

ثم بين - سبحانه - أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباهم من بنى آدم ، لم يكن عن قسر وإكراه ، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ . . .﴾ .

والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه ، والمراد بالعلم فى قوله - تعالى - ﴿إِلَّا لَنَعْلَمَ﴾ إظهار هذا العلم للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره .

أى : وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه ، وإنما كان له عليهم الوسوسة التي يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا ، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم ، إلا لنظهر فى عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب وحساب ، ولنميزه عن من هو منها فى شك وريب وإنكار .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شيء رقيب وحفيظ ، بحيث لا يخرج شيء عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته .

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين ، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى - وشكره ، وإخلاص العبادة له ، وحسن الصلة به - سبحانه - كل ذلك يؤدي إلى المزيد من نعمه - تعالى ، كما حدث لداود وسليمان - عليهما السلام - .

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانغماس فى المعاصى والشهوات ، كل ذلك يؤدي إلى زوال النعم ، كما حدث لقبيلة سبأ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

---

(١) سورة يوسف : الآية ١١١ .

## ٥. قصة أصحاب القرية

١ - وأصحاب القرية هؤلاء ، هم قوم أرسل - الله تعالى - إليهم من يأمرهم بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وبالتحلى بكارم الأخلاق ، وبنهاهم عن عبادة غيره - سبحانه - وعن ارتكاب ما نهى عنه ، فما آمن منهم إلا قليل ، وقد جاء الحديث عنهم فى سورة «يس» فى قوله - تعالى - :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ

مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ  
 آتِينَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّزُوا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾  
 قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ  
 إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا  
 الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُ نَابِكُمْ لَئِنْ لَمْ نَنْهَوْا لَتَرْجُمَنَّكُمْ  
 وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ  
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ وهذه القرية هى «أنطاكية» فى قول جمهور المفسرين ، والمرسلون : قيل : هم رسل من الله على الابتداء وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية ، للدعاء إلى الله - تعالى - (١)

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبي والمفسرون من أن المراد بالقرية «أنطاكية» كما أنه لم يرتض رأى القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى - عليه السلام - فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه :

(١) راجع تفسير القرطبي ج٥ ص ١٤ .

وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عيسى - عليه السلام - وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسول عيسى إليه ، وكانوا أول مدينة أمنت بالمسيح - عليه السلام - ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التى فيها بتاركة - أى علماء بالدين المسيحى - .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبوسعيد الخدرى وغيره ، أن الله تعالى - بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين .

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة ، قرية أخرى غير أنطاكية فإن هذه القرية المشهورة بهذا الاسم لم يعرف أنها أهلكت ، لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك .<sup>(١)</sup>

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم ، لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه فى هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التى تؤخذ منها :

وضرب المثل فى القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل فى تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ .

فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية مثلا لمشركى مكة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا .. ﴾ بيان لكيفية الإرسال ولموقف أهل القرية

من جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٩ .

أى : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا فكذبوهما ، وأعرضوا عن دعوتهما .

والفاء فى قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ للإفصاح ، أى : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليهم فكذبوهما .

وقوله : عززنا بثالث أى : قوينا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية ، ومنه قولهم : تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى ، وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها ، وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .

ومفعول ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعززناهما برسول ثالث ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : الرسل الثلاثة لأصحاب القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - ونبذ عبادة الأصنام .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ .

أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشرًا مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شيء مما تدعوننا إليه .

ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا ، وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيما يقولونه .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

أى : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إننا إليكم لمرسلون وكفى بعلمه علما ، وبحكمه حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا ، لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم بالمنطق الرصين ، وتأكيد أنهم رسل الله ، وأنهم صادقون فى رسالتهم ، لأن قولهم ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ جار مجرى القسم فى التوكيد .

وقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تجديد للوظيفة التي أرسلهم الله - تعالى - من أجلها .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردا قبيحا ، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والتطير: التشاؤم ، أى قالوا فى الرد عليهم : إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى مالا نريده ، لنرجمنكم بالحجارة ، ولیمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم .

قال صاحب الكشاف : قوله: ﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى : تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه ، واشتهوه وآثروه وقبلته طابعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء ، قالوا : بركة هذا وبشؤم هذا (١) .

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد - أيضا - بالثبات ، والمنطق الحكيم فقالوا لهم : ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .

أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم .

وجواب الشرط لقوله : ﴿أئن ذُكِّرْتُمْ﴾ محذوف ، والتقدير : أئن وعظمتم وذكرتم بالحق وخوفتم من عقاب الله ، تطيرتم وتشاءمتم .

وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم .

أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى ، وفى إيثار الباطل على الحق ، والغى على الرشد ، والتشاؤم على التيامن .

ثم بين - سبحانه - بعد تلك المحاورة التى دارت بين أهل القرية وبين الرسل ، والتى تدل على أن أهل القرية ، كانوا مثلا فى السفاهة والكرهة للخير والحق .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص٩ .

٢ - بين - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسول الله - تعالى - وتناولهم عليهم ، وتهديدهم لهم بالرجم : فقال - تعالى - :

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ  
يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾  
وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ  
إِلَهَةً إِنْ يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ بِصُرٍّ لَّا تُقِنَّ عُنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾  
إِنِّي إِذًا لِنُضْلِكِ الْمُبِينَ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ  
أَدْخِلِ آلَ هَاجَةَ قَالِ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَاقَبْتَنِي رَبِّي وَجَعَلَنِي  
مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ  
وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ  
خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ  
إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ معطوف على كلام محذوف ، يفهم من سياق القصة ، والتقدير .

وانتشر خبر الرسل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ أى من أبعد مواضعها ﴿ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ أى : رجل ذو فطرة سليمة ، يسرع الخطى لينصح قومه ، وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم .  
قالوا : وهذا الرجل كان اسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالنجارة .

وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكره عنه .

ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله - تعالى - عليه بصرف النظر عن اسمه أو صنعته أو حاله لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها فى القرآن الكريم هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير .

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها فى أول القصة بالقرية للإشارة إلى سعتها ، وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .

والتعبير بقوله : ﴿ يَسْعَى ﴾ يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو همته ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ولم يرتض أن يقبع فى بيته - كما يفعل الكثيرون - بل هرول نحو قومه ليقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم .

أى : ﴿ قَالَ ﴾ لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ﴿ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، وإنقاذكم من الضلال المبين الذى انغمستم فيه .

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أى : اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم إلى الطريق الحق ، والحال أنهم فى أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون فى التمسك بالعقيدة السليمة .

ثم أخذ بعد ذلك فى حض قومه على اتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ .

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعنى من أن أعبد الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقنى ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً .. ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لا يصح ولا يجوز أن أتخذ معه فى العبادة آلهة أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ﴿ إِنْ يَرِدَْنَّ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِيْ عَنْيْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ من النفع حتى ولو كان هذا النفع فى نهاية القلة والحقارة .

﴿ وَلَا يَنْقُذُونَ ﴾ ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى مما يصيبنى من ضرر أراد الرحمن أن ينزله بى .

﴿ إِنِّي إِذَا ﴾ لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله فى العبادة ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : لأكون فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى خلقكم ورزقكم ﴿ فَاسْمَعُونَ ﴾ أى : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لى بأنى آمنت بربكم الذى خلقكم وخلقنى ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ولن أشرك معه - سبحانه - فى العبادة أحدا ، مهما كانت النتائج .

وهكذا نرى الرجل الصالح الذى استقر الإيمان فى قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذى آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحدا إلا الله ، ويدعو قومه بشتى الأساليب إلى اتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة ما يدعو إليه .

ثم يصارحهم فى النهاية ، ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو وعيد أو إيذاء أو قتل .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد أجاد فى تصوير هذه المعانى فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ كلمة جامعة فى الاستجابة لدعوة الرسل ، أى : لاتخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ثم أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وليتلف بهم ويداريهم ، فقال : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴾ يريد فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه ، أن العبادة لاتصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ١١ .

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه ، فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه ، ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ .. ﴾ .

أى : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب .

قال الآلوسى : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ .. ﴾ قوله : استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك . والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة ، فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه .

وقيل : الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة ، أى : قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ استئناف بياني لبيان ما قاله عند البشارة .

أى : قيل له ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح ، فرد وقال : يا ليت قومى الذين قتلونى ولم يسمعوا نصحى ، يعلمون بما نلتهم من ثواب من ربى ، فقد غفر لى - سبحانه - وجعلنى من المكرمين عنده ، بفضلته وإحسانه .

قال ابن كثير : ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ما حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

روى ابن أبى حاتم أن عروة بن مسعود الثقفى ، قال للنبي ﷺ : ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام ، فقال له ﷺ «إنى أخاف أن يقتلوك» قال : يا رسول الله ، لو وجدونى نائما ما أيقظونى : فقال له رسول الله ﷺ «انطلق إليهم» فانطلق إليهم ، فمر على اللات والعزى فقال : لأصبحنك غدا بما يسوؤك فغضبت ثقفيين فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا تسلموا - ثلاث مرات - فرماه رجل منهم فأصاب أكحله فقتله - والأكحل : عرق فى وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «هذا مثله كمثل صاحب يس . ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ .<sup>(٢)</sup>

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٨ .

وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . ﴾ إنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان ، وفى حديث مرفوع : «نصح قومه حيا وميتا» .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى ، والتشمر فى تخليصه والتلطف فى افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبداء أصنام .<sup>(١)</sup>

ثم بين - سبحانه - ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلهم فقال : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : من بعد موته .

﴿ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن نعمل معهم ذلك .

﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : وما صح وما استقام فى حكمتنا أن ننزل عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم وهوان قدرتهم .

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحبها بهم جبريل بأمرنا .

﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أى : هامدون ميتون ، شأنهم فى ذلك كشأن النار التى أصابها الخمود والانطفاء بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة ، يقال : خمدت النار تخمد خمودا ، إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها ، وخمد الرجل كقعده - إذا مات وانقطعت أنفاسه . وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين فقد نزلت بهم عقوبة الله - تعالى - فجعلتهم فى ديارهم جاثمين .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدعوة الناس إلى الاعتاض بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال - تعالى - : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والندم عليه ندما لانفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار فى غير استطاعته إرجاعها .

(١) تفسير الكشاف جء ص ١١ .

﴿يَا﴾ حرف نداء و﴿حَسْرَةً﴾ منادى ونداؤها على الجواز بتزليلها منزلة العقلاء .

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل ، وأثروا العمى على الهدى ، ويدخل فيهم دخولا أوليا أصحاب تلك القرية المهلكة .

والمقصود من الآية الكريمة التعجب من حال هؤلاء المهلكين وبيان أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم .

والمعنى : يا حسرة على العباد الذين أهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضرى فهذا أو أن حضورك ، فإن هؤلاء المهلكين كانوا فى دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا به يستهزئون ، ويتغامزون ويستخفون به ويدعونه ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ...﴾ نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التى حقتك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلف عليهم المتلفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .

وقرىء : يا حسرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث أنها موجهة إليهم (١) .

أى : يا حسرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسولهم ، واستهزائهم بهم .

ثم ويخ - سبحانه - كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ .

والقرون : جمع قرن ، وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وكم : خبرية بمعنى كثير .

أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسولهم ، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إليهم ليخبروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك فى الدنيا ، لحكمة أرادها الله - تعالى - .

ولكن الجميع سيعودون إليه - سبحانه - وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿وإن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص١٣ .

﴿إِنْ﴾ حرف نفى و﴿كُلُّ﴾ مبتدأ والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا ، و﴿جَمِيعٌ﴾ خبر المبتدأ و﴿مُحَضَّرُونَ﴾ خبر ثان .

أى : لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكتنا كثيرا من القرى الظالم أهلها ، وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة فى الدنيا ، ولكن الحقيقة التى لاشك فيها أنه ما من أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات المتقدمة أو المتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة ، لنحاسبها على أعمالها ، ولنجازيها بالجزاء الذى تستحقه .

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١)

هذا ، ومن الدروس التى تتعلمها من هذه القصة - إلى جانب ما ذكرناه فى ثناياها - أن رحمة الله - تعالى - بخلقه واسعة ، فهو - سبحانه - لم يرسل إلى أهل تلك القرية رسولا واحدا ، وإنما أرسل إليهم اثنين ، ثم عززهما بثالث ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأن من شأن العقلاء الحكماء أنهم يقابلون جهل الجاهلين ، وسفاهة السفهاء بالحلم والصبر ، كما نرى ذلك واضحا من محاوراة الرسل للسفهاء من أهل تلك القرية .

وأن كل أمة لا تخلو من رجال أصفياء أنقياء ، يتحلون بالشجاعة والحكمة ، ويقفون على جانب الحق يدافعون عن أهله بكل ما أوتوا من قوة ، حتى ولو أدى ذلك إلى استشهادهم ، كما نرى فى قصة ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وهو يقول لقومه : «يا قوم اتبعوا المرسلين» .

وأن عدالة الله - تعالى - قد اقتضت أن يهلك القوم الظالمين ، الذين يستحبون العمى على الهدى ، ويصرون على باطلهم دون استماع إلى نصيحة الناصحين ، أو إرشاد المرشدين ، أو أن العقلاء من الناس هم الذين ينتفعون بأحوال من سبقهم ، فيقتدون بالصالحين ، وينبذون الطالحين ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

(١) سورة هود : الآية ١١١ .

## ٦. قصة أصحاب الجنة

وقصة أصحاب الجنة ملخصها : أن عددا من الأبناء ترك لهم أبوهم حديقة مثمرة ، وأوصاهم عند وفاته أن يجعلوا جزءا منها للفقراء والمساكين ، ولكنهم بعد وفاته لم يلتزم أكثرهم بوصيته ، فكانت النتيجة أن هلكت تلك الحديقة ، وحرموا من ثمارها بسبب بخلهم وأنانيتهم وعدم وفائهم .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم المصور لأحوال النفوس البشرية تصويرا معجزا ، استمع إلى قوله - تعالى - فى سورة القلم :

إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ  
 إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرُمْتَهَا مِصْبِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا  
 طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا  
 مُصْبِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعِدُوا عَلَيْنَا فَرِحْنَا بِكُمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا  
 وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾  
 وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَل لَّحَنُ  
 مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا  
 سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ  
 يَتَلَوَّمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طُغْيَانٌ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ  
 يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ  
 وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا مثل ضربه الله - تعالى - لكفار قريش ، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثه محمدا ﷺ إليهم فقابلوه بالتكذيب والمحاربة .

وقد ذكر بعض السلف : أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، كانوا من قرية يقال لها : «ضَرَوَان» على ستة أميال من صنعاء ، وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه ، ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل .

فلما مات وورثه أولاده قالوا : لقد كان أبونا أحق ، إذ كان يصرف من هذه الجنة شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية : أذهب رأس المال ، والريح ، فلم يبق لهم شيء .<sup>(١)</sup>

وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلِّغُونَاهُمْ ﴾ أى : اختبرناهم وامتحانهم ، مأخوذ من البلوى ، التى تطلق على الاختبار ، والابتلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، كما قال - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. ﴾ وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَبَلِّغُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

والمراد بالابتلاء هنا : الابتلاء بالشر بعد جحودهم لنعمة الخير .

أى : إنا امتحنا مشركى قريش بالقحط والجوع ، حتى أكلوا الجيف ، بسبب كفرهم بنعمنا ، وتكذيبهم لرسولنا ﷺ كما ابتلينا من قبلهم أصحاب الجنة ، بأن دمرناها تدميرا ، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها .

ويبدو أن قصة أصحاب الجنة ، كانت معروفة لأهل مكة ولذا ضرب الله - تعالى - المثل بها ، حتى يعتبروا ويتعظوا .

ووجه المشابهة بين حال أهل مكة ، وحال أصحاب الجنة ، يتمثل فى أن كلا الطرفين قد منحه الله - تعالى - نعمة عظيمة ، ولكنه قابلها بالجحود وعدم الشكر .

و ﴿ إِذْ ﴾ فى قوله : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ تعليلية .

والضمير فى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ يعود لعظمتهم ، لأن الآيات الآتية بعد ذلك تدل على أن أوسطهم قد نهاهم عما اعتزموه من حرمان المساكين ، ومن مخالفة ما يأمرهم شرع الله - تعالى - به .

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٢٣ .

قال - تعالى - : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ من الصرم وهو القطع ، يقال : صرم فلان زرعه - من باب ضرب - إذا جزه وقطعه ، ومنه قولهم : انصرم جبل المودة بين فلان وفلان ، إذا انقطع .  
وقوله : ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى : داخلين فى وقت الصباح المبكر .

أى : إنا امتحننا أهل مكة بالبأساء والضراء ، كما امتحننا أصحاب البستان الذين كانوا قبلهم ، لأنهم أقسموا بالأيمان المغلظة ، ليقطعن ثمار هذا البستان فى وقت الصباح المبكر .

﴿ وَلَا يَسْتَتِنُونَ ﴾ أى : دون أن يجعلوا شيئا - ولو قليلا - من ثمار هذا البستان للمحتاجين ، الذين أوجب الله - تعالى - لهم حقوقا فى تلك الثمار .  
والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ وهى فى الوقت نفسه مقسم عليه .

أى : أقسموا ليصرمنها فى وقت الصباح المبكر ، وأقسموا كذلك على ألا يعطوا شيئا منها للفقراء أو المساكين .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا القسم الذى لم يقصد به الخير ، وإنما قصد به الشر فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ .

والطائف : مأخوذ من الطواف ، وهو المشى حول الشئ من كل نواحيه ومنه الطواف حول الكعبة ، وأكثر ما يستعمل لفظ الطائف فى الشر كما هنا ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

وعدى لفظ ﴿ طَائِفٌ ﴾ بحرف «على» لتضمينه معنى : تسلط أو نزل ، والصريم - كما يقول القرطبى - الليل المظلم ، أى : احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس : كالرماد الأسود ، أو كالزرع المحصود ، فالصريم بمعنى المصروم ، أى : المقطوع مافيه .<sup>(١)</sup>

أى : أقسم هؤلاء الجاحدون على ألا يعطوا شيئا من جنتهم للمحتاجين ، فكانت نتيجة نيتهم السيئة ، وعزمهم على الشر ، أن نزل بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها فصارت كالشئ المحترق الذى قطعت ثماره ، ولم يبق منه شئ ينفع .

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٢٤١ .

ولم يعين - سبحانه - نوع هذا الطائف ، أو كيفية نزوله ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، وإنما المقصود ما ترتب عليه من آثار توجب الاعتبار .

وتنكير لفظ ﴿ طَائِفٌ ﴾ للتحويل و ﴿ مِّنْ ﴾ فى قوله ﴿ مِّنْ رَبِّكَ ﴾ للابتداء والتقيد بكونه من الرب - عز وجل - لإفادة أنه بلاء لا قبل لأحد من الخلق بدفعه .

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ، ومثله قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يُّرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ وفى الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفیهما ، فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .<sup>(١)</sup>

ثم صور - سبحانه - أحساسيسهم وحركاتهم ، وقد خرجوا لينفذوا ما عزموا عليه من سوء ، فيقول : ﴿ فَتَنَادُوا مُصْحِحِينَ ﴾ أى : فنادى بعضهم بعضا فى وقت الصباح المبكر ، حتى لا يراهم أحد .

فقالوا فى تناديهم : ﴿ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : هيا بنا لنذهب إلى بستاننا لكى نقطع ما فيه من ثمار فى هذا الوقت المبكر ، حتى لا يرانا أحد ، إذ الغدو هو الخروج إلى المكان فى غدوة النهار ، أى : فى أوله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرتكم ، وما معنى «على» ؟ قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ویراح ، أى : فأقبلوا على حرتكم باكرين .<sup>(٢)</sup>

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : إن كنتم صارمين فاغدوا .

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ أى : فانطلقوا مسرعين نحو جنتهم وهم يتسارون فيما بينهم ، إذ التخافت : تفاعل من خفت فلان فى كلامه إذا نطق به بصوت منخفض لا يكاد يسمع .

وجملة : ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ مفسرة لما قبلها لأن التخافت فيه

(١) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٢٤١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٩٠ .

معنى القول دون حروفه أى : انطلقوا يتخافتون وهم يقولون فيما بينهم : احذروا أن يدخل جنتكم اليوم وأنتم تقطعون ثمارها أحد من المساكين .

وجملة : ﴿ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ حالية ، والحرد : القصد ، يقال : فلان حرد فلان - من باب ضرب - أى : قَصَدَ قَصْدَهُ .

قال الإمام الشوكانى : الحرد معنى المنع والقصد ، لأن القاصد إلى الشيء حارد ، يقال : حرد يحرد إذا قصد ، وقال أبو عبيدة : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا ، إذا قلت ألبانها ، وقال الحسن : على حرد ، أى : على حاجة وفاقه ، وقيل : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : على انفراد ، يقال : حرد يحرد حردا ، إذا تنحى عن قومه ، ونزل منفردا عنهم دون أن يخالطهم .

أى : أن أصحاب الجنة ساروا إليها غدوة ، على أمر قد قصدوه وبيتوه ، موقنين أنهم قادرون على تنفيذه ، لأنهم قد اتخذوا له جميع وسائله ، من الكتمان والتبكير والبعد عن أعين المساكين .

أو : ساروا إليها فى الصباح المبكر ، وهم ليس معهم أحد من المساكين أو من غيرهم ، وهم فى الوقت نفسه يعتبرون أنفسهم قادرين على قطع ثمارها ، دون أن يشاركهم أحد فى تلك الثمار .

ثم صور - سبحانه - حالهم تصويرا بديعا عندما شاهدوا جنتهم ، وقد صارت كالصريم ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ .

أى : فحين شاهدوا جنتهم - وهى على تلك الحال العجيبة - قال بعضهم لبعض : إنا لضالون عن طريق جنتنا التى عهدناها بالأمس القريب ، زاخرة بالثمار .

ثم اعترفوا بالحقيقة المرة بعد أن أكدوا أن ما أمامهم هى حديقتهم فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : لسنا بضالين عن الطريق إليها ، بل الحقيقة أن الله - تعالى - قد حرمانا من ثمارها ، بسبب إصرارنا على حرماننا المساكين من حقوقهم منها .

وهنا تقدم إليهم أوسطهم رأيا ، وأعدلهم وأمثلهم تفكيريا ، فقال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ .

والاستفهام للتقرير ، و﴿ لَوْلَا ﴾ حرف تفضيض بمعنى هلا ، والتسبيح هنا بمعنى : الاستغفار والتوبة وإعطاء كل ذى حق حقه .

أى : قال لهم - أعقلهم وأصلحهم - بعد أن شاهد ما شاهد من أمر الحديقة قال لهم : لقد قلت لكم عندما عزمتم على حرمان المساكين حقوقهم منها ، اتقوا الله ولا تفعلوا ذلك ، وسيروا على الطريقة التى كان يسير عليها أبوكم ، وأعطوا المساكين حقوقهم منها ، ولكنكم خالفتمونى ولم تطيعوا أمرى ، فكانت نتيجة مخالفتكم لنصحى ، ما ترون من خراب الجنة ، التى أصابنى من خرابها ما أصابكم .

وكعادة كثير من الناس الذين : لا يقدرّون النعمة إلا بعد فوات الأوان ، قالوا لأعقلهم وأصلحهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

أى : قالوا وهم يعترفون بظلمهم وجرمهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا .. ﴾ أى : ننزه ربنا ونستغفره عما حدث منا ، فإننا كنا ظالمين لأنفسنا حين منعنا حق الله - تعالى - عن عباده .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بينهم بعد أن أيقنوا أن حديقتهم قد دمرت فقال : ﴿ فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامُؤْنَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضا ، وكل واحد منهم يلقى التبعة على غيره ، ويقول له : أنت الذى كنت السبب فيما أصابنا من حرمان .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ أى : يا هلاكنا وباحسرتنا ، ﴿ إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى : إنا كنا متجاوزين لحدودنا ، وفاسقين عن أمر ربنا ، عندما صممنا على البخل بما أعطانا - سبحانه - من فضله ﴿ عَسَى رَبُّنَا ﴾ بفضله وإحسانه ﴿ أَنْ يُدَلِّنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ أى : أن يعطينا ما هو خير منها ﴿ إِنْ أَلَىٰ رَبِّنَا ﴾ لا إلى غيره ﴿ رَاغِبُونَ ﴾ أى : راغبون فى عطائه راجعون إليه بالتوبة والندم .

قال الألوسى : قال مجاهد : إنهم تابوا فأبدلهم الله - تعالى - خيرا منها ، وحكى عن الحسن : التوقف ، وسئل قتادة عنهم : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال للسائل : لقد كلفتنى تعباً .<sup>(١)</sup>

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بقوله : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى : مثل الذى بلونا به أصحاب الجنة ، من إهلاك جنتهم بسبب جحودهم لنعمنا ، يكون عذابنا لمن خالف أمرنا من كفار مكة وغيرهم .

فقوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ خبر مقدم ، و﴿ الْعَذَابُ ﴾ مبتدأ مؤخر ، والمشار إليه هو ما تضمنته القصة من إتلاف تلك الجنة ، وإذهاب ثمارها .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٩ ص ٣٢ .

وقدم المسند وهو الخبر على المسند إليه وهو المبتدأ للاهتمام بإحضار تلك الصورة العجيبة فى ذهن السامع .

وقوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب السابق عذاب الدنيا .

أى : مثل ذلك العذاب الذى أنزلناه بأصحاب الجنة فى الدنيا ، يكون عذابنا لمشركى قريش ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى وأعظم ، ولو كانوا من أهل العلم والفهم ، لعلموا ذلك ، ولأخذوا منه حذرهم عن طريق الإيمان والعمل الصالح .

هذا ، والمتأمل فى هذه القصة ، يراها زاخرة بالمفاجآت ، وبتصوير النفس الإنسانية فى حال غناها وفى حال فقرها ، فى حال حصولها على النعمة وفى حال ذهاب هذه النعمة من بين يديها .

كما يراها تحكى لنا سوء عاقبة الجاحدين لنعم الله ، إذ أن هذا الجحود يؤدى إلى زوال النعم ، ورحم الله القائل ، من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

## ٧. قصة أصحاب الأخدود

هذه القصة ملخصها : أن جماعة من المؤمنين الصادقين ، ثبتوا على إيمانهم وإخلاصهم العبادة لخالقهم ، فعذبهم أعداؤهم عذابا شديدا ، حيث حفروا لهم حفرا فى الأرض ، ثم أضرموا فيها النار ، ثم ألقوا بالمؤمنين فيها وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فى سورة «البروج» فقال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣  
 قِيلَ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ٥ إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُودٌ ٦  
 وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ  
 يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ  
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ  
 يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ  
 الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ  
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُعِيدُهُمْ وَاللَّهُ خَلْقُهُمْ خَيْرٌ ١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ١٤ ذُو الْعَرْشِ الْحَمِيدُ ١٥ فَعَالَ  
 لِمَا يُرِيدُ ١٦ هَلْ أُنثِقُ الْجُنُودَ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَّرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٠ بَلِ  
 هُوَ فُرْقَانٌ مَجِيدٌ ٢١ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٢

والبروج : جمع برج ، وهى فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك قوله - تعالى - : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ أى : لو كنتم فى قصور عظيمة محصنة .

والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثنا عشر منزلا : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

وقوله : ﴿ وَأَلْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ المقصود به : يوم القيامة ، لأن الله - تعالى - وعد الخلق به ، ليجازى فيه الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقوله : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قسم ثالث ببعض مخلوقاته - تعالى - .

والمراد بالشاهد هنا : الحاضر فى ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، والمرئى لأهواله وعجائبه .

والمراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ بالتنكير ، لتحويل أمرهما ، وتفخيم شأنهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴾ جواب القسم بتقدير اللام وقد .

أى : وحق السماء ذات البروج وحق اليوم الموعود ، وحق الشاهد والمشهود ، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود ، وطردهوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم .

والأخدود وهو الحفرة العظيمة المستطيلة فى الأرض ، كالخندق ، وجمعه أخاديد ، ومنه الخد لجارى الدمع ، والخدة : لأن الخد يوضع عليها .

ويقال : تتخذ وجه الرجل ، إذا صارت فيه التجاعيد ، ومنه قول الشاعر :

ووجه كأن الشمس ألت رداءها عليه ، نقى اللون لم يتخذ

وقيل : إن جواب القسم محذوف ، دل عليه قوله - تعالى - : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴾

كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة للمعونون كما لعن أصحاب الأخدود .

وأصحاب الأخدود : هم قوم من الكفار السابقين ، حفروا حفرا مستطيلة فى الأرض ، ثم أضرموها بالنار ، ثم ألقوا فيها المؤمنين ، الذين خالفوهم فى كفرهم ، وأبوا إلا إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

وقوله - سبحانه - : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴾ بدل اشتمال مما قبله وهو الأخدود .

والوقود : اسم لما توقد به النار كالحطب ونحوه ، وذات الوقود : صفة للنار .

أى : قتل وطرده من رحمة الله أصحاب الأخدود ، الذين أشعلوا فيه النيران ذات اللهب الشديد ، لكى يلقوا المؤمنين فيها .

والظرف فى قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ متعلق بقوله - تعالى - : ﴿ قُتِلَ ﴾

أى : لعنوا وطردها من رحمة الله ، حين قعدوا على الأخدود ، ليشرفوا على من يعذبونهم من المؤمنين .

فالضمير ﴿ هُمْ ﴾ يعود على أولئك الطغاة الذين كانوا يعذبون المؤمنين ويجلسون على حافات الأخدود ، ليروهم وهم يحرقون بالنار ، أو ليأمرؤا أتباعهم وزبانييتهم بالجد فى التعذيب حتى لايتهاونوا فى ذلك .

و ﴿ عَلَيَّ ﴾ للاستعلاء المجازى ، إذ من المعلوم أنهم لا يقعدون فوق النار ، وإنما هم يقعدون حولها ، لإلقاء المؤمنين فيها .

وجملة ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ فى موضع الحال من الضمير فى قوله : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أى : أن هؤلاء الطغاة الظالمين ، لم يكتفوا بإشعال النار ،

والقعود حولها وهم يعذبون المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم يشهدون تعذيبهم ، ويرونه بأعينهم على سبيل التشفى منهم ، فقوله : ﴿ شُهُودٌ ﴾ بمعنى حضور ، أو بمعنى يشهد بعضهم لبعض أمام ملكهم الظالم ، بأنهم ما قصروا فى تعذيب المؤمنين ، وهذا الفعل منهم ، يدل على نهاية القسوة والظلم ، وعلى خلو قلوبهم من أى رحمة أو شفقة .

قال الألوسى : وقوله : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى : يشهد بعضهم

لبعض عند الملك ، بأن أحدا لم يقصر فيما أمر به ، أو يشهدون عنده على حسن ما يفعلون ، أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل الشنيع يوم القيامة ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك ، كما قال - تعالى - : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقيل : ﴿ عَلَيَّ ﴾ بمعنى مع ، أى : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور ، لا يرقون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير الألوسى ج ٣٠ ص ٩٠ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي حملت هؤلاء الطغاة على إحراق المؤمنين فقال : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

والنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية ، يقال : نقم فلان هذا الشيء - من باب ضرب - إذا كرهه وأنكره .

أى : أن هؤلاء الكافرين ماكروها المؤمنين وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشيء واحد ، وهو أن المؤمنين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - صاحب العزة التامة ، والحمد المطلق ، والذي له ملك جميع مافى السموات والأرض ، وهو - سبحانه - على كل شيء شهيد وراقب ، لا يخفى عليه أمر من أمور عباده ، أو حال من أحوالهم .

فالمقصود من هاتين الآيتين الكرمتين ، التعجيب من حال هؤلاء المجرمين ، حيث عذبوا المؤمنين ، لا لشيء إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأن الإيمان فى نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار .

وهكذا النفوس عندما يستحوذ عليها الشيطان ، تتحول الحسنات فى نظرها إلى سيئات وقدما قال المنكوسون من قوم لوط - عليه السلام - ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ .

والاستثناء فى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ .. ﴾ استثناء مفصح عن براءة المؤمنين بما يعاب وينكر ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قول القائل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : وقد اختلفوا فى أهل هذه القصة من هم؟ فعن على ابن أبى طالب : أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود ، فقذف فيه من أنكر عليه منهم .

وعنه أنهم كانوا قوما من اليمن ، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فتغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخذوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

ثم ذكر - رحمه الله - بعد ذلك جملة من الآثار فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت . (١)

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٣٨٧ .

وعلى أية حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين ، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم ، وقد اقتضت سنته - تعالى - أن يجعل العاقبة للمتقين .

ثم هدد - سبحانه - كفار قريش بسوء المصير إذا ما استمروا في إيذائهم للمؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .

أى : إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله - تعالى - من ذنوبهم ، ويرجعوا عن تعذيبهم للمؤمنين والمؤمنات ، فلهم فى الآخرة عذاب جهنم ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعدوانهم ، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها فى الإحراق .

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش ، كأبى جهل وأمىة ابن خلف ، وغيرهما ، فقد عذبوا بلالا ، وعمار بن ياسر وأباه وأمهم سمية .

ويؤيد أن المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات كفار قريش ، قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ لأن هذه الجملة تحريض على التوبة وترغيب فيها للكافرين المعاصرين للنبي ﷺ .

ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، ويدخل فيه أصحاب الأخدود ، وكفار قريش دخولا أوليا .

وجمع - سبحانه - بين عذاب جهنم لهم ، وبين عذاب الحريق ، لبيان أن العذاب لهم مضاعف ، بسبب طغيانهم وشركهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعدده للمؤمنين والمؤمنات من ثواب وعطاء كريم فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ ﴾ أى : عند ربهم ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى تجري من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار ﴿ ذَلِكَ ﴾ العطاء هو ﴿ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ الذى لا فوز يضارعه أو يقاربه .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على نفاذ قدرته ومشيبته ، حتى يزداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم ، وصبرا على صبرهم فقال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسرعة وعنفة ، أى : إن بطش ربك - أيها الرسول الكريم - بالظالمين والطغاة لبالغ نهاية القوة والعنف : فمر أصحابك فليصبروا على الأذى ، فإن العاقبة الحسنة تكون لهم وحدهم .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : إنه وحده هو الذى يخلق الخلق أولا فى الدنيا ، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم للحساب والجزاء ، وهو - سبحانه - وحده الذى يبدي البطش بالكفار فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة بصورة أشد وأبقى .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : وهو - سبحانه - الواسع المغفرة لمن تاب وآمن ، وهو الكثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ أى : وهو - عز وجل - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعرف كنهه إلا هو - سبحانه - وهو ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ أى : العظيم فى ذاته وصفاته .

﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أى : وهو - تعالى - الذى يفعل كل شىء يريد ، دون أن يعترض عليه أحد ، بل فعله هو النافذ ، وأمره هو السارى والمطاع .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على شدة بطشه ، ونفاذ أمره فقال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .

والاستفهام هنا : للتقرير والتهويل ، والمراد بالجنود : الجموع الكثيرة التى عنت عن أمر ربها ، فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، وقوله : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الجنود

والمراد بفرعون وثمود : ملؤهما وقومهما الذين آثروا الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والباطل على الحق ، أى : لقد بلغك - أيها الرسول الكريم - حديث فرعون الذى طغى وبغى ، واتبعه قومه فى طغيانه وبغيه ، وحديث قوم صالح - عليه السلام - وهم الذين كذبوا نبيهم ، وأذوه ، وعقروا الناقة التى نهاهم عن أن يمسوها بسوء .

وكيف أنه - سبحانه - قد دمر الجميع تدميرا شديدا ، جزاء كفرهم وبغيهم .

وخص - سبحانه - جند فرعون وثمود بالذكر ، لأنهم كانوا أشد من غيرهم بغيا وظلما ، ولأنهم كانت قصصهم معروفة لأهل مكة أكثر من غيرهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ إضراب انتقالي ، المقصود منه بيان أن هؤلاء المشركين المعاصرين للنبي ﷺ لم يتعظوا بمن سبقهم .

أى : لقد كانت عاقبة جنود فرعون و ثمود ، الهلاك والدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، ولكن قومك - أيها الرسول لم يعتبروا بهم ، بل استمروا فى تكذيبهم لك ، وفى إعراضهم عنك ، واعلم أن الله - تعالى - محيط بهم إحاطة تامة ، ولن يفلتوا من عقابه بأية حيلة من الحيل ، فهم تحت قبضته وسلطانه ، وسينزل بهم بأسه فى الوقت الذى يريده .

وقوله - تعالى - : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ إضراب انتقالى آخر ، من بيان شدة تكذيبهم للحق ، إلى بيان أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : ليس الأمر كما قال هؤلاء المشركون فى القرآن من أنه أساطير الأولين ، بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله - تعالى - البالغ النهاية فى الشرف والرفعة والعظمة .

وأنه كائن فى لوح محفوظ من التغيير والتبديل ، ومن وصول الشياطين إليه ، ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن فى لوح محفوظ ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علمه - تعالى - لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله - تعالى - بعلمه ، وما قيل فى وصف هذا اللوح لم يرد به حديث صحيح يعتمد عليه .

ومن العظات والعبر التى نأخذها من هذه القصة ، أن هذه الحياة قد جعلها الله - تعالى - نزاعا موصولا بين أهل الحق وأهل الباطل ، إلا أن سنته - عز وجل - قد جعل العاقبة للمؤمنين الصادقين .

## ٨- قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه

هذه قصة تدل دلالة ساطعة على قدرة الله - تعالى - وعلى أن البعث والجزاء والثواب والعقاب حق .

وقد جاءت هذه القصة بعد تلك المحاوراة التي دارت بين سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وبين ذلك الملك الجبار الذي زعم أنه يحيى ويميت ، فرد عليه سيدنا إبراهيم بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا الإنسان الذي أماته الله - تعالى - مائة عام ثم بعثه ، حكى القرآن قصته فى قوله - سبحانه - :

### أَوْكَالَّذِي مَرَّ

عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ  
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ  
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ  
فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى  
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى  
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا  
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

والذى ﴿ مرَّ على قرية ﴾ قيل هو عزيز بن شرحيا ، وقيل حزقيال بن بوزى وقيل غير ذلك ، والقرية قيل المراد بها بيت المقدس ، وكان قد خربها بختنصر البابلى والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار .

والمعنى : إليك قصة الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها ، وفارغة من كان يسكنها فهاله أمرها ، وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب ، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلث منهم ، فقله : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ ﴾ بمعنى كيف أو بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها .

وقال القرطبي : قوله : ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ معناه من أى طريق وبأى سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن فى المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أى : أنى تعمر هذه بعد خرابها ، فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته .<sup>(١)</sup>

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة لأنه كان مؤمنا بالبعث والنشور ، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها ، وتشوق إلى عمارتها واعترف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء ، فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل؟ كانت نتيجته كما حكاه القرآن : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ .

أى : بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال ، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ أى : كم مدة من الزمن لبثتها على هذه الحال؟ ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ ولم يقل ثم أحياه ، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظة بعده وأنه لا شئ محال على الله - تعالى - فهو القائل : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ .

وفى الحديث الشريف : والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا .

(١) تفسير القرطبي ج٣ ص ٢٩٩ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ معطوف على مقدر ، أى : ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوماً أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام .

ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل فى أمور فيها أبلغ دلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث ، فقال - سبحانه - : ﴿ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ .

وقوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ أى : لم يتغير بمرور السنين الطويلة ولم تذهب طراوته فكأنه لم تمر عليه السنون .

وقوله : ﴿ نُشِزُهَا ﴾ أى نرفعها ، يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه ، وأصله من النشز - بفتحين والسكون - وهو المكان المرتفع ، وقرئ «نشرها» - بضم النون والراء - أى نحييها من أنشر الله الموتى أى أحياهم .

والمعنى : قال الله - تعالى - لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها إنك لم تلبث يوماً أو بعض يوم فى الموت كما تظن بل لبثت مائة عام فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمراً آخر من دلائل قدرتنا فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقى على حالته ، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة .

وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق ، والتقدير فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله ، ولنجعلك آية معجزة ودليلاً على صحة البعث .

وقوله : ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ أى : انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدتها .

وقيل : المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده .

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حمارة يمينا وشمالا حوله فنظر إليها وهى تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع ، ثم ركب كل عظم فى موضعه ، وذلك كله بمرأى من العزيز .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٣١٤ .

وجاء الضمير فى قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهٗ ﴾ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب ، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصار بمنزلة شىء واحد ، فكأنه قال : انظر إلى غذائك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : فلما تبين له بالأدلة الناصعة ، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة ، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأومن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شىء قدير ، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء ، والفاء فى قوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ ﴾ عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل : رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك ، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وفاعل «تبين» مضمرة يفسره سياق الكلام والتقدير فلما تبين له كيفية الإحسان أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شىء قدير .

فهذه القصة تدل دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وعلى قدرته النافذة ، كما تدل عن طريق المشاهدة على أن البعث حق .

## ٩. قصة العادين فى السبت

وقصة هؤلاء المعتدين فى يوم السبت تتلخص فى أن قوما من بنى إسرائيل ، أخذ الله - تعالى - عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم السبت ، وحرّم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام .

واختبارا منه - سبحانه - لإيمانهم ولوفائهم بعهودهم ، أرسل إليهم الحيتان فى يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم ، قريبة المأخذ ، سهلة الاصطياد .

وهنا سأل لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا فى حيلة لاصطياد هذه الحيتان فى يوم السبت فقالوا : لا مانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك فى يوم السبت أحواضا تنساب إليها المياه ومعها الأسماك ، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة فى الأحواض فى يوم السبت - لأنها لا تستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذى فى الأحواض ، ثم نصطادها بعد ذلك فى غير يوم السبت ، وبذلك نجتمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت وبين ما تشتهيهِ أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك .

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على محارم الله ، وأن حبس الحيتان فى الأحواض هو صيد لها فى المعنى ، وهو فسوق عن أمر الله ونقض لعهوده .

ولكنهم لجهلهم واستيلاء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلتهم الشيطانية ، فغضب الله عليهم ومسخهم قرده ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولن أتى بعدهم وموعظة للمتقين .

واستمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول :

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ  
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣١﴾  
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ فَلَا تَسْأَلُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ  
 أَنْجِيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ بَئِيسٍ بِمَا  
 كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٥﴾ فَلَا تَعْتَوْنَ مَانُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧٦﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ . . ﴾ . . إغ معطوف على اذكر المقدر فى قوله  
 - تعالى - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا﴾ والخطاب للنبي ﷺ وضمير الغيبة للمعاصرين له  
 من اليهود .

أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحايلوا  
 على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم فى كتبهم ولا يستطيعون كتمانها .

والمقصود من سؤالهم تقريرهم على عصيانهم ، لعلمهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ،  
 ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من  
 علومهم المعروفة لهم والتى لا يستطيعون إنكارها ، والتى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا  
 أخبرهم بها النبى الأسمى الذى لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له ، ودليلا على أنه نبى  
 صادق موحى إليه بها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : «أى وأسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود  
 الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على  
 اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى  
 كتبهم «لثلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى «أيلة» وهى على  
 شاطئ بحر القلزم ، أى - البحر الأحمر- . (١)

وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية ، قرية «أيلة» التى تقع بين مدين والطور ،  
 وقيل هى قرية طبرية ، وقيل هى مدين .

ومعنى كونها ﴿حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة  
 الدار أى قريبا منها .

وقوله : ﴿إِذْ يَعِدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى يظلمون ويتجاوزون حدود الله - تعالى - بالصيد  
 فى يوم السبت ويعدون بمعنى يعتدون ، يقال : عدا فلان الأمر واعتدى إذا تجاوز حده .

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٥٦ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾  
بيان لموضع الاختبار والامتحان .

وقوله : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ ظرف ليعدون ، وحيتان جمع حوت وهو السمك الكبير ، وشرعا : أى : شارعة ظاهرة على وجه الماء ، جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا ، وأشرف وكل شىء دنا من شىء فهو شارع ، وقوله : شرعا حال من الحيتان .

والمعنى : إذ تأتيهم حيتانهم فى وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دانية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مر يوم السبت وانتهى لاتأتيهم كما كانت تأتيهم فيه ، ابتلاء من الله - تعالى - لهم .

قال ابن عباس : «اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به ، وحرّم عليهم الصيد فيه وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ . (١)

وقال الإمام القرطبي : «وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود - عليه السلام - وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد . (٢)

وقوله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ معناه : بمثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت ، واختفائه فى غيره نبئليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم ، وتحايلهم القبيح علي شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه ، وأجل له ثواب أخراه ، ومن عصاه أخذ عذابه عزيز مقتدر .

ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

(١) تفسير الفخر الرازى ج٤ ص٣١٦ طبعة الأميرية الأزهرية سنة ١٣٠٨ هـ .

(٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٠٦ .

والذى يفهم من الآية الكريمة - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق .

١ - فرقة المعتدين فى السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار .

٢ - فرقة الناصحين لهم بالانتهاى عن تعديهم وفسوقهم .

٣ - فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هي التي عبر القرآن الكريم عنها بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى : قالت فرقة من أهل القرية ، لإخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت ، لم تعظون قوما لافائدة من وعظهم ولاجدوى من تحذيرهم ، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذابا شديدا ، جزاء تماديهم فى الشر ، وصممهم عن سماع الموعدة فكان رد الناصحين عليهم ﴿ مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين :

الأول : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والثانية : الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم بالموعدة حتى ينجوا من العقوبة ويسيروا فى طريق المهتدين .

وقيل : إن أهل القرية كانوا فرقتين ، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت فى السبت ، وفرقة أحجمت عن الإقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعدة على نصيحتها للفرقة العادية ، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء : لم تعظون قوما لله مهلكم أو معذبهم عذابا شديدا فى زعمكم؟ فأجابتهم الناصحة بقولها : معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون .

والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين لأن هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة ، إذ لو كانوا فرقتين لكانت الناصحة للعاصية «ولعلمكم يتقون» بكاف الخطاب ، بدل قولهم «ولعلمهم يتقون» الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة ، والفرقة الناصحة .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره الآية الكريمة : إن بنى إسرائيل افتقرت ثلاث فرق «فرقة عصت وصدت ، وكانوا نحوا من سبعين ألفا ، فرقت نهت واعتزلت ولم تنه ولم

تعص ، وأن هذه الطائفة هي التي قالت للنهاية ، لم تعظون قوما - عصاة - الله مهلكهم ، أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد حينئذ من فعل الله - تعالى - بالأُم العاصية؟»<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿مَعْدِرَةٌ﴾ بالنصب على أنها مفعول لأجله أى : وعظناهم لأجل المعذرة ، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى : نعتذر وقرئت «معدرة» بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليقه : لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا مستأنفا ولكنهم قيل لهم لم تعظون؟ فقالوا موعظتنا معذرة .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال - تعالى - : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى : فلما لج الظالمون فى طغيانهم ، وعموا وسموا عن النصيحة أنجينا الناصحين ، وأخذنا العادين بعذاب شديد لارحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله .

والآية الكريمة صريحة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء ، أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين فقد سكت عنها .

ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج لأنها لم تنه عن المنكر ، فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .

ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت ، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبب ولم ترتكب شيئا مما ارتكبه ، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه ، فلا جدوى وراء وعظهم ، وإلى هذا رأى ذهب صاحب الكشاف وغيره .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : الأمة الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ، من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين ، قلت من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، فرضا صحيحا لعلمهم بحال القوم ، وإذا علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى ، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى الماكثين القاعدين على المآثر والجلادين المرتين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثا منك ، ولم يكن إلا سببا للتلهى بك ، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم ، إما لأن يأسهم لم يستحکم كما استحکم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حرصهم

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٠٧ .

وجدتهم فى أمرهم ، كما وصف الله - تعالى - رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله :  
﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١)

وقال الإمام ابن كثير : « وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة ، ما أدرى ما فعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة » (٢)

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها ، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ، ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين فى السبب موقفا سلبيا استحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخاة .

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال - تعالى - :  
﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ أى : فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون ، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك .

قال الألوسى : والأمر فى قوله - تعالى - ﴿ قُلْنَا ﴾ تكوينى لا تكليفى لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به ، وهذا كقوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فى أنه يحتمل ألا يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل (٣)

وقيل فى تفسير الآية إن الله - تعالى - عاقب القوم أو لا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة ، فلما لم يرددعوا ويثوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخا خلقيا وجسميا ، فكانوا قردة على الحقيقة ، وهو الظاهر من الآية ، وعليه الجمهور :  
وقيل : مسخهم مسخا خلقيا ونفسيا ، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها ، وهذا مروى عن مجاهد .

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى ، وتأييهم عن قبول النصيحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم ، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان ، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٦٧ .

(٣) تفسير الألوسى ج٩ ص ٩٣ .

هذا وقد استدل العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل القبيحة التي يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة ، وغاياتهم الدنيئة ومطامعهم الخسيسة .

وقد أفاض الإمام ابن القيم فى كتابه «إغاثة اللهفان» فى إيراد الأدلة الدالة على هذا التحريم ، فقال ما ملخصه : «ومن مكاييد الشيطان التى كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرضه ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ، فإن رأى رأيان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به ، ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذى ذموه وأهدروه .

وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله - تعالى - به وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام وتخليص المحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه ، ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ، والظالم مظلوما ، والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ، ثم قال :

إن الله - تعالى - أخبر عن أهل السب من اليهود بمسخهم قردة ، لما تحايلا على إباحة ما حرمه الله - تعالى - عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد .

قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله - تعالى - بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها وليس التحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبا لموسى - عليه السلام - وكفرا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الإيفاء وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قردة ، لأن صورة القردة فيها شبه من صور الإنسان ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله - تعالى - بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم - سبحانه - قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا ، وفى الحديث الشريف «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» .<sup>(١)</sup>

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها» .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين فى السب من اليهود ، برذيلة الجهالة وضعف الإرادة ، وتحاييلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلا للعذاب الشديد والمسوخ الشنيع ، جزاء إمعانهم فى المعصية وصممهم عن سماع الموعظة ، وما ربك بظلام للعبيد .

(١) إغاثة اللهفان ج١ ص ٣٥٨

## ١٠. قصة أصحاب الفيل

قصة أصحاب الفيل من القصص المشهورة فى التاريخ ، وملخصها : أن أبرهة الحبشى أعد جيشا كبيرا لهدم الكعبة ، فأهلكه الله - تعالى - هو وجيشه .  
وقد سجل القرآن ذلك فى سورة كريمة هى سورة «الفيل» قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ  
فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ  
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴾ للتقرير بما تواتر نقله .

وعلمه ﷺ وعلمه غيره علما مستفيضا ، حتى إن العرب كانوا يؤرخون بتلك الحادثة ، فيقولون : هذا الأمر حدث فى عام الفيل ، أو بعده أو قبله ، والمراد بالرؤية هنا : العلم المحقق .

وعبر - سبحانه - عن العلم بالرؤية ، لأن خبر هذه القصة - كما أشرنا - كان من الشهرة بمكان ، فالعلم الحاصل بها مساو فى قوة الثبوت للرؤية والمشاهدة .

والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - علما لا يخالطه ريب أو لبس ، ما فعله ربك بأصحاب الفيل ، الذين جاءوا لهدم الكعبة ، حيث أهلكتناهم إهلاكا شنيعا ، كانت فيه العبرة والعظة ، والدلالة الواضحة على قدرتنا ، وعلى حمايتنا لبيتنا الحرام .

وأوقع - سبحانه - الاستفهام عن كيفية ما أنزله بهم ، لا عن الفعل ذاته ، لأن الكيفية أكثر دلالة على قدرته - تعالى - وعلى أنه - سبحانه - لا يعجزه شئ .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ .. ﴾ إشارة إلى أن هذا الفعل لا يقدر عليه أحد سواه - سبحانه - فهو الذى ربي نبيه ﷺ وتعهد بالرعاية ، وهو الكفيل بنصره على أعدائه ، كما نصر أهل مكة ، على جيوش الحبشة ، وهم أصحاب الفيل .

ووصفوا بأنهم ﴿أَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ لأنهم أحضروا معهم الفيلة ، ليستعينوا بها على هدم الكعبة ، وعلى إذلال أهل مكة .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ للتقرير - أيضا - أى : لقد جعل الله - تعالى - مكر أصحاب الفيل وسعيهم لتخريب الكعبة ، فى ﴿تَضْلِيلٍ﴾ أى : فى تخسير وإبطال وتضييع ، بأن تبرهم - سبحانه - تتبيرا ودمرهم تدميرا .

والكيد : إرادة وقوع الإضرار بالغير فى خفية وسمى - سبحانه - ما فعله أبرهة وجيشه كيدا ، مع أنهم جاءوا لهدم الكعبة جهارا نهارا ، لأنهم كانوا يضمرون من الحقد والحسد والعداوة لأهل مكة ، أكثر مما كانوا يظهرونه ، فهم - كما قال - تعالى - : ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ .

والمقصود بالتضليل هنا : التضييع والإبطال ، تقول : ضللت كيد فلان ، إذا جعلته باطلا ضائعا .

ثم بين - سبحانه - مظاهر إبطاله لكيدهم فقال : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ .

والطير : اسم جمع لكل ما من شأنه أن يطير فى الهواء ، وتنكيره للتنوع والتحويل ، والأبابيل : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل هو جمع إبالة ، وهى حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامنها وتلاصقها .

أى : لقد جعل الله - تعالى - كيد هؤلاء المعتدين فى تضييع وتخسير ، بأن أرسل إليهم جماعات عظيمة من الطير ، أتتهم من كل جانب فى تتابع ، فكانت سببا فى إهلاكهم والقضاء عليهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ .

وجملة : ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سَجِيلٍ﴾ بيان لما فعلته تلك الطيور بإذن الله - تعالى - وهى حال من قوله ﴿طَيْرًا﴾ والسجيل : الطين اليابس المتحجر .

قال بعض العلماء : قوله : ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سَجِيلٍ﴾ أى : من طين متحجر محرق ، أو بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون فى السجيل ، وهو الديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن السجيل هو الديوان الذى كتبت فيه أعمالهم ، واشتقاقه من الإسجال بمعنى الإرسال .

وعن عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها ،

خرج به الجدرى ، وكان ذلك أول يوم رثى فيه الجدرى بأرض العرب .

وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفض جلده أى : احترق ، فكان ذلك أول الجدرى ، وقيل إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام .

وقال ابن جُزَى فى تفسيره : إن الحجر كان يدخل من رأس أحدهم ويخرج من أسفله .

ووقع فى سائر الجدرى والأسقام ، وانصرفوا وماتوا فى الطريق متفرقين ، وتمزق أبرهة قطعة قطعة (١) .

وقوله - سبحانه - ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ بيان للأثار الفظيعة التى ترتبت على ما

فعلته الحجارة التى أرسلتها الطيور عليهم بإذن الله - تعالى - .

والعصف : ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله الحيوانات ، أو هو التبن الذى تأكله الدواب .

أى : سلط الله - تعالى - عليهم طيرا ترميهم بحجارة من طين متحجر ، فصاروا بسبب ذلك صرعى هالكين ، حالهم فى تمزقهم وتناثرهم كحال أوراق الأشجار اليابسة أو التبن الذى تأكله الدواب .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد سافت من مظاهر قدرة الله - تعالى - ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، وما يحمل الكافرين على الاهتداء إلى الحق ، والإقلاع عن الشرك والجحود لو كانوا يعقلون .

(١) تفسير «صفوة البيان» ج٢ ص ٥٦٩ للشيخ حسنين محمد مخلوف .

# مسك الختام

## حديث القرآن عن خير الأنام

سيدنا محمد ﷺ

إن القارئ للقرآن الكريم يتدبر وتفكر ، يراه قد تحدث عن خاتم المرسلين ﷺ حديثا جامعا لكل معاني الخير والفضل والهداية .

حديثا جمع في ألفاظه ومعانيه بين البشرية والنبوة ، والصدق والوضوح ، والإرشاد والامتنان ، والتكريم والتشريف ، والتذكير والاعتبار ، والتأسي والطاعة والتسلية ، والتثبيت ، والعتاب والتوجيه ، والتعليم والتلقين ، والتأييد والدفاع ، والجهد والعبادة .

حديثا يزيد المؤمنين إيمانا و يقينا واستبشارا بأن اتباعهم للرسول الكريم محمد ﷺ هو عين الحق والخير والهداية والسعادة .

وأستطيع أن أقول دون تردد : إن القرآن الكريم هو خير مصدر لمعرفة شخصية سيدنا رسول الله ﷺ معرفة واضحة دقيقة صادقة ، لا يأتيها الباطل بين يديها ولا من خلفها .

لذا فكلامى هنا مقصور على جوانب من حديث القرآن عنه ﷺ ، أما الحديث المفصل عن مولده ﷺ وعن نشأته ، وصباه ، وشبابه ، وكهولته ، وبعثته ، وهجرته ، وغزواته ، ومعجزاته ، وغير ذلك من مظاهر سلوكه وصفاته الخلقية ، والخلقية ، فهذه أمور تكفلت كتب السيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامى بالبيان الشامل لها .

ومن أهم الجوانب التى تحدث القرآن الكريم عنها ، بالنسبة لشخصه ﷺ ما يأتى :

## البشارات به ﷺ

١ - حديث القرآن الكريم عن البشارات التي سجلتها الكتب السماوية السابقة عن بعثة النبي ﷺ وعن رسالته ، وردت في آيات متعددة ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى -  
في سورة «الأعراف» :

الَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ  
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ  
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا  
النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

ففي هذه الآية الكريمة وصف الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ بأوصاف سامية تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به .

الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا .

الوصف الثاني : أنه نبي أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين .

الوصف الثالث : أنه أمي ما قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله - تعالى - أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل - عليه السلام - ، وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادئ توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية ، فأमितه مع هذه العلوم التي يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى من الله إليه .

قال - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

وقال - سبحانه - : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ لَمِنَ الْمَبْطُلِينَ ﴾ (٢)

الصفة الرابعة : أشار إليها بقوله ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ أى هذا الرسول النبى الأسمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ووجود اسمه ونعته فى كتبهم من أكبر الدواعى إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه .

ولقد كان بعض أهل الكتاب يبشرون ببعثة النبى ﷺ قبل زمانه ويقرؤون فى كتبهم ما يدل على ذلك فلما بعث الله - تعالى - نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا ، وحسدوا محمدا ﷺ على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبى ﷺ فيها ، أو يؤولونه تأويلا فاسدا ، أو يكتمونونه عن عامتهم .

ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم أو تأويلهم السقيم له ، أو كتمانهم عن الأئمة منهم ، أبى الله - تعالى - إلا أن يتم نوره ، إذ بقى فى التوراة والإنجيل ما بشر بالنبى ﷺ وصرح بنعوته وصفاته ، بل وباسمه صريحا .

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته ، وهانحن نذكر طرفا مما قاله العلماء فى هذا الشأن .

قال الإمام الماوردى فى «أعلام النبوة» : «وقد تقدمت بشارات من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على أممهم ، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله - تعالى - على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثاً على القبول فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره ، وقد حقق الله - تعالى - هذه الصفات جميعها فيه ، حتى صار جليا بعد الاحتمال ، ويقينا بعد الارتياب» (٣)

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

(٣) الباب الخامس عشر : فصل «بشارات الأنبياء بنوة محمد ﷺ» .

وجاء في «منية الأذكياء في قصص الأنبياء»: «إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - قد بشر به الأنبياء السابقون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان في جميع الأوصاف، لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا في تحريف بعض الصفات ليبعد صدقها على النبي ﷺ فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها في بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره، ولا ما قصد به، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم، لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها» (١).

وقال المرحوم الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق»: «إن الأخبار الواقعة في حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن - أيضا - مع وقوع التحريفات في هذه الكتب، ومن عرف أولا طريق أخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر، ثم نظر ثانيا بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات وقابلها بالإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى - عليه السلام - جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة» (٢).

وقد جمع صاحب كتاب «إظهار الحق» وغيره من العلماء والمؤرخين كثيرا من البشائر التي وردت في التوراة والإنجيل خاصة بالنبي ﷺ ومبينة نعوته وصفاته .

ومن أجمع ما جاء في التوراة خاصة بالنبي ﷺ ما أخرجه البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال: «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ (محمد رسول الله: عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بظف، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله)» (٣).

كذلك مما يشهد بوجود النبي ﷺ في التوراة، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال: «حدثني رجل من الأعراب فقال: جلبت حلوبة (٤) إلى المدينة في حياة النبي ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمسيان، فتبعتهما حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي» .

(١) نقلا عن تفسير القاسمي ج٧ ص ٢٨٧٤ .

(٢) كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي .

(٣) صحيح البخارى باب «كراهة الصخب في الأسواق» من «كتاب البيوع» ج٣ ص ٨٣ .

(٤) الحلوبة: الشاة ذات اللبن وهي للواحد وللجمع .

فقال برأسه هكذا ، أى : لا ، فقال ابنه : أى والذي أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال الرسول ﷺ : أقيموا اليهودى عن أحيكم ، ثم تولى كفته والصلاة عليه .<sup>(١)</sup>

هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء فى ذلك .<sup>(٢)</sup>

ثم وصف الله - تعالى رسوله ﷺ بصفة خامسة فقال - تعالى - : ﴿ يَا مَرْهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أى هذا الرسول النبى الأمى الذى يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور التى جاء بها الشرع الحنيف ، وارتاحت لها العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى ومساوئ الأخلاق .

ثم وصف الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ بصفة سادسة فقال - تعالى - : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ أى : يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم فسوقهم عقوبة لهم ، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به الله كالحوم الإبل وألبانها ، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى المأكولات ، وكأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذلك سعادتهم وفلاحهم .

ثم وصف الله - تعالى - رسوله ﷺ بصفة سابعة فقال - تعالى - : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه ، أى يحبسه عن الحركة لثقله ، ويطلق على العهد كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ﴾ أى عهدى .

والأغلال : جمع غل ، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد ، والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة .

والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبى الأمى أنه جاءهم ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - جاء بالتبشير والتخفيف ، وبعث بالحنيفية السمحة ، ومن وصاياهم ﷺ : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » .

(١) تفسير ابن كثير ج-٢ ص ٢٥١ .

(٢) راجع تفسير القاسمى ج٧ ص ٢٨٧٤ وما بعدها ، وكتاب : «خاتم النبیین» ج١ ص ٨٨ ، ١٤٠ ، ٣٢٧ لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة - رحمه الله - .

قال الإمام ابن كثير: «وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل»، وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن الله - تعالى - قال بعد كل سؤال من هذه: «قد فعلت قد فعلت» (١).

ثم ختم الله - تعالى - الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبيه فقال - تعالى - : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .  
 أي: فالذين آمنوا بهذا الرسول النبي الأمي وعزروه، بأن منعه من كل من يعاديه، مع التعظيم والتوقير له، ونصروه بكل وسائل النصر ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وهو ما أوحاه الله - تعالى - إليه من القرآن الكريم، ومن الهدى الحكيم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون الظافرون برحمة الله - تعالى - ورضوانه .

وبذلك تكون الآية الكريمة، قد وصفت الرسول ﷺ بأحسن الصفات، وأكرم المناقب، وأعلنت بأن البشارات بالنبي ﷺ ثابتة في التوراة والإنجيل .

٢ - وفي سورة «الصف» آية كريمة صرحت بأن عيسى ابن مريم - عليه السلام - قد بشر من بُعث إليهم بالنبي ﷺ وذكره باسمه .  
 وهذه الآية هي قوله - تعالى - :

وَأَذَقْنَا لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمٍ حَسْرَةَ الْمَوْتِ إِذْ قَالَ يَا رَبِّ ائْتِنِي بِسُورَةٍ مِّنَ الْقُرْآنِ نَزَّلَهَا عَلَيَّ سَاجِدًا لِّهَا وَلَئِن لَّمْ يَأْتِنِي بِهَا فَاكُفِّرْ بِي حَسْرَةً وَخُصِمْتُ فِي الْمَقَابِلِ لَئِن لَّمْ يَأْتِنِي بِهَا فَاكُفِّرْ بِي حَسْرَةً وَخُصِمْتُ فِي الْمَقَابِلِ لَئِن لَّمْ يَأْتِنِي بِهَا فَاكُفِّرْ بِي حَسْرَةً وَخُصِمْتُ فِي الْمَقَابِلِ

مُبِينٌ ﴿٦٦﴾

فهذه الآية الكريمة واضحة وضوح الشمس، في أن عيسى بن مريم - عليه السلام - قد بشر من أرسل إليهم بالرسول ﷺ. (٢)

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٢) راجع تفسيرنا للآية الكريمة عند الحديث عن قصة عيسى - عليه السلام - ص ٨٤٦ .

٣ - وفى سورة «البقرة» آية كريمة ، ذكرت أن بعض أهل الكتاب كانوا يبشرون بالنبي ﷺ ويهددون من يخالفهم بأنهم سيؤمنون بهذا النبي الكريم عند مبعثه ، وأنهم بسبب إيمانهم به سينتصرون على كل من يعاديهم .  
وهذه الآية الكريمة هى قوله - تعالى - :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا  
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا  
كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية آثارا متعددة ، منها : ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا : بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله محمدا ﷺ رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه ، فأما به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ .. ﴾ الآية (١) .

ومعنى الآية إجمالا : وحين جاء إلى اليهود محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ، مصدقا لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبي ﷺ ونعته ، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم لما جاءهم هذا النبي المرتقب ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته ، وكذبوا كتابه ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ القرآن الكريم ، وفى تنكيهه زيادة تعظيم وتشريف له ، وفى الإخبار عنه بأنه من عند الله ، إشارة إلى أن ما يوحى به - سبحانه - جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير ، والذى مع اليهود هو التوراة ، ومعنى كون القرآن مصدقا لها ، أنه يؤيدها ويوافقها فى أصول الدين ، وفيما يختص ببعثة النبي ﷺ وصفته .

وفى وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم ، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة لأنهم لم يكفروا بشيء يخالف أصول كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذى يصدق كتابهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٢ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية ، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع ، يستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي الذي نجد نعته في التوراة .

والاستفتاح معناه : طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم فيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين الناس قال - تعالى - : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ .. ﴾ أى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر ، فالمراد به فى الآية الاستنصار .

ثم بين - سبحانه - حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال - تعالى - :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ أى : فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به .

وقال - سبحانه - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا .. ﴾ ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول ، ليكون اللفظ اشمل ، فيتناول الكتاب والرسول الذى جاء به لأنه لا يجيء الكتاب إلا عن طريق رسول .

ومعرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة فى التوراة عن النبي ﷺ فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به ، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبي المبعوث منهم لا من العرب ، ملأ قلوبهم غيظا وحسدا ، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها ، وحال بينها وبين أن يكون لها أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق .

ولقد حاول رئيسهم «عبدالله بن سلام» ﷺ أن يصرفهم عن العناد وأقسم لهم بأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا وطمسوا وتنقصوه ولذا لعنهم الله - تعالى - وأبعدهم عن رحمته ، كما قال - تعالى - : ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وقال - سبحانه - ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ولم يقل عليهم ، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا ، أن البشارات بالنبي ﷺ ثابتة فى الكتب السماوية التى أنزلها الله - عز وجل - على رسله ، وقد صرح بها آخر رسول أرسله الله - تعالى - إلى بنى إسرائيل ، وهو عيسى بن مريم - عليه السلام - .

هذا ، وإن هذه البشارات بقرب بعثة خاتم المرسلين محمد ﷺ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، كانت تستلزمها وتقتضيها حالة الإنسانية فى تلك الفترة التى سبقت مولده وبعثته ﷺ فقد كان العالم يموج بفتن كقطع الليل المظلم ، إذ الحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والروم ، والعقائد كانت قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الاضطراب والتحريف ، والأخلاق كانت تحكمها الشهوات والأهواء ، والأناية والأحقاد ، والظلم والطغیان .

وحال سكان الجزيرة العربية وعلى رأسهم أهل مكة ، لم يكن أحسن حالا من غيرهم ، فقد كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، وكانوا يعبدون أصناما لاتنفع ولاتضر ، ويقولون : «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» ويقولون : «إنا وجدنا آباءنا على أمة - أى : على مذهب وطريقة - وإنا على آثارهم مهتدون» مع أنهم إذا سألهم سائل عن خلقهم ليقولن الله!

كانوا غارقين فى الشهوات المردية ، وفى العصبية الخزية ، وفى التقاليد البالية ، وفى التفاخر بالأحساب والأنساب دون التفات إلى غير ذلك من قيم كريمة ، ومن عدالة فى الأحكام ، واستقامة فى السلوك ، وهذا لا يمنع أن قلة قليلة من أهل مكة ، كانت تنفر من شرك المشركين ، ومن عاداتهم المرذولة ، ومن عصبيتهم العمياء ، كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل وغيرهم .

ولقد صور أمير الشعراء أحمد شوقى - رحمه الله - حال العالم قبل بعثته ﷺ تصويرا حكيما ، حيث قال فى قصيدته «نهج البردة» .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم	إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا ، مسخرة	لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبنى فى رعيته	وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله فى شبهه	ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم	كالليلث بالبهيم ، أو كالحوت بالبلم <sup>(١)</sup>

وخلال تلك الظلمات التى سادت الإنسانية ، جاءت البشارات بخاتم الرسل ﷺ الذى كانت رسالته «رحمة للعالمين» .

(١) البهم : صغار الحيوانات ، والبلم : صغار السمك .

## ٢- إنعام الله- تعالى- على المؤمنين

### بالرسول ﷺ

١ - لقد صرح القرآن الكريم فى كثير من آياته ، بأن الله - عز وجل - قد امتن على المؤمنين ، وأحسن إليهم - بل إلى العالم كله - بأن بعث فيهم رسوله محمدا ﷺ لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم ، ولكى يهديهم إلى الصراط المستقيم ، وإلى الدين القويم الذى ارتضاه - سبحانه - لعباده دينا ، ومن الآيات القرآنية التى قررت هذا المعنى ، قوله - تعالى - فى سورة «آل عمران» .

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ  
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٤﴾

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : «للمنّ فى كلام العرب معان» :

أحدها : الذى يسقط من السماء وهو قوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ .

وثانيها : أن تمن بما أعطيت كما فى قوله : ﴿ لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ .

وثالثها : القطع كما فى قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ .

ورابعها : الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه - وهو المراد هنا (١) .

والمعنى : لقد أنعم على المؤمنين وأحسن إليهم ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

أى بعث فيهم رسولا عظيم القدر ، هو من العرب أنفسهم ، وهم يعرفون حسبه ونسبه وشرفه وأمانته ﷺ .

(١) تفسير الفخر الرازى ج٩ ص٨٧ .

وعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله: ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى من نفس العرب ، ويكون المراد بالمؤمنين مؤمنى العرب ، وقد بعثه الله عربيا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع بتوجيهاته .

ويصح أن يكون معنى قوله: ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله - تعالى - وهبه النبوة والرسالة ، ليخرج الناس - منهم وغير العربى - من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، وجعل رسالته عامة فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وخص الله - تعالى - منته وفضله بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين انتفعوا بنعمة الإسلام الذى لن يقبله الله دينا سواه والذى جاء به محمد ﷺ .

والجملة الكريمة جواب قسم محذوف والتقدير: والله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذه المنة والفضل ببعثة الرسول ﷺ فقال: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

والتلاوة: هى القراءة المتتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض .

والتزكية: هى التطهير والتنقية .

أى لقد أعطى الله - تعالى - المؤمنين من النعم ما أعطى لأنه قد بعث فيهم رسولا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التى أنزلها لهدايتهم وسعادتهم ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى: يطهرهم من الكفر والذنوب ، أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين بما كانوا عليه من دنس الجاهلية ، والاعتقادات الفاسدة .

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ بأن يبين لهم المقاصد التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه التى قد تخفى على مداركهم .

فتعليم الكتاب غير تلاوته: لأن تلاوته قراءته مرتلا مفهوما أما تعليمه فمعناه بيان أحكامه وما اشتمل عليه من تشريعات وأداب .

ويعلمهم كذلك ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ أى الفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده التى يكمل بها العلم بالكتاب .

وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عدة صفات من الصفات الجليلة التي منحها الله تعالى - لنبية محمد ﷺ .

ثم بين - سبحانه - حال الناس قبل بعثة الرسول ﷺ فقال : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أى : إن حال الناس وخصوصا العرب أنهم كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ إليهم فى ضلال بين واضح لا يخفى أمره على أحد من ذوى العقول السليمة والأذواق المستقيمة .

وحقا لقد كان الناس قبل أن يبرز نور الإسلام الذى جاء به ﷺ من عند ربه فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، فهم من ناحية العبادة كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ومن ناحية الأخلاق تفشت فيهم الرذائل حتى صارت شيئا مألوفا ، ومن ناحية المعاملات كانوا لا يلتزمون الحق والعدل فى كثير من شئونهم .

والخلاصة أن الضلال والجهل وغير ذلك من الرذائل ، كانت قد استشرت فى العالم بصورة لا تخفى على عاقل ، فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه محمدا ﷺ لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .

٢ - وشبهه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - فى سورة «الجمعة» : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ولفظ ﴿ الْأُمِّيِّينَ ﴾ جمع أمى ، والمراد بهم العرب ، لأن معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة .

وسمى من لا يعرف القراءة والكتابة بالأمى ، لغلبة الأمية عليه ، حتى لكأن حاله بعد تقدمه فى السن ، كحاله يوم ولدته أمه فى عدم معرفته للقراءة والكتابة .

ولفظ «من» فى قوله - تعالى - ﴿ مِنْهُمْ ﴾ للتبويض ، باعتبار أنه واحد منهم ويشاركهم فى بعض صفاتهم وهى الأمية .

أى : هو - سبحانه - وحده ، الذى بعث بفضلته وإحسانه فى العرب الأميين رسولا كريما عظيما كائنا من جنسهم ، لكى يتلو عليهم آيات الله - تعالى - ، ويذكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، مع أنهم كانوا قبل بعثته ﷺ فى ضلال ، فكان من رحمته وفضله - عز وجل - أن أرسل فيهم رسوله محمد ﷺ ، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فيه مافية من دعوتهم إلى الإيمان به ، لأن هذا الرسول الكريم ، ليس غريبا عنهم ، وإنما هو واحد منهم ، شرفهم من شرفه ، وفضلهم من فضله .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ فِيهِمْ ﴾ المفيد للظرفية للإشعار بأنه ﷺ كان مقيما فيهم ، وملازما لهم ، وحريصا على أن يبلغهم رسالة ربه في كل الأوقات .

٣ - وفي سورة البقرة آية كريمة قصت علينا أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد تضرعا إلى خالقهما وهما بينان البيت الحرام ، أن يبعث في هذه الأمة المحيطة بهذا البيت ، رسولا كريما يهديهم إلى الصراط المستقيم .

وهذه الآية هي قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

والضمير في قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة في قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ .

والرسول : من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه والمراد بقوله - تعالى - : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ يقرأها عليهم قراءة تذكير وفي هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع .

والآيات : جمع آية ، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله ، وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه ، أو المراد بها آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت ، ويتعبدوا بتلاوتها ، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجها مشرقا من وجوه إعجازها .

والكتاب : القرآن ، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه ، ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وأداب .

والحكمة : العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به ، ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التي تنتظم أقوال النبي ﷺ وأفعاله ، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال ، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب ، وتفتح لهم طرق التفقه في أسرار الدين ومقاصده .

والمعنى : ونسألك يا ربنا أن تبعث في الأمة المسلمة ، أو في ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه ، ويرشدهم

إلى ما فيه من حكم ومواعظ وأداب ، كما يهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك - والتى بها يتم التفقه فى الدين ومعرفة أسرارهِ وحكمه ومقاصده ، والتى يكمل بها العلم بالكتاب إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم .

أى : القادر الذى لا يغلب على أمره ، العالم الذى يدبر الأمور على وفق المصلحة ، ومن كان قادرا على كل ما يريد ، عليما بوجوه المصالح ، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهاال .

ولقد حقق الله - تعالى - دعوة هذين النبيين الكريمين ، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم .

وهو محمد ﷺ أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا .

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم ، فقال : «أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين» .

٤ - هذا ، ومن الآيات الجامعة لمعانى الامتنان والإحسان من الله - تعالى - على خلقه ، بسبب إرسال الرسول ﷺ فيهم ، قوله - سبحانه - فى سورة الأنبياء :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن .

وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه .

وفى الحديث الشريف : «إنما أنا رحمة مهداة» فرسالته ﷺ رحمة فى ذاتها ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضع هذا المعنى فقال : أرسل ﷺ «رحمة للعالمين» لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ، ومن خالف ولم يتبع فإنما أتى من عند نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها ، ومثاله : أن يفجر الله عينا عذيقة - أى : كبيرة عذبة - فيسقى ناس زروعهم ، ومواشيهم بماؤها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا ، فالعين المفجرة فى نفسها نعمة من الله - تعالى - ورحمة للفريقين ، ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرما ماينفعها .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ١٣٨ .

٥ - وحقا لقد كان الرسول ﷺ الرحمة المهتدة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، وصدق الله - تعالى - إذن يقول في ختام سورة «التوبة»: :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ .

وجمهور المفسرين على أن الخطاب في قوله - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ للعرب، فهو كقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ .  
 أى : لقد جاءكم - يا معشر العرب - رسول كريم ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : من جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربى مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب فى الإيمان بالنبي ﷺ وفى طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه ، وفخرهم بفخره ، وهم فى الوقت نفسه قد شهدوا فى صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب ، والأخلاق الحميدة .

قال القرطبى : قوله : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » ، وعنه ﷺ أنه قال : « إبنى من نكاح ولست من سفاح » .<sup>(١)</sup>

وقال الزجاج إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ، لعموم بعثته ﷺ ومعنى كونه ﷺ ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أنه من جنس البشر .

ويبدولنا أن الرأى الأول أرجح : لأن الآية الكريمة ليست مسوقة لإثبات رسالته ﷺ وعمومها ، وإنما هى مسوقة لبيان منته وفضله - سبحانه - على العرب ، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم ، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به ، لأنه ليس غريبا عنهم ، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم ، والعقوبة لهم أعظم .

وقوله ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى : شديد وشاق عليه عنتكم ومشقتكم ، لكونه بعضا منكم ، فهو يخاف عليكم سوء العقوبة ، والوقوع فى العذاب .

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ٣٠١ .

وقوله : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزرتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة .

والحرص على الشئ معناه : شدة الرغبة فى الحصول عليه وحفظه .

وقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : شديد الرأفة والرحمة بكم - أيها المؤمنون - والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ، فهو - ﷺ - يسعى بشدة فى إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفى إزالة كل مكروه عنهم .

قال بعضهم : لم يجمع الله - تعالى - لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي ﷺ فإنه قال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال عن ذاته - سبحانه - ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

أى : فإن اعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك فلا تبتئس ولا تيأس ، بل قل ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى : هو كافينى ونصيرى ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ - سبحانه - ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا الله - عز وجل - .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفات التى منحها - سبحانه - لرسوله محمد ﷺ ودعوة له ﷺ إلى أن يفوض أمره إلى خالقه فهو - سبحانه - كافيه وناصره .

هذه بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التى صرحت بأن الله - تعالى - بفضله وكرمه ، قد امتن على الثقلين ، بأن أرسل فيهم رسوله محمدا ﷺ على حين فترة من الرسل ، لكى يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولكى يرشدهم إلى التحلى بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، ولكى ينهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فبلغ ﷺ رسالة ربه ، وأدى الأمانة ونصح للأمة .

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا شفاعته يوم الدين .

(١) تفسير القرطبي ج٨ ص ٣٠٢ .

### ٣- تفضيله على غيره ﷺ

١ - تحدث القرآن الكريم فى آيات متعددة عن الفضائل الجمة والمناقب الحميدة ، والدرجات الرفيعة ، والخصائص الفريدة ، التى منحها الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ .  
ومن هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة البقرة :

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ  
كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ  
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ  
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا مِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ  
مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ أَلَّفَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٧٦﴾

والإشارة بتلك فى قوله : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ إلى جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم فى  
السورة والذين أرسلهم الله - تعالى - لهداية البشر ، وأمرنا - سبحانه - بالإيمان بهم .  
أى أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى  
جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر التفضيل فقال : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ أى منهم من  
فضله الله بتكليمه إياه كموسى - عليه السلام - فقد وردت آيات صريحة فى ذلك منها  
قوله - تعالى - : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ  
عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ .  
ثم قال - سبحانه - : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ أى : ومنهم من رفعه الله على غيره  
من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية .

قيل كإبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، وإدريس الذى رفعه الله مكانا عليا ، ودาวود  
الذى آتاه الله النبوة والملك .

والذى عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله - تعالى - ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم القيامة، والرسالة العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها .

وقد صرح صاحب الكشاف بذلك فقال : قوله ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ أى : ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة والظاهر أنه - سبحانه - أراد محمدا ﷺ لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى ما لم يؤت به فضلا من الآيات المتكاثرة المرتقبة إلى ألف آية أو أكثر ، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات ، وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه والتميز الذى لا يلتبس ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول : أحذكم أو بعضكم ، يريد به الذى تعرف واشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح ، وسئل الحطيثة عن أشعر الناس ، فذكر زهيراً والنابعة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث ، أراد نفسه ، ولو قال : لو شئت لذكرت نفسى لم يفخم أمره .<sup>(١)</sup> ثم قال - تعالى - : ﴿ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

﴿ الْبَيْنَاتِ ﴾ هى المعجزات الظاهرة البينة ، وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - والروح هنا بمعنى الملك الخاص ، والقدس أصل معناه الطهارة ، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى الخلوص والنزاهة ، فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقيل القدس اسم الله كالقدوس فإضافة روح إضافة للتشريف أى روح من ملائكة الله .

والمعنى : وأعطينا عيسى بن مريم الآيات الباهرات والمعجزات الواضحات كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه فى بيوتهم ، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل إليهم وهم بنو إسرائيل ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله - تعالى - الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل - عليه السلام - .

قال الزمخشري : فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات ، ولما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر فى باب التفضيل ، وهذا دليل بين على أن من زيد تفضيلا بالآيات

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٢٩٧ .

منهم فقد فضل على غيره ، ولما كان نبينا محمد ﷺ هو الذى أوتى منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمتها كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع .

وقال الإمام القرطبي ما ملخصه : هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : «لاتخيرونى على موسى» و«لاتخيروا بين الأنبياء» و«لاتفضلوا بين الأنبياء» أى لاتقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع؟

فالجواب أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالفضل وقيل أن يعلم أنه سيد ولد آدم وأن القرآن ناسخ للمنح من التفضيل ، أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع ، أو المراد النهى عن الخوض فى ذلك لأن الخوض فى ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال قد يؤدى إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به ، وقد يؤدى إلى قلة احترامهم ، ثم قال ، وأحسن من هذا القول قول من قال : إن المنح من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التى هى خصلة واحدة لاتفاضل فيها ، وإنما التفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات ، وأما النبوة فى نفسها فلاتفاضل وإنما تتفاضل بأمر أخرى زائدة عليها ، ولذلك فهم رسل ، وأولو عزم ، ومنهم من كلمه الله ، فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل ، وأعطى من الوسائل وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير النسخ .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ .

أى : ولو شاء الله - تعالى - ألا يقتتل الذين جاءوا بعد كل رسول من الرسل وبعد أن جاءهم الرسل بالبينات الدالة على الحق ، لو شاء الله ذلك لفعل ، ولكن الله - تعالى - لم يشأ ذلك ، لأنه خلق الناس مختلفين فى تقبلهم للحق ، فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذى جاءت به الرسل من فتح له قلبه ، واتجه إليه اختياره ، وأن كفر به من أثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى ، وترتب عليه - أيضا أن تقتاتل الناس وتحاربوا .

ومفعول المشيئة محذوف دل عليه جواب الشرط أى لو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا .

وقدم - سبحانه - المسبب وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له قوله :

﴿ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا ﴾ للتنبية على سوء مغبة الاختلاف ، وللتحذير من الوقوع فيه ، لأن

وقوعهم فيه سيؤدى إلى أن يقتل بعضهم بعضا ، ولالإشارة إلى أنه - سبحانه - قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه ، لأنه - تعالى - هو الخالق للأسباب والمسببات .

وفى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ إشارة إلى ما جبلت عليه بعض النفوس من العناد الذى يؤدى إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق ، وانكشاف وجه الصواب ، لأن هذه النفوس قد أثرت الهوى على الرشاد ، واتخذت طريق الغى طريقاً لها .  
وفى قوله : ﴿ وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا ﴾ إشارة إلى أنه - سبحانه - لم يشأ أن يزيل القتال الذى حدث بين المقاتلين ، لأن هذا القتال قد نشأ بينهم بسبب اختلافهم وسوء اختيارهم ، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات والبيّنات التى جاءتهم بها الرسل - عليهم السلام - .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾  
أى : ولو شاء الله عدم اقتتالهم لأى سبب من الأسباب لما اقتتلوا ، ولكنه - سبحانه - يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، وترتضيه مشيئته ، فهو الكبير المتعال الذى كل شىء عنده بمقدار ، فالآية الكريمة تبين أن الرسل - عليهم السلام - يتفاضلون فيما بينهم ، وتنتهى الناس فى كل زمان ومكان عن الاختلاف والتنازع لأنهما يؤديان إلى أوحى العواقب ، وأسوأ النتائج .

٢ - هذا ، ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى فضله ﷺ : ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثلى رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال ﷺ : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع - أى : إنه ﷺ أول من يطلق الشفاعة لأتباعه وأول من يجاب طلبه - وفى رواية للإمام الترمذى : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ويبدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا وهو تحت لوائى ، وإذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين » .

وعن أنس رضى الله عنه ﷺ أنه قال : « أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » ، وفى رواية أنه ﷺ قال : « أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » .

هذه بعض الأحاديث التى وردت فى فضله ﷺ ومن أراد المزيد منها ، فليرجع إلى كتب السنة النبوية الشريفة (١) .

(١) راجع على سبيل المثال كتاب : «التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول» ج٣ ص ٢٢٨ لفضيلة الشيخ منصور على ناصف - رحمه الله - .

## ٤- وجوب طاعته ووجوب توقيره - ﷺ

١- وجوب طاعة الرسول ﷺ في كل ما أمر به أو نهى عنه ، من الحقائق التي أكدتها شريعة الإسلام ، وبينت أن معصيته ﷺ تؤدي إلى المروق عن الدين ، وإلى سوء المصير في الدنيا والآخرة .

ومن الآيات القرآنية التي أمرت بطاعته ﷺ قوله - تعالى في سورة «النساء» :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ .

وطاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان ، قال - تعالى - : ﴿ مِنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

ومعنى طاعتهما : التزام أوامرهما ، واجتناب نواهيهما .

والمراد بأولى الأمر - على الراجح - الحكام ، وطاعتهم إنما تكون في غير معصية ، الله ، فإذا أمروا بما يتنافى مع تعاليم الدين فلا سمع لهم على الأمة ولا طاعة .

وإنما أمرنا الله - تعالى - بطاعتهم في غير معصية ، لأنهم هم المنفذون لتعاليم الشريعة ، وهم الذين بيدهم مقاليد الأمة التي يقومون على رعاية مصالحها ، ولأن عدم طاعتهم يؤدي إلى اضطراب أحوال الأمة وفسادها .

قال صاحب الكشاف : والمراد بـ ﴿ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ أمراء الحق ، لأن - أمراء الجور - الله ورسوله بريثان منهم ، فلا يعطفون على الله ورسوله بوجوب الطاعة لهم ، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثبات العدل واختيار الحق والأمر بهما ، والنهي عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان ، وكان الخلفاء يقولون : أطيعوني ما عدلت فيكم ، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم ، وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له : أأستم أمرتم بطاعتنا في قوله : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فقال له : أليس قد نزعتم عنكم إذا خالفتهم الحق بقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. (١)

وأعاد - سبحانه الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾ مع الرسول فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ولم يعده مع أولى الأمر، للإشارة إلى استقلال الرسول ﷺ بالطاعة حتى ولو كان ما يأمر به ليس منصوصا عليه في القرآن، لأنه لا ينطق عن الهوى، وللايذان بأن طاعة الرسول ﷺ أعلى من طاعة أولى الأمر.

وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من أولى الأمر، أى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر حالة كونهم كائنين منكم أى من دينكم وملتكم.

وفى ذلك إشارة إلى أنه لاطاعة لمن يتحكمون فى شئون المسلمين ممن ليسوا على ملتهم.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا ما حدث بينهم اختلاف فى أمر من الأمور الدينية، والمراد بالتنازع هناك الاختلاف والجدال مأخوذ من النزاع بمعنى الجذب، فكأن كل واحد من المختلفين يجذب من غيره الحجة لدليله.

ومن قول النبى ﷺ «مالى أنازع القرآن» أى ينازعى غيرى ويجاذبنى فى القراءة، وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعة قراءته فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه. (٢)

والمعنى: فإن تنازعتم واختلتم أيها المؤمنون أنتم وأولو الأمر منكم فى أمر من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أى فردوا ذلك الحكم أو الأمر الذى اختلفتم فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ بأن تسألوه عنه فى حياته، وترجعوا إلى سنته بعد مماته.

قال القرطبى: قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى: تجادلتم واختلفتم فى شىء من أمور دينكم ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال فى حياته أو بالنظر فى سنته بعد وفاته، وهذا قول مجاهد والأعمش وقتادة، وهو الصحيح.

(١) تفسر الكشاف ج١ ص ٥٢٤.

(٢) هامش تفسير القرطبى ج٥ ص ٢٦١.

ومن لم ير هذا اختل إيمانه ، لقوله - تعالى - : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

وفى قوله : ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ دليل على أن سنته ﷺ يعمل بها ويمتثل مافيهما .

قال ﷺ : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » ، أخرجه مسلم .

وروى أبوداود عن أبي رافع عن النبي ﷺ قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري بما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه » .

وعن العرياض بن سارية أنه حضر رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول : « أحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا ، إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر » .<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ شرط جوابه محذوف عند جمهور البصريين اكتفاء بدلالة المذكور عليه .

أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان فارجعوا فيما تنازعتم فيه من أمور دينية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والجملة الكريمة تحريض للمؤمنين على الامتثال لتعاليم الإسلام وأدابه ، لأن الإيمان الحق يقتضى ذلك .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ يعود إلى الرد إلى الكتاب والسنة وقوله : ﴿ تَأْوِيلًا ﴾ من آل هذا الأمر إلى كذا رجع إليه ، فيكون المعنى : ذلك الذى أمرتكم به من رد ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحمد مغبة ، وأجمل عاقبة .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ تَأْوِيلًا ﴾ بمعنى التفسير والتوضيح فيكون المعنى .

ذلك أى الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحسن تأويلا وتفسيرا من تأويلكم أتم إياه ، من غير رد إلى أصل من الكتاب والسنة ، والأول أنسب لسياق الآية الكريمة .

قال ابن كثير : قوله : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ الآية هذا أمر من الله - تعالى - بأن

(١) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٦٢ - بتصرف وتلخيص .

كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه ، أن يردوا التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فما حكم به القرآن والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر .<sup>(١)</sup>

وقد بين - سبحانه - فى آية أخرى أن طاعة رسول الله ﷺ إنما هى طاعة له فقال : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

أى : من يستجب لما يدعوه إليه محمد ﷺ ويذعن لتعاليمه فإنه بذلك يكون مطيعا لله ، لأن الرسول ﷺ مبلغ لأمر الله ونهيه .

وقوله : ﴿ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ بيان لوظيفه الرسول ﷺ .

أى : من أطاعك يا محمد فقد أطاع الله ، ومن أعرض عن طاعتك وعصى أمرك فعلى نفسه يكون جانيا لأننا ما أرسلناك على الناس حافظا وراقبا لأعمالهم ، وإنما أرسلناك بلغا ومنذرا .

قال الألوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ بيان لإحكام رسالته إثر بيان تحققها ، وإنما كان الأمر كذلك لأن الأمر والناهى فى الحقيقة هو الحق - سبحانه - والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له بالذات إنما هى لمن بلغ عنه .<sup>(٢)</sup>

٢ - هذا ، والذى يتدبر القرآن الكريم يجد عشرات الآيات القرآنية ، تأمر بطاعة الرسول ﷺ وتنهى عن معصيته .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧]

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥١٨ .

(٢) تفسير الألوسى ج٥ ص ٩١ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

٣ - أما الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في وجوب طاعته ﷺ فهي كثيرة ، وحسبك منها ما أخرجه الإمام البخارى في صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا يا رسول الله ومن أبى؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . (١)

٤ - وأما الآيات القرآنية التي وردت في وجوب توقيره وتعظيمه - ﷺ - فيكيفك منها قوله - تعالى - في مطلع سورة الحجرات :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ  
صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ  
أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ  
رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ  
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

(١) راجع كتاب : التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ج١ ص ٤٢ للشیخ منصور على ناصف - رحمه الله - .

والمعنى : يامن أمنتكم بالله - تعالى - حق الإيمان : احذروا أن تتسرعوا فى الأحكام ، فتقولوا قولاً ، أو تفعلوا فعلاً يتعلق بأمر دينى ، دون أن تستندوا فى ذلك إلى حكم ، الله - تعالى - وحكم رسوله ﷺ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ - تعالى - فى كل ما تأتون وتذرون ، إن الله سميع لأقوالكم عليم بجميع أحوالكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية هذه آداب أدب الله - تعالى - بها عبادة المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

أى : لاتسرعوا فى الأشياء بين يديه ، أى : قبله ، بل كونوا تبعاله فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى ، حديث معاذ ، إذ قال له النبى ﷺ حيث بعثه إلى اليمن : «م تحكم؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيى» .

فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظره واجتهاده ، إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله (١) .

والمقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين فى كل زمان ومكان عن أن يقولوا قولاً أو يفعلوا فعلاً يتعلق بأمر شرعى ، دون أن يعودوا فيه إلى حكم الله ورسوله .

ثم وجه - سبحانه - نداء ثانياً إلى المؤمنين ، أكد فيه وجوب احترامهم للرسول ﷺ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ .

أى : يا من أمنتكم بالله واليوم الآخر ، واطبوا على توقيركم واحترامكم لرسولكم ﷺ ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته عند مخاطبتكم له ، ولا تجعلوا أصواتكم مساوية لصوته ﷺ حين الكلام معه ، ولا تنادوه باسمه مجرداً بأن تقولوا له يا محمد ، ولكن قولوا له : يا رسول الله ، أو يا نبى الله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بيان لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته ﷺ من خسران .

والجملة تعليل لما قبلها ، وهى فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : نهاكم - تعالى - عن رفع أصواتكم فوق صوت النبى ، وعن أن تجهروا له بالقول كجهر بعضهم

(١) تفسير ابن كثير ج٧ ص ٣٤٥ .

لبعض ، كراهة أو خشية أن يبطل ثواب أعمالكم بسبب ذلك وأنتم لا تشعرون بهذا البطلان .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله لغضبه فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره فى حياته لأنه محترم حيا وفى قبره .<sup>(١)</sup>

ولقد امتثل الصحابة لهذه الإشارات امتثالا تاما ، فهذا أبو بكر يروى عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار - أى : كالذى يتكلم همسا ، وهذا ثابت بن قيس ، كان رفيع الصوت ، فلما نزلت هذه الآية قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس فى أهل بيته حزينا ، فلما بلغ النبى ﷺ ما قال ثابت ، قال لأصحابه : « لا بل هو من أهل الجنة » .<sup>(٢)</sup>

قال بعض العلماء : وما تضمنته هذه الآية من لزوم توقير النبى ﷺ جاء مبينا فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله - تعالى - لم يخاطبه فى كتابه باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

مع أنه سبحانه - قد نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله - تعالى - : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ﴾ وقوله - عز وجل - ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ .

أما النبى ﷺ فلم يذكر اسمه فى القرآن فى خطاب ، وإنما ذكر فى غير ذلك ، كقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

ثم مدح - سبحانه - الذين يغضون أصواتهم فى حضرة الرسول ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ .

وقوله : ﴿ يَغْضُونَ ﴾ بمعنى يخفضون قال : غض فلان من صوته ومن طرفه إذا خفضه ، وكل شىء كفته عن غيره فقد غضضته .

(١) تفسير ابن كثير ج٧ ص ٣٤٨ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٣٤٧ والقرطبي ج١٦ ص ٣٠٤ .

وقوله : ﴿ اَمْتَحَنَ ﴾ أى : اختبر وأخلص ، وأصله من امتحان الذهب وإذابته ليخلص  
جيده من خبيثه ، والمراد به هنا : إخلاص القلوب لمراقبة الله وتقواه .

أى : إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرة رسول الله ﷺ وعند مخاطبتهم له ،  
أولئك الذين يفعلون ذلك هم الذين أخلص الله - تعالى - قلوبهم لتقواه وطاعته ، وجعلها  
خالصة من أى شىء سوى هذه الخشية والطاعة .

وقوله : ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ بشارة عظيمة من الله تعالى - لهم ، أى : لهؤلاء  
الغاضبين أصواتهم عند رسول الله ﷺ مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير لا يعرف مقداره أحد  
سوى الله - تعالى - .

ولقد التزم المسلمون بهذا الأدب فى حياة النبى ﷺ وبعد عاتيه ، فقد سمع عمر ابن  
الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلا يرفع صوته فى المسجد النبوى : فقال له : من أين أنت - أيها  
الرجل ؟! فقال : من الطائف ، فقال له : لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا .

ثم أشار - سبحانه - إلى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم عند ندائهم للنبى ﷺ  
فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى  
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة من بنى تميم أتوا إلى المدينة فى  
عام الوفود فى السنة التاسعة ، فوقفوا بالقرب من منزل النبى ﷺ فى ساعة القيلولة  
وأخذوا يقولون : يا محمد اخرج إلينا ، فكره النبى ﷺ منهم ذلك .

والمراد بالحجرات : حجرات نسائه - ﷺ - جمع حجرة وهى القطعة من الأرض  
المحجورة ، أى : المحددة بحدود لا يجوز تخطيها ، ويمنع الدخول فيها إلا بإذن .  
أى : إن الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - ﴿ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ .

أى : من خلف حجرات أزواجك وخارجها ، أكثرهم لا يجرون على ما تقتضيه العقول  
السليمة ، والآداب القويمة من مراعاة الاحترام والتوقير لمن يخاطبونه من الناس ، فضلا عن  
أفضلهم ، وأشرفهم ، وذلك لأنهم من الأعراب الذين لم يحسنوا مخاطبة الناس ،  
لجفائهم وغلظ طباعهم .

وقال - سبحانه - : ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ للإشعار بأن قلة منهم لم تشارك هذه الكثرة فى هذا  
النداء الخارج عن حدود الأدب واللياقة .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه مالا يخفى على الناظر من إكبار للنبي ﷺ وإجلال لمقامه .

ومن ذلك : مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به السفه والجهل بسبب ما أقدموا عليه ، ومن ذلك : التعبير بلفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، والمرور على لفظها بالاختصار على القدر الذى يظهر به موضع الاستنكار عليهم .

ومن ذلك : شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات ، تهويننا للخطب وتسلية لهم ﷺ (١) .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى السلوك الأفضل فقال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ .

أى : ولو أن هؤلاء الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - من وراء الحجرات ، صبروا عليك حتى تخرج إليهم ولم يتعجلوا بندائك بتلك الصورة الخالية من الأدب ، لكان صبرهم خيرا لهم ﴿ وَاللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة .

هذا والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد رسمت للمؤمنين أسمى ألوان الأدب فى مخاطبتهم لرسول الله ﷺ وفى إلزامهم بالألا يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا ، يتعلق بشأن من شئون دينهم إلا بعد معرفتهم بأن هذا القول أو الفعل يستند إلى حكم شرعى ، شرعه الله - تعالى - ورسوله ﷺ .

كما أنه يراها قد مدحت الذين يغضون أصواتهم عن رسول الله ﷺ وذمت الذين لا يلتزمون هذا الأدب عند مخاطبته أو ندائه .

كما يتبين لنا وجوب توقيره وتعظيمه ﷺ .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ٣٥٨ .

## ٥. عموم دعوته وختام رسالته ﷺ

١ - من الحقائق التي يجب الإيمان بها ، ولا يشك فيها إلا من كان مريض القلب ، فاقد الإيمان : عموم بعثته ﷺ للإنس وللجن ، وختام رسالته ﷺ لجميع من سبقه من الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - .

ومن الآيات القرآنية التي صرحت بعموم بعثته ﷺ إلى الناس جميعا ، قوله - تعالى - في سورة «الأعراف» .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي  
رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ  
بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥١﴾

أى : قل يا محمد لكافة البشر من عرب وعجم ، إنى رسول الله إليكم جميعا ، لا فرق بين نصرانى أو يهودى ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته .

أما فى القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١)

وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢)

وقال - تعالى - : ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (٣)

أى لأنذركم به - يا أهل مكة - ولأنذر به - أيضا - كل من بلغه القرآن عن يوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم ، وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى ﷺ وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٩

٢ - وأما في السنة فمن ذلك ما رواه البخارى عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فيلصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة» .<sup>(١)</sup>

وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعري - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» .<sup>(٢)</sup>

قال الإمام ابن كثير : والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم .<sup>(٣)</sup>

٣ - ثم وصف الله - تعالى - ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال - تعالى - : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى : قل - يا محمد - للناس إنى رسول إليكم من الله الذى له التصرف فى السموات والأرض ، والذى لامعبود بحق سواه والذى بيده الإحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك ما نهى عنه ، وأن يصدق رسوله ، ثم بنى - سبحانه - على هذه النعوت الجليلة ، التى وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان قال - تعالى - : ﴿ قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى فآمنوا أيها الناس جميعا بالله الواحد الأحد وآمنوا - أيضا برسوله محمد ﷺ النبى الأمى الذى يؤمن بالله وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه واسلكوا سبيله ، واقتفوا آثاره ، فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم .

٤ - كذلك من الآيات القرآنية التى تشهد بأن بعثته ﷺ لم تكن إلى الإنس وحدهم ، بل كانت إلى الجن أيضا ، قوله - تعالى - فى مطلع سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

(١) صحيح البخارى «باب التيمم» ج١ ص ١٧ .

(٢) صحيح مسلم «كتاب المساجد» .

(٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٥٥ .

وقوله - سبحانه - فى سورة الأحقاف :

وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا  
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنذِرِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا  
كِتَابًا أَنْزَلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ  
وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٧﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ  
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُمْحَرِّمَ مِنْ عَذَابِ الْإِلْمِ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ  
بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ  
مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾

مُبِينٍ ﴿٢٩﴾

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة : أن رسالة النبى ﷺ كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به ﷺ كما تحكى دعوتهم غيرهم إلى الإيمان به .

٥ - أما الآيات القرآنية التى صرحت بختام رسالته ﷺ لجميع الرسالات السماوية فمنها قوله - تعالى - فى سورة «الأحزاب» :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤١﴾ ﴾ .

أى : لم يكن محمد ﷺ أباً لأحدكم على سبيل الحقيقة ولكنه كان رسولا من عند الله - تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان - أيضا - خاتم النبیین ، بمعنى أنهم ختموا به ، فلانبى بعده ، فهو كالحاتم والطابع لهم ، ختم الله - تعالى - به الرسل والأنبياء فلا رسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبى : قرأ الجمهور ﴿ خَاتَم ﴾ - بكسر التاء - بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم

وقرأ عاصم ﴿ خَاتَمٌ ﴾ - بفتح التاء - بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالحاتم والطابع لهم .  
وقيل : الحاتم والحاتم ، بالفتح والكسر - لغتان مثل طابع وطابع .

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ : أنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» .<sup>(١)</sup>

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت لى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » .

ثم قال - رحمه الله - تعالى - بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر - تعالى - فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لانبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم .<sup>(٢)</sup>  
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

أى : وكان - عز وجل - وما زال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد ﷺ لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ليزيدكم - سبحانه - من فضله وإحسانه .

(١) تفسير القرطى ج١٤ ص١٩٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج٦ ص٤٢٤ .

## ٦- براهين صدقه ﷺ

جميع الشواهد والقرائن والأدلة والبراهين ، تقرر وتؤكد أن الرسول ﷺ صادق في رسالته ، وفيما يبلغه عن ربه .

إذ حياته الشخصية في صباه ، وفي شبابه ، وفي كهولته ، كانت نموذجاً سامياً عالياً للعفاف ، والطهر ، والصدق ، والفتنة ، والوفاء ، وسلامة التفكير ، ورجاحة العقل ، وفصاحة اللسان ، وسخاء اليد ، وشرف الأسرة ، وكرم المنبت ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وإعانة المحتاج ، وإكرام الضيف ، وشجاعة القلب ، ووفرة الحياء ، وحسن المعاشرة ، وشدة التواضع ، والوقوف إلى جانب الحق والعدل والتزهد عن كل ما لا يليق .

لقد منحه الله - تعالى - من الكمالات النفسية والخلقية والخلقية ، ما لم يمنحه لأحد غيره من قبله أو بعده ، ويكفيه فخراً قوله - تعالى - في شأنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وكانت هذه المناقب الجمّة ، والخلال الحميدة ، كفيلة بأن تجعل الناس يتبعونه فيما يدعوهم إليه من وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ومن وجوب التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل .

إلا أن الخالق - عز وجل - إلى جانب ما أعطى لنبيه ﷺ من كل تلك الصفات الجليلة ، أعطاه - أيضاً - المعجزة الكبرى التي تعلن على رؤوس الأشهاد ، صدقه ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

وهذه المعجزة هي القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

لقد جاء ﷺ إلى الناس وقال لهم : إني رسول الله إليكم ، لكي أخرجكم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

ودليل صدقي على ما أقول : هذا القرآن ، فإن كنتم في شك من ذلك ، فهاتوا مثله قال - تعالى - : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [الطور : ٣٤]

ثم تحداهم ﷺ أن يأتوا بعشر سور من مثله ، قال - تعالى - :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [هود : ١٣]

ثم أرخى لهم ﷺ العنان ، وسهل لهم الأمر ، حيث تحداهم فى نهاية المطاف أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سور القرآن الكريم ، ولو كانت كأقصر سورة واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٢٤) .

والمعنى : وإن ارتبتم أيها المشركون فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدرج ، فأتوا أتم بسورة من مثله فى سمو الرتبة ، وعلو الطبقة واستعينوا على ذلك بالهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون ، ليساعدوكم فى مهمتكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله ، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرتون على معارضة القرآن الكريم .

والمقصود بقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا .. ﴾ نفى الريب عن المنزل عليه - وهو محمد ﷺ - بنفيه عن المنزل وهو القرآن الكريم .

والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب للإيدان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب فى شأنه ، أو للتنبية على أن كلامهم فى شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله - تعالى - .

وعبر بقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ .. ﴾ ولم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ، للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب ، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك ، وأنه إن أثير حوله أى شك فمرجعه إلى انطماس بصريتهم ، وضعف تفكيرهم ، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم .

وأتى بيان المفيدة للشك مع أن كونهم فى ريب بما نزل على النبى ﷺ أمر محقق ، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ووجه الإتيان بنفى الدالة على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

وقال : ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ دون أنزلنا ، لأن المراد النزول على سبيل التدرج ، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما فى مدة تزيد على عشرين سنة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل : «ما نزلنا» على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدرّيج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله ، لم ينزل هكذا نجومًا سورة بعد سورة ، وآيات عقب آيات ، على حسب النوازل ، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفردًا حينًا فحينًا حسب ما يعين لهم من الأحوال المتجددة ، فليل لهم : إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرّيج ، فهاتوا نوبة واحدة من نوبه ، وهاتوا نجمًا فردًا من نجومه : سورة من أصغر السور أو آيات شتى مفترقات ، وهذا غاية التبكيك ومنتهى إزاحة العلل (١).

والمراد بالعبد في قوله - تعالى - ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ وفي إضافته إلى الله - تعالى - تنبيه على شرف منزلته عنده ، واختصاصه به .

وفي ذكره ﷺ باسم العبودية ، تذكير لأمته بهذا المعنى ، حتى لا يغالوا في تعظيمه فيدعوا ألوهيته ، كما غالت بعض الفرق في تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم .

والسورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، والتي أقلها ثلاث آيات ، والضمير في قوله ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعود على المنزل وهو القرآن .

والمراد من مثل القرآن : ما يشابهه في حسن النظم ، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى ، وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كل سورة .

وقيل : إن الضمير في قوله ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يعود على المنزل عليه القرآن ، وهو النبي ﷺ ولكن الرأي الأول أرجح .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وعود الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه :

أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في باب التحدى لاسيما ما ذكره في سورة يونس من قوله : ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ..﴾

وثانيها : أن البحث إنما وقع في المنزل وهو القرآن ، لأنه قال : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا ..﴾ فوجب صرف الضمير إليه ، ألا ترى أن المعنى ، وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم شيئًا مما يماثله ، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودًا إلى رسول الله ﷺ أن يقال : وإن ارتبتم في أن محمدًا منزل عليه فهاتوا قرآنًا مثله .

(١) تفسير الكشاف ج ٩ ص ٩٧ .

وثالثها : أن الضمير لو كان عائدا إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أم انفردوا وسواء أكانوا أميين أم عالمين ، أما لو كان عائدا إلى محمد ﷺ فذلك لا يقتضى إلا كون أحادهم من الأميين عاجزين عنه ، لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الأمي ، أما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد ، لأن الجماعة لاتأثل الواحد ، والقارئ لا يكون مثل الأمي ، ولا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى .

ورابعها : أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد ﷺ لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن مما لم يكن مثل محمد في كونه أميا يمكن ، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمي ومن غير الأمي ممتنع فكان هذا أولى (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ... ﴾ .

وادعوا : من الدعاء والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى : نادوهم .

وشهداءكم : أى : ألهتكم ، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة ، فقد كانوا يزعمون أن ألهتهم تشهد لهم يوم القيامة ، بأنهم على حق ، وقيل : الشهداء جمع شهيد ، بمعنى الحاضر أو الناصر ، أو الإمام وكأنه سمي به لأنه يحضر المجالس وتبرم بحضره الأمور .

ودون : بمعنى غير : وتطلق فى أصل اللغة على أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من البعض ، ودونك هذا أى : خذه من أدنى مكان منك ، ثم استعير للفتاوت فى الرتب فقيل : زيد دون عمرو أى : فى الشرف ، ومنه الشيء الدون ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى أمر إلى أمر .

قال الجمل : والمعنى : وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وألهتكم غير الله ، فإنه لا يقدر على أن يأتى بمثله إلا الله ، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله ، ولا تستشهدوا بالله ، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة ، أو شهداءكم الذين اتخذتوهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة (٢).

وفى أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جماد ، وفى تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنها لاتعقل ولاتنطق ، فى كل ذلك أقوى ألوان التهكم ، لكى يثير فى نفوسهم من الألم ما قد يكون سببا لتنبههم إلى جهلهم ، وانصرافهم عن ضلالهم .

(١) تفسير الفخر الرازى ج١ ص ٢٢٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج١ ص ٣٨ .

وقوله - تعالى - ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جملة معترضة فى آخر الكلام وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره فى نظم الكلام بما ينزل به عن مرتبة البلاغة .

والمعنى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرّون على معارضة القرآن فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا الكهتكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله فى حكمة معانيه وحسن بيانه .

وفى هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم ، إذ عرّض بعدم صدقهم فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

ثم قال - تعالى - : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ .

المعنى : فإن لم تفعلوا أى : تعارضوا القرآن ، وتبين لكم أن أحدا لا يستطيع معارضته ، فخافوا العذاب الذى أعدّه الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة .

والوقود : ما يلقى فى النار لإضرارها كالخشب ونحوه ، والحجارة : الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله كما قال - تعالى - : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ .

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون فى النار مبالغة فى إيلاهم وتحسيرهم والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس فى النار غيرهما بدليل ما ذكر فى مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جىء بلفظ «إذا» الذى للوجوب دون «إن» الذى للشك؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لا تكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام .

والثانى : أن يُتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكما به (١) .

وقال : فإن لم تفعلوا ، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، لأن قوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ جار مجرى الكناية التى تعطى اختصارا ووجازة تغنى عن طول المكنى عنه ، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال ، تقول : أتيت فلانا ، فيقال لك : نعم ما فعلت .

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ١٠١ .

وجملة ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، جىء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته ، فإن فى نفيها فى المستقبل بإطلاق تأكيداً لنفيها فى الحال .

قال الإمام الرازى : فإن قيل : فما معنى اشتراطه فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العناد ، فأقيم المؤثر مقام الأثر ، وجعل قوله : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ قائما مقام قوله فاتركوا العناد وهذا هو الإيجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة ، وفيه تهويل لشأن العناد ، لإنبابة اتقاء النار منابه متبعا ذلك بتهويل صفة النار .<sup>(١)</sup>

ومعنى ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هيئت لهم ، لأنهم الذين يخلدون فيها ، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة للفساقين - أيضا - لأنه يريد بذلك نارا مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ .

وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب ، إذ لم تقع المعارضة من أحد فى أيام النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : من أين لك أنه إخبار بالغيب ، على ما هو عليه حتى يكون معجزة؟ قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لاسيما والطاعنون فيه أكثر عددا من الذابيين عنه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به ، فكان معجزة .<sup>(٢)</sup>

وقال بعض العلماء : هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدى الكافرين بالتنزيل الكريم ، وقد تحداهم الله فى غير موضع منه فقال فى سورة القصص : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال فى سورة الإسراء : ﴿قُلْ لِّئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وقال فى سورة يونس : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكل هذه الآيات مكية .

ثم تحداهم أيضا فى المدينة بهذه الآية : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ﴾ . الخ فعجزوا عن

(١) تفسير الفخر الرازى ج١ ص ٢٢٤ .

(٢) تفسير الكشاف ج١ ص ١٠٢ .

آخرهم ، وهم فرسان الكلام ، وأرباب النظام ، وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون ويمدحون ويقدمون ويتوصلون ، ويتوصلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون بالسحر الحلال ، ومع هذا فلم يتصد لمعارضة القرآن منهم أحد ، ولم ينهض - لمقدار سورة منه - ناهض من بلغائهم ، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتغالهم بالإفراط في المضارة والمضادة .

وقد جرد لهم النبي ﷺ الحجة أولاً ، والسيف آخرها فلم يعارضوا إلا السياف وحده ، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة ، وبذلك يظهر أن في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ معجزة أخرى ، فإنهم ما فعلوا وما قدروا .

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز في هذا الأمر ، فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق القوى والقدر أنزله تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لمقوله (١) .

ومن كل ما سبق يتبين لكل عاقل أن هذا القرآن أعظم دليل ، وأقوى برهان على صدق النبي ﷺ فيما بلغه عن ربه - عز وجل - .

---

(١) تفسير القاسمي ج٢ ص ٧٧ .

## ٧- وضوح شريعته ﷺ

يمتاز دين الإسلام الذي ارتضاه الله - تعالى - لعباده ديناً ، بالوضوح فى عقائده ، وفى عباداته ، وفى معاملاته ، وفى أوامره ونواهيه ، وفى كل ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه من تشريعات حكيمة ومن آداب قويمه .

إنه دين الفطرة السوية ، كما قال - سبحانه - ﴿ فَأَقُمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

أى : اثبت - أيها الرسول الكريم - على هذا الدين القائم على الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، والذى ترتاح له الفطرة الإنسانية الرشيدة ، لأنه يناسبها ، وتشعر معه بالسعادة والاستقرار والحياة الطيبة .

إنه الدين الذى لا تعقيد فيه ولا اشتباه ، ولا تكلف فيه ولا تصنع ، ولا طلاس فى أحكامه ولا ألغاز ، وإنما هو دين واضح فى جميع شعائره وضوح الشمس فى رابعة النهار ، مشرق فى كافة تعاليمه إشراق النور الساطع .

إنه الدين الذى يأمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يقول للناس : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦]

أى : قل - أيها الرسول - للناس ، إنى لا أسألكم أجراً على تبليغكم ما أمرنى ربي بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذى لا يحسنونه ، إنه الدين الذى يسمع توجيهاته وإرشاداته العقل السليم ، فيؤمن بها ، ويصدقها ، وكم من آيات قرآنية عندما استمع العقلاء إليها ، ما كان منهم إلا أن صدقوا النبى ﷺ لوضوح ما تدعو إليه من فضائل وما تنهى عنه من رذائل .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة «الأنعام» :

قُلْ تَعَالَوْا

أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالَّذِينَ أَحْسَنَ

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا  
 الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ  
 ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي  
 هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمِ وَالْفَقِيرِ لَا تَكْلِفُوا  
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ  
 أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي  
 مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ  
 بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

وإن المتأمل في هذه الآيات ليراها قد رسمت للإنسان علاقته بربه علاقة ينال بها  
 السعادة والثواب ، ورسمت له علاقته بأسرته بحيث تقوم على المودة والمحبة وسدت في  
 وجهه أبواب الشر التي تؤدي إلى انتهاك حرمان النفس والأموال والأعراض .

وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة اسم «الوصايا العشر» نظرا لتذليل آياتها  
 الثلاث بقوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ .

وروى الترمذى - بسنده عن ابن مسعود أنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد  
 التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وروى الحاكم وصححه وابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله  
 ﷺ : «أيكم يبأيعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا  
 أَتْلُ ﴾ حتى فرغ منها ثم قال : من وفى بهن أجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا  
 فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله ، إن شاء  
 الله أخذه ، وإن شاء عفا عنه» .<sup>(١)</sup>

وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٨٧ .

نفسه علي قبائل العرب خرج إلى منى وأنا وأبوبكر معه ، فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومضاربهم ، فسلم عليهم وردوا السلام ، وكان في القوم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك وكان مفروق بن عمرو أغلب القوم لسانا وأفصحهم بيانا ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال له :

إلام تدعو يا أخوا قريش؟ فقال النبي ﷺ أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به ، فإن قريشا تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخوا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث .

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخوا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية .

فقال له مفروق : دعوت والله يا أخوا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانئ بن قبيصة : قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخوا قريش ، ويعجبني ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول - إن آمنوا - بأرض فارس وأنهار كسرى .

فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخوا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ ثم نهض رسول الله ﷺ .

هذا جانب من فضائل هذه الآيات الثلاث ، وذلك هو تأثيرها فى نفوس العرب ، والآن فلنبداً فى التفسير التحليلى لها فنقول :

لقد بدئت الآيات بقوله - تعالى - : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم ، تعالوا إلى وأقبلوا نحوى لأبين لكم ما حرمه ربكم عليكم ، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به ، وما نهاكم عنه خالقكم ومربيكم ، فإنكم إن أقبلتم نحوى وأطعتمونى سعدتم فى دينكم ودنياكم .

وفى تصدير هذه الوصايا بكلمة ﴿ قُلْ ﴾ إشعار من أول الأمر بأن هذا بيان إلهى ، ليس

الرسول فيه إلا ناقلا مبلغا وفيه - أيضا - دلالة على أن المأمور به يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام .

والأصل فى كلمة ﴿تَعَالَى﴾ أن يقولها من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم اتسع فيها حتى عمت ، وهى تتضمن إرادة تخلص المخاطبين ورفعتهم من انحطاطهم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون إليه ، وتتضمن كذلك أن المتكلم يريد منهم أن يلتفوا من حوله لتتحد وجهتهم ، ولا تتفرق بهم الأهواء والسبل .

وفى قوله : ﴿أَتْلُ﴾ إيحاء قوى بأن المتكلم يقدر المخاطبين ، ويرتفع بهم إلى درجة أنهم لا يحتاجون فى الإرشاد إلا لأن يتلو عليهم ما يريدهم أن يعملوه ثم هم بعد ذلك سيمثلون لحسن استعدادهم لقبول الحق .

- وإنه لأسلوب قد بلغ الغاية فى اللطف وفى التكريم وفى حسن الموعدة وتوجيه الخطاب .

- وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا قد اشتملت على المحرمات وعلى غيرها لأن سياق الآيات قبل ذلك كان منصبا على كشف ما اخترعه المشركون من تحريم فى الحرث والنسل ما أنزل الله به من سلطان ولأن بيان أصول المحرمات يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل .

وفى نسبة التحريم إلى الرب الذى هو منبع الخير والإحسان ، حض لهم على التدبير والاستجابة ، لأن الذى حرم عليهم ذلك هو مربيهم ، فليس معقولا أن يحرم عليهم ما فيه منفعة لهم ، وإنما هو بمقتضى ربوبيته قد حرم عليهم ما فيه ضررهم .

قال بعض العلماء : وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا وهى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة ، لامفر من قبولها والبناء عليها ، فالله - تعالى - يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعدها وانتهكه كان مغضبا للرب الذى قرره ، مستحقا لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء ،<sup>(١)</sup> ولننظر بعد ذلك فى الوصايا .

الوصية الأولى : ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أى : أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى ، بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شىء .

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص ٩١ لفضيلة الاستاذ محمد المدنى - رحمه الله - .

وصدر - سبحانه - هذه الوصايا بالنهي عن الشرك ، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفسادا للفترة ، ولأنه هو الجريمة التي لا تقبل المغفرة من الله ، بينما غيره قد يغفره - سبحانه - قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وقد ساق القرآن مئات الآيات التي تدعو إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة ، والبراهين الدامغة على وحدانية الله - عز وجل - .

أما الوصية الثانية : فى قوله - تعالى - ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أى : أحسنوا بهما إحسانا كاملا لا إساءة معه .

وقد قرن - سبحانه - هذه الوصية بالوصية الأولى التى هى توحيده وعدم الإشراف به ، فى هذه الآية وفى غيرها ، للإشعار بعظم هذه الوصية وللتنبية إلى معنى واحد يجمعها مع الأولى وهو أن المنعم يجب أن يشكر ، فالوالدان سبب فى حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ، والله - تعالى - هو الخالق المنعم فيجب أن يشكر ويفرد بالعبادة والطاعة .

- قال بعض العلماء - وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكان الإساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ، ولأن الخير المنتظر من هذه الوصية وهو تربية الأبناء على الاعتراف بالنعمة وشكر المنعمين عليها إنما يتحقق بفعل الواجب ، وهو الإحسان لا بمجرد ترك المحرم وهو الإساءة ، لهذا وذاك قال - سبحانه - ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١)

ثم جاءت الوصية الثالثة وهى قوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

الإملاق : الفقر ، مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافقر .

أى : لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

ولاشك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر ، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لكم ولهم .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٤ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت .

والمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية ، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده يسودهم التشاؤم ، وتتغشاهم الأوهام ، لأنهم يظنون أن الله يخلق خلقا لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة تخوفا من جريمة متوهمة وذلك هو الضلال المبين .

● وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وليس إحداهما تكرارا للأخرى ، وإنما كل واحدة مهما تعالج حالة معينة .

● فهنا يقول - سبحانه - : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أى : خوفا من فقر ليس حاصلًا ، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ليكيف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداءً مستقلا عن رزق الآباء .  
ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله ، والاعتماد عليه .

وجملة ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ تعليلية لإبطال ما اتخذوه سببا لمباشرة جريمتهم ، وضمنان منه - سبحانه - لأرزاقهم أى : نحن نرزق الفريقين لا أنتم وحدكم ، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء وهى قتل الأولاد لأن الأولاد قطعة من أبيهم ، والشأن حتى فى الحيوان الأعجم أنه يضحى من أجل أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

أما الوصية الرابعة فتقول : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ الفواحش : جمع فاحشة وهى - كما قال الراغب فى مفرداته - ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال يقال : فحش فلان ، أى صار فاحشا مرتكبا للقبائح ، والمتفحش هو الذى يأتى بالفحش من القول أو الفعل ، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة الزور .

وأنهاكم عن أن تقتربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان منها ظاهرا وما كان منها خافيا .  
وقد تعلق التحريم والنهى بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة - كما يقول علماء الأصول - فكأنه قال : إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك «فواحش» يجب أن تجتنب و«محاسن» يجب أن تلتمس هو المجتمع الفاضل ، الطهور .

أما المجتمع الذى يسوى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الإباحة التى لاتفرق بين مايجب أن يفعل ومايجب أن يترك ، فلا بد أن يكون مصيره إلى التدهور والتعاسة والمهانة .

وتعليق النهى بقربانها للمبالغة فى الزجر عنها لأن قربانها قد يؤدي إلى مباشرتها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشيء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

ثم جاءت الآية فى ختامها بالوصية الخامسة فقالت : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

أى : لاتقتلوا النفس التى حرم الله قتلها بأن عصمها بالإسلام إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعا كردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم .

قال ابن كثير : وهذا مما نص - تبارك وتعالى - على النهى عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (١) .

وذلك لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله فلا يحق لأحد أن يهدمه إلا بالحق ، وبذلك يقرر عصمة دم الإنسان ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا : ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢]

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة ، وتكاليف حكيمة ، وصاكم الله به ، وطلبه منكم ، لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح .

هذه هى الوصايا الخمس التى تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها ، ولم يكن ثبوتها إلا تجاوبا مع الفطرة ، فالله واحد سواء أمن الناس بهذه الحقيقة عقيدا وعمليا أم لم يؤمنوا ،

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٩٠ .

وشكر النعمة يقتضى الإحسان إلى الوالدين طبعاً ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب ، والنفوس معصومة فليس لأحد أن يهدمها إلا بحق ، ولا تفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة ، وختمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعه إلى حكم العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

والوصية السادسة تأتى فى مطلع الآية الثانية فتقول : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ .

أى : ولا تقربوا مال اليتيم الذى فقد الأب الحانى ، ولا تتعرضوا لما هو من حقه بوجه من الوجوه إلا بالوجه الذى ينفعه فى الحال أو المآل ، كتربيته وتعليمه وحفظ ماله واستثماره .

وإذن ، فكل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لا يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأذى والأحسن - محظور ومنهى عنه .

قال بعض العلماء وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشيء ، وضابطه بالاستقراء : أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن «القربان» ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف الجرم ، وكان من ذلك فى الوصايا السابقة النهى عن الفواحش ، ومن هذا الباب ﴿وَلَا تَقْرُبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ . ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ﴾ . ﴿لَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ إلخ .

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه ، ومن ذلك فى الوصايا السابقة الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحا وأعظم جرما عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها أو فى حكم الكاره (١) .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى فإذا بلغ أشده فاقربوه لأن هذا يقتضى إباحة أكل الولى له بعد بلوغ الصبى ، بل هو غاية لما يفهم من النهى كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموا إليه ماله .

والخطاب للأولياء والأوصياء ، أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٤٤١ لفضية المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته : من الشدة بمعنى القوة والارتفاع ، يقال : شد النهار إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ، ولا واحد له .

والوصية السابعة : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

أى : أتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذاوزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون .

فالجملة الكريمة أمر من الله - تعالى - لعباده بإقامة العدل فى التعامل : بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولابخس ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طالب الزيادة .

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لا بد لهم من التعامل ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلتا ذلك ، فلا بد من أن يكونا منضبطين بالقسط .

والمجتمعات الأمينة التى لاتجد فيها أحدا يغبن عن جهل أو غفلة ، وهى أيضا المجتمعات الأمينة التى لاتجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه ، أو يعطى أقل مما يجب عليه .

وقوله : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أى : لانكلف نفسا إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، والجملة مستأنفة جىء بها عقيب الأمر بإيفاد الكيل والميزان بالعدل ، للترخيص فيما خرج عن الطاقة ، ولبيان قاعدة من قواعد الإسلام الرافعة للحرج وذلك لأن التبادل التجارى لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة أو التعادل ، فلا بد من تقبل اليسير من الغبن فى هذا الجانب أو ذاك .

والوصية الثامنة تقول : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ .

أى : وإذا قلتم قولاً فاعدلوا فيه ولو كان المقول له أو عليه صاحب قرابة منكم .

إذ العدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول والعدل فى الحكم ، والعدل فى كل فعل .

وإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى الأقوال والأفعال وفى كل شىء ، لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ، ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال ، فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية يحدث نفسه فى شأنها ويراوده معنى العدل وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل ، فإذا لم يكن صادقاً فى هذا القول فقد جافى العدل وقال زوراً وكذباً .

أما قوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من التأثر بصلات القربى فى المحابة للأقرباء والظلم لغيرهم .

فالقرآن يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ، بأن يكلف بتحرى العدل فى كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .

أما الوصية التاسعة والأخيرة فى هذه الآية فهى قوله - تعالى - : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ .

أى : كونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .

إذ الوفاء أصل من الأصول التى يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ذلكم

المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهى وصاكم الله به فى كتابه رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به وتجتنبوا ما نهيتهم عنه أو رجاء أن يذكر بعضكم بعضا فإن التناصح واجب بين المسلمين .

أما الوصية العاشرة فهى قوله - تعالى - فى الآية الثالثة من هذه الآيات : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ .

أى : ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه ، فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ يعنى الأديان الباطلة ، والبدع والضلالات الفاسدة ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى : فتفرقكم عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لكم .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبيل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ .

وقد أفرد - سبحانه - الصراط المستقيم وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ، والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى : ذلكم

المذكور من اتباع سبيله - تعالى - وترك اتباع السبل وصاكم الله به لعلكم تتقون اتباع سبل الكفر والضلالة ، وتعملون بما جاءكم به هذا الدين .

وبعد : فهذه هي الوصايا العشر التي جاءت بها هذه الآيات الكريمة ، والمتأمل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة في توحيد الله - تعالى - وبنيت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالأبناء وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض ، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التي هي منبع كل خير وسبيل كل فلاح ، ثم هي بعد كل ذلك واضحة وضوح الشمس فيما أمرت به من فضائل ، وفيما نهت عنه من رذائل .

فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا؟ إنهم لو عملوا بها لعزوا في دنياهم ولسعدوا في آخرهم ، فهل تراهم فاعلون؟

اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك وجنبنا ما لا يرضيك .

٢ - وفي سورة «النحل» آية كريمة عندما استمع إليها بعض العقلاء وتذوق ما في توجيهاتها من وضوح وإشراق وإرشاد حكيم ، ما كان منه إلا أن قال : لو لم يكن ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه دينا ، لكان في عرف الناس حسنا .

وهذه الآية الكريمة ، هي قوله - تعالى - :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ  
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ .

والمعنى : إن الله - تعالى - يأمركم - أيها المسلمون - أمرا دائما وواجبا ، أن تلتزموا الحق والإنصاف في كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - في كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر .

لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم ، نلتم السعادة في دينكم ودنياكم ، إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون .

وبعد أن أمر - سبحانه - بأهمات الفضائل ، نهى عن رؤوس الرذائل فقال - تعالى - :

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ .

والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل ، وخصها بعضهم بالزنا .

والمنكر : كل ما أنكره الشرع بالنهي عنه ، فيعم جميع المعاصي والرذائل والدنات على اختلاف أنواعها .

والبغى : هو تجاوز الحد فى كل شىء يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه وتجاوز عليه ، وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .

أى : كما أمركم - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه - تعالى - ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه الله - عز وجل - .

وذلك لأن هذه الرذائل ما شاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ، وأمرها فرطا ، والفترة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقول السليمة ، ومع الطباع القويمة .

ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس الطاهرة تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التى تصل إليه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى :

ينبهكم - سبحانه - أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلكم بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم ، وتعملون بمقتضى ما علمكم - سبحانه - .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى فضل هذه الآية كثيرا من الآثار والأقوال ، ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة ، قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يتركوه وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتذهب إليه ، فقال لهم : فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه ، فقام رجلان فأتيا النبى ﷺ فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال النبى ﷺ : «أما أنا فمحمد بن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبدالله ورسوله» .

ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .. ﴾ الآية .

فقالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا ولا تكونوا فيه أذنانا ، وإن ما جاء به محمد من عند ربه لو لم يكن دينا لكان فى عرف الناس حسنا .<sup>(١)</sup>

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٨٣ .

٣ - وفى سورة «الأعراف» آيات كريمة فيها من الوضوح ما فيها ، لما أباحه الله - تعالى - لعباده من طيبات ، ولما حرمه من خبائث والقارئ لها يتدبر وتفكر ، يرى كيف أن شريعة الإسلام التى جاء بها سيدنا رسول الله ﷺ من عند ربه - عز وجل - قد اشتملت على كل ما ترتاح إليه العقول السليمة ، وتشرح له الصدور النقية ، وتحبه النفوس السوية .  
وهذه الآيات هى قوله - عز وجل - :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١) .

والمعنى : عليكم يا بنى آدم أن تتجملوا بما يستر عورتكم ، وأن تتحلوا بلباس زينتكم كلما صليتم أو طفتم .

ثم أمرهم - سبحانه - أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

أى : كلوا من المأكلات الطيبة ، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا لا فى زينتكم ولا فى مأكلكم أو مشربكم ، لأنه - سبحانه - يكره المسرفين .

قال الإمام ابن كثير : قال بعض السلف : جمع الله الطب فى نصف آية فى قوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ وقال البخارى : قال ابن عباس : «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة» .<sup>(١)</sup>

وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدى الله فى عبادتهم وهم فى أكمل زينة فهذا - مثلاً - الإمام الحسن بن على ، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقليل له : يا ابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ، لأنه هو القائل :

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢)

فهذه الآية الكريمة تهدى الناس إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم ، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التى أحلها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المنتطعين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله فى قوله - تعالى - بعد ذلك :

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢١ .

(٢) تفسير الألوسى ج٨ ص ١٠٨ .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٢) .

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا الحكم الذى عن طريقه حرمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده؟ فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضا ، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد من أشرك مع الله آلهة أخرى .

وقوله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ معناه : مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من توجيهات سامية ، وأداب عالية .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من المحرمات التى نهى عباده عن اقترافها فقال - تعالى - :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٣) .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسعه الله ، قل لهم : إن ما حرمه الله عليكم فى كتبه وعلى ألسنة رسله هو هذه الأنواع الخمس التى أولها ﴿ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ أى : ما كان قبيحا من الأقوال والأفعال سواء أكان فى السر أو العلن ، وثانيها وثالثها : ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ والإثم : هو الشىء القبيح الذى فعله يعتبر معصية ، والبغى : و الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد .

قال الإمام ابن كثير: «وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغى هو التعدى على الناس ، فحرم الله هذا وهذا» (١).

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد ، يقال : بغى الجرح ، إذ تجاوز الحد فى فساده .

ورابع الأمور التى حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : ﴿ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ .

أى : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء فى عبادته بدون حجة وبرهان ، وقوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة عندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل .

فالجمله الكريمة قد اشتملت على التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم .

وخامسها قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى حرم عليكم أن تقولوا قولاً يتعلق بالعبادات أو المحللات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون ، وبغير بينة على صدق ما تدعون .

قال صاحب المنار : «ومن تأمل هذه الآية حق التأمل ، فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئاً أو يوجب عليهم شيئاً فى دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يجتنب - أيضاً - أن يقول : هذا مندوب أو مكروه فى الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع» (٢).

هذه بعض الآيات القرآنية التى نأخذ منها أن شريعة الإسلام ، التى جاء بها الرسول ﷺ من ربه - عز وجل - تمتاز بالوضوح الذى ترتاح له النفوس الكريمة ، وتهواه العقول السليمة ، وتطمئن إليه الأفئدة الخالية من العناد والحقد والجحود والجهل .

كما تمتاز - أيضاً - برعايتها لمصالح الناس ، فحيث تكون المصلحة يكون حكمها ، وحيث لا تكون ينتفى حكمها .

كما تمتاز - كذلك - بقيامها على السماحة واليسر ورفع الحرج ، فى كل ما جاءت به من أحكام ، ويكفى فى قوله - تعالى - : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٢ .

(٢) تفسير المنار ج ٨ ص ٣٩٩ .

وقول رسوله ﷺ : «إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا . . .» .

وشريعة هذه بعض مزاياها وخصائصها ، جدير بمن هداه الله - تعالى - إليها ، أن يردد دائما قوله - تعالى - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ .

## ٨- درء الشبهات عن رسالته ﷺ

١ - آثار المشركون ومن فى قلوبهم مرض ، كثيرا من الشبهات الفاسدة ، والاعتراضات المتعنتة ، والأقاويل الكاذبة ، حول رسالة النبي ﷺ .

وقد حكى القرآن الكريم كل هذه الشبهات والاعتراضات والأقاويل ، كما نطق بها مروجوها ، ثم رد عليها بما يدحضها ، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم .

وهذه الشبهات والاعتراضات التى أثارها الذين عموا وطمسوا عن الحق ، منها : ما يتعلق بوحداية الله - تعالى - ومنها : ما يتعلق بشخصية النبي - ومنها : ما يتعلق بالبعث والحساب فى الآخرة ، ومنها : ما يتعلق بالقرآن الكريم ، ومنها : ما يتعلق بالقضاء والقدر ، ومنها : ما يتعلق بغير ذلك من أحداث سجلها القرآن الكريم ثم رد عليها بما يحق الحق ويبطل الباطل .

ومن الآيات القرآنية التى قصت علينا بعض هذه الأقاويل الفاسدة التى تفوه بها أعداء الدعوة الإسلامية ، ثم ردت عليها بما يخرس ألسنة أصحابها قوله - تعالى - فى أوائل سورة «ص» :

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذِبٌ  
 ﴿٤﴾ اٰجَعَلْنَا الْاِلٰهَةَ الْاِلٰهًا وَّاحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ ﴿٥﴾ وَاَنْطَلَقْنَا الْمَلٰٓئِ  
 مِنْهُمْ اَنْ اٰمَسُوْا وَاَصْبِرُوْا عَلٰٓى اِهْتِمٰكُمْ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرٰدُ مِنْكُمْ مَا سَمِعْنَا  
 بِهٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْاٰخِرَةِ اِنْ هٰذَا اِلَّا اٰخْتِلَافٌ ﴿٦﴾ اَمْ نَزَّلْنَا عَلٰى الَّذِىْ كُرِمْنَا  
 بَيِّنٰتًا بَلٰغًا لِّمَنْ فِى شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِىْ بَل لَّمَّا يَذُوقُوْا عَذَابِىْ ﴿٨﴾ اَمْ حَسِبْتُمْ اَنْ  
 رَحْمَةً رَّبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ اَمْ لَكُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا فَلْيَرٰنِقُوْا فِى الْاَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِّنَ الْاَنْحٰرَابِ ﴿١١﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن جماعة من قريش اجتمعوا فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب ، لنكلمه فى شأن ابن أخيه ، فلما دخلوا على أبى طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكيف عن شتم ألهتنا ، وندعه وإلهه .

فقال أبوطالب للنبي ﷺ يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألك أن تكف عن شتم ألهتهم ويدعوك وإلهك .

فقال ﷺ : «ياعم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال : وإلام تدعوهم؟ قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم» .

فقال أبوجهل من بين القوم : ماهى وأبيك؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها ، فقال ﷺ : «تقولون : لا إله إلا الله» .

فنفر أبوجهل وقال : سلنا غير هذا .

فقال ﷺ : «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدي ، ما سألتكم غيرها» .

فقاموا غضابا ، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ وَعَجِبُوا .. ﴾ مأخوذ من العجب ، وهو تغير فى النفس من أمر

لا ترتاح إليه ، وتخفى لديها أسبابه .

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من مجيء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك ، ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

﴿ وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ ﴾ عندما دعاهم الرسول ﷺ إلى الدين الحق .

﴿ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أى : قالوا : هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألها ،

وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - سبحانه - أرسله إلينا .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر

والجحود عليهم ، وللايدان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول ﷺ بما هو منزه عنه من السحر والكذب .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالا أخرى لاتقل عن غيرها فى البطلان والفساد ،

فقالوا - كما حكى القرآن - : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٤٦ .

والاستفهام للإنكار، أى: أجعل محمد ﷺ الآلهة المتعددة، إلها واحدا، وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ أى: إن هذا الذى طلبه منا، ودعانا إليه، لشيء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزه ما يقبله العقل.

و ﴿عَجَابٌ﴾ أبلغ من عجيب، لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول: هذا رجل طويل، بينما تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد المعقول فى الطول: هذا رجل طوال.

فلفظ ﴿عَجَابٌ﴾ صيغة مبالغة سماعية، وقد حكاهما - سبحانه - عنهم للإشارة إلى أنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول ﷺ هو شىء قد تجاوز الحد فى العجب والغرابة.

واسم الإشارة يعود إلى جعله ﷺ الآلهة إلها واحدا، لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام.

وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو - فى زعمهم - متجاوز الحد فى العجب.

ثم صور - سبحانه - حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق، تصويرا بديعا، فقال: ﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

أى: وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب، بعد أن سمعوا من الرسول ﷺ ما أغضبهم وخيب آمالهم.

انطلقوا يقولون: أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها أبائكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما هون محمد ﷺ من شأنها، ومهما نهى عن عبادتها.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أى: إن هذا الذى يدعونا إليه محمد ﷺ من عبادة الله - تعالى - وحده وترك عبادة آلهتنا لشيء يراد من جهته هو، وهو مصمم عليه كل التصميم، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على دعوته، بتصميم منا على عبادة آلهتنا.

وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى ما يدعوهم إليه النبى ﷺ من عبادة الله وحده.

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم، فيكون المعنى: إن هذا الدين الذى نحن عليه لشيء يراد لنا، وقد وجدنا عليه آباءنا ومادام الأمر كذلك فلن نتركه مهما كرهنا فيه محمد ﷺ.

قال الألوسى : قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ تعليل للأمر بالصبر ، والإشارة إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى ﷺ وتصلبه فى أمر التوحيد ، ونفى ألوهية ألهمتكم .

أى : إن هذا لشيء عظيم يراد من جهته - ﷺ - إمضاؤه وتنفيذه ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة ألهمتكم ، وقيل : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلاحيلة إلا تجرع مرارة الصبر .

وقيل : إن هذا - أى : دينكم - يُطلب لينتزع منكم وي طرح ويراد إبطاله .<sup>(١)</sup>

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أى : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعوننا إليه محمد ﷺ فى ملة العرب التى أدركنا عليها آبائنا ، أو ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمد ﷺ فى الملة الآخرة ، وهى ملة عيسى - عليه السلام - فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء به عيسى .

وعلى هذين القولين يكون قوله : ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ متعلق بسمعنا .

ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد ﷺ كائنا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان وأهل الكتاب .

وعلى هذا الرأى يكون قوله : ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ حالا من اسم الإشارة وليس متعلقا بسمعنا .

ثم أكدوا نفيهم لعدم سماعهم لما جاءهم به الرسول ﷺ بقولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وتخريف اختلقه من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .

يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، دون أن يكون له أصل من الواقع .

ثم صرحوا فى نهاية المطاف بالسبب الحقيقى الذى حال بينهم وبين الإيمان ، ألا وهو الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله - تعالى - رسوله من بينهم بالرسالة ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفى ، أى : كيف يدعى محمد ﷺ أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظماء ، وهو دوننا فى ذلك؟ إننا ننكر وننفي دعواه النبوة من بيننا .

(١) راجع تفسير الألوسى ج٢٣ ص ١٦٧ .

قال صاحب الكشاف: أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيَّتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم. (١)

ولقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبي ﷺ في آيات كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾. (٢)

ولقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبي ﷺ فعندما سأله سائل، أظن محمدا على حق أم على باطل؟ كان جوابه: إن محمدا لعلى حق ولكن متى كنا لبني هاشم تبعا، أى: متى كانت عشيرتنا تابعة لبني هاشم!

وفى رواية أنه قال: تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطمعوا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .  
وقوله - سبحانه - : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي﴾ إضراب عن كلام يفهم من السياق، وتسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من أذى .

أى: هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى فى شأنك - أيها الرسول الكريم - وفى شأن ما جثتهم به ، ولم يستندوا فى أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر ، ولو عقلوا وأنصفوا لأمنوا بك وصدقوك .

وقوله - سبحانه - : ﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .

أى: لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من مسالكهم الخبيثة ، وأقوالهم الفاسدة ، فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم ، وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لا يحوم حوله حق .

وفى التعبير بقوله: ﴿لَّمَّا﴾ إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه ﷺ للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تهكمى فقال - تعالى - : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك - أيها الرسول الكريم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عن من يشاءون ، ويتخيروا للنبوّة صناديدهم وترفعوا بها عنك ، وإنما المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب - الوهاب ، أى : الكثير العطاء لعباده .

والمراد بالعنودية فى قوله : ﴿ عِنْدَهُمْ ﴾ الملك والتصرف ، وتقديم الظرف «عند» لأنه محل الإنكار ، وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمير العائد إلى النبى ﷺ تشريف وتكريم له ﷺ .

وجىء بصفة ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وألتهم من ترفع وتكبر .

كما جىء بصفة ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يختاره من عباده ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴾ تأكيد لما أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشيء من خزائن الله - تعالى - أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك - أيها الرسول الكريم - وليسوا بالكين شيئا - أى شيء - من هذه العوالم العلوية أو السفلية ، وإنما هم خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ تعجيز لهم ، وتهكم بهم واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو نحوه .

والفاء جواب لشرط محذوف ، والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا ، ولهم شيء من ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، ويدبروا أمره ، وينزلوا الوحي على من يختارونه للنبوّة من أشرفهم وصناديدهم .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على نهاية التعجيز لهم ، والتهكم بهم وبأقوالهم حيث بين - سبحانه - أنهم أدعياء فيما يزعمون ، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون .

ثم بشر الله - تعالى - رسوله ﷺ بالنصر عليهم فقال: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ .

ولفظ ﴿جُنْدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، و﴿مَا﴾ مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو قولك : أكلت شيئاً ما ، أى : شيئاً قليلاً ، وقيل : هى للتكثير والتهويل كقولهم : لأمر ما جدع قصير أنفه .

أى : لأمر عظيم ، وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لا وزن لهم بجانب قدرة الله - تعالى - .

و﴿مَهْزُومٌ﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل الهزم : غمز الشيء اليابس حتى يتحطم ويكسر .

يقال : تهزمت القرية ، بمعنى يبست ، وتكسرت ، وهُزِمَ الجيش بمعنى غلب ، وكسر .

والمعنى : هؤلاء المشركون - أيها الرسول الكريم - لانتهم بأمرهم ، ولا تكثرث بجموعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا التى لا يقف أمامها شيء ، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين فى مواطن متعددة .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال - تعالى - : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكثرث لما به يهدون ، و﴿مَا﴾ مزيدة وفيها معنى الاستعظام إلا أنه على سبيل الاستهزاء بهم ، و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك (١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت أقوال المشركين ، وردت عليها ردا يكتبهم ويزهق باطلهم ، وختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .

٢ - ومن الآيات القرآنية التى حكمت شبهات المشركين حول وحدانية الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له عز وجل - وأمرت النبى ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنهم ، وبما يبطل شبهاتهم ويهدم اعتراضاتهم .

(١) تفسير الكشاف ج٤ ص ٧٥ .

من هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة «الإسراء» :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وللمفسرين فى تفسير الآية الأولى اتجاهان : أما الاتجاه الأول فىرى أصحابه أن المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز وجل - طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكى ينازعه فى ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما هى عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . (١)

وقال - سبحانه - : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . (٢)

وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشف كلامه فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ جواب عن مقالة المشركين أى : إذا طلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض . (٣)

وأما الاتجاه الثانى فىرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون ، إذا لابتغوا - أى الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ، ويعترفوا بفضلته ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٤)

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٣) تفسير الكشف ج٢ ص ٤٥١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٥٧ .

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه في تفسيره للآية فقال : يقول - تعالى - : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أمعه آلهة تعبد ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه يبتغون إليه الوسيلة والقربة . (١)

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأي الأول أظهر لأن في الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله - تعالى - وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تتقرب إليه - سبحانه - بل الذي يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأي يناسبه - أيضا - قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ ﴾ .

أى : تنزه الله - تعالى - عما يقوله المشركون في شأنه وتباعد ، وعلا علوا كبيرا فإنه - جل شأنه - لا ولد له ، فلا شريك له .  
قال - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنها دون عرشه - تعالى - وتحتة ، وليست معه .  
ثم بين - سبحانه - أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال - تعالى - : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ ﴾ .

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع في الماء أو في الهواء ، فالمسيح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل ما يليق به - سبحانه - .

أى تنزه الله - تعالى - وتمجده السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شيء من مخلوقاته التي لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه - تعالى - ولكن أنتم يا بنى آدم ، ﴿ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ، وفوق مستوي فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ ﴾ .

والمندبر في هذه الآية الكريمة ، يراها تبعث في النفوس الخشية والرهبة من الخالق - عز وجل - لأنها تصرح تصريحاً بليغا بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ، بل كل كائن في هذا الوجود يسبح بحمده - تعالى - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٧٦ .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله ، وإخلاص العبادة له ، ومداومة ذكره ، حتى لا يكون - وهو الذى كرمه ربه وفضله - أقل من غيره طاعة لله - تعالى . -

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ تذييل قصد به بيان فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده مع تقصيره فى تسيحه وذكره .

أى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه المستقيم .

٣ - أما الإشاعات الكاذبة ، والأراجيف الباطلة ، التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم ، وحول شخصية الرسول ﷺ فهى كثيرة ومتنوعة ، وقد حكاها القرآن الكريم بأمانة ثم رد عليها بما يدحضها .

ومن هذه الأراجيف التى قصها علينا القرآن فى هذا الشأن ثم لقن الرسول ﷺ الرد المفحم عليها قوله - تعالى - فى سورة «الفرقان» :

وَقَالَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ  
أَفْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ  
آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ  
وُظْمًا وَزُورًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا  
أَسْطِيرًا الْأُولَىٰ  
انْتَبَهَا فَهِيَ تَمْلَىٰ  
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٧﴾ قُلْ  
أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ  
السِّرِّ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ  
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨﴾

والإفك : أسوأ الكذب ، يقال : أفك فلان - كضرب وعلم - أفكا ، إذا قال أشنع الكذب وأقبحه .

والزور فى الأصل : تحسين الباطل ، مأخوذ من الزور وهو الميل وأطلق على الباطل زور لما فيه من الميل عن الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى ما يخالفه .

أى : وقال الذين كفروا فى شأن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه ﷺ ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان ﴿ افترأه ﴾ واختلقه محمد ﷺ من عند نفسه ، ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أى : وأعانه وساعده على هذا الاختلاق ﴿ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ من اليهود أو

غيرهم ، كعداس - مولى حويطب بن عبدالعزيز - ويسار - مولى العلاء بن الحضرمي - وأبى فكيهة الرومي ، وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَكَيْفَ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ رد على أقوال الكافرين الفاسدة .

أى : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما وزورا كبيرا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاته الفاسدة فقال : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

والأساطير : جمع أسطورة بمعنى أكذوبة وكتبتها : أى : أمر غيره بكتابتها له ، أو جمعها من بطون كتب السابقين .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتبوا بقولهم السابق فى شأن القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا ، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، أمر

الرسول ﷺ غيره بكتابتها له ، وجمعها من كتب السابقين ﴿ فَهِيَ ﴾ أى : هذه

الأساطير ﴿ تُمَلَّى عَلَيْهِ ﴾ أى : تلقى عليه ﷺ بعد اكتتابها ليحفظها ويقراها على

أصحابه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : فى الصباح والمساء ، أى : تملئ عليه خفية فى الأوقات

التي يكون الناس فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ

الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين ، وأنتك

افتريته من عند نفسك ، وأعانتك على هذا الافتراء قوم آخرون ، قل لهم : كذبتهم أشنع

الكذب وأقبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة وله من حسن

التأثير ما يجعله باعتراف زعمائكم ليس من كلام البشر ، وإنما الذى أنزله على هو الله -

تعالى - الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، أى : يعلم ماخفى فيهما ويعلم الأسرار

جميعها فضلا عن الظواهر .

ثم ختم - سبحانه - الآية بما يفتح باب التوبة للتائبين ، وبما يحرضهم على الإيمان

والطاعة لله رب العالمين فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

أى : إنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإيمان ، وترك

العصيان وعاد إلى الطاعة .

قال الإمام ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم، وافتراءهم، وفجورهم، وبهتهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم - سبحانه - إلى التوبة والإقلاع عما هم عليه من كفر إلى الإسلام والهدى، كما قال - تعالى -:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة. (١)

٤ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة أخرى، تتعلق بشخصية النبي ﷺ حيث أنكروا أن يكون الرسول من البشر وأن يكون آكلا للطعام وماشيا في الأسواق، فقال - تعالى -:

وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ  
الطَّعَامَ وَيَكْتُمِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا  
﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ  
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا  
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا  
مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾  
بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش قالوا للنبي ﷺ إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا، وإن كنت تريد ملكا، جعلناك ملكا علينا.

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٠٢.

فقال ﷺ : « ما أريد شيئاً مما تقولون ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم » .

فقالوا : فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك ، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا .

فقال لهم ﷺ : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله - تعالى - بعثنى بشيرا ونذيرا » ، فأنزل الله - تعالى - فى قولهم ذلك . (١)  
والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعود إلى مشركى قريش .

أى : أن مشركى قريش لم يكتبوا بقولهم إن محمدا ﷺ قد افترى القرآن ، وأن القرآن أساطير الأولين ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته : كيف يكون محمد ﷺ رسولا ، وشأنه الذى نشاهده بأعيننا ، أنه ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ كما يأكل سائر الناس ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ أى : ويتردد فيها كما تتردد طلبا للرزق ، ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أى : هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة ﴿ فَيَكُونُ ﴾ هذا الملك ﴿ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ أى : منذرا من يخالفه بسوء المصير .

﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ ﴾ أى : إلى الرسول ﷺ ﴿ كَنْزٌ ﴾ أى : مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس ، وأصل الكنز ، جعل المال بعضه على بعض وحفظه ، من كنز التمر فى الوعاء إذا حفظه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ ﴾ ﴿ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : حديقة مليئة بالأشجار المثمرة ، لكى يأكل منها وتأكّل معه من خيرها .

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ فضلا عن ذلك ﴿ إِنَّ تَتَّبِعُونَ ﴾ أى : ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ أى : مغلوبا على عقله ومصابا بمرض قد أثر فى تصرفاته .

فأنت ترى أن هؤلاء الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن عنهم - على ست قبائح قصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه ﷺ .

وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة ، بالتهوين من شأنهم وبالتعجب من

(١) تفسير الألوسى ج ١٨ ص ٢٣٧ .

تفاهة تفكيرهم ، وبالتسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم فقال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ .

أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من تعنتهم ، وضحالة عقولهم ، وسوء أفعالهم ، حيث وصفوك تارة بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة ، وقد ضلوا عن الطريق المستقيم فى كل ما وصفوك به ، وبقوا متحيرين فى باطلهم ، دون أن يستطيعوا الوصول إلى السبيل الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

فالآية الكريمة تعجيب من شأنهم واستعظام لما نطقوا به ، وحكم عليهم بالخبية والضلال وتسلية للرسول ﷺ عما قالوه فى شأنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية ، تسلية أخرى لرسوله ﷺ فقال - تعالى - : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ .

أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت خيراته ، فهو - سبحانه - الذى - إن شاء جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم - خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين ، بأن يهبك جنات عظيمة تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، ويهبك قصورا فخمة ضخمة .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى ، أى : إن شاء أعطاك فى الدنيا أكثر مما اقترحوه ، أما عطاء الآخرة فهو محقق ولا قيد عليه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تفسير لقوله : ﴿ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ فهو بدل أو عطف بيان .

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن قبائحهم المتعلقة بوحدانية الله - تعالى - وبشخصية رسول الله ﷺ إلى الحديث عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتكاثرة ، ألا وهى إنكارهم للبعث والحساب ، فقال - تعالى - : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أى : إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا باتخاذ آلهة من دون الله - تعالى - ولم يكتفوا بالسخرية من رسوله ﷺ بل أضافوا إلى ذلك أنهم كذبوا بيوم القيامة ، وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب ، والحال أننا بقدرتنا وإرادتنا قد أعدنا وهياأنا لمن كذب بهذا اليوم سعيرا ، أى : نارا عظيمة شديدة الاشتعال .

وقال - سبحانه - : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾ ولم يقل : لمن كذب بها ، للمبالغة فى التشنيع عليهم ، والزجر لهم ، إذ أن التكذيب بها كفر يستحق صاحبه الخلود فى النار المستعرة .

هـ - وأما الآيات القرآنية التى حكاها القرآن الكريم فى شأن إنكار المشركين لليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، فهى أكثر من أن تحصى . وقد رد القرآن الكريم على هذا الإنكار بالأدلة النقلية والعقلية التى تقنع كل ذى عقل قويم ، وقلب سليم .

ومن الآيات التى حكت جانباً مما قاله المشركون فى شأن إنكارهم للبعث والحساب ، ورد عليهم بما يدحض شبهاتهم ، قوله - تعالى - فى سورة «الإسراء» :

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا  
لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا  
يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ  
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾  
يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَعْتَدُونَ إِنَّ لَكُمْ إِلَّا فِيلًا ﴿٥٢﴾

والرفات : ما تكسر ويلى من كل شىء كالفتات ، يقال : رفت فلان الشىء يرفته - بكسر الفاء وضمها - إذا كسره وجعله يشبه التراب .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿أئنذا كنا﴾ وفى قوله : ﴿أئننا لمبعوثون﴾ للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحداية الله - تعالى - ولنبوته النبى ﷺ وللبعث والحساب ، قالوا للنبى ﷺ على سبيل الإنكار ، والاستبعاد ، أنذا كنا يا محمد عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ودقته ، أننا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذى كنا عليه فى الدنيا؟

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدره الله - تعالى - التي لا يعجزها شيء ، وكرر - سبحانه - الاستفهام في الآية الكريمة ، للإشعار بإيغالهم في الجحود والإنكار .  
 وقوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾  
 أمر من الله - تعالى - لرسوله ﷺ بالرد عليهم فيما استبعده وأنكروه من إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقيق من شأنهم ، والتعجيز لهم ﴿ كُونُوا ﴾ - إن استطعتم - ﴿ حِجَارَةً ﴾ كالتى تعبدونها من دون الله ، ﴿ أَوْ حَدِيدًا ﴾ كالذى تستعلمونه فى شئون حياتكم ، ﴿ أَوْ ﴾ كونا ﴿ خَلْقًا ﴾ أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد ﴿ مِمَّا يَكْبُرُ ﴾ أى : يعظم ويستبعد - ﴿ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ المظلمة - قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شىء من ذلك أو غيره إن استطعتم ، فإن الله - تعالى - لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكى يحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .  
 فالمقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء .

قال الجمل : أجابهم الله - تعالى - بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى أى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ، ونحوهما ، فليس المراد الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله - تعالى - عن الإعادة .<sup>(١)</sup>  
 وقوله - تعالى - : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرها؟

وقوله - سبحانه - : ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله - تعالى - الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .<sup>(١)</sup>

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص ٦٢٩ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

ثم بين - سبحانه - ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون من الرسول ﷺ هذه الإجابات السديدة، فقال: ﴿فَسَيَنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ...﴾ .

أى: فسيحركون إليك رؤوسهم عندما يسمعون ردك عليهم، ويقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب: متى هو؟ أى ما ذكرته من الإعادة بعد الموت، أو متى هو ذلك اليوم الذى نعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورفاتا .

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب، ومن استبعاد لحصوله كما قال - تعالى -: حكاية عنهم فى آية أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم .

أى: قل لهم - أيها الرسول الكرم - على سبيل التأنيب والوعيد، عسى هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله يكون قريبا جدا وقوعه .

ولاشك فى أنه قريب، لأن عسى فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق الوقوع، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب، ولأن الرسول ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يدعون فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ...﴾ .

والظرف ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل مضمر أى: اذكروا يوم يدعوكم، ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من ﴿قَرِيبًا﴾ .

والداعى لهم هو «إسرافيل» - عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور، كما قال - تعالى -: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ . (١)

وكما قال - سبحانه - : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكَرٍ خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ﴾ . (٢)

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .  
(٢) سورة القمر الآيات ٦، ٧، ٨ .

وقوله : ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للملابسة .

أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة وانقياد حال كونكم حامدين لله - تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال منهم ، أى : حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع ، ستركبه ، وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتقسر قسرا ، حتى إنك تلين لين المسموح - أى الذليل - الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك . (١)

وقوله : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ بمعنى تجيبون إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة ، فهى أؤكد من الإجابة وأسرع فى التلبية .

وجملة ﴿ وَتَنْظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ حالية أى : والحال أنكم تظنون عند بعثكم أنكم ما لبثتم فى الدنيا أو فى قبوركم إلا زمنا قليلا .

قال قتادة : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت ، حين رأوا يوم القيامة لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴾ (٢)

وقوله - تعالى - : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣)

وقوله - تعالى - : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤)

وبهذا نرى أن القرآن الكريم قد رد على ما أثاره المشركون من شبهات حول البعث وما يعقبه من ثواب وعقاب ، ردا يزهق هذه الشبهات ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم ، بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٦٧٢ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢ .

(٤) سورة النازعات الآية ٤٦ .

وفى سورة «يس» آيات كريمة ، اهتمت بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شيء ، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ بِحُجَّتِي الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن أبى بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه فى الهواء ويقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال ﷺ : نعم ، يبيتك - تعالى - ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة .

والمراد بالإنسان : جنسه ، ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا .

وأصل النطفة : الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف ، يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .

والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره ، والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل .

والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أننا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين الذى يخرج من الرجل فيصب فى رحم المرأة ، وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لغفلته وعناده ، بادر بالمبالغة فى الخصومة والجدل الباطل ، وجاهر بذلك مجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ معطوفة على الكلام المتقدم وداخل في حيز الإنكار .

أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلا هو فى غاية الغرابة ، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : - دون أن يفتن إلى أصل خلقتة - من يحيى العظام وهى رميم ، أى : وهى بالية أشد البلى .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله ﷺ الجواب الذى يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية ، الله - تعالى - الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئا مذكورا ، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه ، وهو - سبحانه - بكل شىء فى هذا الوجود عليم علما تاما ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، سواء أكان هذا الشىء صغيرا أم كبيرا ، مجموعا أم مفرقا .

وقوله - تعالى - : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ دليل آخر على إمكانية البعث وهو بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ .

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر الندى الرطب ، كشجر المرخ والعفّار وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة نار بقدرة الله - تعالى - .

قال ابن كثير : المراد بذلك سرح - أى : شجر المرخ والعفّار ، ينبت بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقده أحدهما بالآخر ، فتولد النار من بينها ، كالزناد سواء بسواء .

روى هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى المثل : « لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفّار » .<sup>(١)</sup>

أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفّار ، فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث ، يحيى الأجساد البالية

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٥٨١ .

الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل لكم - بفضله ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب نارا ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار وتنتفعون بها فى كثير من أحوال حياتكم .

وإذن فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر - مع مافيه من المائبة المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخا آخر ، فقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۗ ﴾ .

والاستفهام - كسابقه - للإنكار والتعجب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام والضمير فى ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ يعود إلى المنكرين للبعث .

المعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض ، وهما فى غاية العظم قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذى هو صغير الشكل ، ضعيف القوة .

وجملة : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ جواب من جهته - تعالى - وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير ما بعد النفى وتأكيد قدرته - سبحانه - على الخلق والإعادة ، لأن ﴿ بَلَىٰ ﴾ حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منفيا .

أى : بلى إنه لقادر - سبحانه - على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو - سبحانه - ﴿ الْخَلَّاقُ ﴾ أى : الكثير المخلوقات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الكثير العلم بحيث لا يخفى عليه شىء .

ثم أكد - سبحانه - شمول قدرته لكل شىء فقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۗ ﴾ .

أى : إنما شأنه - سبحانه - فى إيجاد الشىء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجودا فيكون ، أى : فهذا الشىء يكون ويوجد فى الحال ، قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له «كن» قوله فيكون

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتنزيهه - تعالى - عن كل نقص ، فقال : ﴿ فَسَبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۗ ﴾ .

أى : فتنزه الله تعالى - الذى له ملك كل شىء ملكا تاما ، والذى إليه المرجع والمآب ، عن كل مايقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى .

فهو - سبحانه - لا يعجزه شيء ولا يخفى على علمه شيء ، ولا يحول دون قدرته شيء ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

٦ - كذلك من أقيح الشبهات التي أثارها المشركون لتبرير ما هم عليه من شرك ، زعمهم أنهم ما فعلوا ذلك إلا بمشيئة الله - عز وجل - وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذه المزاعم ورد عليهم بما يبطلها ، ومن ذلك قوله - تعالى - في سورة الأنعام :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا  
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسَنَاتِنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُمْ لَنَا  
إِنْ نَسْتَبِيعُ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فَخْرُصُونَ ﴿١٥١﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ  
فَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٢﴾ قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ  
حَرَّمَ هَذَا فَيَنْشَهُدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٣﴾

إن هذه الآيات الكريمة تعرض لشبهة قديمة جديدة قديمة لأن كثيرا من مجادلي الرسل موهوا بها ، وحديثه لأنها دائما تراود كثيرا من المتمسكين بالأوهام في سبيل إرضاء نزواتهم من المتع الباطلة والشهوات المحرمة .

إنهم يقولون عندما يرتكبون القبائح والمنكرات : هذا أمر الله ، وهذا قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها وإذا كان الله قد قضى علينا بها فما ذنبنا؟ ولماذا يعاقبنا عليها؟ إلى غير ذلك من اللغو الباطل ، والكلام العابث الذي يريدون من ورائه التحلل من أوامر الله ونواهيه .

ولنتدبر سويا أيها القارئ الكريم - هذه الآيات - وهي تحكى تلك الشبهات الباطلة ، ثم نقدفها بالحق الواضح ، والبرهان القاطع ، فإذا هي زاهقة .

يقول - سبحانه - : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا

مِنْ شَيْءٍ﴾ .

أى : سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا يشرك به أبأؤنا من قبلنا ، لنفدت مشيئته ، ولما أشركنا نحن ولا أبأؤنا .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام .  
وقد رضى لنا ذلك فلماذا تطالبنا يا محمد بتغيير مشيئة الله ، وتدعوننا إلى الدخول فى دينك الذى لم يشأ الله دخولنا فيه؟

وقد حكى القرآن فى كثير من آياته ما يشبه قولهم هذا ، كما فى قوله - تعالى -  
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . ﴾ (١)

أى : مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول ﷺ فيما جاء به من إبطال الشرك ، قد كذب الذين من قبلهم لرسولهم ، واستمروا فى تكذيبهم لهم حتى أنزلنا على هؤلاء المكذبين عذابنا ونقمتنا .

ومن مظاهر تكذيب هؤلاء المشركين لرسولهم ، أنهم عندما قال لهم الرسل - عليهم السلام - اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، كذبوهم واحتجوا عليهم بأن ما هم عليه من شرك واقع بمشيئة الله ، وزعموا أنه مادام كذلك فهو مرضى عنده - سبحانه - فكان الرد عليهم بأن لو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيا عنده - سبحانه - : لما أذاق أسلافهم المكذبين - الذين قالوا لرسولهم مثل قولهم - عذابه ونقمته ، ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ثم بعد هذا الرد المفحم للمشركين أمر الله - تعالى - رسوله أن يطالبهم بدليل على مزاعمهم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا . . ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ إن كان عندكم هذا العلم فأخرجوه لنا لتباحث معكم فيه ، ونعرضه على ما جئتكم به من آيات بينة ودلائل ساطعة ، فإن العاقل هو الذى لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل على مشيئة الله التى لا ندرى عنها شيئا .  
ثم بين حقيقة حالهم قال : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

أى : أنتم لستم على شىء ما من العلم ، بل ما تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن بالباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا ، وما أنتم إلا تخرصون أى تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

(١) سورة النحل الآية ٣٥ .

وأصل الخرص : القول بالظن ، يقال : خرصت النخل خرصا - من باب قتل - حرزت ثمره وقدرته بالظن والتخمين ، واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص فى قوله - كنصر - أى كذب .

وبعد أن نفى - سبحانه - عنهم أدنى ما يقال له علم وحصر ما هم عليه من دين فى أدنى مراتب الظن مع أن أعلاها لا يغنى من الحق شيئا ، ووصمهم بالكذب فيما يدعون ، بعد كل ذلك أثبت لذاته - سبحانه - فى مقابلة ذلك الحججة العليا التى لاتعلوها حجة فقال : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى : قل أيها الرسول الكرم لهؤلاء المشركين الذين بنوا قواعد دينهم على الظن والكذب بعد أن عجزوا عن الإثبات بأدنى دليل على مزاعمهم ، قل لهم : لله وحده الحججة البالغة ، أى البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة ، التى وصلت إلى أعلى درجات الكمال فى قطع عذر المحجوج ، وإزالة الشكوك عمّن تدبرها وتأملها .

وقوله : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : لو شاء - سبحانه - هدايتكم جميعا لفعل ، لأنه لا يعجزه شىء ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ضلالة آخرين ، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .

ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله .

نقول لهم : نحن معكم فى أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه ، فالطائع تحت المشيئة والعاصى تحت المشيئة ، ولكن المشيئة لم تحيّر أحدا على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون ، وليس العلم صفة تأثير وجبر ، فضلا عن ذلك فما أَرَادَهُ اللهُ وشاءه ، نحن لانعلمه ، وإنما الذى نعلمه هو ما أمرنا به ، أو نهانا عنه .

ولقد شاء الله - تعالى - أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم وسن لهم شريعة لتكون مقياسا لما يأخذون وما يدعون ، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها .

وإذن فمشيئة الله متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أم إلى الضلال ، وهو مؤاخذ إن ضل ومأجور إذا اهتدى ، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينه يبصر النور ، ومن يغمضها لا يراه ، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإذن فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا على معنى أنه أجبرهم عليه فهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لا سند له من العلم والتفكير الصحيح فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيدت بها ، وهذه السنة هي أنه لا جبر على طاعة ولا قسر على معصية .

وتقرير ذلك يؤخذ من قوله - تعالى - ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقدرته وقدره لهداكم ، ولكنه لم يشأ إجباركم على الضلالة ، فهي مشيئة المنح والتميسير وليست مشيئة الإلجاء والتسخير قال - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بأن يطالب المشركين بإحضار من يشهد لهم بأن الله قد حرم عليهم ما زعموا تحريمه من الحرث والأنعام وغيرها فقال : ﴿ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ .

أى : أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه ، وهم كبارؤهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم تفضيحههم وإلزامهم الحجة ، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أى : فإن حضر - على سبيل الفرض - هؤلاء الشهود الذين عرفوا بضلالهم فلا تصدقهم ولا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن الباطل فى مثل هذا المقام كالشهادة به ، وإنما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم بواسطة ما أتاك الله من حجج وبيانات .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم ، الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرما ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شىء لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم فى أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به ، وقوله : ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ يعنى فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهيد معهم مثل شهادتهم وكان واحدا منهم (١) .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : ولا تتبع أهواء الناس

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٧٨ .

الذين كذبوا بآياتنا التي أنزلها الله عليك لتكون هداية ونورا لقوم يعقلون ، فإن شهادتهم - إن وقعت - فإنما هي صادرة عن هوى وضلال .

ولم يقل - سبحانه - ولا تتبع أهواءهم بل قال : ولا تتبع أهواء الذين كذبوا ، فوضع الظاهر موضع الضمير لبيان أن المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة إمعانا فى التمسك بتقاليده الباطلة ، إنما هو صاحب هوى وظن لصاحب علم وحجة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ عطف على الموصوف قبله لتعدد صفاتهم القبيحة .

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلا أى شريكا مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء ، لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق ، ولا للثقة بهم ، وإنما للاحتقار فى الدنيا ، ولسوء العذاب فى الآخرة .

هذا ، ومن كل ماتقدم يتبين لكل عاقل ، كيف أبطل القرآن الكريم الشبهات الفاسدة ، والإشاعات الكاذبة ، والأقاويل الساقطة التى تفوه بها المشركون ، ليصرفوا الناس عن دعوة الحق ، وكيف لقن الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ الحججة البالغة ، والأدلة الدامغة التى أتت على بنيان أعدائه من القواعد وصدق الله إذ يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨]

## ٩- تسليته وتثبته ﷺ

١ - إن الذي يقرأ سيرة الرسول ﷺ يرى أنه قد تعرض من أعدائه لألوان من الأذى الشديد ، والتعننت الساخر ، والمكر السيء ، والعناد الطاغى ، والحسد لما آتاه الله - تعالى - من فضله ، ولقد كان ﷺ يضيق لما يراه من قومه من تعصب أعمى ومن إعراض عن دعوته التى تهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وتوصلهم متى اتبعوها إلى سعادة الدارين .

إلا أن الله - تعالى - سكب فى قلبه من قوة الإيمان ، ومن صدق اليقين ، ومن علو الهمة ، ومن توجيهات القرآن الكريم ، ما جعله ﷺ يمضى فى طريق أداء رسالته ، وفى تبليغ الناس لما أمره الله - تعالى - بتبليغه دون تردد أو تقاعس أو فتور .

ولقد ساق - سبحانه - لعبده ورسوله محمد ﷺ أنواعا من الوسائل التى تغرس التسلية فى قلبه عما أصابه من أعدائه ، والتى تزيد ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته .  
تارة عن طريق إخباره أن ما قاله أعداؤه من سوء فى شأنه ، قد قاله أعداء الرسل السابقين .

قال - تعالى - : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤٣]

أى : لا تخزن أيها الرسول الكريم من الأقوال الباطلة ، التى قالها المشركون فى حقك ، فإن ما قالوه فى شأنك ، قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم واعلم أن ربك ذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين ، وذو عقاب أليم للكفار المكذبين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣]  
وتارة عن طريق أمره بالإكثار من العبادة ، لأن الإكثار منها يزيل عن القلب همومه وأحزانه .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٧ - ٩٩]

أى : إن ضاق صدرك - يا محمد - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فافزع إلينا بالتسبيح والتحميد وكثرة العبادة ، لأن ذلك يذهب الأحزان ، ويفرح الكروب بإذنه - تعالى - .

وتارة يبشره بأن العاقبة الطيبة ستكون له ولأتباعه ، مهما أحاط به وبهم البلاء .  
قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [ الصافات : ١٧١ - ١٧٣ ]

وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [ غافر : ٥١ ]

وتارة يأمره - سبحانه - بالصبر وقد تكرر ذلك في عشرات الآيات ، ومنها قوله - تعالى - :  
﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [ يونس : ١٠٩ ]  
وقوله - سبحانه - :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [ الروم : ٦٠ ]  
وقوله - عز وجل - : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . . ﴾ [ الأحقاف : ٣٥ ]  
وقوله - تعالى - : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

٢ - ومن أجمع الآيات القرآنية التي فيها ما فيها من التسلية للرسول ﷺ ومن التسرية عن نفسه قوله - تعالى - في سورة الأنعام :

قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يُحْزَنُ لَكَ

الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأْتِ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ

أَسْتَهْمُ نَصْرَنَا وَلَا مَبْدَل لِّكَامِتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَهُ مِنْ بَيَّأْتِ الْمُرْسَلِينَ

﴿٣٥﴾ وَإِنْ كَانَ كَبْرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي

الْأَرْضِ أَوْ سُلَاكًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيَّأَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى

الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

وَالْمَوْتَىٰ يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ تَمِيمًا إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ قَدْ ﴾ هنا للتحقيق وتأکید العلم وتكثيره ، والتحقيق هنا جاء من موضوعها لها من ذاتها ، والحزن ألم يعترى النفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه . قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : يقول - تعالى - مسليا لنبیه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ أى قد أحطنا علما بتكذبيهم لك وحزنك وتأسفك عليهم وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أى : هم لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وعن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابغ؟ فقال : والله إنى لأعلم أنه لنبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاء؟ وتلا أبو يزيد ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١).

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبي ﷺ عما كان يصيبه من المشركين وما لاشك فيه أنه - عليه الصلاة والسلام - كان حريصا على إسلامهم ، فإذا ما رآهم معرضين عن دعوته حزن وأسف ، وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ فَلَعلَّكَ بآخِعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٢) ومنها قوله - تعالى - : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣) ومنها قوله - تعالى - : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إنا نَعْلَمُ مَا يَسِرُونَ وَمَا يعلَنُونَ ﴾ (٤)

والمعنى : إن هؤلاء الكفار - يا محمد - لا ينسبونك إلى الكذب ، فهم قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع اعتقادهم صدقها .

والجحود هو الإنكار مع العلم ، أى نفى ما فى القلب ثبوته ، أو إثبات ما فى القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود بعد نفى التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) سورة الكهف : ٦

(٣) سورة فاطر : ٨

(٤) سورة يس : ٧٦ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ولم يقل ﴿ وَلَكِنَّهُمْ ﴾ لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذى استقر فى نفوسهم ، وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب .

ثم زاد القرآن فى تعزية النبى ﷺ وتسليته عن طريق إخباره بما حدث للأنبياء من قبله فإن عموم البلوى بما يخفف وقعها فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا ﴾ .

أى : أن الرسل من قبلك - يا محمد - قد كذبتهم أقوامهم وأنزلت بهم الأذى ، فليس بدعا أن يصيبك من أعدائك ما أصاب الأنبياء من قبلك ، ولقد صبر أولئك الأنبياء الكرام على التطاول والسفه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر ، فعليك - وأنت خاتمهم وإمامهم - أن تصبر كما صبروا حتى تنال ما نالوا من النصر ، فإن سنة الله لا تتخلف فى أى زمان أو مكان .

وجاء قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ مؤكدا بقدر وباللام ، للإشارة إلى تأكيد التسلية والتعزية ، وإلى تأكيد التمسك بفضيلة الصبر التى سيعقبها النصر الذى وعد الله به الصابرين .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا ﴾ غاية للصبر ، أى : صبروا على التكذيب وما قارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا وفيه بشارة للنبى ﷺ مؤكدا سبحانه - التسلية بأنه سينصره على القوم الظالمين .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ معناه : لا مغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات التى بشر فيها عباده المؤمنين بالفلاح وحسن العاقبة . ويرى المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه وصفاته ، وأحكامه ، وسننه فى كونه ، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه وأوليائه من النصر والظفر ، وهذا الرأى أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل .

وإضافة الكلمات إليه - سبحانه - للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها لأنه - سبحانه - لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال ، ولا يقع منه خلف فى قول من الأقوال ، فمادام المؤمنون يخلصون له العبادة والقول والعمل ويجتهدون فى مباشرة الأسباب واتخاذ الوسائل النافعة ، فإنه - سبحانه - سيجعل العاقبة لهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ تأكيد وتقرير لما قبله أى : ولقد جاءك من أخبار المرسلين وأنبيائهم - مما قصه عليك فى كتابه - مافيه من العظات والعبر ، فلقد صبر المرسلون على الأذى فكافأهم الله - تعالى - على ذلك بالظفر على أعدائهم .  
ثم بين - سبحانه - أنه لا سبيل إلى إيمان هؤلاء الجاحدين إلا بمشيئة الله وإرادته فقال :  
﴿ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ ﴾ .

كبر عليك : أى شق وعظم عليك ، والنفق : السرب النافذ فى الأرض الذى يخلص إلى مكان .

والمعنى : وإن كان - يامحمد - قد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سببا فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكا عميقا فى جوف الأرض ، أو مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل فإن ذلك لن يفيد شيئا لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك عنادا وجحودا .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أى : ولو شاء الله جمعهم على ماجئت به من الهدى والرشاد لفاعل ، بأن يوفقهم إلى الإيمان فيؤمنوا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنهم بسوء اختيارهم آثروا الحياة الدنيا ، فلا تكونن من الجاهلين بحكمة الله فى خلقه ، وبسننه التى اقتضاها علمه .

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للإيمان والاستجابة للحق فقال :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : إنما يستجيب لك أيها الرسول الكريم أولئك الذين يسمعون توجيهك وأقوالك سماع تدبر وتفهم وتأثر ، أما هؤلاء الذين يعاندونك فقد طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون .

فالمراد بالاستجابة هنا ، الإجابة المقرونة بالتفكير والتأمل ، فهى إجابة محكمة دقيقة لأنها أتت بعد استقراء وتدبر وهذا ماتدل عليه السين .

ثم بين - سبحانه - حال الكافرين فقال : ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

أى : وموتى القلوب الذين لا يسمعون سماع تدبر وتقبل وهم المشركون ، سيبعثهم الله من قبورهم يوم القيامة ويحاسبهم حسابا عسيرا على أقوالهم الباطلة وأعمالهم السيئة .

فالمراد بالموتى هنا الكفار لأنهم موتى القلوب فشبهم - سبحانه - بموتى الأجساد - وهذا من باب التهكم بهم والتحقير من شأنهم .

وقيل : إن لفظ الموتى على حقيقته وأن الله - تعالى - بقدرته النافذة سبيعت الجميع يوم القيامة ، ويرجعهم إليه فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

٣ - أما الآيات القرآنية التى أنزلها - سبحانه - لتثبيت قلب نبيه محمد ﷺ ولتقوية عزيمته ، ولتشجيعه على السير فى طريقه ، فهى كثيرة - أيضا - ويكفيها منها قوله - تعالى - فى سورة هود :

وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ  
مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِمْ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ  
وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى  
مَكَانِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١١٤﴾ وَانظُرُوا إِلَىٰ مَا أُنزِلُوا بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِن كُنْتُمْ  
عَنِ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ لَفَاعْبُدْهُ  
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾

والمتون فى قوله : ﴿ وَكَلَّا ﴾ للعوض عن المضاف إليه ، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام .

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه : فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسليية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى : وجاءك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكاتتكم : مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق دعوتك ، قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرين على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى كيدكم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإننا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أى : ولله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .  
ومادام الأمر كذلك ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى : فأخلص له العبادة واجعل توكلك عليه وحده .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لا يعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

هذه بعض الآيات القرآنية التى أنزلها - سبحانه - لتسلية نبيه ﷺ ولتشبث فؤاده ، وهناك آيات أخرى كثيرة فى هذا المعنى ، ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

## ١٠- توجيهه وإرشاده ﷺ

١- الأحكام الشرعية التي بلغها النبي ﷺ عن ربه - عز وجل - لأمته ، أكثر من أن تحصى ، وأكبر من أن تعد .

وهذه الأحكام سواء أكانت تتعلق بالعبادة أم بالمعاملات ، أم بالآداب والسلوك ، أم بالحرب والسلام ، أم بغير ذلك من أوامر أو نواه ، هذه الأحكام يجب تطبيقها ، لأنها قد أتت بها القرآن الكريم ، وجاءت السنة النبوية الشريفة فأكدتها ، أو فصلت ما جاء مجملا منها ، أو أتت بأحكام أخرى سكت عنها القرآن الكريم ، كتحریم زواج المرأة على عمتها ، أو على خالتها ، أو على ابنة أخيها أو ابنة أختها .

ففى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن رسول الله ﷺ قال : «لا تتكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها» .

وفى رواية للطبرانى أنه - ﷺ - قال : «فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» ومن المعروف عند أهل العلم أن القرآن الكريم والسنة النبوية كلاهما وحى من الله - عز وجل - إلا أن القرآن وحى من الله - تعالى - على قلب رسوله ﷺ باللفظ والمعنى ، أما السنة النبوية فوحى منه - سبحانه - على رسوله ﷺ بالمعنى ، أما اللفظ فمن الرسول ﷺ الذى ميزه خالقه - عز وجل - بأن أعطاه جوامع الكلم .

ومع أن الرسول ﷺ شهد له خالقه - عز وجل - بأنه «ما ينطق عن الهوى» إلا أنه - سبحانه - كان بفضلله وحكمته ، يوجه نبيه ﷺ التوجيه الحكيم ، ويرشده إلى ما هو خير وحق وعدل ، ويعاتبه عتابا رقيقا إذا ما فعل ما هو خلاف الأولى .

ولعل الحكمة فى ذلك : أنه - سبحانه - أراد أن يعلم الناس ، أن رسولهم ﷺ وهو أفضل الخلق ، إنما هو بشر مثلهم ، وهو فى حاجة دائمة إلى توجيهه خالقه ، وإرشاده وتعليمه .

وصدق الله - تعالى - إذ يقول :

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣]

٢ - والذي يتدبر القرآن الكريم ، يجد أن الله - عز وجل - قد عاتب نبيه ﷺ عتابا رقيقا حكيما فى أحداث معينة وقعت منه ﷺ وأرشدته إلى ما هو الأفضل والأحسن ، ومن ذلك قوله - تعالى - فى مطلع سورة «عبس»

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَيِّجُكَ ۝٣  
 أَوْ يَذُكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۝٤ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ۝٥ فَآتَكَ لَهُ  
 تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ الْاَلْيَزْجَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨  
 وَهُوَ يَخْشَى ۝٩ فَآتَكَ عَنْهُ نَدَى ۝١٠ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۝١١ فَمَنْ  
 شَاءَ ذَكَرْهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي  
 سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات ملخصها : أن النبى ﷺ كان جالسا فى أحد الأيام ، مع جماعة من زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، ويشرح لهم تعاليمه فأقبل عبدالله ابن أم مكتوم - وكان كفيف البصر - فقال : أقرئنى وعلمنى بما علمك الله - يا رسول الله - وكرر ذلك ، وهو لا يعلم أن الرسول ﷺ مشغول بدعوة هؤلاء الزعماء إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم خلق كثير .

فلما أكثر عبدالله من طلبه ، أعرض عنه الرسول ﷺ فنزلت هذه الآيات التى عاتب الله - تعالى - فيها نبيه ﷺ على هذا الإعراض ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ، إذا رآه ، ويقول له : «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربي» ويبسط له رداءه<sup>(١)</sup>

قال الألوسى : وعبدالله بن أم مكتوم ، هو ابن خال السيدة خديجة واسمه عمرو بن قيس ، وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عاتكة بنت عبدالله الخزومية ، واستخلفه ﷺ على المدينة أكثر من مرة ، وهو من المهاجرين الأولين ، قيل : مات بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - .<sup>(٢)</sup>

ولفظ ﴿عَبَسَ﴾ من باب ضرب مأخوذ من العبوس ، وهو تقطيب الوجه ، وتغير هيئته مما يدل على الغضب .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٧ ص ٣٤٢ .

(٢) تفسير الألوسى ج٣٠ ص ٣٩ .

وقوله : ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ مأخوذ من التولى وأصله تحول الإنسان عن مكانه الذى هو فيه إلى مكان آخر ، والمراد به هنا الإعراض عن السائل وعدم الإقبال عليه .

وحذف متعلق التولى لمعرفة ، ذلك من سياق الآيات إذ من المعروف أن إعراضه ﷺ كان عن عبدالله ابن أم مكتوم الذى قاطعه خلال حديثه مع بعض زعماء قريش .

وأل فى قوله - تعالى - : ﴿ الْأَعْمَى ﴾ للعهد ، والمقصود بهذا الوصف : التعريف وليس التنقيص من قدر عبدالله ابن أم مكتوم - ﷺ - وكذلك فى هذا الوصف إيماء إلى أن له عذرا فى مقاطعة الرسول ﷺ عند حديثه مع زعماء قريش ، فهو لم يكن يراه وهو يحادثهم ويدعوهم إلى الإسلام .

وجاء الحديث عن هذه القصة بصيغة الحكاية ، وبضمير الغيبة للإشعار بأن هذه القصة ، من الأمور التى لا يحب الله - تعالى - أن يواجه بها نبيه ﷺ على سبيل التكريم له ، والعطف عليه ، والرحمة به .

وجملة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ فى موضع الحال ، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب .

والمعنى : عبس ﷺ وضاق صدره وأعرض بوجهه ، لأن جاءه الرجل الأعمى وجعل يخاطبه وهو مشغول بالحديث مع غيره .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أى : وأى شىء يجعلك - أيها الرسول الكريم - داريا بحال هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه ﴿ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ أى : لعله بسبب ما يتعلمه منك يتطهر ويتزكى ، ويزداد نقاء وخشوعا لله رب العالمين ﴿ أَوْ ﴾ لعله ﴿ يَذَكِّرُ ﴾ أى : يتذكر ما كان فى غفلة عنه ﴿ فَتَنَفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى : فتنفعه الموعظة التى سمعها منك .

ثم فصل - سبحانه - ما كان منه ﷺ بالنسبة لهذه القصة فقال : ﴿ أَمَا مِنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي . وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أى : أما من استغنى عن الإيمان ، وعن إرشادك - أيها الرسول الكريم - واعتبر نفسه فى غنى عن هديك ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ أى : فأنت تتعرض له بالقبول ، وبالإصغاء لكلامه ، رجاء أن يسلم ، فيسلم بعده غيره .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴾ أى : وأى شىء عليك فى أن يبقى على كفره ، بدون تطهر؟

إنه لا حرج عليك في ذلك فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ أى : وأما من جاءك مسرعا فى طلب الخير والهداية والعلم ، وهو هذا الأعمى ، الذى لم يمنعه فقدانه لبصره من الحرص على التفقه فى الدين .

﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أى : وهو يخشى الله ، ويخاف عقابه ، ويرجو ثوابه .

﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أى : فأنت عنه تتشاغل وتفترغ جهدك مع هؤلاء الزعماء ، طمعا فى إيمانهم .

ثم ساق - سبحانه - ما هو أشد فى العتاب وفى التحذير فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .

أى : كلا - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما فعلت ، من إقبالك على زعماء قريش طمعا فى إسلامهم ، ومن تشاغلك وإعراضك عن من جاءك يسعى وهو يخشى .

والضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ يعود إلى آيات القرآن الكريم ، أى : إن آيات القرآن الكريم المشتملة على التذكير بالحق ، وعلى الموعدة الحكيمة التى ينبغى على كل عاقل أن يعمل بموجبها ، وأن يسير بمقتضاها .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ أى : فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح ، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع ، فالجملة الكريمة لتهديد الذين يعرضون عن الموعدة ، وليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة .

وهى معترضة للترغيب فى حفظ هذه الآيات ، وفى العمل بما اشتملت عليه من هدايات .

وجاء الضمير مذكرا فى قوله : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ لأن التذكرة هنا بمعنى التذكير والاتعاظ .

أى : فمن شاء التذكير والاعتبار ، تذكر واعتبر وحفظ ذلك دون أن ينساه .

وقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴾ خبر ثان لقوله : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ وما بينهما اعتراض .

أى : إن آيات القرآن تذكرة ، مثبتة أو كائنة فى صحف عظيمة ﴿ مُّكْرَمَةٍ ﴾ عند الله - تعالى - لأنها تحمل آياته .

هذه الصحف - أيضا - ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ أى : ذات منزلة رفيعة ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أى : منزهة عن أن يمسها ما يدنسها .

وهى كائنة ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة الذين جعلهم الله - تعالى - سفراء بينه وبين رسله : جمع سافر بمعنى سفير ، أى : رسول وواسطة أو هم الملائكة الذين ينسخون ويكتبون هذه الآيات بأمره - تعالى - ، وأنهم أتقياء مطيعون لله - تعالى - كل الطاعة ، جمع بر ، وهو من كان كثير الطاعة والخشوع لله - عز وجل - .

هذا والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد اشتملت على كثير من الآداب والأحكام ، ومن ذلك : أن شريعة الله - تعالى - تجعل التفاضل بين الناس ، أساسه الإيمان والتقوى ، فمع أن عبدالله ابن أم مكتوم ، كان قد قاطع الرسول ﷺ خلال حديثه مع بعض زعماء قريش ، ومع أن الرسول ﷺ لم يتشاغل عنه إلا لحرصه على جذب هؤلاء الزعماء إلى الإسلام .

مع كل ذلك ، وجدنا الآيات الكريمة ، تعاتب النبي ﷺ عتابا تارة فيه رقة ، وتارة فيه شدة ، وذلك لأن الميزان الذى أنزله الله - تعالى - للناس مع الرسل ، لكى يبنوا عليه حياتهم ، هو : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه الحكيم ، فبنى حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم ، وقوله له كلما رآه : «أهلا بمن عاتبني فيه ربي» .

وفعل - ﷺ - ما يشبه ذلك ، مع جميع المؤمنين الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة - أميرا على الجيش الإسلامى فى غزوة مؤتة ، وكان فى هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابة .  
وقال ﷺ فى شأن سلمان الفارسى : «سلمان منا أهل البيت» .

وقال ﷺ فى شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن عليه فى الدخول : «اثنوا له ، مرحبا بالطيب المطيب» .

وكان من مظاهر تكريمه لعبدالله بن مسعود ، أن جعله كأه واحد من أهل بيته .

فعن أبى موسى الأشعري قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينما وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ من كثرة دخولهم على رسول الله ، ولزومهم له .

وقال ﷺ لأبي بكر الصديق عندما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال في شأن أبي سفيان : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك .

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟

فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك» فأتاهم فقال : يا إخوانه أغضبتكم؟ قالوا : لا ويغفر الله لك يا أختي .<sup>(١)</sup>

ولقد سار خلفاؤه - ﷺ - على هذه السنة ، فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبو بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أذن لصهيب وبلال في الدخول عليه ، قبل أن يأذن لأبي سفيان وسهيل بن عمرو .

وعمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يقول في شأن أبي بكر : «هو سيدنا وأعتق سيدنا يعني : بلال ابن رباح» .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره ، لهذه الآيات : ولقد تأدب الناس بأدب الله في هذا تأدبا حسنا ، فقد روى عن سفيان الثوري - رحمه الله - أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء .<sup>(٢)</sup>

٣ - وفي سورة «الأنفال» آيات كريمة ، حكى جانبها مما حدث مع أسرى غزوة بدر ، وأرشدت الرسول ﷺ إلى ما كان الأولى عمله معهم ، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى  
حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ  
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَآتُوا اللَّهَ  
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب : أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ

(١) رياض الصالحين ص ١٤٢ باب : ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٠١ .

إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتني .

فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟ فقال أبوبكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فعسى أن يهديهم الله إلى الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكن أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هودة للمشركين ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر ، ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جثت فإذا رسول الله وأبوبكر يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكهما؟

فقال رسول الله ﷺ : أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - ﷺ - وأنزل الله عز وجل - : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ . الخ الآيات . (١)

وروى الإمام أحمد والترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « ماتقولون فى هؤلاء الأسارى؟ » فقال أبوبكر : يا رسول الله! قومك وأهلك استبقهم واستبتهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : يا رسول الله! كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت بواد كثير الحطب فأضرم الوادى عليهم نارا ثم ألقهم فيه .

قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد شيئا ، ثم قال فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر : وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

(١) صحيح مسلم ج٥ ص١٥٦ من كتاب الجهاد والسير طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٠ .

إبراهيم إذ قال ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) وكمثل عيسى إذ قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . (٢)

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٣) وكمثل موسى إذ قال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . (٤)

ثم قال ﷺ : «أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق» .

قال ابن مسعود : فقلت يا رسول ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : «إلا سهيل بن بيضاء» ، وأنزل الله - عز وجل - ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَّنَ فِي الْأَرْضِ . . ﴾ إلى آخر الآية . (٥)

وقال ابن إسحاق - وهو يحكى أخبار غزوة بدر - : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحا السيف ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون عليه الكرة ، ورأى رسول الله - فيما ذكر لى - فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال رسول الله ﷺ «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال : أجل والله يا رسول الله : كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال . (٦)

وقوله : ﴿ أَسْرَى ﴾ جمع أسير : كقتلى جمع قتيل ، وهو مأخوذ من الأسر بمعنى الشد بالإسار ، أى : القيد الذى يقيد به حتى لا يهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق على كل من يؤخذ من فئته فى الحرب ولو لم يشد بالإسار .

وقوله : ﴿ يَتُخَّنَ ﴾ من التخانة وهى فى الأصل الغلظ والصلابة ، يقال : تخن الشيء يشخن ، تخونة وتخانة وتخننا ، أى : غلظ وصلب فهو تخين ، ثم استعمل فى النكاية

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .

(٢) سورة المائدة : آية ١١٨ .

(٣) سورة نوح الآية ٢٦ .

(٤) سورة يونس : الآية ٨٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٢٥ .

(٦) الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام ج٥ ص ١٠٦ .

والمبالغة فى قتل العدو فقيل : أئخن فلان فى عدوه ، أى : بالغ فى قتله وإنزال الجراحة الشديدة به ، لأنه بذلك يمنع من الحركة فيصير كالثخين الذى لايسيل ولايتحرك .

والمراد بالنبي فى قوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ ﴾ نبينا محمد ﷺ وإنما جىء باللفظ منكرا تلطفا به ﷺ حتى لا يواجه بالعتاب .

والمعنى : ما صح وما استقام لنبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرا ﴿ حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : حتى يبلغ فى قتلهم ، وإنزاله الضربات الشديدة عليهم إذلالا للكفر ، وإعزازا لدين الله . وقوله : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ استئناف مسوق للعتاب .

والعرض : ما لا ثبات له ولا داوم من الأشياء ، فكأنها تعرض ثم تزول ، والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذوه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا سراحهم .

تريدون - أيها المؤمنون - بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لا ثبات له ، والله - تعالى - يريد لكم ثواب الآخرة .

فالكلام فى قوله : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : والله - تعالى - يرضى لكم العمل الذى يجعلكم تظفرون بثوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل إذلال الشرك على أخذ الفداء من أهله .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : والله - تعالى - لا يغالب بل هو الغالب على أمره فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين لأنهم أثروا الفداء على القتل والإثخان فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين الشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين أثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل لكان ذلك ادعى لكسر شوكة الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها ، وأصرح فى بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها ، وأنهم لا يوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته ، وهذا ما عبر عنه عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بقوله : «وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هواده للمشركين» .

والخلاصة أن غزوة بدر - بظروفها وملاساتها التى سبق أن أشرنا إليها - كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا فى قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلّوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة .

ورضى الله - تعالى - عن «سعد بن معاذ» فقد ظهرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وقال - كما سبق أن بينا - : «كانت غزوة بدر أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال» .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

والمراد بالكتاب هنا : الحكم وأطلق عليه كتاب لأن هذا الحكم مكتوب في اللوح المحفوظ .

وللمفسرين أقوال في تفسير هذا الحكم السابق في علم الله - تعالى - :

فمنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب المخطيء في اجتهاده .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأي فقال قوله : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾

أي : لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح المحفوظ ، وهو أنه - سبحانه -

لا يعاقب أحداً بخطأ ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد ، لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن ورائهم وأفل لشوكتهم (١) .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم النهي عن الفعل ، ولم يتقدم نهى عن أخذ الفداء .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه - لا يعذبهم مادام رسول الله ﷺ بينهم .

أو أنه - سبحانه - لا يعذب أحداً من شهد بدرا .

وقد ساق الإمام الرازى هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن المراد بالكتاب الذى سبق : هو حكمه - سبحانه - فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

أما الإمام ابن جرير فهو يرى : أن الآية خبر عام غير محصور على معنى دون معنى ، وأنه لاوجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى ، فقال : يقول الله - تعالى - لأهل بدر

الذين أخذوا من الأسرى الفداء ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾ .

أى : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر فى اللوح المحفوظ بأن الله يحل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يعذب أحداً شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر ، لولا كل ذلك لنالكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص ٢٢٧ .

(٢) تفسير ابن جرير ج١٠ ص ٤٤ .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعاني - أولى بالقبول ، لأنه لم يوجد نص صحيح عن النبي ﷺ يحدد تفسير المراد من هذا الكتاب السابق في علمه - تعالى - .

ولعل الحكمة في هذا الإبهام لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، ويدل عليه المقام ، ولكي يعرفوا أن أخذهم الفداء كان ذنباً يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله - تعالى - قدر في الأزل العفو عنهم بسبب وجود النبي ﷺ فيهم ، ولأنهم قد أخطأوا في اجتهادهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهى عن ذلك ولأنهم قد شهدوا هذه الغزوة التي قال الرسول في شأن من حضرها على لسان ربه - عز وجل «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لعمر في قصة حاطب بن أبي بلعنة عندما أخبر المشركين أن الرسول سيغزوهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدرًا : «وما يدريك لعل الله - تعالى - اطلع على أهل بدر وقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» . (١)

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي : لولا حكم من الله - تعالى - سبق منه في الأزل ألا يعذب المخطيء على اجتهاده أو ألا يعذب قوماً قبل تقديم البيان إليهم ، ولولا كل ذلك ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي : لأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره في شدته وألمه .

قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد من نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه وقال : يا رسول الله ما لنا وللغنائم؟ نحن قوم نجاهد في دين الله حتى يعبد الله فقال رسول الله ﷺ : «لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك» .

وقال ابن إسحاق : لما نزلت الآية ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : «لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يا نبي الله ، كان الإثنان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال» . (٢)

وقال بعض العلماء : قال القاضي ، وفي الآية دليل على أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لا يقرون عليه . (٣)

(١) تفسير الألوسى ج ١٠ ص ٣٥ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٠ ص ٤٨ .

(٣) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣٩٣٩ .

ثم زاد - سبحانه - المؤمنين فضلا ومنة فقال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والمعنى : لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون - فيما وقعتم فيه من تفضيلكم أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأبحت لكم الانتفاع بالغنائم فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حلالا طيبا ، أى لذيذا هنيئا لا شبهة فى أكله ، ولا ضرر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كل أحوالكم بأن تخشوه وتراقبوه ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح لكم ما أخذتموه من فداء ، فسبحانه من إله واسع الرحمة والمغفرة ، لمن اتقاه وتاب إليه توبة صادقة .

٤ - وفى سورة التوبة آية كريمة ، ساقى عتابا رقيقا من الله - تعالى - لنبيه ﷺ وهذه الآية هى قوله - تعالى - :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صدَّقُوا وَتَعَلَّمَ الكاذِبِينَ ﴾ .

قالوا : وقد نزلت هذه الآية فى شأن جماعة من المنافقين أذن لهم الرسول ﷺ فى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك دون أن يتبين أحوالهم .

والعفو : يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير ، كما يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل ، وهو المراد هنا .

والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك فى غزوة تبوك ، حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة ، وكان الأولى بك أن تترث وتتأنى فى السماح لهم بالتخلف ، حتى يتبين لك الذين صدقوا فى اعتذارهم من الذين كذبوا فيه ، فقد كانوا - إلا قليلا منهم - كاذبين فى معاذيرهم ، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به .

وقدم - سبحانه - العفو على العتاب ، وهو قوله ﴿ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ ﴾ للإشارة إلى المكانة السامية التى له ﷺ عند ربه .

قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا؟ لقد خاطبه - سبحانه - بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه .

هذا ، ومن الأمور التى تكلم عنها العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية ما يأتى :

١ - أن النبى ﷺ كان يحكم بمقتضى اجتهاده فى بعض الوقائع ، وقد بسط القول فى هذه المسألة صاحب المنار فقال ما ملخصه :

وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهادا منه - ﷺ - فيما لانص فيه من الوحي ، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن يكذب أو أن يخطيء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ويؤيده حديث طلحة في تأبير النخل إذ رآهم - ﷺ - يلقحونها فقال : « ما أظن يغنى ذلك شيئا » فأخذوا بذلك فتركوه ظنا منهم أن قوله هذا من أمر الدين ، فنفضت النخل وسقط ثمرها ، فأخبر بذلك فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنى ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإنى لن أكذب على الله عز وجل » .

وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ فى الاجتهاد على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، قالوا : ولكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه .<sup>(١)</sup>

٢ - أن من الواجب على المسلم التريث فى الحكم على الأمور .

قال الفخر الرازى : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد .<sup>(٢)</sup>

٣ - أن المتتبع لآراء العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية يرى لهم ثلاثة أقوال :

أما القول الأول فهو لجمهور العلماء : وملخصه : أن المراد بالعتفو فى قوله - سبحانه - ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ عدم مؤاخذته - ﷺ - فى تركه الأولى والأفضل ، لأنه كان من الأفضل له ألا يأذن للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حتى يتبين أمرهم .

وهذا القول هو الذى نختاره ونرجحه ، لأنه هو المناسب لسياق الآية ولما ورد فى سبب نزولها .

وأما القول الثانى فهو لصاحب الكشاف : وملخصه : أن العفو هنا كناية عن الجناية ، فقد قال : قوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ، ومعناه ، أخطأت وبئس ما فعلت ، وقوله : ﴿ لَمْ أذْنِتْ لَهُمْ ﴾ بيان لما كنى عنه بالعتفو .<sup>(٣)</sup>

ولم يرتض كثير من العلماء ما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن العفو هنا كناية عن الجناية ، ووصفوا ما ذهب إليه بالخطأ وإساءة الأدب .

(١) تفسير المنار ج١٠ ص ٤٥٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج٤ ص ٤٤٤ .

(٣) تفسير الكشاف ج٢ ص ١٩٢ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٦ .

قال أبو السعود: ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية، وأن معناه أخطأت، وبئس ما فعلت.

هب أنه كناية أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب، والتخفيف في العقاب؟<sup>(١)</sup>

وقال الشيخ أحمد بن المنير: ليس له - أي الزمخشري - أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما ألا يكون هو المراد وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أحل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصا في حق المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فالزمخشري على كلا التقديرين ذهل عما يجب في حقه ﷺ.

ولقد أحسن من قال في هذه الآية: إن من لطف الله - تعالى - بنبيه - أن بدأه بالعتو قبل العتب، ولو قال له ابتداء ﴿لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ لتفطر قلبه - عليه الصلاة والسلام - فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر - عليه الصلاة والسلام -<sup>(٢)</sup>.

وأما القول الثالث فهو للإمام الفخرى الرازى، ولن حذا حذوه كالقرطبي وغيره، وملخص هذا القول إنه يجوز أن يكون المراد بالعتو هنا: المبالغة في تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، أو أن قوله - سبحانه - : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ افتتاح كلام.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: لانسلم أن قوله - تعالى - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يوجب الذنب، ولم لا يجوز أن يقال: إن ذلك يدل على مبالغة الله، تعالى - في تعظيمه وتوقيره، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده، عفا الله عنك ما صنعت في أمرى، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم.

ويؤيد ذلك قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه:

عفا الله عنك ألا حرمة      تعوذ بعفوك أن أبعدا  
ألم ترد عبدا عدا طوره      ومولى عفا ورشيدا هدى  
أقلنى أقالك من لم يزل      يقيك ويصرف عنك الردى<sup>(٣)</sup>

وقال القرطبي: قوله - تعالى - : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا.<sup>(٤)</sup>

(١) تفسير أبي السعود ج٢ ص ٢٧٢.

(٢) حاشية تفسير الكشاف ج٢ ص ١٩٢.

(٣) تفسير الفخر الرازى ج٤ ص ٤٤٣.

(٤) تفسير القرطبي ج٧ ص ١٥٤.

والذى نراه أن القول الأول هو الراجح لما سبق أن بيناه .

وبعد : فهذه بعض الآيات القرآنية التى فيها ما فيها من إرشاد حكيم ، ومن توجيه كريم ، ومن عتاب رقيق ، من الله - تعالى - لرسوله ﷺ .

وهى تدل دلالة واضحة على أنه إذا كان أكرم الخلق وأفضلهم وأشرفهم وأرجحهم عقلا ، لا يستغنى عن إرشاد خالقه - عز وجل - وعن تعليمه ، فأولى ثم أولى غيره من البشر نسأل الله - تعالى - أن يشملنا جميعا برعايته وتوفيقه .

## ١١- أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين

١ - قال الله - تعالى - :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ..﴾ [الأحزاب : ٦]

أى : أن النبى ﷺ أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم ، وأولى فى المحبة والطاعة ، فإذا ما دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه ، وجب أن يقدموا ما دعاهم إليه ، على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه ﷺ لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم .

وفى الحديث الصحيح : «والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ، والناس أجمعين» .

وقوله - سبحانه - : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أى : وأزواجه ﷺ بمنزلة أمهاتكم اللائى ولدنكم - أيها المؤمنون - فى الاحترام والتوقير والإكرام ، وفى حرمة الزواج بهن .

وأما ما عدا ذلك من الأحكام الشرعية ، كمخاطبتهن وإرثهن ، فهن كغيرهن من سائر النساء .

قال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٣]

٢ - ولقد أثار الذين فى قلوبهم مرض ، شبهات زائفة حول زواجه ﷺ بأمهات المؤمنين ، ونحن هنا سنذكر - بإيجاز - ترجمة لكل واحدة من أزواجه ﷺ وللمقاصد الشريفة ، وللغايات النبيلة ، التى تم من أجلها هذا الزواج .

لقد كانت أولى زوجاته ﷺ السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - تزوجها ﷺ وسنه خمس وعشرون سنة ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها .

وعاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ، دون أن يجمع معها زوجة أخرى ، وكانت أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى نفسه ﷺ لإيمانها العميق ، ووفائها النادر ، وحرصها التام على ما يرضى الله - تعالى - ويرضى رسوله ﷺ .

وكان له منها أولاده الستة القاسم والطيب ، ورقية وأم كلثوم ، وزينب ، وفاطمة ، وقد ماتوا جميعا قبله ، سوى السيدة فاطمة التي توفيت بعده ﷺ ببضعة أشهر .

ولم يرزق ﷺ بأولاد من زوجاته اللاتي تزوجهن بعدها ، سوى مارية القبطية التي أنجبت له ابنه إبراهيم ، الذي توفى - أيضا - فى حياته ﷺ .

وتوفيت السيدة خديجة - رضى الله عنها - فى السنة العاشرة من البعثة ، وهى فى الخامسة والستين من عمرها ، وحزن ﷺ لموتها حزنا شديدا ، بل وسمى العام الذى توفيت فيه بعام الحزن .

وقد بشرها ﷺ ببيت فى الجنة ، لاصخب فيه ولا نصب ، وكان عمره ﷺ عند وفاتها نحو خمسين سنة .

وكانت الزوجة الأولى له ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة السيدة سودة بنت زمعة ، وكانت عند زواجه ﷺ بها فى الخامسة والستين من عمرها ، وكانت قد أسلمت مع زوجها «السكران بن عمرو» وهاجرت معه إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهما ولغيرهما من المؤمنين ، وبعد عودتهما إلى مكة توفى زوجها ، وكان أهلها ما يزالون على الشرك ، وخشيت إن عادت إليهم أن يفتنوها عن دينها ، فتزوجها ﷺ حماية وصيانة لها من أن تفتتن فى دينها بعد وفاة زوجها .

ولحقت بربها - عز وجل - فى خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وكانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها - رضى الله عنها - .

ثم تزوج ﷺ بأُم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال .

وكان زواجه ﷺ بها ، تكريما وتشريفا لأبيها أبى بكر ، وكان دخوله ﷺ بها ، فى السنة الأولى من هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة .

وكانت - رضى الله عنها - أصغر أزواجه - ﷺ - سنا ، وأثرهن عنده لقوة إيمانها وصفاء ذهنها ، وجودة فقهها ، وشدة ذكائها ، وحرصها على كل ما يرضى الرسول ﷺ .

وقد لحقت بربها - عز وجل - فى السنة الثامنة والخمسين من الهجرة ، بعد أن أدت رسالتها فى خدمة دينها على أكمل وجه .

وفى السنة الثالثة من الهجرة - على الأرجح - تزوج ﷺ بالسيدة حفصة بنت عمر ابن الخطاب ، وكان من أسباب زواجه بها ﷺ توثيق الصحبة بينه وبين أبيها الفاروق ، وزيادة فى تكريمه ، وكان من أسبابه - أيضا - الرعاية لها بعد أن مات زوجها خنيس بن حذافة الذى كان من السابقين إلى الإسلام .

فتزوجها ﷺ لهذه المقاصد الشريفة ، وكانت - رضى الله عنها - ذكية حافظة تعلمت الكتابة على يد الشفاء بنت عبدالله ، وكانت - رضى الله عنها - صوامة قوامة وتوفيت سنة ٤٥ هـ .

وفى السنة الثالثة - أيضا من الهجرة ، تزوج ﷺ بالسيدة زينب بنت خزيمة ، بعد أن استشهد زوجها عبيدة بن الحارث فى غزوة بدر .

فكان زواجه ﷺ من أجل حمايتها ورعايتها ، وقد توفيت - رضى الله عنها - بعد زواجها بالرسول ﷺ ببضعة أشهر ، فكانت الزوجة الثانية التى توفيت فى حياته بعد السيدة خديجة وكانت تلقب بأُم المساكين لسخائها وكرمها .

وفى السنة الرابعة من الهجرة ، تزوج ﷺ بالسيدة أم سلمة ، وهى هند بنت أبى أمية المخزومي ، بعد أن أصيب زوجها وابن عمها أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد فى غزوة أحد ، وقد توفى بعدها .

وكانت هى وزوجها من السابقين إلى الإسلام ، وأنجبت منه أربعة أولاد وقد حزنت لموت زوجها حزنا شديدا ، وكانت فى الثلاثين من عمرها ، وكانت تقول : غريب مات فى أرض غربة ، والله لأبكيه بكاء يتحدث الناس عنه .

وقد اعتذرت عن الزواج بعد وفاة زوجها أبى سلمة .

إلا أنها رضيت بالزواج بالرسول ﷺ بعد أن عرفها ﷺ أنه يريد الزواج بها لرعاية أولادها ولرعايتها ، بعد أن أصابها ما أصابها من أذى ومشقة هى وزوجها .

وقد لحقت بنخالقتها - عز وجل - سنة ٥٩ هـ بعد أن جاوزت الثمانين من عمرها - رضى الله عنها - .

وفى السنة الخامسة بعد الهجرة وفى أعقاب غزوة بنى المصطلق ، تزوج ﷺ بالسيدة جويرة بنت الحارث ، سيد قبيلة بنى المصطلق ، وكانت قد وقعت أسيرة خلال تلك الغزوة ، فدخلت على الرسول ﷺ وشكت إليه حالها وحال قومها ، فرق النبى ﷺ حالها وعرض عليها الإسلام فأسلمت ، وتزوجها ﷺ بعد عودته إلى المدينة المنورة وبعد انتهائه من غزوة بنى المصطلق .

وعلم الناس بزواج النبى ﷺ منها فأعتقوا الأسرى والسبايا من قومها ، وأسلم أبوها وإخوتها ، فكان هذا الزواج خيرا وبركة عليها وعلى قومها ، ولذا قالت السيدة عائشة : « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرة ، لقد عتق بها مائة بيت من بيوت قومها » .

وتوفيت - رضى الله عنها - سنة ٥٦ من الهجرة وكانت كثيرة الصيام والعبادة .

وفى السنة السابعة تزوج ﷺ بالسيدة أم حبيبة ، وهى رملة بنت أبى سفيان ، وكانت

هي وزوجها عبید الله بن جحش من السابقين إلى الإسلام ومن المهاجرين إلى الحبشة ، وهناك ارتد زوجها عن الإسلام ودخل في النصرانية .

وعلم النبي ﷺ بذلك ، فأرسل أحد أصحابه إلى الحبشة ليخطبها له ، حماية لها في أرض الغربية ، ودفع النجاشي صداقها نيابة عنه ﷺ ثم أرسلها إلى المدينة المنورة .  
وعلم أبو سفيان ما فعله الرسول ﷺ مع ابنته من تكريم لها ففرح بذلك ، وقال : نعم الزوج محمد ﷺ .

وبهذا الزواج صان ﷺ ابنة زعيم قريش من الفتنة ، وأعطاهما ما تستحقه من تكريم وتشريف ، جزاء صبرها وقوة إيمانها ، وتحملها للغربة في أرض الحبشة زهاء خمسة عشرة عاما ، قضت بعدها زهاء ثلاث سنوات في بيت النبوة بعد زواجها بالنبي ﷺ وكانت وفاتها سنة ٤٤ هـ .

وفي أعقاب غزوة خيبر من السنة السابعة ، تزوج ﷺ السيدة صفية بنت حيي بن أخطب ، بعد أن أسلمت ، وبعد أن أطلق ﷺ سراحها من الأسر الذي أصابها وأصاب قومها بعد فتح خيبر .

فكان هذا الزواج رحمة بها ، وتكريما لها ، وتطييبا لخاطرها وتوفيت - رضى الله عنها - سنة ٥٢ هـ .

وقبيل وفاته ﷺ بستين أو أكثر قليلا ، تزوج ﷺ بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وقد اختارها له ﷺ عمه العباس بن عبدالمطلب ، لتوثيق ما بينه ﷺ وبين القبائل العربية ، وقد أصدقها العباس - رضى الله عنه - من ماله بأربعمائة درهم ، ويقال بأنها هي المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ .

وكان دخوله بها ﷺ بعد عمرة القضاء بموضع يقال له «سرف» بضواحي مكة وتوفيت - رضى الله عنها - سنة ٥١ هـ .

٣ - ومن بين أزواجه - أيضاً - السيدة زينب بنت جحش وقد أحرنا الكلام عنها لأننا نريد أن نبسط القول في أسباب زواجه بها ﷺ .

والسيدة زينب بنت جحش ، أمها أميمة بنت عبدالمطلب ، فزينب بنت عمه النبي ﷺ وكانت قد تزوجت قبل زواجها بالنبي ﷺ بزید بن حارثة - رضى الله عنه - .

وكان مملوكا للسيدة خديجة ، فلما تزوجها النبي ﷺ وهبت له زيدا ، فأعتقه وتبناه وكان يقال له زيد بن محمد .

واستمر الناس يقولون زيد بن محمد لمدة طويلة ، إلى أن نزل قوله - تعالى - :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ... ﴾ [الأحزاب : ٥]

فصار الناس ينادونه باسم أبيه الحقيقي وهو حارثة ، إلا أنهم كانوا يرون على حسب ما تعودوه أنه لا يصح للرجل أن يتزوج بامرأة من تبناه ، فأراد الله - تعالى - أن يهدم هذه العادة على يد النبي ﷺ وبقوله وفعله .

وتروى السيدة زينب بنت جحش قصة زواجها من زيد بن حارثة فتقول : خطبني عدة رجال من قريش ، فأرسلتُ أختي حمنة إلى رسول الله ﷺ أستشيره ، فقال لها : أين هي ممن يعلمها كتاب الله وسنة نبيه؟ قالت : ومن هو يا رسول الله؟ قال : زيد بن حارثة ، قالت : فغضبت حمنة غضبا شديدا ، وقالت : يا رسول الله ، أتزوج ابنة عمك مولاك؟ قالت : وجاءتني فأعلمتني فغضبت أشد من غضبها ، وقلت : أشد من قولها ، فأنزل الله - تعالى - :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦]

قالت : فأرسلت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني استغفر الله وأطيع الله ورسوله .

أفعلُ يا رسول الله ما رأيت ، فزوجني زيدا ، فكنت أرزأ عليه - أى : أضايقه - فشكاني إلى رسول الله ﷺ فعاتبني رسول الله ﷺ ، ثم عدت فأخذته بلساني فشكاني مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ فقال له : «أمسك عليك زوجك واتق الله» .

فقال زيد : أنا أطلقها يا رسول الله ، قالت : فطلقني .

وقد تزوجها النبي ﷺ بعد ذلك ، لإبطال عادة كانت متأصلة فى الناس ، وهى أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج امرأة شخص كان يتبناه .

٤ - هذا وفى شأن زواجه ﷺ بالسيدة زينت بنت جحش ، التى توفيت سنة ٢٠ هـ ، نزل قوله - تعالى - :

وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَ آرَ زَوَّجْنَاكَ لِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَ وَأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ فَتْدَرَامَقْدُورًا ﴿٢٨﴾  
الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ  
وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ  
رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾

ذكر - سبحانه - قصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة في الجاهلية فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ .. ﴾ أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلت للذي أنعم الله - تعالى - عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وأُنعمت عليه ، بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والحبة ، والإكرام .

﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. ﴾ أى : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله فى أمرها ، واصبر على ما بدر منها فى حقك . وكان زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد اشتكى للنبي ﷺ من تطاولها عليه وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتحشينها له القول ، وقال : يا رسول الله ، إنى أريد أن أطلقها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ معطوف على ﴿ تَقُولُ ﴾ .

أى : تقول له ذلك وتخفى فى نفسك الشئ الذى أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله - عز وجل - .

قال الألوسى : والمراد بالموصول ﴿ مَا ﴾ على ما أخرج الحكيم الترمذى وغيره عن على ابن الحسين ما أوحى الله - تعالى - به إليه من أن زينب سيطلقها زيد ، ويتزوجها هو ﷺ .

والى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضى أبى بكر بن العربى ، وغيرهم (١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(١) تفسير الألوسى ج٢٢ ص ٢٤ .

جملة : الله مبيديه صلة الموصول الذى هو ﴿ مَا ﴾ ، وما أبداه - سبحانه - هو زواجه ﷺ بزینب ، وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ وهذا هو التحقيق فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللاتق بجنابه ﷺ .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه - ﷺ - وأبداه الله - تعالى - هو وقوع زينب فى قلبه ﷺ ومحبتة لها ، وهي زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحانه مقلب القلوب ، إلى آخر ما قالوا ، كله لاصحة له .<sup>(١)</sup>

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما - هاهنا أثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلانوردها .<sup>(٢)</sup>

هذا ، وبعض العلماء يرى أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه ، وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها .

وما أبداه الله - تعالى - هو علم الناس بحال زيد معها ، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها .

فيكون المعنى : تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشره زوجه زينب لوجود التنافر بينهما ، مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة .

وما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل دلالة صريحة على أن الله قد أوحى إلى نبيه ﷺ أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه ﷺ سيتزوجها ، وكل ما ورد فى ذلك هى تلك الرواية التى سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين - رضى الله عنهما - .

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدمًا تامًا كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .  
وقوله - سبحانه - : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : تقول له ما قلت ، وتخفى فى نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما

(١) تفسير أضواء البيان ج٦ ص ٥٨٠ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٢) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٢٠ .

ألهمك الله - تعالى - به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل ما سواه .

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله - تعالى - لنبيه ﷺ وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه ﷺ بزینب فقال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

والوطر : الحاجة ، وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشيء يقال : قضى فلان وطره من هذا الشيء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى في مفارقتها .

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها زوجة لك ، ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ﴾ أو ضيق أو مشقة ﴿ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ أى : فى الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين تبنوهم ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إذا طلق هؤلاء الأدياء أزواجهم ، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على الذين سبق لهم تبني هؤلاء الأدياء أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان ما يريد الله - تعالى - حاصلًا لا محالة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذى تولى تزويجها منه هو الله - عز وجل - بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

روى الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب - رضى الله عنها - قال رسول الله ﷺ لزید بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » فانطلق حتى آتاها وهى تخمر عجینها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما استطيع أن أنظر إليها ، وجعلت أقول - وقد وليتها ظهري ، ونكصت على عقبى - يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي - أى : أستشيريه فى أمرى - فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن .

وروى البخارى عن أنس بن مالك أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجنى الله من فوق سبع سموات. (١)  
 وقال الإمام الشوكانى: وقوله: ﴿لَكِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾.

أى: فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا، كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون، وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنيه، كما تحرم نساء أبنائهم على الحقيقة، والأدعياء: جمع دعى، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة، فأخبرهم الله - تعالى - أن نساء الأدعياء حلال لهم - بعد انقضاء العدة - بخلاف الأبناء من الصلب، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها. (٢)

وبعد أن بين - سبحانه - الحكمة من زواج النبى ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة - الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى تقرير هذه الحكمة وتأكيدا، وإزالة كل ما علق بالأذهان بشأنها، فقال - تعالى - : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ..﴾.

أى: ما كان على النبى ﷺ من حرج أو لوم أو مؤاخذة، فى فعل ما أحله الله له، وقدره عليه، وأمره به من زواجه بزینب بعد أن طلقها ابنه بالتبني زيد بن حارثة فقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ..﴾ أى: فيما قسمه له، وقدره عليه، مأخوذ من قولهم: فرض فلان لفلان كذا، أى: قدر له هذا الشيء، وجعله حلالا له.

وقوله - تعالى - : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.  
 زيادة فى تأكيد هذه الحكمة وفى تقرير صحة ما فرضه الله - تعالى - لنبيه ﷺ  
 أى: ما فعله الرسول ﷺ من زواجه بزینب بعد طلاقها من زيد، قد جعله الله - تعالى - سنة من سننه فى الأمم الماضية، وكان أمر الله - تعالى - قدرا مقدورا، أى: واقعا لا محالة.

والقدر: إيجاد الله - تعالى - للأشياء على قدر مخصوص حسبما تقتضى حكمته.  
 ويقابله القضاء: وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ماهى عليه، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر، والأظهر أن قدر الله - تعالى - هنا بمعنى قضائه.  
 ولفظ ﴿مَّقْدُورًا﴾ وصف جىء به للتأكيد، كما فى قولهم: ظل ظليل، وليل أليل.

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٢٠.

(٢) تفسير فتح القدير ج٦ ص ٢٨٥.

ثم مدح - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته دون أن يخشوا أحدا  
سواه فقال: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ التي يكلفهم سبحانه - بتبليغها .

﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أى : ويخافونه وحده ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ - عز وجل - فى  
كل ما يأتون وما يذرون ، وما يقولون وما يفعلون .

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى : وكفى بالله - تعالى - محاسباً لعباده على نيات قلوبهم  
وأفعال جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم .

ثم حدد - سبحانه - وظيفة رسوله ﷺ وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال - تعالى - : ﴿مَا  
كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أى : لم يكن محمد ﷺ أباً لأحد من رجالكم أبوة  
حقيقة ، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة والزواج ، وزيد كذلك ليس  
ابن له ﷺ فزواجه ﷺ بزینب التى طلقها زيد لاحرج فيه ، ولا شبهة فى صحته ،  
وقوله : ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ استدراك لبيان وظيفته ، وفضله .

أى : لم يكن ﷺ أباً لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولا من عند الله  
- تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وكان - أيضا - خاتم النبیین ، بمعنى  
أنهم ختموا به ، فلان نبى بعده فهو كالخاتم والطابع لهم ، ختم الله - تعالى - به الرسل  
والأنبياء ، فلا رسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبي : قرأ الجمهور ﴿وَخَاتَمَ﴾ - بكسر التاء - بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء  
آخرهم .

وقرأ عاصم ﴿وَخَاتَمَ﴾ - بفتح التاء - بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم ،  
وقيل : الخاتم والخاتم - بالفتح والكسر - لغتان مثل طابع وطابع .

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «مثلى ومثل الأنبياء من  
قبلى كمثلى رجل بنى دارا فأتمها ، وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها  
ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ : فأنا  
موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء .<sup>(١)</sup>

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم  
عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع

(١) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٦ .

الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون .

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر هذا الحديث ، وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الخنيف له ، وقد أخبر - تعالى - فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لانبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم (١) .  
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

أى : وكان عز وجل - وما زال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد ﷺ لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ليزيدكم - سبحانه - من فضله وإحسانه .

ومن كل ما تقدم يتبين لكل عاقل ، أن زواج النبى ﷺ بأمهات المؤمنين لم يكن من أجل متعة فانية ، أو شهوة زائلة ، وإنما كان من أجل مقاصد شريفة ، وغايات نبيلة ودوافع كريمة .

فمنهن من تزوجها صيانة لها من أن تفتن فى دينها من أقاربها المشركين .  
ومنهن من تزوجها تكريما وتشريفا وتوثيقا للعلاقة بينه ﷺ وبين أسرته .  
ومنهن من تزوجها جبرا لحاظرها ، وتسكيننا لأحزانها ، ورعاية لأولادها .  
ومنهن من تزوجها إكراما لقومها ، وتأليفا لقلوبهم خدمة للدعوة الإسلامية .  
ومنهن من تزوجها حماية لها فى غربتها من العوز والاحتياج بعد أن فارقتها زوجها .  
ومنهن من تزوجها تطيبيا لحاظرها ، ورحمة بها ، بعد أن فقدت أهلها وعشيرتها .  
ومنهن من تزوجها ليبطل عادة جاهلية تأصلت فى النفوس دون أن يكون لها ما يبررها .

٥ - هذا ، والذى يتدبر حديث القرآن الكريم عن أمهات المؤمنين ، يراه يمتاز بالترغيب والترهيب ، والتكريم والتحذير ، والتبشير والإنذار ، والتعليم والإرشاد .

وفى سورة الأحزاب آيات كريمة ، تحدثت عن كل ذلك بأسلوب حكيم ومنها قوله - تعالى - :

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٢٤ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعْكُمْ وَأُسْرِحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ .

ففى هاتين الآيتين يأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد فى زينة الحياة الدنيا وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : قال علماؤنا ، هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيداء النبى ﷺ وكان قد تأذى ببعض الزوجات ، قيل : سأله شيئا من عرض الدنيا ، وقيل : سأله زيادة فى النفقة .

روى البخارى ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى ﷺ جالسا حوله نساؤه .

قال فقال عمر ، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة - زوجة عمر - سألتنى النفقة فقلت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : «هن حولى كما ترى يسألننى النفقة» .

فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ماليس عنده .

فقلن : والله لانسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده .

ثم نزلت هاتان الآيتان ، فبدأ ﷺ بعائشة فقال لها : «يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أحب أن لاتعجلى فيه حتى تستشيرى أبوبك» .

قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها هاتين الآيتين ، فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت عائشة (١) .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، وكان تحته يومئذ تسع نساء ، خمس من قریش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة .

(١) تفسير القرطبي ج١٤ ص ١٦٣ .

وأربع من غير قریش - وهن : صفية بنت حیی النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية - رضى الله عنهن - .

وقال الإمام الألوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، مدحهن الله - تعالى - على ذلك ، إذ قال - سبحانه - : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ۗ ۝ ﴾ فقصره الله - تعالى - عليهن ، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .<sup>(١)</sup>

والمعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ اللاتي فى عصمتك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ .

أى : إن كنتم تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكَل ومشرب وملبس ، فوق ما أتت فيه عندى من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد فى زينتها .

إن كنتم تردن ذلك : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .

والمعنى : ما يعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعا ، وقد جعلها - سبحانه - حقا على المحسنين الذين يبنون رضا الله - تعالى - وحسن ثوابه .

والتسريح : إرسال الشئ ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه من بعض ، ويقال : سرح فلان الماشية ، إذ أرسلها لترعى .

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لأزواجك إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تستطعن الصبر على المعيشة معى ، فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترتضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه ، لأنى سأعطيكن ما هو فوق حقدكن .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَاترِدْنَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا تَرُدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ﴾ .

أى : وإنما تردن ثواب الله - تعالى - والبقاء مع رسوله ﷺ وإيثار شطف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .

إن كنتم تردن ذلك فاعلمن أن ﴿ اللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ ﴾ بسبب

إيمانهن وإحسانهن ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

(١) تفسير الألوسى ج ٢١ ص ١٨١ .

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى مافيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار .

٦ - ثم وجه - سبحانه - الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن في بيوتهن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ فقال - تعالى - :

يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ النَّبِيِّ مَنِ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ  
يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾  
\* وَمَنْ يَّقْنُ مِّنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وِتْعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ  
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾ يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ اسْتَنْ كَأَحَدٍ مِّنَ  
النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ  
وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٣﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ  
الْأُولَىٰ وَأَقْرْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا  
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٤﴾  
وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

ف قوله - سبحانه - : ﴿ يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ النَّبِيِّ مَنِ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ .. ﴾ نداء من الله - تعالى - لهن - على سبيل الوعظ والإرشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن ، والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال .

والمعنى : يا نساء النبي ﷺ من يأت منكم بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله - تعالى - لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما .

قال صاحب الكشاف : وإنما ضعف عذابهن ، لأن ما قبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل والمرتبة ، وليس لأحد من النساء ، مثل

فضل نساء النبي ﷺ ولا علي أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة ، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم أشد منه للعاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقيح .<sup>(١)</sup>

وقد روى عن زين العابدين بن علي بن الحسين - رضى الله عنهما - أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه ﷺ من أن لمسيثنا ضعفين من العذاب ، ولحسننا ضعفين من الأجر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن - رضى الله عنهن - لا تمتع من وقوع العذاب بهن في حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شيء .

هذا هو الجزاء في حالة ارتكابهن - على سبيل الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه ، أما في حالة طاعتهم ، فقد بين - سبحانه - جزاءهن بقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ .

والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - والخضوع والخشوع لذاته .

أى : ومن يقنت منكن - يا نساء النبي - لله - تعالى - ويلازم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله ﷺ وتعمل عملا صالحا .

من يفعل ذلك منكن ، نُؤْتِهَا أَجْرَهَا الذى تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا ﴾ أى : وهيانا لها زيادة على ذلك ﴿ رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وهكذا نرى أن الله - تعالى - قد ميز أمهات المؤمنين فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرهما ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرهما - أيضا - وذلك لعظم مكاتتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله ﷺ ما لا يشاهدهن غيرهن ، من سلوك كريم وتوجيه حكيم .

ثم وجه - سبحانه - إليهن نداء ثانيا فقال : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتَقِيْنَ ﴾ .

أى : يا نساء النبي ، لقد أعطاكم الله - تعالى - من الفضل ومن سمو المنزلة ما لم يعط

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٥٣٦ .

غيركن ، فأتنتن فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقتين الله - تعالى - وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن - سبحانه - عنه .

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ماوصلن إليه من منزلة كريمة ، هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله - تعالى - وليس بفضل شىء آخر .

ثم نهاهن - سبحانه - عن النطق بالكلام الذى يُطمع فيهن من فى قلبه نفاق وفجور فقال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ .

أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء معكن فإن من محاسن المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك لغير زوجها من الرجال .

وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات - عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة - لغير زوجها من الرجال - بطريقة لينة مثيرة للشهوات والغرائز تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع من لا خلاق لهم فيها .

ثم أرشدهن - سبحانه - إلى القول الذى يرضيه فقال : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ .

أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذى فى قلبه مرض فيكن ، وقلن قولاً حسناً محموداً ، وانطقن به بطريقة طبيعية بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم .

ثم أمرهن - سبحانه - بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ .

والمعنى : الزمّن يا نساء النبى ﷺ بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ، ومثلهن فى ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن فى مثل هذه الأمور هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن .

وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً وإنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة فى المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والأقارب ، وكقضاء مصالحهن التى لا تقضى إلا بهن ، بشرط أن يكون خروجهن مصحوباً بالتستر والاحتشام وعدم التبذل .

ولذا قال - سبحانه - بعد هذا الأمر ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ ﴾ مأخوذ من البرج - بفتح الباء والراء وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاء ، أى : متسعة ولا غطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار ما ينبغى ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع فى ذلك .

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى .

أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التى كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية .

ومنها قول قتادة : كانت المرأة فى الجاهلية تمشى مشية فيها تكسر .

ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وعنقها .

ويبدولنا أن التبرج المنهى عنه فى الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته .

والمعنى : الزمن يا نساء النبى بيوتكن ، فلاتخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة ، والوقار ، ولا تبدى إحداكن شيئا أمرها الله - تعالى - بستره وإخفائه ، واحذرن التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن ما يثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم إليهن .

ثم أتبع - سبحانه - هذا النهى بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن - عز وجل - فقال : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ﴾ أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ﴿ وَأَتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ التى فرضها الله - تعالى - عليكين ، وخص - سبحانه - هاتين الفريضتين بذلك من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .

﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : فى كل ما تأتين وتتركن ، لاسميا فيما أمرتن به ، ونهيتهن عنه .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات .

والرجس فى الأصل : يطلق على كل شىء مستقذر ، وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .

أى : إنما يريد الله - تعالى - بتلك الأوامر التى أمركن بها ، وبذلك النواهى التى نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ .. ﴾ هذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية .

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال : « إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت : ثم يتلو هذه الآية » . (١)

وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهن داخلات فى الآية ، بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت .

ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت ، قوله - تعالى - فى زوجة إبراهيم : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية فهو أحاديث جاءت عن النبى ﷺ أنه قال فى على وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم - : « إنكم أهل البيت » ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا .

وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى ﷺ لعلى وفاطمة والحسن والحسين .

فإن قيل : الضمير فى قوله : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ وفى قوله : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمُ تَطْهِيراً ﴾ ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبى ﷺ لقيل ليذهب عنكن ويطهركن؟ فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها .

ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل و باعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله - تعالى - فى موسى ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ وقوله : ﴿ سَاتِيكُمْ ﴾ والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث فى هذا المعنى

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة (١)  
 ثم ختم - سبحان - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله - عز وجل - : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي  
 بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ .

أى : واذكرون فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذكرون غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى  
 فى بيوتكن من آيات الله البنينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبى  
 ﷺ ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ .

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبى ﷺ وأفعاله  
 وتقريراته .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنهم - وقد خصهن الله - تعالى - بجعل بيوتهن موطننا  
 لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة - أحق بهذا التذكير ، وبالعامل الصالح من غيرهن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : لا يخفى عليه شىء من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم  
 ما فيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة .

٧ - وفى سورة الأحزاب - أيضا - آيات كريمة ، تحدثت عن جانب من مظاهر فضل الله  
 - تعالى - على نبيه محمد ﷺ ومن تكريمه له ، حيث خصه بأمر تتعلق بالزواج لم  
 يخص بها أحد سواه ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّاتِ اللَّاتِيَّاتِ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ  
 يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّاكِ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ  
 وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِيَّاتِ هَاجِرَاتٍ مَعَكَ وَأَمْرًا مُمُوتَةً إِنْ وَهَبْتَ  
 نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ  
 قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا  
 يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾ \* تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ  
 وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ بَنَاتِ مَنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ

(١) أضواء البيان ج٦ ص ٥٧٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله - .

أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَاءِ الْيَتِيمَيْنِ الَّتِي عَنْهُنَّ وَكَانَ اللَّهُ  
 يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ  
 مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْهُنَّ مِنْ أَنْزَلْتَ وَلَوْ أُعْجِبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ  
 يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

والمراد بالأجور في قوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ  
 أَجُورَهُنَّ ﴾ المهور التي دفعها - ﷺ - لأزواجه .

وفى قوله : ﴿ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمرأة دون إبقاء شيء  
 منه ، هو الأكمل والأفضل ، وأن تأخير شيء منه إنما هو أمر مستحدث لم يكن معروفا  
 عند السلف الصالح .

وأطلق على المهر أجر لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما  
 يقابل الأجر بالمنفعة .

وقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ بيان لنوع آخر مما أحله الله - تعالى -  
 لنبية ﷺ .

والمعنى : يأيها النبي إنا أحللنا لك - بفضلنا - على سبيل التكريم والتشريف ،  
 الاستمتاع بأزواج الكائنات عندك ، واللاتي أعطيتهن مهورهن - كعائشة وحفصة  
 وغيرهما - لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها .

كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللاتي دخلن في ملكك عن طريق  
 الغنيمة في الحرب ، كصفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث .

ثم بين - سبحانه - نوعا ثالثا - أحله - سبحانه - له فقال : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ  
 عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ .

أى : وأحللنا لك - أيضا الزواج بالنساء اللاتي تربطك بهن قرابة من جهة الأب ، أو  
 قرابة من جهة الأم .

وقوله : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ إشارة إلى ما هو أفضل ، ولإيدان بشرف الهجرة  
 وشرف من هاجر .

ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من النساء ، أحله لنبيه ﷺ فقال : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والمعنى وأحللنا لك كذلك امرأة ، إن ملكتك نفسها بدون مهر ، وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك ، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين ، لأن غيرك من المؤمنين لا تحل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولي ومهر .

وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له ﷺ خولة بنت حكيم ، وأم شريك بنت جابر وليلى بنت الحطيم .

وقد اختلف العلماء فى كونه ﷺ قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا ؟

والأرجح أنه ﷺ لم يتزوج بواحدة منهن ، وإنما زوجهن لغيره ، ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي ، أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك ، فقامت قياما طويلا فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : هل عندك من شىء تصدقها إياه؟ فقال : ما عندي إلا إزارى هذا ، فقال - ﷺ - : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئا ، فقال : لا أجد شيئا ، فقال التمس ولو خاتما من حديد ، فقام الرجل فلم يجد شيئا ، فقال له النبي ﷺ : هل معك من القرآن شىء؟ قال نعم : سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ زوجتكها بما معك من القرآن .<sup>(١)</sup>

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال فى الآية الكريمة ، الإذن العام والتوسعة عليه ﷺ فى الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له فى أن يختار منهن من تقتضى الحكمة الزواج منها ، واختصاصه ﷺ بأمور تتعلق بالنكاح ، لا تحل لأحد سواه .

ولهذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه ﷺ بأمور فى النكاح لا تحل لغيره ، كحل زواجه ممن تهبه نفسها بدون مهر ، إن قبل ذلك العرض منها .

أى : هذا الذى أحلناه لك - أيها الرسول الكريم - هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإحلال بها ، كما لا يجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله - تعالى - به ،

(١) صحيح البخارى ج٧ ص ١٧ من كتاب النكاح .

على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .

وعلمنا - أيضا - ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيانهم ، من كونهن ممن يجوز سببه وحره ، لا ممن لا يجوز سببه ، أو كان له عهد مع المسلمين .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أَحَلَّلْنَا ﴾ وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى :

أحللنا من أتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات والأقارب والواهبه نفسها لك ، لندفع عنك الضيق والخرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه .

وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكي لا يكون عليك حرج في البحث عنه .

ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بينا من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما تفعله هو بوحى منا وليس من عند نفسك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : وكان الله - تعالى - وما يزال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وقوله - عز وجل - : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ شروع فى بيان جانب آخر من التوسعة التى وسعها - سبحانه - لنبيه ﷺ فى معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء .

وقوله : ﴿ تُرْجِي ﴾ من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية ، وقرئ مهموزا وغير مهموز ، تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ونحيته جانبا ، حتى يحين موعده المناسب .

وقوله : ﴿ وَتُؤْوِي ﴾ من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أى : ضمه إليه وقربه .

والضمير فى قوله : ﴿ مِنْهُنَّ ﴾ يعود إلى زوجاته - ﷺ - اللاتى كن فى عصمته .

أى : لقد وسعنا عليك - أيها الرسول الكريم - فى معاشرتنا نسائك ، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن ، وأن تضم إليك من شئت منهن ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن ، كما هو الشأن بالنسبة لاتباعك حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيوتة ، وما يشبهها .

ومع هذا التكريم من الله - تعالى - لنبية إلا أنه ﷺ كان يقسم بينهن إلى أن لحق بربه عدا السيدة سودة ، فإنها قد وهبت ليلتها لعائشة .

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من تشاء منهن .

ف قيل لها : ما كنت تقولين؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا .<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ زيادة فى التوسعة عليه ﷺ وفى ترك الأمر لإرادته واختياره .

أى : أبحننا لك - أيها الرسول الكريم - أن تقسم بين نساءك وأن تترك القسمة بينهن وأبحننا لك - أيضا - أن تعود فى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذ لاحرج عليك فى كل ذلك ، بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك .

فلا ابتغاء بمعنى الطلب ، وعزلت بمعنى اجتنبت واعتزلت وابتعدت ، ﴿ وَمِنْ ﴾ شرطية وجوابها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى : فلا حرج ولا إثم عليك فى عدم القسمة بين أزواجك وفى طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها .

قال الشوكانى : والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله ﷺ كى يصنع مع زوجاته ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء فى أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للخرج عنه .<sup>(٢)</sup>

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ ﴾ يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبى ﷺ .

وأدنى بمعنى أقرب ، ﴿ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ ﴾ كناية عن تقبل ما يفعله معهن برضا وارتياح نفس ، يقال قرأت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحْزَنَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنْ تَقْرَأَ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَرْضَيْنَ ﴾ معطوف عليه - أيضا - .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٣٧ .

(٢) تفسير فتح القدير ج٦ ص ٢٩٣ .

والمعنى ، ذلك الذى شرعناه لك من تفويض الأمر إليك فى شأن أزواجك ، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحى من الله - تعالى - وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن فى القسم والبيتوتة والمجامعة أم لم تسو .

قال القرطبي : قال قتادة وغيره : أى ذلك التخيير الذى خيرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا - لا من عندك ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين .

وكان ﷺ مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن ، تطيبا لقلوبهن ويقول : «اللهم هذه قدرتى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» . (١)

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ خطاب للنبي ﷺ ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات .

أى : والله - تعالى - يعلم ما فى قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شىء ومن عدم الميل إلى شىء آخر .

قال صاحب الكشاف : وفى هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله - تعالى - من ذلك ، وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافى بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ وما فيه من طيب نفسه . (٢)

﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ عَلِيمًا ﴾ بكل ما تظهره القلوب وما تسره ﴿ حَلِيمًا ﴾ حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم .

ثم كرم - سبحانه - أمهات المؤمنين بعد تكريمه لنبيه ﷺ فقال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ . . ﴾ .

أى : لا يحل لك - أيها الرسول الكريم - أن تتزوج بنساء أخريات من بعد التسع اللائي فى عصمت اليوم ، لأنهن قد اخترتك وأثرتك على زينة الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعشن معك وتحت رعايتك ، مهما كان فى حياتك معهن من شظف العيش والزهد فى متع الدنيا .

(١) تفسير القرطبي ج١٤ ص ٢١٦ .

(٢) تيسير الكشاف ج٣ ص ٥٥٢ .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك ، كما لا يحل لك - أيضا - أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نساك اللائى فى عصمتك عند نزول هذه الآية .

فالآية الكريمة قد اشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير التسع اللائى كن فى عصمتك عند نزولها ، والثانى : حرمة تطلق واحدة منهن ، للزواج بأخرى بدلها .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثناء من هذا الحكم ، أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا استبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك أن تضيف إليهن ما شئت من النساء اللائى تملكهن عن طريق السبى .

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضا الله عنهن على حسن صنعهم ، فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم ، فلما اخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسراير ، فلا حرج عليه فيهن .

والنساء التسع اللائى حرم الله - تعالى - على نبيه ﷺ الزيادة عليهن ، والاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حبي بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث . (١)

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا ﴾ .

أى : وكان الله - تعالى - وما يزال ، مطلعاً على كل شىء من أحوالكم - أيها الناس ، فاحذروا أن تتجاوزوا ما حده الله - تعالى لكم لأن هذا التجاوز يؤدي إلى عدم رضا الله - سبحانه - عنكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت ألواناً متعددة من مظاهر تكريم الله - تعالى - لنبيه ﷺ ومن توسعته عليه فى شأن أزواجه ، وفى شأن ما أحله له من عدم التقيد فى القسم بينهن ، وفى تقديم أو تأخير من شاء منهن .

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص ٤٣٨ .

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريماً عظيماً لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

وبعد : فهذه نماذج مشرقة من قصص القرآن الكريم ، بدأناها بقصة أبى البشر آدم - عليه السلام - وختمناها بجوانب من قصة أفضل الخلق على الإطلاق ألا وهو سيدنا محمد رسول الله ووسطناها بقصص الرسل الكرام الذين جاءوا بين أولهم وخاتمهم ، والذين أرسلهم الله - تعالى - مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وذكرنا فى أعقاب الحديث عنهم قصصاً أخرى ، ساقها القرآن الكريم لقوم من المؤمنين الصادقين ، ولآخرين من الجاحدين الجاهلين .

وفى كل ذلك عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين وبشرى للصابرين .

وصدق الله إذ يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي

بَيْن يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

كتبه الراجى عفوريه

أ.د. محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر